قاسم محمد سويدان

تاريخ ملكات الشرق

تقديم ومراجعة
أ.د. محمد محفل
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق


تاريخ ملكات الشرق

❖ الكتاب: تاريخ ملكات الشرق

❖ The History of the Queens of the East

❖ المؤلف: قاسم محمد سويدان (kassem4015@yahoo.com)

❖ تقديم ومراجعة: أ. د. محمد محفل

الطبعة الأولى 2014

ISBN: 978-9933-480-41-7

الناشر

دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق – سوريا – هاتف 2237411 11 00963

توزيع



دار نور حوران

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق - سوريا - ص. ب 5658

هاتف: 0096315715430 فاكس: 00963157198425

جوال: 00963933329555 - 00963941329555

E-MAIL: NOURPUBLISHING@GMAIL.COM

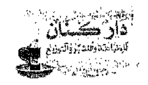


تأليف

قاسم محمد سويدان

تقديم ومراجعة

أ.د. محمد محفل



المحتوى

استهلال

"تاريخ ملكات الشرق" شعارٌ أو بالأحرى عنوانٌ لطيفٌ وجذابٌ وملتبسٌ في الوقت نفسه، وضعه الباحث قاسم محمد سويدان لدراسته الشيقة، حيث جاءنا بأخبار ونوادر نساء من بلادنا، لعبنَ دوراً بارزاً في قيادة وتقرير مصائر أوطانهن عبر العصور؛ من بلقيس اليمنية وسميراميس الآشورية فإليسا الصورية القرطاجية وكليوبترا المصرية البطلمية وجوليا دومنا السورية / الرومانية وزنوبيا العربية التدمرية وانتهاءً بماوية العربية التنوخية... والجديد المبتكر في اجتهاد السيد سويدان هو النقيض لما جاء من نكت وأمثال سائرة ومهازئ في موروثنا الجمعي؛ تقدح في سيرة النساء وتحط من قدر المرأة والزوجة.. الخ... وهو أمرٌ لم يكن سائغاً في ثقافتنا العربية الإسلامية، قبل عصر، كَثُرَ فيه الإماء والجواري، مما ساهم في امتهان منزلة المرأة، إن كان في حياة الأسرة أو في سائر ميادين المجتمع، لاسيما منذ العصر العباسي، مع الخيزران البربرية التي ساهمت في قتل ابنها الهادي لصالح شقيقه الرشيد، ثم الصراع بين الأمين والمأمون ودور زبيدة العربية أم الأمين ومراجل الخراسانية الفارسية[1] والدة المأمون... وهنا راح دور المرأة الحُرّة يتراجع، ولذلك ليس من عجيب الأمر أن يستهجن المستعصم آخر خليفة عباسي (640-656 هـ/1242-1258م)، أمر (شجر الدر) التي خلفت زوجها نجم الدين أيوب بعد وفاته، فراحت تدير شؤون المُلك... ونقُلَ عن المستعصم قوله "ماذا!!..هل خَلت البلاد من الرجال؟!.."مما اضطرها أن تقترن بأول سلاطين المماليك البحريين (عز الدين أيبك)، قبل أن تتآمر على اغتياله، لتلاقي على إثر ذلك ذات المصير على أيدي جواري عزالدين أيبك...

من يطالع (موسوعة حلب المقارنة)، للأستاذ المرحوم خير الدين الأسدي، طبع جامعة حلب، 7 أجزاء، نقول من يتفحّص بعض عناوين رائعة علامة حلب"الأسدي"، وقد كان استاذ جيل، فأتقنَ اللغات: العربية والفرنسية والتركية والفارسية، كما أنه ألمّ ببعض جوانب الآرامية والسريانية وأسعدنا العمل معه في قراءة بعض صفحات كتابنا"المدخل إلى اللغة الآرامية"، نقول قد يستغرب البعض ما جاء في سفره من نوادر وروايات ولواذع تنال من بعض أفراد المجتمع كالمعلمين والقضاة ورجال السلطة... والنساء أيضاً... وهنا نستعجل قائلين، إن صاحب الموسوعة الأسدي ليس من أعداء المرأة ومن مُبغضي النساء – وحنوه على والدته التي هجرها زوجها– قد يكون أحد اسباب عزوبته، هو دَليل احترامه الجنس الآخر، وقد عرفناه بمفكرته الجاهزة في كشكوله لالتقاط وتسجيل مايسمعه من الغادي والداني والقريب فالبعيد.. وها هي ما التقطناه من روايات في باب المرأة/النساء:

---

[1] – مراجل هي من مواليد (باذغيس) في إقليم خراسان، انظر **الروض المعطار** للحِميَري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة ثانية 1984، صفحة 74.

ـ الحب وردة والمرا (المرأة) شوكتها.
ـ المرا فاقوسة إبليس.
ـ إذا أردت أن تفضح سرَك سَلمُو (سَلمْه) لمرا (لامرأة).
ـ صَاحِبْ من الحكومة لا تَاخُد (تأخذ) وسرَك لمرتك لا تعطيه.
ـ المرا رَيتْ تور (ثور) ما فَلَحْ ورَيتْ كلب ما نَبح.
ـ البيَعطَي (الذي يُعْطي) إدنو (أذنَه) لمرتو يتْعَب (يتعب).
ـ النسوان شياطين الجيوب.
ـ الرجال عند أغراضن (أغراضهم/ حاجاتهم) نسوان (أي ضعفاء/ أذلاء).

ما رأيناه أعلاه، قد يبدو يسيراً إذا ما قارناه بما جاء لدى غيرنا من الأقوام والأمم عبر العصور.

يقول الشاعر[1] الإنكليزي الكفيف جون ملْتون Milton (1608-1674) في تصنيفه (الفردوس المفقود: **Lost Paradise**): " خُلِقَ الرَجلُ ليعبدَ الله والمرأة لتخضعَ لمشيئة الرجل". ولدى الفيلسوف الألماني شوبنهاور (1788-1860) صاحب مذهب التشاؤم، "فالمرأة هي حيوان بشعر طويل وفكر سقيم".

ونقرأ في (سفر الجامعة 26/7: 27)، المنسوب للملك سليمان: " (26) فَجُلْتُ بقلبي لأعلمَ وأبحثَ لألتَمسَ الحكمةَ وحقيقةَ الأمور ولأعلَمَ نفاقَ الجُهَال وجُنونَ الحمقى (27) فوجدتُ أنَ ما هو أمَرُ مَن الموت المرأةُ التي قَلبُها أُحبولةٌ وشبكةٌ ويداها قُيودٌ. من كان صالحاً أمام الله ينجو منها وأمَا الخاطئُ فَيُقْتَنَصُ بها". قد يَظُنُ أحدُهم أنَ المقصودَ بذلك امرأة مُحَدَدة بذاتها، قبل أن يتابع في الفقرات التالية: ".. (29) التي لم تَزل نفسي تطلبها ولم أجدْها. إني وَجَدْتُ رجلاً واحداً بين ألف وامرأةً واحدةً بين أولئك كُلَهنَ لم أجدْ". إنَ لفي هذا الأمر المنسوب للملك سليمان التوراتي أحجية تغيب عن أبصار وبصائر بني البشر!!..

ولدينا مَثلٌ فرنسيٌ[2] غريبٌ يقول: " ما ترغبه المرأة، فاللهُ يباركه"، إذ لا ندري هل هو في باب القدح والذم أم المدح؟!!...

وها هو يهوه يُنَددُ بالإسرائيليين لأن الأولاد والنساء يقودون شعبه إلى الهاوية: (أشعيا 12/3): "شَعْبي مُسَخَروه – طُغَاته – أولاد والنساء يتسلَطن عليه. يا شعبي، إن مرشديكَ هم يُضلونَكَ وَيُفسدونَ طريقَ مذاهبكَ".

وجَاء في حكمَ فيثا غوراس (انظر: **La Femme et le Communisme**, ed. Sociales, Paris, P.21: المرأة والشيوعية): " للكون عُنصران: الخيرُ ونَتَج عنه النظام/ الترتيب والنور والرجل، والشرير ومنه الخواء والظُلُمَات والمرأة". ويقول الخطيب اليوناني الشهير، وعدو الملك فيليب، ملك مقدونيَة ووالد الاسكندر: "يتزوج المرء ليضمن أولاداً

---

[1] – Milton, Lost Paradise: Man was made for God and Woman was made for Man.
[2] - Ce que Femme veut, Dieu le veut.

شرعيين ومحظيات للعناية به، وعاهرات للذات الجسد.. وهو الأثيني ديموستينس Demosthenes (384-332ق.م).. وحتى أغلب الفلاسفة الإغريق كأفلاطون وأرسطو وكذلك الكُتاب المسرحيون كأرسطوفانس، فلا نراهم يضعون المرأة في المنزلة الجديرة بها، بل لا يتورعون من الهزء بها والنيل من سيرتها وخُلقها.

أما بالنسبة لروما، فلم يكن وضع المرأة أفضل مما كان عليه في العالم الإغريقي؛ فمن يطالع "اسفار السخرية والهجاء **Epigrammaton Liberi** " للشاعر اللاتيني مرتياليس Martialis (40؟-104م)، الإسباني المحتد، تبرز في خطوطها الرئيسية شتى صور الحياة الاجتماعية، بجماعاتها الحرفية وفئاتها ومناصبها الإدارية وسائر أفراد المجتمع، ولا يهمل صاحبنا أخلاق وطبائع وشيم ورذائل أهل روما بوجه خاص وإيطالية على العموم... وبالنسبة للمرأة، فنتردّد في هذا المقام، أن نسرد سلسلة من الرذائل التي يلصقها صاحبنا بالمرأة الرومانية ونربأ بأنفسنا أن نستشهد بما يزخر الكتاب بالقبائح التي تُلطخُ سمعة نساء روما... وها هنا يتراءى الشاعر المخضرم (الحُطيئة) وخلفه (بشار بن برد) من الأغرار على الرغم مما عُرف عنهما من التهكم والعبث والهجاء، بالمقارنة مع مرتياليس الفاضح، الذي لاقى أجملَ الترحيب في الأوساط الرومانية المتنفذة وفي مقدمتهم الامبراطور الشرس دوميتيانوس (81-96م)، مما شَجّع الشاعر مرتياليس على إهداء الطاغية بعض "مآثره الأدبية؟!".

ولاقى دوميتيانوس حتفه على يد زوجته، وقد سهّل لها المُهمة بعض أعوان البلاط... كان ذلك قبل عصر السلالة السورية (193- 235) م حيث لمَعَ نجمُ (يُوليا دُمنا / جوليا دومنا) إحدى بطلات سفر السيد سَويدان.

وفي الغرب المعاصر، نجد البعض لا يختلف كثيراً عما كان عليه الأمر في العالمين الإغريقي والروماني. وها هو " معجم تنويهات (أقوال مأثورة)، فرنسية، لاروس، باريس/ **Dictionnaire des Citations Françaises** Larousse, Paris 1998"، نأتي على ذكر التنويه وصاحبه والصفحة والرقم. يقول الشاعر الفرنسي بُودلرBaudelaire[1] (1821-1867) الشهير بكتابه (أزهار الشر **Les Fleurs du Mal**)، الصفحة 88/54: "أدهشني دائماً سماحهم للنساء دخول الكنائس، فأيّةُ محادثة بإمكانهن أن يقيمونها مع الله"؟ ويضيف الشاعر الفرنسي الهزلي موليير Molière[2] (1622-1673)، (الصفحة 396/ 51) من المصدر السابق نفسه: " ليس من المناسب ولعدة أسباب أن تتَعلَم المرأة وتطّلع على العديد من الأمور".

أما الكاتب المسرحي والممثل السينمائي الفرنسي ساشا غيتري[3] Guitry Sasha

[1] -Baudelaire: J'ai toujours été étonné qu'on laissât les femmes entrer dans les églises
Quelle conversation peuvent-elles tenir avec Dieu?
[2] - Molière: Il n'est pas bien honnête et pour beaucoup de choses
Q' une femme étudie et sache tant de choses
[3] – Sasha Guitry: On met la femme au singulier quand on a du bien à en dire, et on en parle au pluriel sitôt qu'elle vous a fait quelque méchanceté.

(1885-1957)، فَيُصَرِّحُ (في الصفحة 8/253): " إنَّا نشير إلى المرأة بالمفرد في باب المديح وبالجمع "النساء" مَا أن تُلْحَق بنا أذيةٌ ما".

وقد عُرِف غيتيري بسخريته وتهكمه، حيث يقول[1] (الصفحة 16/254): ".. أعترفُ بطيبة خاطرٍ ان النساء متفوقات على الرجال، إن كان ذلك يثنيهن عن الادعاء بأنهنَّ نظائر الرجال".

وها هو الاشتراكي الفرنسي برودون Proudhon [2] (1809-1865) يقول (في الصفحة 5/462): " من الممكن أن يكون الرجل والمرأة متساويين أمام الخالق، ولكنهما ليسا ندّين قط، ولا يمكن أن يصبحا كذلك لا في الأسرة ولا في الدولة"، مع العلم أن برودونَ كان اشتراكي النزعة، علماني الهوى.

ونختم بهذه " التنويهات/الأقوال المأثورة" بـ"حكمة " للكاتب الفرنسي برناردن دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre (1737-1814) وقد جاء التنويه في روايته "بول وفرجيني" (الصفحة72/82-1): "يسوء سلوك النساء في بلادٍ رجالها طُغاة. فحيثما ساد العنفُ تجد الخديعة".

قد يُفَسر قول برناردن دوسان بيير[3] هذا، بعض ما جاء أعلاه من شوائب ألصقوها بالنساء عبر العصور. ولعل برناردن قد استذكر في حكمته تلك رواية الإنجيل وجواب السيد المسيح لأولئك الذين كانوا يُحرضونَ على رجم المرأة الخاطئة، (يوحنا 7/8): "... من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ وَيَرمِهَا بحجر".

ونجد أيضاً صدى لتلك الحادثةَ لدى الشاعر الفرنسي الأكبر فيكتور هوغو Victor Hugo[4] (1802-1885) في الصفحة 26/261 من تنويهات معجم لاروس حيث قال: "آه! لا تشتموا أبداً امرأةً قد زلت ! فمن يدري تحت أي ثقل ترزح تلك النفس المسكينة".

وفي خطابنا العربي المعاصر فنقتصر على الإشارة إلى كُتابين لعلمَين عربيين سوريين، يَنِمُّ منهجهما عن مفهومين نقيضين لدور المرأة في الأسرة والمجتمع. وقد أدركنا الشخصيتين بل عايشناهما. والعلم الأول هو أستاذنا المرحوم محمد سعيد الأفغاني (1327-1417هـ/1909-1997) الذي درسنا عليه أصول الصرف والنحو في صف الثقافة العامة في كلية الآداب في (الجامعة السورية/ دمشق لاحقاً) عام 1949-1950، وقد أفدنا من علمه، مع زميله الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسي، أستاذ الأدب العربي، رحم الله شيوخنا.

---

(1) – Idem: Je conviendrais bien volontiers que les femmes nous sont supérieures, si cela pouvait les dissuader de se prétendre nos égales.

(2) – Proudhon: L'homme et la femme peuvent être équivalents devant l'Absolu: ils ne sont point égaux, ils ne peuvent pas l'être, ni dans la famille ni dans la cité.

(3) – Bernardin de Saint -Pierre: Les femmes sont fausses dans les pays où les hommes sont tyrans. Partout la violence produit la ruse.

(4) - Victor Hugo: Oh! n' insultez jamais une pauvre femme qui tombe!:
Qui sait sous quelle fardeau la pauvre âme succombe

والشخصية الثانية هي المرحومة الدكتورة ليلى الصباغ، زميلتنا في قسم التاريخ (جامعة دمشق) وثم في مجمع اللغة العربية (دمشق)، وقد افتقدناها منذ بضعة شهور، رحمها الله.

وما يخص الأستاذ الأفغاني فهو كتابه، عائشة والسياسة، وللكتاب عدة طبعات، الأولى منها كانت في القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر لعام 1367هـ/1947م، والرابعة، وهي التي بحيازتنا، طبع دار البشائر بدمشق لعام 1431هـ/ 2010 م. ومُؤَلَف الدكتورة صباغ هو: المرأة في التاريخ العربي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1975.

يقول الأستاذ الأفغاني في باب "المرأة والسياسة"، (الصفحة21): " الحكم في هذه القضية لسُنة الله في المرأة، وما فطرها الله عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية، خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويرها في تركيب الدماغ وبنية خلاياه، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء، فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه.

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية، اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تُعنى دائماً بالتمييز الدقيق، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال، وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خُلقَ له. وكلُ مجتمع يحاول بُنَاته إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين فمصيره إلى الاضطراب والفساد. لأنَ في ذلك ثورة على الطبيعة، وما كان ثورةً على الطبيعة فمنه الضرر كل الضرر، ولا يُرجى له دوامٌ، وإن خُيِلَ لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم، أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه. والطبيعة في هذا حكمُها واحدٌ لا يختلف باختلاف الأمم، ولا باختلاف الأعصار والأمصار، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً، ولا بتباين الأفراد تربيةً وثقافةً".

ويتابع الأستاذ الأفغاني (صفحة 22): ".. ولأي مثقف كان أن يسرد ما في حفظه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مُدَبِرات مُلك أو نائبات في المجالس... الخ ثم يستقري أحوالهنَ واحدةً واحدةً، ويُمعن فيما حَفَ بِهن، فسيدرك أن أكثرهن مسيئات بتصرفهن، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب".

وفي (الصفحة 24): " وليس تاريخ العرب ببدعٍ في تواريخ الأمم، فالحكم واحدٌ... فحيث رأيتَ انحطاطاً في إداراتنا، أو تقهقراً في سياستنا، أو انحلالاً في مجتمعنا، فَفَتش ثمة عن المرأة".

قد نجد عذراً لأستاذنا الأفغاني في قوله، فهذا الكتاب طُبِعَ لأول مرة عام 1947، أي بعد سنة واحدة من نهاية تأليفه عام 1946، وعمر الأستاذ كان 37 سنة فقط.. رحم الله أستاذنا، الذي يقول (صفحة 6): " أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، وما أنا بشيءٍ أفرح مني بخطأ ينبهني إليه مخلص حصيف فأرجع عنه... الخير أن يجعل المرء عقيدته في هذه

المسائل- بعد بذل الجهد بإخلاص- مذهباً شخصياً يحتمل الخطأ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين: الإخلاص بالبحث، وما يقضي به العقل الحر من الحكم بعد بذل الجهد، والتجرد من كل عصبية.

رحم الله شيوخنا...

وبالنسبة لكتاب الدكتورة صباغ " المرأة في التاريخ العربي"- في تاريخ العرب قبل الإسلام- فموضوعه ومنهجه هما على النقيض مما رأيناه في كتاب الأستاذ الأفغاني. ولقد أوردت الباحثة من أسماء الأعلام- النساء- أغلبهن قبل الإسلام وفي عدادهن بعض أعلام كتاب السيد سويدان، إذ جاء (في صفحة 11): "...فالمرأة في التاريخ العربي، أو في تاريخ أي مجتمع، عنصر "مُكَوِّنٌ" فيه، وهي في تحركها أو جمودها "علاقات" منتشرة ومتينة في جميع جنباته الظاهرة والخفية، وفي تكوينه وحركته، شانها في ذلك شأن الرجل الذي هو العنصر الثاني المكوِّن فيه. ولذا من غير الطبيعي، إن لم يكن من المستحيل، عزل سيرتها في هذا المجتمع، أو تأطيرها ضمن حدودٍ معينةٍ لا تجاوز فيها. وحالها في حال الرجل سواء بسواء...".

حَرِيٌّ بنا، كباحثين في ميدان التاريخ - وبخاصة القديم منه - ونحن امام هذا "القياس الأقرن" بل أكثر من ذلك، هذه المعضلة، أو كما يقولون " برهاناً ذا حدين"... لا بأس أن نجتهد وندلي بدلونا بين الدلاء... إذ في البدء كانت المرأة أو بالأحرى "نظام الأمومة" قبل الرجل "ونظام الأسرة الأبوية"... ففي نهاية العصر الحجري الوسيط كان نظام المشاعية البدائية ما زال قائماً، حيث ملكية وسائل الانتاج كانت مشاعاً لجميع افراد الجماعة - ولا نقول المجتمع - وهي وسائل بدائية، مما اضطر بشر تلك الفترة للعمل سوية لتأمين معاشهم، فالعمل جماعي ولا قيمة للفرد أمام "قوة الجماعة"، وعلاقات الذكر بالأنثى كانت جماعية، وهذا ما عُرِفَ في علم الاجتماع المعاصر "المزاوجة الجماعية" حيث يتم تزاوج مجموعة من الرجال مع مجموعة من النساء، وكان الولد ينسب إلى أمه، وهذا ما عُرِفَ باسم Matriarcat وهو اسم مركب من اللاتينية (Mater/ الأم)، و(Arche اليونانية/ قيادة)، حيث لعبت المرأة دوراً كبيراً في الاقتصاد وشؤون إدارة شؤون المجموعة، قبل أن يأتي دور (نظام الأبوة Patriarcat) من (Pater اللاتينية/ أب) و (Arche اليونانية/سلطة- قيادة)، وذلك مع الاستقرار وممارسة الزراعة وتربية المواشي، والدفاع عن الجماعة وصد هجمات المغيرين، فبرز دور الرجل كفلاح وصاحب قطعان من الماشية ومحارب يغير على الأعداء ويحصل على الأسرى (العبيد والإماء)، راح دور المرأة يتقهقر في الاقتصاد مع الرقيق الذي وَجَّهَ ضربة كبيرة لدورها الاقتصادي القديم، وكذلك لدور المرأة في المجتمع الذي راح ينحسر مع الإماء، اللواتي زاحمن زوجة (عصر الأمومة)... ومع ازدياد سلطة (الرجل/ الأب) ازدادت ثروته ونشأ مفهوم الإرث، حيث راح (السيد / الزعيم) يود أن يتعرف على أولاده ليميِّزهم عن أولاد " الزوجة القديمة في عصر الأمومة" ليترك لهم أو ليورثهم سلطاته وأملاكه...

قُهرت المرأة وفقدت إعطاء اسمها لأولادها... وراحت مكانتها تتضاءل إن كان في الحياة الاقتصادية أو في مجال العلاقات الإنسانية، في مثلث (الأب- الأم - الأولاد).. لقد حل العبيد/الذكور محلها في نطاق الانتاج الزراعي وزاحمتها الإماء في منزلتها كزوجة... وبتوالي السنين... انحنى شموخ المرأة مع طغيان " الرجل" السيد... صاحب الأملاك والضياع والعبيد والإماء... انزوت "المرأة - الزوجة"، ولكنها لم تستسلم... وأول كائن قُدسَ هو "الالهة - الأم" التي استطالت قدسيتها ومنزلتها في العديد من ظواهر ومظاهر الحَياة الاجتماعية والأساطير والمعتقدات الدينية وأخلاق البشر، ومن هنا ربات الحضارات القديمة شرقاً وغرباً: ننخورسانجا السومرية (سيدة الجبال) وأرورو خالقة (أنكيدو) في ملحمة جلجامش و(بلت ايلي) الأكَدية "سيدة الآلهة"؛ وعشتار الأكدية وعناة إلهة الخصب الكنعانية مع اللات التي يختلط اسمها مع عشتارة وكان العرب يعتبرونها مع عناة والعُزَى (قصة الغرانيق)، ثم ربَةُ الحب بأسمائها المختلفة (عشتار الأكدية- البابلية- العربية) و(مايا الهندية) و(أناهيت الفارسية) و (أفروديت اليونانية التي يقابلها في روما فينوس إلهة الحب والجمال) ... وهل ننسى دور الكاهنات والساحرات والعرافات... الخ. وهذا غيض من فيض... ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى أن الإسلام نظر نظرة سامية إلى المرأة إذ وصفها في خطابه على سوية واحدة مع الرجل ما عدا الميراث والشهادة، وخاطب الاثنين في الإيمان والعقيدة وفي الحساب دون تمييز- وعلى سبيل المثال لا الحصر- قال تعالى في سورة الأحزاب، الآية 34: "إنَ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً" . وفي الحديث الصحيح: " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارهم لنسائهم" (رياض الصالحين، رقم 276). والأمثلة على تقدير المرأة واحترامها وحقوقها وإسهامها في الدعوة والإسلام الأول كثيرة وواضحة... وقد قالوا: في الجسم السليم العقل سليم.. وفي مجتمع متوازن سليم تجد المرأة أقرب إلى التوازن والسلامة... وتسقط حينئذ مختلف الترهات والخرافات والتوافه والسخافات... ومن هنا وجب علينا أن نشكر الباحث سويدان على جهده واجتهاده في دراسته "تاريخ ملكات الشرق "، وقد رفع قدر المرأة: الوالدة والأخت والزوجة والابنة... إضافة لجميل صنعه في إلقاء الأضواء على "نساء" من بلادنا، لعبن أدواراً ساطعة في مجتمعات وطننا العربي عبر العصور.

أ. د. محمد محفل
عضو مجمع اللغة العربية (دمشق)
دمشق الشام، 1 شوال 1434/9 آب 2013

مقدمة المؤلف

لمّا أنهي إلى معاوية بن أبي سفيان وهو والٍ على الشام والقتال قائم في صفين بينه وبين الإمام علي (رض) أنّ هرقل ملك الروم في القسطنطينية يستعد لغزو ثغور الشام الشمالية، كتب الرسالة القصيرة التالية وأرسلها إلى هرقل: ".. تالله لأن أتممت عليّ ما بلغني من عزمك على غزو صاحبي (يقصد علي) لأكوننَ في مقدمة جيشه إليك، ولأحرقنَ القسطنينية البحراء ولأجعلنها حممة سوداء، ولأنتزعنَك انتزاع الإصفلينة (الجزرة) من الأرض، ولأجعلنك أريساً (فلاحاً) من الأرارسة ترعى الدّبل (الخنازير). فلما قرأ هرقل الرسالة فكرَ وقدرَ أن يعقد مجلسه لمناقشة ما جاء في الرسالة واتخاذ قرار بشأنها. وبعد تشاور ومناقشات مع أعضاء مجلسه قررأن يلغي خطة غزوه ليقينه بأنَ معاوية سيفعلها ويوقف الحرب مع علي ويكون في مقدمة جيش الخليفة لمواجهته.

إنَ للأمم آجالاً وأجل كل أمة يوم تفقد هويتها وحريتها وكرامة شعبها، والأمة الشجاعة والقلوب الكبيرة تصبر على الجوع والحرمان والقلة أكثر من صبرها على الهوان والخنوع والمذلة، كما يمكنها التغلب على الكبرياء الشخصي لولاة أمورها حينما لا يخدم هذا الكبرياء هويتها وحريتها ومصالحها الجمعية. فإنما يُخضع الكثرة للقلة ضعف الروح وسقوط الهمة وقلة النخوة. وما من أمة استطاعت النهوض بدون أن تكوى بنار الألم والمصاعب والمحن، ومصدر قوة الأمم شعورها بذاتها وهويتها وبأنها على حق، وبأنها تحمل طموحات وقيماً جمعية ورسالة حضارية، وأنها عازمة على العيش الحر الكريم. وقديماً قالت العرب: الحق رداؤه القوة، فإذا أراد الحق الاّ يُزدرى، عليه ألاّ يتعرى.

أثقلت الحضارات الغابرة في بلدان المشرق، ومنه العالم العربي، بتاريخ محتشد بالطوائف والإثنيات والانتماءات التي أغنت مسيرته على مر العصور والأجيال. ومن أجل أن يتطور هذا الجزء من العالم عليه أن يطرح صيغ الحكم الجبرية جانباً ويصهر مكونات غناه الحضاري برؤيا الحضارة الحديثة في التقدم الاجتماعي والتنظيمي بكل مكوناتها الديمقراطية والثقافية والتفاعلية والاقتصادية، وفي المشاركة الشعبية العريضة وتداول السلطة وحق المواطنة، بديلاً عن الرؤيا الخرافية للوجود والتاريخ والفردانية.

وليس جديداً الدور الذي تلعبه منطقتنا، فقد لعبته على مر العصور والأزمان، ومن يسيطر على هذه المنطقة الواسعة يضمن الأولوية في التاثير بالعالم إن لم يكن التحكم فيه. هكذا كان الأمر مع الدول التي حكمت بين النهرين وبلاد الشام ومصر القديمة وامبراطورية الاسكندر وروما وبيزنطة وفارس والمسلمين العرب وهولاكو والعثمانيين والاستعمار الغربي الحديث، وهكذا يكون مع القوى العالمية اليوم. إنها قدرية الجغرافية والتاريخ والثقافة التي تمثل جميعها قانوناً لايمكن تجاوزه في الصيرورة البشرية. وما على سكان هذه المنطقة من العالم إلا أن تعي هذا المصير وتحاول تسخيره من أجل مصلحة شعوبها وبلدانها.

يقوم العمل التاريخي على بحث ومراجع دقيقة وكافية بحيث يقدم الأحداث والشخصيات على نحو يكون أقرب إلى الحقيقة وإلى رؤية أكثر قبولاً وترجيحاً، وألا يصادم المعتقدات والروايات التاريخية. ويتوجب أن يعكس العمل الجمالية الحركية للبيئة والحدث والشخصيات في التحليل واللغة، مستخدماً عفوية هذه اللغة وجمالها وبساطتها بحيث تكون مفهومة وممتعة ومفيدة بآن واحد. إذ بينما يعتمد الفن الروائي بشكل أساسي على مجموعة من الخطوط الروائية التي تشكل البيئة الأساسية للعمل، يعتمد العمل التاريخي أساساً على تسلسل متحرك من الأحداث التي ترتبط ارتباطاً شديداً بالمكان والزمان والأشخاص، بحيث تترك آثارها المباشرة وغير المباشرة على المشاركين والمنفذين والعامة، وعلى الجوار. فالتاريخ ليس مجرد تدوين لأحداث وقعت ومضت، إنما هو عملية تأليف تاريخي تتم باستمرار بإعادة قراءة وفهم المدوّن بطريقة منهجية تدخل عميقاً في تحليل واستخلاص الدروس من أجل بعث الأمة من جديد، بحيث تعتمد على رؤى ووجهات نظر وتصورات وافتراضات تقدم القيمة والأهمية لحاضر ومستقبل الإنسان. وقوة الأوطان تتجلى في قدرة نخبها ومبدعيها في إعادة قراءة وفهم ودراسة تاريخها، وبالتالي قدرة هذه النخب المبدعة على تقديم الدرس الوطني وتوظيفه بطريقة تبادلية ضامنة لخدمة جميع مواطنيها من أجل صياغة مشاريع وطنية واضحة تخدم حاضرها ومستقبلها. ويدل مستوى تقدم الدراسات التاريخية عن فهم ونضج معاصر لعملية البناء الوطني. فالفشل في دراسة وفهم التاريخ بشكل عام، والوطني بشكل خاص، يعد من أكثر المخاطر التي تواجه الأوطان. فنحن ما نزال نعيش على غنى ماضينا العريق دون محاولة ربط جدية، ومفيدة، بينه وبين متطلبات التاريخ البشري العلمي الحديث وتقدمه المستمر، حيث أنّ التجربة الإنسانية حركة ديناميكية مستمرة؛ إذ لا شيء يبقى على حاله. فالتاريخ وحدة متكاملة المراحل ومترابطة لا تتوقف عن التطور، قاعدتها بنية حضارية بمكونيها الرئيسيين: الثقافي بجانبيه الروحي والمعنوي، والمدني بجانبيه المادي والعملي. وقراءة التاريخ وإعادة تفسيره تفضي عادة إلى عملية ربط حوار مستمر بين الماضي والحاضر، فنأخذ من ماضينا الذي يحمل في داخله نوعين من الإرشاد: أحدهما يقرأ كإنذار مبكر، والآخر كضوء على الطريق، إلى مايفيد في توجيهنا وإرشادنا .ولأن معرفة كيفية عمل المجتمع في الماضي تفتح عيوننا على ماهو كامن في الحاضر، وربما في المستقبل، فيمكننا بذلك التغلب على ما يعترينا من قلق على حاضرنا، ويزيدنا معرفة بآفاق مستقبلنا وتحفيزاً لتحقيق آمالنا. فقد كان لأسلافنا الأوائل، على عكسنا، فهم واقعي لتاريخهم الذي لم يكتفوا بتقديسه وتعليبه بل استمروا في صناعته وتعديله وتطويره حسب متطلبات المرحلة التاريخية التي مروا بها. وبالإجمال فدراسة التاريخ تساعدنا على استبعاد الأخطاء، وتهدينا إلى كيفية اختيار الأنسب، فالتاريخ ليس إلا إعادة بناء خلاقة للماضي في ضوء الحاضر.

ولذا، يجب أن يفضي بنا وضع العالم العربي اليوم إلى العمل على إثبات الأفق التعددي لمقاصد المناهج العملية لخلق رؤى مؤسسية مبنية على خدمة المجتمع والنهوض به على مراتب عصرية لا تتعارض مع روح الثقافة والتراث والعقيدة، وبنفس الوقت مبنية

على نزوع أخلاقي وجهد عقلي، بحيث يمكن التخلص من عملية التدمير اللاشعورية الناتجة عن الايحاء الذاتي الدوني عبر إشاعة الشعور المتصل والمتجدد، سواء كان ذلك بالإيحاء أو الترديد، بقدرية التخلف ورسوخه داخل الكيان الجمعي للمجتمع. وعلى العكس من ذلك، يتم الانخراط العملي المؤسسي في صنع الدلالات والمعنى على مسرح التاريخ، للتأثير أولاً على سير الأمة، ومن ثم على سير العالم وتوجهاته، وذلك من خلال استثمار كامل القدرات الحيوية الظاهرة والكامنة بمجملها سواء كانت دينية أو عقائدية، ثقافية، تراثية، تاريخية، اقتصادية، أو علمية، لإنعاش وتحفيز وتسييد قيم التحرر والابداع الفردي والجماعي وتشجيع روح التنافس البناء والتطلع الذهني وإرادة العمل، للوصول إلى نمو متكافئ وسلام مجتمعي عادل ومصان يؤمن بالمشترك الجمعي للأمة في الحرية والمساواة والإخاء، وفي العدالة الاجتماعية، والديمقراطية والمواطنة، وفي حقوق الإنسان، وفي القيم المرتبطة بإنتاج المعرفة التي تشكل القوة الدافعة لكل ما تقدّم.

من هنا جاء كتابي "تاريخ ملكات الشرق"، بحيث اجتهدت أن أقدم رؤية ربما لم تكن متوافقة مع أسلوب العرض التاريخي بشكل كامل، ولكنها تقترب أكثر من القراءة التاريخية الأدبية. كما اجتهدت أن أجعل من تنسيق تكوينات الكلمات وجملها أداة تعبير ناجحة للعرض بحيث يبدو الحدث، إلى حد ما، متحركاً، ويدفع الرغبة في القراءة. ولست أدري إلى أي حد نجحت في ذلك؟ لكنها تبقى محاولة قراءة تاريخية لتاريخ وسير شخصيات أفردت لبعضها صفحات كثيرة في كتب التاريخ، في حين تم تجاهل بعضها الآخر أو تغطيتها عن عمد برداء من الغموض. فتاريخ وسير هذه الشخصيات بما مثلته مع شعوبها يعيدها جميعها إلى أرومة واحدة، ماعدا كليوبترا. فالعرب مازالوا يعيشون على الأراضي التي حكمتها ملكات من الشرق. وهذا يعني، من ضمن ما يعنيه، أن شعوب هذا الشرق القديم إنما هي أسلاف وأجداد الشعوب الحالية على هذه المنطقة من العالم، فاستفيقوا من نومكم أيها الأحفاد.

تقدم قراءة "تاريخ ملكات الشرق" رؤية مشرقية، امتدت لفترات متقطعة بداية من القرن التاسع قبل الميلاد حتى نهاية القرن الرابع، تحدت صاحباتها الصعاب والمحن، فحاولن الرد عليها بالنهوض بما حملن من طموحات. وقد وقفت كل واحدة منهنّ على مسافة قريبة جداً من هدفها النهائي، إلا أنهن، ما عدا بلقيس، انتهين بمأساة هزائمهن. ويمكن الإضاءة السريعة على سيرهن، إلا أنّ ذلك لن يغني عن قراءة الكتاب:

1- يعتبر تاريخ قرطاجة الذي استمر لسبعة قرون من الحيوية والنشاط العارم على مختلف الأصعدة تقريباً تاريخاً مثيراً. والأكثر إثارة ومدعاة للتأمل هو في تواري وزوال هذه الحيوية وهذا النشاط دون ترك آثار حضارية عميقة متناسبة مع ما حققته. لقد يسر موقع قرطاجة الحصين والنائي عن الامبراطوريات الشرقية العظيمة ومؤثراتها المجال العملي للانطلاق والازدهار بهوية وشخصية كنعانية واضحة، مكنها من بناء امبراطورية مستقلة ومترامية الأطراف يرعاها سلطان ضخم. فأتاح لها غناها التجاري واستثمارها للمناجم الإسبانية إنشاء أسطول تجاري ضخم أتبعته بعمارة حربية وبجيش قوي قاده عسكريون من طراز رفيع، فأصبحت سيدة البحار، واستطاعت تحقيق وحدة

امبراطورية في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط كانت قد عجزت عن تحقيقه أمّها صور على الساحل السوري. فهل كان بإمكان قرطاجة أن تستمر بالمحافظة على انتصاراتها أمام الصعود القوي والثابت لروما؟ تبين قراءة الحرب البونية الثانية خاصة، أنّ انحلال التماسك الداخلي في قرطاجة كان من الأسباب الرئيسية التي أودت بهلاكها، وأنّ السبب الرئيسي الثاني كان في قوة روما المتصاعدة التي كانت مصادرها المتعددة لا تنضب مقابل مصادر قرطاجة التي أصبحت محدودة، إضافة إلى البناء الامبراطوري الروماني المؤسساتي الذي كان يؤمن استمرار الإدارة الرومانية في إيجاد الحلول النهائية للمشكلات التي تعترضها.

2- لم يبلغ شأن وتدخل النساء ومشاركتهنّ وتأثيرهنّ في البلاط الروماني مثلما بلغ في بلاط سلالة حكم العائلة السورية: عائلة سيفيروس، حيث يظهر تاريخ حكم العائلة على مدى اثنين وأربعين عاماً الأدوار المؤثرة في البلاط الروماني التي قامت بها الأميرات السوريات من عائلة باسيانوس الحمصية المشهورة. فقد لعبت جوليا دومنا زوجة سبتميوس سيفيروس ووالدة كركلا دوراً بارزاً في تمتين مُلك زوجها وابنها، وفي لعب دور أدبي وثقافي مهم وذلك بإنشاء دائرة أدبية وثقافية وقانونية مشهودة في التاريخ الروماني الثقافي. كما لعبت شقيقتها جوليا ميسا وابنتيها جوليا سوميا وجوليا ماميا (ماميه)، والدتا الامبراطورين: إلاغابالوس واسكندر سيفيروس، اللاتي عملنَ بطموح وعزم لا يلين لتأمين بقاء البلاط الروماني في عائلتهن.

3- وقفت كل من زنوبيا وكليوبترا على مسافة قريبة من رؤية استراتيجية لبناء دولة عظيمة على غرار الامبراطوريات اللواتي عاصرنها. حيث نجحت زنوبيا في إقامة مثل هذا البناء، لكنها لم تستطع الاستمرار فيه والمحافظة عليه، وذلك لأسباب عديدة، منها: عدم نضوج فكرة الدولة بمقومات نجاحها واستمرارها، وموقعها بين قوتين جبارتين متصارعتين على النفوذ بما فيها تدمر، وعدم مقدرة تدمر على استقطاب جميع عرب المنطقة وصهرهم في بوتقتهم الواحدة كما فعل العرب المسلمون فيما بعد، إضافة إلى ضعف في إدارة مصادر الدولة الواسعة التي أنشأتها زنوبيا للإنفاق على صيانة هذه الدولة وبناء جيش قادر على تنفيذ الطموحات المستمرة والحفاظ على مكتسباتها، إذ لم يتسن الوقت اللازم للقيام بترتيب وتنظيم هذه الخطوات، لأنّ روما أدركت سريعاً واجب وأد نجاحات تدمر قبل استفحال أمرها. أما كليوبترا فقد رأت استراتيجيتها بوضوح كامل، وذلك بمحاولة نقل مركز العالم القديم من روما (أم العالم) إلى الاسكندرية، أي أنها رسمت خططها التكتيكية لتحقيق هدفها الاستراتيجي الكبير دون أن تمتلك مملكتها مؤهلات القيام بمثل هدف كهذا، إلا سلاح ذكائها وانوثتها. وأمام هدفها هذا اتهمت كليوبترا من غالبية كتب التاريخ بأوصاف مشينة، إلا أنها لم تتوان عن الاستمرار في المحاولة، وذلك بإغراء القادة الرومان: قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس لتحقيق طموحها. ومن أجل هدفها دفعت حياتها ثمناً لذلك. فقد وصفها المؤرخ ديو كاسيوس: " لقد أسرت كليوبترا أعظم شخصيتين رومانيتين بزمانهما، وبسبب الثالث قضت على نفسها"

4- تعتبر الملكة ماويّة التي حكمت بعد موت زوجها (الحواري) أقوى امرأة عربية محاربة ظهرت في العالم القديم بعد الملكة التدمرية زنوبيا . فتملّكت في نهاية القرن الرابع على قبائل الاتحاديين العرب من تحالف تنوخ العريض المكون من القبائل العربية التي كانت تقيم في وسط وجنوب وشمال سورية في فترة القرون الميلادية الأولى. وقادت ثورة العرب (375-378) م ضد بيزنطة وهزمتها في أكثر من مواجهة ومعركة في أسلوب حروب خاطفة تعتمد على الكر والفر حتى وصلت إلى الساحل السوري في فلسطين والطرف الشرقي من النيل، مما اضطر بيزنطة إلى الاستجابة لشروطها وعقد معاهدة سلام معها كان من نتيجتها مشاركة فرسان ماوية العرب بمعركة هادريانوبولس (أدرنة) (أدريانوبل) الشهيرة في التاريخ الروماني (378م)، والذي قتل فيها الامبراطور والنس (Valens فالينز) وهو يصد غارات القوط الغربيين. ومشاركتها في معركة الدفاع عن القسطنطينية ضد هجمات القوط العنيفة. وكانت أسباب قيام ثورتها الأساسية ترجع إلى خلافات مذهبية بين أريوسية الدولة البيزنطية، والأرثوذكسية التي كان يؤمن بها العرب. وقد توجت المعاهدة بتنصيب الناسك موسى كأول أسقف عربي من أصول عربية على المذهب الأرثوذكسي واستعادة الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها خلال الفترة السابقة. وبدأت أول كنيسة عربية بالظهور في منطقة المشرق الروماني مستقطبة إليها الكثير من قبائل التحالف التنوخي. إذ قد يدلُ هذا على شعور وإحساس، لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية، بالذات والهوية العربية.

من المفارقات أن الجميع، خاصة في الغرب، يتحدث ويرفع ويتغنى بشعارات السلام ويرى نفسه من المدافعين عنه، فيدعي رفض كل أشكال العنف ويثور ضد كل ضروب العدوان والظلم والاضطهاد، في الوقت الذي يكاد العنف والظلم والعدوان يلازم الوجود الإنساني جاعلاً من حياته مأساة دائمة على رأي الضعفاء، وضرورة إنسانية على رأي الأقوياء. فهناك من يقول بأنه لولا ظاهرة الحرب لما كان بمقدور الإنسان أن يصل إلى هذا المستوى من الرقي والتطور إذا كانت الحرب ثمناً لذلك، بحيث تبقى الحرب ضرورة ماسة للإصلاح وإعادة الحق والمحافظة على الأوطان، أو كما يتبدى للقادة الكبار ضرورة ماسة لتحريك عجلة الاقتصاد وانتقال الإنسان والبحث عن المجهول الذي لا ينفك الكائن البشري، كفرد أو جماعة منذ وجوده الأول، عن محاولاته المستمرة للكشف عنه. ولو انتهى الصراع لانتهى العالم. وقد قال عالم الاجتماع العربي ابن خلدون: " أعلم أنّ الحروب وأنواع المقاتلة واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وهذا أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل".

فإرادة القوة إذاً هي جوهر الوجود، والنفوس القوية السليمة هي صاحبة السيادة والسيطرة، وما فلسفة الأفضل إلا أنها رؤية إنسانية عامة لأنها مفتونة على حب البطولة والمجد والمغامرة والاكتشاف والفوز. فالأفضل هو رجل نضال وفوز دائمين، والضعفاء غير فضلاء كما يقال. والقدرة عند الأفضل هي في امتلاك الموجود والتصرف به والسيطرة عليه وتطويره وتسخيره. والوجه البارز والمعبر عن الأفضل إنما يكون في العمل

والابتكار والإبداع. وما صراع الحضارات بثقافاتها وعقائدها وطبقياتها، وشعاراتها في حقوق الإنسان سواء كانت عالمية أو محلية، إلا واجهات للتدخل والسيطرة والامتلاك. وما على من يخافون على بلادهم وهويتهم ومصالحهم إلا أن يحاولوا أن يكونوا أفضل. وفي الحديث الشريف: " المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير". والمعجزة، بعد وقوع الإنسان، هي في أن يعاود النهوض واقفاً.

وما إجماع الغرب الديمقراطي الذي يرفع بشكل دائم شعار مناصرة حقوق الإنسان والديمقراطية وثقافة السلام ونبذ العنف، حسب معاييره المتعددة، إلا خدمة لأغراضه. فهو يقوم بالتطور والتقدم على جميع الأصعدة، وهو يقوم ايضاً بتولي اختراع أدوات الحرب وشن الحروب والقتل الجماعي والانحياز الدائم مع أنه ينفي ببراعة ومهارة أنّه ضد ما يفعل. بذلك أصبحت الفجوة كبيرة بين المثل والقيم العليا التي يدعيها والوجه الحقيقي الذي نراه عليه.

ولذلك، فمن المنطقي أن يؤجج تفاقم القوة وطغيانها لدى الغرب الرغبة ليس في الاحتجاج فقط، وإنما الرغبة في تدميرها. فالحقد على قوة عالمية طاغية يقود تدريجياً إلى الرغبة وحشد الطاقات لتدميرها والقضاء عليها. وما تصرفات الغرب في السيطرة على العالم إلا إيحاءات مستمرة كما لو أنه في موقع صاحب القدرة الإلهية الكلية الشرعية والأخلاقية المطلقة. حتى أن تفاقم هذه القوة الغربية الطاغية تغدو في كثير من الأحيان عملاً انتحارياً بإعلان الحرب على نفسها. وهذا ربما يعد سلوكاً من طغيان القوة البشرية بكل أنواعها العسكرية والاقتصادية والثقافية قد يقود إلى تدميرها.

فالنظام الذي أنتجته هذه القوة العالمية، خصوصاً في ظل العولمة، مكنها من استخدام مميزات منزلتها العلمية والتكنولوجية المتفوقة وخبراتها المتراكمة لفرض أكثر الأشكال موارية وأكثرها شمولية في التاريخ الإمبريالي كله. وهو الذي أنشأ تدريجياً الشروط الموضوعية للردود العنيفة المباغتة والمتوقعة من قبل الآخرين المعرضين لبطشها وجبروتها. فاجتماع جذور الطاقة من منابعها الكثيرة والمتعددة تغذي الرغبة عند الآخرين حتى ياتي وقت ليس بعيداً قد تنجح هذه الطاقة في تغذية رغبة المبطوش بهم إلى تقويض ما أنتجته هذه القوة العالمية الباطشة. والحال أنّ المسألة هنا ليست نابعة من عملية استجابة آلية لقراءات أيديولوجية يساء فهمها، ولكن من أسباب رئيسية تأتي من محاولة تطبيع ونهب شاملين للآخرين تقوم بها هذه القوة العالمية الطاغية، ووكلاؤها، لصالحها وباستمرار متناسية الوجود الإنساني والحضاري للآخر. فالغرب القديم الحديث مستمر في استشعار آثار نجاحاته العسكرية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتكنولوجية بصورة أقرب إلى قدرة كلية على تطويع الأمم والشعوب مثلما كان الأباطرة الرومان وغيرهم يقومون بالهروب إلى إثارة الموت وإراقة الدماء البشرية في المدن والقرى وعلى السهول والهضاب والجبال وفي الأودية، ليستشعروا إثارة أحاسيسهم بالإلوهية والقدرة! فمن يقتل الملايين يدخل التاريخ، وربما يصبح بطلاً، في حين أنّ من ينقذ الملايين قد يطويه النسيان سريعاً. لقد عشق الرومان، بطبيعتهم وبالتدريب والتجربة، وممارستهم لقواهم البدنية (ومن بعدهم أحفادهم في الغرب)، إلى تجسيد الشخصية

الإلهية في أنفسهم، وفي إراقة الدماء، لأنهم بنوا بلادهم وحضارتهم ومدنهم، بجزء منها، على خراب وتدمير الآخرين، وقد جبلت امبراطوريتهم بما وصلت إليه بدمائهم ودماء الآخرين، إذ ما تزال آثار دماء قتلاهم فوق ضفاف الأنهار والوديان والسهول والجبال والأقبية وساحات المدن والبلدات، التي شهدت جميعها معاركهم، والتي مازالت أيضاً أجواؤها تمتلئ بروائح أجساد ضحاياهم، فالحياة كانت عندهم في خطوة، والموت في الأخرى.

لقد ذهب الرومان مذهب أشد الأمم بطشاً وأوسعهم ملكاً وأكثرهم تمديناً. وقد بقي لحضارتهم بعد أن بادوا أثر كبير في مدنية أوربة والعالم، لاسيما عبقريتهم المتعلقة بالتنظيم والقوانين وتشكيل الحكومة والإدارة وفنون النحت والنُصب والعمارة والشعر وغير ذلك مما نشروه من حضارة الإغريق، فتركوا إرثاً حضارياً عظيماً. ولذلك اعتبَرت دولتهم أعظم من كثير من الدول القديمة التي ظهرت في التاريخ.

ومع ما يمثله الغرب من معايير مزدوجة وسياسات نفعية تدعمها الأيديولوجيا والقوة المادية والثقافة، فإنه من العدل القول أنّ الغرب الحديث أنتج وما زال ينتج برامج وأبحاث وتطور وتكنولوجيا في جميع فروع علوم الحياة تعين جميع شعوب الجنس البشري على تحسين أوضاع حياتها ومعاشها. إذ يعد هذا إنجازاً إنسانياً هائلاً وفضلاً يجب أن نعترف به لأهله. وليست مصلحتنا في تصعيد العداء تجاه الغرب، وذلك لأسباب عديدة، وإنما العمل على التصالح معه لما فيه مصلحتنا، فقد شهد مسار التاريخ منذ بداياته بعلاقات وباشتباك مستمرين بين الشرق والغرب، وما علينا إلا أن نقوم بإعادة هندسة استراتيجية لهذه العلاقات وهذا الاشتباك بطريقة تبادلية مفيدة للطرفين.

إنّ السعي نحوَهدف مستقبلي والإيمان به يحمل في طياته عملاً جميلاً ومبجلاً ومبهجاً، يضفي معنىً وإلهاماً وزينة على حياة الفرد والمجتمع.

وكما بدأنا بمعاوية بن أبي سفيان نختم بمحمد الفاتح وهو يدخل القسطنطينية بعد فتحها، وهو على صهوة حصانه الأبيض يسير في موكبه يحيطه الوزراء والقادة والفرسان وحشود المدينة الذين تجمعوا على طول الطريق الواصل بين "طوب قابي"وكنيسة "آيا صوفيا"، حينما فوجئ باندفاع درويش من دراويش الجيش العثماني يخرج من بين الجموع المحتشدة، فيمسك بعرف جواده ويقول له: لا تنس أيها السلطان أنه بفضل دعائنا نحن الدراويش فتحتَ هذه المدينة، ابتسم السلطان وأخرج سيفه من غمده حتى منتصفه، وقال: صدقت يا درويش! ولكن لا تنس حق هذا السيف أيضاً.

وأخيراً، ننشد قائلين: "ويلكم، أيها النّاس، إن لم تكن آمالكم في ذاتكم منعقدة".

دمشق في أيلول من عام 2011 — **قاسم محمد سويدان**

تمهيد تاريخي

من المفيد وضع لوائح عامة للفترات التاريخية التي مرت على العالم القديم وعلى هذه المنطقة من العالم خلال أكثر من عشرة قرون ليتسنى للقارئ متابعة الأحداث من خلال الرجوع إلى هذه اللوائح كلما اقتضى الأمر ذلك، حيث جاء ترتيبها حسب أهميتها في الكتاب وليس أزمانها .

أولاً: العصور الرومانية

لائحة بالحوادث الكبرى وبأسماء الملوك والأباطرة الذين حكموا روما وبيزنطة ابتداء من تاريخ تأسيس روما سنة 753 ق.م حتى معركة اليرموك سنة 636م. حيث مرت روما بعصور رئيسية ثلاث حتى إعلان الامبراطورية البيزنطية في نهاية القرن الرابع الميلادي:

أولاً: العصر الملكي: من عام 753 ق.م حتى 509 ق.م (250عاماً).

ثانياً: العصر الجمهوري: من عام 509 ق.م حتى 27 ق.م (500عام). وقد درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من هذا العصر (133-27) ق.م بعصر الثورة، حيث بدأت محاولة إصلاح نبيلة قام بها بعض ترابنة (نقباء العامة المدافعون عن حقوق الشعب) الشعب، تحولت إلى صراع عنيف على السلطة بين كبار القادة العسكريين، ما لبث أن تحول إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري. إذ قام الشقيقان طيبريوس وجايوس جراكوس بين عامي 133-122 ق.م بمحاولاتهما الإصلاحية التي فشلت بمقتلهما . واحتدم الصراع في المرحلة الثانية بين سولا وماريوس (120-78) ق.م، ثم بين قيصر وبومبيوس (بومبي) في المرحلة الثالثة، وهو الذي أدى إلى نشوب الحرب الأهلية الرومانية التي لم تبق من النظام الجمهوري إلا على الاسم فقط.

ثالثاً: العصر الامبراطوري: من عام27 ق.م حتى سقوط روما سنة 476 م تحت ضربات قبائل القوط الجرمانية (500عاماً)، وتقسيم الامبراطورية إلى شرقية (بيزنطية) عاصمتها القسطنطينية، وغربية عاصمتها روما .

	قبل الميلاد	الأحداث
1	753	تأسيس روما حيث أصبح رومولوس أول ملك عليها.
2	600- 510	حكمت روما من قبل الملوك الأتروسكيين.
3	510	إعلان الجمهورية.
4	500- 250	خاضت روما سلسلة من الحروب المتواصلة مع الجوار في الشمال والجنوب وضمت معظم أجزاء شبه الجزيرة الايطالية.
5	287	أول قانون يسمح بمجلس للشعب الروماني لصياغة القوانين.
6	270	كامل شبه الجزيرة الايطالية يصبح تحت حكم روما.
7	264- 241	الحرب البونية الأولى بين روما وقرطاجة، حيث دافعت روما عن المدن الإغريقية في جزيرة صقلية ضد القرطاجيين.
8	260	بناء أول أسطول روماني، وأول معركة بحرية ينتصر فيها الرومان على القرطاجيين.
9	241	انتصار الرومان على القرطاجيين والاستيلاء على صقلية.
10	226	معاهدة نهر ايبرو (في إسبانية) التي نصت على عدم عبور القرطاجيين إلى شمال النهر وعدم عبور الرومان إلى جنوبه.
11	218- 201	الحرب البونية الثانية بين روما وهانيبال (هانيبعل).
12	216	انتصار هانيبال وهزيمة الرومان في معركة كاناي التاريخية جنوب شرق روما.
13	214- 205	الحرب المقدونية الأولى بين فيليب الخامس وروما.
14	202	اسكيبو (سيسيبو) يهزم هانيبعل في معركة زاما جنوب قرطاجة.
15	201	عقد معاهدة السلام بين روما وقرطاجة، حيث أصبحت روما الآن تسيطر على المنطقة الغربية من حوض المتوسط.
16	200- 196	الحرب المقدونية الثانية التي أعلن خلالها استقلال اليونان.
17	172- 168	الحرب المقدونية الثالثة التي هزم فيها بيرسوس في بيدنا.
18	148	أصبحت مقدونية بالكامل مقاطعة رومانية.
19	149- 146	الحرب البونية الثالثة، وتسوية قرطاجة بالأرض (146 ق.م) بعد استباحتها وإحراقها وتدميرها من قبل المنتصرين الرومان.
20	133	طبريوس كراسوس يصبح ممثلاً للشعب الروماني، والذي أدى اغتياله إلى اضطرابات طبقية.
21	123- 122	قام غايوس شقيق طبريوس بتنفيذ إصلاحات سياسية واقتصادية
22	121	اغتيل غايوس كراسوس.
23	111- 105	ماريوس وسولا يشنان حربا ضد جوغارثا النوميدي.
24	91- 89	الحرب الاجتماعية بين روما وحلفائها. وتوسيع حق المواطنة.
25	89- 85	الحرب ضد الملك ميثريداتس الخامس في شمال آسية الصغرى
26	83- 82	الحرب الأهلية بين ماريوس وسولا، واحتلال سولا لروما.
27	81- 79	سولا يصبح دكتاتوراً، فيعيد الدستور، ويحدث إصلاحات.
28	78	موت سولا.

29	77– 72	بومبيوس (بومبي) يقاتل سرتوريوس في إسبانية.
30	73– 71	ثورة العبيد الثالثة على روما بقيادة سبارتاكوس.
31	70	بومبيوس وكراسوس يصبحان قنصلين. ويعود حزب الشعب.
32	67	نهاية الحرب الثانية على ميثريداتس بعد ثلاث سنوات. يسيطر بومبيوس على البحر ضد القراصنة.
33	64	حملة بومبيوس (بومبي) على الشرق واحتلال بقية آسية الصغرى وسورية.
34	63	شيشرون يحبط مؤامرة كاتالينا. انتخاب قيصر حبراً أعظم.
35	60	تشكل الائتلاف الثلاثي الأول (غير الرسمي) من: يوليوس قيصر، بومبيوس، وكراسوس. وينتخب قيصر قنصلاً.
36	58– 51	قيصر يحتل بلاد الغال. واضطرابات في روما طيلة الفترة.
37	53	البرثيون الفرس يهزمون الرومان في معركة كارهي (حران)، وانتحار كراسوس قائد الحملة والحليف في الائتلاف الأول.
38	49	الحرب الأهلية بين بومبيوس وقيصر. وقيصر يعبر نهر الروبيكون باتجاه روما.
39	48	قيصر يهزم بومبيوس في معركة فارسالوس، ويصبح دكتاتوراً.
40	44	اغتيال يوليوس قيصر وسط مجلس الشيوخ الروماني. ومارك أنطوني (ماركوس أنطونيوس) يثأر لمقتله.
41	43	تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني: أنطونيوس، أوكتافيوس، ولبيدوس
42	42	الائتلاف الثلاثي الثاني يهزم بروتوس وكاسيوس، المشاركين في اغتيال قيصر، في معركة فيلبي.
43	41– 40	تقاسم البلاد بين أنطونيوس وأكتافيوس ولبيدوس.
44	33– 32	انفراط عقد التحالف بين أنطونيوس وأوكتافيوس.
45	31	هزيمة أنطونيوس (مارك أنطوني) وكليوبترا أمام أوكتافيوس في معركة أكتيوم البحرية، وانتحارهما سنة 30 ق.م.
46	27	أعاد أوكتافيوس الاعتبار الشكلي لمجلس الشيوخ الروماني، بالمقابل، منحه المجلس أرفع لقب جديد: أوغسطس (المبجل).
47	18	إصدار قانون يوليان الذي يعزز الأخلاق العامة، ويحرم الزنا، وينظم الزواج..
48	12	الأوغسطس يصبح الكاهن الأعظم (رأس الدولة الديني).
49	2	يضيف اوكتافيوس لقباً جديداً إلى القابه السابقة: أب الوطن، أو أب البلاد وراس الهرم على قمة السلطة: الامبراطور الأعظم.

	بعد الميلاد	الأحداث
50	4 م	تعيين طيريوس وريثاً لأوكتافيوس.
51	6 م	ضم يهودا في فلسطين إلى الامبراطورية.
52	9 م	إبادة فيالق فاروس الرومانية الثلاثة في المانية (ألمانيا).
53	14	موت الامبراطور أوكتافيوس موتاً طبيعياً عن 76 عاماً.

54	14- 37	الامبراطور طبريوس إداري ناجح، لكنه لم يكن محبوباً. مات خنقاً على يد قائد الحرس الامبراطوري.
55	14- 16	نجاح حملة جرمانيكوس في المانية.
56	19	موت جرمانيكوس الغامض وجنازته في أنطاكية.
57	21- 22	سيانوس (سيفانوس) يقوم بتنظيم الحرس الامبراطوري.
58	26- 31	يصبح سيانوس الأقوى في روما، لكنه يعدم في سنة 31 م.
59	37- 41	كاليغولا امبراطوراً ودكتاتوراً قاسياً. قتله البريتور (نقيب العامة).
60	41- 54	كلوديوس يعتلي العرش، ويفتح بريطانية، ويظهرحكمة سياسية، يعتقد أنه مات بسم زوجته.
61	54- 68	نيرون يصبح امبراطوراً. ويحرق روما سنة 64، ويضطهد أتباع المسيحية. نحر أو انتحر؟
62	68- 69	اعتلى أربعة أباطرة العرش الروماني في سنة واحدة: غالبا، أوتو، فتيليوس، وسبسيانوس (فسبسيان). أشير إليها بالمرحلة الانتقالية.
63	69- 79	جيوش الشرق والدانوب تنادي بوسباسيانوس امبراطوراً، حيث بدأ حكم السلالة الفلافية. بنى كلوسيوم روما الشهير.
64	70	طيطوس بن وسبسيانوس يحتل القدس ويهدم المعبد.
65	79- 81	طيطوس يخلف والده. ينفجر بركان فيزوفيو (فيزوف) سنة 79م، ويدمر مدينتي بومبي وهركولانوم.
66	81- 96	دوميتيانوس (حمل لقب: قاضي الإحصاء الدائم) على العرش. يبني القلاع والحصون على طول الحدود في المانية، وينهي فترة حكمه بالرعب.
67	96- 98	نرفا يصعد إلى العرش بعد اغتيال دوميتيانوس، ويتبنى ترايانوس (تراجان).
68	98- 117	ترايانوس امبراطوراً بعد موت نرفا. يفتح داكية (رومانية حالياً)، وينهي مملكة الأنباط ويضمها ويجعلها ولاية (ولاية العربية)، وينجح في حملته الفارسية، فيضم أرمينية وما بين النهرين.
69	117-138	هادريانوس (هادريان) يصبح امبرطوراً: رحالة مثقف جال في أنحاء الامبراطورية، جندي وإداري ناجح، بنى الجدارالمعروف باسمه في شمال بريطانية سنة 122م. منع اليهود من دخول أورشليم التي أصبحت إيليا كابيتولينا سنة 135 م.
70	138-161	أنطونيوس بايوس الملقب بأنطونيوس التقي. حيث ساد النظام والسلام في ربوع البلاد خلال حكمه.
71	161-180	ماركوس أوريليوس (أوريل) امبراطوراً. شاركه الحكم ابنه كومودوس من عام 177 حتى موته. يشير المؤرخون إلى حكمه بالأهمية والمثال. جرد حملة عسكرية ضد فارس البرثية سنة 162 م، كما شن حرباً ضد القبائل الجرمانية على الدانوب بين الأعوام 175 و180. ألف أورليوس كتاب "التأملات".
72	180-192	كومودوس امبراطوراً. يضع حداً لمشاريع والده على الدانوب.

73	211-193	سبتميوس سيفيروس الليبي يصبح امبراطوراً بعد الأزمة التي نشبت إثر مقتل كومودوس، فيغلب على المطالبين بالعرش لا سيما بسينوس نيجر في الشرق، وكلوديوس ألبينوس في الغرب. قاد حملة على البرثيين (197-198)، فاحتل ونظم ولاية ما بين النهرين.تخلص من بلوتيانوس قائد حرسه الامبراطوري وعين القانوني بابينيانوس خلفاً له. ومنح الجيش امتيازات خاصة كثيرة. مات في يورك - بريطانية سنة 211 م.
74	217-211	كراكلا الحمصي، ابن سيفيروس وجوليا دومنا، على العرش. ورغم إصداره مرسوم المواطنة الرومانية في عام 212م، فقد وصفه المؤرخون بالمتوحش. قتل أخاه جيتا سنة 212م. اغتاله أحد ضباطه وهو في الخلاء خلال حملته على البرثيين الفرس. ولد المعلم ماني (معلم الديانة المانوية) في بلاد بابل سنة 216.
75	218-217	ماكرينوس يغتصب العرش، ويموت قتيلاً.
76	222-218	إلاغابالوس (الغابال) الحمصي على العرش. قتله الجند مع أمه.
77	235-222	اسكندر سيفيروس الحمصي على العرش. انتصار الساسانيين على البرثيين سنة 224 م بقيادة أردشير. عين المؤرخ ديو كاسيوس قنصلاً سنة 229 م. خاض اسكندر حرباً ضد الفرس بين (231- 232). اغتاله الجند مع أمه في مايانس.
78	284-235	شهدت الامبراطورية أزمة القرن الثالث (الأزمة الامبراطورية) بعد موت اسكندر حتى ديوقلتيانوس (دقلديانوس) سنة 284.
79	238-235	التراقي ماكسيموس ثراكس على العرش (تعاقب أباطرة وزوالهم بسرعة في ظروف ومصاعب داخلية وخارجية صعبة؛ مهاجمة الحدود، ثورات وانفصال ولايات، تفاقم الأزمة الاقتصادية.. ألخ). ثراكس يموت غيلة.
80	238	المناداة بغورديان الأول الملقب بالأفريقي وابنه غورديان الثاني امبراطورين في قرطاجة، وماتا مقتولين. أعلن ماكسيموس وبالبينوس امبراطورين بآن واحد. أربعة أباطرة في سنة واحدة.
81	244-238	غورديان الثالث يعتلي العرش (ابن الأول وشقيق الثاني). يشير المؤرخون إليهم بالغورديان الثلاثة. قتله الحرس الامبراطوري خلال حملته الفارسية، وأعلن فيليب العربي امبراطوراً.
82	249-244	فيليب العربي (الحوراني) امبراطوراً. احتفل بأعياد روما الألفية سنة 248م. قتل على أرض فيرونا في معركة نشبت بينه وبين دكيوس على تنازع العرش.
83	251-249	تولى دكيوس (ديقيوس) عرش روما بعد مقتل فيليب. أول من أصدر قراراً رسمياً عاماً باضطهاد أتباع المسيحية في عموم الامبراطورية، بينما كانت جميع الحملات السابقة محلية. مات في حملة على القوط. خلفه ابنه هوشيليانوس الذي مات بالوباء.
84	253-251	تريبونيانوس غالوس على العرش. قتله الجند. خلفه إميليانوس الذي

		قتله الجند أيضاً.
85	260-253	واليريانوس (فاليريان). مات في الأسر الفارسي بعد هزيمته في حملته الفارسية. أذينة تدمر يشارك في المعارك ضد الفرس.
86	268-253	يشارك غاليانوس والده واليريانوس الحكم، ويصبح امبراطوراً بعد أسر أبيه على يد شابور. يتحالف مع زنوبيا ملكة تدمر بعد اغتيال زوجها أذينة وابنه في حمص سنة 267 م.
87	270-268	كلوديوس غوتيكوس (القوطي) يصبح امبراطوراً، وينجح في طرد الألمان من ايطالية والقوط من البلقان. مات بالطاعون. خلفه أخاه كونتيلوس الذي اغتيل أو انتحر؟
88	**275-270**	أورليانوس (أورليان) امبراطوراً. يهزم زنوبيا ويقضي على مملكتها، ويأخذها أسيرة إلى روما، ويعرضها في احتفال نصره هناك. أعدم الفيلسوف لونجينوس في حمص بعد انتصاره على تدمر. تآمر على قتله ضباطه الكبار في طريق حملته الفارسية.
89	276-275	تاكيتوس يخلف أورليانوس. ويقتل غيلة. ويخلفه فلوريانوس لأشهر حيث قتل بعدها. قبائل الفرنجة تبلغ إسبانية.
90	282-276	بروبوس على العرش. قتله الجند. موت المعلم ماني سنة 277.
91	283-282	كاروس يستولي على الحكم من بروبوس. مات بالصاعقة.
92	284-283	نوميريان بن كاروس على العرش. ربما مات غيلة. شاركه في الحكم أخاه كارينوس الذي قتل في معركة ضد ديوقلتيانوس.
93	**305-284**	أعلن الجيش ديوقلتيانوس امبراطوراً في خلقدونية، فعقد صلحاً مع الفرس. انتصر على جميع منافسيه. يعده المؤرخون منقذاً للدولة من أزمتها في القرن الثالث. أدخل إصلاحات وتحسينات عديدة على نظام الأمن والدفاع والإدارة، وأحدث ثورة في النظم الرومانية، فكان عصره من أهم العصور الرومانية. سميت فترة حكمه بالحكم الرباعي، حيث قسم البلاد إلى أربعة اقسام رئيسية على رأس كل منها حاكم يتبع له. تنازل عن العرش، ومعه مكسيميانوس سنة 305. فتولى كلوروس.
94	306-305	قسطنطيوس (كونستانس) كلوروس. مات موتاً طبيعياً.
95	**337-306**	ينادي الجند بقسطنطين الكبير (الأول) ابن كلوروس امبراطوراً. اندلعت الحرب الأهلية بسبب التنازع على الحكم، فكان عهد اضطرابات تعدد فيه القياصرة والأباطرة، إلى أن انتصر قسطنطين على مكسانس في معركة جسر ملفين سنة 312 م، وانتصار حليفه ليكينيوس على مكسيمينوس دايا في الشرق سنة 313 م. أصدر مرسوم ميلانو الذي سمح بالحرية الدينية في الامبراطورية سنة 313 م. حسم المعركة مع ليكينيوس، فأعاد وحدة الامبراطورية. أشرف على عقد أول مجمع مسكوني في نيقية سنة 325 م للتوفيق بين المذاهب المسيحية المتخاصمة (الأرثوذكسية والأريوسية). أمر بقتل ابنه كريسبوس ثم زوجته فوستا سنة 326. نقل العاصمة من

		روما إلى بيزنطة (سماها القسطنطينية لاحقاً) سنة 330 م. يقوم في سنة 335 بتنظيم الخلافة من بعده بين أبنائه الثلاثة وابني أخيه. تم تعميده وهو في نزعه الأخير سنة 237 م. عده المؤرخون مشرعاً عظيماً . مع ذلك فقد أنزل الطبقات الدنيا إلى أدنى مراتب العبودية.
96	340-337	اقتسم أولاده الثلاثة: قسطنطين الثاني، قسطنطيوس الثاني، وقنسطانس، إرث الامبراطورية. استطاع قسطنطيوس الثاني (كونستانس) حسم الأمر بتوحيد البلاد تحت حكمه حتى 361م.
97	361-337	قسطنطيوس (كونستانس) الثاني على العرش في القسطنطينية. يحاصر الفرس نصيبين مرات عديدة فيدخلون آمدَ سنة 395، ويحتلون سنجارا في 360 م. تتعرض المسيحية لحملة اضطهاد شديدة في فارس. يعين كونستانس ابن عمه غالوس قيصراً سنة 351م، ويكلفه بإدارة الشرق، ثم يأمر بقتله سنة 354. ثم يعين يوليانوس أخو غالوس قيصراً سنة 355، ويسند له قيادة الحملة ضد قبائل الألمان في غالية، فيعلنه الجيش امبراطوراً بعد انتصاره سنة 360م. يموت كونستانس وهو في طريق عودته من الشرق لقتال يوليانوس، وقد خاض خلال حكمه سلسلة حروب ضد منافسيه، وضد القوط، وضد الفرس.
98	363-361	يوليانوس (يوليان / جوليان) المرتد . قتل على الجبهة الفارسية أثناء تراجعه . أعاد الوثنية الرومانية الرسمية، لكنه لم يتعرض للمسيحية وإنما حظر استعمال النصوص الكلاسيكية على المعلمين المسيحيين. وشاركه الحكم يوبانوس (جوفيان).
99	364-363	يوبانوس: رافق يوليانوس في حملته الفارسية: أعلنه الجيش بعد مقتل يوليانوس وهزيمة الجيش أمام الفرس. عقد معاهدة سلام مع الفرس الساسانيين فأقطعهم أرمينية وبعضاً من بلادالرافدين
10 0	375-364	أعلن الجيش والنتيانوس الأول امبراطوراً بعد موت يوبانوس. فأشرك أخاه والنس (فالينز) وأقطعه ولاية الشرق. يعين ابنه غراتيانوس امبراطوراً سنة 367 م. يصبح القديس أثناسيوس أسقفاً على الأسكندرية، وأمبروس أسقفاً على ميلانو سنة 373 م. مات ميتة طبيعية . نودي بوالنتيانوس الثاني امبراطوراً بعد موت الأول، فتحكم أمه يوستينا (جوستينا) باسمه.
10 1	378-364	شارك والنس (فالينز) شقيقه والنينيانوس الحكم، ثم سمي امبراطوراً خلفاً لشقيقه. قتل في معركة أدريانوبولس (أدرنة) الشهيرة في التاريخ الروماني- البيزنطي ضد القوط في 28 آب 378 م، وهم يجتازون الدانوب، والتي أباد القوط فيها الجيش الروماني. انتفضت ضده ماوية ملكة العرب التنوخيين وهزمته في معاركها التي استمرت لثلاث سنوات. فعقد معها اتفاقية سلام بعد استجابته لشروطها، وشاركت بعدها في معركة أدرنة وفي معركة الدفاع عن القسطنطينية ضد حصار القوط لها .

ثيودوسيوس الأول امبراطوراً. نجح في صيانة الامبراطورية من التصدع. وضع حداً لثورة ماويه الثانية سنة 383م. شاركه ابنه أركاديوس كحاكم على القسم الشرقي من الامبراطورية من سنة 383، وبقي مستمراً بعد وفاة والده حتى سنة 408. كما شاركه ابنه الثاني هونوريوس كحاكم على القسم الغربي من سنة 393 واستمر حتى 423 م. بذلك شاركا في الحكم معاً بعد وفاة والدهما. تم الاعتراف لأول مرة بالديانة المسيحية كديانة رسمية سنة 392م. وتم تقسيم الامبراطورية رسمياً إلى قسمين: شرقي وغربي: البيزنطية في الشرق وعاصمتها القسطنطينية وعليها أركاديوس، والغربية عاصمتها روما؛عليها هونوريوس. ينعقد مجمع القسطنطينية المسكوني سنة 381 م.	**395-379**	**102**
أركاديوس على الشرق.	408-383	103
هونوريوس على الغرب.	423-393	104
ثيودوسيوس الثاني امبراطوراً بعد موت أبيه أركاديوس، ويبقى امبراطوراً على الشرق حتى موته موتاً طبيعياً.	450-408	105
استطاع فرع من قبائل القوط بقيادة آلاريك احتلال روما في سنة 410 م. واستمرت عموم قبائل القوط في الشرق والغرب بغزوها لأراضي الامبراطورية خلال القرون الثلاثة التالية؛ من الثالث حتى الخامس، ونجحوا في النهاية بإنشاء ممالكهم في القسم الغربي من الامبراطورية، إلى أن تم إنهاء هذه الممالك بالفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية.	**410**	**106**
مارسيان زوج شقيقة ثيودوسيوس الثاني يخلفه. موت طبيعي.	457-450	107
تعاقب على حكم الامبراطورية الرومانية الغربية من سنة 455 حتى تاريخ سقوطها سنة 476 م تسعة من الاباطرة.	476-455	108
اختلف المؤرخون في تحديد فترة العصور القديمة والوسطى. فاتخذ بعض المؤرخين من تاريخ سقوط الامبراطورية في الغرب سنة 476 م حداً فاصلاً بين القديمة والوسطى بسقوط القسطنطينية سنة 1453م على يد القائد العثماني محمد الفاتح.	**476 – 1453**	109
(فترة حكم اسرة ليونيد). حكم ليو الأول ثم ليو الثاني ثم تلاه زينو، ثم جاء بسيليكوس، ثم أناساليوس الأول.	518-457	110
فترة حكم اسرة يوستين (518– 527) م. مات يوستين موتاً طبيعياً.	602-518	111
يوستنيانوس الأول. موت طبيعي.	565-527	112
يوستنيانوس الثاني، والذي عاني من اضطرابات عقلية، فتولى الوصاية طبريوس الثاني من سنة 574 م حتى وفاة يوستنيانوس.	578-565	113
طبريوس الثاني قسطنطين بن يوستنيانوس الثاني بالتبني. ربما مات	582-578	11

4		بسم موريس.
115	602-582	موريس زوج ابنة طبريوس. أجبره فوكاس على التنازل، ثم قام بإعدامه فيما بعد .
116	610-602	فوكاس، الذي تمرد على موريس. أعدمه هرقل سنة 610 م.
117	641-610	الامبراطور البيزنطي هرقل. كان من أصول أرمينية، انتزع الحكم من فوكاس، وقام بإعدامه. هُزمت جيوشه أمام العرب المسلمين. بذلك تم وضع المسمار الأخير في نعش الامبراطورية الرومانية- البيزنطية بعد 700 سنة كاملة من الاحتلال الروماني للمشرق (**64** ق.م حتى **636** م معركة اليرموك)، وألف عام من بداية الاحتلال اليوناني للمشرق (الفترة الهلينستية).

استمر حكم الأباطرة الرومان في الشرق تحت مسمى الامبراطورية البيزنطية (الامبراطورية الرومانية الشرقية) منذ قسطنطين الكبير. مع ذلك كان الأباطرة البيزنطيون يعتبرون أنفسهم روماناً يمثلون الميراث الروماني العظيم، حتى أن الكنيسة الكاثوليكية في الغرب ظلت تعترف بذلك لقرون عديدة إلى أنَ تم تأسيس الامبراطورية الرومانية المقدسة بتتويج البابا ليو الثالث امبراطوراً عليها، وذلك نتيجة للإختلافات العقائدية مع الأرثوذكسية الشرقية.

درج المؤرخون والباحثون على تصنيف وتسمية تاريخ العائلات الرومانية الحاكمة منذ تأسيس الحكم الامبراطوري حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية، إلى السلالات الحاكمة التالية. علماً أنّ العديد من أفراد هذه السلالات لم يرتبطوا بالصفات العائلية والأسرية التي يمكن أن تشفع لمثل هذه التسميات:

الأولى: السلالة اليوليو- كلودية (27 ق.م-68 م) : نسبة إلى يوليوس قيصر وابنه بالتبني أوكتافيوس، وعائلة طبريوس كلوديوس. أسسها القيصر، وحكمها خمسة أباطرة: أوكتافيوس، طبريوس، كاليغولا، كلوديوس، ونيرون. وأكتافيوس كان الوحيد الذي مات موتاً طبيعياً بينهم، بينما مات االباقون بمن فيهم المؤسس موتاً عنيفاً. وقد مثلت هذه السلالة الأرستقراطية والعراقة الرومانية.

الثانية: السلالة الفلوية أوالفلاوية (69-96) م؛ نسبة إلى فلافيوس واسبسيانوس. وضمت ثلاثة أباطرة، هم: واسبسيانوس، طيطوس، ودومتيانوس. وقد مثلت هذه العائلة البرجوازية الحديثة وطبقة الفرسان. كان الأخير الوحيد الذي قتل بينهم.

الثالثة: السلالة الأنطونية أوالأنطونينية (96-192) : نسبة إلى أنطونيوس التقي. وضمت ستة أباطرة: نيروا (نرفا)، ترايانوس (تراجان)، هادريانوس (هادريان)، أنطونيوس التقي، ماركوس (مرقُص) أوريليوس، وكومودوس. وشهدت هذه الفترة السلام في ربوع البلاد، وأطلق عليها : سلالة السلام الروماني Pax Romana (العصر الذهبي). جميعهم مات موتاً طبيعياً ما عدا كومودوس الذي قتله الحرس الامبراطوري.

الرابعة: السلالة السيفرانية- السورية (193-235)؛ نسبة إلى مؤسسها سبتميوس سيفيروس، الذي ولد في مدينة لبدة على الساحل الليبي، وتزوج من الحمصية جوليا دومنا، وانجب منها كراكلا وجيتا. وضمت أربعة أباطرة، هم سيفيروس، كراكلا، الاغابالوس (الاغابال)، واسكندر سيفيروس. مات كراكلا والاغابال واسكندر موتاً عنيفاً من قبل الجيش. أظهرت الجوليات الحمصيات (جوليا دومنا، جوليا ميسا، جوليا سمية/ سوميا، جوليا ماميا) مقدرة كبيرة على تسيير أمور الدولة خلال هذه الفترة. راجع الفصل الذي يتحدث عن جوليا دومنا. وتخلل هذه الفترة استيلاء الجنرال ماكرينوس الحكم لمدة سبعة أشهر تقريباً.

فترة "الطغاة الثلاثون": وهي الفترة التي شهدت الأزمة الامبراطورية في القرن الثالث والرابع، وابتدأت بحكم الامبراطور دكيُوس سنة 253 م، وأطلق عليها على سبيل المجاز" عهد الطغاة الثلاثين"، قياساً على مثل هذه الفترة في تاريخ الإغريق المسماة بهذا الاسم. فانتشرت الفوضى والحروب وكثر التطاحن بين أدعياء العرش، وانقسم ولاء الجنود، واشتد ضعف السلطة المركزية في روما، وأعلنت الكثيرمن الولايات استقلالها، وهددت غزوات البرابرة (القوط والجرمان والغال..) المتتالية الامبراطورية، كما شهت هذه الفترة ايضاً معارك عسكرية طاحنة بين الرومان والفرس على الأطراف الشرقية، إضافة إلى ثورة تدمر وثورتي الملكة ماوية في سورية. وقضى معظم أباطرة هذه الفترة بالموت العنيف، وتعرضت أنحاء الامبراطورية إلى فترات من الطغيان والاضطهاد.

الخامسة: سميت الفترة من تسنم ديوقلتيانوس (284-364) م بفترة الهيمنة، التي بدأها ديوقلتيانوس بالحكم الرباعي، ثم جاء بعده قسطنطين الكبير، ثم خلف ابنه قسطنطيوس، ثم جاء يوليانوس (جوليان) المرتد، وأقفل يويانوس سنة 364 م. وشهدت هذه الفترة تحولات عظيمة في تاريخ الامبراطورية.

السادسة: السلالة الوالنتينية (364-392)؛ نسبة إلى والنتيانوس الأول، وضمت والنتيانوس الأول، ووالنس، وغراسيان، ووالنتيانوس الثاني.

السابعة: سلالة ثيودوسيوس (379-457) م؛ نسبة لمؤسسها ثيودوسيوس الأول.

ثانياً: العصور اليونانية

وهي استعراض موجز لتطور القوة المقدونية وغزو الأسكندر المقدوني للشرق، وتتضمن لائحة بحكام الأسرتين: السلوقية التي حكمت منطقة آسية العربية وبعضاً من أجزاء آسية الصغرى المجاورة، والبطلمية التي حكمت مصر.

تعود نسبة الهلينيين إلى هيلاس وطنهم الأصلي. ويفهم أهل اليونان من كلمة هيلانيين أو هيلينيين معنى أوسع إذ قال قدماؤهم: حيثما يوجد هيلانيون يوجد هيلاس. وهذا يعني أن لفظ هيلاس يشمل كل بقعة سكنها اليونان، بما فيها: شبه جزيرة اليونان وجزر بحر إيجة وشواطئه، الأناضول، جنوبي ايطالية، صقلية وسواها في

المتوسط وعلى شواطئ الدردنيل والبحر الأسود[1]. وتستخدم الصفات التالية: هليني وإغريقي ويوناني بمعنى واحد.

أطلق معظم مؤرخو الشرق القديم تسمية اليونان، بينما أطلق عليهم مؤرخو الغرب القديم الإغريق، وهذا اللفظ أو التسمية ما زالت سارية إلى الآن. وينقسم تاريخ اليونان القديم إلى قسمين رئيسيين:

الأول: ما قبل الحروب الفارسية: وصول سكروبوس المصري في القرن السابع عشر ق.م إلى الساحل اليوناني حاملاً معه فنون وآداب وحكمة بلاد النيل، فبنى سكروبيا التي تطورت لتصبح أثينة، ومُلك عليها سنة 1657ق.م. ثم قدم إليها قدموس الفينيقي ومعه الحروف الهجائية، فبنى مدينة طيبة (اليونانية وليس المصرية)، ومُلك عليها سنة 1580 ق.م. ونشبت سلسلة طويلة من الاقتتال بين المجموعات اليونانية المتعددة، أهمها:

1- حرب الولاة السبعة في القرن الرابع عشر ق.م لاستعادة طيبة من أوتوكول.

2- الحرب لطرد الفينيقيين من طيبة.

3- حروب طروادة التي استمرت عشر سنوات (1194-1184) ق.م، والتي نظم فيها الشاعر اليوناني هوميروس رائعته الشعرية الخالدة "الإلياذة".

4- الحرب الدورية سنة 1104 ق.م، والتي استعاد فيها أحفاد البطل الأسطوري اليوناني هيراكليس (هرقل) السلطة التي أسسها جدهم.

وكان من تأثيرات هذه الحروب أن بدأت هجرات الكثير من اليونانيين إلى بلاد الأناضول في الشرق، وأهم هذه الهجرات ثلاث:

الأولى: استوطن فيها الأيوليون الشمال الشرقي من الأناضول.

الثانية: استقر فيها الأيونيون على التخوم الجنوبية لمواطن الأيوليين، وبنوا مدنية عظيمة، منها إفسوس، وميلتيس.

الثالثة: هجرة الدوريين، حيث استولوا على جزيرتي خوس وردوس وكريت.

وبدأت المنافسة والسباق يشتدان تدريجياً بين الحواضر اليونانية العظمى: أثينة واسبرطة وطيبة. فاشتهرت الأولى بعلمها وثقافتها، والثانية ببطولتها وحروبها، والثالثة بفنونها. ويميل النفوس الإنسانية للتباين والاستئثار نتيجة تفرق القوى اليونانية في مستعمرات آسية وأوربة وأفريقية، ظهر الحكام الطغاة واستأثروا بالمصالح العامة. إلا أنّ اليونانيين استطاعوا في النهاية، وخاصة الأثينيون، الوصول إلى الحل الديمقراطي الذي اشتهروا به.

الثاني: من النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد إلى ظهور الأسكندر، حيث بدأ النشاط اليوناني بالاصطدام بالنفوذ الفارسي، فاحتل كورش العظيم ليدية واسر ملكها. وبعد فترة ثار الأيونيون سنة 500 ق.م ضد الاحتلال الفارسي، لكنهم لم يفلحوا في ثورتهم. وهكذا بدأت الحروب اليونانية- الفارسية أوارها، فكانت سجالاً بينهما. لكن

(1) - د. مصطفى العبادي "تاريخ اليونان القديم"، ص 7. مكتبة الأنجلو المصرية.

اليونان انتصروا على الفرس في المعارك التالية: معارك ماراثون سنة 490 ق.م، ومعركة ترموبيلي سنة 480 ق.م، ومعركة بلاتيا سنة 469 ق.م. وقد تبارى الخطباء والشعراء والكتاب والفنانون الإغريق بتمجيد وتخليد هذه الانتصارات وبطولاتها.

لكن هذه الانتصارات بدأت تعطي ثمارها العكسية على بلاد اليونان، لا سيما أثينة واسبرطة. حيث حسدت إحداهما الآخرى، فنشبت الحروب البلوبونيسية بين اسبرطة وأثينة، والتي استمرت لسبع وعشرين عاماً (431-404) ق.م، وانتهت بانتصار اسبرطة وتلاشي القوة الأثينية. وهكذا قبضت اسبرطة على السيادة اليونانية لمدة 33عاماً، إلى أن انتصر عليهم الطيبيون في معركة لكترا سنة 371 ق.م. تحولت بعد ذلك قيادة اليونان إلى مقدونية.

ومقدونية منطقة في البلقان تقع إلى الشمال من بلاد اليونان، عرفت كمملكة سنة 814 ق.م، فأصبحت أدوارها معروفة في أواسط القرن السادس ق.م أيام ملكها اميندا‌س الأول الذي خضع لداريوس الأول ملك الفرس. وهكذا تناوب الملوك على مقدونية حتى تم الأمر لفليب بن أميندا‌س الثاني عام359 ق.م.

اهتم فيليب قبل كل شئ بتنظيم الجندية، فاخترع نظام الفالانكس، وهو ترتيب صفوف كتيبة من أقوياء الجند يحملون رماحاً طويلة، متى بسطوها أمامهم كانت لهم سياجاً من حديد، يطعنون بها أعداؤهم وهم في مأمن. ثم درب الفرسان على فنون الحرب والطعان، فألف قلب الجيش من صفوف المشاة المتراصة، وجعل جناحيه من الفرسان، وجعل القوة المؤلفة من القلب والجناحين تزحف كلها معاً كأنها آلة حربية واحدة لا تقاوم. فلما رأى اليونان كفاءات فيليب العملية في هذه الأنظمة الفريدة، أخذوا بالاصطفاف وراءه كقائد جديد رأوا فيه زعامة واحدة حازمة منظمة وقوية تعرف ما تريد. فرأى فيليب بحس من فراسته أن يبدأ بفتح الأقاليم الضعيفة المقاومة أولاً. وهكذا، حتى استطاع توسيع نطاق مملكته حتى بلغ الدانوب شمالاً والدردنيل شرقاً. ونشبت معركة خيرونا الفاصلة في عام 338 ق.م بين قوات فيليب وقوات المعارضة بقيادة ديموستين- الخطيب الذي عمل على معارضة فيليب- فكانت الغلبة لفيليب الذي نجح في أخذ منصب الزعامة الكاملة عليها ما عدا اسبرطة.

اختلف فيليب مع زوجته أولمبياس (والدة الأسكندر) في أواخر أيامه، فطلقها وتزوج من كليوبترا، فخلف منها ولد. وحاول فيليب تعيين ابنه الصغير من كليوبترا ولياً للعهد، مما أدى لاستياء مناصري الاسكندر، ففتكوا بفيليب إبان حفلة زفاف ابنته عام 336 ق.م، وتسلم الأسكندر العرش، وهو ابن عشرين.

ولد الاسكندر المقدومي في 29 تموز سنة 356 ق.م، فعهده والده إلى ليسيماك لتعليمه وتهذيبه. ولما بلغ الثالثة عشر أوكله إلى الفيلسوف أرسطو حيث عني به عناية خاصة. وكانت إلياذة الشاعر هوميروس أول شيء تعلمه. فنشأ منذ حداثته مولعاً بالحرب حالماً بالمجد. ومن أخبار صباه، أنه كان يعلق على أخبار انتصارات والده

الحربية، بالقول: لم يترك لي شيئاً لأخذه. ويروى أن المبعوث الفارسي داعب الاسكندر الصغير وهو في زيارة لقصر والده، فرأى مسلكاً يختلف عن مسالك الصغار من أقرانه؛ وذلك عندما بدأ الصغير يسأله عن أقصر الطرق وأسهلها للوصول إلى بلاد فارس، وكم تبعد عن مقدونية؟ وما هي مواقفكم إبان الحرب؟ إلى غير ذلك من أسئلة تهم القادة.

أتقن الاسكندر الفصاحة والفلسفة والأخلاق والصحة. وكتب لمعلمه أرسطو إبان قيادة قواته في الشرق: " إن شغفي بالتفوق هو في إدراك الأمور السامية، وهو عندي أهم من تفوقي عليهم بالعظمة والسيطرة". كان صارماً لدرجة العناد ومقداماً لحد التهور، حيث أدهش المرافقين له لما أبداه من ضروب الشجاعة والإقدام خلال مشاركته في المعارك التي رافق والده خلالها. كما أظهر كفاءة خلال نيابته عن أبيه وهو في السادسة عشرة.

اهتم، بداية بإحلال الأمن في البلاد، فقضى على كل من توقع منه المعارضة أو المزاحمة، ثم أثبت ملكيته على جميع بلاد اليونان فانتخب رئيساً عاماً مثلما كان أبوه، ولم يعارض في ذلك إلا اسبرطة التي تولى أمرها لاحقاً.

اتجه الاسكندر بجحافله نحو الشرق بعد أن استتب له الحال في أورية، ففتح مصر، وبنى الاسكندرية، وأقام فيها لفترة. وسلك الساحل السوري متجهاً نحو الشرق، فاحتل سورية[1] والأناضول، وفاز على الفرس بثلاث معارك كان أولها: معركة نهر غرانكوس قرب سواحل مرمرة في ربيع عام 334 ق.م، وثانيها، في معركة مضيق أيسوس قرب الأسكندرون في 29 آب 333 ق.م، فهزم جيش داريوس الضخم، وأسر والدة داريوس وامرأته وابنه، وثالثها، معركة أربيل على ضفاف دجلة في 2 تشرين الثاني سنة 331 ق.م، حيث تفرق شمل الفرس وتمزقت قواتهم. وأكمل فتح فارس خلال ثلاث سنوات، ثم اتجه بعدها لفتح شبه القارة الهندية، فاجتاز جبال هندكوش في ربيع 326 ق.م. وعاد بعدها إلى بابل سنة 324 ق.م، وأخذ يسعى بتنفيذ خطته العظيمة بمصاهرة الفرس واليونان في وحدة عالمية واحدة، فتزوج من فارسية وأجبر قادته أن يفعلوا ما فعل، ثم أدخل في الجيش اليوناني عدداً كبيراً من جنود الفرس لكي يصهر الجميع في دولة وأمة عالمية واحدة. لكن ذلك لم يرق للكثير من كبار معاونيه.

ولأنَ الحظ لم يبتسم لأحلام الأسكندر، أو لليونان، أو للعالم، قضى الرجل في بابل سنة 323 ق.م دون أن يعين من يخلفه. ولما طلبوا منه تعيين من يخلفه، أجابهم: أكثركم أهلية. ولو أنه عاش لمدة أطول فلربما تغير تاريخ العالم.

---

[1] – احتل الاسكندر سورية وفينيقية سنة 332 ق.م بادئاً من شمال الساحل السوري متجهاً نحو الجنوب، وذلك باستسلام جميع مدن الساحل ماعدا صور التي رفضت السماح للاسكندر بدخول المدينة ليقدم القرابين لجده الأعلى"ملقارت"؛ الإله الفينيقي الشهير، الذي ادعى الاسكندر انحداره منه. وكان رفض أهالي صور للزيارة تعني لهم عدم اعتراف الإله ملقارت بحق الاسكندر في سيادته على المدينة. ورداً على رفضهم قام الاسكندر بحصار المدينة لسبعة أشهر استطاع في نهايتها اختراق أسوارها بهجوم ساحق مستخدماً الأبراج والجسور، وارتكب مذبحته المشهورة بقتل الآلاف من الصوريين وأسر أكثر من ثلاثين ألفاً بيعوا في أسواق العبيد.

أدت مطامع خلفاء الأسكندر إلى نشوب نزاعات وحروب بينهم، فقتل أثناءها الكثير. مما أدى إلى اقتسام القادة الظافرين في المعارك امبراطوريتة إلى:

1- القائد كساندر على مقدونية وسائر بلاد اليونان.

2- القائد ليسيماس على تراقية وآسية الصغرى.

3- القائد بطوليمايوس (بطليموس) على مصر واليهودية وفينيقية.

4- القائد سلوقس على سورية الشمالية وما بين النهرين إلى الهند. وقد سميت الدولة التي تسلطنت على سورية بالدولة السلوقية نسبة إلى المؤسس سلوقس الأول. وحكم السلوقيون دهراً امتد من 312 ق.م إلى تاريخ الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م بقيادة القائد الروماني الشهير بومبيوس.

السلالة السلوقية التي حكمت سورية وآسية الصغرى

نوجز تاريخ ملوك هذه السلالة التي حكمت سورية الشمالية بالتسلسل التالي:

1	سلوقس الأول (سلوقس نيكاتور)	**312- 280** ق.م	أحد كبار ضباط الاسكندر ومعاونيه وموضع ثقته. بنى 24 مدينة؛ أولها سلوقية على دجلة اتخذها عاصمة له، ثم أنطاكية التي نقل إليها العاصمة، وأفامية، وسواها. مات عن73عاماً.
2	أنطيوخس الأول	280- 261	خلف والده على العرش. ولقب (سوتر/ المنقذ). قتل في معركة قرب إفسوس سنة 261 ق.م
3	أنطيوخس الثاني لقب (ثيوس)	261- 246	خلف والده. وجرت حروب طاحنة بينه وبين ملك مصربطليموس فيلادلفوس تصالحا بعدها. ومات بسم قرينته برنيكيا بنت بطليموس سنة 246 ق.م لأنه أعاد زوجته لاوديكا.
4	سلوقس الثاني لقب (كالينيكوس)	246- 225	ابن أنطيوخس الثاني من زوجته لاوديكا. قتل برنيكيا بعد اعتلائه العرش، فثارعليه أخوها ملك مصر فغزاه. وضم عدة ولايات من سورية إلى مملكته. أسره البرثيون الفرس في 231 ق.م، وبقي في الأسر حتى مات سنة 225 ق.م.
5	سلوقس الثالث	225- 222	قتل بعد ثلاث سنوات من حكمه.
6	أنطيوخس الثالث لقب (الكبير)	222- 187 ق.م	ابن سلوقس الثاني. لقب بالكبير لإعادته الوحدة إلى سورية. وقعت حرب بينه وبين الروم على خلفية لجوء البطل القرطاجي هانيبعل إليه، لكنه لم يوفق فيها. قتل عام 187 ق.م.
7	سلوقس الرابع	187- 175	ابن أنطيوخس الثالث (فيلوباتور). مات مسموماً

8	أنطيوخس الرابع لقب (إبيفانوس)	175 -164	ثاني أولاد أنطيوخس الثالث. حارب ملك مصر لأربع سنوات (171-168) ق.م. فرغت خزينته بسبب الحروب، فنهب هيكل أورشليم، فثار عليه اليهود، فاضطهدهم، فظهرت الفتنة المكابية التي خلفت آثاراً هامة في تاريخ سورية.
9	أنطيوخس الخامس	164 -162	خلف والده أنطيوخس الرابع. مات مقتولاً. لقب (يوباتور).
10	ديمتريوس الأول (سوتر)	162 -151	ابن سلوقس الرابع. قتل يهوذا المكابي في إحدى المعارك، ثم تصالح مع اليهود سنة 158ق.م. اعترف به الرومان ملكاً على سورية سنة 156 ق.م. وقتل سنة 151 ق.م.
11	اسكندر بالاس	151 -146	سلاي الأصل؟ نازع ديمتريوس على العرش، فأكرهه على الفرار، فاستأثر بالحكم وتزوج من كليوبترا بنت بطليموس فيلوباتور. قتل.
12	ديمتريوس الثاني	146 -138	ابن ديمتريوس الأول. لقب (نيكاتور). أسقط ونصب مكانه ابن اسكندر بالاس.
13	أنطيوخس السادس	144 -142 .	ابن اسكندر بالاس من زوجته كليوبترا (ثيوس). ولحداثته عين عليه وصياً ديودورس الأفامي.
14	ديودورس الأفامي (تروفون)	142 -137	بعد اغتصابه العرش (مغتصب العرش) حدث نزاع بينه وبين أنطيوخس السابع، ففر إلى أفاميا وقتل سنة 138 ق.م.
15	أنطيوخس السابع لقب (سيديتي)	137 -128	ثاني أولاد ديمتريوس الأول. تزوج من امرأة أخيه كليوبترا في 141ق.م، وبمساعدتها تمكن من ارتقاء العرش. قتل على الجبهة الفارسية.
16	اسكندر زابيناس	128 -123	اسكندراني الأصل لأب دلال. أعلن نفسه ابن اسكندر بالاس بتشجيع من ملك مصر لمنازعة ديمتريوس الثاني الملك. اعتلى العرش بين (128 - 125) ق.م. وقتل سنة 123ق.م.
17	ديمتريوس الثاني	128 -125	عاد ديمتريوس الثاني (نيكاتور) إلى الحكم.
18	سلوقس الخامس	125	لمدة عام واحد.
19	أنطيوخس الثامن (غريفوس)	125 -116	ابن ديمتريوس نيكاتور من كليوبترا. حكم لست سنوات، ثم اختلف مع أخيه من أمه أنطيوخس كيزيك، مما اضطره للفرار سنة 116 ق.م.
20	أنطيوخس التاسع	122 -96 ق.م	بعد عودة غريفوس من فراره بجيش عظيم، اقتسم المملكة مع كيزيك الذي كان من نصيبه

	لقب (كيزيك)		سورية المجوفة وفينيقية، والباقي لغريفوس. ساد كيزيك على كامل سورية بعد غريفوس، انتحر سنة 95 ق.م لما غلبه سلوقس السادس.
21	سلوقس السادس (إبيفانوس)	97- 93 ق.م	أحد أبناء غريفوس. تبوأ عرش أنطاكية. انتصر على كيزيك بعد سنتين. زاحمه بيوس، ففر إلى كيليكية، فتتصل السكان منه سنة 93 ق.م.
22	أنطيوخس العاشر (بيوس)	95- 92	ابن كيزيك. تمرد عليه أبناء غريفوس فغلبوه سنة 92 ق.م، ففر إلى برثية، ويعتقد أنه مات هنالك سنة 75 ق.م.
23	أنطيوخس الحادي عشر	92- 90	أحد أبناء غريفوس. لقب (فيلادلفوس). غرق في نهر العاصي أثناء هروبه سنة 90 ق.م.
24	ديمتريوس الثالث (أوثر)	90- 83	رابع أبناء غريفوس. ساعده ملك مصر لاعتلاء العرش. عاد بيوس من برثية بإمدادات فارسية، فاستحوذ سنة 89 على بعض أعمال سورية.
25	أنطيوخس الثاني عشر (دانيس)	88- 83	خامس أبناء غريفوس. وقد أخذ دمشق من أخيه دمتريوس، وسمى نفسه ملك سورية المجوفة، وبقي حتى عام 86 ق.م.
26	ديكران	83- 69	نفر الناس جميعاً من أبناء غريفوس لاستمرار الصراع بينهم على الملك، فاستقدموا الأرميني ديكران، فملكوه عليهم، وبقي ملكاً على سورية لأربعة عشر عاماً
27	انطيوخس الثالث عشر (الآسيوي)	69- 64 ق.م	ابن أنطيوخس العاشر. أخذ لقب الآسيوي لأنه تربى في آسية. غلبه القائد الروماني بومبيوس سنة 64 ق.م.

بالاحتلال الروماني، أغلق تاريخياً حكم السلالة السلوقية إلى الأبد. حيث صارت سيرتهم تاريخاً فقط، إذ لم يُظهر تاريخهم الأثر والجاذبية المرتقبين أو الرسالة التي يمكن القياس عليها في مسيرة الأمم والدول والحضارات.

السلالة البطلمية التي حكمت مصر

بدأت سلالة البطالمة- أبناء عمومة السلالة السلوقية- في حكم مصر بمؤسسها الأول الأسكندر المقدوني في 332 ق.م، وانتهت بموت الملكة كليوبترا (السابعة) بالاحتلال الروماني لمصر سنة 30 ق.م..

احتل الأسكندر المقدوني مصر سنة 332 ق.م بعد فتحه لسورية الكبرى. وكانت سورية ومصر تحت حكم الإدارة الفارسية الأخمينية حينها. فقام ببناء مدينة الأسكندرية

التي سماها على اسمه، وأصبحت مشهورة بمكتبتها العظيمة ومنارتها المضيئة على الشاطئ والتي عدت من عجائب الدنيا السبع.

عين الأسكندر كليومانص النقراطيسي سنة 331 ق.م حاكماً مالياً على مصر وبقي حتى وفاة الأسكندر. ولا يعد النقراطيسي من بيت الحكام البطالمة.

يعود اسم السلالة (البطالمة) التي حكمت مصر إلى اسم المؤسس الأول لحكم العائلة، وهو القائد المقدوني بطليموس الأول، الذي لقب نفسه (سوتر، أي المنقذ) حيث كان من ضباط الأسكندر الكبار ومن أخلص أصدقائه. فأصبحت مسؤولية الحكم في مصر وفلسطين وفينيقية من نصيبه بعد موت الأسكندر في بابل سنة 323 ق.م. ولما تمكن من تأسيس ملكه أعلن نفسه ملكاً في سنة 304 ق.م، وبذلك عدَ تاريخياً المؤسس الأول لحكم هذه العائلة. وفيما يلي لائحة[1] بأسماء حكام العائلة منذ بدايتها حتى نهايتها، وأهم الأحداث الرئيسية التي مرت بهذه الفترة. وقد أدت فترة الصراعات الأسرية (180-51) ق.م إلى خطر تعرض الدولة المصرية البطلمية في النهاية إلى الوقوع تحت السيطرة الرومانية. ويلاحظ اشتراك أكثر من ملك أو حاكم في فترة الحكم الواحدة.

1	بطليموس الأول (سوتر: المنقذ)	**282-323** ق.م	المؤسس لحكم الإغريق في مصر، حكم والياً على مصر بين (323- 304/305)، وملكاً بين (305-282). شاركه في الحكم ابنه بطليموس الثاني من عام 285 حتى وفاته سنة 282 ق.م.
2	بطليموس الثاني (فيلادلفوس)	246-285	أحب البذخ على عكس أبيه الذي كان جندياً ومثقفاً من الطراز الرفيع.
3	بطليموس الثالث	221-246	لقب نفسه: يوراغيتس الأول.
4	بطليموس الرابع	204-221	لقب نفسه: فيلوباتور.
5	بطليموس الخامس	180-204	لقب نفسه: إبيفانوس.
6	بطلموس السادس لقب نفسه (فيلوميتور)	170-180 145-168	بدأت فترة المنازعات الأسرية (180-51). تولى العرش وهو في السابعة تحت وصاية أمه الملكة كليوبترا الأولى، حكم على فترتين: الأولى (180-170)، والثانية (168-145). وفي عام 170 رأى البلاط الحاكم تدعيماً للحكم بمناسبة غزو أنطيوخس الرابع ملك سورية السلوقي أن يشرك مع الملك أخاه الأصغر بطليموس الثامن، وأخته كليوبترا

[1] – أيدوس بل: استاذ علم البردي بجامعة اكسفورد في كتابه "مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي": دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها. نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية – بيروت، لبنان. بالإضافة إلى المقارنة مع لوائح أخرى.

			الثانية- وهي زوجته أيضاً.
7	بطليموس السابع لقب بـ نيوس فيلوباتور أي فيلوباتور الجديد	145-145	ابن بطليموس السادس. حكم لأشهر قليلة تحت وصاية أمه الملكة كليوبترا الثانية لقصوره، وذلك بعد مقتل والده في معركة بينه وبين ملك سورية السلوقي على أرض فلسطين. والضن الغالب أن عمه بطليموس الثامن تخلص منه ليتولى العرش منفرداً.
8	بطليموس الثامن لقب نفسه (يوراغيتس الثاني)	163-170 شارك أخاه في الفترة الأولى وحكم منفرداً من 116-145	هو عم السابع وأخ السادس. أخذ العرش بعد عودته من برقة، تزوج أخته الكبرى أرملة أخيه التي هي أخته، ثم تزوج من ابنتها سنة141، وجعلها الملكة كليوبترا الثالثة. فهوعمها وخالها وظلت الثانية تحكم معه بلقب " الملكة كليوبترا الأخت". لقبت الثالثة بالملكة كليوبترا الزوجة". حكم على فترتين: (170-163)؛ احتل فيها ملك سورية السلوقي مصر، والثانية (145- 116)
9	كليوبترا الثانية	127-131	لقبت نفسها: فيلوميتورا سوتيرا
10	كليوبترا الثالثة (فيلوميتورا سوتيرا: كوكي)	101-116	شاركت ابنها القاصر بطليموس التاسع وزوجته كليوبترا الخامسة الحكم (116-107) ق.م، ثم شاركت ابنها بطليموس العاشر بعد استدعائه من قبرص من سنة 107 إلى 101.
11	بطليموس التاسع لقب (سوتر الثاني؛ لاتيروس)	107-116 ومن 88- 81	شاركته أمه كليوبتر االثالثة (116-107)، ومن (88-81) ق.م، فحكم مصر وقبرص معاً بعد نجاح الشعب والجيش في الاسكندرية بالثورة على أخيه بطليموس العاشر وطرده.
12	بطليموس العاشر (اسكندر الأول)	107- 88	مشتركاً مع أمه كليوبترا الثالثة من 107 إلى 101، ومع زوجته برنيقية من 101 إلى 88 ق.م.
13	بيرينيس الثالث	81- 81	حكم لمدة عام واحد. لقب نفسه (فيلوباتور).
14	بطليموس الحادي عشر	80	حكم لعام فقط. لقب (أسكندر الثاني). أوصى أن تؤول مصر بعد موته إلى الشعب الروماني.
15	بطليموس الثاني عشر (ديونيسيوس الصغير)	80 – 58 55- 51	والد كليوبترا السابعة ملكة مصر. حكم مرتين: من (80- 58)، ومن (55-51)، ومع ابنته كليوبترا السابعة. ومع بطليموس الثالث عشر من 52 إلى 51 ق.م. واشتهر بلقب الزمار.
16	كليوبترا الخامسة	58- 57	(تريفانية) حكمت بالمشاركة مع برنيقة الرابعة. وحكمت الرابعة مع أرخيلاس من 56-55 ق.م.
17	كليوبترا السادسة	58- 55	(إبيفانا). تشاركت الحكم مع الخامسة.
18	كليوبترا السابعة لقبت	**51- 30**	الملكة الشهيرة في التاريخ. شاركها الحكم (51 –47)

	(ثيا نيوتيرا)	ق.م	أخيها بطليموس الثالث عشر، ومع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر (47-44). حكمت منفردة (44-36)، ومع ابنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون) من 36 إلى 30 ق.م.
19	بطليموس الثالث عشر (فيلوياتور)	51 -47	الأخ الأكبر لكليوبترا السابعة وزوجها. شارك كليوبترا الحكم خلال هذه المدة.
20	بطليموس الرابع عشر (فيلوياتور)	47 -44	الأخ الأصغر لكليوبترا وزوجها. شاركها الحكم خلال هذه الفترة.
21	بطليموس الخامس عشر (قيصرون)	36 -30 ق.م	هو ابن يوليوس قيصر وكليوبترا، لكن يوليوس قيصر لم يعترف شرعياً ببنوة قيصرون.

عاشت كليوبترا كعشيقة ليوليوس قيصر من سنة 48 حتى 44 ق.م، فأنجبت منه قيصرون. كما تورطت في قصة حب درامية مع القائد الروماني ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) بعد رحيل قيصر. وماتت منتحرة بسم الأفعى (سنة 30 ق.م) كما جاء في معظم الروايات التاريخية.

ثالثاً: السلالة الساسانية الفارسية

السلالات التي حكمت الامبراطورية الفارسية وأهم الأحداث خلال هذه الفترة، وبخاصة السلالة الأخيرة (الساسانية):

الأولى: السلالة الأخمينية: حكمت من539 إلى 330 ق.م تاريخ سقوطها بانتصار الأسكندرعلى ملكها داريوس الثالث (دارا). وكان قد اسسها قورش الكبير، وحكم بعده اثني عشرملكا كان آخرهم داريوس الثالث (قدمانوس) حفيد داريوس الثاني.

الثانية: السلالة البرثية التي حكمت بلاد فارس من 250 ق.م حتى 226 م.

الثالثة: السلالة الساسانية، حكمت بلاد فارس من سنة 226 م حتى قضى الفتح العربي الإسلامي على آخر معاقلها سنة 651 م، وبذلك انتهت الامبراطورية. بينما انتهى الحكم الفارسي في العراق سنة 638 م بانتصار العرب المسلمين في معركة القادسية. وفيما يلي عرض سريع لملوك وأكاسرة هذه العائلة.

	اسم الملك /الحاكم	فترة الحكم	الأحداث
1	أردشير الأول (مؤسس السلالة)	226-241 ميلادي	قضى أردشير على حكم السلالة البرثية في نهاية حرب السنوات الثلاث التي دارت بين الطرفين (224- 226). وشهدت بداية حكمه الحرب مع روما (229-231). بُعثت الديانة الزرادشتية كديانة رسمية، وتم جمع"الزند-أفيستا المقدسة".

2	سابور الكبير (الأول) (شهبور/ شابور)	**272-241**	جرت الحرب الأولى في عهده مع الروم بين (241-244)، والثانية (252-261)، واسر فيها الإمبرطور الروماني واليريانوس، والذي مات في الأسر. انتشرت الديانة المانوية في عهده.
3	هرمز الأول	273-272	شهدت الفترة بين (271-273) صراعاً عائلياً دموياً على السلطة.
4	بهرام الأول	276-273	
5	بهرام الثاني	293-267	
6	بهرام الثالث	293	
7	نارسي	302-293	
8	هرمز الثاني	309-302	
9	سابور الثاني (شهبور/ شابور)	379-309	استعرت الحرب الأولى مع الرومان بين (337- 350) بنجاح متواضع للفرس، ونشبت من جديد بين (359-363). أعادت روما مناطق عبر دجلة إلى الفرس، كما سلمتهم نصيبين وسنجارا.
10	أردشير الثاني	383-379	
11	سابور الثالث	388-383	تم تقسيم أرمينية بين الفرس والرومان.
12	بهرام الرابع	399-388	
13	يزدجرد الأول (مرتكب الخطايا)	420-399	سمح للمسيحيين بحرية العبادة، لكنه شن عليهم حملة اضطهاد عنيفة في أواخر حكمه.
14	بهرام الخامس	438-420	خاض حرباً ضد روما بين (420-422). وضم مناطق من أرمينية. أعلن مجمع داد إيشو Dad Ishu الكنسي استقلال الكنيسة الشرقية عن القسطنطينية.
15	يزدجرد الثاني	457-438	اشتعلت الحرب مع بيزنطة سنة 441. واشتعلت الثورة في أرمينية طلباً للاستقلال خلال سنوات (449-451).
16	هرمز الثالث	459-457	
17	بيروز الأول	484-459	واجه طلب الثورة الأرمينية للاستقلال بين السنوات (482-483) م. وصدر مرسوم التسامح الديني مع المسيحية والمسيحيين في عهده.
18	نالش	488-484	
19	قبادة الأول (قباذ الأول)	531-488 ميلادي	اشتعلت الثورة الأرمينية الثالثة (491). ووقعت الحرب الأولى مع بيزنطة بين (502- 506). ورفضت الكنيسة الأرمينية الاعتراف بالمجمع الكنسي الخلقدوني. وأصبحت النسطورية سيدة المسيحية في بلاد فارس.
20	خسرو الأول لقب بـ (روح أنوشروان)	**579-531**	استمرت الحرب الثانية مع القسطنطينية من 540 إلى 562، ثم اشتعلت من جديد من 572 حتى عام 591.

	الخالدة)	ميلادي	فاضطرت فارس إلى تسليم الأراضي الفارسية من أرمينية إلى بيزنطة.
21	هرمز الرابع	590-579	الحرب مع القسطنطينية (572-591).
22	بهرام السادس	591-590	
23	بيستام	595-591	
24	هرمز الخامس	595	
25	خسرو الثاني جرت معركة (ذي قار) في عهده	628-595 ميلادي	خاض حرباً طويلة ضد بيزنطة (603-628)، واحتل القسم البيزنطي من بلاد الرافدين، ثم سورية وفلسطين ومصر، ومعابر القفقاس. لكن سرعان ما تراجعت جيوشه إلى الحدود السابقة قبل بدء الحرب أمام الهجوم البيزنطي المضاد. انتصر العرب على الفرس في معركة "ذي قار" الشهيرة (**610**) م. وفشل الحصار الفارسي على القسطنطينية سنة 626. غزا هرقل بلاد الرافدين فأحرز نصراً حاسماً في معركة نينوى (627) م.
26	قباذ الثاني	628	شهدت الفترة من 628 حتى 632 فوضى تنازع عارمة على الحكم اشترك فيها ثمانية أكاسرة.
27	أردشير الثالث	630-628	
28	شهربراز	630	
29	بوران دوكهت	631-630	امبراطورة.
30	بيروز الثاني	631	
31	أزرميد دوكهت	631	امبراطورة.
32	كور زاده خسرو	631	
33	هرمز السادس	632-631	
34	يزدجرد الثالث	**651-632** ميلادي	انتصار العرب المسلمين على الفرس في القادسية سنة **638** م. وتم انتصارهم النهائي في معركة النهاوند (642). فوضعت نهاية الامبراطورية التي دامت لأكثر من الف عام، بعد مقتل آخر ملك هارب من ملوكها سنة 651. وقامت هذه الامبراطورية بدور القوة الجبارة المحركة الثانية في هذه الفترة التاريخية المديدة والمثيرة.

لمحة سريعة عن بعض شعوب الشرق القديم

1- الحثيون: غُلف تاريخهم وأصلهم بالغموض، ولكن يعتقد أنهم أقوام هندو- أوربية موطنهم الأصلي بلاد البلقان التي هاجروا منها أول الأمر إلى بلاد الأناضول، ثم أخذوا يتسربون شيئاً فشيئاً إلى سورية، إلى أن بدأت شوكتهم تقوى إزاء تراجع الحوريين

والميتانيين والمصريين، فصارت مملكتهم عظيمة شديدة البأس في الحروب. امتدت امبراطوريتهم بين (2100-1250) ق.م. وكان لهم عدد من المراكز الحربية، منها: كركميش في الشمال الأقصى، وآخر عند مصب العاصي، وقادش في وادي العاصي. وامتد النفوذ الحثي على جنوب شرق تركية وبلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) وشمال ووسط سورية حتى فلسطين، فأخضع الإمارات السورية حينها للدوران في فلكه. وقد استباحوا بابل سنة 1595 ق.م، ثم تركوها خراباً. وبعد احتلالهم لبلاد الرافدين تبنوا القوانين والديانة والثقافة البابلية القديمة. وكانت مملكتهم في أعظم قوتها بين القرن السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد. وبعد أن بسط الآشوريون نفوذهم على بلاد الرافدين حوالي 1300 ق.م بقيت المدن والأراضي الحثية تناضل للحفاظ على استقلالها حتى اجتاحتها القوات الآشورية، وما يسمى بشعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكان من أهم مدنهم في سورية حمصين- لم يكن اسم حمص معروفاً حينها- التي ربما كانت عاصمة لهم، وحماة. وقد نشأت الممالك الآرامية على أنقاض المملكة الحثية بدءاً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

شن الحثيون هجمات عنيفة على المصريين بين (1300-1200) ق.م أدت إلى استنزاف القدرات الحثية والمصرية على السواء. دارت معركة من أهم معارك التاريخ القديم بين الطرفين استخدم فيها الطرفان العربات الحربية، فانتصر[1]❖ فيها (معركة قادش على العاصي) رمسيس الكبير انتصاراً حاسماً.

ورغم الغموض الذي غلف اصلهم وتاريخهم يرى بعض الدارسين أن نشاطهم الرئيسي كان في التجارة بين ومع معظم مناطق البحر الأبيض. وقد مرت الدولة الحثية بدورين من أدوار نشاطها وقوتها انتابتهما فترة ضعف.

2- الحوريون: من القبائل الهندو- أوربية الرحل التي هاجرت إلى الشمال الغربي من بلاد الرافدين، واستوطنت المناطق الواقعة في أعالي حوض نهر الخابور. ولم يلبثوا أن أسسوا بالتعاون مع الميتانيين مملكة استمرت من القرن الخامس عشر حتى 1330 ق.م.

3- الميتانيون: من الشعوب الهندو- أوربية التي سكنت بالقرب من بحر قزوين، ثم أخذوا بالإرتحال حتى 1600ق.م. ونجحوا في إقامة مملكتهم في شمال سورية عند المنحنى الغربي لنهر الفرات. وامتد نفوذهم من البحر المتوسط غرباً حتى مرتفعات ميدية شرقاً. واتخذوا من واشوكاني (رأس العين الحالية على رأي غالبية العلماء) شرقي مدينة حران على الخابور عاصمة لهم. واستمرت دولتهم بالازدهار حتى القرن الخامس عشر ومعظم الرابع عشر قبل الميلاد، وبدأت بالاضمحلال في نهاية القرن الرابع عشر حتى انهارت نهائياً على يد الحثيين الذين استولوا على أجزائها الشرقية، والآشوريين

---

[1]❖- هذا مذكور فقط في كتابات ونقوش الكرنك، فقد ادعى الحثيون أيضاً أنهم انتصروا. والدليل على عدم انتصار أحد الطرفين أن المعاهدة بينهما وقعت بعد عشر سنوات – المحقق.

على أجزائها الباقية. وينظر تاريخياً إلى الحوريين والميتانيين كدولة واحدة تحت اسم: حوري- ميتاني.

4- الميديون: من الشعوب الهندو-أوربية. امتد نفوذهم على طول المنطقة الواقعة حالياً في شمال سورية وجنوب تركية حتى البحر الأسود شمالاً وبحر قزوين شرقاً. امتد حكمهم من نهاية القرن الثامن إلى أن أسقطها الملك الأخميني قورش في 550 ق.م. وتحالف الميديون والبابليون بشن حرب مشتركة ضد الآشوريين تمكنوا فيها من اسقاط الدولة الآشورية واحتلال عاصمتها نينوى في 612 ق.م.

5- العموريون (الآموريون): كانوا من ضمن الهجرة الكبرى الثانية التي انتشرت من جزيرة العرب نحو الشمال. وقد تكنت هذه الجماعات بالعموريين العمالقة، واستوطنت الأقسام الشمالية من سورية الكبرى، والجنوبية من العراق في البداية، وأخذوا بالانتشار في أواسط سورية حتى نهاية ساحلها الجنوبي في فلسطين. وأسسوا دولة "عمورو"، وجعلوا "ماري" على الضفة الغربية لنهر الفرات (15كم إلى الشمال من البوكمال) عاصمة لهم. وتعرف خرائب ماري اليوم باسم "تل الحريري"، والتي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المشرق لموقعها الممتاز كعقدة مواصلات على طريق التجارة والقوافل. ومر بها إبراهيم الخليل (ع) في طريق هجرته من"أور" إلى "حران" في القرن التاسع عشر ق.م. أسسوا عدة ممالك في سورية، منها: ماري، يمحاض، كركميش، أوغاريت، قَطْنَا، ومملكة جبيل...

يعتقد أنَ السومريين هم من العموريون العمالقة.ومن أهم ما خلدوه في تاريخهم القديم كان نجاحهم في تأسيس الامبراطورية البابلية الأولى (1850-1550) ق.م التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي صاحب "شريعة حمورابي" الشهيرة.

6- الآراميون: من الموجات السامية التي أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين وتدفقت إلى مناطق الهلال الخصيب، فكانت الموجة التي تسمت بالآراميين نسبة إلى الجذر (رام، آرام). ويؤكد المؤرخون أن القبائل الآرامية ترجع إلى أصولها العربية. بدأوا بالاستقرار في منطقة الفرات الأوسط في أواخر الألف الثالثة ق.م. ثم انتشروا في أطراف منطقة بلاد الشام وشرقي الفرات، فأقاموا في القرن الثاني عشر ق.م عدة ممالك على أنقاض العموريين والحوريين والحثيين. وقد اقتبسوا الكثير من العموريين والكنعانيين والحثيين عند تأسيس ممالكهم وإماراتهم التي كان أعظمها في دمشق وحماة ووادي نهر العاصي. وبلغ أوج سلطانهم السياسي في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد.

احتكر الآراميون التجارة بين الشرق والغرب من خلال موقعهم المتوسط بين بلاد آشور وما تلاها وبين المدن السورية على ساحل المتوسط، ومصر. وبذلك أقيمت على أطراف دويلاتها مراكز للتجارة كان من أشهرها تدمر.

أنتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً فأصبحت لغة شعوب سورية، وانتشرت في بلاد فارس ووادي النيل وآسية الصغرى وشمال الجزيرة العربية. وبقيت لزمن طويل، قبل الميلاد، اللغة الدبلوماسية والرسمية والتجارية في بلاد بابل وآشور وفارس وفلسطين

ومصر، وكانت لغة السيد المسيح (ع). وظلت سائدة في البلاد حتى التحرير العربي الإسلامي في القرن السابع بعد الميلاد. انقسمت اللغة الآرامية القديمة إلى لهجتين رئيسيتين: الآرامية الشرقية التي منها المنداعية والسريانية، واللهجة الآرامية الغربية؛ ومنها آرامية التوراة، والتدمرية والنبطية.

7- العيلاميون: من الأقوام الآرية التي هاجرت من منطقة زاغروس إلى منطقة الأهواز والهضبة الإيرانية، فضمت في أوج قوتها أجزاءً مما بين النهرين وشرق إيران حتى الخليج العربي جنوباً وبابل وهمدان شمالاً. وخضعوا في بدايتهم إلى المملكة الأكدية. وتشير سجلات بين النهرين القديمة إلى استمرار الصراع بين العيلاميين والامبراطوريات القديمة فيما بين النهرين: السومرية، الأكدية القديمة، البابلية، والآشورية. ووضع الأخمينيون حداً نهائياً للعيلاميين سنة 539 ق.م.

ولا يزال تاريخ العيلاميين يؤخذ من مصادر تاريخ العراق القديم: تاريخ السومريين، الأكديين، الآشوريين، والبابليين. وينقسم تاريخهم إلى ثلاثة أدوار يسبقها الدور الابتدائي (3200- 2800) ق.م:

1- الدور الأول (2700- 1600) ق.م.

2- الدور الثاني أو الوسيط (1500- 1100) ق.م، الذي انتهى بالغزو البابلي.

3- الدور الثالث أو الأخير (1100-539) ق.م. وقد عرف هذا الدور بالتأثيرات الآشورية والميدية القوية عليه. وجاءت نهايته بالصعود الأخميني الفارسي سنة 539 ق.م. وبذلك قضي على الدولة العيلامية بشكل نهائي.

8- الكاشيون **Kassites** (1800-1170) ق.م: من الشعوب الهندو- أوربية، التي بدأت هجراتها المضطربة، منذ نهاية الألف الثالث ق.م، نحو الهضبة الإيرانية والهند وبلاد الرافدين (ميزوبوتاميا)، فاحتلوها وسيطروا عليها عسكرياً وتجارياً. ونجحوا في إغارتهم على بابل، فأسسوا حكم الأسرة الكاشية حتى جاء الملك الاشوري آشور دان فقضى عليهم وأسقط حكمهم. ودام حكم أسرتهم في بابل لمدة 576 سنة تقريباً.

9- الكوشيون: لا تزال أصولهم غامضة، ولو أنه يشار إلى أصولهم النوبية في جنوب مصر. والواقع ان ملوكهم الذين أسسوا لأنفسهم ملكاً كبيراً في بلادهم قاموا بنهضة شاملة. وكان لهم أثر عظيم في إحياء وادي النيل ثانية وإعادة مجده القديم، حيث قام ملوكهم من الأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين بتلك النهضة. وقد حكم الكوشيون مصر خلال المدة الواقعة بين (751- 600) ق.م.

تذكير:

بناءً على رأي د. محمد محفل[1]❖، ❖❖: المحقق، يفضل كتابة أسماء الأعلام والمدن والأماكن.. إلخ، كما كانت شائعة لدى أهلها. ولأن المكتبة الأوربية العامة قد درجت على اختصار معظم أسماء الأعلام في العصور اليونانية والرومانية القديمة، فقد اقتضى ذكر بعض الأسماء المهمة إلى جانب القديمة، وكمثال على ذلك: يوليوس قيصر (جوليوس أو يوليوس سيزر) – بومبيوس (بومبي) – ديوقلتيانوس (دقلديان، دقلديانوس) –سيانوس (سيفانوس) – وسباسيانوس (فسباسيان، فسباسيانوس) – دوميتيانوس (دوميتيان) – هادريانوس (أدريانوس، هادريان) – ترايانوس (تراجانوس، تراجان) – ليكينيوس (ليسنيوس) – يوليانوس (جوليان) – يويانوس (جوفيان) – والنتيانوس (فالينتيان، فالنتيانوس) – والنس (فالينز، فالنز) – بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) – معركة هادريانابولس (أدريانوبل، أدرنة) – يوستنيانوس (جستنيانوس، جوستنيان، جُستنيان) – واليريانوس (فاليريان، فالريانوس) – وكتور (فكتور Victor) ...

---

[1]*– وكذلك، بقرار من المجامع العربية تكتب المدن والقارات المؤنثة بالتاء المربوطة، مثل: سورية، آسية، أوربة، إسبانية، ايطالية، أفريقية، ألمانية، أرمينية، تركية، مقدونية، فينيقية، أفامية، تراقية، برثية، ليدية.. إلخ. ومن الأفضل أيضاً كتابة أسماء الأعلام والمدن.. ألخ كما كانت شائعة لدى أهلها – المحقق.

I** يلفظ حرف J ياءً باللاتينية، كما يلفظ حرف V واواً باللاتينية، مثل: يوليوس قيصر Julius Caesar، والنس Valens، واسبسيانوس Vespasianus، وهكذا – المحقق.

الفصل الأول

بلقيس ملكة سبأ

يعدُّ الجغرافيون شبه الجزيرة العربية أكبر شبه جزيرة على سطح الأرض، إذ تبلغ مساحتها أقل قليلاً من ثلاثة ملايين كليومتراً مربعاً. وهي محاطة بالبحر الأحمر من الغرب وبحر العرب وخليج عدن من الجنوب، وخليج عمان والخليج العربي من الشرق، ولها فتحة برية وحيدة تتجه وجهتين: إلى الشمال نحو بلاد ما بين النهرين وسورية الكبرى، وإلى الغرب عبر جزيرة سيناء إلى مصر والشمال الأفريقي. ومن الطبيعي أن يكون اتصالها الأيسر، وخصوصاً في العصور القديمة، نحو فتحتها البرية في الشمال، رغم أن اتصالها بافريقية يأتي عن طريق سيناء وعبر البحر الأحمر وباب المندب، أما اتصالها بآسية فطريق البحر مفتوح أمامها إلى اتساعه العريض، مثلما هو مفتوح عن طريق البر.

يتكون القسم الغربي من شبه الجزيرة من مرتفعات تشرف على البحر الأحمر تبدا بالانخفاض تدريجياً كلما اتجهنا نحو الشرق، وبالارتفاع بمحاذاة ساحل البحر الأحمركلما اتجهنا نحو الجنوب حتى تصل إلى ارتفاع حوالي أربعة آلاف متر في أعلى جبال اليمن.

وتتكون أراضي شبه الجزيرة العربية بأغلبها من صحارى وسهول تتخللها واحات تستغل للزراعة والاستقرار لتوفر المياه فيها. ومنذ أقدم العصور، عاش البشر وسط هذه المساحة كبدو رحل، بينما عاش سكان المناطق الساحلية، وخاصة في قاعدتها الجنوبية الغربية، في اليمن، حياة استقرار وتكوين دول وممالك لها نظم سياسية، لتساقط الأمطار بشكل دائم ومنتظم. لذلك استطاعت اليمن منذ أقدم العصور تكوين أقدم الكيانات الملكية العربية في شبه الجزيرة العربية. ويرى اللغويون أن اسم اليمن مشتق من اليُمن والبركة والخير العميم (اليمن السعيد).

وبالمجمل، كانت شبه الجزيرة العربية وحدة جغرافية واحدة ومسرحاً لأحداث تاريخية متنوعة. إذ تدل أقدم المعلومات المكتشفة على حضارة يمنية متقدمة يعود تاريخها على الأقل إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد، وربما أبعد من ذلك بقرون.

قسم الجغرافيون الإغريق شبه الجزيرة إلى أقسام رئيسية ثلاث: العربية الصحراوية Arabia deserta (وهو القسم الأوسط منها)، والعربية الحجرية Arabia Petraea (القسم الشمالي ومنه البتراء)، والعربية السعيدة Arabia Felix (الحجاز ونجد واليمن).

وجاء في "معجم البلدان" لياقوت الحموي، ج5، ص 447: " قال الشرقي: إنما سميت اليمن لتيامنهم إليها، وقال ابن عباس: تفرقت العرب فمن تيامن منهم سميت اليمن ويقال أنّ الناس كثروا بمكة فلم تحملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن وهي أيمن الأرض

فسميت بذلك. وقال الأصمعي: اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عُمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشجر حتى يجتاز عمان..".

نشأت حضارة راقية في الجنوب العربي من شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة مازال الكثير من آثارها يشهد على ذلك كبقايا الأسوار والحصون والمعابد وأقنية الري والسدود. وذكر الباحث جواد علي[1]، فقال: ".. وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الإسلام على أنّ العرب كان لهم علم واسع بتنظيم أمور الإرواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار، وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود، وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء. وقد عثر رجال شركة النفط العربية السعودية الأمريكية (آرامكو) على صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض بأنفاق وعليها فتحات من مواضع متعددة لاستفادة الماء منها، عثروا عليها في القطيف والإحساء وفي الفلج، وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية، كما وجدوا على مقربة منها قرى كانت عامرة ومزارع واسعة، ولم يكن يعرف العلماء سابقاً ان أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظم الإرواء، بل كان المعروف أن الصهاريج المربوطة بأنفاق إنما كانت تستخدم في الشام وفلسطين وفارس والأقسام الشمالية من العراق..". إذ يشير كل ذلك إلى المستوى الحضاري العالي الذي كان يتمتع به سكان المنطقة القدماء وما بلغوه من الغنى والثروة والرفاه إلى الحد الذي تحدث عنه العهد القديم من الكتاب المقدس ومؤرخو اليونان واللاتين الذين أطلقوا على اليمن اسم "بلاد العرب السعيدة Arabia Felix". وكان لليمن حضور مميز في التاريخ القديم، حيث ذكرتها وتحدثت عنها وعن مملكتها (سبأ) كتب الديانة اليهودية، وكتب الديانة المسيحية القبطية والنجاشية، وتحدث عنها الإخباريون العرب بصور أقرب للأساطير منها إلى الواقع. كما تحدث القرآن الكريم عنها وعن ملكتها.

وجاء مصدر ثروات أهل اليمن بشكل أساسي من مهاراتهم التجارية البحرية والبرية بنقل كل ما كان يحتاجه العالم القديم من البضائع والسلع القادمة من الهند والصين في الشرق إلى مصر القديمة وطريق البحر الأحمر وسورية وبلاد حوض البحر الأبيض، بالإضافة إلى ما كانت تنتجه المنطقة من اللبان والطيب والبخور والتوابل.. إلخ.

ورغم الكم الكبير من النقوش الحجرية الذي تركته لنا حضارة اليمن القديمة، والذي قد يكون أهم من جميع روايات الكتاب المقدس والمؤلفين اليونان والرومان والروائيين العرب، إلا أنها لم تقدم تاريخاً متماسكاً لبدايات ونهايات وأسماء الدول والممالك التي عاشت في تلك الحقب التاريخية القديمة، ولمختلف مناحي حياتها الثقافية. لكن هذه اللقى والمتروكات الأثرية والنقوش الحجرية والشواهد الكتابية التي استخدمت حروفاً أبجدية خاصة دلت على دور اليمن التاريخي القديم.

---

[1] - جواد علي: " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (101– 102).

وقد تداخل تزامن العصور اليمنية القديمة بحيث لم يكن من السهل اعتبار الانتقال بينها انقطاعاً، وإنما امتداداً واستمراراً، حتى أن معظم روايات الإخباريين العرب تحدثت عن أن حكام اليمن القديم جاءوا من أب واحد، وتعاقبوا على الحكم والملك باسماء مختلفة (معينيون، قتبانيون، أوسانيون، حضرميون، سبئيون، وحميريون).

مصادر تاريخ اليمن القديم[1]

تتنوع مصادر تاريخ اليمن القديم حسب التالي:

1- العهد القديم.

2- كتابات المؤرخين والمؤلفين الكلاسيكيين من يونان ورومان.

3- النقوش والحوليات الآشورية التي أرخت للقرن السابع ق.م، والتي تشير إلى الفترة السبئية.

4- النقوش البابلية التي تضمنت أسماء الكثير من ملوك اليمن وهي تتحدث عن علاقات قامت بين دولهما.

5- المصادر الكتابية العربية والسريانية والبيزنطية والحبشية، والتي تهتم بشكل خاص بفترة القرون الأولى من الميلاد حتى ظهور الإسلام.

6- النقوش والكتابات العربية الجنوبية التي تشكل أهم المصادر التي تبحث في تاريخ حضارة عرب الجنوب بعقائدها الدينية وأنظمتها السياسية والاقتصادية والعمرانية.

ويمكن الاصطلاح على تقسيم تاريخ اليمن إلى ثلاثة أدوار رئيسية ودورين ثانويين كدليل للعرض:

يسبق الدور الأول روايات الإخباريين العرب[2] التي اتفقت في رؤيتها العامة على أنّ (الملك) قحطان بن عابر هو الجد الأول لعرب الجنوب، حيث وصلوا نسبه إلى سام بن نوح. وجاء بعد قحطان ابنه يعرب الذي قيل أنه أول من تكلم العربية، ثم ملك من بعده ابنه يشجب، ثم خلفه ابنه عبد شمس الملقب بسبأ. وقيل إنّ من أولاد يشجب جاءت قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل وبعد الإسلام، وإليها نسب السبئيون. إلا أن بعض النصوص المصرية القديمة تحدثت عن علاقات تجارية ضاربة في القدم بين مصر واليمن ترجع إلى الأسرة الفرعونية المصرية الخامسة، وذكرت هذه النصوص أنّ أحد ملوك الفراعنة في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد قاد حملة بحرية عن طريق البحر الأحمر إلى أرض البخور بلاد بنط. وأرسلت الملكة المصرية الشهيرة حتشبسوت، وهي من ملكات الأسرة الثامنة عشر (1500ق.م) حملة إلى بلاد بنط الواقعة على الطرف الجنوبي للبحر الأحمر على جانبي باب المندب للحصول على البخور والطيب واللبان والعنبر والزعفران والتوابل والصمغ، التي كان يحتاجها المصريون

---

[1] – د. نبيه عاقل: "تاريخ العرب القديم وعصر الرسول"، ص 78. سلسلة تاريخ العرب والإسلام 1.

[2] – يرى بعض الدارسين هذه الروايات مجرد روايات أسطورية لا تستند إلى وقائع تاريخية.

القدماء في منازلهم ومن أجل تحنيط موتاهم، وكذلك الحرير الصيني ولؤلؤ الخليج وريش النعام، وأنواع الأقمشة الأرجوانية، وغير ذلك من منتجاتها وبضائع اسواقها، حيث حفرت أخبار هذه الحملة على جدران معبد الدير البحري الذي بنته حتشبسوت. إلا أنه لم يسجل تاريخ هذه الفترة الغابرة كدليل على تكوين سياسي في اليمن.

وتعد أقوام سبأ من أقدم الشعوب التي عاشت على أرض الجنوب العربي، وهم العرب العاربة المنحدرون من نسل يعرب بن يشجب بن قحطان، الذين بدأوا بتكوين حكمهم وسلطانهم وبسط سيطرتهم على المنطقة في بحر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ويقسم المؤرخون أدوارهم إلى الأدوار الرئيسية الثلاثة التالية: الدور المعيني، والدور السبئي، والدور الحميري. وقد اختلف بعض هؤلاء المؤرخين في ترتيب أزمنة هذه الأدوار.

الدور المعيني (القرن الثالث عشر- 620) قم

نتيجة لوفرة أمطار اليمن وموقعها الجغرافي الممتاز الذي يربط بلاد الصين والهند بأفريقية وجنوب غرب آسية وأوربة تجارياً، ومنتجاتها الثمينة، أدت جميعها تدريجياً إلى ظهور وتطور المدن وازدهارها.

وقد أشار بعض البحاثة الغربيين إلى أن الحضارة المعينية تشبه في بعض مظاهرها حضارة ما بين النهرين القديمة. فاجتهد بعضهم إلى أن المعينيين جاؤا من أصول عرقية ضاربة في القدم لشعوب ما بين النهرين؟

كما اختلف العلماء بتاريخهم الذي أرجعه بعضهم إلى ما قبل 1200ق.م، فجعلوهم أقدم من السبئيين، بينما أرجع آخرون ظهورهم إلى ما بعد السبئيين. ولم يقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى عدم القطع باليقين بتواريخ ظهور معين أو سبأ. ويجتهد فيلبي بالقول أنّ خمس أسر معينية توالت على عرش الدولة المعينية بدءاً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وهذا يتناقض مع تاريخ قصة ملكة سبأ مع سليمان المتعارف عليه في القرن العاشر قبل الميلاد إذا أخذنا بأن مملكة سبأ وملكتها كانت في اليمن، ولم تكن في مكان آخر! كما حدد بعضهم فترة حكم المعنيين بين 400 و 100ق.م، في حين رأى البعض الأخر (ملاكر) أنّ فترة حكمهم امتدت بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد. ويقودنا هذا الاضطراب وعدم اليقين إلى الوقوف بحذر شديد أمام هذه المعطيات.

ارتبط تاريخ الدولة المعينية بتاريخ ممالك قتبان وأوسان وحضرموت. ورأى بعض الباحثين أن تاريخ هذه الممالك كان أيضاً معاصراً لمعين أو سبأ. ويبين هذا مقدار الخلاف على تحديد أزمنة هذه الدول الجنوبية.

لقب الملك في الدولة المعينية بـ "مزود" أي مقدس. وكان المجتمع مكون من عدة طبقات: الارستقراطيون والعبيد، وبينهم طبقات أخرى. وكان للمرأة مكانة محترمة ورفيعة في مجتمعهم. واشتغلوا بالزراعة والتجارة حيث ورد ذكرهم في الحوليات السورية

والعراقية والمصرية واليونانية واللاتينية. ويستدل من إشارات العالم بلينيوس الأول (القديم) (23-79م) صاحب موسوعة التاريخ الطبيعي، والجغرافي بطليموس وغيرهم، إلى أنّ وجودهم ونشاطهم الاقتصادي استمر، حتى بعد زوال دولتهم، إلى نهاية القرن الأول ق.م، وربما بعد ذلك.

الدور السبئي (950؟- 115) ق.م

بدأ الدور السبئي، على راي بعض المؤرخين، في نهاية الدور المعيني الموافق لعام 620 ق.م، وانتهي سنة 115ق.م. في حين يجعله آخرون يمتد من 950 إلى 115ق.م، أي أنه عاصر فترة القرون الثلاثه الأخيرة من تاريخ الدور المعيني. وعلى ذلك يرى بعض الكتاب والمؤرخين أنَ العصر الأول من تاريخ اليمن القديم اقترن بالدولة السبئية التي مثلت معظم أدوار التاريخ اليمني القديم، بحيث شكلت دولة سبأ أكبر كيان سياسي في اليمن القديم إذ مرت بثلاثة أدوار رئيسية في تاريخها، فمثلتها في دورها الأول دولة معين، ودولة حمير في دورها الثالث. وقد ورد ذكر مملكة سبا في سفر التكوين في التوراة. كما أشارت النقوش الآشورية في عهد الملك تغلات بلاسر (745-727) ق.م، وفي عهدي سنحاريب وأسرحدون (715-685) ق.م، إلى أخذهم الجزية من يثعمر وكرب إيلو من ملوك سبأ، وهذا يعني أن دورهم بدأ قبل انتهاء الدور المعيني بقرون. ولا تسعفنا المصادر التاريخية بالكثير عن أصول السبئيين، في حين ترجعهم المصادر العربية إلى شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان. ولقب شمس بسبأ لأنه أكثر من الغزو والسبي، فكان أول من سبى من العرب. ويقول راي آخر أنّ أصولهم حبشية. ومن الأرجح أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية تتجول في شمال شبه الجزيرة العربية، فقادهم تطوافهم وضغط الآشوريين عليهم إلى الاستقرار في جنوب منطقة المملكة المعينية إلى أن استطاعوا في القرن الثامن قبل الميلاد من تأسيس مملكتهم والعمل التدريجي على ضم بقايا الدولة المعينية التي كانوا يعاصرونها بالتعاون مع القتبانيين، مستفيدين من الضعف التي كانت تعانيه. ووردت إشارات التوراة إلى سبأ بأن أدخلتهم في أسرة حام بن نوح، وأدخلتهم في مكان آخر في نسل سام، ثم جعلتهم في ولد يقطان بن عامر في موضع ثالث، وفي يقشان من أولاد ابراهيم بن قطورة في موضع رابع!

ولقب ملوكهم في الفترة الأولى بـ "مكرب" اي المقدس. وكان أول اسم وصل إلينا من مكربي سبأ هو "سمح علي" (800-780) ق.م. ثم صاروا يلقبون "ملوك سبأ"، ثم "ملوك سبأ وريدان". وكانت عاصمة مملكتهم سبأ. وكان ملوكهم في العصر السبئي الأول (950-650)ق.م يقومون بوظيفة الملك والكاهن "مكرب" معاً. وفي العصر الثاني (650-115) ق.م تجرد الحاكم من وظيفته الكهنوتية، فأطلق عليه لقب "ملك" فقط.

وقد قام أحد ملوكهم[1] ببناء سد مارب الذي عُدَ أعظم سد شيد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم، والذي ظل ذكره يتردد عبر الأزمنة فدخل خبره كثير من المبالغات والأساطير. وقد وصفه المؤرخ الهمداني في كتابه "الإكليل"، فجاء وصفه متطابقاً مع أوصاف المؤرخين الغربيين أمثال ارنو هاليفي وغيرهم: يقع السد على ارتفاع 1200م فوق سطح البحر، وكان طوله 560 م، وعرضه 105م، وتم بناؤه على وادي اذنه لتجميع مياه السيول المنحدرة من الجبال المحيطة. وقد تم بناء السد من التراب والحجارة والحصى حتى أصبح عبارة عن حائط ضخم أصم في عرض الوادي، حيث ينتهي اعلاه بسطحين مائلين بزاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى لمنع انجراف التراب عند تدفق الماء، ويستند من طرفيه إلى جبلين عند أسفل كل منهما منافذ للمياه مبنية بصخور ضخمة ومتينة يخرج منها الماء من خلال بوابات خشبية وحديدية ليروي الجنتين عن يمين وشمال. وقد تم إدخال تحسينات متعددة على بناء السد حتى اتخذ شكله النهائي في عهد شمر يرعش (300 م). كما انشأت سدود عديدة بعد ذلك حيث أدى إلى غنى ورفاهية المنطقة، فازدادت أهمية مأرب ومنطقتها فاصبحت عاصمة سبأ بدلاً من صرواح.

أشار ياقوت الحموي[2] إلى وصف المسعودي للسد: ".. وكان هذا السد من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب وكان سافله سبعين وادياً ومات قبل أن يستتمه فأتمه ملوك حمير بعده". وتحدث الهمداني والمسعودي والأصفهاني عن أن من بنى السد هو لقمان بن عاد. ذلك أن هذه الروايات تبدو اقرب إلى السير الأسطورية منها إلى الحقائق التاريخية الموثقة.

وقد لخص ياقوت[3] روايات الإخباريين العرب، الأقرب إلى الأسطورية، عن خبر خراب السد، فقال: " وأما خبر خراب سد مارب وقصة سيل العرم فإنه كان في ملك حبشان فاخرب الأمكنة المعمورة في أرض اليمن وكان أكثر ما اخرب بلاد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب وعامة بلاد حمير بن سبأ، وكان ولد حمير وولد كهلان هم سادة اليمن في ذلك الزمان، وكان عمرو بن عامر قبل سيل العرم وصارت الرياسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن، وكان عاقراً لا يولد له ولد، وكان جواداً عاقلاً، وكان له ولولد أخيه من الحدائق والجنان ما لم يكن لأحد من ولد قحطان، وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طُريفة أقبلت يوماً حتى وقفت على عمران بن عامر وهو في نادي قومه، فقالت: والظلمة والضياء والأرض والسماء، ليقبلنَ إليكم الماء، كالبحر إذا طما، فيدع أرضكم

---

[1] – عثر خلال التنقيب في أنقاض السد على كتابات بالخط المسند جاء فيها أن باني الطرف الأيسر من السد هو "سمهلي ينوف بن ذمر عُلي مكرب سبأ الذي خرق جبل بلق وبنى مصرفاً رحباً لتسهيل عمليات الري"، وأن باني الطرف الأيمن هو "يثعمر بن سمهملي ينوف بن ذمر". وقد نقشت العبارة الأخيرة على الطرفين الأيسر والأيمن. حيث يشير ذلك إلى أن الأب والإبن، وهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد، قاما ببناء السد.

[2] – ياقوت الحموي: "معجم البلدان"، ج 5، ص 34.

[3] – المصدر السابق، ص 35.

خلاء، تسفي عليها الصبا، فقال لها عمران: ومتى يكون ذلك ياطُريفة؟ فقالت: بَعد ست عدد، يقطع فيها الوالد الولد، فياتيكم السيل، بفيض هَيَل، وخطب جليل، وأمر ثقيل، فيخرب الديار، ويعطل العشار، ويطيب العَرار، قال لها: فُجعتنا بأموالنا ياطُريفة فبيني مقالتك، قالت: أتاكم أمر عظيم، بسيل لطيم، وخطب جسيم، فاحرسوا السد لئلا يمتد، وإن كان لا بد من الأمر المعد، انطلقوا إلى راس الوادي، فسترون الجُرذ العادي، يجر كل صخرة صيخاد، بأنياب حداد، وأظفار شداد. فانطلق عمران في نفر من قومه حتى اشرفوا على السد، فإذا هم بجرذان حمر يحفرن السد الذي يليها بأنيابها فتقتلع الحجر الذي لا يستقله مائة رجل ثم تدفعه بمخاليب رجليها حتى يسد به الوادي مما يلي البحر ويفتح مما يلي السد، فلما نظروا إلى ذلك علموا أنها قد صدقت، فانصرف عمران ومن كان معه من أهله، فلما استقر في قصره جمع وجوه قومه ورؤساءهم واشرافهم وحدثهم بما رأى وقال: اكتموا الأمر عن إخوتكم من ولد حمير لعلنا نبيع أموالنا وحدائقنا منهم ثم نرحل عن هذه الأرض، وسأحتال في ذلك بحيلة، ثم قال لابن أخيه حارثة: إذا اجتمع الناس إليّ فإني سآمرك بأمر فأظهر فيه العصيان فإذا ضربتُ راسك بالعصا فقم إليّ فالطمني، فقال له: كيف يلطم الرجل عمه! فقال: افعل يا بني ما آمرك به فإن في ذلك صلاحك وصلاح قومك؛ فلما كان من الغد اجتمع إلى عمران أشراف قومه وعظماء حمير ووجوه رعيته مسلمين عليه، فأمر حارثة بأمر فعصاه فضربه بمخصرة كانت في يده فوثب إليه فلطمه فأظهر عمران الأنفة والحمية وأمر بقتل ابن أخيه حتى شُفع فيه، فلما أمسك عن قتله حلف أنه لن يقيم في أرض امتُهن بها ولا بد من أن يرتحل عنها، فقال عظماء قومه: والله لا نقيم بعدك يوماً واحداً! ثم عرضوا ضيعهم على البيع فاشتراها منهم بنو حمير بأغلى الأثمان وارتحلوا عن أرض اليمن فجاء بعد رحيلهم بمديدة السيل وكان ذلك الجرذ قد خرب السد فلم يجد مانعاً ففرّق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان في رؤوس الجبال والأمكنة البعيدة مثل حضرموت وذمار وعدن ودُهيت الضياع والحدائق والجنان والقصور والدور وجاء السيل بالرمل وطمها فهي على ذلك إلى اليوم، وباعد الله بين أسفارهم كما ذكروا فتفرقوا عباييد في البلدان، ولما انفصل عمران وأهله من بلد اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلوان بن مازن بن الأزد بن الغوث نحو الحجاز فأقام ما بين الثعلبية إلى ذي قار وباسمه سميت الثعلبية فنزلها بأهله وولده وماشيته ومن تبعه فاقام ما بين الثعلبية وذي قار يتتبع مواقع المطر، فلما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس كثير من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها واقاموا بها بين بني قُريضة والنظير وخيبر وتيماء ووادي القرى ونزل أكثرهم بالمدينة إلى أن وجد عزة وقوة فأجلى اليهود عن المدينة واستخلصها لنفسه وولده فتفرق من كان بها من اليهود وانضموا إلى إخوانهم الذين كانوا بخيبر وَفَدَك وتلك النواحي وأقام ثعلبة وولده بيثرب فابتنوا بها الآطام وغرسوا فيها النخل فهم الأنصار والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء، وانخرع عنهم عند خروجهم من

مأرب حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء وهو خزاعة فافتتحوا الحرم وسكانه جُرهُم وكانت جرهم أهل مكة فطغوا وبغوا وسنوا في الحرم سنناً قبيحة وفَجَرَ رجل منهم كان يسمى إساف بامرأة يقال لها نائلة في جوف الكعبة فمسخا حجرين، وهما الذين اصابهما بعد ذلك عمرو بن لُحيٍ ثم حسّن لقومه عبادتهما، كما ذكرته في إساف، فأحب الله أن يخرج جرهماً من الحرم لسوء فعلهم.. فظفر الله خزاعة بهم فنزلت خزاعة الحرم ثم إن جرهماً تفرقوا في البلاد .. إلخ".

اختلف الباحثون في تفاصيل وتاريخ إنهيار السد، فقال الأصفهاني أنّ الانهيار حدث قبل الإسلام بأربعمئة سنة، أي في القرن الثالث الميلادي، وذكر ياقوت الحموي أنه وقع خلال حكم الأحباش لليمن في القرن السادس، بينما ذكر ابن خلدون أنه حدث في القرن الخامس. وقد روى الهمداني في "الإكليل" أنه شاهد بقايا السد بنفسه في أوائل القرن الرابع الهجري. والأرجح أنّ سبب اختلاف الإخباريين العرب في تحديد تاريخ إنهيار السد وإرجاعه إلى عصور مختلفة هو كثرة ما تعرض له من تصدعات وإصلاحات حتى انهياره بشكل كامل.

وكان إنهيار السد من الأسباب المباشرة لهجرات القبائل العربية اليمانية نحو الشمال، خاصة إلى سورية والعراق.

وقد ورد ذكر السد في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز[1]: "لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خَمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إنّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور".

استطاعت مملكة سبأ في عصرها الثاني إدخال قتبان وحضرموت في سلطانها، فأقامت مراكز ومحطات تجارية على طول الطريق إلى سورية عبر غزة، وأخرى على الساحل الأفريقي المواجه لها في البحر الأحمر. ولذلك كانت مملكة سبأ أول دولة جنوبية سيطرت على جميع عرب الجنوب وجمعتهم في دولة واحدة. وامتازت حضارة سبأ- حسب غلاسر- بالتجارة بحيث نشروا تجارتهم في الهند والحبشة ومصر والعراق والشام، وشادوا الحصون والهياكل والقصور وجعلوها في فنهم من الأعاجيب، ومهدوا طرق البادية وبنوا السدود والقنوات فحولوا الصحارى إلى جنان...

واشتهر السبئيون بالملاحة وهم يمخرون عباب المحيط الهندي وبحر العرب، مما ساعدهم على احتكار التجارة مع الهند حيث درت عليهم أرباحاً كثيرة. إلا أن البحارة اليونان والمصريين بدأوا يدخلون بسفنهم على الخط البحري في المحيط الهندي يجلبون

---

[1] - سورة سبأ، الآيات 15- 19.

البضائع من جنوب آسية والهند، حيث أدى ذلك تدريجياً إلى اضمحلال نفوذهم الاقتصادي، إضافة إلى أسباب أخرى، من ضمنها ظهور دولة الأنباط التجارية في شمال الجزيرة العربية، وازدياد النفوذ الحميري، وهم فرع من السبئيين، في مدنهم على ساحل البحرالأحمر الشرقي، وتكوين دولتهم بعاصمتها ظفار التي استطاعت مد نفوذها والقضاء على الدولة السبئية.

الدور الحميري (115 قم - 525 م)

تعود أول إشارة عن الحميريين في النقوش اليمانية إلى العام 115ق.م. وجاءت أول إشارة إليهم في المصادر الرومانية في كتاب"الدوران حول البحر الأريتيري"، وفي مؤلفات بلينيوس الأول. ورغم الصلة القوية بين سبأ وحمير (فرع من السبئيين) منذ القديم إلى حد التداخل، فقد استطاعوا بنيان كيانهم شبه السياسي مبكراً خلال نهاية العصر السبئي الثاني بعد أن اعتراه الضعف. وقد ساعدهم موقعهم الساحلي واحتكارهم الملاحة في البحر الأحمر إلى المساهمة في حركة التجارة حتى جاءتهم الفرصة فتغلبوا على إخوانهم السبئيين بأن اتحدوا معهم في أواخر حكمهم فسيطروا على أرض سبأ كلها وامتد عهدهم في دوره الأول بين 115ق.م إلى 300 م، واتخذوا من ريدان عاصمة لهم بدلاً من مارب، ثم سميت ريدان باسم ظفار، ولقبوا ملوكهم "ملك سبأ وذي ريدان"، وفي نهاية القرن الثالث الميلادي صار لقب ملوكهم "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات والعرب في الجبال وفي تهامة"، مما يعني توسع ملكهم. وبذلك يكون حكمهم لليمن قد استمر لمدة 640 عاماً.

وفي دوره الثاني، حتى 525 م تاريخ الاحتلال الحبشي، نجحوا في لعب دور تجاري مهم، وازدهروا في الزراعة، وبخاصة اللبان، معتمدين على السدود والآبار.

أرسل الامبراطور الروماني أوغسطس (27 ق.م-14م) حملة رومانية انطلقت من مصر بقيادة حاكمها الروماني ايليوس غالوس لاحتلال اليمن سنة 25 ق.م، فسلكت الطريق البري عبر سيناء والحجاز حتى وصلت مأرب التي قاومتهم مقاومة شديدة، فأجبروا على العودة، وفتكت فيهم الظروف المناخية القاسية التي لم يكونوا معتادين عليها. ويدعي الرومان ومنهم سترابو أن عوامل المناخ القاسية كانت أهم سبب في عدم قدرتهم على إخضاع اليمن. مع ذلك لم تفتر مزاحمة الرومان بتطوير تجارتهم البحرية إلى الشرق بطريق المحيط الهندي وبحر العرب، والتي كان يحتكرها الحميريون الذين ضعفت شوكتهم وتضاءلت أهميتهم التجارية. وتكنى ملوكها بلقب"ملك سبأ وريدان".

ونتيجة لضعف تجارتهم بسبب سيطرة الأنباط على الجزءَ الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وسيطرة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد احتلالهم لمصر وعموم سورية بما فيها ضم مملكة الأنباط إلى الامبراطورية الرومانية سنة 106، وتنافس وصراع القبائل فيما بينها، وتوالي الاضطرابات والحروب الداخلية، فقضيَ على استقلال

دولتهم، فدخل الرومان عدن وقدموا المساعدة والدعم للأحباش لاحتلال اليمن في المرة الأولى سنة 340 م حيث استمر احتلالهم لليمن حتى سنة 378 م.

وفي دورهم الثاني، حتى الاحتلال الفارسي، استفاق الحميريون من ضعفهم بانضمام القبائل المجاورة إلى دولتهم، فأخضعوا حضرموت ومعظم اليمن وتهامة، فأصبحت الدولة الحميرية في طورها الثاني تمتد على مساحة أكبر. ولقب ملوكه ا"ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وتهامة". وعرفت الدولة الحميرية في طورها الثاني بـ "دولة بنو تبع: التبابعة". وفي هذا الدور بدات الديانتان اليهودية والمسيحية في التنافس بين سكان الجنوب العربي لتحلا محل الديانة الوثنية في عبادة الشمس والكواكب والنجوم. وربما بدأ انتشار اليهودية هناك بعد تدمير بيت المقدس على يد الامبراطور الروماني واسباسيان وابنه تيطوس سنة 70م. بينما أخذت المسيحية بالانتشار تدريجياً عن طريق مبشرين من الحبشة، من المؤمنين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، فأنشأوا كنائسهم في عدن وظفار ونجران. ومن المحتمل أن إرساليات مسيحية من سورية والحيرة لعبت دوراً تبشيراً اخر في الجنوب العربي. وقد امتد الدور الحميري الثاني حتى 525 م تاريخ الاحتلال الحبشي الثاني لليمن.

الدور الحبشي (الدور الثانوي الأول)

استولى الأحباش على اليمن سنة 340 م فمدوا المسيحية هناك بسند قوي، غير أن الحكم الحبشي لم يعمر طويلاً في اليمن إذ استطاع اليمانيون طرد الأحباش سنة 378م، والعودة إلى وثنيتهم القديمة. وقد تأثر ملوك حمير ومن هاجر معهم إلى يثرب إبان الغزو الحبشي باليهودية، إلا أنه لا يوجد ما يفيد باعتناقهم الديانة اليهودية. وقد تعاقب على حكم اليمن بعدها ملوك كان من بينهم ذو نواس (النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي) الذي دان باليهودية وشن حملة اضطهاد عنيفة ضد المسيحية وأجبر المسيحيين على ترك ديانتهم، ومن رفض منهم أحرقه في الأخدود (523م). وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم[1]: "والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد". وقد اثار اضطهاد المسيحية بيزنطة فاشارت على حليفتها في الحبشة بتجهيز حملة لاحتلال اليمن، فقام الأحباش بقيادة أرياط بحملتهم الثانية سنة 525 م فقضوا على الدولة الحميرية ودعموا النصرانية واستمر أرياط حاكماً على اليمن حتى انقلب عليه أبرهة بن الأشرم سنة 549 م، وقام حاكماً على اليمن بموافقة ملك الحبشة، فاهتم بإصلاح سد مارب وأقام احتفالاً بعد انتهائه من

[1] – سورة البروج، الايات 1– 8، والتي اشارت إليهم بالإيمان. وقد تناولت الكتابات المسيحية تمجيد أصحاب الأخدود واعتبرتهم شهداء، وأشارت إليهم باسم "شهداء نجران"..

الإصلاح سجل على نقش[1] اكتشف في نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وقد فشلت حملة أبرهة لاحتلال مكة، إذ أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الفيل: "ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً ابابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول".

الدور الساساني – الفارسي (الدور الثانوي الثاني)

لم يستكن اليمانيون لحكم الأحباش، فالتمسوا الوسائل لتحرير بلادهم، فوجدوها عند أنوشروان كسرى فارس الذي كان على عداء مستمر ضد بيزنطة حليفة الأحباش، فأنجدهم بقوة أبحرت من الخليج العربي ونزلت في جنوب اليمن ونجحت مع المقاومة اليمانية من طرد الأحباش، فنالوا استقلالهم سنة 575 م، وعين سيف بن ذي يزن زعيم المقاومة، الذي استنجد بالفرس، ملكاً على اليمن. وتولى الآمر الساساني حكم اليمن بعد مقتل سيف بمؤامرة فارسية، إلى أن جاء الإسلام فأسرع أهل اليمن بالإنضواء تحت لوائه، وذلك سنة 638 م.

بلقيس ملكة سبأ بين الواقع والأسطورة

كانت بلقيس سيدة نساء عصرها وإحدى الملكات اللواتي عطرنَ التاريخ وأضفنَ عليه بهاءً لا يزال يثير الخيال حتى الآن. وقد استقطبت سيرتها اهتمام وخيال الأمم والشعوب لكونها أحيطت بغموض أسطوري براق نُسج حول شخصية أنثوية تمتعت بالجمال والحكمة والسلطان والثراء، وحكمت بقلب امرأة وعقل رجل، فألهمت ولا تزال الفنانين والكتاب والشعراء، والأكثر خيال العامة. وكان السؤال حاضراً على الدوام: هل عرفت سبأ فعلاً ملكة بصفات بلقيس؟ أم أنها لم تعدو أن تكون أكثر من أساطير وخرافات ابتدعتها مخيلة العرب ونشرها أقوامهم على مر الأزمان القديمة؟ هل كانوا يشيرون إلى شخصية واحدة، أم أنهم لخصوا عدة حاكمات يمانيات في واحدة؟ وهل كان هذا الدمج متعمداً؟ هل كانت بلقيس مزيجاً فريداً من الأسطورة والقص والتاريخ؟

فالقصص المرتبط بالملكة بلقيس متعددة ومتناقضة أحياناً؛ فهي تولت من بعد وصية والدها الملك، أو تولت بعد أن قتلت ابن عم لها أقامه الناس بعد موت والدها، أو تولت بعد وفاة والدها ثم تخلت لأخ لها عن العرش. وقد وصمتها بعض الروايات بإقامتها علاقات جنسية مثلية، وتقول بعضها أن نكاح سليمان لها كان من غير زواج، وهذا يعد تحقيراً لشخصها. بينما ينظر إلى توليها العرش كامرأة في أعلى سلم الجدارة بما حققته لشعبها من الرخاء والسلام، والإيمان بعد إسلامها مع سليمان. وكانت مثالاً– حسب النص القرآني– للحكمة الرسولية التي تجمع بين العلم والعمل والنبل والشورى ولطف

---

[1] – انظر Sidney Smith Article, Bulletin of the School of Oriental & African Studies حول حكم الأحباش لليمن.

السلوك. وفي التراث القبطي كمثال للعفاف، وأنها ستعود يوم الحساب لمحاكمة العصاة وعقابهم. وهي في التراث الحبشي مثال للتقى والجمال والذكاء والمعرفة.

وربما كانت بلقيس ملكة سبأ التي حكمت فترة من فترات الدولة السبئية التي ربما استمرت لفترة تاريخية طويلة ابتدأت من 1500ق.م إلى 500م. وقد كانت هذه البلاد الصحراوية بلاداً خصبة (سميت العربية السعيدة) وذلك قبل تطور المناخ إلى الجفاف، فكانت ذات ثقافة وحضارة عاليتين في اليمن وعمان، شهدت بناء سدود وقنوات مائية غاية في استخداماتها، وترويض وتدجين مبكر للإبل.. إلى الحد الذي دفع الكثير من الباحثين إلى الاعتقاد أن جنة عدن ربما كانت في جنوب الجزيرة العربية، والتي ربما كانت مهبط آدم وحواء.

وكانت شبه الجزيرة العربية مسرحاً لأحداث تاريخية متنوعة، أقيمت عليها الممالك والدول والحضارات وتوسعت طالما كانت قادرة على المحافظة على سلطانها ونفوذها وقوتها، وتقلصت في حال ضعفها، وبادت في حال انحلالها وظهور غيرها.

وقد نشأت دولة سبأ كأهم تكوين سياسي واقتصادي وتاريخي في الجنوب العربي، إذ يمكن اعتبارها النواة الأساسية التي سبقتها الدولة المعينية للدوران في نفس الفلك، وتبعتها الدولة الحميرية في نفس المسار، بعد اضمحلالها. ويمكن الاجتهاد بالقول أنَ التفريق التاريخي بين هذه المكونات الثلاثة قد لا يعطي كل واحدة منها خصوصياتها اللازمة. وقد ظلت سبأ وإلى فترة متأخرة في تاريخ اليمن الدولة الأم التي نهل منها ودار في فلكها الجميع، وذلك على الرغم من وجود تناقض في تواريخ ظهور الدول الرئيسية الثلاثة في اليمن، حيث تقول بعضها أن ظهور الدولة المعينية جاء بعد الدولة السئية؟

وسبأ عند النسابة والإخباريين العرب: هو رجل من أجداد العرب القحطانيين؛ عبد شمس (الملقب سبأ) بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد ورد اسم سبأ في الحوليات والنقوش الآشورية القديمة والحديثة. ويظن أن كلمة sabue, sabae وردت عند ملوك أور في نفس التاريخ، تشيركلها إلى سبأ[1]. وهذا يعني أن سبأ، على الأقل، كمنطقة أو بلاد إن لم تكن كدولة، قد عرفت منذ اقدم العصور.

استقى كتاب التاريخ العربي القديم من مصدر أساسي واحد تقريباً؛ عن ابن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه، الذين أسسوا رواياتهم على رواية التوراة (الإسرائيليات)، فتحدثوا عن سبأ كأربعة دول: سبأ الشمال[2] في جنوب فلسطين، سبأ الجنوب في اليمن، سبأ أفريقية الشمالية، وسبأ أفريقية الجنوبية. لكن عدم ظهور أدلة آثارية أو مخطوطة

---

(1) – جواد على " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج5، ص 259.

(2) – يقرر عبد الحميد همو في كتابه "بلقيس–ملكة سبأ"، الصفحة 47، دار معد للنشر والتوزيع بدمشق، 1992، فيقول: " أنني أقرر وكلي ثقة أن اسمها البلقاء، وهي حاكمة سبأ الشمالية التي امتدت من معان وحتى مدين، فهي في شمال الحجاز ونجد على أقرب الحالات، ولا أستطيع أن أتابع المفسرين في حكمهم، فالفارق الزمني بين سبأ الجنوب وسليمان كبير وكبير جداً، وكذلك لا يمكن أن أقرر في شرق أفريقية أو في شمالها لبعد المسافة وعدم وجود مواصلات سريعة.."؟

في الاكتشافات التاريخية تتفق مع الروايات التاريخية للتوراة يؤدي إلى الاعتقاد أنّ هذه الروايات لا تعبر عن أحداث تاريخية حقيقية يمكن الاعتداد بصحتها، وذلك لعدم ظهور أدلة تؤيد وجود مملكة إسرائيلية في زمن شاؤول وداود وسليمان، كذلك لم ترد إشارات إليهم في الحوليات التاريخية، فكل ما ورد وأخذ به المؤرخون جاء من الرواية التوراتية. ويعتقد أن بعض قصص التوراة ربما تمت استعارتها واقتباسها من أحداث تاريخية[1] جرت لشعوب وممالك في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط في زمن اقدم من زمن التوراة، وذلك من أجل بناء تاريخي لمملكة بني إسرائيل، ولاحقاً لدولة يهوذا التوراتية.

ولكي لا نستطرد بعيداً عن موضوعنا الأساسي؛ وهو بلقيس ملكة سبأ، يقتضى معالجة الموضوع بناءً على المعطيات التالية: الرواية التوراتية، الرواية العربية، الرواية القرآنية، والرواية التاريخية.

الرواية التوراتية

1

تقوم الديانة اليهودية، التي يقول اليهود فيها أنَ الله أعطى موسى الشريعة المكتوبة (الألواح) والشفهية على جبل الطور في سيناء، على مصدرين: أساسي وهو "التوراة"[2] (التوراة: الهدى والرشاد بالآرامية) التي هي جزء رئيسي من العهد القديم. والعهد القديم جزء من الكتاب المقدس. والكتاب المقدس يضم العهدين: القديم والجديد، وهو مقدس عند اليهود والمسيحيين على السواء، ويعد جزءً من الديانة المسيحية. والمصدر الثاني هو "التلمود" أي التفسير والشرح والتعاليم، ويشتمل على مجموعة شرائع الديانة وشروح وتعليقات على التوراة وضعها أحبار وحاخامات اليهود بعد الميلاد، بحيث أصبحت مع مرور الزمن محل تقديس وتبجيل عندهم كما التوراة، وجزءاً من أحكام الديانة. وأصل كلمة "تلمود" آرامية جاءت من (لاماد) وتعني يُعلم. وقسم التلمود إلى: "المشناة" أي النص أو المتن الذي يعتني بمختلف تقاليد وعادات اليهود، و"الجمارا" أي التفاسير والشروح التي بنيت على مجموع المناظرات والاجتهادات التي تم التوصل إليها في المدارس اليهودية الدينية العليا بعدما انتهوا من صناعة المشناة. وقد قام بجمع المشناة الحبرالأعظم يهوذا بن شمعون بين (210-220) م، بينما يرجع تاريخ وضع الجمارا إلى كامل القرن السادس الميلادي، بحيث اكتملت صياغتها النهائية في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي؛

---

(1) – يقول خبيرا الآثار المصرية: ويلسون في كتابه "ثقافة مصر القديمة": J. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1956, p. 226-228، وإس.ديفس في كتابه " العلاقات في مصر القديمة": S. Davis, Relations in Ancient Egypt, N. Y, 1956, P 83- 88: "..يوجد تشابه كبير بين الترتيلة المعروفة لأخناتون إلى قرص الشمس (آتون) والجملة 104 من سِفر المزامير من العهد القديم. ونعلم أيضاً بأن العبرانيين أتباع موسى صنعوا أثناء وجودهم في صحراء التيه في سيناء ما يعرف بفلك الميثاق وزينوه بتماثيل صغيرة تماثل أشكال الملائكة محاكاة للتماثيل المجنحة التي صنعها قدماء المصريين لآلهة الحق والعدالة معات..".

(2) – د. أحمد سوسة في" العرب واليهود في التاريخ"، الفصل الثالث"التوراة والديانة اليهودية"، ص 305، الطبعة السادسة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

قرن الدعوة الإسلامية. ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ويرون أن الله أعطى موسى ألواح التوراة المكتوبة على جبل سيناء، بينما أعطاه التلمود شفاهة.

وهناك تلمودان؛ يعرف الأول بالتلمود الفلسطيني (الأورشليمي)، والذي دون بالآرامية الغربية، والثاني بالتلمود البابلي الذي دون باللغة الآرامية الشرقية، وهو أوسع بأربع مرات من التلمود الفلسطيني، إذ يقع في 5894 صفحة، ويطبع عادة باثني عشر جزءً، ولكل منهما خصوصية البلاد التي وضع فيها.

ويتألف العهد القديم من الكتاب المقدس من تسعة وثلاثين سفراً. ويقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية بحيث يتألف الأول منه من خمسة اسفار يطلق عليها اسفار أو كتب موسى الخمسة، وهي:

1- سفر التكوين: يتحدث عن وصف الخليقة وبداية العالم، وعن الشعب المختار.

2- سفر الخروج: يتحدث عن خروج قوم موسى (بني إسرائيل) من مصر، وعن الوحي إلى موسى (ع) على جبل سيناء[1]. حيث دونت أحكام الشريعة اليهودية التي من ضمنها الوصايا العشر في الإصحاح العشرين من هذا السفر.

3- سفر اللاويين: الأحبار (من نسل هارون): يضم طقوس كهنة بني لاوي ابن يعقوب.

4- سفر العدد: يتضمن إحصاءات الشعب اليهودي.

5- سفر التثنية: أي سفر تثنية الإشتراع، أي الذي يكرر ويتمم شريعة موسى.

ويسمى القسم الثاني من العهد القديم "نبييم" أي الأنبياء، ويتحدث عن تاريخ اليهود المتقدمين والمتأخرين. ويضم تاريخ المتقدمين ثمانية أسفار تتحدث عن تاريخ اليهود من دخول يوشع فلسطين حتى هدم الهيكل في بيت المقدس، وهي:

1- سفر يوشع: يتحدث عن دخول الموسويين في فلسطين، وتقسيم الأراضي على غالبية الأسباط.

2- سفر القضاة: يتحدث عن عصر القضاة بين موت يوشع وولادة صموئيل.

3- سفر صموئيل الأول: يؤرخ لصموئيل وشاؤول والفترة الأولى من عهد داود.

4- سفر صموئيل الثاني: يتحدث عن حكم داود.

6/5- سفرا الملوك الأول والثاني: يبحثان من وفاة داود إلى بداية السبي البابلي.

8/7- سفرا أخبار الأيام الأول والثاني: ويضمان وثائق ليست مصنفة وسلالات نسب وروايات من أيام آدم حتى أوائل عهد قورش الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد. ويضم تاريخ الأنبياء المتأخرين أربعة عشر سفراً، هي: أشعيا، أرميا، حزقيال، يوئيل، عاموس، عويديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، وملاخي.

---

[1] - بلغ موسى (ع) في القرآن الكريم برسالة ربه، ومنها ماجاء في سورة طه بدءاً من الآية 8: "هل أتاك حديث موسى. إذ رءا ناراً فقال لأهله إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي ياموسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري".

بينما يسمى القسم الثالث "كتوبيم" أي الكتابات والأشعار، ويتألف من اثني عشر سفراً، هي: مزامير داود، أمثال سليمان، أمثال أيوب، نشيد الأناشيد، راعوث، هوشع، مَراثي آرميا، الجامعة، أستير، دانيال، عزرا، ونحميا.

يقسم التاريخ التوراتي إلى ثلاثة عصور رئيسية منفصلة بفترات زمنية طويلة رغم أنَ كتبة أسفار العهد القديم اجتهدوا بربط جميع هذه الأدوار لتبدو كأنما هي دور واحد مستمر[1]:

1- عصر إبراهيم الخليل الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر ق.م. وباعتراف التوراة؛ كان آل إبراهيم ويعقوب (إسرائيل) مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين. فوطنهم الأصلي كان في حران، حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون إليها قد استقرت على منابع نهر البليخ (تركية وسورية حالياً) بعد هجرتها من جزيرة العرب، ثم نزحت فروع منها إلى بابل وأور في جنوب العراق، وكان إبراهيم من ذريتها. وكانت اللغة في زمنه لغة واحدة[2]، التي موطنها الأصلي الجزيرة العربية، هي اللغة الأم التي تكلم بها إبراهيم، حيث كانت في تلك الأزمنة لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل العربية النازحة إلى منطقة الهلال الخصيب، وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأم إلى لهجات مختلفة ضمن كتلتها اللغوية العامة. وكانت ديانة ذلك العصر هي ديانة التوحيد والدين الحنيف الذي دعى إليها إبراهيم لعبادة الإله الواحد الأحد خالق السموات والأرض "إيل"، فيكون يعقوب: إسرائيل: هو عبد الإله إيل.

2- عصر موسى الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولغة هذا العصر كانت اللغة المصرية القديمة في بداية أمر موسى (ع)، ثم صارت الكنعانية بعد خروجه من مصر إلى جنوب بلاد كنعان. وقد آمن موسى ومن معه بديانة أخناتون التوحيدية. ولعل فكرة التوحيد الخالص في ديانة أخناتون قد دخلت مصرعن طريق هجرة يعقوب وأبنائه[3] إلى مصر، وبذلك تكون ديانة موسى التي بشر بها هي ديانة إبراهيم. وجاء التبليغ لموسى على جبل الطور بعد خروجه من مصر. ولم يلبث أتباعه أن أنحرفوا إلى الوثنية من بعده.

3- عصر اليهود الذي يرجع تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ولغة هذا العصر كانت الآرامية والعبرية (آرامية التوراة) التي كتبت بها التوراة. وأما الديانة فكانت ديانة (يهوه) الخاصة باليهود فقط. وقد بدأ تاريخ اليهودية المتمثلة بالتوراة ببداية هذا العصر.

يتبين من خلال قراءة الأدوارالتاريخية أنَ التوراة كتبت بعد إبراهيم (ع) بألف وثلاثمئة عام، وبعد عصر موسى (ع) بأكثر من سبعمئة عام تقريباً. وهي غير التوراة[4]

---

(1) – أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 74، العربي للنشر والطباعة والتوزيع– دمشق.

(2) – المصدر السابق نفسه، ص 314. أنظر أيضاً رأي د.علي فهمي خشيم؛ ص 124 من هذا الكتاب.

(3) – انظر سياق سورة يوسف.

(4) – يؤخذ من سور القرآن الكريم أن التوراة (التي كتبها أحبار وكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد) زمن البعثة النبوية والموجودة حالياً هي غير التوراة التي نزلت على النبي موسى في سيناء. كما أشار القرآن الكريم إلى نفي ادعاء

التي نزلت على النبي موسى. ويقول كثير من المؤرخين والباحثين الغربيين، وأكثرهم من اليهود، مثل لودز في كتابه "إسرائيل": " لا نستطيع تأييد صحة رجوع تاريخ أيٍ من الأسفار الخمسة وحتى الوصايا العشر إلى عصر موسى، وذلك لكثرة ما تعرض من روايات هذه الأسفار للتكرار وإعادة التعديل والتغيير والتوسيع والتصنيف على مر العصور. والتدقيق في العهد القديم يوضح أن الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر". ويعترف العالم اليهودي أ. هـ. سيلفر في كتّابه "موسى والتّوراة الأصلية": "إن التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى الأصلية". ويقول العالم الألماني مورت كارت: "لا يمكن الاعتماد علمياً على أساطير التوراة، إذ برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة تلك الأساطير، بل بالعكس توجد أبحاث برهنت على عكس هذه الأساطير". ويقول الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز[1] في كتابه "اللواثان" الصادر سنة1651م، الفصل الثالث والثلاثين: "ليس لدينا من التواريخ المؤكدة من خارج العهد القديم ما يعيننا على تعيين زمن صدور اسفار الكتاب المقدس. والاستدلال العقلي لا يحسم مثل هذه القضية، لأنّ الاستدلال العقلي لا يثبت الحقائق الواقعة، وإنما يقتصرعمله على إثبات صحة، أو عدم صحة، النتائج المستخلصة من الواقعة". ومن الأمور التي ناقشها هوبز خبر موت موسى (ع) ودفنه كما ورد في الآية السادسة من الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الاشتراع: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الحواء في أرض موآب مقابل بيت فغور". ولم يعرف قبره حتى اليوم. إذ يعتقد اليهود والمسيحيون أنّ سفر الاشتراع هو أحد الأسفار الخمسة الموحاة إلى موسى، والتي يتكون منها ما يعرف بالتّوراة. ويتساءل هوبز قائلاً: واضح أن هذه الكلمات كتبت بعد وفاة موسى ودفنه، حيث من المستغرب والمستبعد أن يخبر موسى، حتى ولو كان يتكلم نبوءة الغيب، بأن قبره الذي لم يعرف إلى هذا اليوم بينما لا يزال هو على قيد الحياة. وبعد أن يفحص هوبز عدداً من الإشارات في أسفار موسى الخمسة التي كتبت بعد عصر موسى، وإن لم يستطع تحديد تواريخها على وجه الدقة. ويقول إنّ فحص أسفار يوشع، والقضاة (الملوك)، وراغوث، وصموئيل، يثبت بأنها كتبت في تاريخ متأخر عن الزمن الذي كان مقرراً لها. ويؤيد الفيلسوف اليهودي أسبينوزا[2] في كتابه "الرسائل اللاهوتية" المطبوع سنة 1678 كثيراً من النتائج التي توصل إليها هوبز، وأهمها: أن أسفار موسى الخمسة كتبها أكثر من مؤلف واحد. كما برهن الأب سيمون في كتابه "التاريخ النقدي للعهد القديم" المطبوع سنة 1682، على أن أسفار موسى الخمسة كتبها أكثر من مؤلف واحد، واستنتج من تحليله للأسفار المختلفة، بل وحتى السفر الواحد

اليهود بأن إبراهيم وحفيده يعقوب (إسرائيل) هم أجداد اليهود، إذ يقول في الآية 67 من سورة آل عمران: "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين". كما بين القرآن ارتباط إبراهيم بالجزيرة العربية وبالبيت العتيق، إضافة إلى أن القرآن اشار بوضوح إلى أن ديانة النبي موسى الأصلية آمنت بالبعث والنشور والجنة والنار، في حين تخلو أسفار العهد القديم من ذكر ذلك بحيث تتشابه مع الرؤية البابلية في هذا المقام.

(1) – المجلد العاشر من "عالم الفكر" الكويتية– العدد الثاني لعام 1979– الصفحات (525–552).

(2) – المصدر السابق.

نفسه، بأنَ الأساليب مختلفة في أن مادة الموضوع لا تستدعي تغيراً في الاسلوب لو كانت القطعة صادرة عن مؤلف واحد. واقترح الطبيب والكاتب الفرنسي جان استروك في كتاب نشره سنة 1752، بأنَ موسى، أو كاتب الأسفار المنسوبة إلى موسى، قد اعتمد على مؤلفات سابقة في كتابة سفر التكوين.

غير أن كهنة الديانة اليهودية الذين أشرفوا على كتابة التوراة وبقية أسفارها نجحوا ببراعة نادرة على رفع سجل تاريخهم إلى أعلى منازل التقديس، وبالتالي إلى إيهام التاريخ البشري العام بأن كتابهم مقدس جاء من عند الله، وسيحل عقاب الله على من لا يصدق ما جاءوا به. فتعمدوا الخلط بين الأدوار التاريخية التي أسسوا عليها، بحيث أهملوا التسلسل الزمني وذلك بربط تلك العصور (عصر إبراهيم، وعصر موسى، والعصر الذي دونوا به التوراة في القرن السادس ق.م) ببعضها، حتى أن العالم اليهودي سيجموند فرويد كتب في ذلك قائلاً[1]: "لقد تحرى الكهنة اليهود في سرد رواياتهم بأن يوجدوا ربطاً زمنياً مستمراً بين عصرهم الذي كتبوا به التوراة وعصر موسى، وشددوا على تجاهل وجود ثغرة في الزمن التاريخي بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن، ثغرة ربطوها في البداية بعبادة يهوه ثم تخلصوا منها فيما بعد تدريجياً وعلى مهل. وبذلك كانت رواية الكهنة تخضع لنفس الانحراف والتشويه اللذان جعلا من الإله الجديد (يهوه) إله الآباء والأجداد".

ومن المثير أنَ التوراة اعتبرت بني إسرائيل مركز الكون والحياة الإنسانية التي تدور في أفلاكها كل العوالم وأحداث التاريخ. وعدتهم موجودين في كل زمان ومكان حتى التي جاءت قبل ظهورهم، حيث أكدت التوراة وجودهم في عصر إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، واستمرارهم مئات القرون إلى عهد موسى، وإلى عهد ملوكهم وانقسامهم. ويدعي اليهود الحاليون في العالم، على رأي التوراة، أنفسهم من سلالة يعقوب الذي عاش قبل 3800 عام تقريباً! فقد أرخ كتاب التوراة أحداثاً سبقت ظهورها بثمانية قرون بالنسبة لزمن موسى والخروج، وخمسة عشر قرناً وأكثر بالنسبة لإبراهيم. فأرجعوا تاريخهم إلى عهود قديمة لم يكن لهم فيها وجود، بل إنهم أرجعوا اللغة العبرية إلى ما قبل دخولهم المزعوم إلى أرض كنعان (فلسطين) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأطلقوا عليها (عبرية التوراة Biblical Hebrew)، في حين أنَ العبرية التي دونوا بها التوراة مشتقة من الآرامية. وهم يقولون في أسطورة "الزوهر" أنَ الاثني عشرين حرفاً من الأبجدية العبرية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً وأنها نقشت بنار ملتهبة!

وشاع استعمال التسميات: عبراني وإسرائيلي وموسوي ويهودي كمترادفات ليست في الواقع التاريخي إلا مصطلحات ترمز إلى أربع جماعات مختلفة عاشت أربعة أزمنة مختلفة ومتباعدة. فتعبير عبراني أطلق على طائفة من القبائل العربية في الألف الثانية قبل الميلاد حتى أصبح التعريف مرادفاً لمن يعيش في البادية أو الصحراء. وقد وردت

---

[1] – S. Freud, Moses and Monotheism / سيغموند فرويد: "موسى وديانة التوحيد".

تعابير (الأبري، الهبيري، الحميرو، والعبيرو) في المصادر المسمارية الشرقية والفرعونية. لذلك نُعت إبراهيم الخليل (بالعبراني)، وبهذا المعنى وردت كلمة عبري وعبيرو وخبيرو في الكتابات القديمة التي اكتشفت مؤخراً، والتي تعود إلى ما قبل الإسرائيليين والموسويين واليهود بعدة قرون. وفي ذلك لم يشر القرآن الكريم[1] إلى تعبير (عبري أوعبراني). أما تعبير (إسرائيل) فيقصد به يعقوب (إسرائيل) حفيد إبراهيم وأبناؤه وأحفاده الذين ولدوا وعاشوا في حران شمال العراق، ثم انتقلوا إلى مصر في زمن لاحق للالتحاق بيوسف أحد أبناء يعقوب، فاندمجوا وذابوا في البيئة والحياة المصرية. وبعد ستمائة عام جاء موسى المصري بأشياعه يدعو إلى دين التوحيد الخالص الذي كان يدعو إليه أخناتون فرعون مصر، وليس إلى دين "يهوة" إله اليهود الخاص بهم. وقد اضطر موسى وأتباعه للخروج من مصر إلى الجنوب من بلاد كنعان هرباً من طغيان واضطهاد الفرعون الجديد بعدما انقلب على ما آمن به أخناتون بعد موته. وأما تسمية (يهود) فيعتقد أنها أطلقت على بقايا جماعة يهوذا نسبة إلى مملكتة المنقرضة، بعد أن سباهم نبوخذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد.

هاجر يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم (ع) وعائلته إلى مصر للالتحاق بابنه يوسف (ع) حسب التاريخ التوراتي حوالي 1800 ق.م، حيث اندمجوا بشكل كلي في البيئة المصرية لأنها مكثت بين المصريين لأكثر من ستمائة عام حتى جاء موسى (ع)، فهاجر مع جماعته (قوم موسى كما ورد في القرآن الكريم) الموحدين من ديانة أخناتون إلى أرض كنعان، هرباً من اضطهاد فرعون لديانة أخناتون التوحيدية بعد موت الأخير. ومن منطق الأشياء القول أنَ لغة قوم موسى هؤلاء كانت المصرية القديمة قبل خروجهم، ثم تأثروا بلغة الكنعانيين وثقافتهم وعاداتهم وحياتهم بعد ظهورهم في بلاد كنعان. لكن التوراة نسبت موسى وجماعته إلى بني إسرايل أحفاد يعقوب (إسرائيل) وجده إبراهيم!

ويرى الكثير من الباحثين[2] أنَ النبي موسى (ع) كان مصرياً آمن وبشر بعقيدة التوحيد الخالصة التي دعا إليها أخناتون (1379-1362) ق.م. وأخناتون هو الذي كان أول من قال بعد ابراهيم بالتوحيد المطلق لعبادة الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره. فالإله الحق، وفقاً لعقيدته، ليس له شكل محدد، وأنه لا يُمس ولا يُرى، وليس كمثله شيء، ولا شريك له، وهو موجود في كل شيء وفي كل مكان وزمان، فهو خالق البشرية، الإله الحي الذي يحيي ويميت.. ظاهر جلي في قرص الشمس التي تهب الحياة..". بينما وصف القرآن الكريم سيدنا موسى بالنبي الذي أرسله الله لهداية بني إسرائيل. وقد قامت الديانة الأخناتونية على ثلاث ركائز أساسية، هي: الحقيقة والصدق والعدل.

فالأدورار التاريخية الزمنية المتباعدة تتبع الأدوار الرئيسية الثلاثة التالية:

---

(1) – آل عمران، الآيات 64-67: (يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين).

(2) – Freud, 'Moses and Monotheism / فرويد في كتابه "موسى وديانة التوحيد". ومنهم أيضاً المؤرخ اليهودي يوسفوس (37- 100) م. كما أيد ذلك فيلسوف الاسكندرية اليهودي فيلون (30 ق.م- 40 م).

1- عصر إبراهيم الخليل حوالي 1900 ق.م.

2- عصر موسى حوالي 1250 ق.م.

3- عصر تدوين التوراة في القرن السادس قبل الميلاد.

أي أنَ التوراة كتبت بعد إبراهيم بألف وثلاثمئة عام، وبعد موسى باكثر من ستة قرون. لكنَ فترة موسى هي الفترة التي عدها اليهود بداية لتاريخهم دون سند علمي أو واقع تاريخي.

وينظر إلى الديانة اليهودية على أنها ديانة كهنوتية تقوم طبقة الكهنة بدور الوسيط بين جموع اليهود وإلههم "يهوه"، فهم من ينفذون الشريعة ويفسرون التوراة ويوجهون الشعب اليهودي لممارسة شعائره الدينية. وتمتلئ أسفار التوراة بالكراهية والدعوة لحرب الكنعانيين سكان البلاد الأصليين وإبادتهم؛ إذ "أوصى الرب موسى بواجب قتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ جميعاً بحد السيف حتى لا يبقى منهم حي على الإطلاق". وهذا لا يمكن بحال أن يتوافق مع شريعة موسى[1] التي أوحاها الله إليه قبل ثمانية قرون من كتابة الأسفار. كما لا يمكن لدين سماوي أن يأمر بإبادة الجنس البشري (الأغيار) لمصلحة أتباع الدين اليهودي الذين يؤمنون أنَ الله خلق الآخرين لخدمة اليهود شعب الله المختار، إلا إذا أخذنا بما يعلمهم به إلههم الخاص"يهوه": الإله القبلي الذي انحصرواجبه بالعناية بالشعب المختار، والقضاء على الآخرين (الأغيار).

2

أرخت الرواية التوراتية لبني إسرائيل بين (971-923) ق.م، بعد استجابة صموئيل آخر كبار القضاة لطلب بني إسرائيل بتعيين ملك عليهم إسوة بالممالك الكنعانية الفلسطينية، فتم تعيين شاؤول كأول ملك عليهم، فخلفه داود، وسليمان.

أمر الإله "يهوه"- حسب رواية التوراة- يوشع باحتلال أرض كنعان في فلسطين، فعبر نهر الأردن شمال البحر الميت في النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واحتل جميع الممالك الآمورية من بلاد كنعان، ثم قام بتوزيع هذه الأراضي على الأسباط ما عدا اللاويين. وبعد موت يوشع جاء صموئيل آخر كبار القضاة، فخلفه شاؤول الذي أهمل تطبيق أوامر "يهوه" فخذله الرب وأوقعه بأيدي أعدائه الفلسطينيين، فقتل هو وأولاده في المعركة. وخلف داود شاؤول بعد خمسة عشر عاماً من الحكم، وذلك في عام 1010ق.م تقريباً. وتصف التوراة علاقة داود (سفر صموئيل الأول، 17: 12-15) مع الملك شاؤول وزواجه من ابنته والحرب التي نشبت بينهما حتى انتهى الأمر بفوز داود، وذلك بعد موت شاؤول في حربه مع الفلسطينيين، فحكم داود أربعين سنة (1010-971) ق.م. فخلف سليمان أبيه داود كملك، حيث تذكر التوراة (صموئيل الثاني؛12:

---

[1] – البقرة 78: " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون".

24) أنه ابن داود من امرأته الحبشية (بتشيبا) التي كانت امرأة أوريا الحثي في الأصل. وقد حكم أربعين سنة في أورشليم (971-931) ق.م، واشتهر ببناء المعابد والهياكل، فهو الذي بنى الهيكل على ما يقولون (إذ جلب رجال حيرام وسليمان الذهب من أوفير وجلبوا الخشب والمجوهرات أيضاً، فاستعمل سليمان الأخشاب لبناء الأدراج في المعبد وفي قصره وفي صناعة الآلات الموسيقية المختلفة، حتى أن هذا الثراء لم يوجد سابقاً بأي مكان من أرض يهوذا). وزاد على ملك أبيه داود الذي ورثه حتى وصل نهر الفرات شرقاً ونهر النيل غرباً. ومن المعروف حسب التوراة أن سليمان لم يحارب في حياته، مثلما فعل والده، لأنه ملك بوعد من الرب، إضافة إلى أن السجلات التاريخية تقول أن الامبراطورية الآشورية في الشرق كانت في أعظم قوتها وعليها حكام شُهد لهم بالبأس والقوة، وهم من كان يشن الحملات العسكرية المتعاقبة باتجاه الشواطئ السورية، وكان الفراعنة كذلك في مصر، فكيف يستوي ما ورد في التوراة؟ إذ شهد القرن العاشر ق.م تدفقاً هائلاً للمد الآشوري المسلح باتجاه الشام وفلسطين إلى الحد الذي لم تستطع الممالك الآرامية القوية حينها الصمود أمام هذا الطوفان القادم من جهة الشرق، إضافة إلى أن الحوليات الآشورية التاريخية قدمت وصفاً تاريخياً متصلاً لجميع الدول والممالك المجاورة دونما إشارة أو تلميح لوجود مملكة داود وسليمان. كما أنّ الوثائق المصرية لم تأت بذكر أو معلومات عن هذه المملكة.

ويقول توماس طومسون[1] Thomas Tomson استاذ دراسات العهد القديم في جامعة كوبنهاغن الدانماركية: " ذهب الاعتقاد السائد إلى اعتبار أن القصص التوراتية تمثل أحداثاً تاريخية حقيقية، فتغير الموقف تماماً بعد أن أظهرت نتائج المكتشفات التاريخية عدم وجود أدلة مادية تؤيد ما جاء في هذه القصص من أحداث وتواريخ، إذ لا يوجد دليل على مملكة إسرائيلية متعددة في فترة شاؤول وداود وسليمان، كما لم ترد أي إشارة لهؤلاء الملوك في الحوليات التاريخية". ويعتقد طومسون أنّ قصص التوراة تتضمن أحداثاً تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى في الشرق الأوسط جرى اقتباسها لتكون جزءاً من تاريخ مملكة بني إسرائيل، بل يذهب إلى أن دولة يهوذا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد زمن الحكم الفارسي، ولم يكن لها أي علاقة بدولة إسرائيل حول السامرة قبل ذلك بعدة قرون حين دمرها الآشوريون سنة 722 ق.م. وقد فشل الآثاريون بالعثور على أية بقايا للأبنية التي ورد ذكرها في قصة سليمان ضمن طبقات الأرض التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وربما اقتبست التوراة قصتها من تراث وتاريخ الأسرة الفرعونية المصرية الثامنة عشر[2] التي امتدت مملكتها في القرن الخامس عشر ق.م عبر الفرات إلى جنوب آسية الصغرى وجنوباً حتى شلالات نهر النيل

[1] – عن كتاب أحمد ربيع عبد المنعم: "بلقيس بين القرآن والتاريخ"، ص 59، دار مشارق، الجيزة– مصر.

[2]– سار تحتمس الأول (1506-1494) ق.م على رأس جيشه إلى سورية فوصل الفرات، ثم عبر النهر عند مدينة كركميش، وكتب على نصب اقامه هناك: أن حدود مملكته تبدأ من قرن الأرض في الجنوب إلى أطراف المياه المعطوسة في الشمال (إشارة إلى مجرى الفرات من الشمال إلى الجنوب). أي من الفرات إلى النيل.

وأواسط جنوب السودان، فاستعاروا الإمتداد الامبراطوري لهذه المملكة وركبوها على مقاس الملك سليمان ومملكته.

ويعد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد من أكبر الأسس التي ترتكز عليها ثقافة الغرب القديمة والمعاصرة. وعلى ذلك ارتكز الفكر الغربي العام إلى أن روايات العهد القديم تعتبر حقائق تاريخية شبه مسلم بها إذ من الصعب النقاش بأن رواية العهد القديم قد تكون محض خيال أو روايات أسطورية، تبتعد عن وقائع التاريخ الحقيقي في أي من مصادرها القديمة، إن كانت آشورية، آرامية، كنعانية- فينيقية، أو مصرية.

3

تروي التوراة أنّ ملك سليمان امتد من مصر إلى نهر الفرات، فوضع سفنه من عصيون بالقرب من إيلا (العقبة) وسيرها نحو مملكة سبأ. وتروي التوراة أن ملكة سبأ سمعت بسليمان وحكمته وقوته فقدمت إليه بموكب عظيم دونما طلب منه محملة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والطيب والبخور واللبان والتوابل، فكان حجم الهدايا التي احضرتها: أكثر من أربعة آلاف كيلوغرام من الذهب، وكمية كبيرة من التوابل والبهارات والمجوهرات، وكانت كمية التوابل والبهارات أكثر بكثير مما حظي به في أي وقت آخر. وذلك من أجل الاستماع إلى حكمته وعلمه والتزود منهما، وكذلك لامتحان علمه، فقابل كرمها بكرم أعظم، ثم انصرفت مع عبيدها إلى بلادها. لكنّ الرواية التوراتية لم تذكر اسم الملكة ولا عمرها ولا حجم مملكتها، كما لم تذكر اعتناق الملكة لدين سليمان، إضافة إلى أنها لم تشر إلى ديانتها. كما لم تذكر التوراة أيضاً سبباً منطقياً لزيارة الملكة لسليمان وهي تحمل أغلى ما عندها من النفائس إلا بغية امتحان حكمته! وبالمقابل قدم سليمان للملكة كل ما طلبته إلى جانب الكثير من الهدايا التي تكرم بها عليها. بعد ذلك ودعت سليمان عائدة مع فريقها إلى بلادها.

يشير العهد القديم إلى ملكة ومملكة سبأ بلاد البخور والعطور بموضعين (سفر الملوك الأول 1: 10-13، وسفر أخبار الأيام الثاني 9: 1-12)، إذ تروي التوراة خبر زيارة ملكة سبأ على النحو التالي:

"قامت ملكة سبأ، بعد سماعها بشهرة سليمان، بالسفر إلى أورشليم لامتحانه بجملة من الأسئلة الصعبة الحل. فأحضرت معها فريقاً ضخماً من المرافقين وقافلة من الجمال محملة بأنواع التوابل والأحجار الكريمة وكمية كبيرة من الذهب. وعند التقائها بسليمان سألته جملة الأسئلة التي كانت تدور في خلدها، فأجاب عليها جميعاً دونما تباطؤ، حيث لم يجد أي منها محل صعوبة للإجابة عليه. استمعت الملكة إلى حكمة سليمان ورأت القصرالذي بناه، ورأت اصناف الطعام التي قدمها على مائدته، كما اطلعت على أمكنة سكن موظفيه الكبار، وعلى ترتيب قصره واللباس الموحد لهيئة أركانه من المساعدين، وعلى الذين ينتظرون خدمته على وليمة الطعام، وعلى أضحياته التي يقدمها في المعبد. فأصابها الذهول مما رأت، ثم قالت لسليمان: ما سمعته عنك وعن حكمتك في بلادي

اراه واقعاً وحقيقياً، ولكني لم أصدقه حتى جئت ورأيته بنفسي، مع أن ما سمعته لا يساوي نصف ما أراه، فحمكتك وثراؤك أعظم بكثير مما سمعت، يا لزوجاتك المحظوظات! ويا لحسن حظ خدمك وعبيدك! لتمتعهم جميعاً بامتياز حضورك وسماع أقوالك الحكيمة! الثناء والشكر إلى إلهك يهوه! إذ رضي عنك بجعلك ملكاً على بني إسرائيل لحبه الأبدي لهم، ولتجعل العدالة والقانون سائدين بينهم"[1]. غير أن قصة لقائها بسليمان تأتي بشكل عابر في التلمود إلى حد نفي حدوثها، فيقول: " إنّ من يقول إن ملكة سبأ امرأة مخطئ بشكل كامل". إذ قد يعود هذا التناقض بين المصدرين إلى عمق الاختلافات في اجتهادات وتأويلات فقهاء الديانة اليهودية.

بينما يتحدث سفر أستير[2]، وهو أحد الأسفار الاثني عشر التي تؤلف القسم الثالث من العهد القديم تحت اسم "كتوبيم"، عن الترجوم الآرامي الذي يعد أحد النسخ الآرامية من العهد القديم، والذي يرى البعض أنه كتب بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين، بينما يرى آخرون أنه ربما كتب بعد القرن الحادي عشر الميلادي. والترجوم بمجمله تعليقات وشروحات وإضافات على العهد القديم. ويتحدث سفر أستير عن أستير كفتاة يهودية عذراء جميلة كانت من أحفاد يهود السبي البابلي، نجحت في كسب ود وإعجاب الامبراطور الفارسي أحشويروش (485-465) ق.م فجعلته يتزوجها، مما مكنها من إنقاذ أبناء جلدتها من محاولة اضطهاد الوزير الفارسي الأول هامان، فنجحت بالتخلص من أعداء اليهود في البلاط الفارسي. المهم أن ترجوم أستير (لا يوجد سند تاريخي لرواية أستير) تحدث بإسهاب عن لقاء سليمان بملكة سبأ بادئاً باستدعاء سليمان، وهو يعيش لحظة ابتهاج عالية، جميع ملوك الشرق والغرب حول مملكته، وإحضار جميع المخلوقات الإنسية والجنية والحيوانات بما فيها الطيور والزواحف والحشرات، وذلك دون إصدار أي أوامر أو إشارة لجنوده وتابعيه، وإنما كان هذا الاستدعاء الشامل قد تم بمجرد رغبة الملك سليمان. ولما حضروا جميعاً بين يدي الملك تفقد طائر الهدهد فلم يجده، فغضب وتوعد بقتله. فلما حضر الطائر قص على سيده قصة البلاد الغنية بكل شيء، والتي تحكمها امرأة تعرف باسم ملكة سبأ، وأن شعب هذه المملكة ليس شعباً محارباً، فسر سليمان بعد غضب، وكتب رسالة ربطها على جناح الهدهد ليحلق مع الطيور إلى الملكة لتسليمها الرسالة التي تدعوها للحضور إليه لتقديم فروض الطاعة والولاء، حيث بين فيها قوته وجبروته وقدرته وتحكمه بمصائر الإنس والجن وسائر المخلوقات. وأبلغها أنّ حضورها سيتوج باحترام يفوق كل ما أبداه لجميع الملوك، وإلا سيرسل إليها ملوكاً وفيالقاً لا تقدر على مجرد التفكير في مواجهتها. فلما قرأت الملكة الكتاب اعتراها الخوف على مملكتها فاستدعت أركان دولتها وشاورتهم في أمر الكتاب وما يجب فعله، فأشاروا إلى

---

[1] – يبدو التضمين الدوني واضحاً في نظم التوراة لكلمة بلقيس التي خاطبت بها سليمان، حيث جعل الملكة تشعر بالحسد من زوجات وعبيد سليمان موحياً بنظرة التوراة الدونية لملكة سبأ. وأيضاً، كيف تشكر يهوه إله سليمان التوراتي وهي لم تؤمن به؟ خطاب من الصعب تصديق بيانه من ملكة ندية تحل ضيفة على مضيفها.

[2] – زياد منى: "بلقيس لغز ملكة سبأ"، ص 133، دار قدمس– دمشق.

عدم معرفتهم بهذا الملك وأنهم لن يهتموا بأمره فهم ذو قوة ومنعة، إلا أن الملكة لم تركن إلى رأيهم بل قررت إرسال هدايا ثمينة إلى سليمان حملتها على سفن بحرية ومعها رسالة تعد سليمان بأنها ستلبي رغبته خلال ثلاث سنوات. وعندما حان موعد زيارتها أرسل سليمان بنياهو بن يهوديا الجميل الطلعة لاستقبالها. فلما رأته ترجلت من عربتها ظانة أنه الملك سليمان، غير أنه أبلغها أنه رسول الملك إليها، فالتفتت إلى بعض حاشيتها وقالت: إنكم لم تروا الليث، بل رأيتم جمال الشاب الذي يقف مستعداً بحضوره. ولما دخلت على سليمان وهو يجلس في بيت زجاجي حسبته يجلس وسط لجة من الماء، فرفعت تنورتها لتتمكن من العبور نحوه، فظهر الشعر على ساقها، فقال سليمان: جمالك جمال امرأة وشعرك شعر رجل، والشعر زينة للرجال ومعيب للمرأة. فانتصبت الملكة في الحال وخاطبته قائلة: سيدي الملك، سأسألك ثلاثة أسئلة إن تمكنت من حلها سأومن بأنك رجل حكيم، وإن لم تتمكن من حلها تكون مثل باقي البشر. ثم بدأت تسأله وهو يجيب، فتبين لها أنه رجل حكيم لأنه أجاب على جميع ألغازها، فأدركت أنه ليس كباقي البشر.. فاثنت عليه وأيدت ما شاهدته بنفسها إذ لم تكن تصدق ما سمعته عن إعجاز سليمان، وأظهرت تأثرها الشديد باصطفاء الرب لسليمان ومنحه ملكاً ليس كمثله ملك لإقامة القضاء والمساواة والعدالة. ثم قدمت له هداياها الثمينة من الذهب والفضة والجواهر، وبالمقابل قدم لها سليمان كل مارغبت به.

تعرضت بعض التراجم اليهودية الأخرى بشكل سريع إلى ملكة سبأ، فحولتها إلى شيطانة أوغولة شريرة يكسو الشعر ساقيها. كما ساق كتاب"ألف باء سيراسيدس"، الذي يعود تأريخه إلى العصور الوسطى، وكتاب اليهودي اليمني ابن يوسف، في روايتهما عن ملكة سبأ؛ رواية خرافية تتحدث عن لقاء يوشع بن سيراج بالملك البابلي نبوخذ نصر (الذي سبى اليهود) ابن ملكة سبأ من سليمان؟

والواضح أن الهدف الأساسي من مجمل الروايات اليهودية عن ملكة سبأ ولقائها بسليمان هو التركيز على سليمان ومملكته كصاحب الصولجان والقوة والمنعة على معظم مخلوقات الإنس والجان والحيوانات والطير يحركها كيفما شاء بمجرد خاطر، كما تركز على حكمته غير المحدودة. وقد أشارت الرواية التوراتية إلى عودة الملكة إلى بلادها بعد لقائها بسليمان، بينما اختلفت نهاية اللقاء في التراجم الأخرى. وقد اتخذ التراث الديني اليهودي بالإجمال موقفاً معادياً من الملكة وصورها بأنها قرينة الشيطان إن لم تكن الشيطان نفسه.

لم يتأخر التراث الديني المسيحي في روايته عن بلقيس ملكة سبأ عن اللحاق باليهودي، فاشار التراث الديني القبطي إليها بملخص الرواية التالية[1]: لما فرغ سليمان من بناء الهيكل، قضى الرب بانتقال مملكة داود وسليمان إلى بلاد الحبشة المباركة فجعل ملكة التيمن: ملكة الجنوب، التي كانت تحكم على اليمن والحبشة، تقوم بالسفر إلى

[1] – زياد منى: "بلقيس لغز ملكة سبأ"، ص 151، دار قدمس– دمشق.

أورشليم للقاء سليمان والاستماع إلى حكمته. وكانت ملكة التيمن هذه قد ولدتها أمها برجل على شكل رجل عنزة سمينة وجميلة كانت رأتها فأعجبت بها خلال حملها، فجاءت رجل من رجلي الطفلة على شكل رجل العنزة التي أعجبتها. وقد رفضت بلقيس الزواج بسبب رجلها حتى أصبحت ملكة. فلما سمع سليمان بقصتها دعاها لزيارته، وجلس على كرسيه الملكي الذي نصبه في وسط ساحة القصر البلورية فوق الماء. فلما دخلت الملكة عليه رفعت طرفي ثوبها لكيلا يبتلا بالماء فظهرت رجلها العنزاوية لسليمان. إلا أن هذه الرجل تغيرت إلى رجل أنثوية حالما لمست، دونما قصد، قاعدة الخشب المقدسة الموجودة في كرسي سليمان، ففاجأتها رعدة عظيمة من السرور والابتهاج، فأيقنت بقدرة سليمان غير الطبيعية، فقام سليمان وأجلسها معه على كرسيه الملكي. فوقعت رغبة سليمان بامتلاك ضيفته الجميلة، إلا أنها رفضت الاستجابة له، فأعد لها وليمة فخمة من الأطعمة اللذيذة الحارة بغية استزادتها بطلب شرب الماء، ثم أمر ألا يترك شيء من الماء بجانب سريرها، بل بجانب سريره. وبعد أن ذهبت الملكة للنوم أحست بعطش شديد فبحثت عن الماء ولم تجده إلا بجانب سرير الملك، فأصبحت له على ناموسه، فحملت منه. وسألته وهي تستعد للعودة إلى بلادها عن مصير طفله إن كان ذكراً، فطلب منها أن ترسله إليه ليجعله ملكاً. فولدت له ولداً ربته تربية الملوك، ثم أرسلته إلى سليمان بعدما وصل سن البلوغ. فلما وصل إلى سليمان ألبسه تاج أبيه داود وأعلن أنّ: هذا هو داود بن سليمان بن داود ملك إسرائيل. بعد ذلك قرر داود ضد رغبة والده سليمان أن يغادر إلى أرض النجاشي ليكون ملكاً عليها. وبقيت سلالة داود تحكم الحبشة حتى ميلاد السيد المسيح. وادعى الامبراطور الحبشي هيلاسيلاسي سليل الأسرة السليمانية الأكسومية، الذي اسقط حكمه الإنقلاب العسكري سنة 1974م، بأنه الحاكم الخامس والعشرين بعد المائتين من نكاح سليمان لبلقيس ملكة الجنوب المسماة "مَكدَا": ملكة أكسوم القديمة. ورغم امتداد دولة اليمانيين إلى القرن الأفريقي في القرن السابع قبل الميلاد، فإن الرواية تفتقد إلى أسس علمية. ومع ذلك جعل الإنجيل من بلقيس ملكة الجنوب شخصية تتميز بموقع فريد في التراثين: المسيحي القبطي والمسيحي الحبشي. ويزعم نجاشيو الحبشة انتسابهم إلى ملكة الجنوب حتى أصبحت تمثل هويتهم الوطنية الحبشية (الأكسومية).

وفي "ملحمة كبرانجست[1]: عظمة الملوك" التي عثر عليها ضمن مخطوطات المكتبة الملكية في كنيسة صوفيا، يقدم دوماتيوس بطريرك الروم عرضاً لملكة العالم المقسمة بين ملك الروم ونجاشي الحبشة، بحيث جعل مُلك روما يبدأ من منتصف أورشليم حتى الشمال والجنوب الغربي (آورية) المعروفين في العالم القديم في ذلك الزمان، وتبدأ حصة النجاشي من المنتصف الثاني لأورشليم حتى نهاية الجنوب وإلى غرب الهند. وقد خاطب السيد المسيح اليهود الذين تآمروا على صلبه قائلاً: "ستقوم ملكة الجنوب يوم الحساب مع هذا الجيل (يقصد اليهود) وتحكم عليه لأنه لم يسمع كلامي، وهي جاءت من أقاصي

---

[1] – المصدر السابق، ص 166.

الأرض لتستمع إلى حكمة سليمان". وبعد أن أقامت عند سليمان لفترة أشهر قضياها معاً في الحوار حول الخالق الحي الدائم المحيي والمميت، رب البشر والملائكة والكون والوجود، تركت عبادة الشمس والنجوم وأسلمت لرب سليمان، ثم أعلمته بنيتها العودة إلى بلادها، وكان قد أسره جمالها، فرغب إليها ان تقضي ليلتها الأخيرة في مخدعه، فطلبت وقتاً للتفكير في الأمر، معتقدة أن رغبة سليمان تنطوي على عرض بالزواج. فوجئ سليمان لما فسرت له بلقيس ما فهمته، لأن نيته كانت القيام بفعل الحب معها دون الزواج منها. وحفاظاً على كرامته وهيبة ملكه لم يستطع التراجع، فقرر وضع بعض الشروط عليها إن قررت زيارته تلك الليلة، والتي من أهمها أن تحترم شخصه كملك وأن تحافظ على مملكته. لكن نية سليمان كانت الفوز بالملكة، فتآمر للإيقاع بها بأن أعد لها وليمة عشاء فخمة من أطايب الطعام وفلفلها بكل أنواع التوابل التي تزيد الرغبة في الطعام من أجل أن يجعلها تشعر بالظمأ الشديد. فلما شعرت بالحاجة القوية إلى الماء لم تجده إلا في مخدع سليمان، فاضطرت أن تشرب الماء من إبريق سليمان، فاعتبر سليمان أن بلقيس قد أخلت باتفاقهما، لأنها بشربها الماء الخاص به قد اعتدت على ممتلكاته، ثم رفض أن يأتيها بمزيد من الماء إن لم تلب رغبته في الفراش، مما اضطرها للنوم في سريره، حيث استمتع بحيوية عذريتها وجمالها وجسدها الطاهر. ولم يكن بنيته الزنا وإنما كان دافعه حكمة الإلهام لزيادة نسله في الأرض! فلما نام ظهر له نور ساطع يتزل من السماء وينشر ضياؤه على أرض إسرائيل، ويكمل، بعد توقف، إلى أرض الحبشة، حيث يستمر بضيائه السماوي على الحبشة إلى الأبد. فعلق قائلاً: بينما كنت انتظرعودة الضياء إلى إسرائيل ارتفع نور أقوى إلى السماء وهبطت منه شمس في بلاد يهوذا، لكن إسرائيل تعاملت معه بسوء ورفضت السير بنوره، بل حاولوا إطفاءه، لكن النور ذهب فأضاء روما وبلاد الحبشة، فاستيقض سليمان وفكره مشوش من هذا الحلم.

قدم سليمان خاتمه إلى الملكة التي استعدت للرحيل إلى بلادها، كي يكون علامة لنسله منها، وأخبرها عن حلمه، وقال: لتكن بلاد الحبشة (بلادك) مباركة بإذن الرب، ثم ودعها وقدم لها الهدايا. وبعد اشهر الحمل وضعت الملكة طفلاً ذكراً أسمته "ابن الحكيم: منليك الأول" الذي اصبح فيما بعد أول ملوك الحبشة. ولما كبر الولد طلب التعرف على والده، فذهب إليه فأجلسه على العرش بعد أن سماه داود، ثم ملكه على الحبشة.

ولأن سليمان أخلف وعد الرب[1] بأن عبد إلهي مؤاب وآمون وبنى لهما المعابد، وتزوج من نساء كثيرات غير يهوديات، وبنى معابد لآلهتهن، أمر الرب بتمزيق[2] مملكته بعد موته سنة 931 ق.م. فلماذا يعاقب الرب سليمان بعد موته؟ وما ذنب المملكة بعد موت سليمان بعدما عبد الأصنام وتزوج من نساء كثيرات غير يهوديات؟

---

(1) – العهد القديم، سِفر الملوك الأول 11: 1– 41.

(2) – العهد القديم، سِفر الملوك الأول 12– 18.

انقسمت القبائل اليهودية بعد موت سليمان بين شمال وجنوب، فانقسمت المملكة نتيجة لذلك إلى مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب. وكان أول من غزا المملكتين بعد الانقسام الفرعون الليبي الأصل شيشنق الأول سنة 926 ق.م، فأخضعهما وأخذ معه أسرى من مدنهما. ثم جاء تغلات بلاسر الآشوري (745-727) ق.م فاستولى على مملكة إسرائيل. ثم غزاهم سرجون الثاني، فقضى نهائياً على مملكة إسرائيل. وفي 701 ق.م حمل سنحاريب على مملكة يهوذا فأجلى الكثير منهم عن مدنها. وجاء من بعده نبوخذ نصر الكلداني في حملته سنة 597 ق.م على أورشليم وأسر ملكها وسبي يهودها إلى بابل، ثم وقع السبي الثاني سنة 586 ق.م، حيث قضي نهائياً على مملكة يهودا.

الرواية العربية

اجتهد الإخباريون العرب في رواياتهم قبل الإسلام على المصادر اليهودية بالأساس لنقل أخبار سيرة ملكة سبأ ولقائها بسليمان. والاختلاف كبير بين آراء الإخباريين في تحديد اسم ونسب ملكة سبأ (المملكة الحميرية اليمانية). إذ لا يوجد تاريخ لسنة ولادتها ووفاتها. والسند الأساس لوجودها وسيرتها مستمد من التراث الديني المشترك لليهودية والمسيحية، ومن التراث الإسلامي، مع الا-ختلاف في التفاصيل والمعاني والمقاصد بين التراثين. ويمكن القول أنّ رواية بلقيس العربية تطورت تفاصيلها من روايتها الأسطورية- الخرافية- التاريخية، حيث بدأ تركيبها من قصة مأخوذةعن ملكة ما حكمت سبأ، وكانت مثالاً للحكمة والسلطان والثروة، وارتبطت بالملك سليمان بن داود رمز القوة والحكم على معظم المخلوقات من إنس وجن وحيوان وطير، ثم جاء الربط النهائي بالقصة القرآنية التي توجت ملكة سبأ بعقد من الإيمان بالإله الواحد مع النبي سليمان.

وتتحدث رواية ابن الأثير[1] عن نسبها ومُلكها وما جرى معها، فتقول: (اختلف العلماء في أسماء آبائها، فقيل: هي بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقيل: هي بلقمة ابنة هادد واسمه ليشرح بن تبع ذي الأذعار بن تبع ذي المنار بن تبع الرايش، وقيل في نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره.

وقد اختلف الناس في التبابعة وتقديم بعضهم على بعض وزيادة في عددهم ونقصان، اختلافاً لا يحصل الناظر منه على طائل، وكذا أيضاً اختلفوا في نسبها اختلافاً كثيراً، وقال كثير من الرواة: إن أمها جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة بنت السكن، وقيل: اسم أمها يلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، وإنما نكح أبوها إلى الجن لأنه قال: ليس في الإنس لي كفؤة، فخطب إلى الجن فزوجوه.

واختلفوا في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم فقيل: إنه كان لهجاً بالصيد، فربما اصطاد الجن على صور الظباء فيخلي عنهن، فظهر له ملك الجن وشكره على

---

[1] – ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ج1، الصفحات (230– 234).

ذلك واتخذه صديقاً، فخطب ابنته فأنكحه على أن يعطيه ساحل البحر ما بين يبرين (هرمز) إلى عدن؛ وقيل إنَ أباها خرج يوماً متصيداً فرأى حيتين تقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء، فافاقت، فأطلقها وعاد إلى داره وجلس منفرداً، وإذا معه شاب جميل، فذعر منه، فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتني، والأسود الذي قتلته غلام لنا تمرد علينا وقتل عدة من أهل بيتي؛ وعرض عليه المال وعلم الطب، فقال: أما المال فلا حاجة لي به، وأما الطب فهو قبيح بالملك، ولكنْ إنْ كان لك بنت فزوجنيها، فزوجه على شرط أن لا يغير عليها شيئاً تعمله ومتى غير عليها فارقته، فأجابه إلى ذلك، فحملت منه فولدت له غلاماً فألقته في النار، فجزع لذلك وسكت للشرط، ثم حملت منه فولدت جارية ألقتها إلى كلبة فأخذتها، فعظم ذلك عليه وصبر للشرط، ثم إنه عصي عليه بعض أصحابه فجمع عسكره فسار إليه ليقاتله وهي معه، فانتهى إلى مفازة، فلما توسطها رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب، وإذا الماء يصب من القرب والمزواد، فأيقنوا بالهلاك وعلموا أنه من فعال الجن عن أمر زوجته، فضاق ذرعاً عن حمل ذلك، فأتاها وجلس وأومأ إلى الأرض، وقال: يا أرض صبرت لك على إحراق ابني وإطعام الكلبة ابنتي ثم أنت الآن قد فجعتنا بالزاد والماء وقد أشرفنا على الهلاك! فقالت المرأة: لو صبرت لكان خيراً لك، وسأخبرك: إن عدوك خدع وزيرك فجعل السم في الأزواد والمياه ليقتلك وأصحابك، فمر وزيرك ليشرب ما بقي من الماء ويأكل من الزاد، فأمره فامتنع، فقتله، ودلتهم على الماء والميرة من قريب وقالت: أما ابنك فودعته إلى حاضنة تربيه وقد مات، وأما ابنتك فهي باقية، وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض، وهي بلقيس، وفارقته امرأته وسار إلى عدوه فظفر به. وقيل في سبب نكاحه إليهم غير ذلك، والجميع حديث خرافة لا أصل له ولا حقيقة.

وأما ملكها اليمن فقيل: إن أباها فوض إليها الملك فملكت بعده، وقيل: بل مات عن غير وصية بالملك لأحد. فأقام الناس ابن أخ له، وكان فاحشاً فاسقاً لا يبلغه عن بنت قَيْل ولا ملك ذات جمال إلا أحضرها وفضحها، حتى انتهى إلى بلقيس ابنة عمه، فأراد ذلك منها فوعدته أن يحضر عندها إلى قصرها وأعدت له رجلين من أقاربها وأمرتهما بقتله إذا دخل إليها وانفرد بها، فلما دخل إليها وثبا عليه فقتلاه. فلما قتل أحضرت وزراءه فقرعتهم فقالت: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته! ثم أرتهم إياه قتيلاً، وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه. فقالوا: لا نرضى بغيرك، فملكوها. وقيل: إنَ أباها لم يكن ملكاً وإنما وزير الملك، وكان الملك خبيثاً، قبيح السيرة يأخذ بنات الأقيال والأعيان والأشراف، وإنها قتلته، فملكها الناس عليهم.

وعظموا ملكها وكثرة جندها أيضاً، فقيل: تحت يدها أربعمائة ملك، كل ملك منهم على كورة، مع كل ملك منهم أربعة آلاف مقاتل، وكان لها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها، وكان لها اثنا عشر قائداً يقود كل قائد اثني عشر ألف مقاتل.

ويبالغ آخرون مبالغة تدل على سخف عقولهم وجهلهم، فقالوا: كان لها اثنا عشر ألف قيل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة. وما أضن الساعة راوي هذا

الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف.

وقالوا: أنفقت على كوة بيتها التي تدخل الشمس منها فتسجد لها ثلاثمائة ألف أوقية من الذهب، وقالوا غير ذلك، وذكروا من أمر عرشها ما يناسب كثرة جيشها، فلا نطول من الكذب بذكره. وقد تواطأوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال واستهانوا بما يلحقهم من استجهال العقلاء لهم، وإنما ذكرنا هذا على قبحه ليقف بعض من كان يصدق به عليه فينتهي إلى الحق)[1].

أشار ابن جرير الطبري إلى بلقيس في "تاريخ الأمم والملوك" إلى أنها بلقمه أو يلقمة بنت اليشرح أو ابن ذي شرح.. بن يشحب بن قحطان بن يعرب. ويشير ابن حزم الأندلسي في "جمهرة أنساب العرب" إلى أنّ شدد بن زرعة من حمير هو زوج بلقيس، وبلقيس من بني تبع وهم من حمير بن سبأ بن يشجب بن قحطان. كما يشير أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمداني في "الإكليل" إلى شرح بن شرحبيل جد بلقيس، وأن زوجها هو شدد بن زرعة، وبيان ذلك قول تبع حين ذكر بلقيس: عمتي الخير ومن نال مطلع الشمس خالي. وسجل المسعودي اسمها في "مروج الذهب": بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو الرائش. وكتب ابن خلدون في "تاريخه" نقلاً عن المسعودي أن اسمها هو يلمقة بنت الشرح بن الحرث بن قيس، ونقلاً عن الحسن الجرجاني: ".. حتى نشأت بلقيس بنت اليشرح بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي فقتلته غيلة، ثم ملكت..". وذكرها قاموس تراجم "الأعلام" لخير الدين الزركلي[2]، فقال: "بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، من بني يعفر بن سكيك، من حمير: ملكة سبأ. يمانية من أهل مأرب. أشير إليها في القرآن الكريم ولم يسمها. وليت بعهد من أبيها (في مأرب) وطمع فيها ذو الأذعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان، فزحف عليها، فانهزمت، ورحلت مستخفية بزي أعرابي إلى الأحقاف، فأدركها رجال ذي الأذعار فاستسلمت. وأصابت منه غرة في سُكْر، فقتلته، ووليت أمر اليمن كله، وانقادت لها أقيال حمير، فزحفت بالجيوش إلى بابل وفارس، فخضع لها الناس، وعادت إلى اليمن فاتخذت مدينة سبأ قاعدة لها. وظهر سليمان بن داود، النبي الملك الحكيم، بتدمر، وركب الرياح إلى الحجاز واليمن، وآمن اليمانيون بدعوته إلى الله، بعد أن كانوا يعبدون الشمس. ودخل مدينة سبأ فاستقبلته بلقيس بحاشية كبيرة وتزوجها، وأقامت معه سبع سنين وأشهراً، وتوفيت فدفنها بتدمر[3]. وانكشف تابوتها في عصر الوليد بن عبد الملك، وعليه كتابة تدل على أنها ماتت

[1] – إلى هنا تنتهي رواية ابن الأثير، قبل أن يبدأ بالحديث عن لقائها بسليمان حسب النصوص القرآنية.

[2] – المجلد الثاني، الصفحات (73– 74)، دار العلم للملايين.

[3] – انظر (زنوبيا: تدمر الموقع والتاريخ، ص 267). وكتب نشوان الحميري في"شمس العلوم": "تدمر مدينة بالشام مبنية بعظام الصخر فيها بناء عجيب سميت بتدمر للملكة العميلقية بنت حسان بن أذينة لأنها أول من بناها، ثم سكنها سليمان بن داود (ع) بعد ذلك فبنت له الجن بناء عظيماً فنسبت اليهود والعرب بناؤه إلى الجن لما استعظموه، وقال النابغة الذبياني: وخيس الجن أني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح وبالعمد

لإحدى وعشرين سنة خلت من ملك سليمان، ورفع غطاء التابوت فإذا هي غضة لم يتغير جسمها، فرفع ذلك إلى الوليد، فأمر بترك التابوت في مكانه وأن يبنى عليه بالصخر.

وعرف الإخباريون العرب بلقيس بعدة أسماء: ملكة سبأ، بلقمة، بلقمه، بلقة، بلقه، يلقمة، يلمقة، ألمقة، والمقة. وقد رأى نشوان الحميري بأنه لو كان اسم الملكة هو بلقيس لما نشأت الحاجة إلى إطلاق اسماء أخرى عليها. ويلمقة وألمق في اللغة الحميرية هي اسم نجم الزهرة، وما ألمقة إلا اسم القمر؛ الإله العربي الجنوبي. لكن، مع كل هذا الجدل لم تظهر اللقى الأثرية أو الحوليات التاريخية القديمة أي شيء يشير إلى الاسم بلقيس.

وقد اجتهد بعض الباحثين[1] بالقول أن اسم بلقيس هو دمج لبعل وقيس ليصبح بلقيس. وأشار آخرون أنه جاء من الكلمة اليونانية (بالاكيس/بالاقيس pallakis, Pallaxis) التي تعني باليونانية عشيقة (عشيقة سليمان)، وجاءت عند المؤرخ اليهودي يوسفوس: نوكليس/نقوليس/نوفاليس، وعربت إلى نوفلة. كما يمكن أن تكون التسمية كنية في الأصل؛ مشكلة من كلمتين إحداهما الاسم قيس. ويذكر ابن الكلبي في "جمهرة النسب" قيساً ضمن شجرة نسب بلقيس. فهي بنت القيس كقولهم: ابن القيس أو أبو القيس، فتصبح الكلمتان بعد الدمج ودرج الكلام بلقيس، ثم جرى كسر القاف بعد ذلك قياساً على ما هو مشهور في مثل ذلك كما تنتهي كلمتا أبو الفقيه أو ابن الفقيه إلى بلفقيه، وأبو القاسم إلى بلقاسم. ولم تذكر التوراة اسم بلقيس، بل نعتتها كتب التراث اليهودي بملكة سبأ، وملكة التيمن، وملكة الجنوب، بينما لم يسمها القرآن الكريم. أما المصادر العربية الرئيسية فتذكرها بالاسم بلقيس خاصة في كتاب"التيجان" لابن هشام، وكتاب"الإكليل" للهمداني، و"القصيدة الحميرية" لنشوان الحميري، والتي تقول بعض أبياتها:

أمْ أينَ بلقيسُ المعظَّمُ عرشُهَا ... أو صرحُهُا العالي على الأضراحِ
زارتْ سليمانَ النبيَّ بتدمرٍ ... منْ مأربٍ ديناً بلا استنكاحِ

غير أن المصادر العربية لا تورد اشتقاقاً مقدماً لهذا الاسم، ويدخله البعض مثل ابن دريد ضمن الأسماء الحميرية التي لا نقف لها على اشتقاق لأن لغتها قد بعدت وقدم العهد بمن كان يعرفها. ويفرد بذلك نشوان بن سعيد الحميري الذي قدم اشتقاقاً للاسم في "شمس العلوم"، فقال: وبلقيس اسمان جعلا اسماً واحداً مثل حضرموت وبعلبك وذلك أن بلقيس لما ملكت بعد أبيها الهدهاد قال بعض حمير لبعض: ما سيرة هذه الملكة من سيرة أبيها؟ فقالوا: بلقيس، أي بالقياس، فسميت بلقيس. والظاهر أن روايات الإخباريين العرب كانت ترى أن الاسم بلقيس إنما هو لقب للملكة، وانّ اسمها الحقيقي لم يكن بلقيس. وفي ذلك كله يقع خلاف عظيم بين النسابة العرب!

وذكر البكري في "معجم ما استعجم": " تدمر مدينة بالبرية على طريق الشام بنتها الجن لسليمان". غير ان أهل تدمر – حسب ياقوت "معجم البلدان"، ج2، ص 17، يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود بأكثر مما بيننا وبين سليمان، ولكن الناس إذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن.

[1] – انظر آراء المستشرقين في كتاب زياد منى "بلقيس لغز ملكة سبأ"، ص 55.. وما بعدها.

وقال أبو أسامة اللغوي بلقيس اسم أعجمي على فعليل بفتح الباء فعربته العرب فقالوا بلقيس بكسر الباء لأنه ليس في كلامهم فعليل بفتح الباء، وبلقيس بنت يشرح ملكة سبأ. ويقال أنها بلْمَقة بنت اليشرح بن الحارث بن قيس، وأنها ملكت بلّب شرح بعد الهدهاد ذي الصرح سبع سنين، وتزوجت شدد بن زرعة بن سبأ، وأقامت أربعاً وعشرين سنة. وقال ابن قتيبة: كانت أفضل الناس وأعقلهم واحزمهم في زمانها، فكان من أمرها وأمر سليمان ما قصه الله في كتابه العزيز. ويقال أنّ سليمان تزوجها فولدت له داود بن سليمان الذي مات في حياة أبيه، ويقال بل زوجها رجلاً من المقاول فسرحها إلى ملكها، وكان يأتي بلدها كل شهر. وقال (أي ابن قتيبة): ثم ملكت بلقيس بنت هدهاد عشرين سنة باليمن، ثم أتت سليمان بن داود إلى فلسطين، ويقال أنها بنت بأرض سبأ المسنأة التي يقال لها العرم، وأنّ ذلك قبل ملك التبابعة، وقيل العرم بناه لقمان بن عاد الأخرة فأخر به الدهر، ورَممَته بلقيس، فبقي العرم بعدها، حتى أضر به سيل العرم قبل دولة الإسلام بأربعمائة سنة.

وقال غيره: اختلف في بلقيس، فقيل هي بنت جمشاد ملك الفرس، وقيل كانت أمها من الجن، واسمها بلمقة بنت شيصبان،، وبنو مالك وبنو الشيصبان بطنان من الجن. ويروى عن ابن عباس أنه قال كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلمقة بنت شيصبان، وقيل هي بلقيس بنت ذي شرح، وأمها العمردة، وقيل هي بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو ذي الإذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرايش على أحد الأقوال، ملكت بعد أبيها، ثم ملك بعدها ياسر نعم. وذكر من طريق محمد بن جرير عن مسلمة بن عبدالله بن ربعي قال لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان بن داود، ومهرها بعلبك، وعن اسحاق بن الربيع العطار سئل الحسن عن ملكة سبأ، وقالوا إنّ أحد أبويها جني، فقال الحسن الجن لا يتوالدون، ورأيي أن المرأة من الإنس لا تولد من الجن. وقال مجاهد أنه كان تحت يدها اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف، وقال بلغني أنها امرأة تسمى بلقيس، قدميها مثل حافر الدابة، وكانت في بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة يزيدون اثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة الاف رجل، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة ايام من صنعاء، فلما جاء الهدهد بخبرها إلى سليمان، كتب الكتاب وبعثه مع الهدهد، فجاءها وقد غلقت الأبواب، وكانت تغلق أبوابها وتضع مفاتيحها تحت راسها، فجاء الهدهد فدخل من الكوة فألقى الصحيفة عليها، فأخذتها فقرأتها، فإذا بها من سليمان. وقال بقية بن الوليد عن الأوزاعي، قال: كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا به امرأة حسناء دعجاء مُدرجة مدمجة، كأن أعطافها على الطوامير المدرجة، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً، مكتوب على طرف العمامة بالذهب: " بسم الله الرحمن الرحيم، أنا بلقيس ملكة سبأ، زوجة سليمان بن داود، ملكت الدنيا كافرة، ومؤمنة، ملكت ما لم يملكه أحد قبلي، ولا يملكه أحد بعدي، ثم صار مصيري إلى الموت، فاقصروا يا طلاب الدنيا".

ويقال أن سبب تزويج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عات يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوج، فصحب في الطريق رجلاً سأله: أما لك من زوجة، فأجابه: لا أتزوج أبداً، فإنّ ملك بلادنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال له لأن تزوجت ابنتي لم يغصبها أبداً، فقال له: بل يغصبها، فقال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا، فتزوج ابنته فولدت له بلقيس، ثم ماتت الأم، وابتنى لابنته بلقيس قصراً في الصحراء، فنمي إلى الملك خبرها، فقال لأبيها: أعندك هذه البنت الجميلة ولا تأتيني بها، فأمر بحبسه، فأرسلت بلقيس إليه إني بين يديك، فتجهز للمسير إلى قصرها، فلما هم بالدخول بمن معه خرجت إليه جواري من بنات الجن مثل صورة الشمس، فقلن له: ألا تستحي، تقول لك سيدتنا أتدخل بهذه الرجال على أهلك، فأمرهم بالانصراف ودخل وحده، فأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال ثم قطعت رأسه وألقت به إلى عساكره، فأمّروها عليهم، ولم تزل حتى أبلغ الهدهد خبرها إلى سليمان.

وقال عبدالله بن سلام إنما طلب سليمان الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء كم هو من وجه الأرض، لأنه كان في مفازة عدم فيها الماء، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض من ظاهرها، فيخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة، وتسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة.

وقد لفق البعض من الإخباريين العرب أنها بلغت بفتوحاتها بابل ونهاوند وأذربيجان وحتى الصين، وقادت حملاتها ضد الماديين نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، وضد المانيين في أرمينية، وضد أرفاد، وذلك بغية إضافة صورة خيالية عن بلقيس كملكة فاتحة. لكن لم يعثر على أي أثر لذلك في الحوليات التاريخية القديمة.

الرواية القرآنية

بالرغم مما تقدم من اختلافات في تفاصيل الروايات التي تحدثت عن الملكة اليمانية، يبدو واضحاً ولا يحتاج إلى كثير تأكيد أنّ بلقيس ملكة سبأ سليلة حسب ونسب جاءت من بيت ملكي. وحتى نسهل الأمر بدون العودة إلى ما سبق من روايات متعددة عن توليها الملك، سنكتفي بأخذ الرواية الأقرب إلى الواقع الافتراضي، وهو أن والدها كان، في أحسن الأحوال ملكاً. وقد ورثت الملك منه لأنه على ما يبدو لم يرزق بأبناء بنين. فلما حضرته الوفاة أوصى لها بالملك، فأشار عليه رجل من وجوه حمير من بني قحطان قائلاً: أتدع أفاضل قومك وتستخلف علينا امرأة وإن كانت بالمكانة التي منك ومنا؟ فاشار الملك إلى حلم وعلم وحكمة ابنته قائلاً: إنها أعقل النساء والرجال ولا تخطئ في المشورة، وإني أسمي مالك بن يعفر بن عمي وهوغلام له حزم وعقل، فإذا بلغ فله الملك إما في حياتها وإما بعد موتها، فسمع الجميع وأطاعوا.

استقر الحكم لبلقيس لأنها أثبتت فعلاً أنها ابنة أبيها في الحلم والعلم والمشورة والحزم. فاستقرت البلاد وازدهرت أيما ازدهار خلال حكمها، وتمتع اليمانيون بالأمان

والرخاء والغنى والعمران والمدنية، ونجحت في توطيد أركان حكمها وملكها بالدهاء والسياسة العادلة الحكيمة بين جميع أفراد الرعية. فما كان أن يكون لها شأن عظيم لو لم تتصف برجاحة العقل وسعة الحكمة وغزارة الفهم والسياسة إلى جانب الكياسة والمشورة. ولذلك أسعفها حسن تفكيرها وحزم تدبيرها في كثير من المواقف الصعبة والمحن الشديدة التي تعرضت لها هي ومملكتها. فبنت السدود وأقامت الصروح وشقت القنوات حتى أصبحت مملكتها في قوة وعزة ومنعة ورخاء أشارت إليها كتابات المؤلفين والمؤرخين اليونان والرومان والعرب، وفوق ذلك القرآن الكريم في سورتي النمل وسبأ. وقيل أنها بنت سد العرم أو أنها رممته.

وبينت الآيات القرآنية الكريمة ما وصلت إليه مملكة سبأ من التقدم والازدهار والرخاء، فقالت: " لقد كان لسبأ في مساكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور"[1].

عاصرت ملكة سبأ مملكة سليمان حسب السياق القرآني، مع أن سياق الآيات لم يشر إلى الزمن الذي حدث فيه اللقاء بين سليمان وبلقيس، كما لم يسم القرآن الكريم الملكة بل اكتفى بوصفها ملكة على سبأ أوتيت من كل شيء عظيم.

لما مُلك داود جعله الله نبياً وملكاً وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع، فألان له الحديد، وأمر الجبال والطير أن يسبحوا معه إذا سبح، ولم يعط الله لأحد صوتاً أجمل من صوته، فكان إذا قرأ الزبور تقترب منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (ولقد آتينا داود فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إنّي بما تعملون بصير) [2]. وكان داود شديد الاجتهاد كثير العبادة والبكاء. وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، كما كان لا يأكل إلا من كسب يده.

وقد امتحن الله داود بأن ابتلاه بزوجة أوريا[3] التي وقع في حبها عندما رآها. ولما سأل عنها أخبروه عن زوجها الذي يقاتل في أحد الثغور، فبعث إلى صاحب الثغر أن يقدم أوريا بين يدي التابوت إما أن يظفر أو يقتل، ففعل ذلك به فقتل، فتزوج داود امرأته، وهي أم سليمان في أقوال. وبينما داود في المحراب يصلي دخل عليه ملكان أرسلهما الله من غير الباب، فراعه ذلك، فقالا: " لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحق. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها وعزني في الخطاب"[4]، أي قهرني وأخذ نعجتي، فقال للآخر: ما تقول؟ قال: صدق، إني أردت أن أكمل نعاجي مائة فأخذت نعجته. فقال داود: إذاً لا ندعك وذاك، فقال الملك: ما أنت بقادر عليه. قال داود: فإن لم تردّ عليه ماله ضربنا منك أنفك وجبهتك. قال: ياداود أنت

---

[1] – سورة سبأ، الآيات 15– 17.
[2] – سورة سبأ، الآيات 10– 11.
[3] – ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ج1، الصفحات (224– 226).
[4] – سورة ص، الآيتان 22، 23.

أحق أن يضرب منك أنفك وجبهتك حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قتل وتزوجت إمرأته. ثم غابا عنه.

عرف داود ما ابتلي به، فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، وأدام البكاء حتى كفت عيناه.. إلى أن غفر له ربه.

ولما توفي داود عن عمر يناهز المائة عام، أو أكثر قليلاً على بعض الأقوال، كانت مدة ملكه قد بلغت أربعين سنة وكان له تسعة عشر ولداً، فأورث الملك إلى ابنه سليمان دون الآخرين. وكان سليمان ابن ثلاثة عشر سنة، فآتاه الله النبوة مع المُلك. وقد أيد النص القرآني توريث داود المُلك لابنه سليمان، فقال: " ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورثَ سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون"[1]، وسخر الله لسليمان الريح والجن: "ولسليمان الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات أعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور"[2].

كان داود يستشير ابنه سليمان ويرجع إلى رأيه وحكمه الصائب رغم صغر سنه، ومن ذلك ما قاله تعالى في كتابه العزيز: "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين"[3]. وهي أن غنماً دخلت ليلاً زرع قوم فأكلته، فقضى داود بالغنم لصاحب الزرع، وحكم سليمان أن يسلم الزرع إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الزرع فيصيب منها إلى أن يعود زرعه إلى حاله، عندئذ يقوم بدفع الغنم إلى صاحبها. فلما سمع داود حكم ابنه سليمان أمضاه وهو مسرور. وجاءت هذه القصة القرآنية لتدلل على حكمة سليمان ونبوغه.

لما أتى الله النبوة إلى الملك سليمان دعى إلى الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، إذ خاطب ربه قائلاً: " ربي اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإنا له عندنا لزلفى وحسن مآب"[4]، فاستجاب له ربه وسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والريح. فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجن ينتظرون أمره.

---

[1] – سورة النمل، الآيات 15- 17.

[2] – سورة سبأ، الآيات 12- 13.

[3] – سورة الأنبياء، الآيتان 78- 79.

[4] – سورة ص، الآيات 35- 40.

فلما كان سليمان في غزوة من غزواته طلب طائر الهدهد ليدله على مكان الماء لأن الله قد أعطى الهدهد نعمة رؤية الماء تحت الأرض، فلم يجده، وقيل أيضاً: نزل ضوء الشمس فغطى مجلسه، فرفع نظره إلى الأعلى ليرى من أين تنزل الشمس لأنَ الطير كانت تقف صافات فوقه فتظله من حرها، فرأى ضوء الشمس يأتي من مكان الهدهد، فأعلن أنه سيعذبه إن لم يقدم سبباً مقنعاً لتركه مكانه دون استئذان. وحدث محمد بن إسحاق، فقال: " كان سليمان (ع) إذا غزا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه يتفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه لون من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فراى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد، فقال: "ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين" (النمل 20-21).

كان الهدهد يطوف حينها طائراً فوق أرض الله فمر على أرض سبأ فرأى قصراً عظيماً تحيطه حدائق غناء، فنزل بجوار هدهد رآه، وسأله متعجباً: أين أنت من سلطان وحكم سليمان وما تفعل هنا؟ فقال له: ومن سليمان هذا؟ فذكر له ما حُشر لسليمان من الجن والإنس والطير، فعجب الهدهد الآخر من ذلك. ثم أطلعه على أحوال مملكة سبأ وملكتها. فلما عاد الهدهد إلى سليمان أخبره بخبره اليقين الذي جاء به من سبأ، وهو يمكث غيربعيد: " فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بخبر يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يأيها الملؤا إني ألقي إليَ كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلو عليَ وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما أتانيَ الله خيرٌ مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون. قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم. قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا من العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلي الصرح

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"[1].

يدور سياق القصة القرآنية حول حكمة بلقيس وما حققته لمملكتها من الخير والثروة والقوة والشورى (ليس النص القرآني منقولاً عن التوراة). وربما سبقتها ملكات حكمن سبأ، فاكتسبت إحداهن شهرة واسعة عن الباقيات خاصة وأنها ارتبطت بسليمان، وأسلمت معه، فازدادت أهمية سيرتها بظهور الإسلام. وهذا يعزز رؤية إسلامية راقية للمرأة، حيث مثلت استحقاقاً وجدارة نوعية وكفاءة شخصية مهمة لتسنم المرأة موقعاً قيادياً في أعلى هرم الدولة والمجتمع. إذ إن الصورة التي رسمها القرآن الكريم لملكة سبأ ربما تعني تضميناً يكاد يكون واضحاً بعدم رفض ولاية المرأة. وهذا موقف يبدو مخالفاً لموقف التوراة المعادي للمرأة من خلال تصويرها كأنثى تنحدر من أصول جنية لا تبحث إلا عن غرائزها، وأنها لا تمت إلى عالم النظام الاجتماعي الإنساني، الذي كان الموضوع الأساسي للتعليم القرآني. من هنا دخلت بلقيس، من خلال القصة القرآنية، في تاريخ العرب والمسلمين كسيدة مثال للحكمة والجمال والعفة والاتزان والمسؤولية والراي والشورى، فأصبحت مثالاً للمرأة العربية المسلمة الكاملة. إذ لا غرو في ذلك، فالصورة التي رسمها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة للمرأة، بشكل عام، صورة تبلغ درجة عالية من الاحترام والتقدير والحقوقية.

لم تكن ملكة سبأ امرأة عادية، أو ملكة تحكم في عصر ما، فيرد ذكرها كالغالبية العظمى من الملوك والملكات. فقد امتازت عنهم جميعاً بتخليد ذكراها وتشريفها في القرآن الحكيم، فهي تملك على قومها ولها عرش عظيم استرسل الثعالبي في وصفه بحيث طعمه بالذهب والجواهر واللآلئ والياقوت الأحمر والأزرق والأخضر وكلله بالذهب والفضة والياقوت، وجعل قوائمه الأربعة من الياقوت: فواحد منها من الأحمر والثاني من الأخضر والثالث من الأزرق والرابع من الياقوت الأصفر.. إلخ، بحيث كان يسلب الألباب ويذهب بالمنطق والأسباب. وعن قتادة: كانت قوائمه من لؤلؤ وجوهر، وكان يستر بالديباج والحرير، وعليه سبعة أغلاق. وقال ابن إسحاق: وكان يخدمها النساء، فكان معها لخدمتها ستمائة من النساء، وقال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مداين اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار يسجدون للشمس من دون الله. وقد أوتيت في مملكتها من كل شيء عظيم، واقترن اسمها باسم النبي سليمان. وقد كان قومها– حسبما أخبر الهدهد سليمان– يعبدون الشمس والنجوم ويسجدون لها من دون الله بالرغم مما أتاهم الله من النعم والغنى والقوة والبأس. فما كان من سليمان المتصف بكمال العقل وسعة الحكمة إلا أن يتحرى رواية الهدهد، فقال: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين". فأرسل إلى الملكة وقومها يدعوهم إلى الإيمان وطاعة الله الذي لا إله غيره، وأن يأتوه مسلمين خاضعين. فلما فضت الملكة الرسالة،

---

[1] – سورة النمل، الآيات 20– 44.

بعدما ألقاها إليها الطائر، وجدتها من سليمان "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلو عليَ وأتوني مسلمين". فجمعت بلقيس وزراءها وعلية قومها للتشاور في أمر كتاب سليمان، فأشاروا عليها برفض طلب سليمان والاستعداد للحرب لأنهم أولوا قوة وبأس شديد "نحن أولوا قوة وبأس شديد"، غير أن بلقيس الخبيرة والبصيرة رأت رأياً آخر، لأنها تعلم أن "الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، فأشارت عليهم أن ترسل له هدية وترى بما يرجع المرسلون، لكن سليمان رد عليهم هديتهم وتوعدهم قائلاً: " أتمدونني بمال فما أتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون". فتأكدت بلقيس من قوة سليمان وعظيم سلطانه عند عودة الرسل إليها، فقررت السير إليه ومعها أكابر قومها ودولتها. فلما صارت على حدود مملكته قال لأصحابه: "أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين"، إلا أن رغبة سليمان كانت تريد إحضاره بأسرع من ذلك، فقال الذي عنده علم من الكتاب، وكان كما قيل هو آصف بن برحيا، وكان صديقاً يعرف الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وقيل هو غير آصف، وأنه قال لسليمان: سأجيئك به قبل رفة عينك وانتباهتها، فامدد بصرك، فمد بصره نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما رد بصره إلا هو أمامه: "أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك"، فنظر سليمان- ربما إلى السماء أو إلى جهة ما- ثم رد طرفه فرأى عرشها: "مستقراً عنده"، فقال: "هذا من فضل ربي أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم". فلما دخلت بلقيس على سليمان في مجلسه، سألها: "أهكذا عرشك قالت كأنه هو". وقال القراء وغيره، إنما أمر بتنكره لأن الشياطين قالوا له إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها، وقيل خافت الجن أن يتزوج بها، فيولد له منها، فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا له انها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل حمار، "فقال نكروا لها عرشها" لنعرف عقلها، وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال له كيف لي أن ارى قدميها من غير أن اسألها كشفهما، فقال أنا أجعل في هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجاً، حتى تظن أنه ماء فترفع ثوبها، فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي ذكره تعالى في قوله "فلما جاءت قيل لها أهكذا عرشك قالت كانه هو"، أي شبهته بعرشها الذي تركته وراءها في بلدها، فعلم سليمان كمال عقلها وعلمها، "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين"، وقيل هذا قول بلقيس، أي أوتينا العلم بصحة نبوءة سليمان من قبل هذه الآية في العرش، وكنا مسلمين، يعني منقادين لأمره، وقيل هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله تعالى على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وقيل هو من قول قوم سليمان، قيل لها: "ادخلي الصرح" الذي أمر سليمان الجن ببنائه لكي تدخل عليه بلقيس وهو فيه، فبنوا هذا الصرح الممرد من قوارير" قال إنه صرح ممرد من قوارير"، فلما أدخلت بلقيس عليه حسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها لتعبر إليه، فإذا هي أحسن النساء ساقاً، سليمة مما قالت الجن، غير

أنها كانت كثيرة الشعر، فقالت: "رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"، فاستسلمت بلقيس وإذعنت وأسلمت مع سليمان وأقرت على نفسها بالظلم.

وقيل إنّ سليمان تزوجها- بعدما أشار عليه ناصحه الجني بعمل النورة والحمام لاقتلاع الشعر دون أن يسبب أذى لساقها- وأسكنها الشام، وقيل أنه نكحها وأحبها حباً جماً، وردها إلى بلادها، وصار يأتيها على الريح كل شهر مرة لمدة ثلاثة أيام، فولدت له ولداً أسماه داود، فمات في زمانه. وقيل أيضاً أنه لم ينكحها بل زوجها إلى ذي تبع ملك همدان حسب رغبتها ثم ردها إلى بلادها. وقيل أنه أمر الجن بإطاعة ذي تبع، فأمرهم ذي تبع ببناء حصون اليمن. وقيل إنّ الجن امتنع عن طاعة ذي تبع بعد موت سليمان، فانقضى ملك بلقيس وملك ذي تبع مع انقضاء ملك سليمان؟

ويقال إن حمير اجتمعت بعد بلقيس على مالك بن يعفر بن عمرو بن حمار بن المنذر بن عمرو بن زيد بن السكيك بن وائل بن حمير، وملك بعده ابنه شمس بن يرعش، وهو الذي خرب سمرقند على ما قيل؛ فملك بعده ابنه صيفي بن شمر على اليمن، وبعث أخاه إفريقين، بن شمر إلى أفريقية بالبربر، وكنعان فملكها.

الرواية التاريخية

ورد ذكر سبا والسبئيين في التوراة وفي المؤلفات اليونانية واللاتينية، وكذلك في الكتابات الآشورية. ويعتقد أن كلمة Sabum, sabu, saba، التي وردت في نص سومري يعود إلى آخر ملك من ملوك أور في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، والتي تعد أقدم نص تاريخي يصل إلينا، إنما تعني على الغالب سبأ والسبئيون، فعندئذ يكون السبئيون هم أول شعب عربي جنوبي يصلنا خبره. وقد نشرت صورة كتابة حُفرت على لوحة نحاسية جاء فيها: "عبد شمس، سبأ بن يشجب، يعرب بن قحطان"[1]. وقد ذهب العالم هومل إلى أن السبئيين هم في الأصل من أهل العربية الشمالية، ارتحلوا في القرن الثامن قبل الميلاد إلى جنوب الجزيرة العربية واستقروا في منطقة صرواح ومأرب وفي الأماكن السبئية الأخرى. وذكر ميلر أن دولة سبأ وردت في أخبار آشور على قرميدة ذكرت فيها الأمم التي تقدم الجزية للملك الآشوري سرجون الثاني (721-705) ق.م. وقد دلت على دورهم التاريخي لقى اثرية مميزة وشواهد كتابية معلومة تقترن بإشارات غالبة إلى سبأ التي ارتبطت بها معظم الرموز التاريخية في اليمن القديم، والتي هي بالفعل واسطة العقد في هذا العصر، حيث يمثل تاريخ دولة سبأ وحضارتها العمود الفقري في تاريخ اليمن. وسبأ عند النسابه هي: أبو حمير وكهلان، ومنهم تسلسلت أنساب أهل اليمن جميعاً. وارتبطت إلى حد كبير هجرة أهل اليمن إلى الأمصار بسبأ، حتى قيل: تفرقوا ايدي سبأ. وكانت دولة سبأ في عصرها الأول أكبر وحدة سياسية فيه، وما دول معين وقتبان

[1] – جواد علي: " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، ص 258، الذي أشار إليها في:
REP. EPIG, 4304, VIII, II, P. 184. Collection P. Lamare.

وحضرموت التي ارتبطت بها حيناً وانفصلت عنها في حين آخر، أو اندمجت فيها لتكون دولة واحدة كما في دولة حمير التي لقب ملوكها بملوك سبأ وذي ريدان، إلا تكوينات سياسية كانت تدور في فلك الدولة الأم: سبأ.

اتفق كثير من المؤرخين أمثال أبو الفداء وابن خلدون والمسعودي واليعقوبي ونشوان الحميري على أنّ حمير ملك بعد أبيه سبأ، إلا أن اختلافهم كان على من خلف بعد حمير، وكان أيضاً في ترتيب ملوك حمير وأسمائهم حيث كان بين حمير والحارث آخر ملوكهم مائة وخمسون أباً.

وقد جدول جرجي زيدان في كتابه "تاريخ العرب قبل الإسلام" أسماء ملوك حمير ومدة حكم كل منهم. حيث كان أولهم الحرث الرائش.. فجاء ترتيب الهدهاد بن شرحبيل الخامس بينهم، وجاء ترتيب بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل السادس. ويتكون جدول زيدان من ستة وعشرين ملكاً، استمروا في الحكم لمدة ألف وسبعمائة سنة تقريباً ؟ إلا أنّ جرجي زيدان عد هذه المدة الطويلة تاريخاً لدولتي سبأ وحمير بما فيها التبابعة؟

وتبين أنّ عدد ملوك سبأ الذين قرأت أسماؤهم على أنقاض مدينتي مأرب وصرواح أكثر من ثلاثين ملكاً (مكرباً). ولدولة سبأ أربعة أدوار كان الملك يدعى (مكرب سبأ) في الدور الأول، و(ملك سبأ) في الدور الثاني، و(ملك سبأ وريدان) في الثالث، و(ملك سبأ وريدان وحضرموت) في الرابع. ثم انتقلوا من لقب مكرب (مقدس أو كاهن) إلى لقب ملك (سلطان مدني أو سياسي).

أشار جواد علي[1] إلى عثور العلماء في أنقاض مدينة صرواح القديمة على كتابات سبئية بعضها من عهد المكربين. ومنها نص مهم رمزوا له برقم آثاري (Glaser 1000A,B). والآمر بتدوينه كان المكرب الملك (كرب ايل وتر) إذ يتحدث النص عن فتوحاته وانتصاراته وأعماله. وفي مقابل خربة معبد صرواح خربة أخرى تقع على تل، هي بقايا برج المدينة، وأطلال أخرى، يظهرأنها من بقايا معابد تلك المدينة وقصورها. وفي صرواح كان معبد (المقه) إلهة سبأ التي انتشرت عبادتها من هذه المدينة بانتشار السبئيين. ومن معابد هذه الإلهة التي بنيت في هذه المدينة معبد (يفعن أو يفعان) الذي حظي بعناية المكربين.

ويشاهد في خرائب صرواح بقايا القصورالقديمة والأعمدة الحجرية المنقوش عليها بالخط المسند، علماً أن القسم الأعظم من المباني القديمة لا يزال مدفوناً تحت الأنقاض ماعدا آثار بعض القصور التي لا تزال ظاهرة فوق الأرض، منها قصر يزعم الأهلون أنه كان لبلقيس، وكان به عرشها، وهو يعرف عندهم بقصر بلقيس؟

لم تكن مأرب عاصمة سبأ في هذا الوقت بل كانت مدينة من مدن سبأ الكبرى، ولعلها كانت العاصمة السياسية ومقر الطبقة المتنفذة في سبأ. أما صرواح فكانت العاصمة الروحية، وفيها معبد الإله الأكبر ومقر الكهنة (المكربون). وقد وجه المكربون

---

[1] – جواد علي: " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (304-351). وقد اشار علي إلى تعداد قوائم الرحالة المؤرخين وتصنيفهم إلى مجموعات دون ذكر أسمائهم.

عنايتهم نحو مأرب كما لو كانوا يخططون لجعلها مركز الدولة السياسي .والديني، فأقاموا فيها معبد الإلهة (المقه) [1] الكبير، والقصور الضخمة، وسكنوا بها، وأقاموا عندها سد مأرب العظيم.

اشتغل علماء العربية الجنوبية على ترتيب أسماء حكام سبأ المكربين بحسب تسلسلهم التاريخي، حيث تم تصنيفهم[2] في جمهرات على أساس القدم، مراعين في ذلك دراسة نماذج الخطوط والكتابات التي وردت فيها أسماؤهم. وكان من أوائل من عني بهذا الموضوع من العلماء الرحالة العالم الشهير كلاسر، والعالم فرتس هومل، ورودوكناكس وفلبي وغيرهم. والذي يهمنا من مراجعة هذه القوائم هو محاولة العثور على اسم بلقيس أو ملكة سبأ أو امرأة حكمت سبأ. فقد رتب هومل قائمته لمكربي سبأ في سبعة أسماء أطلق عليهم جمهرة مكربي سبأ الأولى، وخمسة أسماء اطلق عليهم جمهرة مكربي سبأ الثانية، ورمز إلى كل اسم من أسماء الجمهرتين برقم أثاري خاص به. وجاء اسم المكرب (كرب ايل وتر) صاحب صرواح الأخير في الجمهرة الثانية.

وأما رودوكناكس فقد ناقش القائمة التي وضعها كلاسر وهومل وهارتمن، فوضع جمهرات جديدة مبنية على أساس الرابطة الدموية والتسلسل التاريخي وما ورد في الكتابات من أسماء، ثم لخصها في جمهرات ثلاث، ثم عاد فذكر جمهرتين أخريين خلال مناقشته لمجموعة الجمهرات الثلاث. لكن فلبي جعل تاريخ حكم أول مكرب حوالي سنة 820 ق.م تقريباً، وسار على هذا الأساس بإضافة مدة عشرين عاماً لكل ملك، فتألفت قائمته من 23 مكرباً (عشرة في الأولى، وثلاثة عشر في الثانية).

أما ريكمنس، فقد دون قائمته بجعلها تأتي في ثمانية مكارب.

وبتلقب (كرب ايل وتر) صاحب صرواح (650 ق.م) بلقب ملك، واستمرار من جاء بعده من الحكام على التلقب به، ندخل في عهد جديد من الحكم في سبأ، سماه علماء العربيات الجنوبية عهد (ملوك سبأ) تمييزاً عن عهد المكربين، وتمييزاً عن العهد الذي تلاه وسمي عهد (ملوك سبأ وذي ريدان). ويبدأ عهد (ملوك سبأ) بسنة 650 إلى115 ق.م، ثم يبدأ بعده عهد (ملوك سبأ وذي ريدان).

وتظهر قوائم هومل ثمانية عشر اسماً لـ(ملوك سبأ) صنفها بثلاث أسر. أما كليمان هوار فجعلها في خمس جمهرات مكونة من اثني عشر اسماً، بينما جعلها فلبي في خمسة وعشرين اسماً، وجعلها ريكمنس في ستة عشر اسماً.

وفي الواقع، بدأ الباحثون والرحالة في العمل للكشف عن آثار تدل على وجود ملكة سبأ التي قرؤوا عنها وعن غنى مملكتها الروايات المثيرة، فبدأ الصيدلاني الفرنسي جوزيف توماس آرنولد سنة 1843م البحث عن محرم بلقيس، فكان أول أوربي يأتي إلى المكان متخفياً. وفي سنة 1869 جاء إلى مأرب متخفياً فرنسي آخر هو جوزيف هاليفي

---

[1]- اللوحة الحجرية المنقوشة للإلهة سبأ (المقه) الموجهة إلى آلهة القمر الجنوبية في القرن السابع قبل الميلاد.

[2] - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، الصفحات (306- 315).

الذي نجح في تهريب 686 نسخة من النقوش الممنوعة. ثم زار الموقع ثلاث مرات النمساوي إدوار غلاسر باسم مستعار وأخرج معه المئات من نسخ النقوش إلى أوربا (أكثر من ألف نسخة). وقد قام ويندل فيليب بالحفر في مأرب سنة1951، فاستطاع خلال سنة من الحفريات العثور على معبد أبعاده 60×82 قدماً داخل مربع مقدس أبعاده 250 ×330 قدماً، ومحاط بجدار يبلغ ارتفاعه 30 قدماً، وقيل حينها أن هذا المكان كان سكن بلقيس الملكي. إضافة إلى ذلك، اكتشف فيليب آثار سد مأرب الذي يبلغ طوله ثلث ميل (535م تقريباً) على وادي دانه، على بعد ثلاثة اميال من مأرب، إلا أنّ حامية يمنية هاجمت فيليب وفريقه سنة 1952، فاستطاع الفريق الهرب تاركين معداتهم خلفهم. وفي عام 1947م زار اليمن مدير الآثار المصرية د. أحمد فخري، وفيما بعد ألف كتابه "دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق- سوريا واليمن". وقد عثر في عام 1980م على قطع أثرية تثبت أن عمر الحضارة اليمنية يتجاوز فعلاً 3500عام. وقد تعاقبت فرق البحث على المكان خلال الخمسينيات من القرن الماضي.

وشهد عام 1998 تشكيل فريق دولي لمشروع بحث عن محرم بلقيس تحت إدارة الدكتور وليام غلانزمان من جامعة كالغاري Calgary الكندية بتمويل من المؤسسة الأمريكية للدراسات البشرية (AFSM). حيث وجدوا أنّ معظم المكان كان مدفوناً تحت الرمال على عمق ثمانية أمتار وأكثر. ونتيجة استمرار البحث ظهر مدخل المعبد برواق من ثمانية أعمدة من الحجر الكلسي أمام ساحة بيضاوية الشكل بعرض ثمانين متراً تقريباً. كما ظهرت الساحة محاطة بجدار حجري كلسي سميك عليه كتابات محفورة بعضها بطول اربعة عشر متراً، واعتقد الفريق أن الباقي من هذا الجدار مايزال مدفوناً تحت الرمال على عمق عشرة أمتار، لذلك استخدمت أجهزة الكشف الراداري عالية التقنية. لكن لم ينه الفريق عمله بالكشف عن كامل المكان، وقدر أن إنهاء العمل يحتاج إلى خمسة عشر عاماً أخرى.

تبين لفريق غلانزمان أن المعبد (محرم بلقيس) كان محجاً قبل مولد بلقيس بوقت طويل جداً، وذلك من خلال: النقوش الكتابية، ألوان الجدران، قطع التماثيل البرونزية، أوان فخارية، قطع خزفية، عظام حيوانات يعتقد أنها بقايا أضحيات، وقطع من البخور يعود عمرها إلى أكثر من ألفي سنة ما زالت تحافظ على بعض من رائحتها المميزة. ويظهر أن المعبد استخدم بدءاً من 1200ق.م تقريباً حتى القرن السادس الميلادي. وبين فريق البحث أنّ النقوش أظهرت أنّ المعبد كان مكرساً لعبادة الإلهة (المقة) إلهة القمر والخصب العربية- الجنوبية. كما تبين أنّ بعض المئات من النقوش تعود بتاريخها إلى القرن التاسع ق.م، وبعضها إلى القرون التي تلت عصر بلقيس، وتحوي معلومات مهمة عن تاريخ حكمها السياسي والاجتماعي، وتاريخ ملوك السبئيين، إضافة إلى أسماء الزوار المهمين إلى المعبد وأنسابهم وأصولهم القبلية، وأظهرت أن بعضها أسماء أنثوية، إذ يعتقد أن إحدى هذه الأسماء ربما يعود إلى بلقيس ملكة سبأ.

اعتقد غلانزمان أنَ الدليل على وجود ملكة بلقيس مدفون تحت أنقاض مجمع العبادة المعروف باسم "محرم بلقيس"، والذي عمره حتى الآن 3500عام، ويبعد عن مأرب عدة كيلومترات، وأنَ بلقيس عاشت في مأرب وعبدت في محرابها المقدس "محرم بلقيس". لكن الكثير من المهتمين بهذا الشأن دحض ما ذهب إليه غلانزمان لعدم وجود دليل مادي على هذا الاستنتاج.

والخلاصة: أنه لم يعثر على اسم لملكة سبأ، أو بلقيس، أو اسم لامرأة حكمت سبأ، في كل القوائم المشار إليها. كما لا يوجد ما يشير إليها في أية نقوش آثارية أو كتابات تاريخية. مما يدل على أن قصة بلقيس: ملكة سبأ، لا يوجد لاسمها سند تاريخي، اللهم إلا في الروايات العربية القديمة، وفي الروايات الدينية اليهودية والمسيحية، وفي التراث الإسلامي، والتي أشارت إليها بملكة سبأ.

في العرض والتحليل

اتفقت التوراة والقرآن في السياق العام واختلفتا في التفاصيل والمقاصد. حيث تبين أوجه الاختلاف والاتفاق بين القصص التوراتية والقرآنية، ومفهوم القصة ومكوناتها في التوراة ومفهومها ومكوناتها في القرآن على بعد شاسع في الأهداف والمقاصد الإنسانية النهائية:

1- عبد سليمان الأصنام في التوراة وهو مجرد ملك، بينما ذكره القرآن كنبي، ولم يعبد الأصنام. فحسب القرآن، كان سليمان في آن واحد ملكاً ونبياً عظيماً. واتفقت التوراة والقرآن على أنَ داود أورثه الملك. ولم يذكر القرآن مدة ملكه ولا عمره. وأشار القرآن إلى أنَ داود كان يجاهد في سبيل الله. غير أن التوراة قدمت تفاصيل في حكاية داود وهو يزني ويقتل ويشرب الخمر ويتعرى، حتى أنَ التوراة تشتط بالقول أنه أقام احتفالاً عظيماً بعدما استرد التابوت من الفلسطينيين فرقص على أنغام العود والدفوف والصنوج حتى انكشفت عورته، ووزع الخبز والخمر على جموع الشعب. إذ استخدم داود (حسب رواية التوراة) الخمر ليستر فضيحته مع زوجة قائد جيشه، فأسكره ليذهب إلى بيته فيعلم هو والناس أنَ زوجته قد حملت منه وليس من داود (صموئيل الثاني 11: 13). كما روت التوراة أنَ سليمان عبد الأصنام في أخريات حياته استجابة لرغبات بعض زوجاته (الملوك الأول 10: 11).

2- تذكر التوراة أن سليمان تزوج من مئات النساء (700امرأة)، بينما لم يذكر القرآن ذلك. ولم ترد قصة إخبار الهدهد لسليمان عن بلقيس في التوراة، بينما أخبره الهدهد عن بلقيس في القرآن.

3- أتت القصة بأشكال مختلفة في التراث الديني اليهودي (التوراة والتلمود..).

4- ذكرت التوراة أنَ سليمان قبل هدية الملكة. بينما رفض سليمان الهدية في القرآن الكريم، لأن الدعوة إلى الله هي الأولى عنده.

5- لم تذكر التوراة أنَ سليمان غزا خلال فترة ملكه وبقي ملكه كما تركه له داود (ملكاً على إسرائيل فقط)، في حين أنَ القرآن أشار إلى غزوه دونما تفاصيل. ولم يذكر القرآن إن كان لسليمان عدو يذكر، بينما ذكرت التوراة عداوة أخيه لسرقته الملك خلال مرض داود أبيهما. واشار القرآن إلى مملكة سليمان عن أبيه دونما تحديد لمكانها، بينما تقول روايات التراث اليهودي أن مملكة داود كانت في فلسطين. ولم يذكر القرآن أنه ملك الدنيا أو ملك من الفرات إلى النيل كما جاء في التوراة وغيرها من كتب اليهود.

6- يفترض أنَ سليمان كان يعرف بسبأ وملكتها، قبل أن يخبره الهدهد عنهما.

7- لم تذكر التوراة والقرآن اسم ملكة سبأ، بل أشارا إليها باسم: ملكة سبأ، وامرأة في القرآن. كما لم تذكر القصة القرآنية اي من أبويها، ولم تقل شيئاً عن مظهرها وشكلها، ولم تربط اللقاء بموقع جغرافي محدد، ولم تربط بينها وبين مبان وصروح، ولا بمكان غير سبأ، ولم تحدد إن كانت مملكتها مدينة- دولة أو مترامية الأطراف، بل ذكرت على لسان قومها (أنهم كانوا ذو بأس وقوة) وأنها كانت تعبد الشمس مع قومها، ثم أسلمت مع سليمان لله رب العالمين (كرمها القرآن بإسلامها).

8- ذكرت روايات التراث اليهودي أن سليمان تزوج أو نكح بلقيس، بينما لم يشر القرآن إلى ذلك. فمعنى الآية "أسلمت مع سليمان" أنها اقترنت بالمعنى الديني، حيث لم تقطع الآية بالزواج أو أي علاقة بين رجل وامرأة، بل قطعت بأنها دخلت في دين سليمان.

9- يتوافق زمن سليمان التوراتي مع زمن مملكة معين وليس مع مملكة سبأ، إلا إذا اخذنا بما يقوله بعض الباحثين أنَ مملكة سبأ كانت في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية[1] بالقرب أو على حدود مملكة سليمان؟ أو إذا أخذنا بما يقوله بعض المؤرخين من أنَ تاريخ دولة سبأ يقع بين 950 و 115ق.م. لكن سياق الآيات في سورة سبأ يحدد بصورة جلية مكان مملكة سبأ عندما يقول: "لقد كان لسبأ في مساكنهم آيةً جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور"[2]. إذ لم تثبت الآثار ولا الكتابات التاريخية ولا الأسطورية أي مكان لسد العرم غير ذلك الذي كان في اليمن.

10- لم يشر القرآن الكريم إلى أصول جنية للملكة، وإنما جاء سياق الآيات بنفي ضمني قاطع للصفة الشيطانية لها، على عكس ما جاء في التراث اليهودي.

11- جاء مفهوم القصة في التراث اليهودي لخدمة الهدف الأساسي وهو تصوير تاريخ اليهود بأنه مركز تاريخ العالم القديم، وأنَ اليهود هم شعب الله المختار، فجعلوا

---

[1] - عبد الحميد همو: "بلقيس بين الحقيقة والأسطورة"- دراسة تاريخية، دار معد، دمشق.

[2] - سورة سبأ، الآيات 15- 17.

سيرتهم سيرة تاريخية تكتسب ثوباً علمياً، بينما جاء مفهوم القصة في القرآن الكريم بأهداف ومعان روحية تشتاق إليها قلوب وعقول المؤمنين فتقتفي العبرة والعظة والتأمل وأعمال الخير والإيمان في أخبار الأنبياء والمرسلين، وقصص الحكام الطغاة، والغزوات، وأحداث الأمم التي سبقت، ومقارنتها بما فعله المنكرون لوحدانية الخالق وعدالته وقدرته على كل شيء. وقد بين القرآن الربط والتواصل بين الأديان والرسالات السماوية التي سبقته ولم ينكرها . لكن القرآن أغفل ارتباط القصة بالزمن التاريخي لأنه ليس كتاباً في التاريخ بل كتاباً يبين وحدة الوجود العامة في قدرة الله الواحد الأحد القادر الصمد والداعي بواسطة كتبه ورسله وأنبيائه إلى سعادة البشر بالإيمان والحق والعدل والصراط المستقيم والأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة بين أبناء البشر للفوز بالدارين: الأولى والآخرة. كما يدعو القرآن إلى التأمل والتفكر في الخلق والحياة وسلطان الكون من أجل تسخيرها جميعها في خدمته وأغراض حياته وتطورها . وفي الوقت نفسه لم يخلط القرآن الكريم بين حقائق التاريخ المعروفة بأن يقدم زمناً على آخر، فجاءت روايته عن المرسلين متناسقة في أزمانها ، كما لم يذكر أسماء من اشتركوا مع الأنبياء والمرسلين؛ فلم يسم الذي جادل إبراهيم في ربه، ولم يسم الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، ولم يذكر اسم بلقيس مع سليمان، ولم يذكر اسم العزيز في قصة يوسف، ولم يذكر اسم فرعون مصر في قصة موسى، ولم يسم الذي علمه الله من لدنه علماً في سورة الكهف، كما لم يسم الذي عنده علم من الكتاب في سورة النمل.. ولم يناقض تكرار القصة الواحدة نفسها ، والتي جاءت في أكثر من سورة من سوره .

12- أظهر التراث اليهودي أنَ هدف بلقيس الرئيسي من زيارتها إنما كان لامتحان الملك الإسرائيلي العظيم سليمان. لكنَ الذي لم يتأكد حتى الآن هو: هل وجدت فعلاً ملكة بهذه الصفة والاسم؟ يدعوها العرب بلقيس، يعتقد أنها حكمت في حوالي 950 ق.م؟

13- ترافقت رؤيا روايات بلقيس برؤيا دينية تاريخية عامة في التراث اليهودي - المسيحي، وكذلك في التراث العربي- الإسلامي.

14- يرى بعض الدارسين والبحاثة أنَ زيارة بلقيس لسليمان ربما كانت للتبادل التجاري. إذ ربما قصد سليمان تحويل بعض منتجات سبأ إلى مصر إلى القدس (الملوك الأول 10: 10). وفي الوقت نفسه، كانت بلقيس تطمح إلى فتح أسواق جديدة. لكنَ الميل الروائي العام يذهب باتجاه الاعتقاد أن الشخصيتين الملكيتين انجذبتا إلى بعضهما كرجل وامرأة!

15- حازت بلقيس على دوام شهرتها وتقدير سيرتها في العالمين العربي والإسلامي بأكثر مما تناولته روايات التراث الديني اليهودي في جذبها وشدها .

16- قدم بحاثة ودارسون يهود ومسيحيون ومسلمون (كمال صليبي وأحمد عثمان وغيرهم آخرون) بناءاً تاريخياً يتفق، حسب رأيهم، مع تاريخ المنطقة المبني على الشواهد

الأثرية والكتابية منذ نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، فتبين لهم أنَ ملكة سبأ ربما حكمت مجموعات يهودية إضافة لمواطنيها اليمانيين في جنوب الجزيرة العربية. وربما كانت ملكة سبأ تحكم طريق البحر الأحمر وخاصة في جزئه الجنوبي (جنوب الجزيرة العربية وأريتيرية والحبشة).

17- يأتي سياق الآيات في القرآن الكريم بوحدة زمنية واحدة، بدءاً من إحاطة الطائرنبأ سبأ وملكتها إلى حمله رسالة سليمان إليها، ومشاورة قومها، وإرسالها هديتها إلى سليمان، إلى رد سليمان للهدية وطلب إحضارعرشها، إلى إحضارها قبل ارتداد طرفه إليه. مع هذا يقدم البيان القرآني رواية متكاملة في العرض والعقدة والحل مضمناً المقصد والهدف.

18- هل يوجد في أمة سليمان، وهو النبي المرسل الذي آتاه الله كل ما ذكر في الآيات، من هو أعلم منه بالكتاب ليحمل عرش بلقيس إليه في طرفة عين؟ ربما كانت الإجابة على هذا السؤال هي أنَ سليمان الذي يحكم على الإنس والجن والحيوان ويكلمها جميعاً، والذي وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، بحيث أشار عن طريق الاتصال العقلي إلى الذي عنده علم من الكتاب ليقوم بإحضار العرش قبل أن يرتد إليه طرفه! أليس هو الملك، يشير أو يوحي فيطاع!

19- تدل الرواية القرآنية على أن أهم وأشهر حادثة في حياة تلك الملكة كانت زيارتها للنبي سليمان (ع)، وما كان من كلام الهدهد وكلام بلقيس وكلام سليمان وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين.

20- ساق القرآن القصة كعظة لعبدة الأوثان ليؤمنوا حيث آمنت ملكة سبأ.

21- كرمت الآيات القرآنية بلقيس وألقت عليها ثوب الإيمان بإسلامها مع سليمان إلى الله.

22- تعود أصول الروايات العربية عن بلقيس إلى أنها جزء من اليهوديات التي أدخلت على التراث العربي قبل وبعد الإسلام. بينما يُظن أنَ رواية الترجوم ربما نقلت عن الرواية العربية الإسلامية. وربما كانت الرواية العربية، والعربية- الإسلامية، كما وردت في كتابات الإخباريين هي الأصل، مع أنها جاءت أحياناً برؤية فقهية يهودية. إلا أنَ المقارنة تبين أنَ الحاخامات أدخلوا الكثير من جوانب رواية بلقيس العربية في تراثهم الديني على نحو كيفي في بعض الأحيان لتوافق جوهر تعاليمهم ومقاصدهم التاريخية والدينية.

❖❖❖

سُجلت قصة سبأ وملكتها بشكل مستفيض في التاريخ الروائي والديني، كما سجلت قصة داود وسليمان. وبغض النظر عن متابعة صدق رواية بلقيس تاريخياً، تبقى مشكلة صدق الرواية التاريخية قائمة عند داود وسليمان. فخارج التوراة والتراث اليهودي، بشكل عام ما عدا الرواية القرآنية، لا يوجد ما يشير إلى هذين الملكين الإسرائيليين في تاريخ

الشعوب المحيطة. وقد أشار بعض الآثاريين الإسرائيليين، وعلى راسهم الدكتور حاييم رومانسكو من جامعة تل أبيب، إلى عدم وجود ما يدل على مملكتي داود وسليمان. وأظهرت أبحاث رومانسكو أنّ هيكل سليمان المزعوم، الذي يشكل حائط المبكى جزء منه، لم يبن في القرن العاشر قبل الميلاد. كما أرجع عالم الآثارالمصري د. أحمد فخري عودة بناء الحائط إلى ما قبل 1400عام قبل الميلاد حسب الحوليات التاريخية المصرية لتحتمس الثالث، والتي تتحدث عن احتلاله لفلسطين سنة 1468ق.م. وبين فخري أنّ حائط المبكى (حائط البراق عند المسلمين) وقلعة جبل مجدو ربما تم بناؤهما من قبل تحتمس الثالث وحفيده أمنحتب الثالث (1405-1367) ق.م، حيث قام الأخير بتجديد هذه الأبنية.

وتظهر أوصاف العهد القديم لهيكل سليمان تطابقاً شبه تام لمجمع عبادة أمنحتب الثالث في طيبة المصرية، وذلك حسبما رآه عالم الاثار المصرية الأمريكي وليم. سي. هايز، والآثاري المصري اسكندر بدوي، حيث احتوى مجمع أمنحتب الثالث في طيبة على أرضية رائعة من الموزاييك على شكل بحيرة تمتلئ بالماء كأنها صرح ممرد من قوارير (كما وصفها النص القرآني في سورة النمل)، مما اضطر بلقيس لرفع أطراف تنورتها لتغوص في الماء فتكشف عن ساقيها. وقد عرف عن أمنحتب الثالث حبه للنساء وزواجه من أميرات أجنبيات لتمتين تحالفاته وعلاقاته الدبلوماسية والتجارية مع الآخرين، وهذا ما فعله سليمان. ويشير الباحث في التاريخ الإسلامي كمال صليبي إلى أنَ النبي موسى (الولد والوريث الشرعي للفرعون المصري) قد قاد، في خروجه سنة 1360 ق.م تقريباً، أشياعه من موحدي أخناتون إلى خارج مصر نحو بلاد كنعان؟ وكان سيجموند فرويد أول من أشار إلى أنَ: "موسى ريما كان الفرعون المصري أخناتون الذي طرد لتبشيره بديانة التوحيد الثورية في مصر. فجذبت ديانة التوحيدية أتباعاً كثيرين من المصريين، بينهم العبرانيين الذين كانوا يعيشون في شمال شرقي مصر". ولما كانت هجرة موسى ومن معه قد مرت بصحراء سيناء باتجاه نهاية الطرف الشمالي الشرقي من ساحل البحر الأحمر، تكون أرض اللبن والعسل التي تحدث عنها التراث اليهودي ليست أرض فلسطين الجنوبية المجدبة. كما اعترفت التوراة أنّ موسى لم يدخل أرض كنعان (الأرض الموعودة)، حيث أشار كمال صليبي إلى أنّ العديد من الأسماء التي وردت في الكتاب المقدس تتطابق مع الأسماء الموجودة في منطقة شمال الحجاز، وليس في فلسطين كما أورد بعض علماء الآثار؟

ويرى صليبي أنّ المئات من عائلات المشردين الإسرائيليين مع قطعانهم تركوا الحشد الهارب مع موسى (ع) عبر سيناء القاسية التضاريس، بحيث أكملوا طريقهم نحو الشمال إلى فلسطين، واستقروا بالعيش بهدوء بين الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. وبالتالي لا يوجد سند تاريخي يظهر دخولاً عبرياً كثيفاً، أو أي شواهد عن جيش ليوشع Joshua يقوم بفتح واحتلال فلسطين. وقد برهنت الآثارية البريطانية الدكتورة كاثرين كنيون سنة

1950على عدم وجود شاهد واحد يقول بفتح واحتلال يوشع لفلسطين، كذلك تقول بعدم وجود شواهد واقعية تشير إلى مملكة يهودية أقامها داود وحكمها سليمان، إضافة إلى نفيها أسطورة قبائل التيه.

❖❖❖

سقطت القدس سنة 587 ق.م تحت سنابك خيل نبوخذ نصّر، فتم الأسر البابلي. وخلال فترة هذا الأسر (587-525) ق.م، تنادى الكتاب والمؤلفون والحاخامات اليهود لتأليف تاريخ المجموعات اليهودية لإدخال الطمأنينة والهدوء إلى نفوس هؤلاء المهزومين، وإلى جعلهم يؤمنون بأنّ لهم هوية وتاريخ مميز. فنسجوا ما عرفوه عن اليهود في الجزيرة العربية في رواية دينية- تاريخية- أسطورية أسقطوها على أرض فلسطين بقدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بحيث جعلوها أرض ميعادهم المقدسة، وأبعدوا بقدر ما استطاعوا موسى وأتباعه من مصر، وذلك بجعل موسى عبرانياً وليس مصرياً هارباً، وعللوا عدم دخوله فلسطين، فاخترعوا قصة يوشع وفتحه لبلاد كنعان، وطبقوا نموذج داود على تحتمس الثالث أعظم الفاتحين القدماء، ومن ثم طبقوا داود وسليمان على أمنحتب الثالث. وربما كان اسما داود وسليمان اسمين من أسماء رؤوساء القبائل العبرية في فلسطين أو شمال- غرب الجزيرة العربية.

أجاد المؤلفون والحاخامات اليهود، عند كتابة التوراة، في اختراع رواية التيه بضياع القبائل العبرية في صحراء سيناء لتعليل ما حدث لمملكة اليهود القوية المفترضة لداود وسليمان في فلسطين. والحديث عن شواهد تاريخية جدية تشير إلى تيه العبرانيين قبل حصولهم على موطئ قدم في فلسطين في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد يأتي من باب الأدب الديني وليس من باب الواقع التاريخي، لأنه لم يعرف تاريخ عبراني موثق يعتد به قبل القرن السادس ق.م، إذ لم يعثر على أدلة كتابية أو آثارية عن هذا التاريخ.

والذي لم يكن مترابطاً هو كيفية الاستعارة المسيحية للرواية التوراتية وكمال إسقاطها كأساس للتراث المسيحي العام، بحيث انصهرت هذه الرواية بصلب الرؤية الدينية المسيحية الغربية للعالم والكون!

❖❖❖

ينظر إلى القصص المرتبط بالملكة بلقيس بأنه متعدد ومتناقض أحياناً؛ فهي تولت من بعد وصية والدها الملك، أو تولت بعد أن قتلت ابن عم لها أقامه الناس بعد موت والدها، أو تولت بعد وفاة والدها ثم تخلت لأخ لها عن العرش. وقد وصمتها بعض الروايات بإقامتها علاقات غير سوية؟

وقصة الملكة بلقيس ذائعة الصيت منذ القدم، وقد تجاوزت شهرتها وصيتها مكان وزمان أحداثها، وتناقلتها شعوب كثيرة أخرى بروايات ناسبت رؤاها وحياتها، وتناولتها نصوص وشروحات التراث الديني اليهودي، والمسيحي القبطي والحبشي، وتفاسير القرآن الكريم، كما دخلت في قصص الأنبياء والقديسين، وعنيت بتفاصيلها كتب الأخبار

والتاريخ خاصة اليمانية منها، واستلهمها فنانو عصر النهضة الأوربية. واتُخذ موضوع سيرتها أساساً لكتاب الحبشة الديني المعروف بملحمة "كبرانجست: مجد الملوك".

ولعدم وجود وثائق أو حوليات مكتوبة تدل على قصة بلقيس وسليمان، يرى البعض أنّ قصة ملكة سبأ تعد من القصص الجميل الذي يطغى على الأصل. إذ لم يعثر على اسم الملكة في الكتابات القديمة أو في اللقى الأثرية، بل يذهب البعض إلى أنّ مملكة سبأ التي ملكتها صاحبة السيرة التوراتية والقرآنية لم تكن في اليمن، بل كانت في مكان ما إلى الجنوب من فلسطين، شمال غرب الجزيرة العربية، بينما يرى التراث الحبشي أنّ بلقيس ملكة حبشية زارت سليمان من أرض الحبشة وتزوجت به وأنجبت له ولداً حكم الحبشة وسلالته من بعده.

مع ذلك، بقيت سيرة بلقيس حية على مدار الزمن في موروث أهل اليمن أكثر من غيرهم، وبقيت رمزاً تاريخياً لحضارتهم القديمة. وينسب أهل اليمن إلى بلقيس العديد من آثار مأرب الرائعة كعرش بلقيس ومحرم بلقيس، وهم ما زالوا يتخذون من اسمها اسماً لبناتهم ومؤسساتهم، ويزينون به ابداعاتهم الأدبية والفنية.

❖❖❖

اتخذ التراث الديني اليهودي موقفاً معادياً من ملكة سبأ (بلقيس)، إذ ربما جاء ذلك كرد فعل على صورتها وسيرتها في المحيط الثقافي العربي القديم (إذا جازت التسمية). وتحتوي التوراة على مواقف عامة معادية للمرأة، وأنها مثال لضرورة خضوعها الكامل للرجل ككائن أنثوي بما تعنيه هذه الصفة من معنى. وربما جاء هذا الموقف أيضاً معادياً لملكة سبأ لأنها مثلت تساوي المرأة مع الرجل كونها تسنمت أعلى منصب في الدولة في ذلك التاريخ المبكر من التمدن الإنساني، فهي مثال المرأة الحكيمة وصاحبة السلطان مقابل مثال سليمان، فصيروها، كونها أنثى، كممثل للشيطان (الغول أو الساحرة). لكنّ سيرة بلقيس مثلت في تراث الشعوب التي عاشت الطوائف اليهودية بين ظهرانيها مجتمعاً حكمته امرأة كونت فيه من خلال سيرتها مثالاً للحكمة والجمال والمساواة مع الرجل. فأولاً وأخيراً، ظهرت بلقيس وهي تحكم بقلب امرأة وعقل رجل.

الفصل الثاني

سميراميس (Samiramis) (سمورامات)
ملكة بابل وآشور

بدأ تدفق موجات الهجرة من الجزيرة العربية نحو الشمال منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد بحثاً عن الخصب والمياه، واستمرت بالتنقل والحركة خلال موجات هجراتها المتعددة على مدى الاف السنين؛ إلى سورية الكبرى، وإلى العراق نحو دجلة والفرات، وإلى جنوب فلسطين وسيناء ووادي النيل. ومن ضمن هذه الموجات بدأ الآكديون بالاستقرار على ضفاف نهر الفرات الغربي وسط العراق، المنطقة الأقرب إلى موطنهم الصحراوي في البادية السورية التي كانوا قد وصلوا إليها مسبقاً. وقد بدأ اسلوب حياتهم بالتطور تدريجياً من الرعي إلى الزراعة التي اعتمدت على الري، فشقوا القنوات وجروا المياه إلى أماكن زراعاتهم واستقرارهم. وهكذا أخذوا بإنشاء البلدات والمدن في حوض الفرات الأوسط، والتي كان من أشهرها مدينة كيش (تلول الأحمير حالياً) قريباً إلى الشرق من بابل، ومدينة أكد وسيبار وأكشاك وأوبيس وكوتا وأور والسوس عاصمة العيلاميين في غرب ايران، حتى بدؤوا الخطى في بناء دولة الأكديين التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، والتي سميت بالدولة أو الامبراطورية الأكدية نسبة إلى عاصمتها "أكد". وقد عمرت لفترة أقل من قرن ونصف (2373-2230) ق.م. حيث قضت عليها القبائل الجبلية التي انحدرت من الجبال في الشمال، فاحتلت بابل وقضت على الحكم الآكدي. وقد شملت الامبراطورية الاكدية معظم منطقة الهلال الخصيب وبعضاً من آسية الصغرى حتى الساحل السوري على المتوسط شمالاً وصولاً إلى ساردیس والإطلال على بحر إيجة، وجنوباً حتى الخليج العربي، كما ضمت بلاد العيلاميين في الشرق (وهي عربستان وخوزستان الحاليتين). وبعد أن استولى سرجون على الدويلات السومرية في جنوب العراق مخر البحر إلى خليج عمان وبحر العرب وضم جزرهما إلى مملكته، وأصبح الحاكم على أكد وسومر. وكان من أبرز ملوكهم بعد سرجون الكبير حفيده نرام سين (2291-2255) ق.م الذي لقب نفسه بـ: "ملك الأقاليم الأربعة، ملك العالم". وأصبحت اللغة الأكدية اللغة الرسمية في جميع أنحاء البلاد التي خضعت لسلطان الآكديين. واستمرت كلغة تخاطب في فترات العهد البابلي الأول، والآشوري، والبابلي الثاني (الكلداني) حتى القرن السابع ق.م. وقد زاحمتها اللغة الآرامية ونجحت في إزالتها من التداول. وقد استخدم الآكديون الخط المسماري، واستعاروا الكثير من اللغة السومرية التي كانت أول لغة ابتكرت أحرف الكتابة، ودونت بها نصوصها منذ 3200 ق.م. وقد وصف العالم الألماني مورتكارت[1] الاكديين بأنهم: "ينتسبون إلى أسرة الشعوب

---

[1] – كتاب أنطون مورتكارت "تاريخ الشرق الأدنى"، ص 84.

السامية البدوية الكبيرة التي استوطنت بشكل دائم تقريباً الصحراء السورية. ولا بد أن يكون موقع ولوجهم إلى أراضي سومر قد جاء من المنطقة التي يقترب فيها دجلة والفرات من بعضهما اقتراباً شديداً في المناطق المحيطة بمدينة كيش (بابل فيما بعد).

ويذكر مورتكارت وجود حقيقة حضارية سابقة على عصر الآكديين، في حوالي النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، ربما تتفق مع سلالة أور الأولى. ويضيف في المصدر نفسه، الصفحات 44-52: " من المؤكد أنّ الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك دولة أكدية، ومن المؤكد أيضاً انهم رغم وقوفهم منذ قرون ضد السومريين إلا أنهم تصاهروا معهم واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات بعد دخولهم البلاد مسالمين في هجراتهم المتتالية حتى فاقوا السومريين خاصة في كيش وماري. ونحن نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من أور الأولى".

وقد هاجر العموريون العمالقة من جزيرة العرب وانتشروا في بداية هجراتهم في أواسط سورية ولبنان وفلسطين، وأسسوا عدة دويلات، من أهمها دولة "عمورو"[1] أو "مارتو" على الساحل السوري الشمالي بين أوغاريت والحدود اللبنانية، واتخذوا من ماري على الفرات عاصمة لهم، والتي كان قد ضمها سرجون الكبير إلى مملكته. غير أنهم عادوا فأسسوا عدة دويلات في وادي الرافدين بعد سقوط الدولة الأكدية، فتمكنوا في بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد من تأسيس مملكة موحدة حكمت معظم أقطار المنطقة، عرفت بالمملكة البابلية الأولى أو القديمة، كما عرفت سلالة ملوكهم بسلالة ملوك بابل الأولى. وكان أول ملوكهم "سموابوم" (1894-1881) ق.م، الذي اتخذ من بابل عاصمة له. وأخذت بابل بالتطور من بلدة صغيرة إلى أن أصبحت ذات شأن عظيم في تاريخ البلاد حتى أطلق اسمها بعد ذلك على وسط بلاد بين النهرين وجنوبهما. وقد تعاقب على حكم الدولة اثنا عشر ملكاً خلال ثلاثة قرون (1894-1595) ق.م، كان أشهرهم سادسهم حمورابي الذي حكم اثنين واربعين عاماً (1792-1750) ق.م. وقد خلده القانون الذي اشترعه، والذي سمي بـ "قانون أو شريعة حمورابي"، والذي كان أول تشريع يسن في التاريخ البشري.

ضم حمورابي خلال حكمه بلاد سومر في الجنوب، وآشور في الشمال، ثم مملكة ماري، ووصل إلى ساحل المتوسط، فأصبحت الدولة البابلية الأولى تضم جميع بلاد ما بين النهرين من جبال طوروس حتى الخليج العربي، واستولت على وسط سورية وجميع منطقتها الساحلية حتى خليج العقبة.

وفي العام 1595 ق.م تعرضت الامبراطورية البابلية الأولى إلى هجمات الحثيين الجبليين العنيفة التي قدمت من منطقة الأناضول، فاستباحوا بابل ونهبوها وخربوها ثم عادوا من حيث أتوا يحملون كنوزها وغنائمها. ثم زحف الكاشيون[2] Kassite الجبليون

---

[1] – د. أحمد سوسه: "العرب واليهود في التاريخ"، ص 133.

[2] – انظر الصفحة 48 من هذا الكتاب.

قادمين من منطقة زاغروس في أعقاب تراجع الحثيين، واحتلوا بابل وأسسوا سلالة الحكم الكاشية التي ورثت جميع ممتلكات الدولة البابلية الأولى[1].

تدريجياً وعلى مر العصور أخذت القبائل التي قدمت من شبه الجزيرة العربية في الألف الرابع ق.م وبداية الثالث تستقر في منطقة شمال العراق حتى إلى ما بعد الموصل، وعرفت هذه المنطقة قديماً باسم "شوبارتو أو سوبارتو"[2]. وقد أسست هذه الجماعات مدينة "آشور" نسبة إلى الإله آشور، وتسموا بالآشوريين ونجحوا بإقامة إمارة صغيرة مؤلفة من مدينة آشور وضواحيها على نموذج الدويلات الآكدية في جنوب العراق. ولأن موقع آشور محاط بالطامعين من جميع الأطراف بنى الآشوريون قواعد الدولة على أسس حربية، فنظموا جيشاً أصبح القوة الرئيسية للدولة. ثم تطورت هذه الدولة إلى تنظيم عسكري ومدني ثابت محكم لم تؤثر عليه المنازعات التي كانت سائدة حينها بين الدويلات حتى صار بإمكان قوة دولة آشور الفتية توجيه جميع قواها الموحدة للقضاء على أعدائها الخارجيين. وساعدهم بذلك استعمال الخيول والعربات في معاركهم، حتى أصبحوا أعظم قوة عسكرية ضارية في زمنهم، فازدادوا اتساعاً وقوة وثراءً. وقد قسم العلماء تاريخ بلاد آشور العام إلى ثلاثة عهود رئيسية:

1- العهد الآشوري القديم/الأول (**3500؟-1595**) ق.م: ويبدأ في أواخر الألف الرابعة وبداية الألف الثالثة قبل الميلاد وينتهي بنهاية مملكة بابل الأولى سنة 1595ق.م. ولم يتطور وضعهم إلى كيان سياسي ثابت في هذا العهد، حيث خضعوا للحكم الآكدي، ثم بدأ بعض أمرائهم بالاستقلال في اوائل العهد البابلي الأول، ونجحوا في تكوين دولة مستقلة لهم باسم مملكة آشور، إلا أن حمورابي قضى على استقلالها.

2- العهد الآشوري الوسيط (**1595-911**) ق.م: على الرغم من تعرض الآشوريين إلى هجمات القبائل الآرامية من الغرب وغزو الجبليين كالحوريين والحثيين من الشمال، استطاعوا الانتصار عليهم جميعاً، حيث قضوا على الحثيين وضموا مملكتهم (ميتاني)، فتوسعت دولتهم في فترة أدد نيراري الأول (1300ق.م) حتى الفرات، وشمالاً حتى كركميش (جرابلس الحالية). وفي فترة شلمنصر الأول (1276-1245) ق.م امتد نفوذ الدولة الآشورية شرقاً فشمل الهضبة الايرانية، وغرباً حتى سواحل المتوسط (كامل منطقة ساحل سورية الكبرى)، وشرق النيل، وجنوباً حتى أطراف النوبة، وشمالاً إلى ما وراء الأناضول. وقد أعاد تغلات بلاسر الأول (1115-1077) ق.م الاعتبار والهيبة إلى الامبراطورية من جديد بعد ضعف دام لأكثر من مائة وثلاثين عاماً. ثم بدأ التدهور يدب في أوصال الدولة مرة أخرى، حيث انتهزت القبائل الآرامية الفرصة وتوسعت نحو الشرق على حساب الآشوريين وشكلت دويلات آرامية قوية في سورية والعراق الغربي بلغت ذروة ازدهارها في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد.

3- العهد الآشوري الحديث (**911- 612**) ق.م، بأدواره الرئيسية الثلاث:

---

(1) - H. G. Guterbock, Babylonia and Assyria, ed. Vol. II, pp 951- 979, 1965

(2) - انظر الصفحة 346 من هذا الكتاب.

أ- الامبراطورية الآشورية الأولى (**911-824**) ق.م: حكم هذه الفترة أربعة ملوك اشهرهم آشور ناصربال الثاني (884-859) ق.م، حيث قام بتنظيم الجيش وتدريبه، مما ساعده على توسيع فتوحاته في المناطق الجبلية الشمالية والشرقية، ومد فتوحاته نحو الغرب فاستولى على أكثر من عشرة دويلات صغيرة كمدن الموانئ الفينيقية على الساحل السوري حتى فلسطين، وبعض المدن الآرامية في الوسط، ومنها دمشق. وجاء بعده ابنه شلمنصر الثالث (859-824) ق.م فورث عن أبيه امبراطورية واسعة برهن على كفاءته في الحفاظ عليها بل وتوسعتها، حيث تمكن من إخضاع الآراميين والفينيقيين والدول الفلسطينية لدفع الجزية، كما قهر بابل في حملتين. وثار عليه (شلمنصر الثالث) أحد أبنائه على خلفية خلاف ولاية العرش، واستمر التمرد لأكثر من أربع سنوات انتهت بعد موت الأب. وبهذه الحرب الأهلية بدأت فترة الضعف (824-745) ق.م التي سببت تصدعاً في جسم الدولة حيث تقلص نفوذها وانسلخت بعض الأقاليم التابعة لها، ودامت هذه الفترة قرابة الثمانين عاماً، حكم خلالها خمسة ملوك؛ منهم شمشي أدد الخامس زوج سميراميس، وسميراميس كوصية على ابنها القاصر بعد مقتل شمشي أمام أسوار بابل، ثم أدد نيراري الثالث مع أمه سميراميس"الملكة الأم"، ثم بدا الضعف والتمرد من جديد، إلى أن جاء تغلات بلاسر الثالث، فأعاد للدولة سطوتها، فتكونت الامبراطورية الآشورية الثانية التي صارت مرهوبة الجانب.

ب- الامبراطورية الاشورية الثانية (**745-626**) ق.م: تبدأ هذه المرحلة بتسلم تغلات بلاسر الثالث زمام الحكم سنة 745 ق.م، والذي استمر على مدى ثمانية عشر عاماً تمكن خلالها من استعادة نفوذ المملكة الآشورية بعد فترة الضعف التي مرت بها. وحكم خلالها ستة ملوك. وضمت في وقتها جميع أراضي الهلال الخصيب ومصر حتى أطراف ليبية الشرقية، والهضبة الايرانية شرقاً، والمناطق الجبلية شمالاً، وقضت على مملكة إسرائيل نهائياً، كما تم إخضاع مملكة آرام وعاصمتها دمشق سنة 723 ق.م.

ج- نهاية الدولة الاشورية (**626-612**) ق.م: حدثت منازعات على العرش بعد وفاة آشوربانيبال، الذي كان قائداً عسكرياً كبيراً وراعياً عظيماً للفنون والآداب، إذ احتوت مكتبة قصره في نينوى على ألواح ورقم ضمت كل ما تعلق بتاريخ حضارة بين النهرين منذ العهد السومري حتى عهده. وكان من نتيجة هذه المنازعات أن بدات المقاطعات البعيدة بالانفصال عن الامبراطورية، كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسورية ولبنان، وفي أرمينية. فانتهزت بابل الفرصة وتحالفت مع ملك الماديين في الشرق وهاجمواالعاصمة الاشورية نينوى وأسقطوها سنة 612 ق.م. وبسقوط نينوى وموت آخر ملوكها كانت نهاية الدولة الآشورية العظيمة بعد أن عاشت لأكثر من ألف وخمسمائة عام اعترتها فترات من القوة والضعف. فمثلما تقوم بعد الموت حياة، جاءت بداية حياة دولة بابل الثانية (المملكة الكلدانية بقيادة نبو بلاسر).

الامبراطورية الكلدانية

(الدولة البابلية الثانية أو الحديثة)

يرجع العلماء أصل الكلدانيين إلى شواطئ الخليج العربي في جنوب العراق. حيث تأسست الدولة الكلدانية القديمة (الأولى) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والتي عرفت بسلالة الأمراء أو سلالة القطر البحري أو بسلالة بابل الثانية، والتي جاءت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين[1]. والكلدانيون هم من القبائل البدوية السامية، واشتق اسمهم من قبيلة "كلدي". ويعدهم المؤرخون فرعاً من الآراميين الذين نزحوا من سورية إلى جنوب العراق.

انتهز سكان القطر البحري، بعد وفاة آشوربانيبال سنة 626 ق.م، ضعف الدولة الآشورية، فانفصل حاكم بابل نبو بلاسر سنة 625 ق.م وأعلن استقلاله عن الدولة الآشورية (سلالة البابليين الحادية عشر)، ثم تحالف مع الماديين في ايران، فشنوا حرباً مشتركة قوضت الحكم الآشوري في البلاد وأسقطت العاصمة نينوى سنة 612 ق.م. وبذلك تم تأسيس الدولة الكلدانية (البابلية الثانية) التي استولى عليها قورش الأخميني في عام 539 ق.م، واستمرت تحت حكم الأخمينيين إلى أن غزاها الاسكندر المقدوني.

لعبت الدولة الكلدانية دوراً مهماً في تاريخ المشرق في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، فاستولت على جميع الدويلات في عموم سورية الكبرى، وبلغت أوجها في عهد نبوخذ نصر الثاني، وهو ابن نبو بلاسر وخليفته، وقد كان من أعظم الملوك الكلدانيين قاطبة ودام حكمه ثلاثة وأربعين عاماً (605-562) ق.م. وقام بحملتين على مملكة يهودا فقضى عليها وسبى يهودها إلى بابل (السبي الأول سنة 597، ثم تبعه السبي الثاني سنة 586 ق.م)، إذ كان نبوخذ نصر على رأس الحملة الثانية. وقد خلفه ملوك ضعفاء إلى أن سقطت بابل بيد قورش الأخميني الذي سمح لمن شاء من اليهود بالعودة إلى فلسطين.

❖❖❖

عاش الكاهن البابلي بيروسوس **Berosus** (بيروس) [2] في العصر الكلداني (الدولة البابلية الثانية). حيث ولد حوالي 340 ق.م، وعاش في بابل، وكان في مقتبل العمر عند موت الاسكندر المقدوني في بابل سنة 323 ق.م. ثم سافر إلى بلاد اليونان بعد بلوغه وأقام في جزيرة كوس جنوب- شرق بحر إيجة، وأسس هناك مدرسة لعلوم الفلك

---

[1] – انظر أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، الصفحات (187- 188)، العربي للطباعة والنشر، ط 6.

[2] – اسم بيروس بالآرامية هو برحوشا، ومعناه: ابن القصر – المحقق.

والتنجيم. وترك لنا كتاباً ألفه باللغة اليونانية عنوانه "تاريخ بابل Babyloniaca"، أسسه على أرشيفات بابلية محلية[1]. وقد رسم المنجمون البابليون الأوائل في ذلك الزمن القديم خريطة النجوم في السماء، وتوصلوا إلى حساب طول السنة الشمسية بفارق ستة وعشرين دقيقة، وتمكنوا من تطوير عدة طرق ووسائل للتنبؤ بأوقات الكسوف والخسوف إلى درجة مقبولة. وقد استفاد بيروس من الأرشيفات البابلية التي ضمت معظم تاريخ بلاد الرافدين في العصور الاشورية والبابلية والكلدانية. وتم إنجاز تاريخه في ثلاثة مجلدات، كتبها بين عامي (290-278) ق.م تحت رعاية وتشجيع الملك السلوقي الثاني أنطيوخس الأول[٢] (سوتر: المنقذ). واشار بلينيوس الكبير ويوسفوس ويوليو وأوسبيوس إلى ما تبقى من تاريخه عن بابل. وقد أشار بوليو اللاتيني من أصحاب "التاريخ الأوغسطي" إلى اختراع بيروس للساعة الشمسية شبه الدائرية المجوفة والمتموضعة في قالب مكعب الشكل. وصنع له الإغريق تمثالاً نصبوه في أثينة، يشير إلى شهرته وريادته في علوم الفلك والتنجيم. وانتقل لاحقاً للعيش في مصر تحت رعاية الملوك البطالمة في أواخر حياته كما روى بعض المؤرخين. ولم يظهر ما بقى من تاريخه إلا بعد ظهور رواية الطبيب اليوناني كتيسياس الذي أخذ منه ديودورس الصقلي عن الملكة سميراميس. والظاهر ان بعض المؤرخين الوثنيين والمسيحيين لاحقاً اعتمدوا على المؤرخ بوسيدونيوس الأفامي (130-50) ق.م الذي أشارإلى أعمال بيروس البابلي. ويتحدث بيروس فيما تبقى من مجلده الأول عن خلق العالم، بحيث جعله يبدأ بـ 432000 سنة قبل أول ملك بابلي وحتى تاريخ الطوفان.. بينما يتحدث المجلد الثاني عن تاريخ بابل وملوكها حتى عام 734 ق.م، حيث اشار إلى الملكة الآشورية سميراميس (سمورامات) زوجة شمشي أدد الخامس، والذي ربما جاء وصفه لها بالآشورية كرد فعل على ماجاءت به الأسطورة الإغريقية التي وصفتها بمؤسسة بابل. ويتحدث مجلده الثالث عن تاريخ بابل من 734 ق.م حتى الملك السلوقي أنطيوخس الأول (280-261) ق.م.

رتب بيروس تاريخه عن بابل إلى فترات زمنية، بحيث جعل:

1- الفترة الأولى: تمتد من خلق العالم حتى الطوفان.

2- الفترة الثانية: حكمها ستة وثمانون ملكاً ساسوها في الألف الثالثة ق.م.

3- الفترة الثالثة: حكم خلالها ثمانية ملوك ميديين؛ غزا أولهم بابل في النصف الثاني من الألفية الثالثة قبل الميلاد.

4- الفترة الرابعة: حكمها أحد عشر ملكاً لم تذكرهم السجلات.

5- الفترة الخامسة: وقد حكمها تسعة وأربعون ملكاً كلدانياً، ويعود تاريخها إلى آخر الألفية الثالثة قبل الميلاد وأوائل الثانية ؟

---

[1] – يوجد اختلاف بين لوائح بيروس عن الفترات التاريخية الأولى وبين المعروف في الدراسات الآكاديمية.

[2]– Diodorus Siculus, his library, 3.42.1.

6- الفترة السادسة: وتضم الملوك العرب الذين حكموا لمدة 245 عاماً. وأطلق على حكام هذه الفترة "حكام السلالة العربية"، المتطابقة مع السلالة الأولى التي انتمى إليها حمورابي.

7- الفترة السابعة: حكمها خمسة وأربعون ملكاً لمدة 526عاماً. فيما ضاعت الفترات اللاحقة من تاريخه حتى نبوخذ نصر (نبوناصر)، الذي تبدأ مرحلته في 748 ق.م، وامتدت هذه الفترة حتى حكم الاسكندرالمقدوني، وضمت الملوك المشهورين: نبو بلاسر، نبوخذ نصر، نابونيدوس، وقورش الأخميني.

ويمكن الاستدلال عن مجمل تاريخ بلاد الرافدين منذ بداياته بترتيب الملوك الحكام بالتالي:

1- عشرون إلى خمسة وعشرين ملكاً حكموا شعوبهم وهم تحت الخيام.

2- أحد عشر ملكاً أكدياً حكموا لمدة 180عاماً تقريباً (2334-2154) ق.م، حيث بدأت فترتهم بحكم سرجون الأول حتى سقوط الامبراطورية.

3- خمسة ملوك سومريين حكموا من 2112 ق.م حتى أسقطهم العموريون سنة 2004 ق.م.

4- تسعة ملوك آموريين حتى 1920 ق.م.

5- تبدأ المرحلة التاريخية المكتوبة في الارشيفات الملكية وسجلات الموظفين الكبار من هذه المرحلة وما بعد. وقد حكم هذه المرحلة 23 ملكاً، يبدأ تاريخهم من نهاية القرن التاسع عشر ق.م إلى نهاية حكم أريبا أدد الأول (1363 ق.م).

❖❖❖

وعلى الرغم من وجود اختلافات في تواريخ ملوك بلاد ما بين النهرين القديم بشكل عام، وذلك حسب المصادر المتعددة، إلا أنه من المفيد جدولة ملوك آشور وبابل اعتباراً من هذا التاريخ لاعتماده على سجلات ووثائق ونقوش كتابية مسمارية. ويلاحظ نوع من التداخل أحياناً خاصة بين الآشوري والبابلي، وإلى درجة أقل مع الأكدي والكلداني!

ابتداء التاريخ الآشوري المكتوب: لائحة بثلاثة وعشرين ملكاً ؟

1	اريشوم الثاني	؟ - 1727 ق.م
2	شمشي أدد الأول: وحد جميع مدن-الدولة الآشورية المستقلة	1726 - 1695 ق.م
3	إشمي داغان الأول: معاصر حمورابي في بابل	1693 - 1654 ق.م
4	آشور دوغول: جاء بعده خمسة ملوك غير معروفين	1653 - 1648 ق.م
5	أداسي: جاء بعده خمسة ملوك حكموا لفترات قصيرة	؟
6	إرشوم الثالث	1545 - 1533 ق.م
7	شمشي أدد الثاني	1532 - 1527 ق.م

8	إشمي داغان الثاني	1526 – 1511 ق.م
9	شمشي أدد الثالث	1510 – 1495 ق.م
10	آشور نيراري الأول	1494 – 1469 ق.م
11	بوزور آشور الثالث	1468 – 1455 ق.م
12	إنليل ناصر الأول: حكم بعده 4 ملوك حتى نيراري الثاني	1454 – 1442 ق.م
13	آشور نيراري الثاني	1423 – 1417 ق.م
14	آشور بل نيشيشو	1416 – 1409 ق.م
15	آشور ريم نيشيشو	1408 –1400 ق.م
16	آشور نادين آخي الثاني	1399 – 1390 ق.م
17	إريبا أدد الأول	1389 – 1363 ق.م

وربما كان عدد الملوك الذين حكموا في هذه المرحلة أكثر من هذا العدد. غير أنّ بعضهم درج على أن يشطب من لوائح الموظفين الكبار والأرشيفات الملكية المكتوبة أسماء بعض من سبقوه، حتى أنهم كانوا يزيلون التماثيل أو الكتابات المنقوشة عليها. ولم يكن هذا الشطب أو الإزالة يتم في عصر معين من تاريخ الآشوريين، بل كان سلوكاً شبه عام لدى الكثيرين منهم.

الفترة التاريخية الآشورية الوسطى: حكمها أربع وعشرون ملكاً معروفاً

1	آشورأوباليت (أوباليط): الذي نال استقلال بلاد آشور من الميتانيين	1363 – 1328 ق.م
2	إنليل نيراري	1327 – 1318 ق.م
3	أريك دين إلي	1317 – 1306 ق.م
4	أدد نيراري الأول	1305 – 1274 ق.م
5	شلمنصر الأول	1273 – 1244 ق.م
6	تيكولتي نينورتا الأول: نهب بابل، وقتله ابنه	1243 – 1207 ق.م
7	آشور نادين أبلي	1206 – 1203 ق.م
8	آشور نيراري الثالث	1202 – 1197 ق.م
9	إنليل كودوري أوصور	1196 – 1191 ق.م
10	نينورتا أبال إكور	1191 – 1179 ق.م
11	آشور دان الأول: العيلاميون يحتلون بابل	1178 – 1133 ق.م
12	آشور ريشا ايشي: نبوخذ نصر الأول يحتل عيلام	1132 – 1115 ق.م
13	نينورتا تيكولتي آشور	1115 – 1114 ق.م
14	موتاكيل (مُتكل) نوسكو	1115 – 1114 ق.م
15	تغلات بلاسر الأول: هزم نبوخذ نصر الأول	1114 – 1076 ق.م
16	أشاريد بال إكورالثاني: حكم على نينوى وأربيل وآشور	1075 – 1074ق.م
17	آشور بل كالا	1073 – 1057 ق.م

18	ملك أو أكثر غير معروفين	لمدة أربع سنوات
19	شمشي أدد الرابع	1053 - 1049 ق.م
20	خمسة ملوك غير معروفين	حكموا لمدة 39 عاماً
21	آشور رابي الثاني: عاصر داود حسب التاريخ اليهودي.	1010 - 970 ق.م
22	آشور ريش ايشي الثاني: عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	969 - 967 ق.م
23	تغلات بلاسر الثاني: عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	966 - 935 ق.م
24	آشور دان الثاني: عاصر سليمان (التاريخ اليهودي).	934 - 912 ق.م

الفترة التاريخية الأخيرة في الدولة الآشورية: حكمها **19** ملكاً

1	أدد نيراري الثاني: احتل بابل والأناضول وسورية	911 - 891 ق.م
2	تيكولتي نينورتا الثاني: معاهدة سلام مع بابل دون جزية	890 - 884 ق.م
3	آشور ناصر بال الثاني: بلغت فتوحاته سواحل المتوسط	883 - 859 ق.م
4	شلمنصر الثالث: هزم أرمينية، واحتل بابل وإيران: أول ظهور لسميراميس في البلاط الملكي (كنة شلمنصر)	858 - 824 ق.م
5	شمشي أدد الخامس: زوج سميراميس (سمورامات)	824 - 811 ق.م
6	سميراميس: حكمت الامبراطورية الآشورية كوصية على عرش ابنها القاصر أدد نيراري الثالث إلى أن بلغ السن القانوني، وذلك بعد مقتل زوجها تحت أسوار بابل.	811 - 806 ق.م
7	أدد نيراري الثالث: بدأت الدولة تميل إلى الضعف في نهاية حكمه	806 - 783 ق.م
8	شلمنصر الرابع	782 - 773 ق.م
9	آشور دان الثالث: حركات تمرد في بلاد آشور	772 - 755 ق.م
10	آشور نيراري الخامس	754 - 745 ق.م
11	تغلات بلاسر الثالث: استعاد قوة الامبراطورية الاشورية	744 - 727 ق.م
12	شلمنصر الخامس: احتل السامرة وأسر بعض اليهود	726 - 722 ق.م
13	سرجون الثاني: احتل مصر وأوراتو (مملكة كانت تقع إلى الجنوب من القفقاس) وبابل، وقتل في المعركة	721 - 705 ق.م
14	سنحريب: واجه حركات التمرد، ودمر بابل	704 - 681 ق.م
15	أسرحدون: جدد بناء بابل، وهزم السكيثيين والمصريين	680 - 669 ق.م
16	آشوربانيبال: هزم مصر وليدية وعيلام	668 - 627 ق.م
17	آشور ايتيل ايلاني: هاجم البابليون والميديون بلاد آشور	626 - 624 ق.م
18	سنشار إشكون: الميديون ينهبون نينوى	623 - 612 ق.م
19	آشور أوباليت (أوباليط) الثاني يهرب إلى حران[1]	612 - ؟ ق.م

[1]- انظر ص 346؛ سقوط نينوى وهرب آشور أوباليط وعشرة من قادته ((Ten-Chiefs)) إلى حران في أعالي الفرات، وتكوين مملكتهم الجديدة التي سميت: مملكة اوسروينه.

لائحة الملوك والأسر التي حكمت بابل

تحتوي لائحة الملوك البابليين (تاريخ بابل) على ملوك بابل، بحيث أسست على تصور قريب جداً من وقائع التاريخ الحقيقي لملوك بابل القدماء، المسجلة في سجلات قديمة، بحيث تداخلت مع لائحة ملوك سومر. ويمكن تقسيم التاريخ البابلي إلى اربعة عصور، بالإضافة إلى العصرين الأخيرين اللذين حكمهما الفرس الأخمينيون واغريق الاسكندر والسلوقيون.

1- العصر الأول: تشكلت مدن- الدولة الأمورية (العمورية) المبكرة التي استمر حكمها من منتصف القرن العشرين حتى بدايات الثامن عشر قبل الميلاد، وحكمها ستة عشر ملكاً. ثم جاءت الأسرة البابلية الأولى الذي استمر حكمها حتى1531ق.م. وكان عدد ملوكها اثني عشر ملكاً، أهمهم وأشهرهم حمورابي البابلي (1792-1750) ق.م، والذي كان معاصراً لمملكة ماري على الفرات "زمري ليم"، وسيوي هوياك العيلامي، والآشوري شمشي أدد الأول.

2- العصر الثاني: ويضم الأسرة البابلية الثانية 12 ملكاً (1530-1460) ق.م.

3- العصر الثالث: الأسرة الكاشية (1800-1170) ق.م. حكمها 19ملكاً.

4- العصر الرابع: حكم هذه الفترة البابلية (1115- 529) ق.م ثمانية سلالات:

أ - السلالة الرابعة (1115- 1025) ق.م. وحكمها أحد عشر ملكاً.

ب- السلالة الخامسة (1024- 1004) ق.م. وحكمها ثلاثة ملوك.

ج- السلالة السادسة (1003- 985) ق.م. وحكمها ثلاثة ملوك.

د- السلالة السابعة (984- 979) ق.م. وحكمها ملك واحد.

هـ- السلالة الثامنة (978- 943) ق.م. وحكمها ملك واحد.

و- السلالة التاسعة (942-731) ق.م. حكمها 21 ملكاً، أهمهم نبوناصر 748-734). وبدأ تاريخ بطليموس ومصادر أخرى بتسجيل قائمة ملوك بابل.

ز- السلالة العاشرة (731-727) ق.م. وهي الأسرة البابلية - الآشورية التي حكمت هذه الفترة على آشور وبابل (الامبراطورية الآشورية الحديثة بملوكها الآشوريين). وقد حكمها ثمانية عشر ملكاً؛ أهمهم: تغلات بلاسر الثالث (744-727)، سرجون (شاروكين) الثاني (710-705)، سنحريب (705-703)، شمشون أوكين بن أسرحدون (668- 648)، سي شاريكون (627-620) ق.م، وهو الذي فقد السيطرة على بابل. وقد نهب الآشوريون بابل سنة 689 ق.م، ثم أعاد أسرحدون الآشوري بناءها سنة 670 ق.م.

ح- السلالة البابلية الحادية عشر (الدولة البابلية الحديثة: الكلدانيون) (626-529) ق.م. حكمها سبعة ملوك؛ أشهرهم: نبوبلاسر (626- 605)، ونبوخذ نصر الثاني (605- 562) ق.م.

5- عصر الفرس الأخمينيين: حكم الأخمينيون بابل لمدة 209 سنوات (539-330) ق.م (ميزوبوتاميا الفارسية والامبراطورية الأخمينية). ففي عام 539 ق.م احتلت جيوش قورش الكبير بابل، حيث عين ابنه ملكاً عليها. وحكم هذه الفترة 12 ملكاً أخمينياً. وكان آخرهم داريوس الملقب بقدمانوس (336-330) ق.م. وهو الحفيد الأكبر لداريوس الثاني الذي انهزم أمام الاسكندر الأكبر.

6- الحكم الإغريقي لبابل (بابل الهلينستية) (330-141) ق.م: تم تقسيم تركة الاسكندر بعد موته، فأصبحت بابل تحت حكم السلوقيين الذي استمر إلى أن استولى عليها البرثيون الفرس سنة 141 ق.م. وحكم هذه الفترة أربعة عشر[1] ملكاً سلوقياً.

أسطورة سميراميس (السورية الأصل)

شملت الامبراطورية الآشورية كامل العراق، والجزء الغربي من إيران، وشمال شرق تركية، سورية الكبرى (سورية ولبنان وفلسطين)، ومصر، وآسية الصغرى، حتى أنها ربما وصلت إلى شبه القارة الهندية في فترة من فترات نفوذها. وكانت هذه المساحة الهائلة تتقلص وتتمدد حسب القوة التي امتلكتها.

أسبغت الأسطورة على شخصية سميراميس، ملكة آشور وبابل، هالة خارقة تصنع المستحيلات؛ فهي تروي سيرة امرأة مثيرة، فائقة الحسن والجمال، قوية الشكيمة، عزيزة الإرادة والتصميم، طموحة النفس، حكيمة العقل، بارعة التخطيط، وحاملة المشاعر بأنها ابنة الإلهة العسقلانية ديركيتو، والتي سارت، لاحقاً، على خطى أمها في شهوانيتها وقسوتها.. أصبحت بالصدفة محاربة، ثم ملكة وفاتحة لبلاد امتدت من إثيوبية حتى الهند، وذلك في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. حيث أكملت فتح بابل بعد مقتل زوجها شمشي أدد الخامس تحت أسوار بابل، وحكمت باسم ابنها القاصر أدد نيراري الثالث لمدة خمس سنوات، وأدارت الحكم ببراعة نادرة حيث حافظت على النفوذ الآشوري، بل زادته نفوذاً على نفوذ. وبنت الكثير من البلدات والمدن والقصور والحدائق، والقنوات المائية والسدود من أجل تطوير الإنتاج الزراعي، إضافة إلى محاولاتها تلطيف الطبيعة الآشورية العسكرية العنيفة بجعلها قريبة من الطبيعة البابلية المعتدلة والمتصفة بإنتاجها الفكري والأدبي والفني.

---

[1] - انظر لائحة الملوك السلوقيين على الصفحة 38.

كان المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت أول من ذكر اسم سميراميس بعد زيارته لبابل في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وقد وردت أسطورة سميراميس في أعمال ديودورس الصقلي[1] الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، والذي استقى مصادر روايته عن أسطورته سميراميس من الطبيب اليوناني كتيسياس Ctesias مواطن مدينة سنيدوس القديمة في مقاطعة كاريا (شمال غرب تركية الحالية)، والذي عاش بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وقد هاجر إلى ايران واستقر في بلاط الملوك الأخمينيين كطبيب لمدة سبعة عشر عاماً تقريباً. حيث يعتقد أنه جمع مادته الأسطورية عن سميراميس من سجلات الحوليات الملكية الفارسية.

تقول الأسطورة أن سميراميس ولدت من أمها الإلهة السورية ديركيتو[2]، التي كانت إلهة وراعية معبد عسقلان على ساحل فلسطين الجنوبي. ولأنها أهانت الإلهة أفروديت، قررت الأخيرة الانتقام منها، فجعلتها تقع في غرام شاب سوري. فكانت سميراميس ثمرة لمواقعة حميمة بين أمها ديركيتو وهذا الشاب الذي جاء إلى معبدها لتقديم القرابين، فاستهوته وأغوته للقيام بفعل الحب معها. ولشعورها بفعلتها المشينة، ومن أجل تغطية ما قامت به، قتلت حبيبها، وانتظرت حتى وضعت جنينها، فتركته في مكان ناء على أطراف الصحراء، ثم ألقت بنفسها في بحيرة المعبد المقدسة والمليئة بالأسماك للتكفير عمّا أضاعته من عفتها وطهرها، فحولتها أفروديت مباشرة إلى سمكة براس امرأة جميلة تعيش في مياه البحيرة. وقد أشار إليها المؤرخ هيرودوت باسم "أفروديت السماوية".

لم يصادف أحد الطفلة المتروكة في العراء إلا جموع الحمام التي كانت تعيش في تلك المنطقة، فأشفق الحمام على الكائن الصغير وبدأ بتدفئتها بريشه، وبإحضار قطرات الحليب بمناقيرة، والذي كان يسرقه من أوعية حليب الرعاة لينقطها في فم الطفلة. وبعد بلوغها عامها الأول صار الحمام ينقر قوالب الجبن ويحضرها لإطعام الطفلة. وهكذا استمر الحال على هذا المنوال حتى اكتشف الرعاة مسلك الحمام بالوقوف على أنية الحليب وقطع الجبن بشكل يثير الاهتمام. فتابع الرعاة طيران الحمام إلى حيث يحط، فوجدوا الطفلة والحمام يقوم بترقيمها الجبن وتنقيط الحليب في فمها، فأخذوها إلى رئيس القطعان الملكية "سيما". فقام سيما الذي لم يرزق بالولد برعاية الطفلة الصغيرة مع زوجته كأنها ابنتهما الحقيقية، وأعطاها اسم "سمورامات". وقد رأى ديودورس الصقلي أن اسم سميراميس ما هو إلا تعبير عن اسم الحمامة باللغة الآشورية (السورية) القديمة، فلاحظ أنَ كلمة حمامة باللغة الآشورية ربما كان سومارتو.Summartu وقد ذكر إزيكيل Ezechiel في قاموسه الاشتقاقي أنَ الحمامة في اللغات السامية تدعى "سيماتو أو سوماتو".

---

[1] – انظر الرواية الأسطورية الكاملة في الكتاب الثاني من مكتبة ديودوروس التاريخية، والذي يحتوي على ستين فصلاً: The Library of History of Diodorus Siculus, published in Vol., I of the Loeb Classical edition, 1933 book II.

[2] – المصدر السابق، الصفحات (359– 361).

كبرت سميراميس في كنف الزوجين سيما، وبدا ربيعها يخطف الألباب، وحضورها يغطي على جميع أقرانها من الصبايا الفاتنات. وفي إحدى أيام جولات أونيس حاكم سورية الآشوري رأى الفتاة، التي لم تكن من أصول ملكية، فأغرم بها وسأل سيما والدها بالتبني يدها للزواج فوافق سيما، وتم الزواج، حيث أخذها معه إلى نينوى عاصمة الدولة، فأنجبت له صبيين، هما: هياباتيس وهيداسبيس[1]. واثبتت الزوجة حصافة إلى جانب ذكائها في مساعدة زوجها بما كانت تقدمه له من نصائح وأراء.

كان على الزوج أونيس الذي كان في منصب التورتانو في الامبراطورية الآشورية، وهو منصب يمثل قائد الجيش والثاني بعد الملك، أن يلبي نداء امبراطوره نينوس- الذي كان قد احتل كامل سورية الكبرى ومصر- لقيادة الحملة الاشورية التي يحضر لها لإخضاع بلاد باكترية (بلاد قديمة كانت تقع في شمال افغانستان الحالية، وجنوب طاجاكستان وأوزبكستان الحاليتين). استطاع الجيش بقيادة أونيس احتلال معظم مدن باكترية ما عدا العاصمة باكترا المحصنة التي صعبت عليه. مع ذلك استمر بحصارها لفترة طويلة دون أنّ يتمكن من فتحها بسبب مناعتها واستبسال المدافعين عنها. فبدأ القائد الآشوري يشعر بالقلق من عدم مقدرة جيشه على حسم الأمر وفتح المدينة. ولما طال المقام اشتاق لزوجته الحبيبة سميراميس فبعث لإحضارها. وبعد وصولها تداول معها أمر الحصار لمعرفته بذكائها ورجاحة عقلها، فاتفقت معه على دراسة مواقع المدافعين عن المدينة. من أجل ذلك تخفت داخل ملابس الجنود وبدأت بمراقبة وملاحظة الطريقة التي تدار بها الهجمات ورد المدافعين عليها. لم يطل بها وقت المراقبة والملاحظة حتى أدركت أن الطريقة الوحيدة للتغلب على المدافعين هي في تحييد تكتيكاتهم وأساليبهم، وذلك بخطة مباغتة جسورة.

لاحظت سميراميس أسلوب المدافعين عن المدينة ضد الهجمات الآشورية، بأنّ المدافعين المرابطين في القلعة المبنية على رأس الجبل ينحدرون بسرعة للوقوف إلى جانب المتمترسين وراء الاستحكامات على الأسوار المحيطة بالمدينة، فينجحون بإفشال الهجمات الآشورية، خاصة وأنهم كانوا في كل مرة يحسبون كيفية الرد قبل المباشرة به، لرؤيتهم كيف كانت تتم الهجمات وهم يراقبون من فوق الأسوار ومن مشارف القلعة في الأعلى.

اختارت سميراميس المتخفية باللباس العسكري وبمعرفة زوجها كتيبة من الجنود الأشداء وتسلقت معهم في ظلام الليل الجدران الخلفية للقلعة في اصعب نقطة للصعود إليها واضعة في الاعتبار اطمئنان المدافعين في القلعة من استحالة اقتحامها من هذا المكان. فكان ظهورها السريع مع وحدتها العسكرية الخاصة مفاجئاً للمدافعين النائمين في الأعلى، بل صاعقاً، إذ تمكنت مع فريقها من حسم الأمر بسرعة كبيرة توافقت مع

[1]- يتفق نيقولا الدمشقي مع الكاتب الأرميني موسى الخوريني من أن الوالدين حاولا التخلص من الأم والأخ الصغير نينياس للاستيلاء على العرش، لكن المؤامرة انكشفت، فقامت أمهما بقتلهما، غير أن المصادر الآشورية لم تتحدث عن ذلك.

هجوم ليلي شامل بقيادة زوجها الذي استطاع فتح ثغرات في الأسوار، حيث بدأ تدفق القوات الآشورية بالعبور إلى وسط المدينة، وبالتالي فتحها واستسلامها.

لما طارت أخبار الفتح إلى الملك الاشوري نينوس في العاصمة نينوى، استدعاها مع زوجها وأغدق عليها الهدايا وعبارات المديح والشكر. وبطبيعة الحال - كما في معظم الأساطير، أو كما يحدث مع أصحاب الجاه والسلطان من مصادرة، وبدون وجه حق، كل ما هو مميز- وقع الملك في حب سمير أميس، كيف لا وجمالها لا يقاوم، وذكاؤها غير مقارن، فطلب من الزوج والقائد أونيس أن يتنازل عن زوجته له مقابل تزويجه بابنته. إلا أن أونيس الذي يحب زوجته رفض المقايضة، فهدده الملك بسمل عينيه إن لم يوافق، لكن أونيس لم يستطع إعطاء الموافقة على المقايضة باللسان بل بالانتحار، حيث أقدم على انتحار مشرف رآه أفضل من عيش مهين.

تزوج الملك الآشوري نينوس من سميراميس وجعلها ملكة آشورية تجلس معه على العرش. فأنجبت له ذكراً أسموه نينياس. فأودعها وصاية ابنهما على العرش ا قبل موته بعد أن حكم الامبراطورية لاثنين وأربعين عاماً. فاشرفت على دفنه في مقبرة الملوك، وبنت له ضريحاً عظيماً يليق بمقامه كملك وزوج.

أتت روايات أثينايوس وديمون وبلوتارخوس وآخرون، مع بعض الاختلاف في التفاصيل، من أن سميراميس كانت امرأة جميلة قدمت إلى الملك الآشوري، الذي وقع في حبها، وكهدية زواج طلبت منه الرداء الملكي والحكم لخمسة أيام، إذ أمرت الخدم، بعدما أجابها الملك إلى طلبها، بقتله، وهكذا وصلت إلى حكم[1] الاشوريين؟

جاء حلم سميراميس كي تسبق إنجازات زوجها المجيدة، فقررت أول الأمر بناء مدينة تناسب طموحاتها، فقامت ببناء مدينة بابل[2] (حسب الأسطورة)، وأحاطتها بسور طويل يبلغ مداه أكثر من خمسين كيلومتراً، ويتسع عرضه لمرورعربتين متوازيتين في وقت واحد. وبنت الأرصفة النهرية لتسهيل أعمال التجارة، وأنشأت جسراً على الفرات، وأقامت على كل طرف من طرفي الجسر الحجري قصراً وربطت القصرين بنفق يمر تحت النهر. وقد قامت بزيارة لجميع أقاليم المملكة: ميدية وفارس ومصر وإثيوبية وليبية، وبنت النصب والحدائق، والطرق في السهول وفي الأماكن الوعرة.

قررت سميراميس بعد أن رتبت أمور مملكتها في الداخل أن تغزو الهند، حيث جعلت من باكترية نقطة انطلاقها لتحقيق غرضها، فأعدت خطتها لعبور نهر السند، ومواجهة جيش ستابروبات ملك الهند وفيلته المشهورة. فأمضت ثلاث سنوات بالاستعداد لغزوتها الهندية هذه بجمع جيش هائل من المشاة والفرسان والآلات. كما تفتقت عبقريتها عن

---

[1] - كان الملوك الآشوريون يقومون بتصيب ممثل يقوم مقام الملك خلال الفترة التي يتنبأ بها الفلكيون بخسوف القمر أو كسوف الشمس لتنتقل اللعنة إلى الممثل وليس إلى الملك. وذكرت اللوائح المسمارية المكتشفة بمكتبة نينوى عن مصير أحد هؤلاء الممثلين الذي استمر في مهمته لمائة يوم على العرش، أعادوه بعدها إلى بيته لعدم تحقق ما تنبأ به الفلكيون. ويمكن التخمين أن صعود سميراميس الأسطوري قد تم خلال القيام بهذا الدور؟

[2] - سمورامات هي من بنت بابل وحدائقها المعلقة حسب كتسياس، ولكن علماء التاريخ يقولون أن نبوخذ نصر الثاني هو من بنى حدائقها المعلقة على غرار حدائق بلاد محظيته الميدية المفضلة لشعورها بالحنين لبساتين وحدائق بلادها؟

صناعة دمى على شكل الفيلة ويحجمها بشكل يغطي جملاً يحمل شكل فيل مزيف، يسار به لإيهام الهنود وفيلتهم بهجوم فيلتها الحربية هذه. كما قام المهندسون الفينيقيون والمصريون والقبارصة، الذين أحضرتهم، ببناء القوارب التي ستعبر بها النهر.

ابتدأت المعركة بعبور جنودها مستخدمين القوارب المائية، فانهزم الهنود إلى الضفة الشرقية للنهر أمام تقدم قواتها، غير أنّ الجيش الهندي ثبت بقوة على البر الشرقي للنهر، فدارت معركة حامية الوطيس انتصر فيها الجيش الهندي وهزم الجيش الآشوري، وجرحت سميراميس بذراعها وظهرها، فقررت العودة إلى نينوى وهي تجر أذيال خيبتها.

عمرت سميراميس حتى الثانية والستين. وقد قامت بتسليم المسؤولية الملكية لابنها نينياس، الذي قام بمحاولة فاشلة لإقصاء أمه عن السلطة. بعد ذلك اختفت سميراميس بشكل غامض. ويروي ديودورس الصقلي في أسطورته أنها تحولت إلى حمامة طارت مع جموع الحمام.

خصص الطبيب الإغريقي كتسياس معظم فصول كتابه للحديث عن سميرأميس وسيرتها وأعمالها، والقليل عن زوجها نينوس. فدخلت سيرتها الذاكرة التاريخية الأسطورية بشكل لا يمحى، بينما بدت صورة نينوس في الأسطورة باهتة وغير مؤثرة!

سيرة سميراميس التاريخية

تعتبر أسماء الملك نينوس زوج سميراميس وابنهما نينياس أسماء أسطورية استخدمها المؤرخ ديودورس الصقلي نقلاً عن رواية الطبيب الإغريقي كتيسياس، إذ لم يعثر في الأرشيفات والحوليات الآشورية على ما يشابه هذه الأسماء من قريب أو بعيد. ويعتقد بعض الباحثين أن هذين الاسمين اشتقا من نينوا؛ وهو الاسم الآشوري لنينوى العاصمة. أما فيما يخص اسم سميراميس، فقد اكتشف عالم الآثار الإنكليزي هنري لايارد[1]

---

[1] – جاء في الصفحات (177– 179) من الموسوعة السويسرية، مطابع الأهرام التجارية، المجلد رقم واحد، ما يلي: بدأ الاضطلاع بالبحث عن هذه الآثار الخالدة الفرنسي بول بوتا، والإنكليزي هنري لايارد، والألمانيان كولديوي وآندراي. بدأ بوتا سنة 1842م التنقيب في دورشاروكيم التي تبعد حوالي 12 كم عن مدينة نينوى. فكشف عن قصر سرجون الثاني (721– 705) ق.م الذي أقامه في مدينة عظيمة ذات أبواب سبعة. واكتشف بوتا 200 حجرة شامخة في القصر بنيت حول أفنية، ويواجه الجدران الداخلية للقصر ما طوله ميلان من النقوش البارزة المجسمة لملوك وآلهة وجنود يقاتلون ويتعبدون لإلههم آشور، ويقوم على حراسة بوابات القصر أسود ضخمة مجنحة وثيران لها رؤوس آدمية.

وفي اثناء أعمال التنقيب والاستكشاف التي كان يقوم بها بوتا قام هنري لايارد سنة 1845 بالحفر والتنقيب في ربوة النمرود، وسرعان ما كشف عن غرف مبطنة بلوحات مرمرية تغطيها كتابات مسمارية ونقوش بارزة مجسمة لمقاتلين، وصيادي أسود، وراكبي مركبات من ذات العجلتين، ومهاجمين لحصون بالمنجنيق، بعضهم يتسلمون الفدية من مهزومين. وكان ثمة حيوانان ضخمان مجنحان لهما راس إنسان، هما أسد وثور يحرسان مدخل أحد القصور الملكية الثلاثة التي شيدها الملك الآشوري ناصربال الثاني (879 ق.م).

وفي عام 1849 بدأ لايارد الحفر في ربوة كويونجيك، فعثر على مدينة نينوى، التي طالما حلم علماء الآثار بالعثور عليها، فكشف عن تسع غرف في قصر الملك آشور العظيم سنحاريب (705– 681) ق.م. وتم الكشف عن أبدع فنون العمارة والنقوش في الحضارة الآشورية، وكثير من أبهاء القصور، والنقوش، والأسود والثيران المجنحة، ونقوش مجسمة ضخمة من المرمر الملون لمعارك حربية، وحصون، وسفن، ومحاربين ملتحين، ورماة أقواس، وفرسان يطاردون أعداء

ومرافقه الآثاري الآشوري العراقي الجنسية هرمز رسام في بعثتهم للتنقيب عن آثار مدينة نمرود الحالية التي كانت تسمى مدينة كلخو في العصور الآشورية، تماثيل الإله نبو التي وجدت في المنطقة المقدسة من كلخو (معبد نبو) الذي أسسه أدد نيراري الثالث (788-787) ق.م كما ورد في قائمة الموظفين الكبار. وقد حملت بعض هذه التماثيل كتابات إهداء جعلت من سميراميس[1] شخصية تاريخية حقيقية.

وقد أمر بإقامة هذه التماثيل- حسب النقش الموجود على قاعدة التمثال- بيل ترسي إلوما حاكم كلخو والموظف الكبير حينها (798-787) ق.م. والنقش عبارة عن صلاة ودعاء مهدى من الحاكم إلى الإله نبو: " لنبو، من أجل طيب حياة أدد نيراري ملك بلاد آشور، سيده، ولطيب حياة سمورامات، المرأة الملكية، سيدته، قام بيل ترسي إلوما حاكم كلخو، بجعل خميدي وسيرفانا وتيمين ويلونا، يقيمون (هذا التمثال) من أجل حياته الخاصة، أياماً طويلة وسنوات كثيرة، من أجل سلامة بيته وشعبه، ومن أجل الخلاص من الأمراض. أيها الإنسان الذي ستأتيني ثق في (نبو)، ولا تثق بإله آخر غيره"[٢].

كما وجدت البعثة تمثالين لإلهين من آلهة الآشوريين بالقرب من معبد الإله العظيم نبو. وعلى أحد هذين التمثالين نقش يقول: "إنّ حاكم كلخو يهدي هذين التمثالين إلى نبو من أجل حياة ملكه ومولاه أدد نيراري ملك آشوريا، ومن أجل حياة مولاته أم الملك (الملكة الأم) سمورامات، ومن أجل حياته هو نفسه". واسم سمورامات هنا يستدعي اسم سميراميس في الأسطورة الإغريقية، بينما عرف اسم أدد نيراري من نقوش اخرى كثيرة، ومن الأرشيف الملكي الآشوري. ففي العقد الأول من القرن العشرين اكتشف العالم الألماني والتر اندريه الذي رأس فريقاً للتنقيب في مدينة آشور القديمة صفين من ألواح الشواهد القبورية الحجرية وعليها نقوش كتابية تشير إلى اسماء مسؤولين كبار: العديد من الملوك الآشوريين، وثلاثة نصب تقع وسط نصب الملوك خصصت لزوجات الحكام، مشيرة إلى سمورامات، سيدة القصر الملكي، وتشميتو- شرات وآشور- شرات. والأخيرتان

مذعورين، وملوك يمتطون المركبات، تعلو رؤوسهم المظلات وهم يتقدمون على امتداد أنهار يحف بها النخيل وتمتلئ بالأسماك، ونساء وأطفال يقادون للرقيق، وأسود مطعونة بالحراب وهي تثب على صياديها من فرط الألم والاهتياج.

بيد أن أهم هذه المكتشفات جميعاً كان المكتبة الملكية للملك آشور بانيبال، إذ عثر على الآلاف من ألواح الصلصال والأسطوانات تعلوها جميعاً الكتابة المسمارية، التي نشط العلماء لفك رموزها سنة 1857. وبذلك أصبح بالإمكان قراءة الكتابة البابلية والآشورية.

وكشف كولديوي وآندراي عام 1903 عن قصور ومعابد مدينة آشور (ومنها المعبد الكبير الهرمي الشكل المؤلف من عدة طوابق، وهو معبد آشور كبير آلهة الآشوريين)، وتم الكتشف عن كثير من القبور التي احتوت على أوان خزفية وقدور وألواح الصلصال.

برع الآشوريون في مجال فنون العمارة والنقوش فشيدوا ونقشوا أعمالاً تمكنت من الخلود آلاف السنين، وذلك لاحتواء بلاد آشور على محاجر من الحجر الجيري والبازلتي والمرمري. بينما برع البابليون بصناعة ألواح الصلصال لقلة المحاجر في جنوب بلاد بين النهرين: بلاد بابل.

[1]– انظر "سميراميس ملكة آشور وبابل" لجيوفاني بتينياتو، ص (36-40)، ترجمة د. عيد مرعي، روافد للثقافة، دمشق، للتعرف على حقيقة سميراميس التاريخية من خلال المكتشفات الأثرية والنقوش والسجلات الملكية.

[2] – المصدر السابق، ص 37. بالإضافة إلى ما ورد في كتاب دونالد ماكنزي:
Myths of Babylonia and Assyria, by Donald.A. Mackenzie, (1915) ,. XVIII, P. 422

هما قرينتا الملكين سنحريب وآشوربانيبال. أما سمورامات فما هي إلا سميراميس نفسها. فقد أكد العالم روكس أنّ سمورامات هي سميراميس تتكلم عن نفسها في هذا النقش، وهي سيدة القصر الملكي لزوجها الملك الآشوري شمشي أدد الخامس: ملك العالم، وهي كنة شلمنصر الثالث "ملك الجهات الأربعة: ملك العالم".

بينت النقوش المكتشفة موقع سميراميس تاريخياً، إذ كانت زوجة شمشي أدد الخامس (823-811) ق.م ابن شمنلصرالثالث الملك الآشوري الشهير (858-824) ق.م، وأم الملك الآشوري أدد نيراري الثالث (810-783) ق.م، كما أنها كانت كنة شلمنصر الثالث نفسه. كما بين نقش آخر، اكتشف سنة 1916، كان قد أمر ببنائه أبنها الملك أدد نيراري يشير إلى اعتلائه العرش بعد بلوغه السن القانونية سنة 806 ق.م بعد أن حكمت سمورامات لمدة خمس سنوات كوصية على العرش، فحكمت الامبراطورية خلال فترة قصوره، تماماً مثلما فعلت سميراميس في سياق الأسطورة الإغريقية.

قدم جيوفاني بيتيناتو في كتابه "سميراميس ملكة آشور وبابل"، عرضاً مفصلاً لتركيبة الامبراطورية الآشورية الحديثة السياسية والاقتصادية والعسكرية والإدارية. بحيث مثلت الطريقة التي حكم بها الآشوريون تحقيق رغبة الإله آشور بالانتصار النهائي والدائم دون أخذ لاعتبارات إنسانية، فكانت قسوتهم وطغيانهم وشهوتهم العنيفة إلى السلطة والتحكم بالشعوب وثرواتها قد مكنتهم من تحقيق الحلم الآشوري في بدايات الألف الأول قبل الميلاد. إلا أن سلوكهم في الرعب والإرهاب والظلم والقسوة منعتهم من القدرة على سلوك التطبيع الإنساني مع الشعوب التي قهروها، ولذلك سقطت دولتهم في نهاية المطاف. وأبرز الكاتب محاولات سميراميس لإصلاح النظام السياسي والعسكري التي قامت عليه الدولة إلى تطبيع متدرج وتصالح مع النظام الذي كان سائداً في بابل، إضافة إلى محاولاتها إدخال عبادة الإله البابلي نبو إلى بلاد آشور في عملية ابتغت منها صهر الشعبين الجارين في بوتقة امبراطورية واحدة بحيث يعطي أحدهما الآخرما يفتقده، فيضيف إلى الآشوريين من حقول الفكر والآداب والفنون البابلية، وبالمقابل يأخذ البابليون ما يفتقدونه من فنون العسكرية والحروب التي امتاز بها الآشوريين. ويبدو أن التأثيرات الثقافية البابلية بدأت بالتأثيرعلى الآشوريين في عهد شلمنصر الثالث. وربما كان هذا التحول من جانب شلمنصر قد أدى إلى امتعاض النخبة السياسية والدينية والاقتصادية الحاكمة التي وجدت تعبيرها لاحقاً في الثورة التي قامت بها المدن الآشورية في نهاية عهده. وقد أسس شلمنصر مكتبة في كلخو ملأها بثقافة البابليين، ومن بعده أضاف أدد نيراري الرابع مجموعات ضخمة جديدة إلى هذه المكتبة.

وقد توصل علماء آثار ألمان وإنكليز إلى العثور على مكتبات آشور ونينوى المسمارية، وعلى الخصوص مكتبة آشوربانيبال الشهيرة في نينوى، وكذلك وثائق البابليين والسومريين، بحيث مكنتنا هذه الوثائق من التعرف على صورة الواقع التاريخي

والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي لمجمل ما قدمته حضارات بين النهرين منذ أقدم عصورها.

اختلفت الشعوب القديمة التي عايشت تلك العصور في التنازع على نسب وأصول سميراميس إليها. فحاول كل شعب ادعاء انتمائها إليه؛ حيث نسبت إلى الآراميين الذي كانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان سورية القديمة في القرون الأولى من الألف الأولى قبل الميلاد، وادعى كل من البابليين والفرس والآرمن والأوارتيين بنسبها إليهم.

وذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوت وجود ملكتين بين الملوك البابليين بقوله: "حكم بابل ملوك كثيرون بنوا الأسوار والمعابد، كان بينهم امرأتان، الأولى سبقت الثانية بستة أجيال تقريباً، هي سميراميس التي قامت ببناء السدود والجسور، وشقت الأقنية والترع. والثانية: نيتوكريس التي ربما زينت بابل بالحدائق المعلقة".

ونيتوكريس **Nitocris** هو اسم إحدى زوجات الملك الآشوري سنحريب (705-681) ق.م، والتي أصبحت صاحبة سلطة قوية جدا في الدولة، فعينت ابنها أسرحدون (681-669) ق.م، أصغر أبناء سنحريب ولياً للعهد. ثم عملت على تولية حفيدها آشوربانيبال بن أسرحدون (669-627) ق.م على العرش، حيث كان آخر ملك عظيم في التاريخ الآشوري الأخير. ويقال أنها تمكنت من ترتيب وحياكة أمور الدولة لمدة تزيد على خمسين عاماً.

ويبين النصب الموجود في متحف مرعش في تركية حقيقة وجود سميراميس التاريخية. إذ يشير النقش الموجود على النصب إلى اسم المتبرع به، وهو أدد نيراري الثالث الذي قرن اسمه في النقش مع اسم أمه سمورامات. وهذا يدل على أنّ هذا الملك يسمي نفسه مع أمه في وثيقة رسمية مما يؤكد على حقيقة وجودها التاريخي، وليس الأسطوري فقط.

يذكر المؤرخ الكنسي أوسبيوس القيصري: "خرجت سلالة الملوك الآشوريين الحديثة من جهة الملكة سميراميس". كما اشار بلوتارخوس في تاريخه إلى أصولها السورية من مدينة عسقلان التي كانت مدينة مستقلة عن دولة دمشق أو عن مملكتي إسرائيل ويهودا قبل ولادة سميراميس بفترة وجيزة. وقد احتلها الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858-824) ق.م حسبما أخبرتنا بها حولياته المكتوبة التي تحدثت عن مسار حملاته وزحف جيوشه نحو الغرب باتجاه الساحل السوري بما فيه فلسطين، إذ يذكر أنه وصل ساحل المتوسط خمس وعشرين مرة. وتشهد على ذلك حولياته المنقوشة على مسلته، وكذلك النقوش الكتابية النافرة على المسلة السوداء، وفي المشاهد الحربية التي رسمها على شرائط[1] البرونز الطويلة على بوابات قصر"بلوات" الذي بناه والده آشور ناصربال الثاني.

---

[1] - المصدر السابق نفسه، الصفحتان (110-111): " ترك لنا آشور ناصر بال إلى جانب حولياته وصفاً دقيقاً لحملاته العسكرية في منحوتات قصره في مدينة كلخو (نمرود الحالية). بينما فضل ابنه شلمنصر الثالث حفرها على أثرين فنيين عظيمين هما المسلة السوداء وبوابات بلوات البرونزية: ونحتت المسلة السوداء كأنها زقورة مؤلفة من ثلاث

ويصف شلمنصر في حولياته محاولة احتلاله النهائية لسورية وفلسطين حسبما جاءت في كتاب جيوفاني المذكور، ص 105: " أدركت الدول السورية في هذه الأثناء الخطر الآشوري، فاقامت تحالفاً عسكرياً بقيادة ملوك حماة ودمشق وضم أربع عشرة مملكة. حيث حدث اللقاء الأول في العام 853 ق.م في قرقر على العاصي، من جهة الجيش الآشوري المجرب للقتال، ومن الجهة الأخرى قوة المتحالفين، التي وجد بينها لأول مرة عرب يركبون الجمال.. وقد قاتلت الدول الآرامية الصغيرة، لكن القوية كالأسود، فاضطر شلمنصر أن ينسحب بأيد فارغة. إلا أنه استطاع بعد محاولات عديدة أن يخضع مجموع هذه الدول الآرامية تحت سلطانه".

قدمت سميراميس نفسها لمجتمع الدولة والنخبة الاشورية كمحارية وكإنسانة تتساوى مع الرجل وتتحلى بالحكمة والنضج، وتتمتع برؤية اجتماعية وسياسية ودينية جديدة، فكانت أول سيدة ملكية آشورية يشار إليها بتعابير المساواة مع زوجها الملك في السجلات الرسمية الملكية، وكملكة أم "سيدة القصر الملكي" أيام ابنها أدد نيراري الثالث بحيث قرن اسمها مع اسمه في نقش التقديس على تمثال الإله نبو. وتمكنت من إنقاذ الدولة من الانهيار في لحظة فارقة من التاريخ الآشوري، وذلك بعد موت زوجها شمشي أدد الخامس تحت أسوار بابل بحيث انتقلت سريعاً من العاصمة إلى قيادة المعركة بنفسها والانتصار وفتح بابل وضمها إلى الامبراطورية. وكي تستطيع القيام بمهمتها كملكة كان عليها أن تتفوق على ذاتها وتتساوي بالرجل الآشوري المحارب بإقناعه أنها ليست أقل كفاءة وقدرة منه في تقلد أمر الملك والدولة. وقد أنجزت سميراميس مهمتها بنجاح كإدارية ومحارية مساوية للرجل، وكحكيمة تتمتع بحصافة وحزم تمكنت من إنقاذ الدولة الآشورية من الإنحدار والسقوط.

كما مثلت سميراميس أهم شخصية نسائية في تاريخ بلاد ما بين النهرين في العصر الامبراطوري الآشوري الوسيط. وقد تركت انطباعاً عميقاً في المخيلة العامة من خلال سيرتها الناجحة في الدولة والحكم. حيث ارتبطت أسطورتها وتاريخها بسيرتها كملكة وحاكمة وكأم مقدسة[1] ترأست فوق المقادير الإنسانية في الحب والحرب والسلطة والشهوة في زمنها، تماماً مثلما اشتهرت أسطورياً بوالدتها ديركيتو المقدسة إلهة الحمام والأسماك في عسقلان من أعمال سورية.

طبقات؛ ارتفاعها مترين وعرضها 60 سم عند القاعدة و40 سم عند القمة، وقد نحتت في خمسة حقول. أما رقائق النحاس البرونزية على بوابات قصر بلوات، فكانت درفتا الباب الخشبي البالغ عرض كل منهما 160 سم وارتفاعها 610 سم، إضافة إلى فصالتي الباب الخشبيتين، مغطاة بستة شرائط برونزية تحمل عروضاً نافرة، وعرض كل شريط 28 سم وسماكة 2 سم ومقسم إلى حقلين، بحيث نقشت المشاهد على ارتفاع 13 سم. وتذكر كلها حروب شلمنصر المظفرة".

[1] - كانت عبادة الملكة الأم أو الأم العظيمة عبادة شعبية عند شعوب آسية الغربية وبعض من مناطق آسية الصغرى، ومصر، وجنوب وغرب أورية. ويبدو أن هذا الاعتقاد أو التقديس أو العبادة جاءت اساساً من الطقوس التي صاحبت النشاط الزراعي عند المجموعات الشعبية لأعراق السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وكانت عبادة الآلهة والإلهات متداخلة في بلاد آشور وبابل، حيث كان ذلك واضحاً في عبادة عشتار. إلهة الحب والحرب والخصب، وعشتروت عند الفينيقيين (الإلهة الأم).

اشعل الإبن الأكبر لشلمنصر آشور دان أبلي في سنة 827 ق.م ولمدة ست سنوات حرباً أهلية على خلفية ولاية العرش التي كان قد منحها الأب لولده الأصغر شمسي أدد الخامس، إلى جانب أسباب أخرى اقتصادية وسياسية واجتماعية، إلى أن تمكن الأخير مع زوجته سمورامات من حسم الصراع المسلح من العاصمة الثالثة كلخو ضد أخيه، فأعاد سيطرته على آشور ونينوى اللتين كانتا قد تمردتا مع غالبية المدن الآشورية تحت قيادة الأخ المنافس. واستمرت الحرب الأهلية بعد وفاة الأب شلمنصر بسنتين حتى تم القضاء عليها نهائياً. فاستقر الحكم لشمسي أدد وزوجته الملكة سميراميس.

وقفت سميراميس إلى جانب زوجها، وربما كان تأثيرها في الوفاق مع بابل وراء تحالفه مع الجار الجنوبي لحسم الصراع لصالحه في الحرب الأهلية. ذلك أنَّ شلمنصر كان قد بدأ بتمتين عرى الصداقة والتحالف مع جيرانه البابليين في الجنوب، غير أن شمشي أدد الخامس بعد أن استقرت له الأوضاع اعتبر أن الاتفاق الذي عقده والده مع الملك البابلي مردوك زاكير شومي غير مناسب. لذلك قام بنقض الاتفاق حيث جند عدة حملات عسكرية ضد بابل حتى تم فتحها، وبذلك أصبح الآشوريون أسياد كامل بلاد الرافدين بعد ضم بابل لها. غير أنَّ البابليين لم يركنوا إلى سيطرة الآشوريين على بلادهم، إذ أعلن ملكها الجديد تمرده على حكم الآشوريين سنة 812 ق.م، مما اضطر شمشي أدد إلى القيام بحملة عسكرية لإخماد التمرد، فأصيب إصابة قاتلة أمام أسوار بابل في 811 ق.م. فما كان من سميراميس إلا أن تتصرف بسرعة وثبات بالذهاب لقيادة المعركة وتولي مسؤولية الموقف الحرج بنفسها حتى قضت على التمرد. فكان أن منحها المجمع الآشوري الحاكم ثقته في الإشراف على وصاية عرش ابنها القاصر. ذلك أن موت الملك وولي العهد ما يزال صغيراً، وشبح الفراغ يهدد كيان الدولة، فرض عليها القضاء على تمرد الملك البابلي في المقام الأول. ولمعرفتها بتقاليد آشور العميقة بتبوأ الرجال هرم السلطة والحياة أدركت أنَّ من الحكمة آلا تسمي نفسها ملكة بلاد آشور بل اكتفت بالإشارة إلى نفسها كزوجة الملك، الزوجة الملكية، وام الملك (الملكة الأم) [1]، وكنة شلمنصر الثالث.

كان أدد نيراري الثالث في العاشرة لما تسلمت أمه مسؤولية الحكم، فبدا أنها المرة الأولى في العصر الآشوري الممتد على أكثر من ألف عام تحكم فيه ملكة بأصولها غير الآشورية بمفردها، إذ لم يكن العهد قد طال بها كثيراً عن منبتها الأول: الآرامي السوري- الفلسطيني.

---

[1] - انظر جيوفاني بيتيناتو "سميراميس ملكة آشور وبابل"، الصفحات (197- 199)، ترجمة د. عيد مرعي، روافد للثقافة، دمشق: (كانت مؤسسة "الملكة الأم" معروفة منذ اقدم العصور في سورية الكبرى. وكمثال على ذلك: الأميرة الفينيقية إيزابيل ابنة ملك صور وزوجة آخاب كملكة أم مارست نفوذاً في مملكة الأولاد أخزيا ويورام من ملوك يهودا. كما تمتعت الملكة الأم في أوغاريت باحترام كبير (1400- 1200) ق.م حيث كانت الأم تنوب عن الملك عند غيابه عن العاصمة، وكانت تتدخل عند تعيين ولاية العهد. وكانت الملكة الأم تحظى باحترام الحثيين الكبير، وكان الأمر كذلك في ممالك الفينيقيين، وفي ابيلا، وفي الممالك الفلسطينية).

قسمت الامبراطورية الآشورية إدارياً إلى عدد من الولايات، والولايات إلى مناطق، والمناطق إلى وحدات إدارية أصغر. وكان الملك يحكم مع "مجلس كبار المملكة الأربعة" الولايات. وكان للأربعة الكبار مهمات رئيسية يمارسونها. أهمها منصب التورتانو، الذي يقوم مقام نائب الملك في قيادة الجيوش كقائد أعلى. وكانت البلاد مقسمة إلى 26 ولاية أيام شلمنصر الثالث وابنه شمشي أدد الخامس زوج سميراميس، كما يظهر من لائحة الموظفين الكبار.

وزعت سميراميس المناصب[1]، وبخاصة مناصب الأربعة الكبار في المملكة (نائب القائد العام، منادي القصر، كبير السقاة، المفتش) وعينت حكام المقاطعات الكبيرة التي من ضمنها آشور وكلخو، وركزت على موظفيها الكبار وكافأت الموهوبين، وأرسلت الحملات ضد الميديين في الشرق، وضد جوزانا في الغرب. ولم تحرم نفسها من المتعة والمسرة، إلا أنها تجنبت الزواج كي لا تفقد سلطاتها، فكانت تختار الأجمل والأقوى من بين جنودها لإشباع رغباتها الأنثوية، حيث كان الإختفاء هو المصير النهائي لذلك الأجمل والأقوى.

استمرت سميراميس كوصية على عرش ابنها وكحاكمة وكأم للملك "مؤسسة الملكة الأم" بتأثيرها على ابنها حتى وفاتها، وبإدخال عبادة إله الحكمة والثقافة البابلي نبو إلى مجمع الآلهة الآشورية بشكل رسمي كتمهيد للتطبيع بين الشعبين البابلي والآشوري، لإدراكها أن التقارب بين الطرفين فيه مصلحتهما مجتمعين؛ فالآشوريون كانوا الأقوى سياسياً وعسكرياً، لكنهم افتقروا إلى ما امتاز به البابليون، ورثة التراث السومري الديني والثقافي والفلسفي الذي تحدث عن خلق العالم والحياة والطوفان، من بعد ثقافي وفكري.

ورغم مقاومة الآشوريين لمحاولات التطبيع التي قامت بها سميراميس للتصالح مع بابل، أدرك الملك الآشوري آشوربانيبال (668-627) ق.م، ولو متأخراً، أهمية ذلك، فقام بحفظ "الحوليات الآشورية التاريخية" التي حفظت كامل تراث بلاد الرافدين شمالاً وجنوباً، إذ أمر بجمع وكتابة جميع النصوص المتناثرة من سومرية وبابلية وآشورية قديمة وحديثة، مثل فيها، بالدرجة الأولى، الإنجاز البابلي الثقافي العظيم أساس هذا الصرح الهائل. فاشرف على جمعه في عشرين ألف رقيم طيني وضعها في مكتبته الشهيرة "مكتبة آشوربانيبال" في نينوى.

وقد أنارت رقم وألواح المكتبة التي اكتشفها الأثاريون الانكليز، في بداية القرن العشرين، ظلام الماضي السحيق، فظهرت ملاحم، كملحمة جلجامش، وإنجازات أسطورية، كأسطورة الطوفان التي شابهتها أسطورة العهد القديم، وأساطير عن أصل الكون، وخلق الإنسان والعالم، والحياة الآخرة، وترانيم للآلهة المختلفة؛ كإله العدالة، وعشتار إلهة الحب، وأسفار حكمة وفلسفة، وبحوث في مسائل الحساب والفلك اشتهر به

---

[1] - المصدر السابق، الصفحة 203.

الكلدانيون في العصور الكلاسيكية[1]. وبذلك قدم آشوربانيبال أعظم كنز لأعظم إرث ثقافي بشري قديم.

دشن معبد نبو في كلخو سنة 787ق.م وسمورامات ما تزال على قيد الحياة. وبفضل إدخال هذه العبادة إلى بلاد آشور (الإله نبو هو ابن كبير الآلهة البابلية- الرافدية- مردوك)، صار يحتفى به ليس في بابل فقط بل في نينوى، بحيث أصبح مردوك إلهاً رافدياً (لجميع بلاد الرافدين)، فتقبل الآشوريون في النهاية سيادة الإله مردوك عليهم وعلى إلههم آشور، فصار الملك الآشوري مدعو من قبل مردوك ليحكم على آشور وبابل بطريقة شرعية. وكان من نتائج هذا التغيير ما فعله آخر ملوك الآشوريين العظام؛ آشور بانيبال بما تركه من إرث ثقافي وأدبي عظيمين (مكتبة آشوربانيبال في نينوى).

كان نبو إله الكتابة والعلم والمعرفة والحكمة عندالبابليين، فاختارت سمورامات إدخال هذا لإله إلى بلاد آشور لسد الفجوة الثقافية والروحية بين الشعبين بحيث يمكن إغناء قوة الآشوريين بمنحها ما امتازت به الحياة البابلية من ميل إلى الفكر والاداب والفنون والعقيدة.وبمحاولاتها التطبيع بين الشعبين كانت الوريثة لحميها شلمنصر الثالث.

أقامت سميراميس نصبها ونقشت عليه اسمها ولقبها حين تسلمها السلطة.لكن معظم أخبار سيرتها يمكن استخلاصها من بين السطور في الحوليات الآشورية.

وبينما رسمت الأسطورة صورة شخصية سلبية لأدد نيراري الثالث؛ كصبي بصفات أنثوية لايميل إلى الحرب بل إلى الدعة والمسرات، أظهرت الحوليات الآشورية أنه كان في الحقيقة قائد عسكري كفؤ وسياسي قدير. إذ قاد حملة سنة 802 ق.م ضد آرام دمشق ولبنان وفلسطين كما فعل جده شلمنصر من قبل. ونقش اسمه مع اسم أمه سمورامات على النصب الذي وجد في مرعش إضافة لاقتران اسمه مع اسم شمشي إلو صديق صباه وقائد جيشه.

كان حكام الولايات يظهرون ولاءاً مطلقاً مادام الملك قوياً وقادراً على إدارة الدولة بكفاءة عالية. لكن مظاهرالضعف بدأت تظهر في نهاية عهد أدد نيراري ومن بعده، حتى جاء تغلات بلاسر بانقلابه واستيلائه على الحكم (754- 745) ق.م، فأعاد الهيبة للدولة وحقق نتائج سريعة فأعاد الألق إلى الامبراطورية، بحيث أقنع الآشوريين بالعودة إلى مفاهيمهم التقليدية القديمة في أساليب الملكية المطلقة في الحكم. بذلك، ذهب الكثير من جهود سميراميس أدراج الرياح.

اختفت سميراميس (سمورامات) عن المسرح بعد تدشين معبد نبو الجديد في كلخو بوقت قصير. لكن الحوليات لم تذكر كيفية اختفائها عن المسرح السياسي الآشوري، ولا متى بالضبط، كما لم يتم اكتشاف ضريحها، ولو أنه يظن بوجوده في المقبرة الملكية في آشور حيث قبر زوجها. وقد صمتت المصادر الآشورية عن سيرتها في السنوات الأخيرة من حياتها.

---

[1] – انظر المصدر السابق، ص 193.

تحكي غالبية الروايات الأسطورية أنها قتلت بيد ابنها أدد نيراري الثالث. كما يروي ديودورس الصقلي عن كتيسياس أن الالهة المصرية "آمون" أخبرتها عن نهايتها عند زيارتها لمعبد آمون في مصر، لما سألته عن نهايتها: "أخبرها آمون أنَ شخصاً سيجعلها تختفي، وأنها ستعبد من قبل بعض شعوب آسية كإلهة، وسيحدث هذا عندما يقوم ابنها بالاعتداء على حياتها". لذلك عبد الآشوريون الحمائم لأنَ سميراميس تحولت إلى حمامة.

لم تسجل الوثائق سنة ولادة سميراميس، إلا أنه يمكن التخمين من سنوات عمرها الذي عاشته، وذلك بتقدير عمرها من السجلات الآشورية بين سنتي 60 و65 عاماً. إذ يقع تاريخ ميلادها التقريبي، إن كانت وفاتها بين 790 و785ق.م، بين 850 و845 ق.م.

حدد حكم سمورامات وهو يتقاطع بين لائحة الملوك البابليين والآشوريين، بأنَ وضعها كحاكمة على بابل وأشور بالترتيب بعد الملك الآشوري الخامس في الفترة التاريخية الحديثة) للدولة الآشورية، فحدد فترة حكمها بين (812/ 811- 807/806) ق.م. حيث يتوافق هذا التحديد بشكل كامل مع تاريخ وصايتها على ابنها القاصر (812/811- 807/806) ق.م. وهي الفترة المتطابقة مع السياق الأسطوري للرواية مع الاختلاف في الأسماء، ماعدا اسمها.

ويقال ان الاسكندر حافظ على بابل، ولم يدمرها، لإعجابه بسميراميس، حيث خاطب ضباطه وجنوده قائلاً: " أرجوكم، فكروا أنكم جئتم إلى بلاد تحترم جداً اسم امرأة لقيمته. كم من المدن الكبيرة بنت سميراميس؟ وكم أخضعت من البلدان الكثيرة لحكمها؟ لم نصل بعد إلى مجد هذه المرأة، فهل سنسأم من مجدنا؟ لتقف الآلهة معنا، فهناك أشياء كثيرة بانتظارنا[1]".

من الواضح أنَ ديودوروس الصقلي، وهو من أهم مشاهير كتاب اليونان وصاحب المؤلف الضخم "المكتبة التاريخية" التي أرخت لتاريخ العالم القديم منذ بدء الخليقة حتى موت أغسطس سنة 14ق.م، وضمت عشرات الأجزاء والفصول وآلاف الروايات المحبوكة والمثيرة، التي جمعت معظم الصفات الإنسانية المركبة، والمتفاوتة، من: الجمال، البراءة، الحب، الشاعرية، الرغبة، والمغامرة، كل ذلك مع إغراءات السلطة والحكم والشهوة، والتلاعب والمناورة والمكر، الإغراء، الجشع، القسوة، والخيانة، وفي النهاية الانحراف إلى نهايات مفجعة. إذ جعل- في إحدى هذه الروايات- من توهج شخصية سميراميس الأسطورية يرتفع في مخيلتنا إلى حلم كامل من الإعجاب بالجمال والإثارة والفتنة المتحركة، والمتناقضة أحياناً. فجعلها، وكأني بها تغني: لقد وهبتني الطبيعة جسد امرأة رائعة التناسق والجمال، ولكن أعمالي رفعتني إلى مصاف أقدر الرجال وأشجعهم.

[1]- جيوفاني بيتناتو"سميراميس ملكة بابل وآشور"، ص 270، ترجمة. د. عيد مرعي. روافد للثقافة والفنون، دمشق.

الفصل الثالث

إليسا - إليسار- ديدو - ديدون
Elissa - Elissar - Dido - Didon
مؤسسة قرطاجة وملكتها، وتاريخ هانيبال (هاني بعل)

عرفت (إليسا) ديدو[1] كأميرة من صور وملكة لقرطاجة، وابنة أخت ايزابيل[2]. ماتت بسبب حبها لآينياس حسب ملحمة الإنيادة للشاعر اللاتيني فيرجيل.

وتقول الأسطورة: إنّ إليسا كانت ابنة ملك مملكة صور الفينيقية. فقام شقيقها بيجماليون بقتل سيخايوس زوجها الثري بعد موت والدهما الملك. فظهر خيال سيخايوس لزوجته في المنام وأخبرها عمن قتله وكيف، كما أخبرها اين أخفى ثروته. أدركت إليسا مدى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له من شقيقها الملك بيجماليون. فجمعت الثروة التي تركها لها زوجها وهربت إلى قرطاجة. وهناك قايضت السكان المحليين بعد هبوطها على ساحل المنطقة بتقديم كمية كبيرة من المال الذي تحمله مقابل أن تستأجر من الأرض بقدر ما تستطيع قياسه بمساحة جلد ثور. وافق السكان على المقايضة لأنها بدت صفقة عظيمة ومربحة لهم. فماذا يقيس جلد ثور من الأرض؟ إنه لا شيء بنظر السكان مقابل المال الكثير الذي قدمته لهم! لكن عبقرية إليسا تفتقت عن قيامها بتقطيع جلد الثور إلى سرائد رفيعة بقدر ما تستطيع وربطتها ببعضها ومدتها على الأرض حتى صنعت مساحة كبيرة تشبه نصف دائرة نصفها المفتوح بمواجهة البحر.

في النهاية أستطاعتت إليسا تأسيس قرطاجة. والتقى بها الأمير الطروادي آينياس وهو بطريقه من طروادة إلى لافينيوم، فأحبها وأحبته. فقتلت نفسها بعدما تركها لعدم قدرتها على العيش بدونه. ورآها آينياس فيما بعد في العالم السفلي، فلم تلتفت إليه (الكتاب الخامس من الإنيادة).

حكمت قرطاجة أكثرمن 300 بلدة ومدينة على وفي أطراف النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وعلى جزره، حيث أسست امبراطورية بحرية عظيمة استمرت لأكثر من ستمائة عام، حاربت الممالك الإغريقية على مدى قرونها الأولى وانتصرت عليهم، ثم قادت الحروب البونية الثلاث ضد الرومان اعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى سقوطها نهائياً في العام 146 قبل الميلاد.

---

[1] – سيتم الإشارة إلى إليسا – من أسمائها الأربعة – في معظم الأحيان: إليسا، إليسار، ديدو، ديدون. والأسمان الأخيران جاءا من التسمية اللاتينية.

[2] – كانت إيزابيل أميرة من أميرات صور وملكة إسرائيل، ابنة إتو بعل ملك صور، وزوجة آخاب. وكملكة أم مارست إيزابيل نفوذاً واسعاً في مملكة الأولاد آخزيا ويورام بعد مقتل زوجها وخلال عرش أولادها، وخاصة بعد مقتل آخزيا ملك عرش يهودا، وقد تدخلت أيضاً، كزوجة للملك، في شؤون الدولة، وفي العبادات بشكل مباشر. وتعرض من عارض سياساتها للملاحقة، وأحياناً للتخلص منه بالقتل.

الخلفية والأصول

تكلم الفينيقيون لغة (سامية) تكاد تتطابق في البناء والنطق مع لغتنا العربية الحالية. وقد تجلى ذلك بشكل واضح في أسمائهم، حيث كانت هذه الأسماء عادة تضاف إلى اسم بعل، ليصبح الاسم مركباً. وبعل هو كبير آلهة الشرق. فالولد عندهم كان يدعى باركبعل (الذي باركه بعل)، ومعطبعل (اي معطية أو هدية بعل)، والبنت عريسة بعل (أي خطيبة بعل)، وأمة بعل (أي جارية بعل)، وعبد ملقارت (خادم ملقارت، وملقارت هو إله صور المقدس)، وخيملك (خي ملك اي أخو الملك)، وخوتالات (أخت اللات)، أو تسمى مباشرة بنتبعل (ابنة بعل)، أو هانيبعل (الذي يحظى أو يهنأ بعناية بعل[1])، أو صدربعل، أو مهربعل، ..إلخ. بحيث يمكن رؤية أن هذا التطابق لم يأت مصادفة أو بدون أسس لغوية مارسها من أطلقوا هذه الأسماء على أنفسهم.

يعتبر الدكتور على فهمي خشيم[2] أنّ العلماء الذين قسموا اللغات إلى ثلاث مجموعات: سامية وحامية وآرية، خدعونا. وهو يعتبر أن هذه اكذوبة توراتية عنصرية، اعتبرت أنّ أبناء نوح: سام الجد الأول للعرب والبابليين والعبرانيين، وحام الجدالأول للمصريين والأفارقة، ويافث الجد الأول للأوربيين والصينيين والبقية كلهم، ولم يكونوا يعرفون الصينية، فصنفوا كآريين. وهو يعتبر أنّ هذه النظرية غير علمية على الإطلاق. والمهم عنده هو التقسيم الجغرافي، إذ يرى أن ما يسمى الحامية والسامية قد أدمجتا في كتلة واحدة سموها الحامية- السامية، بينما يسميها د.خشيم "العروبية". والعروبية عنده تضم مجموعة اللغات القديمة: فهي بابلية في العراق، وكنعانية في بلاد الشام، و"يسمونها فينيقية في الساحل الشامي"، والسبئية والمصرية والنوبية القديمة..ألخ. وهذه عبارة عن مجموعة من اللهجات تفرعت عن لغة واحدة اسمها اللغة العروبية، بما فيها اللغة العربية، عربية الجزيرة العربية. وهكذا، فالسبئية أو الحميرية، والعربية العدنانية، والآرامية..ألخ، كانت كلها لهجات من اللغة العروبية. حتى جاء القرآن الكريم، فسادت لهجته على جميع اللهجات المحلية الأخرى.

لم تكن كلمة عرب تعبر عن مجموعة ثقافية أو قومية أو عرقية، إذ كانوا قبائل. وكلمة عرب قبل الإسلام استعملت في الغالب بمعنى البدو، من مادة "عَرَبَ" بمعنى ظهر كما في النصوص البابلية والآكدية، لكنها لم تتبلور كفكرة قومية إلا بظهورالإسلام بعدما توحدت القبائل المتناحرة ضد القوتين الجبارتين في ذلك العصر: الروم والفرس، وإكتسحت العالم كما هو معروف، وأصبح "العربي" هو من جاء من الجزيرة العربية.. ويقول ابن منظور في

---

[1] – "تاج العروس" للزبيدي، ج28، الصفحتان (93– 94): بعلٌ: اسم (صنم كان) من ذهب (لقوم إلياس عليه السلام) هذا هو الصواب، ويؤيد قوله تعالى) وإن إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين)، الصافات، الآيات 123–125. وقال الراغب: وسمى العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله: بعلاً، لاعتقادهم الاستعلاء فيه. وقيل: بعلٌ: (ملك من الملوك) عن ابن الإعرابي. والبعل: الزوج.

[2] – مجلة العربي الكويتية، العدد 619، الصفحات (68 – 73).

"اللسان" نقلاً عن خليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب "العين": ".. بنو كنعان قوم كانوا يتكلمون لغة تضارع العربية، أي تشبهها". وقد بينت النقوش الكنعانية بعد اكتشافها في القرن العشرين أنها لغة عربية فصيحة عند قراءتها، وتظهر قراءة نقوش ايبلا في لوحة من لوحاتها في نهاية الألفية الثالثة في لغة عربية فصيحة. وهذا يدل على أن هذه اللغة كانت مكونة من مجموعة لهجات عديدة: كالآكدية، والأشورية، والبابلية، والكنعانية، والآرامية.. إلخ. وظهور الإسلام هو الذي مكن العربية في النهاية من السيادة على كل اللهجات.

إذن، فلغة الفينيقين لغة كنعانية ذات أصول سامية- حامية من أسرة لغات الشمال التي ضمت الآرامية والآشورية والعبرية والعربية.. وهي اللغات التي ظلت سائدة في غرب آسية حتى الغزو الخارجي الحثي على المنطقة في الألف الثانية قبل الميلاد. ونجد أقدم أثر مكتوب باللغة الفينيقية في أفريقية على قلادة ذهبية محفوظة في متحف قرطاج عليها الإهداء التالي: " إلى عشتار، إلى بجماليون، من بدا ملك بن بادي: مبارك من يباركه بجماليون". والقلادة من القرن الثامن قبل الميلاد. وهذا يعني في واقع الأمر أنّ الفينيقين بالأساس هم أحفاد الكنعانيين وهم عرب من شبه الجزيرة العربية جاؤوا مع الهجرات التي وصلت الأطراف الغربية من سورية الكبرى عند منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وافترقوا في موجتين رئيسيتين: الأولى اتجهت إلى المناطق الداخلية وعرفت باسم العموريين، والثانية اتجهت إلى المناطق الساحلية وعرفت باسم الكنعانيين[1] أو سكان الأراضي المنخفضة. حيث تمكنت الهجرات الكنعانية الأصل من الاستقرار على الساحل السوري قبل بداية العصر التاريخي وتمكنت من تأسيس عدة مدن مثل صيدا وصور وجبيل وبعض المدن الداخلية مثل أريحا وبيسان ومجدو وغيرها. وقد رأت هذه المجموعات أن من الأفضل لها التجمع حول مدنها وتحصينها بشكل جيد لأن هذه المنطقة لم تنعم بالهدوء والاستقرار على مدى تاريخها الطويل بحكم موقعها الجيو- سياسي والاقتصادي كنقطة التقاء وطريق طبيعي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب.

لم تظهر كلمة فينيقي إلا في نهاية الألف الثانية وبداية الأولى عندما تعرف الإغريق على حضارة الساحل السوري وأدهشهم ما كانوا قد توصلوا إليه في صباغة الملابس والأثاث باللون الأرجواني اللامع، فأطلقوا على سكانه اسم "الفينيقي والفينيقيون"، والكلمة تعني باليونانية اللون الأرجواني. وقد استخرج الفينيقيون المادة الأولية في صناعة

[1] – ورد في كتاب أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 97، وصف العالم الألماني موريتكارت للكنعانيين: "إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل (بيبلوس القديمة) في وسط ساحل بلاد الشام وبالاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة ماري ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (إلخ) بالقرب من أنطاكية، أن أناساً من ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة ق.م. وكان هؤلاء على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي. أما من ناحية التسمية الخاصة فتطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين. وينتسب الفينيقيون الأوائل، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية".

اللون الأرجواني من بعض أنواع القواقع والأصداف البحرية التي عثروا عليها في مياه سواحلهم الشرقية للمتوسط.

أخذ الفينيقيون يوطدون أقدامهم في فلسطين منذ ما قبل القرن الحادي عشر ق.م، ثم انتشروا شمالاً على طول الشريط الساحلي، وتمكنوا بفضل مهاراتهم ومواهبهم التجارية البحرية وشدة جلدهم وروح المغامرة لديهم من تطوير سلسلة من مدن النشاط التجاري، الموجودة منذ نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، على امتداد هذا الساحل في غزة وعسقلان وحيفا ويافا وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأرواد وعمريت وطرطوس ورأس شمرا (أوغاريت) .. إلخ، حيث امتدت أطرافها إلى الشرق من جبال لبنان. وقد مثل الموقع الجغرافي والمساحة الزراعية الضئيلة وطبيعة الكنعانيين وأحفادهم الفينيقيين التجارية سبباً رئيسياً في عدم توسعهم بالدرجة الأولى نحو الشرق لبناء امبراطورية قوية تحاكي قوة الامبراطوريات؛ الآشورية - البابلية، والفارسية، والمصرية، والإغريقية لاحقاً. ولذا لم يكن في مقدور الفينيقيين أن يروا طموحاتهم التجارية تتحقق إلا في أعالي البحار. وبالطبع، خضعت هذه المنطقة لبعض التعديلات على مدى تاريخها. وقد كانت هذه المنطقة أرض كنعان القديمة.

وفي ذلك، برز الفينيقيون في المجالات التجارية وأصبحت شهرتهم كبيرة في الأسواق الأجنبية للانتفاع بثرواتهم الطبيعية وبخاصة خشب الأرز الذي استخدمه القدماء في بناء المشاريع المعمارية والبحرية والدينية والفنية. كما نجحوا في صناعة البرونز والعاج والعظام والزجاج، بينما أظهروا قدرة فائقة في صناعة الأقمشة وبصفة خاصة المصبوغة منها باللون الأرجواني. كما سجلوا اهتمامهم بالزراعة والصيد البحري. وقد مهد لهم نشاطهم التجاري فرصة التعرف والاتصال بالأسواق الخارجية والتعرف أيضاً على الطرق البرية والبحرية مما أكسبهم مهارات فائقة في البحار. ومثلما كانت التجارة والاقتصاد دافعهم الرئيسي للهجرة نحو الغرب كانت أيضاً المبررات السياسية والبشرية، ولكن ربما بصورة أقل.

يعتقد العلماء والباحثون أنّ مدينة صور على الساحل السوري كان لها الدور البارز في عملية تأسيس المراكز الفينيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط لأن الزعامة السياسية والحضارية انتقلت إلى تلك المدينة قرب نهاية الألف الثاني وبداية الأول ق.م. وهناك رأي غالب يقول: إنّ صور بدأت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إثر انتصار ملك عسقلان على صيدا، مما دفع أهالي صيدا إلى البدء ببناء صور لامتيازها بموقع دفاعي مناسب، فجزيرتها مواجهة للشاطئ تؤمن لها حماية شبه طبيعية إلى حد كبير. ومن صور هذه رأى الفينيقيون أن آفاقهم المفتحة الأبواب تشير لهم نحو الغرب، فأصبحوا رواد الهجرات الفينيقية الأولى واللاحقة إلى الرحب الفسيح في غرب المتوسط.

فرض الفينيقيون الغربيون (يرد وصفهم في معظم الكتابات، وخاصة اللاتينية، بالبونيقيين/البونيين/القرطاجيين) سيطرتهم على مجمل الشاطئ الجنوبي والنصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط من منتصف حوضه الداخلي قبالة اليونان وليبية إلى

منفذه المفتوح عند أعمدة هرقل (جبل طارق) إلى إسبانية والمحيط الأطلسي. وبالرغم من أنَ الفينيقيين نجحوا بسيادتهم على البحار إلا أنهم لم يتمكنوا من تجميع مراكز مستعمراتهم المتفرقة في دولة واحدة قوية، كما لم يتمكنوا من تشكيل قوات برية دائمة قادرة على رد الغزاة والطامعين. ولذلك تعرضوا للغزو الآشوري والفارسي في الشرق، والإغريقي والروماني فيما بعد من الشمال والغرب.

ويعتبر العصر الفينيقي في الغرب مكملاً للتاريخ الفينيقي في الشرق خاصة في بدايات التكوين الأولى له. ولذلك يمكن القول أن العصر الفينيقي في الغرب قد استمر من بداية تأسيسه حتى بعد منتصف القرن السادس قبل الميلاد مرتبطاً بشكل أو بآخر بالشرق من النواحي الحضارية والدينية والضريبية، واعتبار المهاجرين القادمين من الساحل الفينيقي مواطنين قرطاجيين مباشرة، حتى صار بإمكان دولة قرطاج الوقوف على قدميها كقوة ذاتية مستقلة سياسياً واقتصادياً عن الأم في المشرق.

وفي الوقت الذي بدأ تطور المستعمرة الناشئة في قرطاج يأخذ مجراه، بدأت المدينة الأم (صور) تنحدر وتهوي. وفي الوقت الذي بدأت فيه صور تتأثر بقوة بالحضارة اليونانية بعد احتلال الاسكندر المقدوني لها، ذهبت قرطاج باتجاه الحفاظ على طابعها الفينيقي وصيانته.

وقد تم الانتقال من المرحلة الفنينقية إلى المرحلة القرطاجية المستقلة على يد أسرة ماجو التي تمكنت من إنشاء جيش قرطاجي قوي مكون من القيادات القرطاجية ومن المرتزقة الليبيين والبربر[1] والنوميديين والغاليين والإسبان والايطاليين وسكان بعض جزر المتوسط. ولم يتردد المرتزقة اليونانيين من الانخراط في صفوف هذا الجيش في بعض الأوقات. بذلك بدأ بناء التحصينات والأسوار والمواقع.. حيث بدات مرحلة جديدة أقرب إلى الصفة السياسية للدولة منها للاقتصادية. والأهم في ذلك كله كان ازدياد الصلات والوشائج والمصالح المتعددة بين الفينيقيين والليبيين والبربر وغالبية شعوب المغرب الحالي بحيث اخذت هذه المنطقة بالانتقال من الإطار المحلي البحت إلى إطار معترك التطورات السياسية والاقتصادية الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك.

سيرة إليسا، إليسار، ديدو، ديدون

تعتبر تفاصيل حياة إليسا غامضة ومرتبكة إلى حد ما، حيث سيرى القارئ أنَ سيرتها تقع بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والأسطورة، وذلك أن القرطاجيين أنفسهم لم يتركوا لنا ما يعتد به من تدوينات أو تأريخ يتناول سيرتها، بل إنَ معظم ما يعرف عن تاريخ قرطاجة جاء من المؤرخين والكتاب اليونان واللاتين على وحه الخصوص (تيميوس

[1] – جاء في الصفحة 66 من "تاريخ الحضارة العام- روما وامبراطوريتها": "إن آخر وثيقة خطت بالحرف البونيقي يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي. أما اللهجة التي دعاها القديس أغسطينوس (بونيقية) إنما ترجع إلى اللهجة الليبية التي استمر التكلم بها في المناطق الريفية، وهي أم اللهجة البربرية المحلية اليوم.

الصقلي، ماندر الأفسوسي، جوستين اللاتيني الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، والذي نقل عن سلفه تروغس بومبيوس)، وبالتالي فإن ما كتب عن إليسا وقرطاجة جاء من مصادر ليست محايدة. غير أنّ السيرة العامة لإمبراطورية قرطاجة جاءت متوافقة مع تاريخها المكتوب، بينما جاءت سيرة إليسا بمعظمها من مصادر يختلط فيها الواقع التاريخي بالأسطوري، ومع ذلك فهي تتفق بشكلها العام مع التاريخي، لسبب مهم هو أنّ أسطورتها التي تناولها العديد من المؤرخين الأدباء والفنانين تحدثت عن نفس الأسماء ونفس الأماكن ونفس تواريخ الأحداث. وهذا هو الذي يشكل الأساس في كتاب التاريخ.

من المعروف في التاريخ القديم أنّ الإيمان بالأساطير والقصص الخيالية كان شائعاً في كافة مجالات الحياة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية أو في جميعها معاً. وفي كثير من الأحيان ألهبت هذه الأساطير والقصص مخيلة الجموع الشعبية العامة خاصة، واستساغتها، واعتبرتها في بعض الأحيان نوعاً من الوحي القادم من السماء. وما يبقى على الباحث سوى تحري الموضوعية والدقة واستنباط الوقائع من بين سطور هذه الأساطير.

ويمكن استخلاص سيرة إليسا من مصادر مختلفة.. فحسب رواية جوستين؛ أوصى ماتان ملك صور (بيلوس الثاني كما دعي في الأدب الكلاسيكي) أن يخلفه على العرش بعد موته ابنه الصغير بجماليون وابنته إليسا[1] أو إليشا أو عليشة (عيشة) التي كانت ذات جمال نادر. غير أنّ المناصرين للملك بجماليون من شعب صور عملوا على خلع إليسا مفضلين بقاء بجماليون على العرش لوحده فقط. وكان ابوها قد زوجها من خالها الذي ورد اسمه حسب المصادر: أغريباس، أخيرباس، عشرباص، أشريباص، أو سيخايوس، أو زيكاريعل، الذي كان كاهن معبد الإله ملقارت وكان ذا مرجعية وسلطة سياسية وذا ثراء واسع، وكأنه ملك حقيقي. وربما كان وصياً على بيجماليون القاصر، فقد كان يحتل المرتبة الثانية في المملكة. وقد طمع بيجماليون إلى سلطة أغريباس وثروته، لذلك قام بقتله داخل المعبد وأخفى آثار جريمته عن أخته وعن الجميع. حيث خدعها بروايات خيالية عن موته. ولذلك أخذ شعب صور يضغط لاختيار حاكم واحد يدير شؤون البلاد بدلاً من التنازع والشقاق الذي أخذ بالظهور في البيت الملكي، بحيث أصبح بجماليون الملك لوحده.

ظهر شبح أغريباس (عشرباص) لزوجته إليسا في المنام وأخبرها بمن قتله وكيف. كما أخبرها أين تجد ثروته المخبأة، ونصحها بالهروب من صور إنقاذاً لحياتها، لأن أخيها بيجماليون لن يتورع عن قتلها عاجلاً أم أجلاً. عملت إليسا بسرية شديدة مع بعض أتباعها من علية القوم من خصوم الملك الجديد، على ترتيب خطة الهروب ومعها ثروة زوجها.

---

[1] – ربما كان اسم إليسا اسماً يونانياً مشتقاً من اسمها الفينيقي الأصلي إليشات أو عليشات أو عليشة، بينما أطلق عليها اللاتين ديدو (الرحالة). ويعتقد أن الاسم الذي كان معروفاً لها في قرطاجة هو إليسا وليس ديدو.

وحتى لا تثير شبهات أخيها حول نيتها في الهرب عرضت عليه رغبتها بترك قصر زوجها الذي لا يزال يثير حزنها وأشجانها، وأنها ترغب أن تقوم برحلة بحرية من أجل تقديم القرابين عن روح زوجها. فزودها بيجماليون بسفينة من أجل هذا الغرض، حيث قامت بتجهيزها، وبسرية تامة حملت مع بعض مؤيديها أكياس الذهب وخبأتها في غرف شحن السفينة، وبعد ذلك قام عمال الملك بتحميل أكياس مملوءة بالرمل على ظهر المركب، وأبحرت في جنح الليل دون أن تعلم أخاها. وعندما أصبحت في عرض البحر رمت أكياس الرمل التي كانت على ظهر السفينة موهمة أنها أكياس الذهب كهبة عن روح زوجها. وكانت تبكي مستذكرة زوجها، وأنها بعملها هذا إنما تقدم قرباناً بهذا الذهب المشؤوم الذي كان السبب في هروبها. ولم يكن العمال يعرفون ما تحويه هذه الأكياس. فلما تبين لهم الأمر خافوا من العودة إلى صور لمعرفتهم أنّ الملك لن يغفر لهم عدم معرفتهم بالأمر وإخباره بما كان يجري من نية تهريب الذهب[1]. لذلك قرروا جميعاً البقاء ومرافقة الأميرة في رحلتها. ورافقها في هذه الرحلة أنصارها من مجلس الشيوخ ومن كهنة معبد ملقارت. فغادركل من ذكرناه البلاد إلى الأبد بسرية تامة عن أعين ومعرفة الملك بيجماليون.

ذكرت أسماء بعض أفراد عائلتها؛ أخوها بجماليون، وجدها بلزيروس، واسمها أيضاً، حيث وردت في لائحة الملوك الطغاة للمسرحي الإغريقي ماتندر الأفسوسي (342-292) ق.م ضمن لائحة ملوك صور الواردة في "Josephus`s Against Apion, i.18" للمؤرخ اليهودي يوسفوس، بحيث ينهي يوسفوس استشهاده: " الآن، وبجماليون في السنة السابعة من حكمه، تهرب أخته خوفاً على حياتها منه، وتقوم ببناء مدينة قرطاجة في ليبية".

كانت وجهتهم الأولى قبرص للراحة والتزود بالمؤن لرحلة أطول. وفي قبرص اشترت إليسا عدداً وافياً من العذارى القبرصيات اللاتي كنّ يخدمن في معبد عشتار (فينوس)، فأقسمن أن يتزوجن الرجال الصوريين من حاشية إليسا. وهكذا واجهت إليسا وفريقها أخطار البحر الواسع لإيجاد المكان المناسب لتوقفهم واستقرارهم[2]. وفي صور أشار العرافون على بجماليون عدم مطاردته لها عندما علم برحيلها، قائلين له: ستعاقبك الآلهة إن أوقفتها لأنها أوكلت إليها بناء مدينة جديدة".

تأسيس قرطاجة

يرجع الباحثون مبررات خروج الفينيقيين إلى الأطراف الغربية من البحر الأبيض المتوسط إلى دوافع اقتصادية بالدرجة الأولى وأخرى سياسية وبشرية. فقد أسس

(1) – تبدو رواية جوستين هذه، والمنقولة شفهياً عن تورغيس بومبيوس، غير متماسكة وغير مقنعة في حبكتها.

(2) – Justin, VXIII, 4-6

البحارة الفينيقيون[1] محطات تجارية مبكرة لهم يرسون فيها لمبادلاتهم التجارية على طول شواطئ المتوسط، وخاصة الجنوبية منها. وبذلك أسس الصيداويون منهم مراكز تجارية بين القرنين السادس عشر والثاني عشر قبل الميلاد، ومنها أوتيكا Utica (عوتيقا بالكنعانية: أي المدينة العتيقة، والتي سماها ابن خلدون: وطاقة) القريبة من الموقع الذي اقيمت عليه قرطاجة، وفي غاديس/قادس على ساحل إسبانية الجنوبي، كما أنشأوا مدينة ليكسوس على سواحل المحيط في المغرب. وكان هدف الصيداويين بتأسيسهم لعوتيقا المنافسة التجارية مع الصوريين في تأسيس مستعمرتهم الأولى في عوتيقا نفسها. وقد أثبتت الآثار أنّ عوتيقا لقرطاجة تشبه تماماً صيدا لصور. حيث كانت عوتيقا أقدم في تأسيسها من قرطاجة، واحتفظت بنوع من الموقع التجاري الهام دون سلطة حقيقية. لذلك تنافست عوتيقا وقرطاجة على ساحل المتوسط الأفريقي الغربي كما تنافست صيدا وصور على الساحل الفينيقي على الساحل السوري.

إذن، اجتازت إليسا وحاشيتها وأعضاء السناتو والكهنة وعذارى عشتار المرافقين عرض البحر حتى وصلوا الشاطئ القريب من أوتيكا على الخليج فنزلوا هناك. وبدأوا بالتفاوض مع السكان المحليين لإقامة علاقات صداقة وشراء أو استئجار قطعة أرض بمقدار ما يمكن لجلد ثور كبير أن يغطي ليقيموا عليها سكناهم. اعتقد السكان انهم كسبوا اتفاقاً عظيم الجزاء مقابل لاشئ تقريباً، إذ ماذا يمكن أن تكون أكبر مساحة من الأرض يقيسها جلد ثور؟ أبدت حاشية إليسا امتعاضاً شديداً خلال التوصل إلى صيغة الاتفاق! إلا أن السكان تفاجأوا وهم يرون إليسا وفريقها يقومون بتقطيع جلد الثور إلى سرائد رفيعة جداً ربطوها من نهاياتها بعضها ببعض بحيث صنعوا من هذه السرائد خيطاً عظيم الطول مدوه بشكل نصف دائرة مقابل اللسان البحري بحيث بقي الطرف المواجه للبحر مفتوحاً. ولذلك حصلت إليسا وفريقها على مساحة من الأرض أكبر بكثير مما لم يقدر السكان إلا أن تكون بقدر مساحة جلد ثور.

اختارت إليسا اللسان البحري على الخليج في مفاوضاتها مع السكان كمكان مناسب من جميع الوجوه لإقامتها عليه، وهو المكان الملاصق لموقع كامبي أو كاكابي (Cambe أو Caccabe) حيث كان مركزاً تجارياً لفينيقيي صيدا الأوائل. وقد أشار الكاتب الفرنسي فرانسوا ديكريه[2] إلى وصف المؤرخ بوليبيوس (75,2,73,2,1) وهو مصدر موثوق كان شاهداً على حصار وسقوط العاصمة، إذ يقول: " تقع المدينة على شاطئ أحد الخلجان،

---

[1] – كان هوميروس أول من استخدم كلمة Phoinike، وتعني البلاد، وكلمة Phoinix وPhoinixes، وتعني ساكن وسكان البلاد باليونانية، وربما رجعت التسمية إلى أبعد من ذلك. وكلمة Phoinix الإغريقية تعني لون الأرجوان، الذي برع أهل البلاد لوحدهم بصناعة ألوانه على الثياب. وبذلك كان الإغريق هم أول من أطلق تسمية فينيقية والفينيقيين على الكنعانيين من سكان الساحل السوري. كما أطلق الإغريق تسمية بيبلوس Byblos على بنت جبيل على الساحل اللبناني الحالي لأنها كانت تشتهر بصناعة ورق الكتابة (البابيروس). وسموا تدمر بالميرا من كلمة بالم التي تعني باليونانية شجر النخيل.. وهكذا.

[2] – انظر كتابه "قرطاجة أو امبراطورية البحر"، ص 61، 62، ترجمة عزالدين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الحلو، دار الأهالي – دمشق.

في شبه جزيرة تكاد تكون محاطة إما بمياه البحر أو بمياه بحيرة. وتصل بالقارة بواسطة لسان عرضه خمسة وعشرون غلوة، اي ما يساوي 4400 متراً، وعلى طرف هذا اللسان القليل من المساحة، توجد مدينة أوتيكا، وفي الجهة الأخرى، وبمحاذاة البحيرة، توجد مدينة تونس الحالية، كما توجد على هذا اللسان مجموعة من التلال الصعبة الاجتياز إلا من خلال بعض الطرق المشقوقة بأيدي البشر لتربط قرطاجة بباقي البلاد". ويصف ديكرية شبه جزيرة قرطاجة: ".. بأنها أشبه بمرساة عملاقة مرمية صوب البحر، وكان مدخلها محمياً بسلسلة من الذرى تشكل خط الدفاع الأول (جبل نهلي)، إضافة إلى لسان يتقدم باتجاه الشرق إلى عرض البحر، وعلى طول خمسة عشر كيلو متراً. وكان هذا اللسان يتصل ببحيرة شاطئية قليلة العمق وغنية بالأسماك – وهي الآن تشكل بحيرة تونس أو سبخة البحيرة – عن أحد الخلجان، وهو اليوم مغطى بقسمه الأكبر بطمي نهر المجردة، وكانت مدينة أوتيكا تقع في قلب هذا الخليج. وكان على القرطاجيين أن ينشئوا عبرهذا النتوء الجبلي الطويل، وعلى نقطة لا يتجاوز عرضها الأربعة كيلومترات، خطاً دفاعياً متقدماً بلغ طوله ثلاثين كيلومتراً. ويضم خندقاً عريضاً محفوراً في الجهة الغربية، إضافة إلى قاعدة مركزية ذات حباك، واستحكامات، وربما كانت توجد أيضاً مراصد، وأخيراً كان يوجد خندق خلفي. كان هذا الخط الدفاعي يسد الممر المتجه إلى الشرق. وقد كانت المدينة مع ضواحيها تمتد على هذا القسم الذي تقارب مساحته الخمسة آلاف هكتار. ونقول، كي تكتمل الصورة، أنّ هذا الطرف الذي كان يتشكل من نتوء صخري مرتفع – هو عبارة عن جزيرة قديمة اتصلت بالساحل بفضل تجمع طيني – كان يمثل المرساة". غير أنّ من المؤكد أنّ المدينة كانت أكبر من ذلك بكثير، وأنها كانت محاطة بضواحٍ كثيرة تؤمن الغلال والحماية من الجهة البرية للمدينة.

رأت إليسا وفريقها أنّ الموقع يؤمن مزايا عظيمة لضمان الحماية. ولم يبد السكان المحليون سعادة لنزول هؤلاء القادمين الجدد. غير أنها استطاعت عقد اتفاق معهم على أتاوة سنوية كأجرة للأرض التي تمركزوا عليها. وبدأ فريق إليسا بالحفر بغرض التأسيس لوجودهم. وأخذ الناس يتوافدون من جميع النواحي المحيطة للسكن في المدينة الجديدة لسرعة نموها وازدهارها.

لما سمع ايارباس ملك المكسيتانيين الأفارقة بقيام المدينة وتطورها وغنى من بناها وجمال ملكتها استدعى بعض كبار أهل المدينة وأبلغهم، تحت التهديد، أن يزوجوه ملكتهم. فاستمهلوه ثلاثة أشهر، فأمهلهم. ولما أفصحوا لإليسا عن طلب الملك بعد تردد، أدركت أن رفض الموافقة على طلب الملك سيعرض مستوطنتهم إلى خطر شديد وهي في بداية تأسيسها. فبكت الملكة بكاء مراً وأخبرتهم موافقتها على طلب الملك لتنقذ قرطاجة من مصير سئ. وبعد مضي المهلة المحددة، أمرت بإقامة محرقة عظيمة عند بوابة المدينة الرئيسية، وقدمت الأضحيات لروح زوجها، وصعدت إلى حافة المحرقة ثم استدارت نحو شعبها وصاحت بصوت قوي قائلة: " هأنذا طوع رغباتكم، فأنا ذاهبة إلى زوجي"، ثم طعنت نفسها وسقطت وسط النيران المشتعلة.

استمر القرطاجيون بدفع قيمة الاستئجار حتى القرن السادس قبل الميلاد. وما يزال هذا التل يسمى بجلد الثور "Byrsa"، كما لا يزال البعض يعتقد خطأً ان الكلمة Bysra آتية من الكلمة الفينيقية Borsa التي تعني قلعة أو حصن!

وحسب سياق الأسطورة، انبهر الملك إيارياس بعبقرية إليسا الحسابية، لكنه لم يسلم بهزيمته أمامها، فعرض عليها الزواج ليتحكم بالمدينة وبالثروة التي تملكها إليسا، وذلك بعد أن شهد بناء المدينة وسرعة تطورها، وإلا فإنه سيعلن الحرب على المدينة. أدركت إليسا أن رفضها الزواج من الملك لن يفيد، فتظاهرت بالموافقة، ثم جهزت محرقة بحجة تقديم القرابين لزوجها الأول لآخر مرة، فطعنت نفسها بالسيف وهي تسقط في لهيب النيران افتداء لشعبها لتوفر لهم سبل البقاء والعيش. فما كان من الملك، الذي شعر بالغيرة من نجاح إليسا وبالغيظ والأسف لانتحارها، إلا أنَ يأمر ببناء صرح تعليمي عال يقوم قومها بالتدريس فيه على أمل أن يخرج له فتيات بالغات الذكاء كإليسا. بعد ذلك تم تأليه إليسا خلال الفترة القرطاجية كلها، لتضحيتها من أجل شعبها.

تبين بالحسابات الرياضية أنَ إليسا كانت على الغالب تعرف سلفاً أنَ مساحة الدائرة كشكل هندسي هي أكبر من مساحة أي شكل هندسي آخر بنفس طول المحيط. فإذا أخذنا طول محيط أي شكل هندسي وجعلنا منه في كل مرة شكلاً هندسياً مختلفاً؛ كالمستطيل أو المربع أو المثلث أو المضلع أو الدائرة.. إلخ، فإن أكبر مساحة يشكلها هذا المحيط ياتي من شكل الدائرة. ولذلك فالشكل الهندسي الذي يعطي أكبر مساحة بنفس المحيط هو الدائرة وليس أي شكل آخر عدا المضلع الكثير الأضلاع والذي تقترب أضلاعه في النهاية من شكل الدائرة تقريباً. وهذا ما أوجدته إليسا من خلال معرفتها الرياضية بالأشكال الهندسية. حيث يعتقد أنَ إليسا ابنة الملك كانت على الأغلب قد حصلت على تعليم وتثقيف عاليين، لأنَ الفينيقيين على الساحل السوري كانوا على علاقات تجارية وربما ثقافية جيدة مع المصريين والبابليين الذين كانوا متقدمين بالعلوم والرياضيات حينها. ومن المؤكد إذاً أنَ الفينيقيين استفادوا علمياً من خلال هذه العلاقات المتينة مع المصريين والبابليين.

إذاً، تفتقت عبقرية إليسا في قياسها لمساحة الأرض بأن مدت سرائد جلد الثور المربوطة ببعضها كحبل واحد صنعت منه نصف دائرة[1] على الأرض موضوع الاستئجار، وجعلت نصف الدائرة المفتوح باتجاه البحر، حيث تضاعفت مساحة الأرض مادة عقد الاستئجار.

قامت الأميرة وفريقها بإنشاء مدينتها داخل المساحة التي قاستها سرائد جلد الثور، وذلك سنة 814 ق.م[2]، وأطلقوا عليها "قرت حدشت" التي تعني بالفينيقية "الأرض أو القرية أو المدينة الجديدة"، وجاءت كلمة قرطاجة من" قرطاجو/Karthago "، وهي اللفظة اللاتينية للكلمة اليونانية"Karchedon/قرخيدون" المشوهة عن التسمية الفينيقية "قرت حدشت". ولأصولهم الصورية درج هؤلاء القرطاجيون على إحياء ذكرى سنوية لمعبد إلههم ملقارت الموجود في صور. وعلى الدوام نال الاسم نصيبه من التحريف،

---

(1) – تعرف معادلة ما يساوي مساحة محيط الدائرة بالمقارنة مع ما يقيسه نفس المحيط لأي شكل هندسي آخر بمسألة الآيزوبيريمتريك Isoperimetric أو مسألة ديدو أحياناً، في علوم الرياضيات.

(2) – Nathan Davis, Carthage and the Romans (Lon. 1861)

فأصبح عند الإغريق "قرخيدون أو كرثاجا"، و "كرثاجو" عند الرومان، و "قرطاجة" عند العرب.

وبالتدريج أخذت قرطاجة بتأسيس استقلالها عن صور الفينيقية على الساحل السوري، فكانت على صلات قوية بصور العاصمة من خلال حكم قضاة صور لها حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

ومع الزمن، أصبح استيطان قرطاج والتوسع المستمر في الأراضي والبلاد حول شواطئ المتوسط مغامرة ناجحة للفينيقيين الجدد بكل المقاييس، أدت في النهاية إلى صعود قوة فينيقية (بونية/بونيقية) جبارة، وأصبحت معروفة باسمها الجديد؛ قرطاجة والقرطاجيون. وفيما بعد بالبونيين/البونيقيين من قبل الرومان إشارة إلى فينيقي البحر المتوسط الغربيين في قرطاجة والثلاثمائة مدينة والأراضي التي سادت سيطرتهم (حسب سترابو) عليها.

أخذت قرطاجة تتطور ويمتد نفوذها شرقاً وغرباً على كل مراكزها التجارية على خط طويل واحد يبدأ من جزر البليار القريبة من الساحل الإسباني إلى منتصف خليج سرت. فضمت جزر سردينية والجزء الغربي من صقلية ومالطا وجوزو ولمبيدوزا وبانتلاريا وايبزا ومينورقا وماهون (جزيرة ماغو) وجزر البليار.. كما تم تعزيز المراكز التجارية القديمة على طول السواحل الأفريقية الغربية للمتوسط وافتتاح مراكز جديدة، فتوسعوا في الداخل إلى الجنوب إلى مسافات لابأس بها. وتوسعوا فاحتلوا إسبانية أيضاً وجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية بالكامل تقريباً، ونجحوا هناك في بناء عدة مدن ومراكز. وحينما بدأت الحرب البونية الأولى كان يتبع لقرطاجة أكثر من مئة مدينة ومركز.

وخلال وقت لم يكن طويلاً أصبحت قواتها البحرية تقوم بالدفاع عن شواطئ أفريقية الشمالية الغربية على البحر المتوسط ضد الغزاة القادمين من الشواطئ الشمالية لهذا البحر ضمن حلقات الطموحات الأزلية المدعومة دائماً بعدوان القوة العسكرية، والذي ظل يدور بين الشرق والغرب منذ الألف الثالثة قبل الميلاد حتى الآن، والذي لن ينتهي في المستقبل.

أسرت إليسا القرطاجيين، فاعتقد الكثيرون منهم أنها صارت إلهة، قدسوها، عرفت بـ "تانيت Tanit".

تاريخ تأسيس قرطاجة

يتم الاعتماد الأساسي في كتابة تاريخ الفينيقيين على المؤرخين الإغريق واللاتين بالدرجة الأولى. فقد نشبت حروب شرسة بين الإغريق والرومان من ناحية، وبين الإغريق والفينيقيين الجدد في الغرب (القرطاجيون) من ناحية أخرى، وبين الرومان والقرطاجيين/البونيين من ناحية ثالثة. استمرت هذه الحروب العنيفة بين هذه الأطراف لقرون طويلة قادمة من أجل السيطرة على مياه وجزر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط

ومدنه وأراضيه. وبدأت هذه الفترة العنيفة مع بداية القرن االسادس قبل الميلاد بين المستوطنين المتنافسين من القرطاجيين والإغريق في الجزر البحرية اليونانية في المتوسط وعلى شواطئه في شمال أفريقية، وشواطئه الشرقية عندما نجح الأسكندر المقدوني في غزوه للشرق ومن ضمنه صور على الساحل الفينيقي في القرن الرابع قبل الميلاد، وصولاً إلى الحروب البونية الثلاثة بين قرطاجة وروما، حيث انتصرت روما انتصاراً نهائياً على قرطاجة في معركة زاما سنة 202 ق.م مغلقة بذلك فصلاً مثيراً في التاريخ البشري؛ تاريخ قرطاجة والقرطاجيين سادة البحار. لذلك كانت قرطاجة مركز حضور الفينيقيين في الغرب لعدة قرون حتى سواها الرومان بالأرض سنة 146 قبل الميلاد.

إذن، دامت مملكة قرطاجة منذ بداياتها الأولى حتى انتهت ككيان سياسي وحضاري قرابة ستمائة سنة أو أكثر (814-146) ق.م. إلا ان المؤرخ الروماني أبيانوس (أبيان) قدر عمر قرطاجة بسبعمائة سنة، في حين قدر المؤرخ الإغريقي تيمايوس تاريخ تأسيسها بعام 814 ق.م، وقدر المؤرخ اليهودي يوسفوس تاريخ هروب إليسا بمائة وخمس وخمسين سنة من ارتقاء حيرام حليف النبي داوود وابنه سليمان، بحيث يتطابق ذلك مع سنة 826 ق.م تقريباً؟ ووضع المؤرخ الصقلي فيلستوس الذي عاش في القرن الرابع ق.م تقديراً بعيداً جداً عن القرن التاسع قبل الميلاد، حيث أرخ تاسيس قرطاجة بأقل من مائة سنة تقريباً قبل سقوط طروادة دون أن يحدد تاريخ السقوط، وهذا يعني أنه كان في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد إذا أخذنا بتاريخ السقوط الفعلي لطروادة، وهذا تاريخ لا يتوافق مع حقيقة التأسيس. ويذكر أن ابيان قدر عمر قرطاجة بسبعمائة سنة بدءاً من خمسين سنة قبل سقوط طروادة الذي وضع له تاريخ 800 ق.م، بذلك يمكن قبول تقدير فيلستوس الذي ربما اعتمد تقدير أبيان (غير الحقيقي) لسقوط طروادة.

ما توصل إليه علم الحفريات والآثار لم يدعم منتصف القرن التاسع قبل الميلاد أو نهايته كتاريخ لتاسيس المدينة، فبعد سنوات من الحفريات والتنقيب نجح الآثاريون بالوصول إلى اكتشاف أقدم بناء في المدينة حيث وجدوا فيه معبداً للصلاة كرس للإلهة تانيت. كما وجدوا في أدنى مستوى من المعبد شكلاً مستطيلاً صغيراً مع بقايا فازات إغريقية التصميم مؤرخة بنهاية الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد. وتعد هذه الآثار أقدم متروكات بشرية في الموقع. مع ذلك فإن عالم الآثار سينتاكس يعتقد بوجود بقايا تعود إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. بينما يرى معظم الباحثين أن تاريخ التأسيس ربما تمت المبالغة في تقديره، إذ يرجحون 725 ق.م كتاريخ تأسيس للمدينة، بذلك يكون تاريخ سقوط طروادة كما رآه أبيان وفيلستوس في الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد؟ ولذلك، فإن تاريخ هذا السقوط مشكوك في صحته.

رواية الشاعر اللاتيني فيرجيل في "الإنيادة"

بعد أكثر من سبعمائة سنة من موت إليسا كتب الشاعر اللاتيني فيرجيل (70-19) ق.م قصتها الأسطورية في ملحمته البطولية الشهيرة التي سماها الأنيادة Aeneid. والإنيادة ملحمة بطولية شعرية مثيرة وملهمة، جاءت في اثني عشر كتاباً، تتحدث الستة الأولى عن ترحال وتجارب آينياس (آينيس) Aeneas بعد سقوط طروادة، ماراً بقرطاجة. بينما تتحدث الكتب الستة الأخرى عن حروب اللاتيوم بين آينياس وتورنوس وأتباعهما. وقد أقام فيرجيل ملحمته على أساس ملحمتي الإلياذة والأديسة لهوميروس، ونجح في إنشاء ملحمة كلاسيكية تتسم بالنضج والشمولية والجمال الأدبي الأسطوري. لكنه جعل القدر والآلهة تهيمن على ما يجري من أحداث، وذلك بأن جعل القدر يتحكم بالصعود الروماني للسيطرة على العالم، وبصراع الآلهة الفردية المتسم بسلوك بشري على هذا القدر.

خالف فيرجيل حقائق التاريخ الزمنية، ليس بسبب جهله بها، فربط الماضي البعيد بالحاضر والمستقبل بشكل أسطوري جعله يقترب من عقل القارئ، وذلك لهدف سياسي متعمد لخدمة خطته وهدفه. فجعل آينياس يتوقف في قرطاجة بعد سقوط طروادة ورحيل هروبه عنها.

سجلت ملحمة الإلياذة لهوميروس أحداث الحرب الدموية بين الطرواديين والمكينيين (المسينيين) الإغريق على خلفية اختطاف الأمير الطروادي باريس لهيلين زوجة مينلاوس ملك أسبرطة وشقيق أغاممنون ملك المكينيين، مما أدى إلى حصار طروادة لمدة عشر سنوات، لم يستطع المكينيون فتحها إلا بحيلة الحصان الخشبي (حصان طروادة)، فقتلوا السكان ودمروا المدينة ونهبوها وأشعلوا فيها النيران. وتتناول ملحمة فيرجيل قصة البطل الطروادي آينياس بن أنخريس وأفروديت إلهة الحب والجمال عند الإغريق ببراعة فائقة. حيث بقي آينياس هائماً لسنوات طويلة بعد سقوط طروادة حتى استقر به المقام في المكان الذي بنيت عليه روما. ويعد آينياس الجد الأول للرومان حسب الأسطورة.

وتتطابق رواية ديدو فيرجيل مع رواية إليسا التاريخ بهروبها من صور خوفاً من بطش أخيها، فتصل قرطاجة وتستأجرالأرض من ملكها وسكانها. وقد جعل فيرجيل بطله الأسطوري الهارب من طروادة المحترقة والمهزومة يصل إلى قرطاجة ويتعرف على الملكة إليسا فتقع في غرامه وتحبه حباً عنيفاً يمتلك عليها عقلها وقلبها وجميع حواسها بحيث أنها نسيت واجباتها تجاه شعبها. ولأنَ الآلهة كانت قد قررت سلفاً خططاً لآينياس ليقوم بواجبه المقدس بإنشاء طروادة جديدة، وليكون الجد الأول للرومان. لذلك، واستجابة لقرار الآلهة قرر آينياس خداعها بالرحيل عن قرطاجة تاركاً الحبيبة إليسا تعاني من جنون حبها له؛ حب إليسا المرفوض. إذ لم تجد أمام رحيله المحتم إلا أن تلقي بنفسها في أتون النيران المشتعلة، وأنها لم تعد قادرة على تسيير أمور شعبها لطغيان حالة من اليأس

القاتل لفراق آينياس، وأنها لم تكن أمام محنتها في رحيله قادرة حتى على اختيارمن يخلفها في إدارة شؤون المدينة! وهنا يظهر التضمين واضحاً ليقول بأن حرص ديدو على سعادتها ومصلحتها الشخصية أدت بها إلى الدمار، بينما ضحى آينياس بحبه وسعادته الشخصية على مذبح المصلحة العامة. وهذا درس مبين ابتغاه فيرجيل ليقول بأنَ على السياسي أن يضحي بكل الروابط الشخصية عندما تقتضي الضرورة ذلك. فلكي تولد المدينة الجديدة (روما) لا بد أن تسقط شعوب ومدن أخرى ضحايا على مذبحها.

إذاً، قد تتطابق رواية فيرجيل عن إليسا: ديدو في البدايات مع معظم الروايات التاريخية، ولكنها تختلف في النهايات والمعاني!

جعل الشاعراللاتيني فيرجيل (بوبليوس فيرجيليوس مارو)، وهو يكتب ملحمته في القرن الأول قبل الميلاد، آلهة آينياس تقرر تمديد إجازة هروبه وتطوافه وترحاله لعدة قرون حتى يلتقي بإليسا في قرطاجة. إذ أنَ حروب طروادة وسقوطها كان في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد تاريخياً أو ربما أبكر قليلاً، وتأسيس قرطاجة التاريخي كان سنة 814 ق.م تقريباً، أي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع قبل الميلاد، وهذا تناقض تاريخي هائل! أو أنه جعل تاريخ حروب طروادة تقع بعد تاريخ وقوعها الحقيقي بأربعمائة سنة تقريباً ليتوافق مع تاريخ ملحمته!

إذا كانت الاعتبارات التاريخية تؤكد حقيقة إليسا التاريخية وليس الأسطورية، فإنها عندئذ ستدحض رواية فيرجيل بالتقاء إليسا بآينياس. لأنَ آينياس شارك في حرب طروادةً التي اتفق على تاريخ حدوثها بين القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وهذا فرق زمني كبير لبقاء آينياس حياً حتى يلتقي بإليسا. وحتى لو أخذنا التاريخ الذي حدده المؤرخ ديفيد روهل لحرب طروادة في العام 864 ق.م يكون عندها آينياس قد بلغ من العمر سبعة وسبعين عاماً عند هروب إليسا من صور سنة 825 ق.م، وثمانية وثمانين عاماً عندما بدأت إليسا ببناء قرطاجة سنة 814 ق.م. وهذا برهان واضح على خروجه عن منطق الوقوع في الأسر الرومنسي لأحدهما بالآخر، والذي يتحدث عنه فيرجيل!

لم يكن ينقص فيرجيل إلا أن يقنعنا بجعل الآلهة تقرر راضية تمديد إجازة آينياس لمدة أربعمائة عام أو أكثر يقضيها في جزيرة نائية عليها عروس من عرائس الخيال تحتفظ بجمالها وشبابها وحيويتها كل هذه المدة لإرضاء شباب آينياس المتجدد لهذه المدة الزمنية الطويلة قبل وصوله إلى قرطاجة!

استمد فيرجيل قصة ملحمته من قصة "بعل الفينيقي" التي كتبها نيفيوس في نهاية العصر الروماني الجمهوري. وقد حول فيرجيل قصة إليسا من بطولة ملكة كرست نفسها وحياتها لخدمة أهدافها السامية في بناء مدينة ودولة جديدة لشعبها إلى امرأة مهمومة بحبها المحبط والمرفوض واليائس لآينياس. وذلك من أجل أن يخدم فكرته الأساسية بأنَ الحروب والعداء بين الشعبين: الروماني والفينيقي (القرطاجي)، هو بين الحق والباطل،

بين الخير والشر، بين الواجب والرغبة - المقولة الغربية التي لا تتغير على مر العصور والأزمان- حتى أنّ الحب السامي الذي حملته ديدو لم يغير من هذا العداء شيئاً! وقد صور فيرجيل انتحار إليسا ليس كموت نبيل من أجل الحب بل صاحبته لعنات إليسا على البطل الطروادي - اللاتيني الراحل. وهنا يؤسس فيرجيل لأسباب العداء بين روما وقرطاج في حروبهما الطويلة والدامية بوضع اللوم على لعنات امرأة قرطاجية شعرت بإحساس عظيم من مرارة الرفض والاحباط! وهذا يعني أنّ عرض فيرجيل للصورة هو عرض روماني تبريري لأسباب العداء والحروب التي شنتها روما على قرطاجة، وأنّ الرومان كانوا يدافعون عن ذوات أنفسهم وعن مصالحهم ضد القرطاجيين الجشعين المولعين بشن الحروب والقتال! لذلك كان ضرورياً أن يرسم فيرجيل صورة خاصة ومختلفة لإليسا، حتى أنه عمد لتغييراسمها إلى ديدو (الرحالة وليست المقيمة، مما يعني أنّ أرض قرطاج ليست أرضاً قرطاجية)، لتلتقي مع رؤيته الرومانية المتناسبة مع ما يريد قوله!

أدخل فيرجيل تعديلات جوهرية في التفاصيل عند إحضار آينياس وفريقه إلى قرطاجة، بحيث جعل آينياس وديدو يقعان في الحب بناء على الرغبة المشتركة لجونو وفينوس[1]، مع اختلاف أسبابهما. وعندما علم الملك إيارياص المنحدر من نسل جوبيتر، بوقوع ديدو بحب آينياس، وهي التي رفضته، طلب من جوبيتر أن يأمر برحيل آينياس من قرطاجة من أجل أن تعاني إليسا من فراقه.. التقاء لرغبات الآلهة والمنحدرين منها!

أرسل جوبيتر ميركوري إله الفصاحة والتجارة ومبعوث الآلهة للقاء آينياس وإعلامه بأوامر جوبيتر، فما كان منه إلا أن يطيع. وقد أبلغ ميركوري آينياس بالأرض الإيطالية الغنية بالسمن والعسل وكل شئ، وما على آينياس إلا أن يحزم حقائبه ويرحل عن قرطاجة تاركاً حبيبته لمعاناتها القاتلة.

لم تعد ديدو قادرة على العيش بعد رحيل آينياس، فطلبت من أختها آنا إعداد موقد مقدس كبير متظاهرة بأنها ستقوم بإحراق كل متعلقات ومتروكات آينياس في النيران بما فيها غرفة نومهما.

عند رؤية ديدو آينياس وهو يرحل صبت عليه وعلى جميع نسل طروادة لعناتها، ودعت الآلهة لتأجيج العداء باستمرار بين قرطاجة وأحفاد آينياس، كأنما تنذر بوقوع الحروب البونية بين الطرفين. ثم بدأت بالهبوط نحو النيران الملتهبة، وبحركة غيرمتوقعة ألقت بنفسها فوق سيف آينياس، فارتفعت صرخات الفزع من الحاضرين، وبسرعة سحبت آنا أختها إليسا واحتضنتها وهي تنازع سكرات الموت. فأسرعت جونو بإرسال إيريس Iris إلهة قوس قزح ومرسال الآلهة هابطة من السماء لإنقاذ روح ديدو من جسدها الذي يحترق. وعلى البعد رأى آينياس وفريقه وهم على مسافة في البحر ألسنة اللهب تنطلق من محرقة ديدو، فقدروا ما كان يحصل!

[1] - كانت جونو من أهم الآلهة الرومانية وزوجة جوبيتر كبير الآلهة في المجمع الوثني الروماني، وكانت فينوس إلهة الحب والجمال عند الرومان.

وقد علق بعض الباحثين على تضمين رواية انتحار ديدو بهذه الطريقة إلى التلميح بأنّ آخر ملكة قرطاجية عند إحراق الرومان لقرطاجة ونهبها وتسويتها بالأرض سنة 146ق.م لاقت المصير نفسه. وأنّ نهاية قرطاجة المحتومة كانت قد قررتها ديدو عند تأسيسها للمدينة، وأنّ ماقام به الرومان هو أنهم دفعوا أذى القرطاجيين عن روما ليس إلا. ويمكن النظر إلى ما جاء في "الكوميدية الإلهية" لدانتي بما مثلته استمراراً للرؤية الإيطالية في القرون الوسطى بمخزونها الثقافي؛ بأن وضع دانتي ديدو في الدائرة الثانية من الجحيم. فهي ملعونة لعنة أبدية تعاني في قلب الجحيم بسبب شهوتها العدائية العارمة. ويمكن التخمين أيضاً إلى أنّ ديدو ربما مثلت في الأعين الرومانية القديمة وربما الحديثة[1] الامتعاض وربما الرفض من صفات سيرتها الشخصية بمؤهلاتها الأنثوية الشرقية، وأصولها السامية، والحضارة الآسيوية – الأفريقية التي حملتها.

التقى آينياس بديدو في العالم السفلي، وحاول الاعتذار عما فعله، لكن ديدو لم تلتفت إليه، بل استدارت إلى بستان ينتظرها زوجها سيخايوس فيه. وهذا يعني أن ديدو بقيت في الحالتين: تاريخياً وعند فيرجيل، وفية لزوجها سيخايوس، إلا أن فيرجيل جعلها تتعذب استغفاراً لوقوعها بحب آينياس!

إنه الشعر، الملحمة، الأسطورة، التي لا تحتفي بمنطق الحوادث، وإنما برسم صورة وطنية بطولية تخدم بناء تكوين فكرة الدولة- الأمة (الامبراطورية) عند فيرجيل؟ فقد بدأ ملحمته بقوله: "للسلاح أغني، وللرجل الذي كان أول من جاء به القدر طريداً من شواطئ طروادة إلى ايطالية وشواطئ لافينيوم". لقد لجأ الشاعر ببراعة أدبية إلى توظيف الأسطورة في ملحمته وحملها بالكثير من الدلالات التاريخية والسياسية، رابطاً بشكل وثيق بين الأسطورة والتاريخ، فأصّلَ بشكل ملحمي وتاريخي للجنس الروماني مستمده من أصول طروادية، وخاصة من السياق الملحمي في أسطورة الإلياذة لهوميروس، فنجح أيما نجاح في دمج واقع تاريخي روماني متخيل بالأسطورة منفتحاً إلى آفاق واسعة على مسار التاريخ الروماني بدءاً من تأسيس روما. وما الشعر الذي وضعه فيرجيل على لسان شبح والد آينياس (الكتاب السادس) إلا تكريساً للصورة التي يريدها فيرجيل أن تكون عليها إيطالية المستقبل، إذ يقول شبح أنخريس لولده آينياس: "اسمع يابني، لسوف تملأ روما، تلك المدينة المشهورة، الأرض بإمبراطوريتها والسماء بقوتها. فوجه ناظريك لترى هذه الأمة، الأمة الرومانية، أمتك. فها هو قيصر وجميع سلالة يوليوس التي ستترعرع تحت هذه السماء الواسعة. وهاهو البطل الذي طالما سمعت عنه: أوغسطس قيصر بن المؤله (يقصد أوكتافيوس بن يوليوس قيصر بالتبني) الذي سيعيد العصرالذهبي إلى سهول لاتيوم وحقوله". كما نجح فيرجيل في تصوير نهاية ديدو لتكون من ضحايا قوة وعظمة روما المستقبل. وبذلك فنهاية ديدو هنا إنما تمثل استباقاً مبكراً لنهاية قرطاجة.

---

[1] – نظر الحكم الفاشي في ايطالية أيام موسيليني إلى ديدو كشخصية شيطانية معادية للرومان.

من الجدير ذكره أن آينياس لم يؤسس روما، حتى أنه لم يشر إلى نفسه بهذا الوصف، ولم يذكرها أبداً، وإنما هو من أسس مدينة لافينيوم، ومن نسله جاء رومولوس بعد أكثر من ثلاثمائة عام ليؤسس روما.

وضع فيرجيل مهمة إخبارقصة إليسا إلى آينياس (آينيس)، بطل ملحمته، على لسان فينوس[1] عند وصوله قرب شاطئ قرطاجة، والتي جعلتهما يلتقيان ويقعان في الحبّ:

أترى قرطاج التي يقطنها الصوريون؟
إنها مدينة إيجية[2]، الليبيون العنيفون يشنون غاراتهم على حدودنا!
ديدو ملكة لمملكة تركتها هناك في مدينتها صور
هربت خوفاً من أخيها بعد طول معاناة وأسف مما حدث
مع ذلك، فسأروي قصتها بكل صراحة ووضوح
كانت عروساً لسيخَايوس الرجل الذي عدّ الأغنى
المالك لأراضٍ في صور، والذي أغرمت به المسكينة ديدو
امرأة في عذريتها المزهرة ارتبطت بتعهد والدها بخطبتها
بزواج ذي فأل وضاء؛ لكنّ أخيها اعتلى ليحكم الصوريين
حكم أخوها الملك بيجماليون على صور كوحش شرير
نشأ نزاع قاس في بيت المُلك، وبالجشع أعميت البصيرة
فأهمل حب شقيقته، وتحدى الإله في السماء
فقام بذبح سيخَايوس في مذبح الإله دون أن يراه أحد
وأخفى جريمته لمدة طويلة، وقدم حججاً مختلقة لموته
وبوضاعة ضلل شقيقته ومد قلبها المكسور بالأمل
لكن ظهر شبح زوجها في المنام خارج مدفنها
اقترب ورفع راسه بوجه غريب وشحوب غير طبيعي
فأشار إلى بقع الدم على المقام وصدره المطعون بالسيف
وكشف بوضوح عن السر المشين لبيتها وشقيقها
ثم ناشدها أن تسرع في الهرب من البلاد، وأخبرها
بمكان ثروته المدفونة في الأرض لمساعدتها في هربها
ذهبٌ لا يقدر وزنه، وفضةٌ لا تقدر قيمتها
ذعرت ديدو من الحلم. وبدأت تستعد مع فريقها للهرب
فجمعت إلى جانبها كل من يمقت أخيها الطاغية الذي لا يرحم

---

[1] – Virgil, Aeneid 1.335-1.368 (.. من ملحمة فيرجيل: آينيد ؛ من 1– 335 إلى 1– 368).
روى شوسير في كتابه "أسطورة النساء المشهورات.. ديدو ملكة قرطاجة"، ترجمة سارا جاسمون: "صفقت فينوس، دون أن يراها أحد، مشيرة إلى كيوبيد للقيام بواجبه المقدس لإيقاع ديدو في غرام ابنها الخالد آينياس".
The Legend of Dido, The Queen of Carthage, as recorded by Geoffrey Chaucer in "The Legend of Good Women", trans. By Sarah Jasmon.

[2] – جعل فيرجيل من قرطاجة مدينة يونانية! والليبيون يعتدون علينا! فبلاد ديدو في صور وليس في قرطاج!

وكل من شعر بالرعب. فصعدوا إلى مركب في الميناء حجزوه
وملؤوه بالذهب، الذي يعده الخسيس بيجماليون ذهبه لو أمسك به
وبعيداً عنه طفى على سطح الماء؛ وهذا كله كان من عمل امرأة
حتى وصلوا إلى المكان الذي ترى الآن أسواره العظيمة الفخامة
وأبراجه العالية المنيعة؛ قرطاج المدينة المولودة حديثاً، حيث
اشتروا بعد ذلك موقعاً سموه بيرصا[1] توافقاً لمقايضتهم التي
تسمح لهم بأكبر مساحة يسعفهم ذكاؤهم بقدر مساحة جلد ثور

وجدت كتابة على صخرة في جزيرة سردينية (صخرة نورا) قام بترجمتها فرانك مور كروس، تقول أنّ الملك بجماليون استخدم هذه الصخرة لتسجيل انتصاره على السكان المحليين للجزيرة. وقد تبين أنّ الخط التصويري الموجود على الصخرة يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد. فإن صحت ترجمة كروس لصخرة نورا فإنها عندئذ تمثل شاهداً وثائقياً يثبت وجود ملك اسمه بجماليون في صور في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد حدد بعض الباحثين اسم ملك صور بعل آزور (بعل إزر أو بلزيروس جد إليسا) الذي قدم الجزية للملك الآشوري شلمنصر الثالث سنة 841 ق.م. وقد أورد فيرجيل في ملحمته اسم بيلوس والد ديدو وهي عادة قديمة باختصار الأسماء إلى اسم المقطع المقدس من الاسم فقط إشارة إلى جدها بعل إزر الثاني أو بلزيروس.

تتطابق رواية فيرجيل بشكل عام مع خلاصة بومبيوس تروغوس الواردة في "التاريخ الفيليبي"، ما عدا إدخاله لقصة آينياس ومرافقيه إلى قرطاجة والتقائه بإليسا. كما يشارإلى والد إليسا بيلوس الذي أطلق عليه الباحثون فيما بعد بيلوس الثاني تفريقاً له عن بيلوس بن بوسيدون وليبية في الأسطورة الإغريقية. وإذا كانت رواية إليسا تقف على أرضية واقعية ومتزامنة بشكل أقرب إلى الواقع التاريخي، يكون عندئذٍ بيلوس هو متان الأول ملك صوروالد إليسا وبجماليون.

تبين دراسة غيرهارد هيرم في كتابه "Die phonizier, 1974"، والتي أسسها على الأعمال الأدبية الكلاسيكية لفيرجيل وأوفيد وسيليوس إتاليكوس، صحة الرواية العامة لديدو. وهو يرى أنّ ديدو خلال حياة الترمل كانت محط أنظارالملوك المحليين للزواج بها .ويستشهد غيرهارد برواية سيليوس إتاليكوس (إطاليكوس) من أنها تزوجت على الغالب من أحد تابعيها الفينيقين، الذي ربما كان من عائلة برقا / باركا المشهورة في التاريخ القرطاجي[2].

قامت ديدو، حسب نص فيرجيل، بإصلاحات دينية مهمة، وانحازت للعمل على تشكيل رؤية سياسية جمهورية في قرطاجة (Virgil,Aenead,1.426). وقد أُلهت ديدو بعد موتها حيث أطلق عليها اسم الإلهة "تانيت" التي استمرت قداستها حتى تدمير

---

[1] – جلد الثور باللغة الفينيقية. وما يزال الاسم نفسه يطلق على المكان.
[2] – Punica, 1.71f ,2.239

قرطاجة سنة 146ق.م. وقد انتقلت عبادة تانيت إلى روما خلال فترة الامبراطور سبتميوس سيفيروس (193-211م) ذي الأصول الليبية، الذي ولد في لبتس ماغنا (لبدة الحالية على الساحل الليبي).

عرفت إليسا بذكائها ودهائها، حيث استطاعت إنشاء دولة فينيقية عظيمة في الشمال الأفريقي عرفت بتجارتها الواسعة وسيطرتها على البحر المتوسط. وأمن لها تصاهرها مع البربر عمقاً متيناً مع سكان البلاد فتشكل الشعب البونيقي الذي استعمر سواحل المتوسط وأنجب هانيبعل.

عرفت إليسا بعدة أسماء، وذلك حسب الحضارة التي تناولت سيرتها؛ فسميت في إنياذة فيرجيل بديدو، وترجمت إلى العربية باسم ديدون، وإليسا التي يعتقد أنها كلمة فينيقية تعني أليشات، وعرفت أيضاً بتوحيد الاسمين: إليسار- ديدون (الرحالة ديدون)، ويسميها اللبنانيون إليسار أو عليسة (عليشة).

بقيت ملحمة ديدو وآينياس، والتي اتسمت برؤية إنسانية عامة مثلت الصراع بين الحب والواجب، شائعة ومثيرة خلال فترة ما بعد عصر النهضة، وصارت أساساً للكثير من المسرحيات والأوبريات الغنائية، وأوحت قصتها للشاعر الانكليزي كريستوفرمارلو بنظم مسرحيته الغنائية الرائعة"ديدو ملكة قرطاج".

الجذور الاجتماعية والسياسية للدولة الجديدة

بينما كانت قرطاجة تتكون كمدينة - دولة كانت مدينتها الأم صور وقبلها صيدون على الساحل السوري تتعرض لتهديد الغزوالآشوري في القرن التاسع قبل الميلاد. لذلك وجد الفينيقيون أنفسهم يفرون باحثين عن أماكن آمنة لهم في المستعمرات الفينيقية على شواطئ المتوسط، والتي كان من ضمنها المستعمرة الجديدة قرطاجة التي كانت تزداد اتساعاً وازدهاراً. بحيث ازدهر سكانها من التجارة واستخراج الفضة من المناجم الموجودة في شمال أفريقية وجنوب إسبانية. وكان حصولهم على جميع الحقوق المدنية والسياسية يتم بشكل سريع ودون عقبات. فكتب ديودورس الصقلي، في القرن الأول الميلادي، معتمداً على المؤرخ الإغريقي تيمايوس Timaeus (340/356؟-250) ق.م: "إن الفينيقيين الذين كانوا منذ زمن بعيد يبحرون باستمرار بقصد التجارة، نجحوا في تأسيس مستعمرات ومراكز لهم ابتداءً من الساحل الليبي وعلى امتداد الساحل الأفريقي للمتوسط حتى الأجزاء الغربية الجنوبية من أوربة، وأن ما حققته التجارة كان الحافز الأساسي الذي أدى إلى خلق تلك المستوطنات". وتتفق المصادر الأدبية والآثارية في أن أقدم مستوطنة أفريقية بناها فينيقيو صور، هي أوتيكا، وبعدها قرطاجة، ثم سوسة (هادرومانتوم)، وتيبازا ومرسى مداخ في غرب الجزائر، وبعض المراكز على طول الساحل المغربي على المحيط الأطلسي. كما اتجه الفينيقيون إلى إسبانية، حيث كتب ديودورس الصقلي: ".. جمع الفينيقيون ثروات عظيمة، وعزموا على مواصلة إبحارهم إلى ما وراء

أعمدة هرقل، في البحر المسمى المحيط، فبنوا أول الأمرمدينة غادير (أغادير) على مقربة من المضيق. كما أبحرالملاح القرطاجي الشهير حنون في النصف الأخير من القرن الخامس ق.م إلى أبعد نقطة على الساحل الغربي للسنغال. وقد سجل رحلته "رحلة هانو (حنون) البحرية Hannonis Periplus" باللغة الفينيقية على صفائح الشبهان ووضعها في معبد الإله كرونوس (ايل الفينيقي) في قرطاجة. وقد قام بترجمة هذه الوثيقة عن اليونانية فالكونر سنة 1797م، والتي تعد من أقدم الوثائق التاريخية في علم الجغرافية. وتبين الوثيقة الغرض من الرحلة / الحملة التي تكونت من ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء ابحروا عابرين مضيق أعمدة هرقل في اسطول مؤلف من ستين سفينة لتأسيس مستعمرات فينيقية على الساحل الأفريقي الغربي الشمالي للمحيط. وأسسوا خلال هذه الرحلة سبع مستعمرات أبعدها إلى الغرب مدينة قرنة على إحدى الجزر القريبة من الساحل المغربي، ثم أكمل مبحراً حتى وصوله إلى بحرٍ يمور بالحيوانات النهرية (ربما كان نهر السنغال). وبهذه الرحلة بدأت تقاليد الحكايات الخرافية عن الوحوش الخرافية الغريبة الأشكال والأخطار الموجودة إلى الغرب من أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق). وأبحرت أواسط القرن الخامس قبل الميلاد. بعثة تجارية تحت إمرة البحارالقرطاجي عملقون، فبلغ الجزرالبريطانية بغرض البحث عن المعادن.



لوحة تمثل ديدو (إليسا) وآينياس بريشة الفنان بيير نارسيس غورين عام 1815 م

وقد أشار بعض الباحثين إلى وصول الفينيقيين الغربيين لما وراء المحيط الأطلسي في الأمريكتين[1].

حافظ الإغريق على تدفق مستوطنيهم إلى جزر وسواحل البحر الأبيض المتوسط، واستطاعوا، في البلاد التي أطلق عليها اليونان الكبرى، التغلب على جميع شعوبها، فاضطرت معظم هذه الشعوب، وخاصة الايطالية منها إلى الاندماج بالإغريق وأقتبسوا عنهم اللغة والحضارة. على أنّ أهم وأقوى هذه الشعوب في القرن السادس كان الأتروسكيين الذين سكنوا وسط ايطالية بين نهري التيبر والأرنو في الأساس، وانتشروا إلى مسافات أبعد من ذلك شمالاً وجنوباً. واشتهروا بالثروة والمهارة في التجارة والملاحة والقرصنة. واتصلوا باليونانيين بقصد التبادل التجاري. لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا خطر الطموحات اليونانية على مجمل بلاد الجزيرة الايطالية، فأخذوا يقاومونه، وتحالفوا مع الفينيقيين في قرطاجة. كما تراجع السكان الأصليون في صقلية من المناطق الشرقية، تحت ضغط الإغريق، والتجأوا إلى الزاوية الغربية من الجزيرة المقابلة لقرطاجة محتمين بالفينيقيين الذين بدؤوا يبرزون كقرطاجيين تولوا زعامة الفينيقيين في الغرب. وقد بقي تاريخ النزاع في صقلية لعصور بين الإغريق والفينيقيين (القرطاجيين) قبل أن يتحول ليصبح بين روما وقرطاجة بعد خروج الإغريق من مسرح الصراع في المتوسط.

بدأ الفينيقيون بتأسيس مراكزهم ومستعمراتهم على شواطئ المتوسط الغربية منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو ربما أبكر من ذلك، فصارت لهم مراكز هامة في أفريقية وإسبانية ومالطة وسردينية وصقلية، حيث كانوا يحتلون الرؤوس البحرية البارزة والجزر الصغيرة قبل قدوم الإغريق. إلا أنَ قرطاجة لم تبلغ درجة كافية من القوة تمكنها من مجابهة التوسع الإغريقي في الغرب إلا بعد بدايات القرن السادس قبل الميلاد. والظاهر أنَ العلاقات الفينيقية الإغريقية كانت على درجة مقبولة من التوافق الحذر، إذ لم يذكر القرن السابع ق.م أي صدام بينهما. ويبدو أنَ الطرفين تجنبا المناطق التي يسيطر عليها الطرف الآخر. وهكذا لم يظهر وجود مستعمرات إغريقية في أفريقية الشمالية إلى الغرب من قرطاجة، كما لم يظهر مستعمرات فينيقية في ايطالية الجنوبية.

بالمقابل شجعت قرطاجة المهاجرين من صور والدول المحيطة بصور، بعد سقوط صور بيد الآشوريين، على تشكيل جبهة موحدة ضد الإغريق. وما أن جاء منتصف القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت قرطاجة قد اصبحت جوهرة المتوسط، بحيث استطاعت إحراز انتصارات متعددة على الإغريق، فجعلتهم أصحاب القرار، بينما الإغريق في موقف الدفاع. لذلك استمرت قرطاجة في بناء المراكز على طول سواحل وجزر المتوسط بحيث تطورت هذه المراكز إلى موانئ ومدن من أجل حماية تجارتهم وتوسعهم، حتى أصبحت قرطاجة في نهاية القرن السادس قبل الميلاد العاصمة بدون منازع على المنطقة الساحلية

---

[1] – فضول العالم: "الفينيقيون... وأمريكا"، ترجمة وتحقيق د.عبدالله الحلو، دار فكر للأبحاث– بيروت. انظر أيضاً كتاب أميل إده: "الفينيقيون واكتشاف أمريكا"، دار النهار – بيروت.

من الحدود المصرية الليبية من مدينة قرنة الساحلية التي كان يحكمها الإغريق، حتى نوميدية (الجزائر). وسجل أول صدام بين قرطاجة والإغريق في صقلية سنة 580 ق.م، بدأت قرطاجة بعدها مهمة إيقاف التوسع الإغريقي في غرب المتوسط. حيث يدل هذا على أنّ دور قرطاجة في ميدان السياسة أخذ بالبروز في منتصف القرن السادس قبل الميلاد.

فاجأ الملك آشور ناصربال الثاني (884-859) ق.م اقطاعية إرواد وبقية الساحل الفينيقي، ثم تلاه شلمنصر الثالث (859-824) ق.م في جبهة عريضة شملت الفينيقيين حتى نهاية الساحل الفلسطيني والعموريين معاً. ثم جاء تغلات بلاسر الثالث (745-727) يقود جيشه في استعراض مهيب أمام أسوار المدن الفينيقية، وأرغم صيدا وصور وبعلبك على دفع الجزية، وفي أخر المطاف تم تدمير صور على يد البابلي نبوخذ نصر الثاني (605- 562) ق.م. وكان من نتائج تعرض المدن الفينيقية لهذه الغزوات، أن ركبوا سفنهم وغادروا في هجرات جماعية تحت ضغط الآشوريين، الذي استمر لعدة قرون، مبحرين نحو الغرب على طول الساحل الجنوبي للمتوسط، وكلما وجدوا مرفأً مناسباً يصلح لرسو سفنهم عرجوا عليه وأقاموا فيه مركزاً تجارياً أو محطة لإصلاح سفنهم وتزويدها بما يلزمها.

اخترقت القبائل الليبية تحصينات الدولة المصرية واستوطنت الدلتا في نهاية عصر الأسرة الفرعونية الحادية والعشرين الضعيفة. واستطاع شيشنق Shishak أكبر وأقوى زعيم للقبائل الليبية أن يستولى على الحكم في مصر وأن ينشئ حكم الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، ثم جاء حكم الكوشيين بعد ذلك. وقد تمكن حكم الأسرتين لمصر من إنشاء اسطول مرهوب الجانب فرض حمايته على الساحل الأفريقي من جنوب فلسطين حتى المنحنى العظيم عند خليج سرت الحالي، واستمر الليبيون في مصر إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. وكان الإغريق حينها يتقدمون ببطء باتجاه إسبانية بعد أن فرضوا سيطرتهم على سواحل أوربة الجنوبية، ولم يكن ثمة خيارات كثيرة أمام الفينيقيين سوى تجنب الصراع مؤقتاً مع هذه القوى الصاعدة بأن يكتفوا بإلقاء مراسيهم في مناطق الساحل الأفريقي الشمالي الآمنة. وقد بدا موقع قرطاجة لهم، وهم البحارة المهرة العارفين باستراتيجيات المواقع البحرية، موقعاً مناسباً من جميع الوجوه لإنشاء مركزهم البحري الرئيسي عليه.

تمكنت قرطاجة إذاً من أن تصبح تدريجياً عروس المتوسط. ولما صارت مراكز المستوطنين التي أسسها الفينيقيون من اهل صيدا وصور وغيرهما في جزيرة صقلية وإسبانية تحت تهديد الإغريق طلبوا الحماية والمساعدة من قرطاجة. ثم أصبحت السيادة بعد ذلك للقرطاجيين في غرب المتوسط، وتم طرد الإغريق من جزيرة صقلية، فأسس الفينيقيون مراكزهم على طول سواحل جزيرة صقلية والجزر المجاورة حتى

شواطئ شبه الجزيرة الأيبيرية الشرقية. وقد اندلعت أولى المعارك بين اليونانيين والقرطاجيين بدأ من سنة 580 ق.م.

تحالف القرطاجيون وملكي صيدا وصور مع الفرس لاجتياح بلاد اليونان، غير أنَّ الحرب أظهرت اليونان على المتحالفين سنة 480 ق.م في سلاميس وهميرة (حميرة) على الشاطئ الشمالي لصقلية بانتصار ساحق خلد في التاريخ الأدبي الإغريقي. وقد أثرت هذه الهزيمة تأثيراً كبيراً على سياسات قرطاجة.

استمرت قرطاجة بنشاطها التجاري المعتاد، وهي تخطط لحرب جديدة ضد الإغريق في 409 ق.م. لكن الإغريق لم ينجحوا في محاولاتهم العديدة لإستعادة السيطرة بشكل كامل على صقلية فيما بعد، واستمرت الحروب لمائة سنة وفي أوقات مختلفة بين الطرفين. وفي النهاية ظهر الإعياء على الطرفين وبدا أنه يمكن هزيمتهما وإنهاء سلطانهما على البحر الأبيض المتوسط.

احتل الأسكندر المقدوني الشرق سنة 333-330 ق.م ومن ضمنه صور التي عرفت بالغنى العريض والثروة الطائلة والبأس الشديد لمقاومة الخضوع والاستسلام، فاستباحها ودك معالمها، بعد أن رفضت بإباء شديد السماح له بدخولها. وقتل الآلاف من سكانها وساق عشرات الألوف منهم إلى سوق العبيد لأنَّ المدينة قاومت ببسالة حصاره الذي استمر لسبعة أشهر. ولذلك لم يعد القرطاجيون يأملون بأي دعم يأتي من الشرق بعد ذلك. لذلك، صارت مسؤولية الدفاع عن المستعمرات الغربية تقع بالكامل على عاتق قرطاجة التي استمرت بتحسين مواقعها القديمة وإحداث مواقع ومراكز جديدة، كي تشكل خطوطاً دفاعية عن قرطاجة ضد اليونان، وفيما بعد ضد الرومان الذين بدأ ظهورهم المكثف يشهد حضوراً تدريجياً على مسرح السياسة في منطقة المتوسط.

أجبر هجوم الاسكندر الأكبر الخاطف على الشرق قرطاجة أن تنحني وتبدل من استراتيجتها، فقررت التعايش مع الامبراطورية الإغريقية الجديدة وخاصة مع البطالمة في مصر ضد طموحات خلفاء الاسكندر في اليونان.

ومن منتصف القرن الرابع حتى منتصف الثالث قبل الميلاد استطاعت روما ضم مناطق عديدة، حتى أنها دخلت إلى جزيرة صقلية التي كانت تحت حكم قرطاجة. وقد عد تاريخياً هذا الغزو الروماني لصقلية بما سمي بالحرب البونية الأولى (264-241) ق.م، وانتهت بانتصار روماني استراتيجي على قرطاجة.

انتشل القائد القرطاجي هملقار قرطاجة من عمق الكارثة، بعد احتلال كامل صقلية وطرد القرطاجيين منها، وذلك بالاستيلاء على مناجم الغرب الغنية في جنوب شرق الجزيرة الأيبيرية، بحيث تمكن من إنشاء امبراطورية عسكرية هناك وإعلن نفسه حاكماً مطلقاً عليها، وذلك خلال السنوات 237- 228 ق.م. وبعد موته في معركة خاسرة مع القبائل الأيبيرية، نجح زوج ابنته صدر بعل (هاصدروبعل) وابنه هانيبعل باحتلال كامل النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الإسبانية شمالاً حتى نهر الايبرو.

أدركت روما خطر قرطاجة على أمنها وخططها الطموحة، فخططت لسلسلة من المعارك العسكرية تمكنت فيها بقيادة القائد الروماني سكيبو من احتلال إسبانية، وذلك في السنوات من 210 إلى 206 ق.م.

إنَ ما مَيز قرطاجة عن صور الأم هو نظام سياساتها التجارية والدبلوماسية الذي اتبعته، بحيث لم تبق مدينة- دولة كصور بل مدت نفوذها وسلطانها على كل المراكز والمدن الفينيقية والمستعمرات في غرب البحر الأبيض المتوسط حتى إسبانية. واحتفظت بحق الاتجارعلى سواحل المتوسط الغربي الجنوبي، والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبيرية التي كانت من أغنى الأراضي الإسبانية بمناجم الفضة والزئبق. ونجح القرطاجيون بخلق فضاءاتهم ونظامهم الخاصين بهم مع المحافظة على علاقات متينة مع مدينتهم الأم صور على الساحل الفينيقي في سورية، واستمروا في ذلك إلى أن استطاع الرومان انتزاع السيادة على البحر الأبيض المتوسط بشكل مطلق في أعقاب معركة زاما ضد هانيبعل سنة 202 ق.م، فصار بحيرة رومانية إلى أن جاء المسلمون العرب في القرن السابع الميلادي فغيروا قوانين اللعب في معركة اليرموك الفاصلة.

سبق القرطاجيون الرومان، بفضل نشاطهم وحيويتهم وبراعتهم التجارية ولاحقاً العسكرية، في القوة والمنعة والملاحة والازدهار. لكنهم لم يتمكنوا من بناء امبراطورية قابلة للاستمرار والاستقرار. ولذلك أخذت دولتهم بالتراجع والانحدار في الوقت الذي كان نجم روما يرتفع عالياً وبسرعة في سماء العالم القديم حتى أصبحت روما في النهاية سيدة هذا العالم.

كانت قرطاجة مجتمعاً تجارياً بالدرجة الأولى قبل أن تكون مجتمعاً عسكرياً . ولذلك اعتمدوا أساساً على تجنيد المرتزقة لتشكيل جيوشهم، وخاصة من الليبيين والنوميدين والإسبان والغاليين، والإغريق في بعض الأحيان، بينما كان المجتمع الروماني يولي عناية فائقة للإنخراط بسلك الجندية حيث كان يقدم الامتيازات العديدة للجنود ويهيء لهم سبل الارتقاء إلى السلطان والجاه والثروة وألقاب الشرف والفروسية والتقدير الاجتماعي، في الوقت الذي كان المجتمع القرطاجي متوجساً على الدوام من النخبة العسكرية ومن طموحاتها، ولذلك وضع لها ضوابط صارمة ليبقيها تحت سيطرته وحكمه، وأسطع دليل على ذلك تصرف مجالس الحكم القرطاجي بالتراخي بالاستجابة لطلب قائدها هانيبعل بمده بما يلزم في معركته لاحتلال روما بعد معركة كاناي سنة 216 ق.م في جنوب شرق إيطالية. كما أنَ قرطاجة لم تكن ترحم قادتها المهزومين حيث كانت تحكم عليهم بالموت صلباً، ما كان يدعوهم إلى الانتحار تجنباً لمثل هذه العقوبة المهينة، في حين كانت روما على عكس ذلك تشعر بالتعاطف والتشجيع والمواساة والاحتضان لقادتها المهزومين.

لا نتوقع من الإغريق أن يقوموا بإطراء القرطاجيين لأنهم من حرمهم من استمرار سيطرتهم على مياه وخلجان وشواطئ البحر المتوسط وبعض سواحل شرق المحيط الأطلسي في شمال غرب أفريقية وفي شبه الجزيرة الأيبيرية. هذه البحار التي أطلق

عليها الرومان "البحار الصورية Maria Tyria"، قبل أن يصبح بحراً رومانياً، فيطلق عليه الرومان "بحرنا Mare Nostrum".

التنظيم السياسي في قرطاجة

مر التنظيم السياسي ونظام الحكم في قرطاجة، التي كانت أول مدينة- دولة تنجح في بناء امبراطورية، بمراحل رئيسية ثلاث:

1- المرحلة الملكية التي تشكلت من الطبقة الأرستقراطية بحيث كان يتم اختيار الملك من عائلة ثرية متنفذة (الأسرة الماجوية نسبة إلى ماجو). وقد قدمت هذه الأسرة أربعة أجيال متعاقبة من القادة العظام الذين تولوا قيادة الحرب ضد الإغريق. ولما استشعرت قرطاج خطر طموحات عائلة ماجو أواسط القرن الخامس أنشأت مجلس قضاء أعلى يتمتع بالسلطة العليا التي تسمح له باستدعاء أي مسؤول مهما علا شأنه للمثول أمامه للمساءلة والحساب.

2- المرحلة الثانية: كانت أقرب إلى النظام الجمهوري على الرغم من استمرار النظام الملكي. حيث ظهر التنافس السياسي بين الأرستقراطية التقليدية والطبقة الجديدة من ملاك الأراضي، إذ تمكنت هذه الطبقة من الاستحواذ على السلطة وانتزاعها من أسرة ماجو في منتصف القرن الخامس، واستمرت هذه المرحلة حتى بداية القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً. وقد تأثرت هذه المرحلة كثيراً بما شابهها في التنظيم السياسي اليوناني والروماني، فظهرت هيئات عديدة مثل مجلس الشيوخ، ومجلس المائة وأربعة، وحاكمان يسميان ملكين أو سبطين على غرار نظام القناصل الروماني.

3- المرحلة الثالثة: وتجمع بين المرحلتين الأولى والثانية، واستمرت طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وتركزت فيها السيادة السياسية لآل برقه/برقا التي أنجبت من مشاهير القادة: هملقار وابنه هانيبعل، حيث نجحت الأسرة بالجمع بين سلطتها وسلطة مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى الخاصة بالشؤون المالية والدينية. فزادت بهاء المدينة ورفعتها عن طريق تحقيق الانتصارات العسكرية. وقد تمتع هؤلاء القادة الذين كان يجري انتخابهم من قبل الشعب بعد ترشيحهم من قبل مجلس الشيوخ، بسلطات شبه مطلقة، كنواب حقيقيين للملك. ولذلك كان هانيبعل السيد المطلق في إدارته لشئون الحرب ضد روما.

وبالرغم من عدم استمرار هذا التنظيم فقد عد الدستور القرطاجي في مرتبة الدساتير اليونانية والرومانية، فهو الدستور الأجنبي الوحيد الذي عده الفيلسوف الإغريقي أرسطو في دراساته الدستورية أفضلها جميعاً.

كان المهاجرون الفينيقيون إلى قرطاجة صوريين متمدينين وعلى معرفة جيدة بالثقافة والمعرفة والعلوم والقانون. إذ عينوا وانتخبوا حكامهم ومجالسهم الخاصة لتمثيلهم، وأقاموا حكوماتهم الأوليغاركية (حكم القلة) الدستورية بحيث كان الحكام

يرفعون تقاريرهم إلى ملك صور، وقد اقاموا برلماناتهم الخاصة بهم في فترة لاحقة. واتبع القرطاجيون تقريباً في حكوماتهم الأنظمة الفينيقية التي عرفها الفينيقيون في صور. حيث كتب أرسطو في 340 ق.م عن قرطاجة ودستورها: "عرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكل جيد ودستورهم أرقى وأفضل من دساتير أخرى في مسائل عديدة". وقد كتب بلينيوس الأول: "يعود الفضل للمصريين في الاصلاحات التي أدخلت على النظام الملكي، وللأثينيين الفضل في الإصلاحات الديمقراطية، وللبونيين (القرطاجيين) ابتكاراتهم في التجارة"[1].

وقد وصف القرطاجيون بنظام حكمهم السياسي الجيد، حيث كان في القرون الأولى من حياة الدولة يعد ملكياً وراثياً وانتخابياً في الوقت نفسه. والذي اختلف بوجوه عديدة عن أنظمة حكم سياسية لدول أخرى حينها. إلا ان نظامها كان يتشابه في بعض سماته بنظام الحكم في أسبرطة وكريت. وعرف القرطاجيون بمؤسساتهم الممتازة العديدة. وكان من أهم ميزات دستورهم على غيره أن المواطنين العاديين يبقون موالين وملتزمين بالدستور، إذ لم يسجل في تاريخهم ما يشير إلى خروجهم على سلطة حاكمة مستبدة.

ومع استمرار تطور النظام السياسي، كان تعيين أو انتخاب الحكام في قرطاجة بشكل عام يتم بناء على جدارتهم، إذ عد ذلك انجازاً سياسياً مهماً. كما كان يتم انتخاب مجلس قضاة مكون من مائة وأربعة ممثلين متقدمين في العمر صفاتهم الأساسية جدارتهم وكفاءتهم في العمل العام، وكان يشبه مجلس شيوخ يعاون الملك المختارمن أفضلهم بمده بالتقارير عن الرقابة والتدقيق والأمن والمشورة والرأي. وكان المجلس ينتخب هيئة عليا مؤلفة من خمسة قضاة أو حكام أنيط بهم كذلك أن يبتوا برأيهم غير القابل للنقض، على الغالب، بأهم المسائل التي تواجه سياسات الدولة (يشبه مجلس الأمن القومي هذه الأيام). وكان من أهم ميزات دستورهم في القرون اللاحقة أنّ العرش عندهم لم يكن بالضرورة وراثياً (في حين كان وراثياً في نظام الحكم في أسبرطة)، فمنصب الملك مفتوح لمرشحين من خارج العائلة المالكة، كما لم يكن المنصب خاضعاً للأكبر سناً، وإنما للأكفأ والأقدرعلى اقناع الجمهور بمؤهلاته العديدة. وبشكل إجمالي رؤي أن نظام الحكم هذا قد جنب البلاد تعسف اتخاذ قرارات وأحكام غير مناسبة. وكان يحق للملك والمجلس المنتخب، إن كان تم انتخابهم بالأغلبية، أن يقرروا عرض أي مسألة على الجمهور ليقرر فيها ما يراه مناسباً، ولأي مواطن الحق أن يقول رأياً مخالفاً إن رأى ذلك. أما إذا لم يتم الإجماع في المجلس فالشعب الممثل بالمجلس الشعبي أو المجلس الكبير هو المنوط بقرارعرض المسألة على الرأي العام. وتطورت صلاحيات المجلس الشعبي في الفترة الأخيرة من عمر الدولة فاصبح يعين القضاة ومجلس الشيوخ والقادة العسكريين. وإذا قررالملك أو الحكام أي عمل مُشَرِف تسرع الغالبية بتبني ذلك.

---

[1] – فرانسوا ديكريه: "قرطاجة أو امبراطورية البحر"، ص110، ترجمة عزالدين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الحلو، دار الأهالي بدمشق، الذي يشير إلى بلينيوس الكبير أو الأول: Pliny the Elder (8-9,57,VII)

ابتعد نظام الحكم القرطاجي بقدر ما عن الأرستقراطية التي كانت ممثلة في أسبرطة وكريت واقترب أكثر من النظام الأوليغاركي، إذ لم يكن يتم انتخاب الحكام لكفاءاتهم وجدارتهم فقط، بل كانت آراء الناخبين تتأثر في العادة بانتخاب أبناء الطبقات الأرستقراطية وأصحاب الثروة والجاه، إذ اعتقد القرطاجيون أنّ انتخاب الكفؤ الفقير بما يحتاجه لا يمثل لهم حكماً جيداً كما يرغبون! إلا أنَ أهم سيئة في دستورهم كانت في تقلد الواحد عدة مناصب عامة في وقت واحد.

وبذلك كانت قيادات الدولة وإداراتها في قرطاجة تحت مراقبة ورعاية ورأي مؤسسات عديدة تضبط عمل الحكام المدنيين والعسكريين والإداريين لتجنب الانزلاق إلى الدكتاتورية والتعسف والظلم أو الفساد. وهكذا، كان الأفضل في نظام حكم قرطاجة يعين أو ينتخب بطريقة مختارة.

تأثر القرطاجيون بالحضارتين المصرية والإغريقية. لكنهم كانوا يتصفون بالخصائص الفينيقية من عقائد دينية قوية ومن شدة وجلد وموهبة نادرة في الملاحة البحرية والتجارة. وتم تتويج هذه المهارات باستعدادهم السياسي والدبلوماسي والعسكري. وجاءت الفنون القرطاجية مطابقة تقريباً للمصرية والإغريقية. لكن كتاباتهم كانت محدودة، حيث كانوا مقصرين في التدوين. لذلك كان من الصعب العثور على تسجيلات خاصة بهم قاموا بتدوينها. ومن هنا جاءت معظم المعلومات عنهم من نتاج تسجيلات حضارات أخرى. وقد عرفت قرطاجة بجيشها الذي كان مشغولاً بالحروب ضد الإغريق والرومان بشكل دائم تقريباً، وأظهرت الحروب البونية الأولى قوة الجيش القرطاجي بقيادة هملقار. كما أظهر احتلاله لإسبانية في 237 ق.م، بعد سلسلة من المعارك ضد القبائل الأيبيرية قتل على أثرها هملقار سنة 228 ق.م، قوة هذا الجيش أيضاً. وفي سنة 218 ق.م عبر هانيبعل بجيشه جبال الألب إلى الأراضي الإيطالية. واندلعت الحرب البونية الثالثة سنة 149 ق.م فدمر الجيش الروماني قرطاجة بشكل كامل. ولذلك لم تعرف قرطاجة بفنونها بل بقادتها العسكريين العظام.

وصف مدينة قرطاجة

وجد ميناءان صناعيان داخل أسوار المدينة التي كانت تثير الدهشة، يربط بينهما قناة. والميناء الأول عسكري كان يضم مائتين وعشرين سفينة حربية تشرف علية قلعة بيرصا ذات الجدران المنيعة والتي كانت مقسمة إلى أربعة مناطق متساوية وشوارع نظامية الشكل. وقد بلغ طول الأسوار ثلاثة وعشرين ميلاً (34 كم) بالمقارنة مع أسوار روما التي كانت تبلغ خمسة أميال؛ منها ثلاثة أميال بارتفاع ثلاثة عشر متراً وسماكة من ثمانية إلى عشرة أمتار، إذ كان من الصعب اختراقها. ويوجد أبراج موزعة على جسم السور بمسافة ستين متراً بين كل برجين. وقد استخدمت الأماكن الفارغة المصممة داخل جسم السور

كأماكن إقامة للجنود والخيول والفيلة والمخازن..ألخ، بحيث يتسع الإسطبل الواحد لثلاثمائة فيل وأربعمائة حصان. وكان يحيط بالأسوار خندق عظيم بعرض عشرين متراً، مما جعل وسائل حماية المدينة في غاية القوة والمنعة، إضافة إلى وجود قلعة داخلية يحيطها سور كبير. وقد اقتبست هندسة هذه التحصينات عن صور الفينيقية التي اقتبستها بدورها عن الآشوريين. كما يوجد مذابح مقدسة للأضحيات، ومقبرة، وسوق تجاري، ومجلس مدينة، ومعابد، وأبراج عظيمة، وبوابات هائلة، وقلعة، ومسرح، وشوارع دائرية مبلطة، وحدائق، وبيوت عظيمة مكون بعضها من ست طبقات. وقد وصفها الجغرافي اليوناني سترابو بـ "المدينة المتألقة". وكانت قرطاجة تسيطر على قرابة 300 مدينة وبلدة في حوض المتوسط. وقدر سترابو عدد السكان حينها (250 ق.م) بحوالي 700 ألف، وهو رقم كبير في قياس ذلك الزمن القديم. إذ ربما كان العدد يضم مجمل سكان المدينة وضواحيها؛ من التجار الذين يحكمون المدينة، والمقيمين، والرحالة والمستكشفين، وأصحاب الأراضي الزراعية وعبيدهم. فكانت هذه حال المدينة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وذلك عندما أخذت بالسيطرة على تجارة غرب المتوسط، فجلبت معها الغنى والثراء. وكانت المدينة مطمئنة إلى حماية أسطول قوي مدعوم من جيش بري مكون من المرتزقة بشكل أساسي.

ترك لنا ديودوروس الصقلي وصفاً آخاذاً لما كانت عليه قرطاجة، وذلك في معرض حديثه عن الحملة العسكرية التي جردها أجاتوكليس على أفريقية في أواخر القرن الرابع ق.م، فيقول[1]: "افترت الأرض فيها: عن الرياض الفيحاء والحدائق الغناء والجنان السندسية التي كانت ترفل بكل جنس ونوع من الثمار، تنساب بينها السواقي وتتخللها الترع المائية حاملة إلى الدقاق منها الدفء والثراء. وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر أمام مرأى العين ومأتى البصر، على مسافات بعيدة، ساطعة البياض، حسنة البناء تحدث عالياً بغنى ساكنيها ونعماء أهلها. وكانت مغروسات الأرض تتناوح بين الكروم وحقول الزيتون وغير ذلك من الأشجار المثمرة، تطالعك في جنبات السهول وسفوح التلال، قطعان الغنم والبقر والماعز بينما الريف القصي، كان ملعباً لقطعان الخيل. وجملة الخبر، فقد كانت الأرض تفيض بالخيرات وتتدفق منها المحاصيل على تباين أنواعها، وقد تقاسم ملكيتها سراة القوم من القرطاجيين وأشرافهم يفرغون فيها أيامهم بين اللذائذ والأطايب". وقد اعتمد وصف ديودورس هذا بنقله عن روايات مشاهدات شهود عيان حدثوا بما رأوا وحيزوا مشاهداتهم كتابةً.

---

[1] – أندريه ايمار وجانين أوبوايه: "تاريخ الحضارة العام– روما وامبراطوريتها"، ص 57، ترجمة يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات– بيروت.

حروب قرطاجة

تحالف الأتروسكيون والقرطاجيون لتوحيد قواهم لطرد المستوطنين الإغريق من كورسيكة خلال القرن السادس قبل الميلاد. وشمل هذا التحالف المجالات العسكرية والاقتصادية المشتركة. وأشار أرسطو أنّ الأتروسكيين والقرطاجيين كانوا يظهرون وكأنهم دولة واحدة بالنظر إلى تحالفهم العسكري وعلاقاتهم التجارية. وبعد انهيار الأتروسكيين، انحسرنفوذ كليهما إلى شواطئه. وخلافاً لما كان شائعاً، لم تبدأ العلاقات بين قرطاجة وروما بالحرب بل بالتحالف، فقد كان البلدان يشعران، رغم الحذرالذي كان يبديه كل منهما تجاه الآخر، بالحاجة إلى الوسائل الدبلوماسية، وخاصة أوقات الأزمات، لإعادة التأكيد على تحالفهم[1].

وتعود أولى المعاهدات التي راعت المصالح لكل دولة بين روما وقرطاجة لعام 509 ق.م، تلتها ثلاث معاهدات أخرى حاول كل طرف منهما الحصول على ما كان يراه مناسباً لمصالحه العامة.

بدأ الصراع القرطاجي اليوناني الصقلي الذي يمكن تقسيمه إلى حلقات ثلاث:

1- بدأت الحلقة الأولى من الصراع في بدايات القرن الخامس ضد الطاغية السراقوزي جيلون الذي جمع بين يديه سلطات واسعة في هميرة على الساحل الشمالي الأوسط من الجزيرة، وهزم القرطاجيين في هميرة سنة 480 ق.م.

2- الحلقة الثانية من الصراع كانت ضد دينيسيوس حاكم سراقوزة ومن سبقه مباشرة، والواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة صقلية.

3- الحلقة الثالثة من الصراع ضد تيموليون (341- 338) ق.م.

وجدت قرطاج نفسها بعد أن تأسس وجودها الاقتصادي والسياسي مشغولة في سلسلة من الحروب، ما إن تتوقف حتى تبدأ من جديد، ضد محاولات الإغريق للسيطرة على كل الساحل الأفريقي بعد أن احتلوا لبتوس ماغنا على الساحل الليبي. ولم يكد ينتهي القرن السادس ويأتي الخامس حتى كانت قرطاج قد نجحت في العبور من دور الدفاع إلى دور الهجوم، فاشتبكت مع الإغريق أولاً، ثم مع الرومان فيما بعد في جبهة طويلة امتدت من شواطئ ايطالية الجنوبية وسردينية وصقلية إلى شواطئ قرطاجة نفسها. فكانت القوات المحمولة بحراً للطرفين تشكل العمود الفقري للحرب، بحيث أخذت تتكامل فنون التنسيق العسكري تدريجياً بين الأساطيل والجيوش البرية. ونوجز هذا الصراع بما يلي:

---

[1] – فرانسوا ديكريه "قرطاجة أو امبراطورية البحر"، الصفحتان (155، 156)، ترجمة عز الدين أحمد عزو، تحقيق الدكتور عبدالله الحلو، دار الأهالي بدمشق.

أ- أسست قرطاج مركزاً في أبيزا كخط دفاعي أول على ساحل إسبانية الشرقي الجنوبي سنة 654 ق.م، مع ذلك لم تتوقف الاشتباكات بين القوات القرطاجية وعصابات القراصنة الإغريق. وكانت سواحل جزيرة سردينية قد أخذت بالسقوط تدريجياً بأيدي القرطاجيين في مطلع القرن السادس.

ب- في عام 500 ق.م احتلت قرطاجة هميرة في جزيرة صقلية وأسست أول قاعدة بحرية لها على الجزيرة. بعدها تحالفت مدن صقلية[1] وحاصرت مدينة هميرة الواقعة في منتصف الساحل الشمالي للجزيرة، غير أنَّ القائد القرطاجي هملقارت فاجأ المحتشدين الإغريق من جهة اليابسة وهزمهم باتجاه الساحل.

ج- لكن الإغريق حشدوا قوات كبيرة في سنة 480 ق.م ونجحوا بتدمير أسطول قرطاجة على شواطئ صقلية الغربية، وبالتالي إبعادها عن جبهة المواجهة في شرق المتوسط لمدة سبعين عاماً كاملة (من 480 السنة التي وقعت فيها الهزيمة إلى 409 ق.م). وخلال هذه المدة ركزت قرطاجة على مسرح شمال أفريقية وعلى برنامج إصلاح شامل في الدولة:

1- تخلت عن نظامها القديم الذي كان يركز الحكم في أفراد بيت الملك، وتبنت نظاماً شبه جمهوري تمثل في تعيين مجلس قضاة مكون من مائة وأربعة أعضاء مهمته حماية الدولة من طموحات قادة الجيوش وذوي النفوذ الذين جروها إلى حروب خاسرة طوال ثلاثة أجيال بدءاً من القائد الشهير ماجو حتى هملقارت وصدريعل (هاسدروبعل أو هاصدروبعل).

2- تحالفت مع الليبيين في الشرق.

3- أخذت قرطاجة تتجه نحو السواحل الغربية حتى أعمدة هرقل وإلى داخل المحيط وصولاً إلى جزر الكناري وسواحل سيراليون وغانا الحاليتين.

د - ظهر أسطول قرطاجة سنة 409 ق.م على سواحل صقلية مفتتحاً الجولة الثانية من المعارك بعد هزيمة هملقارت وتدمير أسطوله في معركة هميرا سنة 480 ق.م. وكان على رأس هذا الجيش حنا بعل أحد أحفاد هملقارت، فأصبحت ثلث أراضي صقلية تحت سيطرة قرطاجة. وظلت الحرب من أجل النفوذ في صقلية سجالاً بين قرطاجة والإغريق حتى سنة 367 ق.م. ولم تكد قرطاجة تفرغ من مواجهاتها مع الإغريق في صقلية حتى بدأ ظهور السفن الرومانية وهي تجوب مياه القسم الغربي من البحر المتوسط وترتاد سواحل الشمال الأفريقي، فبدا المسرح يوحي بموجات صراع جديدة بين الرومان وقرطاجة.

---

[1] - تعاقب الإغريق والقرطاجيون (الفينيقيون) والرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان على حكم جزيرة صقلية. فقد فتح العرب الأغالبة صقلية تحت قيادة الفقيه أسد بن الفرات سنة 827 م (213 هـ)، ودام حكمهم لها مدة قرنين ونصف (827 - 1091) م حتى تاريخ فتح النورمان للجزيرة.

أمام الظهور الروماني المتزايد في مياه البحرالمتوسط ارتأت قرطاجة تجربة أسلوب المعاهدات، فتقدمت في 348 ق.م بمشروع معاهدة إلى روما، جاء فيها:

1- لا يجوز للرومان أو لحلفائهم الإبحار في المياه الاقليمية لقرطاجة أو أن يتاجروا أو يشيدوا مراكزاً أو مدناً في أراضيها بإسبانية.

2- لا يجوز للرومان أو حلفائهم أن يتاجروا أو يشيدوا مراكزاً أو مدناً في ليبية[1] وسردينية.

3- لا يجوز للرومان أو أحد من حلفائهم أن يقيموا في موانئ ليبية وسردينية أطول من المدة التي تسمح بالتزود بالمؤن والاصلاح، وفي الحالات القاهرة.

وقد سادت المعاهدة لفترة كان كل طرف يستعد فيها انتظاراً لساعة الحسم. إلا أنَ الحرب اندلعت فجأة في مكان غير متوقع، حينما اشتعلت الحرب الأهلية في بلاد اليونان، ولم تضع اوزارها إلا بعد نجاح فيليب المقدوني بحسم الصراع الداخلي لمصلحة توحيد اليونان تحت قيادته ومن بعده ابنه الاسكندر الأكبر.

هـ - في العام 378 ق.م خرج بيروس من مملكته غرب اليونان لنجدة المدن الإغريقية الأصل في جنوب ايطالية، وقبل أن يحرز نصره النهائي على روما كان عليه أن يعود إلى صقلية للدفاع عن المدن الإغريقية الأخرى ضد أسطول قرطاجة. من أجل ذلك اضطر إلى عقد معاهدة مع قرطاجة كي يعود لقتال الرومان. فأنزل به الرومان هزيمة ساحقة في 375 ق.م أخرجت الإغريق نهائياً من مسرح الصراع في القسم الغربي للمتوسط. وفي سنة 323 ق.م كانت قرطاجة ثابتة على أرض سردينية وصقلية، إلا أنَ تقدم روما بدأ يظهر تدريجياً بكل ثبات إلى مركز القيادة على جبهات الحرب في شمال أفريقية الشرقي.

و- ومنذ اجتياح الاسكندر المقدوني لحلفاء قرطاجة الفرس والفينيقيين في صور أصبحت قرطاجة معرضة لعزلة شبه كاملة في غرب المتوسط، فبات عليها أن تناضل بكل مالديها كي تحافظ على قواعدها المتقدمة في سردينية وصقلية، إلا أنَ الضغط الإغريقي والروماني لم يتوقفا. فأعلن أجاثوكليس اليوناني المنشق عن اليونان، والذي كان قد عينه هملقارت[2] حاكماً على سراقوزة في 318 ق.م (تقع سراقوزة على الساحل الشرقي الجنوبي من جزيرة صقلية)، الحرب على قرطاجة سنة 310 ق.م، فحاصر هملقارت سراقوزة، لكن أجاثوكليس وجد منفذاً بين سفن الأسطول القرطاجي وتسلل بستين سفينة واتجه لمحاصرة قرطاجة نفسها، وقام بإنزال جيش مكون من أربعة عشر ألفاً على الساحل إلى الغرب من رأس عنابة، ثم أحرق السفن على مرأى من جنوده ليعرفوا أنَ خلاصهم الوحيد هو عبر احتلال قرطاجة. ساد الارتباك في قرطاجة، خاصة

[1] – كان ينظر إلى ليبية حينها على أنها تمثل معظم منطقة الساحل الشمال أفريقي.

[2] – كان اسما هملقار وهملقارت من الأسماء الشائعة في قرطاجة، وكانت عائلة هملقارت من أكبر العائلات التي حكمت قرطاج منذ بداياتها الأولى، وربما جاء الاسم من اسم الإله السوري القديم "ملقارت".

وأنَ جيشها كان في سراقوزة. في هذه الأثناء وصلت أخبار انهزام هملقارت ومقتله إلى أجاثوكليس. فزحف أجاثوكليس على قرطاجة حينها، بروح تتسم بالتفاؤل، في محورين: من الغرب بقيادته، ومن الشرق بقيادة أوفلاس حاكم قورينة (التي تقع على الشاطئ الليبي بالقرب من الحدودالمصرية). لكن الخطة في الزحف لم تكتمل، إذ دب الخلاف بين القائدين، فقام أجاثوكليس بإعدام أوفلاس وضم جنوده إلى جيشه وبدأ بالزحف على سوسة وأوتيكا وبنزرت. أثناء ذلك وصلته أنباء استمرار محاصرة جيش قرطاجة لسراقوزة رغم مقتل هملقارت، مما اضطره لترك جيشه والعودة سريعاً إلى سراقوزة، فتستغل قرطاجة الفرصة وتشن هجوماً تنجح فيه بتدمير قوات أجاثوكليس الباقية.

وبذلك اصبح الوضع في المتوسط بعدها على النحو التالي:

1- أدى انسحاب الإغريق من ميدان الصراع وتراجعهم إلى جزرهم في مدنهم الصغيرة المتناحرة، بعضها ينحاز إلى روما وبعضها الأخر إلى قرطاجة، وجميعها مستعدة للمساومة.

2- بمجيء عام 338 ق.م كانت روما قد أكملت تقريباً غزوها لجميع جيرانها في المدن اللاتينية، فظهرت كقوة بديلة للإغريق في المتوسط بعد هزيمتها لبيروس. فصارت جبهة الصدام إلى السيطرة على جزيرة صقلية.

3- تحاول قرطاجة إحكام قبضتها على قواعدها في صقلية وسردينية، وهي تواجه مقاومة داخلية في سراقوزة. وبذلك بدأت الحرب البونية الأولى بين الطرفين على سراقوزة.

ولذلك، بدأ الوجود العسكري اليوناني على طرفي المتوسط بالتراجع، خاصة بعد موت الاسكندر، وتهاوت مدنه واحدة بعد الأخرى تحت ضربات روما وقرطاجة اللتين وجدتا أنَ الوفاق بينهما أنسب الحلول ريثما ينتهيان من اقتسام التركة اليونانية.

ز- في عام 264 ق.م كانت روما قد حازت على كامل حصتها من التركة اليونانية، فبدأت تعد العدة للإنقضاض على قرطاجة، فنجحت بتحريض حاكم سراقوزة على التمرد ضد قرطاجة وأمدته بالمال والسلاح، فأعلن سراقوة حليفة لروما في محاولة لاستفزاز قرطاجة.

ابتدأ ميدان القتال على السواحل الصقلية مفتتحاً ما سمي تاريخياً بالحروب البونية الثلاث بين قرطاجة وروما. وقد شكلت هذه الحروب حلقات ثلاث من حلقات الهجوم الشامل الذي افتتحه الإغريق والرومان ضد آسية وأفريقية قبل وبعد الاسكندر الأكبر.

الحرب البونية الأولى (264-241) ق.م

أصبحت جزيرة صقلية، لأهميتها الاستراتيجية، منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى نهاية الحرب البونية الثانية مسرحاً لحروب متتالية أهرقت فيها دماء غزيرة. وقد

استهدفت قرطاجة منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية الحرب البونية الثانية السيطرة على كامل الجزيرة، فنجحت في السيطرة على بعض أجزائها توسعاً وانحساراً حسب مسارات الحرب تبعاً لبلوغ المجهود الحربي في صعوده وهبوطه.وتدل المصادرعلى أن اسطول قرطاجة بلغ عام 256 ق.م 350 سفينة حربية كبيرة استمرت بالمحافظة عليها طوال فترة الحرب البونية الأولى، مع أنها خسرت خلالها حوالي 500 سفينة، بينما خسر الرومان حوالي 700 سفينة. وعلى الرغم من أن القرطاجيين كانوا أسياداً على البحار، إلا أن الرومان نجحوا في 266 ق.م باحتلال مدينة ميسانا على اللسان البحري الشرقي الشمالي لجزيرة صقلية، والتي كانت قرطاجة تتحكم منها في خطوط الملاحة البحرية في المضيق البحري بين ميسانا وجنوب غرب الجزيرة الايطالية، وذلك بعد أن استطاعوا بناء أسطول حربي لأكثر من مائة سفينة صممت على نماذج السفن القرطاجية الشهيرة، حتى أنهم طوروها بتقنيات حربية جديدة لم تكن موجودة في السفن القرطاجية، وذلك بتجهيزها بخطاطيف هابطة تستحيل معها المعركة البحرية إلى معركة برية، مما أدى إلى قلب موازين المعارك البحرية المعروفة آنذاك عندما أنزلوها إلى البحر بطواقمها المدربة. وفي العام التالي نجح الرومان أيضاً باحتلال مدينة سراقوزة. كما نجحوا باحتلال مدينة ميلاي بعدها، والتي تقع إلى الشمال من ميسانا. واستمرت روما بإحراز انتصارات بحرية على أسطول قرطاجة إلى أن تمت هزيمتة وإخراجه نهائياً من الميدان سنة241ق.م. مما اضطر قرطاجة إلى الانسحاب الكامل من صقلية وقبول شروط الصلح القاسية التي فرضتها روما. ثم عاد الرومان فأرغموا قرطاجة على الانسحاب من سردينية وبعد ذلك من كورسيكة. فبدا واضحاً أن موقف قرطاجة المتسم بالذل لن يمنع الرومان من غزو قرطاجة وأفريقية. وكان من الواضح أيضاً أن سيادة روما على البحر المتوسط أصبحت مطلقة. حيث بدا أن الطريق أخذ ينفتح أمامها إلى المراكز الاقتصادية والاستراتيجية الكبرى في مصر والشام، وربما للتفكير بفتح مصر والشام وغزو بلاد فارس وبلاد العرب، وذلك بفتح جبهة أخرى من الجنوب.

لم يؤد انتصار الرومان في معركة ميلاي البحرية في 259 ق.م، على جزيرة صقلية بالقرب من ميسانا، إلى نتيجة حاسمة. حيث حدثت المواجهة التالية سنة 256 ق.م بين الأسطولين في رأس باكينوس في نهاية الساحل الشرقي الجنوبي لجزيرة صقلية، خسر فيها الطرفان الكثير من سفنهم القتالية، غير أن النصر كان حليف الرومان. لذلك، قرر القنصلان اللذان يقودان الحملة البحرية الرومانية التوجه قدماً نحو قرطاجة على الساحل الأفريقي، ونزلوا في نفس المكان الذي نزل فيه قبل أقل من قرن أجاثوكليس، والذي يقع إلى الغرب من قرطاجة، وأقاموا معسكراً لمراقبة المنطقة، وبدؤوا يعيثون فساداً وسلباً في المدن والبلدات والقرى والمزارع المحيطة. وفي 253 ق.م عاد القسم الأكبرمن الأسطول الروماني إلى ايطالية بناء على أوامر من روما، وبقي القسم الآخر بقيادة القنصل ريغولوس حيث نجح الجيش القرطاجي، بعد أن أعاد تنظيم صفوفه، في هزيمة

جيشه وأسره. فأعادت روما إرسال حملة أخرى في السنة التالية، إلا أنها لم تصل الساحل الأفريقي لتعرضها لعاصفة بحرية هوجاء.

لاحقت روما خسائر متعددة في أساطيلها البحرية خلال السنوات التالية، وذلك لعدة أسباب منها: خبراتهم التي لم ترق إلى المستوى المطلوب في شؤون المعارك البحرية، وعدم درايتهم الكاملة بفنون الملاحة، والذي أدى إلى جنوح الكثير من سفنهم إلى التحطم أو الغرق، وفقد الكثيرمنها في العواصف البحرية. وأمام خسارتها لمعظم قطع أسطولها قررت روما صرف النظر عن غزو قرطاجة، وأخذت تركز على إخراجها نهائياً من صقلية. فجرت مناوشات بحرية عديدة بين الطرفين، لكن أي منها لم ترق إلى مستوى المعركة.

تولى القائد القرطاجي"هملقار برقا[1]" (والد هانيبعل) سنة247 ق.م، قيادة العمليات في صقلية. ونتيجة لانشغال قرطاجة في حروبها على البر الأفريقي لم يستطع هملقار، رغم محاولاته العسكرية إشغال القوات الرومانية على الجزيرة وكسب مواقع جديدة، أن ينجز أكثر من المحافظة على وضعه في صقلية.

قام الرومان ببناء وتجهيز أكثر من مائتي سفينة حربية أبحرت في صيف 242 ق.م لطرد هملقار نهائياً من جزيرة صقلية لما تمثله من هدف استراتيجي لها. وفي آذار من عام 241 ق.م هاجم الأسطول الروماني الاسطول القرطاجي الذي كان يتجه لإسناد هملقار على الجزيرة، وذلك قبل وصوله إلى مقصده، بالقرب من الشواطئ الغربية للجزيرة، ففقد الأسطول القرطاجي غالبية سفنه في المعركة. ورغم رغبة هملقار بمواصلة المقاومة إلا أنه استجاب لأوامر قرطاجة التي وصلته بإجراء مفاوضات هدنة مع القائد الروماني. فتم توقيع معاهدة سلام بين القائدين على أن يخلي القرطاجيون جزر صقلية وسردينية وكورسيكة وجميع الجزر الواقعة بين صقلية والساحل الايطالي، وألا يعودوا إلى هذه الجزر، وأن يدفعوا غرامة مالية لمدة عشر سنوات، إضافة إلى شروط ثانوية أخرى. وربما كان السببان الأساسيان لانسحاب قرطاجة من صقلية بالذات- رغم أن الضغط العسكري الروماني حينها لم يكن قادراً على هزيمة قرطاجة لو أن قرطاجة أحسنت دعم جيشها على الجزيرة وفي البحر بما يلزمه للحفاظ على الجزء الذي يحتله - هما تمرد النوميديين (في الجزائر الحالية) ضد قرطاجة وصعوبة استمرار إمداد المجهود الحربي، فقرطاجة محدودة الموارد مقارنة مع الجمهورية الرومانية، لأن الحرب لسنوات طويلة أنهكت الطرفين، والفائز من يستطيع الاستمرار في تحمل عض الأصابع.

بدأ التذمر في قرطاجة وانقسمت القيادة إلى قسمين: قسم يدعو إلى مواجهة روما وآخر إلى مداراتها. واستمر الحال على ذلك في قرطاجة حتى سنة الانسحاب النهائي من

---

[1]- أورد سيليوس ايطاليكوس Silius Italicus في كتابه " البونية / Punica, 1.71-7" أن عائلة برقه أو برقا (باركا) التي ينحدر منها البطل القرطاجي (البوني) هانيبعل تدعي أنها تنحدر من الأخ الأصغر لإليسا (ديدو).
وتعني كلمة برقه / برقا / بارقا / باركا باللغة الفينيقية: الصاعقة أو العاصفة.

صقلية في 241 ق.م وقبول شروط الصلح الرومانية المذلة، إلى أن أعلنت ثورة في قرطاجة للإطاحة بالحكومة قادها معطي بعل أو ماتو كما سماه الرومان. ويقال أنه ليبي اتهمته المصادر بأنَ حركته لم تكن إلا تمرداً من المرتزقة للمطالبة بأجورهم المتأخرة. وقد تم وأد التمرد والقضاء عليه سنة 237 ق.م بقيادة هملقار برقا.

في سنة 237 ق.م، وبعد القضاء على ثورة ماتو، غادر هملقار برقا بعد أن استدعته القيادة العامة في قرطاجة وأسندت إليه مسؤولية القيادة العامة للجيش القرطاجي، مبحراً باتجاه إسبانية بصحبة ابنه هانيبعل الكبير ذي التسعة أعوام. وتخبرنا المصادر اللاتينية أن حقد قرطاجة على روما كان بلا حدود، إذ جعل هملقار الحرب ضد روما عهداً مقدساً يأخذه كل مواطن على نفسه في احتفال مهيب أمام الإله بعل. وقد كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين. ورغم تخلي قرطاجة لروما عن جزرها في المتوسط وسحب أسطولها والرضا بعزلتها في شمال أفريقية آملة من روما أن تتركها وشأنها على الشواطئ الجنوبية البعيدة، لكنها وهي تراقب بناء روما لقوات ضخمة على الجزر في المتوسط، وخاصة، في صقلية، أدركت أن روما تستعد للقفز من صقلية لاحتلال قرطاجة والساحل الأفريقي.

يعود تواجد الفينيقيين على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو أبكر من ذلك، حيث أسسوا سلسلة من المراكز والمدن على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة مثل قادش في آيبرية، وأنديرا وكازلة وأنتاس وعشرات المواقع الأخرى، فصارت إسبانية أرضاً بونية خالصة في سنة 535 ق.م تدافع عنها قرطاجة وتحميها. وكان قد تم عقد معاهدة بين قرطاجة وروما في عام 248 ق.م تضمن اعتراف روما الرسمي بسلطة قرطاجة على إسبانية. وكان نص الاتفاق يقول بأنه: " لايجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يبحروا أو يتاجروا أو يؤسسوا مستوطنة في الجانب الأقصى من طرف برومنتري وماستيا أي في جنوب إسبانية بأسرها".

لم يكن أسطول قرطاجة قادراً على نقل الجيش إلى إسبانية، لذلك كان على هلمقار أن يزحف بجيشه براً حتى يصل إلى أعمدة هرقل، فيجتاز المضيق باستئجار سفن للعبور إلى الشاطئ الأيبيري مصطحباً معه ابنه هانيبعل البالغ من العمر تسع سنوات، والذي أصر على المرافقة. وقد اشترط عليه والده، حسب رواية المؤرخ اللاتيني تيطوس ليويوس (ليفي) (59 ق.م- 17م)، كي يرافقه، بأن يقسم ألا يكون صديقاً لروما مادام حياً؛ حيث أخذه إلى مذبح المعبد وحمله فوق النيران المشتعلة وجعله يقسم أن يكون عدواً لروما مادام حياً. وفي بعض المصادرالأخرى أقسم هانيبعل أمام والده قائلاً: "اقسم، ما دمت حياً، أن أستعمل النار والحديد للقضاء على روما".

نزل هملقار بالقرب من قادش فوحد نفوذ قرطاجة في جنوب شبه الجزيرة بكامله خلال تسع سنوات. وفي عام 228 ق.م استطاعت القبائل المحلية القيام بهجوم معاكس قوي قتل على إثره هملقار وهزمت قواته. غير أن زوج ابنته، صدربعل الجميل

(هاسدروبعل)، الذي تولى القيادة بعد مقتل حميه هملقار تمكن من إعادة النفوذ القرطاجي على كامل شبه الجزيرة الجنوبي وأنشأ مدينة جديدة على الساحل الجنوبي الشرقي دعاها "قرطاجنة" أو "قرطاجة الجديدة". فأمنت له اتصالاً بحرياً مريحاً مع قرطاجة العاصمة، فأحكم قبضته على مناجم الذهب والفضة والقصدير، فتدفقت الثروات المعدنية الثمينة إلى قرطاجة، فأدخل ذلك الرضى والموافقة بين أعضاءمجلس الشيوخ وشجعهم على تأييد سياسة الجيش.وبقدر ما كان الانتعاش والرضى ظاهرين في قرطاجة كان القلق كامناً في روما التي كانت في مواجهة ضد القبائل الكلتية على نهر البو شمال ايطالية.

اتبع صدربعل سياسة توافقية من أجل مصالح قرطاجة في إسبانية، حتى أنه وقع معاهدة مع روما لا تسمح له بالتوسع شمالاً لما وراء نهر الايبرو مادامت روما لا تتوسع جنوبه، كما اتبع صدربعل سياسة الدبلوماسية والمصالحة والتعاون مع القبائل الأيبيرية. ومن اجل ذلك رتب لزواج هانيبعل من أميرة إيبرية اسمها إميلك Imilce.

اغتيل صدربعل سنة 221 ق.م، فأعلن الجيش هانيبعل قائداً لأركان الجيوش القرطاجية في إسبانية، وصدقت عليه قرطاجة بعد تردد. وقد وصف ليويوس (ليفي) في كتابه "تاريخ روما"، الجزء الثالث، الفتى القرطاجي بعد إعلانه قائداً وظهوره أمام الجند: ".. بمجرد وقوفه أمام الجنود القدماء الذين رافقوا والده في مسيرته العسكرية، توهموا كأنما يرون أمامهم هملقار في شبابه يرجع إليهم؛ نفس النظرة الذكية النفاذة، ونفس الإثارة والتصميم في العينين، ونفس سيماء الاتزان والهدوء الماكرين على معالم الوجه، إذ يوحي ألا أحد مثل صاحب هذه الروح الساحرة يمكن أن يواجه معارضة فيما يأمر فيطاع".

وبعد سنتين من قيادة قضاها في تعضيد حكمه وإكمال فتحه لإسبانية حتى نهر الايبرو، بدأت روما تتحسب لتطور قوته، فتحالفت مع سوجنتوم على الشاطئ الإسباني الشرقي جنوب نهر الايبرو وأعلنتها مدينة تحت حمايتها. فاعتبر هانيبعل أن هذا يمثل خرقاً للمعاهدة التي وقعها صدربعل معها. لذلك خرج هانيبعل، الذي لم يستطع نسيان تسليم صقلية وسردينية للرومان، في العام التالي قاصداً مدينة سوجنتوم الواقعة إلى الشمال من قرطاجة الجديدة فأسقطها بعد حصار دام ثمانية أشهر. وهكذا استقبلت روما أول طعنة رمح من هانيبعل، فقررت إرسال جيش لهزيمة هانيبعل في إسبانية، كما بدأ أسطولهم في صقلية استعداداته لمهاجمة قرطاجة العاصمة. بحيث كانت خطة الرومان تقضي بوضع هانيبعل بين فكي كماشة لطحنه مع جيشه وبالتالي القضاء نهائياً على قرطاجة. فتوقعوا أن يقوم هانيبعل بمواجهة قواتهم المتجهة إلى إسبانية، عندئذ يطبقون على قرطاجة بقواتهم القادمة من صقلية عن طريق البحر. لذا، ترك هانيبعل الجيش الروماني يتقدم باتجاه إسبانية تحت قيادة سكيبو، بينما أسطولهم من صقلية يقصد قرطاجة نفسها، فينطلق بجيوشه قاصداً نقل الحرب إلى قلب ايطالية، قلب الجمهورية الإيطالية، في مفاجأة من أكبر المفاجآت العسكرية في التاريخ القديم.

في العشرينات من القرن الثالث قبل الميلاد. حشدت القبائل الكلتية[1] قواتها على وادي نهر البو شمال ايطالية بتأييد من القرطاجيين ضد روما. إذ تأكد لروما أن هناك محاولة تحالف كلتي قرطاجي ضدها. لذلك أسرعت بشن حرب وقائية سريعة وأحبطت تمرد الكلتيين، وقامت بضم منطقتهم. وقد بدا للرومان أنهم نجحوا بمعالجة التحالف الكلتي القرطاجي الذي توافق فيما بعد مع اغتيال صدر بعل في إسبانية، حيث ركنوا إلى أنهم أصبحوا بمأمن من جانب التهديد الكلتي. لكن هانيبعل فاجأهم بعد سنتين تقريباً بإحياء خطة الغزو القرطاجي الغالي التي كان قد وضع خطوطها صدربعل قبل موته.

مثلت هزيمة قرطاجة وإخراجها نهائياً من ميدان الصراع مع روما ومعاهدة الصلح المهينة سنة 241 ق.م في نهاية الحرب البونية الأولى إهانة وطنية وشخصية لهانيبعل، حيث أدرك أن القوات البحرية لن تحقق النصر لقرطاجة، كما أدرك أيضاً أنَ التعايش مع روما غير ممكن. لذا فقد استمد خطته الحربية الجديدة للجولة الثانية من الحرب البونية الأولى.

احتل هانيبعل سوجنتوم سنة 219 ق.م بعد حصار دام أكثر من ثمانية أشهر، وذلك خلافاً لمعاهدة 226 ق.م بين مجلس الشيوخ الروماني وصدربعل خليفة والده، والتي نصت على ألا يعبر الجيش القرطاجي نهر الايبرو نحو الشمال. فقدم الرومان احتجاجاً إلى الحكومة القرطاجية، وحاول "حنون الكبير" حاكم قرطاجة حينها أخذ موافقة الحكومة على تسليم هانيبعل إلى روما كاعتذار عن خرق المعاهدة. إلا أنَ غالبية مجلس شيوخ قرطاجة أيدوا سياسة هانيبعل الذي صار بنظر الشعب بطلاً وطنياً يمثل عودة العزة والكرامة بعد ذل معاهدة الصلح المهينة، وأيضاً، لأنَ معاهدة الصلح سنة 241 ق.م لم تذكر سوجنتوم.

الحرب البونية الثانية (218-201) ق.م
(العبور البري واجتياز جبال الألب إلى ايطالية)

خرج هانيبعل، الذي كان في السابعة والعشرين حينها، من قرطاجنة على الساحل الإسباني الجنوبي الشرقي ربيع 218 ق.م على راس جيش مكون من حوالي ثمانين[2]

---

(1) – رغم الغموض الذي يكتنف أصول وتاريخ الشعوب الكلتية فقد أُجمع على أن تلك الأقوام كانوا قد استقروا في معظم أجزاء أوربة الجنوبية والغربية وآسية الصغرى، وذلك قبل بداية التاريخ الروماني. وقد بدأوا بالظهور في العصر البرونزي المتأخر (1225–1000) ق.م. وكانوا أولي بأس شديد مولعين بالحروب والقتال. وبلغوا أعلى شأن لهم بين القرنين الخامس والأول ق.م، وخصوصاً في القرن الثالث حينما بلغت موجتهم حدها الأقصى. غير أنهم لم يستطيعوا رغم اكتساحهم كل هذه الأراضي وبأسهم في القتال أن يؤلفوا امبراطورية متجانسة. لذلك أفل وجودهم في القرن الأول قبل الميلاد بعدما أنهى يوليوس قيصر استقلال غالية وضمها إلى الجمهورية الرومانية. وقد أطلق قيصر نفسه تسمية الكلتيين على سكان غالية المستقلة، حيث قال: هؤلاء الأقوام يدعون كلتيين بلسانهم، أما نحن فقد عرفناهم باسم غاليين.

(2)– اختلفت الروايات حول تعداد المشاة والفرسان؛ فبعضهم عدها أكثر من ثمانين ألفاً؟ بينما روى آخرون أن عدد الفرسان لم يتجاوز الاثني عشر ألفاً؟ وأجمعت غالبية المصادر على اصطحابه لسبعة وثلاثين فيلاً حربياً.

ألفاً من المشاة وثمانية عشر ألفاً من الفرسان وسبعة وثلاثين فيلاً حربياً وآلاف البغال المحملة بالعتاد الحربي وصناديق الفضة لشراء المزيد من العتاد (لم يزد تعداد جيش هانيبعل في إسبانية عن 20 ألفاً قبل نشوب الحرب البونية الثانية. وكان قوام جيشه عند عبور البيرينيه إلى ايطالية 59 ألفاً) [1].

عبور الأيبرو والرون والألب

عبر هانيبعل بجيشه نهر الايبرو في ربيع سنة 218 ق.م، فانهارت الدفاعات الرومانية قبل استكمال استعداداتها التي كانت تجري على قدم وساق. وأخضع في طريقه القبائل الكلتية (الغالية) شديدة المراس، إذ كان من اللازم أن يؤمن ظهره قبل انطلاقه شمالاً وراء جبال البيرينيه، ومن أجل ذلك كان يترك حاميات في مواقع استراتيجية مدروسة. توقف زحف هانيبعل أمام نهر الرون، وأخذ يعد خطته لعبور النهر بسرعة كبيرة وهو يرى كتائب القبائل الغالية على الجانب الأخر تنتظره وهو يعبر النهر. فأمر ببناء طوافات لنقل فيلته إلى الطرف الآخر، وجعل خيوله تسبح وراء الطوافات المموهة. فكان منظر الفيلة – بمثابة الدبابات في ذلك العصر- وهي تندفع خارج الطوافات دون أن يوقفها أحد شيء مرعباً وتنجح خطة هانيبعل في عبور الرون بقواته التي كانت حينها تعد[2] حوالي أربعين ألفاً من المشاة واثني عشر ألفاً من الفرسان وسبعة وثلاثين فيلاً، ثم عبر نهر "ايزارا"، إلى أن وصل سفوح جبال الألب من طرفها الغربي في الخريف. ووقعت جولته الثانية ضد قبائل الكلت عند مدخل سلاسل الألب حيث أعدت له هذه القبائل كمائن في الجبال وهاجمته تحت قيادة خبراء عسكريين من إغريق مرسيلية وروما، فتمكنت من سد المنافذ الجبلية في وجهه وأشاعت الفوضى في صفوفه وأرهبت أفياله التي هاجت من فرط الضجيج وأخذت تلقي بنفسها في الوديان. لكن هانيبعل سحب قواته وساربها في ممرات جبلية جانبية، بمعرفة أدلاء يعرفون هذه المسالك الجبلية، أمام دهشة القبائل التي تعلم أنها ممرات مسدودة بكتل صخرية، وأن لا أحد يستطيع عبورها بجيش بهذا الحجم.

شق هانيبعل طريقه في الصخر بحيث أمر جنوده بقطع آلاف الأشجار من الغابات الجبلية المحيطة بالممرات ثم اشعل النار في الكتل الصخرية التي تسد ممر سانت برنار الضيق. وبعد أن التهبت الصخور وتحولت إلى جمر أحمر تم سكب النبيذ[3] والسوائل الحامضية عليها ففعل الحامض فعله في هذه الصخور، فتصاعدت الأبخرة وسط النيران الملتهبة حيث شرعت الصخور بالتفتت فاتحة الطريق أمام الزحف، فسارع هانيبعل وجيشه بعبور الممر بشكل أصبح السهل الايطالي مفتوحاً أمامه نحو الجنوب، وذلك بعد

---

[1] – أندريه ايمار وجانين أوبوايه: "تاريخ الحضارة العام– روما وامبراطوريتها". منشورات عويدات– بيروت.

[2]– يقال أنه ترك حوالي إحدى عشر ألفاً من القوات كحاميات للبلاد التي فتحها، كما سرح أكثر من هذا العدد من القوات الأيبيرية في منطقة البيرينيه بناء على رغبتهم.

[3] – تيطوس ليويوس (ليفي) في تاريخ روما": Livy, History of Rome, book: 21, 32-36

أقل من شهر من بداية عبوره للألب. وقد واجه في عبوره مصاعب هائلة[1] عالجها بعبقرية واضحة.

وصل هانيبعل بزحفه إلى ايطالية بعد عبوره الألب، ومعه، حسب ليويوس، عشرين ألفاً من المشاة، وحوالي أربعة آلاف فارس، وبعض الفيلة؟ فإن صحت هذه الرواية يكون قد عبرالألب بنصف قواته عند عبور الرون. ويبدو أنه قد أعد العدة لأداء المهمة دون انتظار وصول إمدادات من إسبانية أو من قرطاجة كما قدر بعض المؤرخين.

وصل زحف هانيبعل إلى تورينو فأحتلها في نهاية أيلول، في وقت كانت فيه روما تدرس نتائج سقوط سوجنتوم. فلما وصلت أنباء عبور هانيبعل الجريء لجبال الألب حيث أصبح الطريق مفتوحاً إلى روما بدا الخبر لمجلس الشيوخ ولغالبية القادة والشعب الروماني بمثابة حلم مرعب لا يصدق.

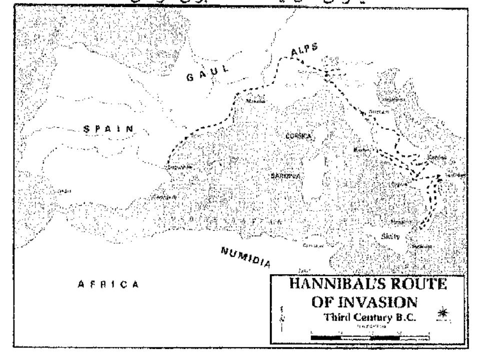
بطعنة رمح هانيبعل الثانية بعبور الألب قرر مجلس الشيوخ الروماني إلغاء هجومه البري على إسبانية وإلغاء الحملة البحرية من صقلية على قرطاجة، فاستدعى جميع جيوشه للعودة من أجل الدفاع عن ايطالية وروما. وبقرارسريع وحركة أسرع استطاعت روما نقل قواتها من إسبانية عن طريق البحر في الوقت المناسب لاعتراض زحف هانيبعل. فوصل القنصل سكيبو من إسبانية قبل وصول القنصل المكلف في صقلية، فوقعت أول مواجهة بين الطرفين عند تشينو بالقرب من بافيا، فكانت هذه أول معركة بين قرطاجة وروما على البر الايطالي، انهزم فيها الرومان برياً لأول مرة أمام هانيبعل، وسقط فيها القائد سكيبو جريحاً، ولم ينقذه إلا ابنه الذي سيتقابل ثانية مع هانيبعل على أرض المعركة في زاما بالقرب من قرطاجة سنة 202 ق.م. ومع أنّ نصر هانيبعل كان سهلاً إلا أنه شجع الغاليين والليغوريين على الالتحاق بالقرطاجيين، فارتفع عدد قوات هانيبعل إلى ما يقارب الأربعين ألف رجل. وتراجع سكيبو وعسكر وراء نهر تريبيا. ووصل الجيش الروماني بقيادة القنصل لونجوس قادماً من صقلية إلى سهل البو للالتقاء بسكيبو لاعتراض هانيبعل وذلك قبل وصول أخبار هزيمة سكيبو في تشينو إلى روما. حاول هانيبعل اعتراض لونجوس، لكن الأخير استطاع الإفلات من فخ هانيبعل، ونجح بالإلتقاء مع بقية قوات سكيبو حيث كانت تعسكر.

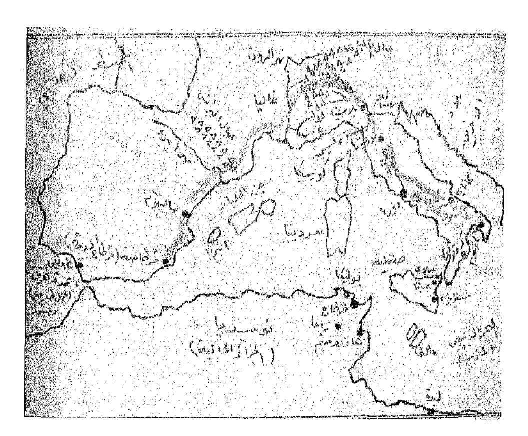
---

[1] – المصدر السابق نفسه، القسمان الثاني والثلاثين والسادس والثلاثين. وذكر بوليبيوس في تاريخه أن جدلاً حامياً نشأ بين المؤرخين والكتاب حول هذا العبور. انظر:
The History of Polybius, 2 Vol. Trans. By Evelyn S. Shuckburgh (Lon: Macmillan, 1889), 1: 246- 247.

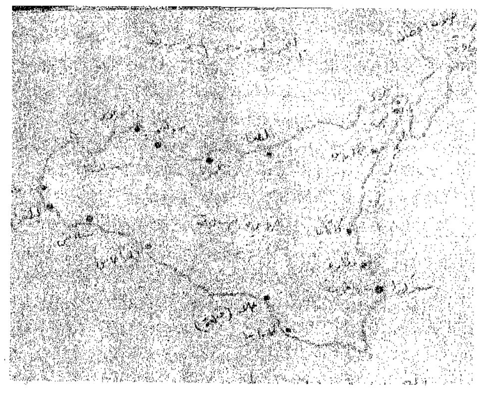


تمثال نصفي من الرخام لهانيبعل وجد في كابوا
يعرض الآن في متحف نابولي الوطني.





تشير الأسهم إلى مسار حملة هانيبعل في غزوته لايطاليا



خريطة صقلية

معركة بلاسنتيا على نهر تريبيا

تمكن قنصل صقلية لونجوس من إقامة دفاعاته وتحصيناته على الضفة الأخرى للنهر قبل حلول الشتاء. ووقعت الجولة التالية في نهاية الشتاء عند نهر تريبيا. حيث طاف هانيبعل أطراف النهر على الجانب الذي كان يعسكر عليه، فاكتشف وجود تل على ضفته تحيط به غابة كثيفة، فأمر أخاه ماجو أن يشرف بنفسه على اختيارألفين من الفرسان الأشداء يمكثوا منتظرين على أتم الاستعداد في الغابة. وفي الصباح الباكر والثلوج تهيط، أمر هانيبعل جنوده بإشعال النيران ويدهن جلودهم بالزيت الدافئ، وبعد أن سرى الدفء في أوصالهم أرسلهم عبر النهر، فاستقبل الرومان موجة الهجوم دونما إنذار، فبادرت مشاتهم إلى الالتحام بالمهاجمين عند ضفة النهر، فأخذ المهاجمون بالانسحاب عبر النهر إلى الجهة التي جاءوا منها طبقاً للخطة، فانطلق الرومان وراءهم إلى الضفة الأخرى، وخلال ساعة أو أكثر كانت معظم القوات المقاتلة من الجيش الروماني قد عبرت النهر والتحمت في قتال فعلي مع مشاة هانيبعل. وفي مفاجأة لم يتوقعها الرومان انفتحت الغابة وخرج ماجو بفرسانه من وراء الرومان، وأطلقت الفيلة إلى ساحة القتال، فتم سحق عشرات الألوف من الجنود الرومان وقعوا في الفخ المحكم الذي نصبه هانيبعل، واستطاع عشرة آلاف جندي روماني الانسحاب إلى مدينة بلاسينيا عند مصب نهر البو على الساحل الغربي الشمالي للأدرياتيكي تاركين وراءهم أربعين ألفاً من القتلى والأسرى والمفقودين.

معركة بحيرة تراسيمينو

في عام 217 ق.م عبر هانيبعل نهر البو وقضى الشتاء على السفوح الغربية الدافئة، ثم بدأ بالتقدم جنوباً أوائل الربيع حيث اختار طريقاً خطراً للغاية شق ايطالية طولياً إلى نصفين وهو يتجه نحو روما. وأصيب خلال زحفه بالتهاب في عينيه ففقد إحداهما. وفي هذا الوقت كان القنصل فلامنوس قد جمع ما تبقى له من قواته في تريبيا وانسحب بها جنوباً إلى أريزو، التي تبعد مائة وسبعين كيلومتراً عن روما، لإعادة بنائها قبل المواجهة التالية. لكن هانيبعل ظهر فجأة نهاية حزيران 217 في أعالي أترورية. وقرر إغراء فلامنوس إلى معركة ثابتة وذلك بإثارته من خلال تخريبه للمنطقة على مرآى منه. وحسب بوليبيوس: " قدر هانيبعل أنه إن عبر المعسكر ثم هبط إلى وراء المنطقة، فإن فلامنوس- نتيجة لانفعاله السريع- لن يقف مكتوف اليدين على ما يقوم به هانيبعل من تخريب، بل سيندفع مباشرة لمطاردته". غيرأنَ خطة هانيبعل لم تنجح في إثارة فلامنوس، ما دفعه للإلتفاف حول خاصرة فلامنوس اليسارية، وبالتالي يقطع عليه الطريق من ناحية روما. فلم يتمالك القنصل فلامنوس إلا أن يبدأ بمطاردة قوات هانيبعل ناسياً جميع خططه السابقة، حيث وجد نفسه يقع في فخ آخر، إذ أخذ هانيبعل ينهزم أمامه إلى الجنوب حتى كورتونا التي أعد فيها قوة صغيرة عند مدخل وادٍ حول بحيرة

تزاسيمينو، فأغراه بالمضي في مطاردته إلى وسط الوادي. وهناك انفتحت من أطراف الوادي سحب السهام والرماح والأحجار في معركة لا يظهر فيها من الخصم إلا أصوات استغاثاته وصرخاته. فخسر الرومان حينها حوالي عشرين ألفاً من جنودهم، منهم خمسة آلاف وقعوا في الأسر، والباقون ماتوا في الوادي ومن بينهم القنصل فلامنوش نفسه. في حين لم يفقد هانيبعل أكثر من ألف وخمسمائة من جنوده. وقد مثلت هذه المعركة خسارة كبيرة عدت من معارك الخسران الكبيرة في التاريخ الروماني[1]. وبذلك أنهى هانيبعل القوة الرومانية الوحيدة القادرة على وقف اندفاعه نحو روما. لكنه كان يدرك جيداً أنه بدون آلات الحصار اللازمة والدعم الضروري لن يتمكن من فتح المدينة، لذلك فضل استغلال نصره بالزحف نحو وسط وجنوب ايطالية لعله ينجح في تشجيع حركة تمرد عامة ضد سلطة روما العليا. وقد علق هانيبعل بعد معركة البحيرة مخاطباً الايطاليين: " لم آت لمحاربة الايطاليين، ولكنني جئت لمحاربة روما نيابة عن الايطاليين"[2].

عين مجلس الشيوخ الروماني فابيوس ماكسيموس دكتاتوراً، فتبنى استراتيجية عرفت باسمه، وذلك بتجنب المعارك المفتوحة مع عدوه، بينما وضع عدة جيوش رومانية صغيرة لمناوشة هانيبعل والمحافظة على إشغاله للحد من حركته. قدر هانيبعل السير نحو كامبانية التي تعد من أخصب وأغنى المقاطعات الايطالية على الساحل الجنوبي الغربي على أمل إجبار فابيوس للقائه، غير أنَ فابيوس بقي حذراً من المواجهة، حيث أدى ذلك إلى شعور الرومان بالامتعاض لاعتبارهم أنَ خطة عدم المواجهة تعد نوعاً من الجبن. وللتغلب على الخروج من إغلاق الممرات إلى خارج كامبانية، والتي أغلقها فابيوس، قام هانيبعل بحركة ظاهرها الانسحاب نحو الغابات، وعندما تحرك فابيوس وراء هانيبعل خرج هانيبعل من الممر إلى خارج كامبانية دونما اعتراض، فأصبح فابيوس على مسافة قريبة للاشتباك معه، لكنه آثر الحيطة والحذر لأنه اشتم رائحة الخديعة والمكر، فاستمر في مكانه. وبعد خروجه من كامبانية وجد هانيبعل أن يرتاح وجنوده على سفوح الأبوليان Apulian. وقد عد هذا الخروج من قيادة عسكرية كلاسيكية وجدت، كما دائماً، نفسها خارجة من محنة عسكرية محققة، خروجاً غير مألوف. حيث مازال هذا التملص التكتيكي تحت الدراسة الدائمة في الكتب والأكاديميات العسكرية. فجاءت نتيجة المعركة كضربة مؤلمة وقاتلة لفابيوس وسمعته العسكرية انهت مستقبله السياسي والعسكري.

عمد هانيبال إلى استمالة الشعوب الايطالية وتشجيعها بالإنضمام إلى قواته وحثها على طلب الاستقلال بخروجها من الاتحاد الروماني وتأسيس حكومات محلية مستقلة. فأخذت مدن الإغريق وجزرها تنتظر دورها بأمل متزايد. وأمام كل ذلك وجدت روما ألا سبيل أمامها إلا الاستمرار بالمواجهة.

---

[1] – وصفت شعبة التاريخ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية الخطة بنقطة تحول مهمة في التاريخ العسكري.

[2] – Comparing Strategies of 2nd Punic war, by James Parker: الاستراتيجيات المقارنة في الحرب البونية الثانية، تأليف جيمس باركر.

بين حاجة روما إلى القتال وحاجة حكومتها إلى الحذر اختارت روما طريقاً وسطاً، وذلك سنة 217 ق.م، تمثل في مطاردة هانيبعل ومناوشته دونما اشتباك معه، ومحاولة قطع خطوط إمداداته ومواصلاته وإرغامه على توزيع قواته في جبهة متزايدة الاتساع. وتم اكتمال الحشد الروماني نهاية 217 ق.م، بانضمام قوات القنصل باولوس أوائل ربيع 216 ق.م إلى قوات القنصل الثاني غايوس فارو في آبوليا. تقدم الحشد باتجاه كاناي Cannae لمواجهة هانيبعل وقواته في معركة من أهم معارك التاريخ العسكري القديم.

معركة كاناي الشهيرة (216 ق.م)

تعلم الرومان دروسهم بعد موقعة البحيرة، فعين مجلس الشيوخ قنصلين جديدين صفتهما الرئيسية المشتركة كانت: الحذر، هما: غايوس ترنتيوس فارو ولوكيوس إميليوس باولوس. فجهزوا جيشاً جباراً تحت قيادتين سارتا لتجتمعا في حشد واحد لملاقاة هانيبعل في سهل أبوليا حيث وجدوه على الضفة اليسرى لنهر أفيدوس.

تقع كاناي على ضفة نهر أفيدوس الشمالي إلى الشرق الجنوبي من روما بمسافة تقدر بـ 250 كيلو متراً. واتخذ الحشد الروماني مواقعه حول كاناي، فكان أكبر جيش حشدته روما حتى ذلك التاريخ، وضمت تشكيلاته أكثر من ستين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان ووحدات خاصة لقذف المنجنيق وأخرى للقيام بغارات ليلية. وتوزعت القيادة بين القنصلين بحيث يتوليا القيادة بالتناوب اليومي. بينما كان جيش هانيبعل يعد حوالي الأربعين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف فارس أو أكثر قليلاً.

أحكم هانيبعل خطته بمعرفته للطبيعة التي كان يتميز بها فارو الذي كان يقود الحشد الروماني في اليوم الأول والذي كان واثقاً من هزيمة خصمه هانيبعل، وذلك بنصب فخ تطويق تكتيكي بحيث يمكنه التخلص من ميزة العدد الكبير للجيش الروماني وذلك بتقليص ساحة المعركة بالقدر المستطاع.

صف هانيبعل قواته على جبهة طويلة وبعرض قليل، وكثف مشاته على الجانبين، وترك لهم تنفيذ أهم مرحلة في خطته مبدياً ثقته بولائهم ومستواهم القتالي الرفيع. فوضع الجنود الإسبان والغاليين في مواجهة تشكيلات قلب الحشد الروماني كي يحصرهم في الوسط لمنعهم من الهرب إن حاولوا ذلك، وهذا قد يعني عدم اطمئنان هانيبعل لولائهم! ثم قام بتوزيع خيالته على موقعي الميمنة والميسرة، وافتتح المعركة بكتائب رماة المقاليع الذين تقدموا الصفوف فجأة وأمطروا القوات الرومانية بوابل مستمر من الحجارة الصوانية التي كانت تصل إلى الجند الروماني كأنها النصال بسرعاتها العالية وقوة عزمها القاتلة. وبعد ساعة من بداية المعركة بدأ بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة، وذلك بأن أمر بتراجع القوات الإسبانية والغالية بضع مئات من الأمتار إلى الوراء. وقد مثلت هذه الحركة أصعب جزء في الخطة، إذ أنّ مثل هذه المخاطرة يصعب حسابها والتعويل على نجاحها في وطيس المعركة. فتدفقت القوات الرومانية

باندفاعها كالسيل الجارف داخل الثغرة لملاحقة القوات المنسحبة بحيث أصبح الزحام على أشده، فتلاحمت الصفوف كتفاً بكتف وصدراً بصدر. وهنا حان دور الطعنة القاتلة بأن أعطى هانيبعل الإشارة المتفق عليها باستعمال مقصه الرهيب بأن شن مهربعل بقوات خيالته النوميدية المتحركة على يمين الجيش، وهانو بقوات فرسانه الليبيين على يسار الجيش هجومهما المفاجئ والسريع بالاطباق على خاصرتي الجيش الروماني من اليمين واليسار وكذلك من الخلف وإغلاق طريق التراجع عليها. وفيما كان اندفاع فرق الخيالة وهي تحصد الجند الرومان مثلما يحصد الفلاح بمنجله سنابل القمح، تزاحم الجند الرومان تحت وطأة الضغط والمفاجأة وتلاصقت صفوفهم إلى حد الاختناق.

كانت نتيجة المعركة خسارة الرومان خمسين ألف جندي، كان بينهم القنصل باولوس- خسر الرومان قنصلين في السنة السابقة- وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني البالغ عددهم ثلاثمائة عضو، وتسعة وعشرون تريبيوناً من مجموع ثمانية وأربعين، وبعض الممثلين الماليين؛ وجميعهم قد رافقوا الحشد الروماني الهائل ليروا بأم أعينهم النصر الذي كانوا متأكدين من الفوز به، وهذا يعني أن ثلاثين بالمائة من الجسم الحاكم في روما قتل في المعركة. في حين قدرت خسارة البونيين بأقل من ستة آلاف رجل غالبيتهم من الغاليين والإسبان.

تحطمت قوات روما المسلحة تحت ضربات خطة هانيبعل العبقرية في كاناي[1]. وعدت هذه أكبر هزيمة ساحقة في تاريخ روما القديمة وأكبر معركة دموية في التاريخ الإنساني بالمقارنة مع ما وقع في يوم واحد. ونتيجة لما أحدثته نتائج المعركة من دوي هائل لدى غالبية الشعوب المنضوية تحت راية الاتحاد الايطالي أو الواقعة تحت احتلاله، فتسارعت هذه الشعوب إلى استقبال الهزيمة الرومانية مطالبة بإعلان الاستقلال. وانضم الكثير من حلفاء روما الايطاليين إلى هانيبعل ليأسهم من قدرة روما على حمايتهم. وأُغري إغريق صقلية على التمرد، كما طلب فيليب الرابع ملك مقدونية الدعم من هانيبعل، فقامت الحرب المقدونية الأولى ضد روما، وقام هانيبعل بتأمين التحالف ضد روما مع الملك السلوقي الجديد.

أشار المؤرخ ليويوس (ليفي) إلى فزع الرومان بعد معركة كاناي حيث كتب: "كانت أمهات الرومان يتدفقن إلى الشوارع مذعورات أمام وصول الأنباء بمسيرة هانيبعل إلى روما، ويركضن يائسات من معبد إلى آخر وهنّ يرفعن أكفهنّ بالدعاء للآلهة كي يحفظوا المدينة ومن فيها".

صار الرومان مترددين لملاقة هانيبعل في معركة ثابتة بعد كاناي، وفضلوا تكتيك حرب الاستنزاف بالاعتماد على ما يمتازون به من خطوط داخلية مؤمنة وإمدادات وقوة تجنيد هائلة ومصادر للمجهود الحربي لا تنضب. لذلك لن يمكن الرومان هانيبعل من القتال في معارك مفتوحة في ايطالية بعد الآن.

[1] – عدّ المؤرخ شيلفن معركة كاناي التاريخية نموذجاً أعلى لنصر حاسم يجندل الخصم ويبيده تماماً.

مأزق هانيبعل (هانيبال) (هاني بعل)

أرسل هانيبعل إلى قرطاج العاصمة لإمداده بمزيد من الجند والمؤن حيث كان قد خسر الكثير من جنوده وقوانه في جميع المواجهات التي خاضها مع الرومان منذ بدأ زحفه من قرطاجة الجديدة. وقدر أنَ ما يحتاجه من حشد قتالي لحصار روما وفتحها كمدينة محصنة لا يقل عن خمسين ألفاً من جنود المشاة للوقوف أمام بوابات المدينة وأبراجها، وعلى الأقل عشرة آلاف من الفرسان لحماية ظهر الجيش الذي يحاصر المدينة صداً لأي غارات متوقعة تفاجئ هذه القوات من الخلف، إضافة إلى المئات من آلات المنجنيق والأبراج المتحركة والسلالم لفتح ثغرات في الأسوار وضرب تجمعات العدو المرابطة فوق الأسوار والأبراج ولتغطية القوات وهي تزحف باتجاه الأسوار لتسلقها.

انتظر هانيبعل إمدادات قرطاجة التي طلبها، ولكن الإمدادات لم تصل. ولما طال انتظاره دون وصول ما طلب أدرك عجز قرطاجة عن إرسال الإمدادات، إن كان لعدم القدرة على تلبية طلباته أو لسياسة مقررة. فقرر إلغاء الزحف إلى روما والتوجه جنوباً نحو البحر. وقد أثار هذا القرار معارضة شديدة من هيئة أركانه إلى حد أن صرخ أخاه مهربعل قائد الفرسان قائلاً له: " إنك ياسيدي تعرف كيف تكسب معركة، ولكنك لا تعرف كيف تحرز النصر"[1].

حينما قرر هانيبعل إلغاء الزحف إلى روما والتوجه نحو الجنوب، لم يتوقع أن ينجح الرومان باكتساح إسبانية أو أنَ أخاه صدربعل لن يتمكن من إمداده. لقد بنى خطته منذ البداية على أساس تجنب الالتحام مع الأسطول الروماني وإنما إنهاك روما بالمعارك البرية واحتلال موانئها في جنوب ايطالية تمهيداً لإخراج قواتها البحرية من المتوسط وربط جسر إمداداته مع شواطئ أفريقية وإسبانية.

في نهاية 216 ق.م كان تنفيذ خطة هانيبعل ما يزال يبدو ممكناً لأنَ الهجوم الروماني جنوب نهر الايبرو في إسبانية لم يكن قد وقع بعد، وكان هانيبعل ما يزال يسير في الاتجاه الصحيح، حيث نجح بالاستيلاء على الموانئ الايطالية الجنوبية، وينتظر هناك وصول الإمدادات التي طلبها من جديد. انتظر وصول الإمدادات وهو على الساحل الجنوبي، لكنها لم تأت، وأمام يأسه يضطر مرة أخرى أن يعبر نصف ايطالية شمالاً. إذ أدرك ان خطة الرومان الشاملة هي في شن هجمات سريعة وخاطفة في جبهات متعددة لتوزيع جيشه على أكبر قدر ممكن من المواجهات وبالتالي تمزيقه في جيوب موزعة على هذه الجبهات. ولذلك لم يبق أمامه إلا العودة إلى روما. ويمر في طريقه بالقرب من كابويا حليفته، والتي كانت تحت الحصار الروماني، لكنه لا يتقدم لإنقاذها بل يعبر النهر أمام دهشة القادة الرومان الذين اعتقدوا أنه جاء لنزالهم.

---

[1] – John Prevas, Hannibal Crosses the Alps, P.66: هانيبعل يجتاز الألب، جون بريفاس، ص 66.

وصلت مسيرة الحرب في ايطالية إلى الوقوع في مأزق اللاحرب واللاسلم تقريباً، حيث بدأ الرومان حرب استنزاف شديدة على هانيبعل وقواته، لتأكدهم انها الطريقة الوحيدة الباقية لهزيمته، فهاجموا جيشه، الذي كان قد فقد الكثير من رجاله وعتاده، بقوات حربية صغيرة تضرب وتهرب بغية التسبب باهتراء قواته وإثارة التذمر وعدم الرضى بينها.

وجد هانيبعل نفسه في السنوات التالية مجبراً على ممارسة سياسة تأمين التزود بالمؤن المحلية لتأمين زحفه نحو الجنوب، لذلك فقد تقلصت عملياته الصغيرة إلى التركيز حول مدن وبلدات منطقة كامبانية، فوجد صعوبة للحفاظ على مواقعه نتيجة عدم وجود دعم وإمدادات للتعويض عما فقده، ولدعم ما تحتاجه خططه. فأخذ وضعه يزداد حرجاً وحظوظه في فتح روما أخذت بالابتعاد. ومع ذلك كان لا يزال يحرز انتصارات عسكرية جديرة بالذكر، إذ استطاع تدمير جيشين رومانيين سنة 212 ق.م، وفي مرة واحدة قتل قنصلين أحدهما كان ماركوس كلوديوس مرسيلوس في معركة سنة 208 ق.م. إذاً، ترك هانيبعل دون إمدادات من حكومته، وبدعم ضعيف من حلفائه الايطاليين والمقدونيين. فبدا أمام استراتيجية الرومان الجديدة غير قادر على إحراز نصر عسكري حاسم، بل بدا أنه بدأ يخسر أرضه.

في هذا الوقت كان الحكم الحقيقي بيد القلة من مجلس الثلاثين نبيلاً، يعاونه مجلس القضاة المائة والأربعة، وليس في يد مجلس الشيوخ القرطاجي. وكان هذان المجلسان يكونان مع الطبقات الأرستقراطية والعائلات التجارية وملاك الأراضي الكبار معسكر السلام والتعاون مع الرومان، بقيادة هانو الثاني (الكبير)، في مقابل ما يمكن أن يطلق عليه معسكر الحرب بقيادة عائلة هملقار برقا. وقد سجل هانو موقفه ضد إرسال الدعم والمساندة لهانيبعل بعد معركة كاناي. كما أن حكومة الأقلية في قرطاجة أخذت على هانيبعل احتلال سوجنتوم سنة 218 ق.م دون أخذ موافقة قرطاجة مسبقاً، حيث كان معسكر السلام يرى أن مغامرة هانيبعل ستقود حتماً إلى الحرب مع روما، وستؤدي في النهاية إلى فقدان الهيبة والنفوذ في شبه الجزيرة الأيبيرية. ولذا وجدوا أن من الوجاهة مد إسبانية بما تحتاج إليه لأسباب اقتصادية على حساب مد حملة هانيبعل في عمق ايطاليا. ولأن الإدارة الحاكمة في قرطاجة هي من يملك المصادر، فقد اعتمد هانيبعل بالتزود بما احتاج إليه من إسبانية وشمال أفريقية. ولم يجد بدأ من تعويض خسائره في المعارك بمقاتلين أقل كفاءة وأقل تدريباً وأقل حماسة جندوا من الغال وايطالية خلال حملته الطويلة.

روما تحت الحصار (213 ق.م)

احتلت الجيوش الرومانية ميناء سراقوزة الاستراتيجي الواقع على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة صقلية سنة 213 ق.م. وفي العام التالي استولى هانيبعل على تارنتوم،

ولكنه لم يستطع السيطرة على الميناء، إذ سرعان ما أخذت الأمور تسير عكس تياره، حيث صَعّد الرومان حصارين على كابويا وسط شبه الجزيرة الايطالية التي سقطت في سنة 211 ق.م. واستطاع الرومان احتلال سراقوزة بكاملها، كما نجحت روما بالاتفاق مع صقلية في تحالف ضد فيليب الخامس المقدوني الذي حاول استغلال انشغال روما ضد هانيبعل في ايطالية للاستيلاء على إليرية (مونتينيغرو وشمال ألبانية حالياً). وهزم هانيبعل فولفيوس في هيردونيا (أوردونا الحالية) في منطقة أبولية سنة 210 ق.م. وفي سنة 208 ق.م قضى هانيبعل على قوات رومانية شاركت في حصار لورسي. وبخسارة تارنتوم سنة 209 ق.م، واستعادة الرومان التدريجي للموانئ المجاورة بالمنطقة أصبح وضع هانيبعل صعباً في جنوب ايطالية. لكنه استطاع سنة 207 ق.م فتح طريق إلى أبولية مرة أخرى انتظاراً لاتخاذ خطوات متناسبة لحشد موحد باتجاه روما عندما يصل إليه أخوه صدربعل قادماً من إسبانية مع قواته. فيما كانت بقية جيوش روما توالي زحفها الناجح في جنوب إسبانية، وبعض من وحداتها الفدائية الخاصة تستطلع الطرق والمسالك في شمال أفريقية المطلة على سواحل المتوسط، حيث رسمت روما الخطط للعمل على تشتيت قوات هانيبعل على أكبر مساحة ممكنة. كما أدركت روما في الوقت نفسه السر القاتل الذي حاول هانيبعل إخفاءه عنها وهو إخفاق قرطاجة بإرسال الإمدادات له. إذاً، كان قطع الإمدادات وتشتيت الجيش القرطاجي على الأرض الايطالية المعولين اللذين سيهدمان ما بناه هانيبعل في إغارته الناجحة والطويلة حتى الآن على ايطالية.

ظهر هانيبعل تحت أسوار روما سنة 211 ق.م، فكان ظهوره خلف الأسوار مرعباً لسكان المدينة حتى أنّ الأمهات الرومانيات كن يخوفن أطفالهن ليناموا: بأنّ هانيبعل (الشيطان) يقف وراء الباب (هانيبعل أنته بورتّس).

في ذات يوم، وهو يحاصر المدينة، وَصلته أخبار من داخلها أن الأرض التي يعسكر عليها بيعت في المدينة بسعرها القديم، فيخرج غاضباً باتجاه الأسوار ويقذف بوابة كولين برمحه، ويشن هجوماً شاملاً ويائساً بجيشه. لكنه يدرك الحقيقة والواقع الذي آل إليهما، فيعود لمواجهة الحقيقة المرة بواقعية أكثر فيستدير جنوباً وراء فيله سيروس. كان يعرف أنه لن يستطيع فتح روما دون وصول الإمدادات، مع ذلك كان يبث في قلوب الرومان الرعب بإبقائهم محبوسين داخل أسوارهم بانتظار وصول الإمدادات.

ضاعت طعنة رمح هانيبعل هذه المرة في الفراغ، فأدرك، ولو متأخراً، أن الرياح تغيرت إلى الجانب الآخر.

في العام 210 ق.م عبر الرومان نهر الايبرو إلى الجنوب واكتسحوا إسبانية فقطعوا الطريق نهائياً على إمدادات هانيبعل، واحتلوا قرطاجة الجديدة نفسها في السنة التالية، وأرغموا صدربعل على الانسحاب من إسبانية متجهاً إلى الشمال للحاق أخيه في ايطالية، فتمكن من الإفلات من كمين سكيبيو. وقد اتبع مسار أخيه عبر جبال البرينيه فوصل

فرنسة الحالية سنة 207 ق.م، ثم قطع ايطالية وضرب خيامه على ضفتي نهر ميتاورو قرب مدينة فانو الحالية على البحر الأدرياتيكي. ومن هناك بعث صدربعل إلى هانيبعل يدعوه لملاقاته في أومبرية. وقد قدر تحقيق نصر شامل للجيش البوني لو نجح صدربعل بالوصول والإنضمام لقوات هانيبعل. لكن، ولسوء حظ الأخوين وسوء حظ قرطاجة، وقعت الرسالة بالصدفة في يد القنصل نيرو، فأعد له كميناً على ضفة النهر، دارت فيه معركة حامية قاتل فيها صدربعل وسقط كما يسقط الأبطال. وبعد أيام شق فارس[1] متشح بالسواد معسكر هانيبعل، وترجل أمام خيمة هانيبعل ليضع راس صدربعل بين يدي هانيبعل كرسالة رومانية باقتراب الوعد الروماني للانتقام وهزيمة قرطاجة هزيمة نهائية. انتحب هانيبعل مردداً: "وأخيراً، أرى مصيرك يا قرطاج!".

كان وقع مقتل أخيه صدربعل وقطع رأسه، ومقتل أخيه ماغو في السنة التالية في ليغورية شمال غرب الساحل الايطالي، شديدي الأثر على نفسه.

أكمل سكيبو مهمته بنجاح تام في إسبانية سنة 206 ق.م، فعاد إلى روما لتستقبله استقبال الفاتحين، فجدد مجلس الشيوخ تعيينه قنصلاً في السنة التالية. أبحر سكيبو من قاعدة التجمع القديمة في صقلية ونزل في نفس المكان الذي اختاره أجاتوكليس الإغريقي قبل أكثر من مئة عام، فرسى بالقرب من رأس فارينا إلى الشمال من أوتيكا. ودارت حروب سجال بين الطرفين رافقها تبدل في التحالفات، إلى أن تمكن سكيبو من إلحاق الهزيمة بالجيش المشترك الذي واجهته به قرطاجة وإمارة نوميدية (الجزائر الحالية). بذلك كسبت روما موطئ قدم، بحيث بدأت بإحكام قبضتها على السواحل الجنوبية الغربية للمتوسط. أمام كل ذلك استدعت قرطاجة هانيبعل للعودة بقواته من ايطالية إلى قرطاجة.

كان هانيبعل يضرب حصاراً حول ميناء كروتونا المتمرد على نهاية الساحل الجنوبي لايطالية عندما بلغته أوامر قرطاجة بالانسحاب سنة 203 ق.م. فاضطر إلى فك الحصار ويبدأ الاستعداد للعودة إلى أفريقية تاركاً وراءه خمسة عشر عاماً من الجهد المضني والمتواصل في الحرب وطموحات عمر بكامله. لكنه، ترك قبل عودته إلى قرطاجة، سجلاً يروي مهمته في ايطالية محفوراً باللغتين الفينيقية واليونانية على ألواح من البرونز في معبد جونو الموجود في كروتونا.

وفي هذا الوقت، وسكيبو يحاصر قرطاجة، جرت مباحثات استمرت لفترة طويلة بين وفد من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي وسكيبو، وبين هذا الوفد ومجلس الشيوخ الروماني في روما. وكان على مجلس الشيوخ الروماني أن يتراسل مع سكيبو لتحديد شروط المعاهدة.

---

[1]- ذكرت رواية أخرى أن رأس صدربعل قطع بعد أن قتل وأحضر عبر إيطالية وثبت ليلاً على أحد أوتاد معسكر هانيبعل كرسالة تحدٍ وحرب نفسية من الجمهورية الرومانية. بحيث يمكن النظر إلى هذه الرواية على أنها أقرب للمنطق من رواية الفارس المتشح بالسواد والذي ترجل أمام خيمة هانيبعل.

أدرك هانيبعل أخيراً أنه كان واهماً عند خروجه لضرب دولة فتية مثل روما، بمواردها التي لا تنضب، بذراع قرطاجي محدود القوة والاستمرار. أدرك أخيراً أنَ انحناء جبال الألب لعبوره لن تجعل كل شئ آخر ينحني أمامه!

وصل هانيبعل في خريف 203 ق.م إلى الشاطئ الأفريقي الذي استمر في الغياب عنه لمدة خمسة وثلاثين عاماً منذ سفره مع والده هملقار برقه في عام237 ق.م. واختار النزول قريباً من سوسة (هادروميتم) التي كان يعتمد فيها على أنصار عائلته، والتي كانت تبعد مائة وستين كيلومتراً عن معسكر سكيبو. أثارت عودة هانيبعل روح الحماس والتحدي والرغبة القوية في القتال. وغادر بعدها هانيبعل بقواته وعسكر في منطقة زاما الواقعة إلى الجنوب الغربي من قرطاجة بمسافة تقارب المائة وستين كيلومتراً. في قرطاجة ويضغط من معسكر الحرب تم تعيينه قائداً عاماً لقواته العائدة معه ولقوات المجندين الأفارقة. ومن زاما أرسل هانيبعل إلى سكيبو الذي كان ينتظر وصول قوات حليفه النوميدي، ليبدءا التفاوض، فوافق سكيبو على الاقتراح. فعقدت المباحثات بين القائدين قبل يوم من المعركة. حيث عرض هانيبعل على خصمه عقد معاهدة صلح[1]: "أنا مستعد أن أترك لروما صقلية وسردينية وإسبانية وجميع جزر المتوسط، وأن أجعل قرطاجة تتعهد بألا تحاول استعادة هذه المناطق أبداً". فرد سكيبو: "إنَ روما قد أخذت مركزها الآن في أفريقية، وأرغمتك على مغادرة الأراضي الايطالية، وشروطك المقدمة الآن هي في جملتها دون الشروط التي قبل بها وفد قرطاجة قبل حين، وبالنظر إلى المصالح الرومانية يتعذر عليّ قبولها". ولم يسفر اللقاء عن نتيجة مقبولة لأي منهما، مع أنهما تبادلا عبارات التقدير والاحترام.

موقعة زاما خريف عام 202 ق.م

كان على الرومان أن يعيشوا محنة هزائمهم المتلاحقة طوال الخمسة عشر عاماً الماضية، والتي سجل خلالها هانيبعل مجده العسكري كواحد من ألمع وأعظم قادة الجيوش في العالم القديم. لكن، وعلى خلاف جميع المعارك في الحرب البونية الثانية، كان للرومان اليد الطولى في هذه المعركة، إذ كانت أعداد فرسانهم أكبر بكثير من أعداد فرسان هانيبعل، وكان عدد مشاة هانيبعل يفوق عدد مشاة سكيبو. ولسوء حظ هانيبعل وقرطاجة كان ماسينيسا أمير نوميدية قد فك تحالفه السابق مع قرطاجة وانضم بفرسانه إلى جانب سكيبو، فكان هذا التحالف النوميدي من أحد اسباب النصر الروماني في معركة زاما.

يقابل سكيبو غريمه هانيبعل، الذي رآه يطارد والده عبر نهر البو قبل ستة عشر عاماً، حيث دار من ورائه بفرق خيالتة وأوقعه في الفخ الذي طالما برع هانيبعل في نصبه.

---

[1] – انظر جورج مصروعة في كتابه" هانيبعل"، ج2، ص (25– 28)، الذي يشير إلى " تاريخ بوليبيوس". انظر شروط الصلح في الصفحتين (41– 42) من نفس المصدر. (انظر الصفحتين التاليتين..).

يتقدم سكيبو الآن لإجبار هانيبعل على دفع الثمن بنفس الخطة التي اتبعها في موقعة نهر البو.

نجح القائد الروماني في جر خيالة هانيبعل إلى مبارزات طائشة لا تلبث ان تدفعهم إلى طرف الصحراء بعيداً عن جبهة القتال وهم يطاردون الفرسان الرومان، حيث قام بعد ذلك بقطع الطريق أمامهم ثم التف بحركة مثيرة خلف خطوط الجيش منقولة حرفياً عن كتاب هانيبعل، غير أنَ المؤلف نفسه كان يقف في هذه المرة على الجبهة الأخرى.

أضاع الفصل الأخير من هذه الحرب سمعة هانيبعل بين مواطنيه. فقد خسر هو وقرطاجة المعركة في زاما. حيث غادر مع بعض فرسانه ارض المعركة إلى سوسة. واضطربت الأمور في قرطاجة رفضاً للمعاهدة وكاد الأمر يفلت من السلطة الحاكمة، إذ بدت مظاهر التمرد تنذر بالأسوأ. وبعد أيام أرسل مجلس الشيوخ يدعو هانيبعل لحضور جلسته، فألقى فيها كلمة مختصرة، قال فيها أن قرطاجة مضطرة إلى طلب الصلح إذا أرادت أن تنجو. وتم إرسال وفد لمقابلة سكيبو مكون من ثلاثين عضواً من مجلس الشيوخ طلباً للصلح وعقد معاهدة مع القائد الروماني بما لم تتقدم به روما إلى هانيبعل في ظروف كانت أكثر حرجاً لها. ويعقد مجلس شيوخ قرطاجة وحكومتها صلحاً اعتبر مهيناً بكل المقاييس، بحيث كان شبه وثيقة استسلام، لكنها الحرب، وعلى الخاسر دفع أثمان النصر والخسارة لخصمه. وقد قضت المعاهدة بموافقة قرطاجة على الشروط التالية، حسب كتاب جورج مصروعة "هانيبعل"، ج2، ص41- 42:

1- تنازل قرطاجة نهائياً عن كل ما تملك في أورية.

2- لا يحق لها أن تحارب إلا بإذن مسبق من روما.

3- تتعهد بالقتال مع روما بقواتها البرية والبحرية إذا طلبت منها روما ذلك.

4- تقدم قرطاجة المواد الغذائية لروما عندما تطلبها.

5- تحافظ على شواطئها وعلى المدن والأراضي الأفريقية التي كانت لها قبل الحرب، وتسحب حامياتها من المدن الواقعة وراء الخنادق.

6- تعقد الصلح مع مسينيسا أمير نوميدية، وتعيد لها كل ما أخذته منها، كما يجب عليها أيضاً ترسيم الحدود معها.

7- تسلم جميع أساطيلها الحربية لروما، ما عدا عشرة سفن فقط.

8- تسلم كل فيلتها المدربة على القتال إلى روما، وألا تقتني أوتدرب غيرها.

9- لا يسمح لها بتجنيد الغاليين أو الإسبان.

10- عليها تسليم جميع الفارين لديها من الجيش الروماني.

11- تدفع غرامة مالية قدرها عشرة آلاف وزنة من الفضة على دفعات متساوية ومتوالية لمدة خمسين سنة.

12- تدفع قرطاجة نفقات الجيش الروماني على أفريقية حتى يأتي جواب مجلس الشيوخ الروماني بالموافقة على معاهدة الصلح هذه.

13- تسلم قرطاجة مائة رهينة لروما؛ أعمارها بين الرابعة عشرة والثلاثين.

14- يغادر الجيش الروماني الأراضي الأفريقية في مهلة خمسة عشر يوماً ابتداءاً من تاريخ توقيع المعاهدة.

وختم سكيبو هذه الشروط بإعلان الهدنة حتى يتسنى لقرطاجة الاتصال بروما والتماس الصلح على أساس هذه الشروط.

أن تتخلى قرطاجة عن جميع أراضيها في البحر وفي أوربة وأفريقية، يعني تراجعها من امبراطورية بحرية إلى مدينة فقط. وهكذا عاملوها كمدينة، وسلبوا أسطولها، وفرضوا عليها غرامة سنوية، وحرموا عليها القيام بأي شكل من اشكال النشاط العسكري بما في ذلك الدفاع عن نفسها دون موافقة روما. وزيادة في الإهانة وضعوها تحت حماية جارتها نوميدية التي كانت على الدوام جزءاً من امبراطوريتها. شروط مهينة كان على الوفد القرطاجي المفاوض قبولها.

غير أن شعب قرطاجة لم يكن من رأي شيوخه الذين عقدوا اتفاق الصلح المهين مع القائد الروماني المنتصر، فقامت الاحتجاجات العنيفة ضد المعاهدة ومن عقدوها، فشعر أعضاء مجلس الشيوخ وتيار المعاهدة بالخوف من إفساد العامة لمشروعهم، فقرروا طلب النجدة من هانيبعل مرة أخرى لإقناع الشعب ووأد شرارة العنف والرفض، فخاطب[1] الجماهير قائلاً: "ابتعدت عنكم وعن هذه المدينة وأنا في التاسعة من عمري، وهانذا أعود إليكم بعد مرورستة وثلاثين عاماً، واعتقد أنني خبير في الشؤون العسكرية التي أمارسها منذ حداثتي.."، وأخذ باقناع الغاضبين للقبول بشروط المعاهدة لعدم قدرة قرطاجة في الدفاع عن نفسها حالياً، فاقتنع الغاضبون وانتهى الأمر لأنصار المعاهدة بموافقة مجلس الشيوخ الروماني على تصديق المعاهدة.

ازدادت الأمور في قرطاجة من سيء إلى اسوأ، فتصاعدت الضرائب على الناس لجمع المال اللازم لدفعه لروما حسب شروط المعاهدة، وأخذت الحالة الاقتصادية تزداد سوءاً وفساداً، وبدأ تذمر الناس يظهر تباعاً، وأخذت نذر عدم الرضا والغضب الشعبي تتجمع كنذر العاصفة. فيعود هانيبعل إلى قرطاج تلبية لرغبة حزبه، حزب الشعب، الذي لم يخفت نفوذه رغم هزيمة هانيبعل، في محاولة لتغيير نظام الحكم، فيتم انتخابه قاضياً في 200 ق.م، وينجح بالانتخاب رئيساً لمجلس القضاة، فيعيد الاعتبار للمنصب الذي كان قد أصبح غير ذي وزن وقيمة. ويقضي السنوات التالية في سعي دؤوب لتغيير قانون الانتخابات والقضاء على الفساد المتفشي وتطهير مجلس الشيوخ القرطاجي من عملاء الرومان والتجار الذين كانوا دائماً مستعدين لدفع اي ثمن، ولو كان مقدساً، مقابل ازدهارهم الاقتصادي، وأن يتم انتخاب المجلس، بدلاً من التعيين الذي كان يتم سابقاً،

[1] – انظر المصدر السابق نفسه على الصفحات (46 – 50).

لمدة سنة واحدة غير قابلة للتجديد إلا لمرة واحدة بدلاً من بقائهم مدى الحياة. ونجح في سن قانون جديد ينزع حصانة الشيوخ المائة والأربعة بأن جعلهم خاضعين للقانون والنظام والمساءلة. كما أنشأ ديوان التفتيش والمحاسبة العام لتنظيم الضرائب وضبط الجباية، إذ رأى ألا حاجة إلى فرض ضرائب جديدة لدفع الغرامة المالية السنوية إلى روما حسب المعاهدة، بل رأى أن ضبط الأوضاع المالية قادر على تأمين الأموال اللازمة للوفاء بالالتزامات المستحقة.

الهروب إلى الشرق (195 ق.م)

أمام محاولات هانيبعل تطبيق برنامجه الاصلاحي، وإعادة بعث وتنظيم القوة وبناء جيش قرطاجي جديد، فكل شيء قابل للحل عنده؛ أليس هو القائل: "سنجد حلاً، سنصنع واحداً". إلا أنّ بعثات التجار والأثرياء وقسم من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي وأصحاب المصالح تلاحقت إلى روما للوشاية والتحريض على التخلص من هانيبعل لخطورة ما يخطط له. ولم يكن ينقص مجلس الشيوخ الروماني، الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة، التحريض لوضع حل نهائي لأسطورة هانيبعل، فقرر إرسال بعثة إلى قرطاجة غايتها الظاهرة حل بعض المشكلات المعلقة بين قرطاجة ومسينيسا أمير نوميدية، بينما غايتها الحقيقية إلقاء القبض على هانيبعل وأخذه اسيراً مقيداً إلى روما.

في اليوم السابق لمثول اللجنة الرومانية أمام مجلس قرطاجة توجه هانيبعل إلى خارج أسوار المدينة بأن ركب حصانه بحجة القيام بنزهة، مبتعداً عن قرطاجة فوصل إلى قصره على شاطئ البحر بين أشيلا وتابوس البعيدة عن قرطاج بحدود المئة وعشرين كيلومتراً تقريباً. حيث كانت تنتظره سفينة محملة بمعظم ثروته، فأبحر حتى بلغ شرشينا في الليلة التالية لخروجه من قرطاجة.

أحدث اختفاء هانيبعل دهشة وتساؤلاً كبيرين في قرطاجة، فانتشرت شائعات متعددة لهذا الاختفاء. وتم إعلانه خارجاً على القانون وصودرت جميع أملاكه. إذ يمكن تلخيص المشهد هنا ببيت من الشعر العربي الذي قيل بعد ذلك بقرون عديدة:

وظلم ذوي القربى أشد مرارة ... على النفس من وقع الحسام المهند

إذ تبين أنّ أصحاب المصالح المذكورين في قرطاجة كانوا أشد عداءً لبلدهم ولمواطنيهم من الرومان، ولا غرابة في ذلك، فهذه سيرتهم على مر العصور والأزمان. ويعلق المؤرخ بيكر[1] على ذلك قائلاً: "عندما نستعرض عقلية تجار قرطاجة، ونرى أنهم قضوا على أملهم بالخلاص، لأسباب تافهة واعتبارات هزيلة، لانعود بحاجة إلى البحث والتنقيب لمعرفة العوامل التي أدت إلى إنهيار قرطاجة وزوالها".

---

[1] – جورج مصروعة في كتابه "هانيبعل"، ج2، ص 73.

الفصل الأخير في سيرة هانيبعل (هاني بعل)

غادر هانيبعل قرطاج سنة 194/195 ق.م إلى الشرق، كي يجنبها مهاجمة الرومان لها طلباً لرأسه، فوصل أولاً إلى صور، ومن بعدها إلى أنطيوخس الثالث ملك سورية السلوقي الذي استقبله في إفسوس. فحاول إقناعه جاهداً بنوايا روما العدوانية تجاه الشرق القديم بأسره، وأن من الأفضل قطع الطريق على روما بغزو ايطالية، وذلك بمده بأسطول من مائة سفينة حربية وعشرة آلاف مقاتل من المشاة وألف فارس للتوجه نحو قرطاجة، ثم الابحار من هناك مع أنصاره باتجاه الساحل الايطالي ليشنوا هجوماً كاسحاً على روما، ويقوم أنطيوخس بالوقت نفسه بالزحف إلى اليونان لتصبح روما بين فكي كماشة. حتى أن هانيبعل استعرض مع الملك السلوقي الجيش الهائل المجهز لغزو اليونان. ولما سأله الملك عن رأيه فيما يرى، أجاب هانيبعل[1]: "نعم، كل هذا سيكون كافياً بما يكفي للرومان، بالرغم من بخلهم وجشعهم الشديدين". غير أنَّ مستشاري أنطيوخس أدخلوا الشك على خطة هانيبعل. كما أن هذه الخطة سرعان ما وجدت طريقها إلى روما من أنطاكية ومن قرطاجة. وكان من الطبيعي أن تتحفز روما وتعيد رسم خططها، فأعادت انتخاب سكيبو الأفريقي قاهر هانيبعل في معركة زاما قنصلاً. واتصل الرومان بهانيبعل عن طريق مبعوثهم سكيبو الأفريقي- الذي كان في مهمة تفاوض مع الملك السلوقي- عارضين عليه الوقوف على الحياد في صراعهم مع السلوقيين مقابل التعهد بالحفاظ على حياته إلا أنَّ الشكوك ساورت أنطيوخس من جديد لما علم باتصال مبعوث روما بهانيبعل، فبدأ برسم خططه دون اطلاع هانيبعل عليها، لاعتقاده أنه ليس بحاجة إليه في صراعه مع الرومان، أو ربما اعتقد خاطئاً أنَّ روما ستقدر له موقفه من هانيبعل، وأنها ستعمل على كسب صداقته وربما الاعتراف باستعادة ممتلكات أجداده في أورية عن طريق التفاوض الذي أعد لها وفداً عالي المستوى. وما أن جاء عام 191 ق.م حتى كانت القوات الرومانية تحت قيادة ماتيوس أشيليوس غلابريو تجتاح آسية الصغرى وتدحر الجيش السوري في معركة ثيرموبولاي[2] Thermopylae وتجبره على الانكفاء إلى آسية الصغرى، وتلاحقه حتى أناتوليا (الأناضول). وبعد سنة[3] لاحقت الجيوش الرومانية تحت قيادة سكيبو الآسيوي أنطيوخس ودحرته في معركة مانيزيا على ضفاف نهر هرمس في منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من أزمير الحالية. ونتيجة لذلك تراجع أنطيوخس- حسب شروط الرومان بعد المعركة- من آسية الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس، وبذلك أخرج من مسرح الصراع.

---

(1)- رواية أولوس غيليوس Aulus Gellius.

(2) - ممر يقع بين الجبال والبحر في اليونان على بعد 200 كم إلى الشمال الغربي من أثينة.

(3) - روى سترابو وبلوتارخوس أن الملك السلوقي عين هانيبعل قائداً للبحرية السلوقية سنة 190 ق.م، ولكنه هزم في معركة على نهر يوريميدون Eurymedon River؟

لم يكن هانيبعل بحاجة إلى الانتظار ليتأكد أنّ تسليمه للرومان هو أحد شروط الصلح بعد معركة مانيزيا، فركب سفينته وانطلق بعيداً من خليج بامفيليا قاصداً جزيرة كريت التي كانت ملجأً ومرتعاً للقراصنة، فأقام في كورتينا على سفح جبل إيدا. وفي كورتينا ابتكر حلاً سحرياً لسبائك ذهبه؛ حيث قام بملء جرار كثيرة بالرصاص وغطاها بالذهب ثم وضعها علناً وباحتفال رسمي في معبد البلدة وجعلها أمانة في حماية الآلهة، خوفاً من اللصوص، فسر أهل البلدة أيما سرور. أما سبائك الذهب الحقيقية فقد وضعها في أوعية نحاسية عتيقة ألقاها دونما عناية بحقل قريب من منزله.

تلقى هانيبعل دعوة من الملك بروسياس الأول ملك بيثينيا Bithynia – أحد أصحاب الاقطاعيات المتناثرة حول البوسفور- الذي كان في حالة حرب ضد حليف روما الملك يومينيوس الثالث ملك برجامة. فسافر إليه وأقام بضع سنوات في كنفه، وعمل كمستشار له في الشؤون العسكرية والسياسية، ووضع خبرته تحت تصرف الملك وأشرف له على تخطيط عاصمته "بروزا"، وهي بروز الحالية، كما أشرف على بناء أسطول تولى قيادته بنفسه. وحقق له انتصاراً بحرياً ضد برجامة التي كانت تقع في غرب آسية الصغرى إلى الشمال من أزمير الحالية قريباً من شاطئ بحر إيجة، وكانت عاصمة الايتوليين في القرنين الثالث والثاني ق.م، واشتهرت بمؤسساتها الثقافية وبمكتبتها الشهيرة التي أهداها ماركوس أنطونيوس إلى كليوبترا لاحقاً. كل ذلك كان مقابل امتناع الملك عن التعاون مع روما. غير أن الملك بادر إلى خيانة الاتفاق لما طلبت منه روما تسليمها هانيبعل، فلم يجد بروسياس مهرباً من الاستجابة لطلب روما، أشار[1] على الرومان قائلاً: " أنا أحتج على طلبكم لأنه ينتهك حرمة الضيافة في بلادي، وأرفض تسليمه لكم، فإن شئتم فتعالوا واقبضوا عليه بأنفسكم".

كان هانيبعل يدرك، وخصوصاً بعد معركة مانيزيا، أن قدره النهائي قادم لا محالة، فاستعد لمواجهته. حيث كان يقيم في سنة 183ق.م في ليبيسا Libyssa الواقعة على الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة، وهو مكان محصن يشرف على شواطئ خليج عميق تطل عليه حصون نيكوميدية، حين جاءه أحد الخدم يقول له أن رجالاً مسلحين يقفون على باب القصر. أطل هانيبعل، فرأى الجنود يحاصرون المكان ويسدون جميع المنافذ، فأدرك أن الساعة التي كان يتحسب لها قد أزفت، وأن المقاومة ستنتهي بالقبض عليه وتسليمه إلى روما التي كان يعرف قرارها بعرضه في قفص أمام مواطنيها ثم عرضه طعاماً للاسود في الكولوسيوم الشهير في روما. غير أن هانيبعل قرر هزيمة روما في معركتها الأخيرة معه، فاختار إنهاء حياته بيده تاركاً للتاريخ أن يسجل موته الصامت على ان يعرض ذليلاً مهاناً أمام الجمهور الروماني، فشرب السم وأسلم الروح قبل وصول الفرسان إليه. وهكذا، بيسر وسهولة، رحل هانيبعل من عالم الأحياء بدخول باب الأبدية والخلود. وكان يومذاك في الخامسة والستين من عمره.

---

[1] – جورج مصروعة: "هانيبعل"، ج2، ص 86، دار المكتوب، 1959/1960.

لا يوجد تأكيد صلب على تحديد السنة التي مات فيها هانيبعل بالضبط، إلا أن رولاند ميللور[1] أشار إلى ذلك قائلاً: "لم تعرف السنة التي مات فيها هانيبعل بالتحديد؛ فهي في 183 ق.م حسب روايتي تيطوس بومبيوس أتيكوس وتيطوس ليويوس (ليفي)، وهي في 182ق.م حسب بوليبيوس الذي لم يكن زمنياً بعيداً عن الحدث (200-118) ق.م، وهي في 181ق.م حسب رواية سولبيكيوس بليثو.

قيل أن الامبراطور الروماني سبتميوس سيفيروس (193-211م) من أصول ليبية (من لبتس ماغنا، وهي لبدة الحالية على الساحل الليبي)، بنى ضريحاً فخماً لمواطنه هانيبعل. إلا أنه لا يوجد الآن إلا بقايا ضريح تحت شجرة سرو في منطقة صناعية متواضعة تقع على تلة صغيرة تبعد حوالي ستين كيلو متراً جنوب استنبول. والمكان الآن ليس أكثر من كومة من الحجارة. حيث نقب عالم الآثار الألماني تيودور فيغاند المكان، لكنه لم يقطع بأنه مدفن هانيبعل؟

الحرب البونية الثالثة (149- 146) ق.م

في عام 160 ق.م بدأ أمير نوميدية بتضييق الخناق على قرطاجة باتفاق سري مع روما، فاضطرت للوقوف دفاعاً عن نفسها دون أخذ موافقة مسبقة من روما كما جاء في نص وثيقة الاستسلام (المعاهدة) سنة 202 ق.م في أعقاب هزيمة قرطاجة في معركة زاما. فبادرت روما إلى أخذ الحجة وأنزلت جيوشها على الساحل الأفريقي لمحاصرة قرطاجة وفتحها. فسارعت قرطاجة إلى تقديم الاعتذار لروما، غير أن روما رفضت قبول الاعتذار بحجة الخوف من نوايا قرطاجة. فعرض القرطاجيون تقديم ثلاثمائة طفل من أطفال المدينة رهينة لدى روما. ولما تم تقديم الرهائن اشترطت روما جلاء سكان المدينة عنها بعيداً عن البحر، فكان هذا الشرط المستحيل بمثابة موت لأهل المدينة.

قرر مجلس شيوخ قرطاجة وسكان المدينة مواجهة حقيقة ما طلبه هانيبعل قبل خمسين عاماً، فأغلقوا أبواب مدينتهم وقرروا الدفاع عنها حتى الموت.

بعد إسبوع من تقديم الإنذار النهائي الروماني الذي يطالب بالجلاء عن المدينة زحفت الجيوش الرومانية بمشاركة من فرسان نوميدية وصدمت أسوار المدينة في الهجوم الأول لفتح ثغرات في الأسوار المحصنة، إلا أن المدافعين عن المدينة صدوا الهجوم بكفاءة لم تكن متوقعة، فتراجع المهاجمون غير مصدقين أن مدينة توقع لهم على وثيقة إعدامها تقاوم بهذا العنف.

---

[1] – Miller, The Roman Historians / ميلر: "المؤرخون الرومان"، ص 70، إصدار 1999.

بدأت عملية "الحل النهائي"، كما سماه الرومان، بالحصار الروماني المستمر للمدينة في سنة 149ق.م، وظل الرومان يقذفون المدينة بموجات متتالية من الهجمات المنسقة من البحر واليابسة لمدة ثلاث سنوات وقرطاج إليسار وهانيبعل ترد هذه الهجمات بقدرات عالية وغير متوقعة من قيادة الجيش الروماني. وهذا دليل على أن الاستسلام المذل الذي قبل به مجلس شيوخ المدينة وتجارها في 202 ق.م كان قد نجم عن تخاذل أعضاء مجلس الشيوخ وأصحاب المصالح الاقتصادية وليس عن خسارة عسكرية، إذ كان يمكن حشد الجهود للمقاومة حينها وربما إلحاق الهزيمة بالجيش الروماني. لكن الوقت قد فات على استعادة أحداث الماضي والتأمل فيها.

أرسلت روما سكيبيو الحفيد[1] الذي لاشك قرأ كتاب هانيبعل مع جده وابيه بالتبني، ومع روما، ولاشك أنه كان يحمل على هانيبعل وقرطاج، وربما اعتبر أن قيادته للحملة لتدمير قرطاجة وتسويتها بالأرض كانت نوعاً من الثأر العائلي المؤجل، إلى جانب الرؤية الوطنية الرومانية إن جاز التعبير. حيث افتتح سكيبيو الحفيد هجومه على قرطاجة في سنة 146 ق.م بالتقدم إلى الميناء. وكانت قرطاجة قد فرغت على عجل من بناء ثلاثين سفينة في محاولة لكسر طوق الحصار وتزويد المدينة بالمؤن. نجحت القوات الرومانية بالاستيلاء على السفن القرطاجية في المرفأ. وبعد الانتهاء من نصب آلات الحصار المتعددة أمام الأسوار اندفعت القوات الرومانية الخاصة لقيادة الهجوم تحت غطاء كثيف من القذائف الحربية للمنجنيقات والقذائف المشتعلة.

استمر عنف الهجوم لستة أيام دون توقف. فأدرك قائد فرق الخيالة القرطاجية وحاكم المدينة صدربعل أن لا فائدة من المقاومة، فطلب لقاء القائد الروماني وانحنى أمامه طالباً الرحمة للمدينة وأهلها، فلما رأت الزوجة استعطاف زوجها لخصمه لعنته وألقت بنفسها مع طفليها من شرفة معبد إشمون في لهيب نيرانه المشتعل، تماماً مثلما فعلت إليسا قبل سبعة قرون. فاندفع سكان المدينة للقتال من جديد في معركة عنيفة أخيرة يائسة أمام المنظر المهيب لرفض الزوجة الخنوع المهين للرومان يحدوها إيمان سامٍ بالعزة والكرامة والفداء. فيما كان القائدالروماني يشرف من موقعه على عمليات قواته الخاصة وهي تنفذ تعليماته في "الحل النهائي" بإشعال النيران في كل بيت وفي كل شئ في المدينة.

انطفأت النيران في المدينة بعد سبعة عشر يوماً من اشتعالها في جميع أنحائها دون استثناء، وختم سكيبيو معركته بترديد بعض من أشعار هوميروس، ثم أمر بحرثها ورش أرضها بالملح حتى لا ينبت فيها زرع ولا يعيشُ فيها ضرع.

---

[1] - تواجه القائد الروماني سكيبيو الجد: ببليوس كورنيليوس الملقب بسكيبيو الأفريقي الكبير (249-183) ق.م، مع هانيبعل سنة 218 ق.م، في معركة تشينيو بالقرب من بافيا، بعد عبور الأخير نهر الرون وجبال الألب، وسقط جريحاً، ولم ينقذه إلا ابنه سكيبيو الذي هزم هانيبعل في معركة زاما سنة 202 ق.م. أما القائد سكيبيو الحفيد (185- 129) ق.م، فهو سكيبيو أمليانوس الملقب بالأفريقي الصغير، ابن سكيبيو الابن بالتبني.

سقطت قرطاجة بين أشداق الموت، فدمرت بالنهب والسلب والقتل والنيران حتى سويت بالأرض، وبيع السكان في أسواق العبيد، بعد أن ألقت زوجة حاكم قرطاجة حفيدة إليسار نفسها في لهيب معبد إشمون المشتعل لكي لا تسلم نفسها للغزاة. وحظر على السكان البقاء في المدينة إلى أن تم رفعه بعد سنوات طويلة.

طرح كتاب أندريه ايمار وجانين أوبوايه[1] السؤال التالي: "هل كان بإمكان قرطاجة أن تنتصر؟ ربما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.. بعد سبعة قرون طوال من الحياة والنشاط العارم، زالت وتوارت عن مسرح التاريخ دون أن تترك وراءها أثراً عميقاً تردده الأجيال. ومهما يكن الدور التاريخي الذي لعبته المدن الفينيقية ضئيلاً ومتواضعاً، بالنسبة لقرطاجة، فقد طبعت هذه المدن تطور المدنية بأكثر مما طبعته قرطاجة".

هكذا الدهر (أيام التاريخ): ".. يوم لك ويوم عليك، فإن كان الذي لك فلا تبطر، وإن كان الذي عليك فاصبر، فكلاهما سينحسر"[2]. عاد العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد ثمانية قرون من هزيمتها النهائية على يد الرومان، ثم عادت للفرنجة بعد ثمانمئة عام من حكم العرب. فلا تأسفن على مافات، وتأمل بما هو آت.

صورة هانيبال في كتاب التاريخ العام

مثلت قرطاجة، وهانيبعل خاصة، في الفكر الغربي أول تحد حقيقي واجه مشاريعه الامبراطورية، ولا تزال دلالات هذا التحدي قائمة حتى الآن في مدارسهم ومراكز أبحاثهم. كان حظ قرطاجة السيء أنها أصبحت عظيمة في الوقت الذي بدأ فيه نجم روما بالصعود.

لم تتطور قرطاجة بشكل أساسي عن المفاهيم والعادات والتقاليد التي حملها معهم روادها الأوائل، والتي أحضروها معهم من صور، فبقيت حاملة لمنابعها الفينيقية الشرقية، لكنها قصرت عن توحيد مراكزها المنتشرة في شمال أفريقية وسواحلها على المتوسط وإسبانية والجزر في عرض المتوسط الغربي في دولة موحدة الأهداف والغايات تثريها براعة مواطنيها بالتجارة والصناعة والإقدام ويحميها جيشان قويان على اليابسة وفي البحر، وأن تقود انتصاراتها إلى خلق فكرة دولتية مؤسسية متجددة تعتمد على فكرة شعبية واحدة تدعمها مؤسسات دستورية كما فعلت روما، لا أن تعتمد على العائلة والفرد البطل. حتى أن ارتباطها في قاعدتها بالوطن الأم تلاشت مبكراً. بينما بقيت روما دولة متماسكة بمؤسساتها رغم الهزائم الكبيرة والمستمرة على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً من صراعها الدموي ضد قرطاجة، وعلى مدى عمرها الطويل. إذ ربما يعود ذلك

---

[1] – "تاريخ الحضارة العام – روما وإمبراطوريتها"، ص 39، ت: يوسف وفريد داغر، دار عويدات– بيروت.

[2] – الإمام علي (رض). وفي (الأمالي 1: 102، وفي شرح ابن أبي الحديد 4: 154) من وصية أوس بن حارثة لابنه مالك.

بالدرجة الأولى إلى النظام المؤسساتي العام الذي كانت تتبعه روما في فترة الجمهورية الرومانية..

في النهاية واجهت قرطاجة روما لوحدها بعدما انفض النوميديون والبربر والليبيون والأفارقة عنها كل يحارب في سبيل أهدافه الخاصة.

1- تقول الأوصاف القليلة التي وصلتنا عن شخصية هانيبعل أنه كان رجلاً هادئاً، رصيناً، كامل الاستقامة، متين الأعصاب ورابط الجأش في أصعب الظروف، لا يشرب الخمر إلا قليلاً، مترفقاً مع النساء، عفيف النفس، أنوفاً، لم يكن أنانياً، قدوة لجنوده، يضع حلاً لكل أمر.. إلا أن بعض المؤرخين من أمثال ليويوس (ليفي) وشيشرون اتهموه بالقسوة وحب المال!

2- كان القائد القرطاجي، البوني، الفينيقي، الكنعاني، السوري، عبقرياً متفوقاً قهره تضامن الرجال العاديين في قرطاجة! في الوقت الذي كان فيه القادة والمؤسسات الرومانية منسجمين كلياً في فكرة بناء الدولة - الامبراطورية.

3- طويت صفحة من أكثر صفحات التاريخ الإنساني العسكري إثارة وجرأة، وصفة بطلها: "اسمي هانيبال: أي مكان أرتقي؟ أي عظيم أتقي؟ أي شيء عظيم أن يكون الإنسان موهوباً بهذا الشكل الاستثنائي عند ولادة عبقرية توازي أي طموح إنساني مهما كان نوعه"[1].

4- قيل أن هانيعل علم الرومان معنى الخوف، فبقيت الأمهات الرومانيات لأجيال متتالية يخوفن أطفالهن بخرافات عن هانيبال إن تصرفوا بطريقة ليست مرغوبة أو لجعلهم يذهبون إلى النوم. وكان أعضاء مجلس الشيوخ الروماني يرفعون أصواتهم عند مواجهتم لمصيبة كبيرة بأن هانيبال أمام الأبواب (Hannibal ante Portas)، وأن هذا التعبير ما زال يستعمل حتى الآن عند مواجهة مشكلة، أي أن المشكلة أمامنا لم تحل. وهذا يفسر رد الفعل النفسي الذي تركه حضور هانيبال إلى ايطالية على الثقافة الرومانية. استشهد المؤرخ اللاتيني تيطوس ليويوس (ليفي) في كتابه: "الحرب ضد هانيبعل The war with Hannibal, 26.8": "..كان بكاء الأطفال يسمع في كل الأماكن، ليس في البيوت الخاصة فقط، وإنما في المعابد إذ كان المتوسلون ينبطحون على أرض المعبد بشعورهم المشتعلة وأيديهم مرفوعة بالدعاء إلى السماء في حالة تضرع للآلهة لإنقاذ المدينة من براثن العدو، وأن يحفظ الأمهات والأطفال من الأذى والاغتصاب".

5- يلاحظ في كتابات الكتاب اللاتين، وخاصة تيطوس ليويوس وفرونتينوس وجوفينال، نوعاً من الاعجاب المشوب بالحسد والحقد. وقد بنى الرومان تماثيل عديدة في ساحات روما وشوارعها ترمز إلى هزيمة هانيبال وهزيمة قرطاجة.

6- غالبية المصادر التي أرخت لهانيبال لاتينية، وهم يعدونه أخطر عدو واجهته روما على مدى تاريخها الجمهوري والامبراطوري.

---

(1)- Pulbius, 22, 7, IX

7- بعد انتهاء المعركة، بحث هانيبال عن جثة القنصل غايوس فلامينوس على ضفاف بحيرة تراسيميتو فلم يجدها. لكنه أقام احتفالاً جنائزياً رسمياً للقنصل لوكيوس إميليوس باولوس، وأرسل رماد جثة مارسيلوس إلى عائلته في روما، وذلك حسب بوليبيوس الذي اتهم بتعاطفه مع هانيبال، بيد أن بوليبيوس الذي عاش رهينة لفترة طويلة في ايطالية اعتمد على مصادر رومانية في روايته.

8- صار اسم هانيبال اسماً مشتركاً في الفنون والآداب والثقافة الشعبية.

9- لم يظهر في جميع المصادر ما يفيد بصورة وافية عن علاقة هانيبال بالمرأة، غير أنه كان رفيقاً بها.

10- أكسبته انتصاراته شهرة عظيمة خارج حدود بلاده ما يزال تأثيرها كمدرسة عسكرية يدرسُ في الأكاديميات العسكرية في جميع أنحاء العالم. ويبقى عبوره للألب عملاً عسكرياً استثنائياً في تاريخ الحروب القديمة بحيث استولى على خيال العالم منذ ذلك الحين.

11- أطلق المؤرخ تيودور دوج على هانيبال"أبو الاستراتيجية" في كتابه "تاريخ الفنون الحربية عند القرطاجيين والرومان". ووصفه نابليون، ودوق ولنغنتون الذي هزم نابليون في معركة واترلوو سنة 1815م، بالاستراتيجي الموهوب.

12- كان عبور هانيبال للألب عملاً عسكرياً باهراً بكل المقاييس هز عالم البحر الأبيض المتوسط خلال العقدين القادمين، بحيث يمكن اعتبارها حرباً عالمية بمقياس ذلك الزمن وربطت ثلاثة أرباع سكان العالم القديم: البوني- الأفريقي- الروماني. والقليل من شعوب المتوسط التي استطاعت الافلات من ويلات هذه الحرب التي أفقدت كل أسرة في روما فرداً أو أكثر من أفرادها.

13- روى شيشرون أنه بينما كان هانيبال يستمع لمحاضرة الفيلسوف فورميو في مجلس أنطيوخس الثالث، وفي نهاية المحاضرة، سُئل هانيبال عن تعريفة للقائد العسكري الكفؤ، فأجاب: " لقد رأيت في حياتي الكثير من الحمقى، غير أن الذي تسألوني عنه هزمهم جميعاً".

14- يروي المؤرخ اليوناني أبيان Appianus الذي عاش في القرن الثاني، أن هانيبعل عمل كمستشار عسكري وسياسي للملك السلوقي أنطيوخس الثالث، حينما التقى بسكيبو في مدينة الألعاب الرياضية بأنطاكية وتبادلا الأحاديث والأراء عن كفاءة القائد العسكري، حين سأل سكيبو هانيبال عمن يعتبره أعظم قائد عسكري؟ رد هانيبعل: الاسكندر المقدوني. أيد سكيبو ما قاله هانيبعل، ثم سأل ثانية، ومن يأتي بعد الاسكندر؟ رد هانيبعل: بايروس الإبيروسي لأنه اعتبر الجرأة في المقام الأول. شعر سكيبو بالاغتياظ الذي استطاع كتمانه، وسأل هانيبعل من جديد، ومن يأتي في المركز الثالث متوقعاً أن يجيب هانيبعل بتسميته، لكن هانيبعل رد قائلاً: أنا نفسي، لأنني عندما كنت صغيراً فتحت إسبانية، وعبرت الألب بجيشي، وكنت الأول بعد هرقل، فغزوت ايطالية، وأدخلت

الرعب إلى قلب كل واحد منكم، وفتحت أكثر من أربعمائة مدينة وبلدة، ووضعت عاصمتكم روما في خطر شديد، علماً أن الأموال والإمدادات لم تصلني خلال كل هذا.. ولأن سكيبو لاحظ استمرار هانيبعل في افتخاره بنفسه، ضحك مقاطعاً وسأل: وأنت ياهانيبعل، أين تضع نفسك، إن لم أكن قد هزمتك؟ أدرك هانيبعل غيرة سكيبو، فرد: في هذه الحالة سأضع نفسي قبل الاسكندر، واستمر يفتخر بنفسه، ثم أخذ يطري سكيبو بطريقة لطيفة مضمناً أنه قهر الأقوى من الاسكندر. وفي نهاية الحديث دعا هانيبعل سكيبو إلى مائدته، إلا أن سكيبو اعتذر قائلاً: يسعدني ذلك لولا وجودك في بلاط أنطيوخس- الذي لم يكن الرومان يثقون به- وهذا يظهر أنَّ الاثنين تصرفا كقائدين عظيمين وضعا عداواتهما جانباً بنهاية الحرب، وقد وردت هذه الرواية في كتاب أبيان"تاريخ الحروب السورية"، وفي كتاب ماري ماكريغور"موت هانيبال وقصة روما".

15- مقالة ماكسيمليان أوتوبسمارك كاسباري، 1911 (الموسوعة البريطانية):

في الحديث عن تفوق عبقرية هانيبال العسكرية؛ لا يوجد رأيان؛ إنه الرجل الذي استطاع الامساك بقوة، وهو في الخامسة عشرمن عمره، بأراضي أعدائه ضد عدد من الجيوش الجبارة وتوالي القادة العسكريين الكبار القادرين، بحيث يجب ان يوصف بأنه صاحب تفوق تكتيكي هائل. كما لم يضارعه أحد من جميع القادة القدماء في رسم الاستراتيجيات والمكامن والخدع الحربية. كانت إنجازاته مدهشة، إذ يجب علينا أن نُعجب به أكثر عندما نضع في الميزان الحسد والاهمال الذي لقيه من قرطاجة. وكمحارب قديم، كان قادراً وبكفاءة عظيمة على تنظيم التجنيد وحشد الجيش عندما دعي لذلك. لم نسمع بأي تمرد في قواته، رغم أن جيشه تكون من أعراق مختلفة؛ القرطاجيين، الأفارقة الشماليين من الليبيين والنوميديين والبربر والموريتانيين، الأيبيريين، الغاليين، واليونانيين. ومرة أخرى نحن نعرف كل شيء عنه من المصادر المعادية له. ولقد شعر الرومان بالرعب والخوف منه وحقدوا عليه بشكل كبير حتى أنهم لم يكونوا واقعيين بالحكم عليه. ويتحدث مؤرخهم تيطوس ليويوس (ليفي) عن كفاءته ومنزلته الرفيعة، كما يضيف أن رذائله كانت عظيمة أيضاً، حيث يروي خيانته ومكره وقسوته اللاإنسانية. وإذا أخذنا اتهام ليويوس له بالخيانة والمكر، حيث يشير ضمناً إلى براعته في نصب الكمائن والشراك القاتلة، فهذه مبررة في الحروب. وبالنسبة لقسوته، فنحن نعتقد أنه لم يتصرف في الأزمات أكثر مما أملته عليه روح المسؤولية في القيادة. وفي بعض الأحيان كان يتعامل مع أعدائه بطريقة إيجابية ونبيلة، ولم يرو عن قسوته ما يلطخ سمعته كما فعل كلوديوس نيرو الذي قطع رأس صدربعل بعد أن قتل في المعركة، ثم زرعه ليلاً على أحد أوتاد معسكر هانيبعل. ويقول بوليبيوس أن الرومان هم من اتهموا هانيبعل بالقسوة، وقادة قرطاجة من شعر نحوه بالحسد والغيرة. وأعداؤه هم من كانوا قساة. وكانت حياته نضال مستمر ضد الأقدار من أجل غايات صلبة لتنظيم القدرات والتفوق والإنجاز والبراعة العسكرية العالية حيث لم يكن له مساوٍ، حتى أن مؤرخي الرومان اعترفوا بقيادته

العسكرية الفذة: ".. فهو لم يطلب من أحد تحقيق ما لم يكن هو نفسه قادراً على تحقيقه".

وحسب رواية بوليبيوس في تاريخه: 23، 13، ص423: "برهن هانيبعل أنه كان على درجة شخصية عالية من البراعة والقوة بحيث أنه كان قائداً حقيقياً بالطبيعة والفطرة، ولم يجاره أحد من رجال الدولة علماً انه أمضى سبعة عشر عاماً يحارب في ساحات القتال وعبر الكثير من الدول البربرية، واستخدم لخدمته الكثير من الرجال الذي كانوا يائسين، والكثير من المميزين والمغامرين من بلاد ولغات مختلفة، حتى أن أحداً من هؤلاء لم يفكر بالتآمر أو الخروج على قيادته، أو أن أحداً انضم إليه ثم انشق عنه أوهجره أوخذله، بل استطاع ببراعته تطبيعهم وصهرهم وإدماجهم لتحقيق خطله، فعرف كيف يستفيد من كل هذا اللميم إلى أقصى حد، فكان جيشه من أكفأ الجيوش في التاريخ القديم.

16– المؤرخ تيودور أيرولت دوج: " امتاز هانيبال بتكتيكاته الحربية. ولا يوجد معركة في التاريخ كقتال تكتيكي أكثر من معركة كاناي. لكنه كان عظيماً أيضاً في التنسيق العسكري والاستراتيجية.ولم يحدث أن تقدم قائد إلى الأمام والخلف وسط جيوش الأعداء والحشود التي تكبر بكثير جيشه ومعداته، فكان بارعاً ومخيفاً للجميع يقود ضباطاً محترمين بقدرات عالية من الكفاءة والبراعة في الخدع العسكرية".

أخيراً تحققت نبوءة هانيبعل: " وأخيراً، هذا هو مصيرك يا قرطاج"

الحروب البونية ودور هانيبعل (هاني بعل) وسقوط قرطاجة

ق.م	الجبهة الخارجية	الجبهة الداخلية
264 – 241	الحروب البونية الأولى: قادها هملقار والد هانيبعل. ونشبت على جزيرة صقلية بين قرطاجة والرومان. ونجح الرومان باحتلال مدن ميسانا سنة 266، وسراقوزة 265، وميلاي259، استمرإحراز روما انتصارات بحرية فأخرجت قرطاجة من كامل صقلية وسردينية وكورسيكة في سنة 241.	تمرد نوميدية ضد قرطاج. وانقسام القيادة القرطاجية بين من يدعو إلى مواجهة روما، وبين من يدعو إلى مهادنتها. واستمر الجدل حتى تم الانسحاب النهائي سنة 241.فأعلن معطي بعل الليبي تمرده. فتم وأد تمرده سنة 237 بقيادة هملقار برقا.
218 – 202	الحروب البونية الثانية: قادها هانيبعل. غادر هملقار قرطاجة إلى إسبانية بصحبة ابنه هانيبعل الكبير سنة 237 ق.م. ونجح هملقار في بسط نفوذه على كامل جنوب شبه الجزيرة. قتل هملقار سنة 228 على إثر هجوم القبائل المحلية، فتولى زوج ابنته	احتل سوجنتوم سنة 219 ق.م بعد حصار دام أكثر من ثمانية اشهر، وذلك خلافاً لمعاهدة 226 ق.م بين مجلس الشيوخ الروماني وصدر بعل خليفة والده، والتي نصت على الا يعبر الجيش القرطاجي نهر الايبرو

	صدربعل الجميل الذي اغتيل سنة 221، فأعلن الجيش هانيبعل قائداً عاماً للقوات. 1- 219: احتلال سوجنتوم. 2- 218: عبور جبال البيرينيه (البرانس). 3- 218: عبور الأبيرو والرون والألب. 4- أيلول 218: احتلال تورينو. 5- 218: معركة تشينو مع سكيبو الأب. 6- 218: موقعة بلاسنتيا على نهر تريبيا. 7- 217: موقعة بحيرة تراسيمينو. 8- 216: موقعة كاناي التاريخية. 9- 212: استيلاء هانيبعل على تارنتوم. 10- 211: روما تستعيد كابويا. 11- 211: حصار هانيبعل لروما. 12- 210: هزيمة الرومان في أبولية. 13- 209: هانيبعل يخسر تارنتوم. 14- 208: انتصار هانيبعل في لوسي. 15- 207: معركة فانو. 16- 206: الرومان يزحفون على إسبانية بعد هزيمة صدربعل في أومبارية، وقرطاج عاجزة عن إمداد جبهة القتال في ايطالية. 17- 203: هانيبعل يعود إلى أفريقية. 18- خريف 202 ق.م: هزيمة هانيبعل في معركة زاما على البر التونسي. 19- 201: قرطاجة توقع معاهدة مع روما بعد هزيمتها في معركة زاما، وتتخلى بموجبها عن أراضيها في أفريقية	نحو الشمال، فقدم الرومان احتجاجاً إلى الحكومة القرطاجية، حيث حاول "حنون الكبير"حاكم قرطاجة حينها أخذ موافقة الحكومة على تسليم هانيبعل إلى روما كتكفير عن خرق المعاهدة. إلا أنّ غالبية مجلس شيوخ قرطاجة أيدوا سياسة هانيبعل الذي صار بنظر الشعب بطلاً وطنياً يمثل عودة العزة والكرامة بعد ذل معاهدة الصلح المهينة، وأيضاً، لأنّ معاهدة الصلح سنة 241 ق.م لم تذكر سوجنتوم. ماسينيسا أمير نوميدية يخلف والده غايا وينهزم أمام سيفاكس الذي يعود للتحالف مع قرطاجة ماسنيسا يتحالف مع الرومان عشية معركة زاما ويشترك في الحرب على قرطاج وسيفاكس يعمل لإقامة دولة في شمال أفريقية.
194- 160	هانيبعل يغادر قرطاجة سنة 195/ 194. يموت هانيبعل منتحراً في الشرق سنة 183 /181؟	ماسينيسا أمير نوميدية يمد حدوده من خليج سرت إلى موريتانيا في دولة أفريقية واحدة.
149- 146	الحرب البونية الثالثة: يبدأ الرومان بحصار قرطاجة، فيفتحونها ويدمروها تدميراً كاملاً.	الرومان يضعون أيديهم على الشمال الأفريقي فيصبح جزءاً من الجمهورية الرومانية

الفصل الرابع

كليوبترا (Cleopatra) ملكة مصر

المحطات الرئيسية في حياة كليوبترا

1- 69/70 ق.م: ولادة كليوبترا.

2- 58 ق.م: طرد بطليموس الثاني عشر (الملقب بالزمار) ومعه ابنته كليوبترا من مصر، حيث التجأ إلى روما.

2- عودتها مع والدها إلى الاسكندرية سنة 55 ق.م، بعد أن عقد والدها صفقة مع قيصر وبومبيوس لإعادته إلى العرش.

4- 51 ق.م: وفاة بطليموس الثاني عشر، وولاية كليوبترا وأخيها بطليموس الثالث عشر على عرش مصر.

5- 48/49 ق.م: هرب كليوبترا إلى الصعيد ومنه إلى الحدود الشرقية ووصول قيصر إلى مصر.

6- 47 ق.م: ولاية كليوبترا مع أخيها بطليموس الرابع عشرعلى العرش، وولادة ابنها بطليموس قيصر (قيصرون) من يوليوس قيصر.

7- 46 ق.م: رحلتها إلى روما وحلولها بإحدى قصور قيصر في إحدى ضواحي روما.

8- 44 ق.م: اغتيال قيصر وعودة كليوبترا إلى الاسكندرية، وموت بطليموس الرابع عشر الغامض، وإعداد ابنها بطليموس قيصر من قيصر للحكم معها.

9- 41/42 ق.م: ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) ينتصرفي معركة فيلبي على قتلة قيصر، ويستدعي كليوبترا إلى إفسوس.

10- 40 ق.م: هجوم البرثيين الفرس على آسية الصغرى وسورية. وزواج أنطونيوس بأوكتافيا أخت أوكتافيوس، وولادة توأمي كليوبترا البنات من أنطونيوس.

11- 37 ق.م: أنطونيوس يعيد زوجته أوكتافيا من محل إقامتها في أثينة إلى روما، ويجتمع بكليوبترا في أنطاكية. ويضم أراضٍ واسعة إلى مملكتها.

12- 36 ق.م: فشل حملة أنطونيوس على ميدية (شمال سورية وجنوب تركية الحاليتين). ولادة ابن كليوبترا الثالث من أنطونيوس، والذي سمي بطليموس فيلادلفوس.

13- 34 ق.م: نجاح حملة ماركوس أنطونيوس على أرمينية. وإعلانه وصية الاسكندرية.

14- 32/33 ق.م: نشوب الخلافات بين أنطونيوس واوكتافيوس. وأنطونيوس وكليوبترا يمضيان الشتاء في إفسوس. وطلاق أنطونيوس من زوجته أوكتافيا.

15- 31 ق.م: أجريبا، قائد قوات أوكتافيوس يحتل ميثون، واحتدام المعركة في أكتيوم. وهروب كليوبترا وأنطونيوس البحري إلى مصر.

16- 30 ق.م: دخول أوكتافيوس منتصراً إلى الاسكندرية. وانتحار أنطونيوس وكليوبترا. وإعدام بطليموس قيصر من كليوبترا ويوليوس قيصر.

أصول كليوبترا واعتلائها العرش

ينتهي تاريخ مصر الفرعونية بالاحتلال اليوناني لها سنة 332 ق.م. لكنَّ مجئ الأغريق أول مرة إلى مصر لم يكن مع الاسكندر، وإنما من قبله بزمن طويل، حيث كانت العلاقات بين الطرفين ترجع إلى نهايات الألف الثاني ق.م. إذ أيدت النقوش المصرية القديمة والحفائر الأثرية مستوى هذه العلاقات، وبخاصة التجارية منها. لكنَّ مستوى هذه العلاقات انخفض إلى أدناه خلال فترة القرون الثلاثة الأولى من الألفية الأولى ق.م نتيجة الاضطرابات والفوضى التي تعرضت لها بلاد اليونان، كما تعرضت مصر في نفس الفترة تقريباً إلى أحداث عنيفة أدت إلى الاحتلال الليبي لها، ثم الفارسي فيما بعد. إلا أنَّ الاتصال بدأ من جديد بين الطرفين في أواخر القرن السابع قبل الميلاد حين بدأ عصر الاستقرار في مصر في ظل الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين صاحبه استقرار في العالم اليوناني. فتدفق اليونانيون بأعداد كبيرة إلى مصر من أجل التجارة والانخراط كمرتزقة يقاتلون الليبين والفرس إلى جانب المصريين. وقد وجد المصريون والأغريق أنفسهم يواجهون عدواً مشتركاً هو العدو الفارسي الذي كان من أقوى الامبراطوريات في العالم القديم في القرن السابع قبل الميلاد. وبذا وجد الطرفان أن مصلحتهما الاقتصادية والسياسية تقتضي تعميق علاقاتهما إلى مستوى أقل من مستوى التحالف بقليل.

بدا للأغريق، من خلال تراكم معرفتهم التجارية الوثيقة، غنى مصر كمستودع غلال يدركون أهميتها الاستراتيجية لبلادهم خاصة مع النجاح بنشوء الدولة اليونانية بتوحيد معظم بلاد اليونان في القرن الرابع ق.م، والتي صاحبها نشوء ثورة معرفية وثقافية هائلة وجهت أفكار النخبة إلى التفكير بالتوسع نحو مجالها الحيوي باتجاه الشرق. وهذا ما حققته عبقرية الاسكندر المقدوني في حملته السريعة والمظفرة على عموم الشرق القديم (333-332) ق.م، حيث أدرك مبكراً أهمية مصر الاقتصادية لبلاد اليونان ولطموحاتها العسكرية، ولهذا وجد نفسه مدفوعاً لاحتلال مصر بدلاً من ملاحقة ملك الفرس المنهزم نحو عاصمته في الشرق، وذلك بالتوجه جنوباً، حيث احتل سورية وفينيقية وفلسطين بعد معارك عنيفة حول صور وغزة، ثم اتجه إلى مصر فدخلها دون مقاومة تذكر بعد أن استسلم الوالي الفارسي، خاصة وأن المصريين كانوا قد آلفوا التعامل مع الأغريق

كأصدقاء وحلفاء ضد الفرس. لذلك رحب المصريون بقدوم الاسكندر كبطل ينقذهم من الحكم الفارسي.

اعتمد الاسكندر في تخطيطه لغزو الشرق على الصرح العظيم والاستعدادات والتجهيزات العسكرية والإدارية التي أقامها والده فيليب في مقدونية، إذ سهلت له الكثير مما كان ينوي القيام به، كما أسهمت اسهاماً كبيراً في فوزه برئاسة تسالية وكورنثية بعد أن قضى على جميع المنافسين على عرش مقدونية أو المطالبين بالانفصال.

تربى الاسكندر تربية مميزة لم يحصل عليها أي ملك من ملوك مقدونية، إذ تولى تعليمه الفيلسوف الإغريقي الكبير أرسطو (384-322)ق.م. فورث الجلد والعزم والمهارة عن أبيه، وقوة العاطفة والانفعال السريع والخيال عن أمه. وكانت لتعاليم ومبادئ أرسطو كبير الأثر في نضوجه واتساع أفاقه وسمو تفكيره، والتي رأت في المدينة- الدولة الأساس السياسي والحضاري الإغريقي. بحيث شحنته دعوات فلاسفة الإغريق وخطبهم المستمرة بأن افضل وسيلة لحفظ بلاد الإغريق من خطر البرابرة الشرقيين الفرس وغيرهم هو غزوهم وسحق حضارتهم وإنشاء النموذج الإغريقي في بلاد البرابرة بعد احتلالها.

بالغ مؤرخو الغرب بتضخيم وتفوق قوة الفرس تفوقاً هائلاً إمعاناً بإضفاء المزيد من أوصاف القوة الخارقة التي لا تقارن على انتصارات الاسكندر السريعة والباهرة، وذلك من أجل تصوير الغرب والحضارة الغربية بأنها المتفوقة على كل ماعداها على مر الأزمنة والعصور.

عبر الاسكندر مضيق الدردنيل في ربيع 334 ق.م ومعه من الجند ما يربو على ثلاثين ألفاً من المشاة وأكثر من خمسة آلاف من الفرسان بعد أن ترك قوة من المشاة والفرسان برئاسة القائد أنتيباتروس لتصريف الأمور في مقدونية والإشراف على بلاد الإغريق.، فاستسلمت له معظم مقاطعات ومدن آسية الصغرى، وتم الاستيلاء على الممرات المؤدية إلى سهل أسوس، حيث جرت وقائع معركة أسوس، التي تعد من أعظم معارك التاريخ، في تشرين الأول سنة 333 ق.م، حيث استطاعت الفيالق المقدونية إثبات قدراتها القتالية بتكتيكاتها العسكرية الثورية ضد الأنماط التقليدية للحرب القديمة للجيوش الفارسية. وقد تمت هزيمة الجيش الفارسي بقيادة الملك دارا (داريوس) هزيمة منكرة فتفرقت قواته في كل الأنحاء. لكنَ الاسكندر لم يقتف أثر دارا، بل اتجه صوب فينيقية في حركة التفاف لتحطيم الاسطول الفارسي المسيطر على بحر ايجه.

وصل الاسكندر إلى مدينة مرياندوس الفينيقية القديمة وأسماها الاسكدرية (الاسكندرونة)، وأكمل زحفه نحو الجنوب فاستسلمت له جبيل على الساحل الفينيقي ورحب به سكان صيدا، ثم تابع زحفه جنوباً فاستقبله وفد من أهالي صور، وعرضوا عليه استسلام المدينة في غياب ملكهم المرافق للأسطول الفارسي بشرط عدم دخول

مدينتهم ليقدم القرابين لجده الأول "ملقارت"[1]، فاضطر لضرب حصار حول المدينة لسبعة أشهر إلى أن استطاع اختراق الأسوار في تموز 332 ق.م عن طريق بناء جسور معلقة للوصول إلى أعالي الأسوار، فقتل ما يربو على الثمانية آلاف من سكان المدينة وأسر أكثر من ثلاثين ألفاً بيعوا كعبيد، واستسلمت دمشق بدون قتال لبارمنيون أحد قادته. ونتيجة لسقوط صور ووصول الإمدادات إلى الاسكندر فقد الاسطول الفارسي أفضل قواته البحرية ولم يعد يشكل خطراً يخشاه الاسكندر.

في طريقه[2] إلى مصر احتل الاسكندر مدينة غزة بعد شهرين من الحصار فقتل الكثير من أهلها وأسر الباقي، ووصل إلى مصر في تشرين الأول 332 ق.م، فاستسلم له والي مصر الفارسي بعد أن علم بهزيمة ملكه دارا وسيطرة الاسكندر على فينيقية وسورية. وهكذا صارت مصر إلى الاسكندر بدون قتال.

كان المصريون يكرهون المحتل الفارسي، مما سهل الأمور على الاسكندر. وكان أول ما قام به في العاصمة ممفيس هو إظهار الاحترام الشديد للديانة المصرية القديمة، فقدم القرابين في معابد الآلهة المصرية ورسم نفسه فرعوناً حسب طقوس الديانة المصرية آنذاك.

قام الاسكندر بتأسيس وبناء مدينة الاسكندرية والإقامة فيها لفترة، ثم سار غرباً بمحاذاة الساحل إلى مرسي مطروح (باريتونيون)، فدخل في الصحراء قاصداً معبد الإله آمون في سيوه، والذي كان يفوق في أهميته أعظم معابد الوحي اليونانية. وربما كان الاسكندر يهدف من وراء ذلك إلى ربط نسبه بالآلهة ومباركة آمون له بما ينوي القيام به معتبراً نفسه الملك الإله الذي يطمح لتكوين امبراطورية عالمية عظمى.

نظم الاسكندر البلاد المصرية تنظيماً جيداً، فوضعها تحت إمرة حاكمين أحدهما مصري، وجعل من كليومانص النقراطيسي مسؤولاً عن تحصيل الضرائب والأموال ووكله بالإشراف على متابعة إنشاء الاسكندرية.

رحل الاسكندرعن مصر في ربيع 331 ق.م، بعد أن أنهى مهامه هناك، قاصداً بابل لمواجهة الجيش الفارسي ثانية بعد أن أعاد الملك الفارسي تنظيمه بنفسه.

افلح الاسكندر، بعد أن رفض عروض داريوس بالتصالح، بعبور الفرات بدون مقاومة واتجه بقواته إلى حيث كان يعسكر دارا بجيشه شمال مدينة أربيل في العراق، فدارت معركة ضارية انتصر فيها الاسكندر، وفر دارا هارباً، فزحف الاسكندر واحتل بابل، واستمر في زحفه نحو الشرق إلى أن قُتل داريوس، فنزلت بالفرس النازلة وتفرق شملهم وطويت صفحتهم إلى حين. وهكذا أصبح الاسكندر سيد آسية، فقدم له الولاة المعينون

---

[1] – ملقارت إله فينيقي شهير يماثل هرقل في الديانة الوثنية اليونانية القديمة. وقد ادعى الاسكندر ان ملقارت هو الإله الذي انحدر منه. ورأى بعض المؤرخين أن رفض سكان صور لزيارة معبد ملقارت ستعني إن تمت اعتراف الإله بحق الاسكندر بأحقيته بحكم المدينة.

[2] – ذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس زيارة الاسكندر لمدينة القدس، إلا أن معظم المؤرخين المعاصرين يشكون في صحة هذه الزيارة؟

من الفرس فروض الطاعة والولاء، فعفى عنهم وأثبتهم في مناصبهم. ثم اتجه شمالاً فاحتل باكترية (شمال أفغانستان الحالية وبعض جوارها) وولايات الهند-الشمالية والشمالية الغربية.

شعر المصريون والبابليون والفرس أن الاسكندر أصبح ملكاً آسيوياً لإيمانه بأنّ التفرقة بين الناس يجب أنّ تقوم على أساس فضلهم وليس على أجناسهم، وأنه من الممكن تحضير هذه الشعوب إلى مستوى الحضارة الإغريقية. وقد مثلت هذه الأفكار تناقضاً للأفكار والتعاليم التي كان ينادي بها معلمه أرسطو.

عاد الاسكندر إلى بابل ربيع 323 ق.م، وأخذ بإعداد الخطط الحربية لغزو بلاد العرب. لكن مرضاً خطيراً داهمه فأقعده عن الحركة فمات في تموز عام 323 ق.م، وكان عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، منها اثنتي عشرة عاماً في الحكم.

تبين سيرة الاسكندر المقدوني أن المثل العليا لم تكن تهمه كثيراً بقدر ما كانت تهمه رياح الحرب والقتال والمجد العسكري والمثال البطل في التاريخ. إذ لم تبين هذه السيرة أنه كان يملك رؤية كلية لخير البشرية تجعلها تحتوي العالم في وحدة واحدة من أي نوع. ولم يعمل لإقامة جمهورية فاضلة، ولم يدع إلى إصلاح اجتماعي معين، ولم يكن همه ماذا تفعل الشعوب كي يصبح العالم أمة واحدة متعايشة وأفضل، بل كان حلمه الغامض الذي اجتهد لتحقيقه بعد إغارته العظيمة على الشرق سطحياً ومؤقتاً ظهر بتقديسه الآلهة المصرية المحلية في زيارته الشهيرة إلى معبد آمون، وعقود الزواج الجماعية – التي امتعض غالبية قادته منها– بين قادته والأميرات الفارسيات. وبغض النظر عما روي عن شذوذه الجنسي– إن كان صحيحاً– فقد انطلق بعزم إنساني استثنائي لإنجاز حلمه الذي سرعان ما تهشم بعد موته إلى قطع متناثرة كما لو كان تحفة عظيمة رائعة مصنوعة من الموزاييك وصانعوها يقومون، عن عمد، على تحطيمها إلى قطع صغيرة متناثرة.

بعد وفاة الاسكندر عقد قادة جيشه مؤتمراً في بابل لتقرير ولاية العرش ونظم الحكم في الامبراطورية المقدونية، فبدات تظهر ملامح الطموح والأمال لكل واحد منهم، واحتدم النقاش وكاد السلاح أن يكون الحكم بين الفرسان والمشاة إلى أن تم الاتفاق على تعيين ابن فيليب الضعيف ارهيدايوس على العرش باسم فيليب الثالث، والاعتراف بحق جنين روكسانا زوجة الاسكندر الفارسية إن جاء ذكراً في مشاركة الملك الجديد بوصفهما شريكين تحت الوصاية. كذلك قرر المؤتمر تعيين برديكاس اقوى قواد الاسكندر نفوذاً قائداً عاماً للجيش ومديراً لشؤون الامبراطورية، وتعيين كراتروس وصياً على العرش وعلى جنين روكسانا ابن الاسكندر بعد ولادته. كما فصل المؤتمر في توزيع ولايات الامبراطورية على قادة الاسكندر الكبار ليحكموها بوصفهم ولاة معينون من قبل العرش المقدوني. ومن أجل نجدة أنتيباتروس في الحرب الهلينية أو اللامية لإخماد الثورة التي أعلنتها أثينة بعد موت الاسكندر طلباً للاستقلال، قام كراتروس بتقديم المساعدة. ولكن سرعان ما وقع الصدام بين كراتروس وأنتيباتروس، في الوقت الذي قام برديكاس باغتصاب الولاية على العرش.

هكذا بدأ الاضطراب في امبراطورية الاسكندر الأكبر وبدأت تفقد بريق مجد صاحبها نتيجة الصراع المسلح العنيف بين الطامعين من كبار أركانه، فاستقل سلوقس نيكاتور بعد استقالته من منصبه كقائد للفرسان مقابل تعيينه والياً على بابل، بحيث تمكن من توسيع ملكه بالاستقلال وتأسيس حكم الأسرة السلوقية سنة 312 ق.م. بينما استقل بطليموس بولاية مصر وبرقة بداية من 323 ق.م.

كان بطليموس على علم تام بغنى مصر ومكانتها حين اتخذ قراره بمناصرة برديكاس في الصراع الدائرعلى اقتسام تركة الاسكندر مقابل تثبيته على مصر.

ينتمي بطليموس بن لاغوس إلى أسرة من صغار أوأواسط النبلاء في مقدونية. وقد تعلم وتربى في صباه بالقصر الملكي مع الاسكندر، وكانت أمه أرسينوا ابنة عم الاسكندر. وقد أصبح أحد أعضاء الحرس الخاص بالاسكندر ومستشاراً في هيئة أركان حربه أثناء الحمله على الشرق، فأخلص أشد الإخلاص في خدمة الاسكندر، كما أظهر تفوقاً حربياً في قيادة المعارك، وكان إلى جانب ذلك يتمتع بثقافة عالية ومعرفة بالتاريخ وذوق أدبي رفيع. وألف كتاباً عن سيرة الاسكندر أثناء الحملة، لكن للأسف لم يصل إلينا الكتاب بشكل كامل، وإنما وصلنا أجزاء منه عن طريق بعض المؤرخين، حيث كان من أهم من اعتمد عليه أريانوس في كتابه عن سيرة الاسكندر. ويتضح من أعماله أنه كان شخصية حازمة ذو عزيمة وإرادة قوية وقدرة عظيمة على الاحتمال والعمل بعيداً عن المبالغة والغرور، إذ كان يتصف بالواقعية السياسية، فركز جهوده منذ بداية ولايته على مصر لتأمين سلطانه في الحكم ولم ينخدع بالجري وراء الأحلام الإمبراطورية كما انخدع رفاقه من خلفاء الاسكندر. لذلك أخضع لسلطانه المناطق المجاورة على الحدود الغربية والشرقية لمصر تفادياً لغزوها عن طريق البر، كما حقق لنفسه مناطق نفوذ بحرية في جزر بحر إيجه. وكانت أول مخالفة قام بها هي استيلاؤه على التابوت الذي كان يضم جثمان الاسكندر أثناء نقله إلى مقدونية عن طريق سورية بناء على أوامر برديكاس، حيث أعاده إلى مصر ودفنه في منف وبنى له صرحاً عظيماً في الاسكندرية، وبقي جثمانه هناك إلى أن فقد بالعصر الروماني، ولم يعرف مكان مدفنه حتى هذا التاريخ.

قام بطليموس بضم برقة في 322 ق.م. ونتيجة لاستمرار الصراعات المسلحة بين المتنافسين على عرش اليونان وجد الفرصة سانحة للإستيلاء على سورية الجنوبية التي كانت تشمل فلسطين وجنوب سورية وفينيقية سنة 319 ق.م، إلا أن انتيغونس، أحد قادة الاسكندر الكبار، الذي جعل من آسية الصغرى مركزاً له استطاع طرد بطليموس وقواته من سورية سنة 316 ق.م. لكنه أعاد الكرة سنة 312 بالاستيلاء على فلسطين وفينيقية عن طريق غزة، غير أنه سرعان ما انسحب في عام 311 ق.م عائداً إلى مصر تحت ضغط القوات اليونانية.

إذن، انقسمت امبراطورية الاسكندر الأكبر آخر الأمر إلى ثلاث ممالك رئيسية مستقلة تحكمها الأسر الثلاث التالية: الأسرة البطلمية في مصر، والسلوقية في آسية

الصغرى وسورية، والأسرة الأنتيغونية في مقدونية. مع ذلك استمر النزاع على مناطق النفوذ بين هذه الممالك، وخصوصاً بين أبناء العمومة المقدونيين السلوقيين والبطالمة حيث دارت رحى خمسة حروب بين الطرفين معظمها كانت على مسارح سورية الجنوبية، إلى أن جاء الاحتلال الروماني للشرق في القرن الأول قبل الميلاد ليضع نهاية لحكم هذه الأسر.

تركزت إقامة الجاليات اليونانية في مصر خلال حكم البطالمة في أربعة مدن رئيسية: الأولى في نقراطيس (رشيد الحالية) عند مصب النيل الغربي، والثانية في بشوي في الصعيد، والثالثة في بارياتونيم عند السلوم الحالية، والرابعة الأهم؛ وهي الاسكندرية. وقام في كل مدينة إغريقية من هذه المدن مجلس خاص لتسيير شؤون المدينة، إذ لم تكن الأعراق الأخرى غير الإغريقية تمثل في هذه المجالس. وكانت تلك الأعراق تتشكل من المصريين واليهود والعبيد. وقد كان الغزو الإغريقي لمصر احتلالاً واستقر استيطاناً شاملاً للأرض والحياة، وبذلك لم تكن مملكة البطالمة مصرية بل إغريقية أو بطلمية إغريقية، وملوكها كانوا ملوكاً أجانب من الإغريق أو اليونانيين أو البطالمة. وقد بقي المصريون طبقة غريبة ومهيضة الجناح في هذه المملكة. وقد ذكر بعض المؤرخين نفور المصريين من هؤلاء الدخلاء، وخاصة طبقة الكهنة التي كانت تعبر عن روح الوطنية المصرية حينذاك.

أصبح بطليموس الأول (سوتر: المنقذ) ملكاً وفرعوناً على مصر سنة 304 ق.م بحيث سمّى نفسه بالملك الإله ابن الإله. وهذه التسمية لم تكن غريبة على المصريين، إذ إنّ مفهوم السلطة والملكية في مصر القديمة كانت تعد وظيفة سياسية منصهرة بالقوتين الدينية والروحية ومطبوعة بطابع ديني متين صاغه قدماء الكهنة المصريون حيث كانوا يرون أنّ الآلهة هي التي غرست بذرة الأسر الملكية الحاكمة، وأنّ الملكية البشرية هي نوع من الإرث القانوني والشرعي الممنوح من الآلهة معتبرة أن الملك يمثل الإله على الأرض، وبالوقت نفسه لم تكن هذه الرؤية المركبة جديدة على النظام المقدوني، لذلك وجدت التسمية قبولاً عند بلاط بطليموس الأول وعند الشعب المصري. ومن هنا نشأت عبادة الملوك الرسمية في حكم الأسرة البطلمية.

اتبع بطليموس سياسة تشجيع هجرة الإغريق إلى مصر، فهاجر الجنود والكثير من أفراد الطبقات المتوسطة والفقيرة، كما حضر الكثير من أصحاب المواهب في الفنون والآداب والعلوم من أمثال الفيلسوف والسياسي الأثيني ديمتريوس الفاليري الذي قام بتأسيس متحف الاسكندرية الشهير، وثيموتيوس والشاعر كاليماخوس والجغرافي إرانستنيس. وقد شجعت هذه السياسة منذ البداية إشراك الجاليات اليونانية الجديدة على التطبيع مع المصريين والاندماج بهم مما سهل الأمر على الأسرة الحاكمة باستمرار حكم البلاد لفترة طويلة.

مات بطليموس الأول (سوتر) في 285 ق.م فخلفه على العرش ابنه فيلادلفوس الذي لم يكن رجل حكم على شاكلة والده. وهكذا استمر حكم العائلة الوراثي حتى بدأ الضعف

يدب في أوصال الدولة في نهاية العصر الذهبي للبطالمة (نهاية القرن الثالث قبل الميلاد)، مما شجع ملك سورية السلوقي[1] للإتفاق مع ملك مقدونية على أن يوسع كل منهما ملكه على حساب الدولة البطلمية. وهكذا استمر الضعف في جسد الإدارة الحاكمة في مصر حيث بدأت فترة المنازعات

الأسرية (180-51) ق.م. ونتيجة لموت الملك أخذ تنازع الأبناء والأوصياء على العرش يزداد، فكثرت المؤامرات وانقسم ولاء الجنود وعامة الشعب، فقامت الحروب الأهلية بين أدعياء العرش أكثر من مرة، فازداد ضعف الدولة على ضعفها، وصار التذمر الشعبي سائداً، فنشأ الكثير من حركات التمرد، وأصبح إصلاح الأمر بعيد المنال، وصارت الدولة نهباً للمطامع الخارجية التي كان أخطرها الطموحات الرومانية، خاصة وأن روما تمكنت من الانتصارعلى القرطاجيين وحسمت أمر قرطاجة نهائياً في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. ويحدثنا سترابو بأن البطالمة الذين جاءوا بعد بطليموس الثالث كانوا ملوكاً عابثين أفسد تهم الرذائل، وكان أسوأهم جميعاً بطليموس الثامن والثاني عشر. وقد أضاف الأخير إلى عبثه وفجوره ولعاً شديداً بلعب المزمار وأنه كان فخوراً بمواهبه الموسيقية إلى حد أنه كان لا يخجل من الاشتراك بالمسابقات الموسيقية التي يقيمها في قصره. ومن أجل ذلك اشتهر بلقب الزمار.

كافأ بطليموس العاشر (اسكندر الأول) روما على تأييدها له بتنازله عن مملكته لروما بعد وفاته، إلا أن روما لم تعمل بوصيته، ولم تحتل أو تضم مصر بعد وفاته، وأعادت إلى العرش بطليموس التاسع (سوتر الثاني)، فظهر التدخل الروماني في الفترة الأخيرة من حكم سوتر الثاني سافراً. فلما مات سوتر، الذي شارك الحكم مع والدته الملكة كليوبترا الثالثة بين 116-107 ق.م، وحكم كملك من 88 إلى 81 ق.م، اختارت روما للعرش بطليموس الحادي عشر (اسكندر الثاني). وارغم الدكتاتور الروماني سولا بطليموس الحادي عشر على الزواج بزوجة أبيه وابنة عمه كليوبترا الرابعة بيرنيس، لكنه لم يطقها إلا أياماً، وقام بقتلها. فهب إغريق الاسكندرية وقتلوا الملك وولوا بدلاً عنه سنة 80 ق.م بطليموس الثاني عشر. وبموت بطليموس التاسع بدأت المرحلة الأخيرة من تاريخ البطالمة، التي أصبحت فيها مصر في عيون السياسات الأساسية لأطماع روما، وصار التدخل الروماني السياسي والعسكري صريحاً وسافراً في الشؤون المصرية (انظر لائحة السلالة البطلمية، الصفحة 41).

أصبح بطليموس الثاني عشر أحد أبناء سوتر الثاني غير الشرعي ملكاً على مصر، واشتهر بلقب الزمار، لكنّ لقبه الرسمي كان ديونيسيوس الصغير (حكم من80- 58، ومن55-51) ق.م، فتزوج من كليوبترا السادسة التي ربما كانت أخته. لكن روما لم تعترف

---

[1] – توالت الحروب العسكرية بين ملوك سورية السلوقيين وملوك مصر البطالمة على مدى فترة حكمهم حتى بلغت أكثر من خمسة حروب عسكرية دامية تخللتها فترات من الاتفاق والمصالحة والمصاهرة والتحالف في بعض الأحيان، لكن سرعان ما كانت تنقضي بالعودة إلى الصراع العسكري المسلح بين الطرفين.

بالزمار ملكاً بحجة الادعاء بوصية بطليموس الحادي عشر (اسكندر الثاني) الذي حكم سنة 80 ق.م، والتي تقول بأن مصر ستؤول بعد موته إلى الشعب الروماني. ولم يجد الملك المصري الضعيف والغارق في ملذاته سوى الخضوع لرغبة روما وسياساتها لشراء اعترافها بملكه على مصر.

في نهاية عقدي الستينات وبداية الخمسينات من القرن الأول قبل الميلاد كان الصراع السياسي والشعبي على أشده في روما، حيث كان يوليوس قيصر زعيماً للحزب الشعبي وقنصلاً في روما، وكانت مسألة ضم مصر إلى روما من ضمن برنامجه السياسي. فسعى بطليموس الثاني عشر الذي رأى في قيصر وبومبيوس قوة سياسية صاعدة، إلى ثنيهما عن برنامجهما لضم مصر مقابل ستة آلاف تالنتوم، والذي عد مبلغاً هائلاً في قيمة ذلك العصر، إضافة إلى تنازله عن قبرص، وبرنينقة على الساحل الليبي، فأعلن قيصر وبومبيوس اعتراف روما ببطليموس هذا ملكاً على مصر، وأعلنوه حليفاً وصديقاً لروما. وأعلنت روما ضم قبرص رسمياً إليها سنة 58 ق.م دون اعتراض من بطليموس، فثار شعب الاسكندرية ضد ملكه أمام هذا الخنوع المشين، فهرب الملك مع ابنته كليوبترا (السابعة) إلى روما وبقي هناك حتى سنة 55 ق.م. وقد ذهب وفد من إغريق الاسكندرية إلى روما مؤلف من مائة عضو محاولاً أن يوضح للرومان فساد الزمار، إلا أنّ رشاوي الزمار أفلحت في النهاية بتسيير حملة رومانية لإعادته إلى عرش مصر.

حكمت كليوبترا الخامسة بمشاركتها لكليوبترا السادسة إبيفانا (58-55) ق.م لمدة عام تقريباً، ماتت بعدها بظروف غامضة، حيث أشارت بعض المصادر التاريخية إلى أن كليوبترا السادسة ربما قامت بتسميمها لتتفرد بالحكم. وبغض النظر عن تحري أسباب الوفاة، فقد أكملت إبيفانا حكمها حتى عودة بطليموس الثاني عشر عام 55 ق.م حين قررت روما إعادته إلى العرش في مصر تحت حماية جيش روماني يقوده جابينوس حاكم سورية الروماني مقابل مبلغ عشرة آلاف تالنتوم تكاليف الحملة. وفي هذا الجيش ظهر ماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني) لأول مرة على أرض مصر حيث كان قائداً لفرسان هذا الجيش الذي قضى على جميع أدعياء العرش وثبت وحمى بطليموس الزمار على العرش. فتم وضع إبيفانا في السجن ثم أعدمت بعد فترة وجيزة وأرسل رأسها إلى البلاط الملكي بناء على أوامر الملك. وأثناء إقامة القائد الروماني الشاب في قصر الملك بالاسكندرية رأى كليوبترا كبرى بنات الزمار ذات الأربعة عشر ربيعاً والجمال الفتان الآتي، والتي ستصبح عما قريب ملكة مصر الشهيرة التي شاركت والدها الحكم حتى وفاته. ويقال أنها أثارت عواطف أنطونيوس حينها.

لم تعرف من كانت والدة كليوبترا على وجه الدقة، ويعتقد بشكل عام أنها على الغالب كانت كليوبترا الخامسة تريفانية Tryphania المصرية؛ أخت أو ابنة عم بطليموس الزمار وزوجته، وربما كانت ابنة بطليموس العاشر من زوجته كليوبترا (برنيقية) الثالثة، والتي كان والدها من سلالة أحد مساعدي الاسكندر الكبار؛ بطليموس الأول لوالديه أرسينوا

ولاغوس المقدونيين. ويأتي المؤرخ الألماني B.Werner برأي آخر في كتابه "نسب كليوبترا فيلوباتور/ Die Herkunft der Kleopatra Philopator, P 191-203: "ظلت والدة كليوبترا غير معروفة على وجه التحديد، إلا أنه يعتقد على وجه العموم أنها كانت من عائلة مصرية معروفة، تزوجها بطليموس الثاني عشر بعد طلاقه من زوجته الأولى كليوبترا الخامسة". وأنجب منها كليوبترا وشقيقتها أرسينوى وأخويها بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر.

لم يختلط الملوك البطالمة بالمصريين، بل قصروا مصاهراتهم على أبناء عمومتهم من سلوقيي سورية. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا والد كليوبترا السابعة بطليموس الثاني عشر، الذي كان- كما يعتقد- نتاج علاقة غير شرعية بين أبيه بطليموس التاسع، والذي لقب بلاتيروس (حبة البازلاء) وإحدى جاريات قصره. وتزوج والد كليوبترا من أخته كليوبترا الخامسة تريفانية (على عادة المصريين القدماء)، وارتقيا العرش معاً سنة 80 ق.م، وأطلق عليه إغريق الاسكندرية اسم (ناتوس أي ابن الحرام، وأوليتس أي لاعب الأوبو أو المزمار). وقد أنجبت كليوبترا الخامسة من زوجها الزمار ابنتها الكبرى وسمتها كليوبترا السادسة، ثم بيرنيس الرابعة، ثم كليوبترا السابعة، اختفت بعدها الأم من الحياة العامة ولم يعد يسمع عنها شيئاً، كما لم يعرف عمن تلاها من زوجات أو خليلات كان اختارهن الزمار لانجاب ابنته أرسينوى سنة 65 ق.م وولديه بطليموس الثالث عشر سنة 61 ق.م وبطليموس الرابع عشر سنة 59 ق.م. وقد أكد المؤرخ اليوناني سترابو أنّ الابنة الشرعية الوحيدة للزمار من أخته وزوجته كليوبترا الخامسة تريفانية هي ابنته كليوبترا السابعة. فإن كان ما جاء به سترابو صحيحاً يكون بقية أبنائه الخمسة قد ولدوا من زوجاته أو خليلاته التاليات.

أخيراً ودع بطليموس الزمار الدنيا في آذار سنة 51 ق.م، فخلفه على عرش مصر، بناء على وصيته، ابنته كليوبترا السابعة الأكبر من البنات الباقيات (لقبت تيرا نيوتيرا)، ذات الثمانية عشر ربيعاً بالمشاركة مع أخيها بطليموس الثالث عشر الذي كان له من العمر اثني عشر عاماً. وقد تضمنت وصية الملك الآب أن ترعى روما تنفيذ وصيته على ما أوصى به. فأصبحت كليوبترا وأخوها شريكين في عرش مصر البطليمي تحت إشراف وتوجيه رجال وبطانة القصر (عصبة الأوصياء) الذين تصرفوا في شؤون الدولة كما أرادوا بحجة أن الوريثين مازالا تحت سن الرشد وقلة الخبرة في إدارة شؤون الدولة.

شهدت كليوبترا منذ طفولتها محاولات روما السافرة والمتزايدة للتدخل في شؤون الحكم في مصر وإخضاعها لساسة وقادة روما. فشهدت الفيالق الرومانية بقيادة القائد الروماني الشهير بومبيوس في حملته على الشرق وهي تقضي على مملكة السلوقيين في سورية سنة64 ق.م، وتنهي الدولة اليهودية في فلسطين. فاستوعبت مبكراً حقيقة اعتماد الحكم البطليمي بشكل يكاد يكون كاملاً على الرومان. وعلى راي غالبية المؤرخين فقد فاقت كليوبترا في المداهنة والخداع والعناد والقسوة في سبيل تحقيق أغراضها أساليب

والدها. لكنها كانت أوسع إدراكاً لإقامة تحالف ثابت الأركان بينها وبين الرومان من أجل تحقيق حلمها في إقامة امبراطورية واسعة تعادل بل تفوق امبراطورية الاسكندر الأكبر.

كانت الاسكندرية عند ارتقاء كليوبترا العرش أعظم وأجمل مدينة في حوض المتوسط. حيث كان فيها مدرسة فلسفية وتاريخية هامة تزعمها الفيلسوف فيلوستراتوس والمؤرخ نيقولا الدمشقي. وكان فيها مدرسة طبية متقدمة تميزت في دراساتها وخبراتها بعلم السموم، وشهد لها جالينوس أعظم الأطباء الإغريق، وفيها صناعات الروائح والدهانات والأصباغ والورق والزجاج والغزل والنسيج.. وقد نظمت شوارعها ومبانيها ومعابدها وفنارها ومتحفها ومكتبتها وضريح الاسكندرعلى الطراز الإغريقي. وكانت مصر أكبر مزرعة للقمح في العالم القديم، وكان ملوك البطالمة يمتلكون جميع الأراضي الزراعية ما عدا المعابد، ويحتكرون أهم الصناعات. فقاموا بتطوير أنظمة حكم الفراعنة حيث أخذوا عنهم أفضل بيروقراطية حكومية في العالم القديم. وكان يتولى الحكم في أنحاء مصر ثلاثة حكام: واحد في الصعيد، وآخر وسط مصر والفيوم، والثالث في الدلتا. وكان يعاون كل واحد منهم موظفون وخبراء في الري والشرطة.

وهكذا جرت السنوات الثلاثة الأولى من الحكم صعبة نتيجة المصاعب الاقتصادية التي واجهت البلاد، حيث تعرضت مصر نتيجة الجفاف لنقص في المؤن والطعام فعمت المجاعة، واشتد الصراع السياسي بين كليوبترا وعصبة الأوصياء الذين كانوا يتصرفون في أمور الدولة على هواهم. إلا أن الملكة كانت تزداد معرفة وخبرة ونضجاً في سياسة الحكم، فرأت أن الاستمرار على هذا الحال يربك سياسة تسيير أمور الدولة ويعرضها لخطر طموحات رجال القصر، فقررت استخدام ذكائها وشخصيتها الطموحة في أن تجمع إدارة الحكم والسياسة بيدها. لكنّ رجال القصر لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل استبقوها بإشاعة سعيها لقتل أخيها والإنفراد بالعرش مخالفة لوصية والدها. بذلك أصبح الصراع مكشوفاً بينها وبين هؤلاء المتنفذين الذين اتخذوا جانب أخيها لمعرفتهم بالقدرة على تسييره بسهولة على عكس الملكة التي بدأت تشعر بقدرتها على إدارة الأمور، وبذلك شعرت عصبة القصر بتهديد مراكزها، فاستغلت سوء الأحوال الاقتصادية التي واجهت البلاد حينها في حشد الجيش والشعب وراءها. وهكذا بدأ الخلاف يظهر بين الأخ وأخته رغم زواجهما المعلن. لذا قررت كليوبترا عدم الانتظار واستباق الأمور فأعلنت أنها صاحبة القرارالنهائي بإدارة دفة البلاد.

تطورت الخلافات بين الطرفين إلى صراع مكشوف اضطر كليوبترا إلى إلغاء اسم بطليموس الثالث عشر من جميع الأوراق والمعاملات الرسمية وأبقت على صورتها فقط على القطع النقدية، إذ عنيَ هذا انفرادها بالحكم مما يمثل تهديداً مباشراً لمتنفذي القصر من عصبة الأوصياء الذين نجحوا بإثارة الجيش وشعب الاسكندرية بالانتفاضة ضد الملكة كليوبترا ما اضطرها إلى الفرار من الاسكندرية نحو الأطراف الشرقية الشمالية للبلاد. وهكذا انتهى الحكم الانفرادي للملكة كليوبترا بنجاح حفنة من رجال الحاشية الملكية بزعامة إنوك بوتنيوس Eunuch Pothinius بإزاحة كليوبترا وتثبيت

أخيها بطليموس الثالث عشر حاكماً وحيداً على مصر في نهاية عام 49 ق.م. فهربت كليوبترا إلى شرق البلاد (جنوب سورية)، وتمكنت هناك من أن تجمع لنفسها جيشاً لاسترداد عرشها في الاسكندرية. فسارت الحاشية باسم أخيها الملك بطليموس الثالث عشر لملاقاتها وسد الطريق عليها عند بلوزيوم Pelusium قريباً من بور سعيد الحالية.

في هذه الأثناء كانت تدور على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض معركة فاصلة في فارسالوس انتصر فيها قيصر على بومبيوس، ففر الأخير هارباً إلى مصر آملاً أن يجد فيها ملجأً وعوناً، خاصة أنه كان من أصحاب الفضل في إعادة بطليموس الثاني عشر مع كليوبترا إلى عرش مصر. فنزل بالقرب من معسكر الملك في بلوزيوم، حيث تم اغتياله أثناء نزوله إلى الشاطئ لإدراك الأوصياء أن الأمور قد تحولت إلى قيصر، ومن الحكمة الوقوف إلى جانبه ضد عدوه الخاسر.

لمحة سريعة عن روما عند مجئ يوليوس قيصر

كان شمال ووسط شبه الجزيرة الإيطالية خاضعاً لسيطرة الأتروسكيين[1]، في حين كان جنوبها وما يحيط به من جزر البحر الأبيض المتوسط يقع تحت نفوذ وسيطرة الإغريق والقرطاجيين.

بدأت روما في الأساس كقرية صغيرة تقع على تلة من التلال المحيطة على ضفة نهر التيبر، وذلك قبل منتصف القرن الثامن ق.م. وكان السكان يعيشون في مساكن بدائية، وكان عليهم من أجل بقائهم واستقرارهم أن يقاتلوا جيرانهم المولعين بالحروب والقتال. وتدريجياً نجحوا في التغلب على من كان حولهم، فاستطاعوا توسيع دائرة أراضيهم، وأسسوا مملكة روما سنة 753ق.م[2]، فحكم ملوكهم المناطق المحيطة بروما خلال المائتين والخمسين سنة الأولى من تاريخ التأسيس حتى بداية القرن الخامس قبل الميلاد. لكن

---

[1] – كتب د. محمد محفل في كتابه "تاريخ الرومان"، ص 110، ما يلي: (بدأ الأتروسكيون يلعبون دوراً حاسماً في تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية اعتباراً من القرن السابع قبل الميلاد، وسيمتد تأثيرهم خلال قرون عديدة وحتى نهاية العصر الجمهوري، وإذا كانت سيطرتهم السياسية قد انحسرت تدريجياً اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد أمام المنافسة الإغريقية خاصة والقرطاجية أحياناً، لتزول فيما بعد تحت ضربات الفيالق الرومانية، فإن تأثيرهم الحضاري في إيطالية الرومانية لم يندثر كلياً بعد سقوط المدن الأتروسكية الواحدة تلو الأخرى بيد روما، سيدة إيطالية الجديدة).

وأصل الأتروسكيين كما ذكر محفل في الصفحة 113 من الكتاب نفسه: (أجمع القدماء على رأي شبه موحد معتمدين على رواية المؤرخ اليوناني هيرودوت، والتي مفادها أن الأتروسكيين هاجروا من آسية الصغرى إلى الغرب حتى استقروا في إيطالية.. ونظرية ديونيسيوس الهاليكارناسي دافعت عن منبتهم المحلي توسكانة).

ويرى كثير من دارسي التاريخ القديم أن شعوب إيطالية واليونان القديمة هي أصلاً امتزاج من شعوب البحر الأبيض المتوسط، شرقه وجنوبه وشماله، بحركتها الدائمة بالارتحال والانتقال والاستقرار، ولأسباب متعددة كثيرة. فقد مرت الحضارتان اليونانية والرومانية بكل ما اكتسبتاه وأنجزتاه بدور متمشرق لا يمكن إنكاره، وأن وراء الغرب الظاهر شرق خفي على مر الأزمنة والعصور. وفكرة الفلسفة اليونانية عند نيتشه كما جاء في كتابه "إرادة القوة"، ص 151، هي: " أنها أول تركيبة كبرى لكل ما هو شرقي".

[2] – يشك بعض المؤرخين بأن تأسيس روما كان في عام 753 ق.م، ويقولون أنه كان في الحقيقة بعد مائة عام أو أكثر قليلاً من هذا التاريخ؟

هذه المملكة وصلت إلى نهاية عهدها بإعلان الجمهورية بعد عام 500 ق.م، حيث تسارع سلطانها بتوسيع دائرة الأراضي الرومانية. وما أن حل عام 250 ق.م إلا وكانت جميع أراضي ايطالية تحت حكم الجمهورية الرومانية. واتسمت هذه الفترة بأن كان بناة الدولة يتحلون بالشجاعة والإقدام والقدرة العالية على الاحتمال والإخلاص والتضحية والفداء بالغالي والنفيس من أجل بناء الدولة التي كانوا يطمحون إليها. إلى ذلك كانت أسماء الأبطال الرومان القدماء نبراساً ومثالاً عظيماً لكل الأجيال اللاحقة.

وقد قسم المؤرخون تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية:

1- العصرالملكي: من تأسيس روما سنة 753ق.م إلى 509 ق.م (250 عاماً).

2- العصر الجمهوري: بدأ بثورة وطنية (509 ق.م-27 ق.م = 500عام).

3- العصر الامبراطوري: حيث بدأ بـ 27 ق.م وحتى تاريخ سقوط روما سنة 467 م (500عاماً)، وذلك بعد تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى شرقية (الامبراطورية البيزنطية) عاصمتها القسطنطينية ، وإلى غربية في روما.

استمرت الامبراطورية الرومانية بعاصمتها الجديدة؛ القسطنطينية التي أعاد بناءها الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير بين الأعوام 324- 330، والتي كانت أساساً مدينة إغريقية قديمة أنشأت في القرن السابع قبل الميلاد على نهاية الطرف الجنوبي من مضيق البوسفور، وكان اسمها بيزنطة (استنبول حالياً)، حيث اتُخذ منها فيما بعد اسماً للامبراطورية الجديدة. وقد بدأت الامبراطورية البيزنطية بالتقلص والانكماش مع قيام الدولة العربية الإسلامية، حتى سقطت نهائياً سنة 1453م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

لم تبق الامبراطورية الرومانية في الغرب، والتي بقيت عاصمتها روما، محافظة على النظام الأوغسطسي[1] (الامبراطوري) طيلة تاريخها القديم، بحيث طرأت عليه تعديلات جوهرية في النظم والدين غيرت من شخصيتها تغييراً بعيداً. لذلك اتفق المؤرخون على تقسيم هذه الفترة إلى مرحلتين متميزتين:

1- المرحلة الأولى: ابتدأت من 27 ق.م وانتهت في بداية فترة ديوقلتيانوس الذي يعتبر المؤسس للمرحلة الامبراطورية الثانية (284- 305) م.

2- المرحلة الثانية (284-410) م: أسس ديوقلتيانوس لهذه المرحلة، بإعادة تنظيم الامبراطورية. غير أنَ بعض المؤرخين يؤثرإعتبار فترة حكم قسطنطين الكبير (305-

---

-[1] بعد اغتيال يوليوس قيصر سنة 44 ق.م تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني من ماركوس أنطونيوس وأوكتافيوس ابن القيصر بالتبني وليبدوس للانتقام من قتلة القيصر، ولمنعهم من إعادة النظم الجمهورية الديمقراطية للشعب الروماني دون غير الرومان. انتصر هذا التحالف الثلاثي، واستطاع أوكتافيوس بعد حسم خلافه مع ماركوس أنطونيوس أن يؤسس لإعلان الامبراطورية الرومانية سنة 27 ق.م، وأعلن نفسه امبراطوراً على روما. وبذلك أصبح أول امبراطور روماني، ومنح لقب أوغسطس، الذي يعني المقدس أو المبجل. بذلك أطلقت التسمية على النظام نسبة إلى الأوغسطس الأول "أوكتافيوس".

337) م تأسيساً للمرحلة الثانية، والذي اعتنق المسيحية[1]❖ التي أعلنت فيما بعد ديناً رسمياً للدولة في نهاية القرن الرابع.

لكن وقبل العودة للاستطراد في موضوعنا الأساسي، يقتضي الأمر أن نعرج مرة أخرى وبسرعة على تاريخ الاحتلال اليوناني لمنطقة المشرق سنة 332 ق.م، الذي تم على يد الاسكندر المقدوني (356– 323) ق.م، والذي كان ملكاً على مقدونية، وذلك بعد أن خلف والده الملك فيليب الثاني سنة 336 ق.م. والذي عرف بالاسكندر الكبير، أو الاسكندر المقدوني. وقد فتح في حملته على الشرق فارس، مصر، سورية، ما بين النهرين (ميزوبوتامية)، باكترية (شمال أفغانستان)، وبلاد البنجاب. واهتم الفاتح الجديد بمصر اهتماماً خاصاً فأقام فيها وبنى مدينة الاسكندرية على ساحلها الشمالي، وجعل منها مركزاً ما لبث أن أصبح من أهم منارات الحضارة والثقافة الهلينيستية في محيط البحر المتوسط وفي عموم الشرق القديم وآسية الصغرى. فازدهرت الثقافة اليونانية ازدهاراً عظيماً في هذه الفترة التي دامت حتى هزيمة كليوبترا سنة 30 ق.م على يد القائد الروماني أكتافيوس وريث يوليوس قيصر (سيزر).

مات الاسكندر بعد أن أسس ملكاً واسعاً وعظيماً، مات كما يموت الغالبية من العظماء، فيخلفون، غالباً، وراءهم قيادات ليست على مستوى القائد المؤسس، إذ لم يكن بينهم من يدانيه، من بعيد أو قريب، في نبوغه الحربي والثقافي، أو رؤيته للعالم الواحد. فسرعان ما بدأت الخلافات التي لن تحلها إلا المؤامرات والحروب والاقتتال للإمساك والتحكم أو اقتسام الإرث الذي تركه القائد وراءه. فاستقل سلوقس نيكاتور أحد ضباط الاسكندر الكبار، بعد أن تم تعينه حاكماً على سورية، وأسس حكم الأسرة السلوقية على سورية والجزء الأعظم من آسية الغربية وأصبحت أنطاكية عاصمتها، وذلك اعتباراً من 312 ق.م حتى 64 ق.م تاريخ الاحتلال الروماني للمشرق بقيادة القائد العسكري الروماني بومبيوس الكبير. بينما استقل بولاية مصر الجنرال المقدوني بطليموس، الذي كان من أخلص أصدقاء الاسكندر ومساعديه، وذلك بعد موت سيده. إذ أعلن نفسه ملكاً على مصر سنة 304 ق.م، وبذلك أسس حكم الأسرة البطلمية نسبة له، والتي امتد حكمها حتى الاحتلال الروماني وهزيمة كليوبترا سنة 30 ق.م.

سادت الثقافة الإغريقية منطقة المشرق وأسست مراكز ومنارات إشعاع حضاري امتدت لقرون لاحقة بعد الاحتلال الروماني. فكانت الثقافة الرومانية التالية بشكل أو بآخرلاحقة لما أسسه الإغريق، حيث تأثر المشرق بمعظم مناطقه وبلدانه فدخل في بوتقة الثقافة اليونانية من آداب وفنون وفلسفة وعلوم...الخ.

قامت الجمهورية الرومانية سنة 509 ق.م على أنقاض النظام الملكي الذي استمر لمائتين وخمسين عاماً.واستمرت عاصمتها روما التي كانت أساساً واحدة من عديد من

---

[1]❖– قيل بأنه قبل العماد المسيحي الكنسي وهو على فراش الموت، ولكنه لم يعتنق المسيحية في حياته– المحقق.

المدن الرومانية الشبيهة لها في إقليم اللاتيوم. ومع تطور المدينة ونموها بدأ الصراع على النفوذ والثروة بين طبقة الأشراف والعامة، واستمر الصراع لمدة قرنين تقريباً (494-284) ق.م، وأنتج أول دستور ديمقراطي في نهاية فترة الصراع هذه، بحيث أصبح لكل طرف قنصلاً يمثله. لكن على صعيد الممارسة والواقع سارت الأمور بخلاف ذلك، إذ كانت جميع مناصب الحكم وعضوية الشيوخ وقيادة الجيوش قاصرة على طبقة الأشراف، بحيث كانت جميع هذه المناصب شرفية دون أجر، إذ لم يكن هناك جيش نظامي، وإنما جميع المواطنين من الذكور البالغين مطالبون بالخدمة العسكرية وقت الحرب. وكان على كل واحد منهم تسليح نفسه، حيث كانت الطبقات الثرية أكثر قدرة على أن يتجندوا كفرسان مقاتلين.

استطاعت روما توحيد جميع إيطالية تحت سيادتها بعد معركة "تارنتوم" سنة 265 ق.م، بدءاً من نهر الروبيكون في الشمال حتى أقصى شبه الجزيرة جنوباً. ودخلت بعد ذلك في سلسلة من الحروب العالمية وراء حدودها (الحروب البونية) [1]، والتي انتهت باستيلاء روما على جزيرة صقلية وإسبانية وشمال أفريقية ومقدونية، ومن ثم بقية المدن اليونانية حتى شمل نفوذها آسية الصغرى سنة 132ق.م. وقد استمر الصراع السياسي بأشكال متعددة بين طبقة الأشراف والعامة إلى أن ظهرعلى مسرح الحياة السياسية الرومانية شخصيتان خطيرتان هما يوليوس قيصر وبومبيوس الكبير، وهما المنحدران من أعرق الأسر الرومانية، وهما من سيتقرر على أيديهما مصير الجمهورية الرومانية النهائي.

ولد يوليوس قيصر[2] في عام 102ق.م نبيلاً بالمولد والطبع وحيداً لأبويه. فقد زعم في إحدى خطبه السياسية أن عائلته تنحدر مباشرة من فينوس ربة الجمال والحب والتناسل عند الرومان وهي أم إينياس (آينيس)؛ البطل الطروادي الذي هرب من طروادة بعد أن فتحها وخربها المكينيون، وهو مؤسس السلالة التي أنشأت وحكمت روما. ويقال أن اسم العائلة "قيصر Caesar" لقب اكتسبه أحد أجداده بعد أن قتل فيلاً في الجيش القرطاجي، أي أنه اسم مأخوذ من اللفظ الدال على "فيل" في اللغة الفينيقية بقرطاجة. وبفضل ما حقق من انتصارات وأمجاد عسكرية وسياسية، وما تركه من أثر مسيطر في عالم الفن والخيال، الأدب والمسرح، الموسيقى والشعر، والرسم والنحت، اكتسبت شخصيته التاريخية مسحة أسطورية منذ عصره حتى يومنا هذا. ولعل من ضمن أسباب خلود هذه الشخصية تعدد جوانبها؛ فصاحبها رقيق الحس، لطيف المعشر، يتمتع بحس

---

[1] – أصل كلمة البونية Punic من اللاتينية Punicus من Puni أو Pzni، والتي تعني القرطاجيون. وأصل القرطاجيون فينيقيون كنعانيون من الساحل السوري هاجروا إلى شمال أفريقية وأسسوا ممالك هناك... انظر الحروب البونية في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

[2] – Emle Bradford, Julius Caesar;The Pursuit of power, Hamish Hamilton, Lon.1984

وصف سويتونيوس (Suetonius, life of Caesar 45) قيصر في مطلع شبابه بأنه كان ذو بشرة صافية، طويلاً جميل القسمات والمحيا وجذع متناسق ووجه وسيم أقرب إلى الطول، وعيون سوداء حادة النظرات.

الفنان وقلب العاشق الولهان[1]. فقد كان شغوفاً بجمع واقتناء الأحجار الكريمة والأعمال الفنية مثل التماثيل واللوحات، كما كان خبيراً في اللؤلؤ، وكان شديد الشغف بحب النساء الجميلات. وحسب رواية سويتونيوس فإن قائمة عشيقات قيصر كانت تضم الكثير من زوجات أصدقائه الذين كان بحاجة إلى مساعدتهم. إلى جانب هذه الصفات، كان قائداً عسكرياً طموحاً وصارماً يخوض غمار الحروب جنباً إلى جنب مع جنوده، حيث لم يكن يعبأ بالمخاطر والصعاب[2]. وكان صاحب عبقرية سياسية وعقل قادر على إجادة التخطيط والتنفيذ. كما كان مؤلفاً له أسلوب متميز ساحر في أشعاره أو كتاباته التاريخية أو خطبه الفصيحة[3]، إلى حد منافسته لخطيب روما المفوه في تلك الأيام "ماركوس شيشرون"، حيث كانا على طرفي نقيض سياسي، إذ كان شيشرون يتبنى قضية الحزب الأرستقراطي Optimates، حزب السناتوس، في الوقت الذي كان فيه قيصر يتبنى قضايا الحزب الشعبي Populares وكان يقوم بوظيفة البريتور (القاضي: الحاكم) سنة 66 ق.م. ورغم الاختلاف بين الإثنين لم ينس شيشرون أن يشيد بأسلوب قيصر الخطابي (Cicero, Brutus, 252).

استولى حزب الأرستقراطيين (السناتو) بزعامة سولاً Sulla (83–78) ق.م على السلطة فانتخب دكتاتوراً، فتغيرت الأحوال، إذ أصبح قيصر في الجانب الضعيف، فاضطر للهرب، ولم ينجو إلا بعد رشوة كبيرة ومساعدة بعض النبلاء الذين توسطوا له عند سولاً للعفو عنه. وقد قال سولا لمن توسط له، حسب رواية ديو كاسيوس: " احذروا هذا الشاب الذي لا يتمنطق بحزامه جيداً ويتركه مرتخياً، ويرتدي مثل النساء أكماماً مطرزة من المعصم". كما يروى عن سويتونيوس أنَ سولاً رد على الذين طلبوا الصفح لقيصر بقوله: ".. احتفظوا به كما أردتم، ولكن بودي أن تعرفوا أن هذا الشاب المهم بالنسبة لكم الآن سوف يطيح يوماً بحزبنا الذي خضتم أنتم بجانبي حرباً دامية دفاعاً عن مبادئه، ففي هذا الشاب العديد من الماريوسيين[4]". فلما مات سولا سنة 78 ق.م عاد قيصر إلى روما وبدأ في ممارسة مهنة المحاماة. وكان أول انخراط له في الجيش الروماني على جبهة آسية حيث منح إكليل المدينة على ادائه القتالي.

---

[1] – تزوج قيصر مرات ثلاث: الأولى كانت من كورنيلية بتدبير من عمته يوليا، حيث كان زواجاً سياسياً. إلا أن قيصر أصبح معجباً بكورنيلية خاصة بعد أن أنجبت له ابنته يوليا. والثانية كانت من بومبيا، وتمت الثالثة في عام 47 ق.م من ابنة بيسو من كالبورنا، وهو العام الذي تزوج فيه بومبي من يوليا ابنة قيصر، التي كانت قد بلغت السابعة عشر للتو.

[2] – يذكر المؤرخ سويتونيوس قائلاً: عندما كان قيصر في قادش رأى تمثال الاسكندر الأكبر في معبد هرقل، فزفر زفرة طويلة ربما كانت تشي بنوع من الحسرة لأنه قد بلغ السن التي هزم بها الاسكندر العالم القديم، وهو لم يحقق شيئاً من طموحاته بعد (i, 35.52 Suetonius, De Vita Caesarum Iul).

[3] – في مطلع شبابه، نظم قصيدة في مديح هرقل، وألف مأساة عن أوديب، كما كتب سبعة أجزاء عن الحرب الغالية ونشرها سنة 51 ق.م.

[4] – كان غايوس ماريوس عم يوليوس قيصر سياسياً وعسكرياً مهماً وزعيماً لحزب الشعبي الروماني، وقد نشبت حرب أهلية في روما بين أتباع الحزب الشعبي بقيادة ماريوس والحزب الأرستقراطي بقياد سولا.

وقف السناتوس (حزب الأرستقراطيين) ضد ترشيح قيصر لمنصب القنصلية في عام 60 ق.م، كما رفضوا ترشيح بومبيوس في وقت سابق لقيادة أسطول روماني كبير للقضاء على القراصنة في شرق البحر الأبيض خوفاً من طغيانه على الرغم من أنه كان زعيم حزب السناتوس وأحد كبار قيادة سولا. أدرك قيصر بحسه السياسي الفرصة السانحة بسرعة فاتصل ببومبيوس للعمل سوية، فتشكل سنة 60 ق.م الائتلاف الثلاثي الأول First Triumvirate الذي ضم قيصر وبومبيوس، وكراسوس ذي الثراء العريق، ضد حزب السناتوس. وكان قيصر قد عمل كمستشار لكراسوس، فأغوى زوجته تيرتولا سيئة السمعة بأن تصبح عشيقته. وتم ترشيحه للقنصلية في 59 ق.م، أي بعد تشكيل الائتلاف الثلاثي الذي شكل أول وأهم ضربة معول بمغيب شمس الجمهورية الرومانية.

ويبدو أن انتصارات قيصر وتكتيكاته العسكرية في معاركه وسيطرته على بلاد الغال حتى نهر الراين، والتي استمرت لثماني سنوات، وعبوره لنهر الراين بفيالقه وفرسانه فوق جسر بناه في أقل من عشرة أيام يطارد القبائل الجرمانية، إضافة إلى اقتسامه السيادة مع شريكيه في الائتلاف الثلاثي الأول في مؤتمر لوكا سنة 55 ق.م، وعبوره باسطوله إلى الشاطئ البريطاني. كل ذلك جعل من قيصر أسطورة تحاكي أسطورة الاسكندر الأكبر. بيد أن هذا الائتلاف انتهى بمصرع كراسوس سنة 53 ق.م إثر هزيمته في معركة كارهي (حران) التي كان يخوضها ضد البرثيين الفرس في ذلك التاريخ. فعجل موت كراسوس المنافسة بين بومبيوس وقيصر، خاصة أن ابنة قيصر يوليا زوجة بومبيوس ماتت وجنينها في آلام المخاض. فتزوج بومبيوس سنة 52 من ابنة أحد كبار الحزب الأرستقراطي الذي كان من أكثرهم مغالة في عداء قيصر. فانحاز بومبيوس إلى جانب حزب الأرستقراطيين الذي كان زعيماً له في الأساس، وبذلك أصبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم، حيث تواجها عسكرياً في تسالية عند فارسالوس صيف 48 ق.م، وذلك بعد فشل محاولات قيصر المتعددة لانتزاع بومبيوس من تحالفه الجديد مع الأرستقراطيين، فانتصر القيصر بانضمام أنطونيوس له، رغم أن قواته كانت نصف قوات بومبيوس. ففر الأخير إلى مصر وقتل هناك.

انتخب قيصر دكتاتوراً في خريف سنة 47 ق.م، فأصبح سيداً للدولة الرومانية بأسرها دون منازع بعد أن قضى على جميع معارضيه السياسيين. ومع كل ما تحقق لقيصر، ظل عدد من الأشراف والسناتوس ينقمون عليه ويتوقون إلى استعادة سلطاتهم القديمة، خاصة وأن سياسة قيصر اتخذت طابعاً دكتاتورياً مطلقاً. فاتهم السناتو قيصر بأنه كان يسعى لتحويل الجمهورية إلى مملكة على نمط الممالك الشرقية، يكون هو ملكها وكليوبترا ملكتها. وكان قد التقى كليوبترا بعد مقتل بومبيوس، فأصبحا عشيقين منذ لقائهما الأول. وقد ناصر قيصر كليوبترا ضد بطليموس الرابع عشر، فنصبت ملكة على مصر. وحملت منه، فأنجبت له بعد رحيله بمدة وجيزة بطليموس الخامس عشر، وسمته " قيصر"، بينما أطلق عليه المصريون سخرية لقب قيصرون، أي القيصر الصغير.

تألفت ضد قيصر مؤامرة من ستين عضواً من السناتوس (مجلس الشيوخ) بقيادة بعض أعضائه، حيث أحاط به المتآمرون في 15 آذار سنة 44 ق.م بينما كان يدخل المجلس وطعنوه حتى الموت فسقط عند أقدام تمثال بومبيوس. لكن الجمهورية لم تعد إلى روما أبداً، بينما بقي اسم قيصر خالداً، إذ أصبح لقباً للأباطرة في روما، ولاحقاً، لقباً لأسر ملكية كثيرة في العالم القديم والحديث.

بعد موت قيصر مباشرة، نجح القنصل ماركوس أنطونيوس ومعه لبيدوس قائد سلاح الفرسان في إحباط تحرك حزب السناتو نحو السلطة، كما أن موقف المتآمرين أصبح حرجاً لاصطفاف العامة من أهل روما ضدهم، حيث كسبهم أنطونيوس لتعاطفهم مع وصية قيصر التي ألقاها على مسامعهم بأسلوب خطابي تحريضي مبطن بليغ، فكان شديد التأثير بالعامة، بحيث كسب تعاطفهم بإعلامهم أنّ قيصر قد منحهم وصيته بتوريثها لهم.

تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني من حفيد قيصر لأخته وابنه بالتبني غايوس يوليوس قيصر أوكتافيوس Gaius Octavius الذي كان في الثامنة عشرة عند مقتل قيصر، ومن أنطونيوس ولبيدوس. وصدر هذا الاتفاق كقانون في 27 تشرين الثاني سنة 43 ق.م متخذاً صفة شرعية لازمة لمدة خمس سنوات.

بعد هربهم إلى الشرق، تجمع الكثير من أعضاء حزب السناتوس واستعدوا لمواجهة قوات الائتلاف الثلاثي، فكانت الموقعة الأخيرة بينهما عند "فيليبي" سنة 42 ق.م، وكان النصر حليف أوكتافيوس وأنطونيوس. وتم عقد اجتماع جديد في نفس السنة في "برنديزي" لتجديد الاتفاق بينهما، فاتفقا على أن يكون حكم الشرق من نصيب أنطونيوس، والغرب لأوكتافيوس، على أن تكون شمال أفريقية من نصيب لبيدوس، وبقيت إيطالية شراكة بين الجميع بالرغم من إقامة أوكتافيوس بها. وقد استمرت هذه الاتفاقية لمدة ثلاث سنوات، عاد الفتور بعدها بين أوكتافيوس وأنطونيوس، فاتفقوا على الاجتماع في"تارنتوم"بجنوب إيطالية سنة 37 ق.م، وقرروا تمديد الاتفاق خمس سنوات أخرى. وقد حقق أوكتافيوس خلال هذا العام عدة انتصارات على آخر ممثلي السناتوس، وعلى لبيدوس الذي انشق عليه، فأصبح سيد القسم الغربي من الأمبراطورية دون منازع. وفي 36 ق.م تطورت العلاقة بين أنطونيوس وكليوبترا، فأقاما حفلة زواجهما، وذلك بعد انتصار أنطونيوس على البرثيين في أرمينية. وباتهام أوكتافيوس لأنطونيو بأنه يريد تحويل الامبراطورية الرومانية إلى مملكة شرقية يحكمها مع كليوبترا – وهو نفس اتهام السناتوس لقيصر– فتمكن أن يجمع حوله القوى الرومانية في الغرب، وطالب إيطالية والولايات أن تقسم له يمين الولاء ليكون قائدها ضد كليوبترا وأنطونيوس.. فنشب الصراع الأخير بين الاثنين في معركة "أكتيوم" البحرية سنة 31 ق.م، والتي تقع عند خليج أكتيوم على الساحل الغربي لليونان. وظهر منذ البداية أنَ الغلبة ستكون لأوكتافيوس، فلاذت كليوبترا مع أسطولها بالفرار من المعركة، وما لبث أن لحق بها أنطونيوس. وبعد

عام من ذلك، قاد أوكتافيوس قواته عن طريق سورية وفلسطين واحتل الاسكندرية، فانتحر أنطونيوس ولحقت به كليوبترا، وهكذا تم احتلال مصر التي كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال، وسقط حكم العائلة البطلمية بآخر ملوكها كليوبترا السابعة.

توالت الألقاب على غايوس أوكتافيوس، فكان أول لقب اتخذه هو" قيصر"، الذي اقترن بالمجد والسلطان والحكم المطلق، وجاء لقب "امبراطور" تالياً بحيث صار جزءاً من اسمه الرسمي. ثم فاجأ أوكتافيوس مجلس الشيوخ بعد تطهيره بعرضه التنحي عن جميع سلطاته، فكان رد فعل المجلس على هذا الموقف الدرامي أن رد سلطاته إليه على معظم أرجاء الامبراطورية. وبعد ثلاثة أيام اجتمع المجلس فعبر عن شكره وامتنانه لأوكتافيوس باعتباره باعث الجمهورية، وأضفوا عليه لقباً جديداً يفوق جميع الألقاب السابقة هو لقب "أوغسطس" الذي يعني المعظم أو المقدس والمبجل، وقد درج اقتصار هذه التسمية سابقاً على بعض الألهة، إذ أصبح بعد الآن يخاطب بهذا اللقب ويعرف به. رد أوكتافيوس التحية إلى المجلس بأن أعاد إليه إشرافه على الشؤون المالية، كما منحه بعض سلطات القضاء المالي في ولايات المجلس، وسمح له بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها، وهكذا أصبح المجلس شريكاً رسمياً في الحكم. إلا أن المؤرخَين تاكيتوس وديو كاسيوس لم يريا في هذه الإجراءات أكثر من واجهة دستورية لنظام امبراطوري اقترب من الحكم الفردي المطلق. ولعل أكثرية أعضاء المجلس لم يكونوا راغبين حقاً في إعادة الجمهورية، لمعرفتهم بما آلت إليه من الفوضى والحروب الأهلية، ولمعرفتهم أيضاً بأن التحكم بمشكلات الدفاع عن الامبراطورية، كانا يبدوان مهمتين مستحيلتين لأكثر الأعضاء. وهكذا بدأ النظام الامبراطوري الجديد سنة 27 ق.م، وذلك بعد أن أرسى أغسطس أسس هذا النظام بإدخال إصلاحات إدارية ومدنية واجتماعية إلى الدولة، فكان أول امبراطور يتبوأ عرش الامبراطورية الرومانية (27 ق.م-14م) التي سيطرت على معظم بلاد أورية الغربية ومعظم البلاد المطلة على البحرالأبيض الذي سماه الرومان "بحرنا/ Mare Nostrum"، وأطلق عليه العرب المسلمون "بحر الروم". وكانت كلمة الامبراطور هي العليا التي لا تناقش. ومات أوكتافيوس موتاً طبيعياً سنة 14م.

كليوبترا بين المتخاصمين الرومان

كانت كليوبترا السابعة آخر ملكة (فرعونية) من أصول يونانية تحكم مصر، إذ بدأت بحكم مصر بمشاركة والدها بطليموس الثاني عشر (الزمار)، وبعد ذلك بمشاركة أخويها بطليموس الثالث عشرثم بطليموس الرابع عشر، حيث تزوجت بهما خلال مشاركة كل منهما لها في الحكم، إلا أنها استقلت بالحكم منفردة بعد ذلك إلى أن شاركت ابنها من قيصر في السنوات الست الأخيرة من حكمها.

كثّف الدكتور مصطفى العبادي[1] صورة كليوبترا بالتلخيص التالي: " يعتبر الفصل الأخير من تاريخ الدولة البطلمية في مصر من أغرب الفصول في تاريخ الإنسان. إذ لم يشهد التاريخ امرأة استخدمت أنوثتها بهذه القوة وهذه المهارة كما استخدمتها ملكة مصر الجديدة كليوبترا. فحين اعتلت العرش بعد وفاة والدها، كانت مصر دولة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، قد فقدت جميع ممتلكاتها لروما، ولا يستقر لها ملك إلا باعتراف روما ووجود جيش روماني يسنده في الاسكندرية، ونظير تقبل روما هذا الخضوع من الملك البطلمي كانت تتقاضى أفحش الأثمان. من مركز هذا الهوان الشديد خرجت كليوبترا على العالم كامرأة سافرة بغير جيش أو مال فاقتحمت معترك السياسة العالمية، لتواجه بشخصها المجرد أقوى دولة في العالم القديم".

كتب الكثير مما نعرفه عن كليوبترا بعد موتها حيث جاء أكثره لتبرير ما شكلته هذه الشخصية من خطورة على روما واستقرارها. ولذلك، فربما جاءت بعض هذه الروايات على قدر من المبالغة أو فيها بعض أو الكثير من التحريف. فديو كاسيوس، المؤرخ اليوناني الشهير الذي كتب "التاريخ الروماني" في ثمانين كتاباً بدأ فيه من تاريخ روما في 753 ق.م حتى وفاته في منتصف القرن الثالث الميلادي، وكان أهم مصدر قديم يؤرخ فترتها وتاريخها لخص قصتها بما يلي: " أسرت أعظم قائدين رومانيين في عصرها، وبسبب الثالث دمرت نفسها". ومن الكثير الذي قيل فيها: " لم يكن جمالها فقط يأسر من يراها وإنما الانطباع الغامض الآسر الذي لا يمكن تجنبه عند الالتقاء بها؛ في جاذبيتها المؤثرة وهي تمشي، في الجو المثير الذي يحيط بها وهي تتحدث، حيث الاستماع إلى نغمات صوتها كأنه يصدر ممن يتحكم في عدد من الآلات الموسيقية المتناغمة حسبما تقتضيه المناسبة"[2]. وكان أكثر ما يثير في شخصيتها جاذبيتها الشديدة وقدرتها على إثارة حب الرجال، وكانت على درجة عالية من الثقافة والإحاطة بعديد من اللغات. وكانت تبدو كأنها إيزيس تحنو على المصريين، ولم تكن تتحرج أو تشعر بالإثم من أي شئ، وكانت قادرة على أن تثير من تختاره صديقاً يكن لها أعمق مشاعر الولاء. وإذ كانت تمتلك طاقة كبيرة وشجاعة وجاذبية وذكاء، فقد كرست حياتها لتحقيق هدفين: تثبيت دعائم مكانتها ومكانة أسرتها في مصر، وأن تشارك في السلطة المركزية لروما. وقد كان الهدف الأخير يملئ قلوب أعدائها من الرومان بالحقد والكراهية. بالمقابل قادت علاقاتها مع قادة روما إلى نوع من الفضائح. وما زالت ماساة موتها مثيرة لخيال الفنانين وكتاب الروايات والمسرحيين وصناع الأفلام والرومنسيين في شتى أنحاء الأرض.

وبدلاً من انتظار قادة روما حتى يغزوا مصر، عولت هي على غزو قلوبهم وتحويلهم إلى أدوات طيعة بين يديها. واستطاعت عن هذا السبيل أن تمد نفوذها الملكي إلى آفاق أبعد كثيراً من آفاق مصر، وكادت أن تصبح امبراطور العالم القديم بأسره ممثلاً

---

[1] – مصطفى العبادي: "مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي"، ص 99، مكتبة الأنجلو المصرية.

[2] – مقتطفات من وصف بلوتارخوس.

بالامبراطورية الرومانية ذاتها. إلا أن روما والرومان تيقظوا لما آل إليه الأمر وتم في النهاية وأد السحر الأنثوي المبين الذي مارسته كليوبترا على قادتها، وذلك بأن نجح أوكتافيوس بتوحيد الجهد الروماني خلف قيادته، فهزم كليوبترا وأنطونيوس، فانتحرا بعد هزيمتهما. ولا يسعنا هنا إلا الاستشهاد بما جاء على لسان عمرو بن العاص في القرن السابع الميلادي، الذي وصفهم: ".. إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف".

كليوبترا ويوليوس قيصر

تلقى قيصر وهو في بريطانية أنباء مزعجة عن حدوث اضطرابات خطيرة في بلاد الغال التي كان قد أخضعها خلال حملاته على مدى سنوات. كما بدأت عرى الائتلاف الثلاثي الأول بالاهتزاز بعد هزيمة وموت كراسوس في معركة حران على الجبهة الفارسية سنة 53 ق.م. كما ماتت يوليا ابنة قيصر وزوجة حليفه بومبيوس مع طفلها في مخاض الولادة بنفس الفترة، مما أدى إلى شعور قيصر وبومبيوس بأسى كبير لانقطاع صلة الرحم بينهما بموت يوليا وجنينها. وساءت الأحوال في روما فطرحت فكرة تنصيب بومبيوس دكتاتوراً، إلا أنه تم اعتراضها من بعض السياسيين المتنفذين. في هذه الأثناء (53-52) تزوج بومبيوس من ابنة مينيلوس سكيبو أحد أتباع الحزب الأرستقراطي وأشدهم عداء لقيصر. وهكذا انتهى الائتلاف الأول. وتم استدعاء قيصر للقيام بالقضاء على ثورة الغاليين، فحقق انتصاراً مذهلاً سنة 51 ق.م، وكان من نتائج ذلك أن عمل قيصرعلى استيعاب العنصر الغالي في نسيج الحضارة الرومانية التي ستبدأ بأخذ شكل جديد من الآن فصاعداً. ودون أن يرجع قيصر إلى مجلس الشيوخ في روما بدأ يشرع للولاية الغالية وسمح للغاليين بنوع من السيادة، ودربهم أن يكونوا محاربين أشداء في صفوف القوات الرومانية.

اشترط مجلس الشيوخ في روما عودة يوليوس قيصر إلى روما كمواطن عادي إذا أراد أن يرشح نفسه لقنصلية عام 49 ق.م. فتم تقديم اقتراح عودة قيصر، وبومبيوس الذي تحالف مع أعداء قيصر، كمواطنين عاديين لتعزيز فرص السلام في روما. وهذا يعني ترك قيصر لولاية الغال وترك بومبيوس لولاية إسبانية التي كان يديرها من روما. فقبل بومبيوس الاقتراح لقوة مركزه في روما بفضل تأييد حزب الأرستقراطيين له. وكان من الطبيعي أن يرفض قيصر الاقتراح. وبحجة رفض قيصر الاقتراح أعلن مجلس الشيوخ قيصر عدواً للأمة واتهمه بحشد قواته على الحدود الغالية-الايطالية، وعين بومبيوس قنصلاً وسيره لمحاربة قيصر دفاعاً عن الأمة الرومانية، مما دفع نقيبي العامة ماركوس أنطونيوس وكاسيوس إلى الهرب من روما والالتحاق بقيصر. ولما علم قيصر بقرار مجلس

الشيوخ في 10 كانون الثاني 49 ق.م استبق وعبر نهر الروبيكون بعد تردد لمعرفته بأن دخول قوات رومانية إلى روما بدون موافقة مسبقة من مجلس الشيوخ يعدِ بمثابة إعلان حرب على روما. وقد رُويَ عن قيصر وهو يعبر النهر استعارته لقول الشاعر مناندِروس: لقد ألقي الزهر، دعه يطير في الهواء"، إذ يعني هذا إدراك قيصر أنَ عبوره النهر إلى روما إنما هو مغامرة خطرة. بيد أنَ المغامرة ربما كانت تعيش داخل قميص يوليوس قيصر!

ساد الذعر في روما نتيجة سقوط المدن أمام زحف قيصر من شمال ايطالية إلى جنوبها قاصداً روما، فأرسلت وفود تفاوض متتالية إلى قيصر، وعند عودة هذه الوفود إلى روما لم تجد بومبيوس هناك إذ كان قد ارتحل من روما مع بعض القناصل ومجلس الشيوخ إلى اليونان. إذ لم يكن الشرق فقط يخضع له وإنما أيضاً أفريقية وإسبانية مقابل خضوع ايطالية وبلاد الغال لقيصر.

تمكن قيصر من ايقاع الهزيمة بفرق بومبيوس الإسبانية ونجح في القضاء على التمرد الذي وقع في قواته بجنوب ايطالية فطارت أنباء انتصاراته إلى روما التي قرر شعبها تعيين يوليوس قيصر دكتاتوراً نظراً لحدوث فراغ سياسي بهروب القناصل مع بومبيوس. وكانت هذه هي ضربة الحظ التي كان ينتظرها قيصر بعد عبوره نهر الروبيكون، بأن يحوز على الشرعية. أما وقد تم له ذلك، فقد واجه، بعد ما قام بمناوراته المعتادة لايهام بومبيوس بالهروب بقواته وفرسانه الأقل عدداً من قوات بومبيوس المحتشدة في سهل فارسالوس بتاريخ 9 آب من عام 48 ق.م. وكان يدرك أنَ فرسانه الألف لن يستمروا في الصمود أمام فرسان بومبيوس السبعة آلاف، فوضع خلف فرسانه قوات احتياطية كبيرة وحسنة التدريب وأمرهم أن يفاجئوا فرسان بومبيوس ويطعنوهم في وجوههم، وخطب فيهم قائلاً: ".. لم يعتد هؤلاء الأرستقراطيون المدللون خوض المعارك والجراح بل اعتادوا على أن يزينوا انفسهم بالورود وأن يطلقوا شعورهم الطويلة على أكتافهم، وهم يحرصون في المقام الأول على حماية جمال وجوههم وزينتهم أكثر من اي شئ آخر، ولن يصبروا على رؤية السيوف وبريقها يلمع في عيونهم..". وكما توقع قيصر لم يحتمل فرسان بومبيوس الهجوم المباغت، الذي علق عليه بلوتارخوس قائلاً: "إنهم لم يتحملوا الضربات الموجهة إلى وجوههم فغطوها وأداروا رؤوسهم لحماية انفسهم..".

انتهت المعركة لصالح قيصر، الذي يعرف دوماً كيف ينتزع النصر، فشرع بمطاردة فلول جيش بومبيوس التي ما لبث الآلاف منهم بالاستسلام له، وكان منهم ماركوس بروتوس الذي كان استسلامه وانضمامه مكسباً كبيراً للمنتصر.

أكمل بومبيوس هروبه إلى الشرق واصطحب زوجته كورنيليا إلى مصر التي كانت تحكمها كليوبترا السابعة بالاشتراك مع أخيها الأكبر وزوجها بطليموس الثالث عشر. فحطت سفينتة عند شاطئ بلوزيوم حيث كان أخيلاس قائد قوات بطليموس الثالث عشر، شريك الملكة كليوبترا في الحكم، يعسكر استعداداً لصد زحف كليوبترا وجيشها

القادمين من الشرق لاستعادة مُلكها الضائع في الاسكندرية نتيجة الخلافات بينها وبين حاشية القصر وأخيها، حيث كانت قد هربت من الاسكندرية نحو شرق البلاد لجمع الأنصار والعودة إلى الاسكندرية. وبعد مشاورات وجدال شديدين بين مستشاري الملك الصغير، الذي كان يبلغ من العمر حينها خمسة عشر عاماً، استقر الرأي على التخلص من بومبيوس لكي لا يتخذ قيصر من وجوده ذريعة لدخول مصر بجيشه. لذلك، وبعد صعودهم إلى ظهر سفينة بومبيوس واستقباله بحفاوة بالغة طعنوه حتى الموت وهو ينزل من السفينة إلى الشاطئ حسب الخطة.

بعد أربعة أيام من مقتل بومبيوس وصل قيصر إلى الاسكندرية وهو يطارد بومبيوس للقضاء عليه. فتم تسليم رأس وخاتم القتيل إلى قيصر عند وصوله، فبكى قيصر موت خصمه بومبيوس وأظهر غضبه على مقتل قائد روماني عظيم كان قنصلاً في روما وزوجاً لابنتة الوحيدة يوليا التي ماتت خلال مخاضها في الولادة. لم يفت الحدث الدرامي قيصر، فقام بإرسال خاتم القتيل إلى روما ليعلمها بنهاية بومبيوس الأبدية. وبدلاً من استعداده للرحيل عن مصر دخل الاسكندرية بشارات الحكم الروماني الرسمية وأقام في القصر الملكي. حيث وجد المدينة خالية من الملكة والملك، وكان على علم بقصة خلافهما، فأعلن نفسه حكماً لحل الخلاف بينهما تنفيذاً لوصية والدهما الراحل بطليموس الثاني عشر الملقب بالزمار.

ورغم محاولة إغريق الاسكندرية إقناع قيصر بتركهم وشأنهم بالرحيل إلى روما فقد أصرعلى استدعاء المستشار الملكي للشؤون المالية، كما استدعى حضور الملكة كليوبترا والملك بطليموس الثالث عشر المتحاربين على الحدود الشرقية لمحاولة التوفيق بينهما. لم يطل الوقت ببطليموس حتى حضر مجلس قيصر قادماً من بلوزيوم، لكنَ انتظار قيصر لحضور كليوبترا طال كثيراً. إذ كان حلفاء الملك قد سدوا عليها جميع المنافذ من شرق البلاد إلى الاسكندرية، للحيلولة بينها وبين دخول الاسكندرية للوصول إلى مجلس قيصر لتوقعهم بتأثير سحرها ومنطقها على قيصر.

تفتقت عبقرية كليوبترا، بعد أن دخلت الاسكندرية بظلمة الليل مستقلة مركباً صغيراً حتى مياه المدينة ثم تسللت في قارب أصغر إلى داخل الميناء، ورشت بعض ضباط أخيها كي يسمحوا لها بالدخول للمثول أمام قيصر. وقيل أيضاً أن أحد تجار السجاد القبارصة أخفاها وسط سجادة كبيرة دخل بها لعرضها على القيصر، وما أن وضع السجادة على الأرض وأخذ ينشرها حتى خرجت منها كليوبترا وهي في أبهى الصور. وقيل أيضاً أنها أمرت حاجبها الخاص أن يلفها في سجادة ويحملها على كتفه ويدخل بها القصر كواحد من الخدم[1]. وهكذا مثلت كليوبترا أمام ناظري قيصر بأن أُفردت السجادة فخرجت منها

---

[1]– يشك بعض الدارسين برواية بلوتارخوس "Plutarch, Caesar 49. 1-3" التي تقول أن كليوبترا عملت على تهريب نفسها في سجادة ملفوفة إلى القصر الملكي الذي ترأس فيه قيصر اجراءات حل الخلاف على العرش بين المتنافسين كليوبترا وأخيها بطليموس الثالث عشر. وذلك أن الأخ والمتحالفين معه سدوا جميع المنافذ والطرقات لمنع وصول

الفتنة الملكية تملئ المكان، فأدرك قيصر على الفور أنه أمام شخصية يجمع بينها وبينه الكثيرمن المشتركات. وبغض النظر عن صحة هذه الروايات، فقد امتازت خطة كليوبترا بغايتها في الجمع بين البراعة والمغامرة والجرأة. وسرعان ما أصبح قيصر ابن الاثنين وخمسين عاماً وكليوبترا ابنة الواحد وعشرين عاماً عاشقين متيمين. وجاءت نتيجة المثول أن أقر القيصر الملكة كليوبترا على العرش على أن يشاركها أخوها في العرش. لكن أخيها وشريكها في الحكم خرج من القصر مغتاضاً وهو يصرخ: لقد خانوني! وأخذ يطالب أعوانه بالثورة والانتقام! فتجمع إغريق المدينة مع أفراد من الجيش وحاولوا اقتحام القصر حيث قيصر، لكن جنود قيصر تمكنوا من ردهم على أعقابهم وظفروا ببطليموس الثالث عشر وأدخلوه عنوة إلى القصر وأحكموا إغلاق الأبواب.

أدرك ساسة القصر وعصبة الأوصياء تاثير كليوبتراعلى قيصر منذ اللحظات الأولى، فحاولوا عدم تنفيذ إرادته عن طريق استخدام القوة، خاصة، أنهم كانوا يعرفون ضعف مركز قيصر وقلة عدد جنوده إلى عدد جيوشهم الكبيرة، فأعلنوا الحرب باسم الدولة ضد المحتل الأجنبي[1].

وبعد أن هدأت الأمور لفترة قرر أخيلاس قائد الجيش البطلمي احتلال الاسكندرية دون حساب كبير لقيصر وجيشه القليل العدد باستثناء منطقة القصر والميناء التي أحتلها قيصر وجنوده. استقبل سكان المدينة أخيلاس وجنوده استقبال الأبطال وساعدوهم على حصار القصر. ودارت المعارك التي عرفت بحرب الاسكندرية، والتي استمرت قرابة الستة أشهر بين الطرفين حتى كاد قيصر أن يفقد حياته في إحدى مراحلها، لكنه بقي مسيطراً على منطقة القصر الملكي وميناء المدينة لأجل سهولة الاتصال بقواته خارج مصر. وكان قيصر يحتفظ بأبناء بطليموس الثاني عشر الأربعة (كليوبترا وبطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر والابنة الصغرى أرسينوى) كرهائن داخل القصر. وقد حاول قيصر أثناء ذلك السيطرة على الجسر المؤدي إلى جزيرة فاروس للتحكم بفنار الاسكندرية، إلا أنه فشل وفقد حوالي أربعمائة من جنوده، وكاد هو نفسه أن يقتل معهم

كليوبترا من المثول أمام القيصر للتحكيم بينهما خوفاً من تأثير الملكة على قيصر. إلا أن السؤال يبقى قائماً؛ كيف وصلت كليوبترا إلى مجلس قيصر إذاً ؟

[1]– أشار د. مصطفى العبادي على الصفحة 102 من كتابه " مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي" إلى وصف يوليوس قيصر الدقيق، المأخوذ من المصدر: Caesar, Bell, Civ,III, pages 110- 111، لحالة الجيش والدولة المصرية حينها بما يلي: " لم يكن جيش أخيلاس بالدرجة التي يستهان بها من ناحية الحجم ونوع الجنود وخبراتهم القتالية. فقد كان لدى القائد أخيلاس عشرون ألفاً تحت السلاح يتألفون من جنود جابينوس الذين استمرأوا حياة الحرية المفتوحة في الاسكندرية لأنهم نسوا النظام الروماني ومعنى انتسابهم لشعب روما فتزوجوا وأنجبوا الكثير من الأطفال. أضف إليهم الكثير من اللصوص وقطاع الطرق الذين جاءوا من سورية وكيليكية والمناطق المجاورة، وانضم إليهم الكثير من المجرمين والمنفيين، فكل من كان يفر من عبيدنا كان يجد له ملاذاً مأموناً وحياة مطمئنة في الاسكندرية ما داموا يسجلون انفسهم في عداد الجنود. وقد كان هؤلاء الجنود يطالبون بقتل أصدقاء الملوك وينهبون أملاك الأثرياء ويحاصرون قصر الملك لزيادة رواتبهم، ويطردون بعض الملوك ويعينون بدلاً منهم على العرش، جرياً في الواقع على عادة قديمة لجيش الاسكندرية. وكان إلى جانب هؤلاء ألفان من الفرسان. وقد شاخ هؤلاء الجنود في حروب الاسكندرية المتعددة، حينما أعادوا بطليموس الثاني عشر إلى عرشه وعندما قتلوا ابني بيبولوس، وأثناء حروبهم ضد الشعب المصري. هكذا كانت خبرتهم الحربية".

لولا أنه ألقى بنفسه في الماء وسبح ناجياً حتى وصل إلى سفينته. اضطر بعدها للعودة إلى القصر والتمركز فيه انتظاراً لوصول الإمدادات. وقد نجحت أرسينوى بالهرب إلى حيث قوات أخيلاس فأخذت مكان أخيها الملك بطليموس الثالث عشر كقائدة للثورة ضد المحتل الروماني. واشتدت قبضة الحصار على قيصر وقواته لأن الأسطول المصري كان يحرس الشواطئ ويمنع الإمدادات الرومانية من الوصول إليه وهو محاصر داخل منطقة القصر والميناء. وقد وصلت ألسنة اللهب التي شبت بالقرب من الساحل إلى أطراف مكتبة الاسكندرية فأحرقت جانباً منها كما أحرقت بعض سفن قيصر وأخيلاس.

استطاع قيصر القضاء على خصومه والاستيلاء على كامل المدينة بعد أن وصلته قوات رومانية عن طريق سورية؛ والتي منها نجدة ملك الأنباط مالك الأول. وأثناء ذلك غرق ملك مصر الصغير بطليموس الثالث عشر وهو يحاول الهرب بعبوره النيل نحو الشرق بعد أن نجح في الهروب[1] من القصر إلى جانب قواته، بينما أرسلت أرسينوى أسيرة ليزين بها قيصر عرض انتصاره في روما على عادة الفاتحين الرومان.

أعلن قيصر كليوبترا من جديد ملكة على عرش مصر بالمشاركة مع أخيها وزوجها الجديد بطليموس الرابع عشر وذلك في شهر كانون الثاني من عام 47 ق.م، وعين لأخيها مجلس وصاية من أتباع كليوبترا، وثبتهما ملكين على مصر وقبرص. بعد ذلك استمتع قيصر وكليوبترا برحلة نيلية على ظهر يخت كليوبترا الملكي بمصاحبة أربعمائة سفينة إضافية إلى جنوب البلاد طوال بقية الشتاء حيث كان تأثير جمال ومرح وثقافة كليوبترا كبيراً على قيصر بحيث استطاعت أن تملأ قلب الرجل وعقله معاً إلى الحد الذي أثر فيه لتأجيل العودة لمباشرة أمور الحكم في روما. ويعتقد أنَ كليوبترا تمكنت من إقناع قيصر بالتنازل لها عن جزيرة قبرص تعزيزاً لموقفها أمام المصريين. كما يعتقد بأن قيصر أحجم عن ضم مصر وجعلها ولاية رومانية بسبب حبه لكليوبترا إلى حد إهدائها مائتي الف مخطوط تعبيراً عن حبه لها وتقديراً لتفكيرها الراقي وذكائها العالي[2]؟ وقد زار قيصر في هذه الرحلة الآثار الفرعونية واطلع على طريقة حياة الفراعنة من خلال ما رآه في مدافنهم في الأقصر. إلا أنَ قيصر لم يستجب لمحاولات كليوبترا، خلال رحلتهما النيلية، بضم مملكة الهيروديين اليهودية في فلسطين إلى مملكتها، بل قام بمكافأتهم بالسماح بممارسة حريتهم الدينية وإقامة المعابد، وأعاد لهم سلطتهم السابقة التي كان بومبيوس قد قضى عليها.

غادر قيصر الاسكندرية إلى سورية في نيسان بعد أن ترك حامية رومانية لضمان استقرار الأحوال في مصر على نحو ما رسم. ومن أجل أن تبرر كليوبترا حملها من قيصر اعتبرت نفسها إيزيس الجديدة وأعلنت أن قيصر كان قد نودي به في إفسوس كحفيد

---

[1]– يقال أن كليوبترا أشارت على قيصر أن يسهل هروب بطليموس الثالث عشر لآن ذلك سيتسبب في الانشقاق بينه وبين أرسينوى ومستشاريهما، إذ حدث ما توقعته كليوبترا، حيث انتهزت إطلاق سراح أو هرب أخيها فطلقته، وهي تعلم أنها تحمل من قيصر.

[2] – د. أحمد أبو زيد: "عالم الفكر" الكويتية، ج9، العدد 4، ص 7.

لآريس من أفروديت إلهاً مجسداً ومخلصاً للبشرية. وأشيع أن قيصر هو التجسيد الحي للإله آمون. وكان غرض كليوبترا من كل ذلك أن تبدو علاقتها بقيصر كزواج مقدس بين كائنين إلهيين، وليست علاقة زنا، وبالتالي فإن المولود عندما يأتي سيكتسب أيضاً صفة القداسة. وبعد رحيله، وضعت كليوبترا طفلها من قيصر في صيف 47 ق.م وأسمته قيصر، فأطلق عليه أهل الاسكندرية لقب قيصرون على سبيل السخرية.

في طريق العودة إلى روما مر قيصر بآسية الصغرى فأحرز نصراً سهلاً على فارناكيس ملك بونطوس على بحر البلطيق في معركة زيلا. فكتب، من هناك، لأحد (روى البعض أنها وجهت إلى مجلس الشيوخ) أصدقائه العبارة التالية التي عدت أول برقية في العالم: "أتيت Veni، نظرت Vidi، وانتصرت Vici".

بعد أن وصل قيصر إلى روما عائداً بعد غياب دام أكثر من عام ونصف، لحقت به كليوبترا وابنها وأخوها بطليموس الرابع عشر، واتخذت لها مقاماً في حدائقه[1] على ضفة نهر التيبر وليس في منزله حيث زوجته، وعاشت معه كعشيقته على الرغم من وجود زوجته الشرعية، حيث لم يكن القانون الروماني يسمح بالزواج إلا من رومانيات، مع ذلك لم تكن علاقة قيصر بكليوبترا تعد في العادة الرومانية علاقة زنا. وقد أحاطها قيصر بكل أنواع الرعاية والتكريم، وأعلن اعترافه بابنه منها؟ كما أقام لها تمثالاً من الذهب الخالص في المعبد الجديد الذي بناه لألهة الحب والجمال فينوس التي كانت تعتبر أم الرومان جميعاً، مما أوحى للرومان على أنه يؤلهها تمهيداً للزواج بها. إلا أنه لم يستجب لرغبة كليوبترا بإعلان زواجه منها رسمياً وتسميه ابنه منها وريثاً له، بل أعلن أوكتافيوس ابن بنت أخته وريثاً وحيداً له، بالرغم من نقل أنطونيوس أعتراف قيصر ببنوة ابنه منها إلى مجلس الشيوخ. وهكذا عاشت كليوبترا في روما باعتبارها سيدة روما المقبلة. وبذلك كان نبلاء الرومان يكرهونها ويتزلفون إليها بذات الوقت، فكانت تتعالى عليهم، بل إن شيشرون حدثنا أنها عاملته بطريقة مشينة. ويروى أن كليوبترا أقامت مجلساً أدبياً كان يحضره الكثير من النخبة الرومانية عند انعقاده خلال زياراتها الطويلة لروما.

استطاع قيصر بمهارته السياسية تحقيق نصر نظيف في نيسان 46 ق.م على ابني بومبيوس اللذين كانا قد حشدا جيشاً كبيراً في شمال أفريقية مع انضمام كثيرين من قادة الفرق الرومانية إليهما. كما استطاع إحراز نصر على قوات سكبيو وكاتو الإبن في معركة ثابسوس، حيث قتل الأول وانتحر الثاني. ولاحق قيصر البقية الباقية من معارضي تحالف أبناء بومبيوس إلى إسبانية وهزمهم في معركة موندا سنة 45 ق.م فأصبح قيصر الزعيم الأوحد في روما، وأطلق عليه مجلس الشيوخ ألقاب الشرف الروماني، والتي منها "المشرف على الأخلاق" حيث أتيح له التدخل في حياة المواطنين العامة والخاصة. وقد أقيم له تمثال في معبد الكابيتول وهو يمتطي عربة النصر وخريطة العالم تحت قدميه.

---

[1] - Suetonius, Caesar 35. 1, and Dio Cassius, RH (Roman History) 42. 44

لم يقم قيصر بملاحقة أعدائه وحرمانهم من حقوقهم بل قام بمنحهم جميعاً عفواً عاماً، بحيث لم يظهربعدها أثر لوجود معارضة. وقد اقيمت في موندا احتفالات على شرف انتصار قيصر. لكن الرومان لم يكونوا سعداء بهذه الاحتفالات لأن الاقتتال كان بين رومان، وذلك حسب رواية بلوتارخوس عن قيصر.

خلال عشرة أيام من شهر تموز عام 46 ق.م أقيمت احتفالات النصر لقيصر في روما وبلاد الغال ومصر وبلاد بونطوس على البحر الأسود وفي أفريقية. وقد شاهدت كليوبترا احتفالات النصر من على نفس المنصة التي كان يشرف منها قيصر على موكب النصر في روما، حيث سارت خلف الموكب الأميرة أرسينوى مقيدة بالحديد. وقدمت ولائم ضمت أكثر من عشرين ألف مائدة لأكثر من مائتي ألف مدعو مع تقديم هدايا وهبات لا حصر لها. كما أقيمت مختلف المباريات والألعاب الرياضية ومختلف وسائل المتعة والتسلية. لكن ما أثار خيال الرومان العاديين كان الموكب الأسطوري الملكي لكليوبترا. بالمقابل أثار موكبها بنصر حبيبها قيصر حفيظة وضغينة الطبقة السياسية العليا من مجتمع روما التي رأت في الصورة التي ظهرت فيها الملكة نوعاً غير مألوف من التعالي والكبرياء، أو هكذا تخيلوا؛ كل لأسبابه المتعددة. وقد اشتكى الخطيب الروماني الشهير شيشرون[1] من ذلك، والذي ربما رأى في موكب قيصر وكليوبترا دكتاتورية مطلقة قادمة آجلاً وتأسيساً لملكية وراثية رومانية يكون قيصر ملكها وكليوبترا ملكتها، حيث كان هذا يمثل هاجساً مرعباً لنخبة الحزب الأرستقراطي الروماني وللرومان بشكل عام، مع ذلك أعلن يوليوس قيصر دكتاتوراً مدى الحياة، فازدادت أساليب النفاق لقيصر حتى أن تماثيله انتشرت في جميع أنحاء روما وفي المعابد والساحات العامة. وهكذا بدا التأسيس لعبادة الحاكم التي ستصبح قاعدة في العصر الامبراطوري القادم قريباً.

قام قيصر بعد عودته إلى روما في أيلول عام 45 ق.م، بينما كان يقضي بعض الوقت مع كليوبترا في ضيعته جنوب روما، بكتابة وصيته وتسمية ابن بنت أخته غايوس أوكتافيوس وريثاً شرعياً له في كل شئ، حيث لم يكن لقيصر أبناء إلا ابنته يوليا زوجة بومبيوس التي توفيت مع جنينها في مخاض الولادة سنة 52 ق.م، وابنه قيصر من عشيقته كليوبترا. ورغم اعترافه بقيصر من كليوبترا إلا أنه لم يوص له بشئ. كما لم يوص بشئ لماركوس أنطونيوس قريبه ونائبه في القنصلية ومناصره الأول. وقد ذكر قيصر في وصيته بأن يرثه ماركوس بروتوس إذا مات أوكتافيوس قبل موته هو. وقد تحير بعض المؤرخين من عدم ذكر قيصر لابنه من كليوبترا أي شئ! إذ ربما غير قيصر رأيه بالاعتراف بابنه دون أن يعلن ذلك؟ أو قد يكون السبب في معرفة يوليوس قيصر أن القانون الروماني لا يجيز لغير الروماني وراثة الروماني؟ إذ لولا ذلك لجعل قيصر من ابنه من كليوبترا وريثه الشرعي الوحيد وريثاً لحكم الدولة الرومانية بدلاً من أوكتافيوس حفيده من جانب أخته؟

---

[1] - Dio Cassius, RH. 43.3 ; Cicero, Letters to Atticus 15.15.2

سرت شائعات قوية في روما بأنّ قيصر سيطلق زوجته كالبورنيا ويتزوج من كليوبترا، وقيل أيضاً أنه ربما يتقدم لمجلس الشيوخ بمشروع يبيح الزواج باثنتين، وأنه سينقل العاصمة روما إلى الاسكندرية ويعيش هناك مع كليوبترا!

كان قيصر يعد العدة للتأهب لقيادة حملة جديدة عبر مقدونية لاستعادة الهدوء والسلم ضد تهديدات ملك داكية في البلقان، وهو يتجه في وجهته الأساسية نحو الجبهة الفارسية ماراً بأرمينية. وروي أنه ربما كان يفكر، بعد النجاح في حملته تلك، أن يكمل زحفه إلى الخليج العربي وإلى الهند ثم يلتف بطريق العودة عبر القوقاز وجنوب روسية وسهول الدانوب للقضاء على عدوه الفارسي. لذلك حرص أعداء قيصر على تغذية واستغلال الشائعات بأنه يحلم بنقل مركز الحكم الروماني إلى طروادة أو الاسكندرية ليتم السيطرة الكاملة على العالم القديم[1]. وسرت هذه الشائعة في روما كما النار في الهشيم من ضمن شائعات أخرى جعلت جميعها معارضة القيصر تسارع في حشد جهودها التآمرية للقضاء عليه بأسرع ما يمكن. فسرت شائعات في روما عن مؤامرة لاغتياله. والغريب أن بعض من كان ينسج خيوط هذه المؤامرة كانوا من أصدقائه وخلصائه. وكان قد اتفق أن يحدد مجلس الشيوخ جلسة لبحث خطط قيصر المقبلة.

وجد المدافعون عن النظام الجمهوري من نخبة ورجال الحزب الأرستقراطي (السناتوس) في إقامة الملكة كليوبترا في روما كعشيقة لقيصر وتحت رعايته ضالتهم لانتقاده وتغيير صورته أمام الرومان، فبدؤوا بنشر الشائعات حول طموحاته وأهدافه السياسية بأنه يرمي إلى تحويل النظام الجمهوري الروماني إلى نظام ديكتاتوري ملكي وراثي على غرار الممالك الهلينية الشرقية في اليونان ومصر بحيث يكون هو ملكها وكليوبترا ملكتها .وكانت الأهداف الحقيقية لرجال الحزب الجمهوري هي التخلص بأسرع ما يمكن من أسطورة قيصر وبرامجه القريبة من رغبات الشعب الروماني خوفاً من طموحاته التي لا تحد، والتي لا يكمن التنبؤ بها، خاصة وأنّ بعضهم كان على تناقض وعداء سياسي معه منذ بداية ظهوره على مسرح السياسة والجندية الرومانية. لذلك كان رجال السناتوس على عجلة من أمرهم للتخلص من قيصر، فحاكوا مؤامرة اغتياله في اليوم الذي كان مقرراً لمجلس الشيوخ الروماني أن يخلع على قيصر لقب ملك قبل مغادرته روما نحو الشرق لتنفيذ حملته على بلاد فارس، خاصة أنّ النبوءة قالت أنّ الجيوش الرومانية لن تفلح في غزو بارثية (بلاد فارس) إلا بقيادة ملك، وقد انتشرت بسرعة كبيرة. وقد ورد الكثير من روايات المؤرخين عن علامات الشؤم التي سبقت أو واكبت مقتل قيصر.

في يوم 15 آذار من عام 44 ق.م هب الجميع وقوفاً يؤدون التحية لقيصر وهو يدخل مجلس الشيوخ. وبمجرد أن جلس اقترب منه المتآمرون متظاهرين بتقديم الولاء، وتحلقوا حوله حتى أخفوه تماماً عمن كان داخل المجلس، فكان أول من اقترب منه توليوس كيمبر

[1] – تبدو هذه الشائعات إن صحت حينها محاكاة لما قام به الاسكندر المقدوني قبل ثلاث مائة سنة تقريباً.

الذي بدأ يتوسل لقيصر أن يأمر بعودة أخيه من المنفى، وأمام رفض قيصر مد كيمبر يديه ضارعاً ثم سحبهما بسرعة غاضبة إلى الخلف ساحباً عباءة قيصر الأرجوانية من على كتفيه حيث كانت هذه علامة المتآمرين المتفق عليها للإنقضاض عليه وهو بردائه البسيط دون شارات القيادة والسلطة المطرزة على العباءة. صرخ فيهم قيصر: لما كل هذا العنف؟ سدد كاسكا الذي كان يقف وراء قيصر الطعنة الأولى التي استهدفت رقبة قيصر إلا أنها أصابت كتف الضحية التي استدارت وأمسكت بذراع كاسكا وضربته بريشة الكتابة قائلاً: أيها الوغد كاسكا ماذا أنت فاعل؟ فعاجلته ضربة أحدهم بطعنة في الجنب. أما كاسيوس فقد سدد ضربته مباشرة إلى وجه قيصر. انهال جمع المتآمرين بطعنات جنون قاتلة حتى أنهم أصابوا بعضهم بعضاً، فسقط قيصر مضرجاً بدمائه داخل مجلس الشيوخ الروماني تحت أقدام تمثال بومبيوس خصمه القديم رغم محاولته الدفاع عن نفسه، إلا أنه غطى وجهه بعباءته وهم يتنابون على طعنه عندما رأى بروتوس ضمن القتلة، حسب رواية بلوتارخوس. وقد ذهبت عبارته لبروتوس- الذي كان قيصر يعده كابنه، وكان قد أوصى له في وصيته بعد وريثه أوكتافيوس، والذي ربما كان كذلك لأنه ابن سرفيليا أحب عشيقات القيصر إلى قلبه- مثالاً خالداً في تراث المأساة الإنسانية على الغدر وعدم الوفاء: "حتى أنت يابروتوس!". كانت هذه الجملة آخر ما نطق به قيصر حسب روايتي بلوتارخوس وسويتونيوس، إلا أنهما ألقيا ظلالاً من الشك على الرواية. وكان المتآمرون قد قرروا قتل أنطونيوس بعد التخلص من قيصر إلا أن بروتوس لم يوافق على ذلك، لكنهم اتفقوا على إشغاله خارج المجلس كي لا يهب لنجدة قيصر في لحظة ارتكابهم الجريمة.

وحسب رواية بلوتارخوس: تقدم بروتوس بعد أن سقط قيصر صريعاً، وأعلن على رؤوس البقية من زملائه أعضاء مجلس الشيوخ: " نحن الآن أحرار من جديد". انطلق حشد المتآمرين إلى الكابيتول وهم يهتفون بحياة وحرية مدينتهم الحبيبة روما. إلا أن مظاهرة القتلة لم تلق صدى من شعب روما، التي اختفت جماهيره بسرعة كبيرة، وران صمت رهيب ينطق بغموض مخيف على أحياء العاصمة، وشائعات متعددة عن مقتل قيصر، انطلقت بعدها الجموع الهادرة من الطبقة المتوسطة التي كانت ترى في قيصر بطلها ضد تعسف الأرستقراطية الرومانية، فازدادت غضباً على غضب خلال تشييع جنازة القتيل، خاصة بعد تأبين أنطونيوس، فاشعلت النيران في الساحة العامة وبعض الأبنية المحيطة.

سمح المتآمرون لأنطونيوس برثاء قيصر، فقام خطيباً وهو يحمل الجثمان مطلاً على الساحة العامة المليئة بالجموع، فلاحظ تأثر الجماهير الشديد بكلمات رثائه، فقرأ وصية قيصر وتوزيع جزء من ثروته عليهم. وأنهى خطبته برفع رداء قيصر، الذي مزقته الطعنات، إلى الأعلى، وأثار الدماء عليه، وصاح بأعلى صوته بأن من قام بهذه الفعلة هم

سفلة وقاتلون، فثارت الجموع[1] الهائجة المتحلقة حول الجثمان وأشعلت به النيران على عادة الرومان بحرق جثث موتاهم، ثم سحبت بقايا الأخشاب المحترقة وطارت تهاجم منازل المتآمرين.

فر المتآمرون من روما لما رؤوا هياج الجماهير بعد خطاب الرثاء المثير، فاجتمع مناصرو قيصر حول ماركوس أنطونيوس، وقامت زوجة قيصر كالبورينا بوضع ثقتها بأنطونيوس وأودعته معظم ممتلكات يوليوس قيصر التي كانت في حوزتها بما فيها مذكراته وقراراته ومراسيمه. فقام أنطونيوس بدوره بأخذ زمام المبادرة وعين بعض الحكام والكثير من أعضاء مجلس الشيوخ كما عفى عن بعض المنفيين وأطلق سراح بعض المسجونين. والمهم أن أنطونيوس قام بدور القنصل كرجل دولة حقيقي فعين أخاه غايوس قاضياً عاماً وأخاه الثاني تريبوناً (نقيباً للعامة).

في هذه الأثناء وصل اوكتافيوس وريث القيصر إلى روما قادماً من أبولونية التي كان يتم تعليمه في أكاديميتها العسكرية، فاستقبله ماركوس أنطونيوس بطريقة لم تكن لائقة، كما روى بلوتارخوس، إلا أنهما اتفقا بعد أن عقدا اتفاقاً تصالحياً في الكابيتول لمدة خمس سنوات. وسرعان ما تشكل الائتلاف الثلاثي الثاني من ماركوس أنطونيوس وغايوس أوكتافيوس حيث انضم إليهما لبيدوس فيما بعد. وكان شيشرون يقف مع البعض من أعضاء مجلس الشيوخ إلى جانب أوكتافيوس، ضد أنطونيوس الذي نجح بعدها بقطع رأس شيشرون الذي تسبب في إعدام زوج أمه في تاريخ سابق عند نشوب الخلاف بين ماريوس وسولا. وقد جرت معارك واقتتال بين الائتلاف الجديد وائتلاف قتلة قيصر بروتوس وكاسيوس. وفي هذا الوقت خلال الحرب الأهلية التي نشبت بعد مقتل قيصر أثبت أنطونيوس أنه قائد عسكري ممتاز.

أدركت كليوبترا بسرعة بحسها السياسي أن روما لم تعد مكاناً آمناً لها فعزمت المغادرة[2] بالخفاء إلى مصر. ويقول شيشرون أنّ حزنها الكبير أدى إلى قلق أكبر جعلها تفقد حملها الثاني من قيصر. وبعد أن استقر مقامها في الاسكندرية بفترة مات أخوها بطليموس الرابع عشرالذي كان يشاركها العرش في ظروف ليست واضحة الأسباب حتى عد موته عن تدبير ربما كانت كليوبترا وراءه[3]. فأعلنت لاحقاً ابنها قيصر من يوليوس قيصر ملكاً يشاركها الحكم، ولقب بطليموس الخامس عشر. ونتيجة لجريمة مقتل قيصر الدرامية انقسم الرومان، فقامت الفوضى ونشبت حروب أهلية طاحنة بين قتلة قيصر بقيادة ماركوس يونيوس بروتوس وغايوس كاسيوس لونجينوس اللذين هربا إلى اليونان وحشدا قواتهما هناك، وبين مناصريه بقيادة ماركوس أنطونيوس وأكتافيوس ولبيدوس.

---

[1] – Plutarchus, Parallel Lives, P 171/ سير النظراء لبلوتارخوس.

[2] – Dio Cassius, RH, 51.22.3

[3] – ذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس أن كليوبترا قتلته بالسم؟

وقفت كليوبترا، رغم حيرتها المعلقة، بحكمة عجيبة على الحياد خلال الصراع الذي نشب على السلطة بعد موت قيصر مباشرة، بحيث لم تنحز كما كان متوقعاً إلى أنصار قيصر، وآثرت الانتظار حتى تنجلي النتائج. وقد دل مسلكها على أنها كانت تفكر بعقلها لا بعواطفها وتعمل طبقاً لمصالح مُلكها ومملكتها. مع أنها كما يروى كانت تميل إلى الانحياز لمعسكر بروتوس وكاسيوس لأنها قدرت أنهما سيكونان الرابحين، ولم ينقذها من حيرتها المعلقة إلا ائتلاف أنطونيوس وأكتافيوس.

قرر كاسيوس غزو مصر للاستيلاء على ثرواتها ومعاقبة كليوبترا التي تعللت بسوء الحالة الاقتصادية في مصر لعدم قدرتها حالياً على تزويده بالمؤن، وقد وعدته بأنها ستحاول تأمين كل ما تستطيع من دعم ومساندة، ولظنه بتحالفها مع قائد قوات الائتلاف في الشرق، ولمنعها من إرسال الإمدادات اللازمة لتحالف أنطونيوس وأوكتافيوس كما اعتقد. إلا أنه لم يستطع تنفيذ مخططه بغزو مصر لاستدعاء بروتوس له إلى مدينة سميريا التي كانت تقع بالقرب من مدينة أزمير التركية الحالية. وقد روى المؤرخ اليهودي يوسفوس أنه بدلاً من ذلك أرسل قوات بحرية لاعتراض أسطول كليوبترا الذي أبحر من الاسكندرية بمحاذاة الساحل الليبي للإنضمام لقادة قوات الائتلاف الثلاثي فتعرض لعاصفة بحرية هوجاء أوقعت به الكثير من الأضرار إلى جانب مرض كليوبترا قائدة الأسطول المبحر، مما دعاها إلى العودة إلى الاسكندرية قبل اعتراض قوات كاسيوس البحرية لها[1]. ويحلل بعض المؤرخين صحة هذه الرواية بأنها كانت سيناريو محكم من كليوبترا لشراء الوقت.

اندحرت قوات بروتوس وكاسيوس في فيلبي سنة 42 ق.م، فانتحر كاسيوس وبروتوس، وكانت آخر كلمات الأخير: "أيتها الفضيلة ما أنت إلا كلمة مجردة".

كانت محصلة علاقة كليوبترا مع قيصر قد أدت بشكل واضح لعودة مصر للظهور من جديد كقوة دولية على مسرح السياسة في العالم القديم، وذلك بعد فترة من الضعف انتابتها. وكانت كليوبترا تأمل بحملها من قيصر أن يتيح لها وراثة حكم العالم بعد اعتراف قيصر بابنه قيصر منها وريثاً لحكم روما والعالم القديم. وقد كان هذا من الأسباب الأساسية التي عجلت بتنفيذ مؤامرة الاغتيال. وقد مثل مقتل قيصر ضربة الحظ السيئة بل القاتلة لطموحاتها.

عانى قيصر، حسب بلوتارخوس في تاريخه عن مشاهير اليونان والرومان، من مرض الصرع نتيجة إصابته بالملاريا في السنوات المبكرة من عقده الثالث، حيث بدأت مظاهر نوبات هذا المرض تزداد في سنواته الأخيرة، وقد سارع اغتيال قيصر بإنهاء الجمهورية التي امتد عمرها لخمسمائة عام.

وضع قيصر التقويم الميلادي سنة 46 ق.م وقام بتوزيع أراض على خمسة عشر ألفاً من جنوده السابقين، وحدد السنة بـ 365 يوماً، وحدد أيضاً مجئ السنة القمرية كل أربع

(1) – Josephus, Antiquities of the Jews 15.89 / جوريفوس، تاريخ اليهود القديم، 15. 89.

سنوات، وسمى شهر تموز"جولاي أو جولي/ يوليو" بعد (يوليوس/جوليوس). وتم بعد ذلك بزمن طويل تعديل التقويم القيصري من قبل البابا غريغوري الثالث عشر سنة 1582م إلى التقويم الميلادي الذي يأخذ به العالم اليوم.

كليوبترا وماركوس أنطونيوس (مارك أنطوني)

ارتبط جد ماركوس أنطونيوس، الخطيب أنطونيوس، بحزب سولا، حزب الأرستقراطيين الرومان، ومن أجل ذلك نفذ فيه حكم الإعدام من قبل ماريوس، عم يوليوس قيصر الذي كان زعيم حزب الشعبيين حينها. وكان والد أنطونيوس بريتوراً منحه السناتو سلطة بروقنصلية غير محدودة لمحاربة القراصنة الذين عاثوا فساداً في البحر المتوسط، لكنه فشل في مهمته، ولقي هزيمة كبرى أثناء هجومه على معقل القراصنة في كريت، ومات هناك. وأما والدته جوليا فكانت من عائلة يوليوس قيصر، لذلك كان قريباً لقيصر من ناحية الأم. وبعد موت والده تزوجت أمه من لنتولوس الذي تم إعدامه بمساع ودعم من شيشرون لمشاركته بمؤامرة كاتيلينا[1]. وكانت هذه الحادثة وراء الكره العنيف الذي كان يكنه أنطونيوس لشيشرون، حيث سينجح بالانتقام منه لاحقاً.

عاش أنطونيوس حياة ماجنة أيام شبابه الأولى، فكان سكيراً شنيع السلوك، تستهويه غواية النساء، مسرفاً بشكل غير محسوب، فإذا أعطى أعطى دون حساب، وعندما كان يدرك أنه ارتكب خطأ كان يعتذر لمن أخطأ بحقه، يتأثر سريعاً بالمديح، يقضي النهار في النوم أو في التسكع برأس مهووس وموجوع، ويقضي الليالي في صخب ومجون أو في حفلات الزواج والخطوبة أو حفلات البهاليل والمهرجين. وبشكل عام كانت البساطة ميزة لشخصيته. لكنه بعد ذلك ذهب إلى اليونان وقضى بعض الوقت في تعلم الممارسات القتالية وأساليب الخطابة. وقد استطاعت زوجته الثانية فولفيا ترويض شخصيته المتمردة والقلقة، حيث يمكن القول أن كليوبترا مدينة لفولفيا التي استطاعت تربيته على طاعة الزوجة والحبيبة.

وصف بلوتارخوس ماركوس أنطونيوس بالتالي: ".. اكتسب أنطونيوس مظهراً نبيلاً بلحية أنيقة وجبهة عالية وأنف معكوف كأنف تمثال هرقل، حيث كان مظهره رجولياً حتى يخيل للناظر إليه أنه يرى الإله هرقل. إضافة إلى أن الاعتقاد الروماني القديم كان يرى أن اسم أنطونيوس ينحدر من أنطونيوس بن هرقل. وكانت عادة أنطونيوس أن يضم عباءته الواسعة حول وسطه ويدلي منها سيفاً كبيراً وخنجراً ثقيلاً بطريقة استعراضية، حيث كانت هذه المظاهر تحط من قدره عند خاصة الرومان، إذ كانوا يرون العظمة في

[1] – كاتيلينا Catilina هو نبيل روماني خطط وقاد مؤامرة للاستيلاء على الحكم سنة 63 ق.م. وقد قتل في معركة إترورية Etruria، وتم إعدام رفاقه المشاركين في المؤامرة.

نفسه والتفاخر في حديثه والحميمية مع من حوله، وفي جلوسه وطعامه ولهوه وفي ازدراده للطعام وهو واقف خفة. مع كل ذلك كانت هذه الصفات غير المتكلفة هي التي تقربه من رجاله على الدوام فيسعدون به وسطهم". وأخذ عليه البساطة والمرح والسخرية والبطء في فهم من يقابلهم والكسل عن النهوض واهتبال الفرص والمواقف. وذكر شيشرون إفراطه في الشراب حيث يحيل جلساته إلى مساخر. كما قيل أنه اشتهر بالشذوذ في شبابه، إلا أنه اتجه بعد ذلك إلى النساء، إذ قيل أنه لم يكن يشبع منهن قط؟ لكنه أثبت قدرات قتالية عالية وتكتيكات ناجحة في المواجهات، لذلك منح نوط الشجاعة والشرف، وكان جنوده يرونه مثالاً لهم، إذ كان يشاركهم التدريب والحياة في مواقعهم، كما كان كريماً معهم إلى أبعد الحدود، لكنه كان قاسياً عندما تقتضي الضرورات ذلك.

عندما أبحر جابينوس إلى سورية حاول إغراء أنطونيوس بالإبحار معه في مهمته، فاشترط أنطونيوس تعيينه قائداً للفرسان في حملة جابينوس لإنهاء التمرد اليهودي في فلسطين. وقد شارك أنطونيوس في هذه الحملة الرومانية التي أيضاً أعادت بطليموس الثاني عشر إلى عرش مصر، حيث كانت المرة الأولى التي يأتي بها إلى مصر ويقابل كليوبترا.

انحاز أنطونيوس إلى حزب الشعبيين عندما نشبت الأزمة في روما بين هذا الحزب تحت قيادة قيصر وحزب الأرستقراطيين تحت زعامة بومبيوس، وذلك بتأثير من صديقة كوريو. وقد عينه قيصر تريبوناً، فشكل دعماً قوياً له. وبعد انتخاب قيصر قنصلاً للمرة الخامسة عين أنطونيوس كزميل ونائب له.

هرب أنطونيوس بلباس خادم إلى حيث يعسكر قيصر في بلاد الغال بعدما أعلن مجلس الشيوخ قيصر عدواً للشعب وبومبيوس حامياً وقنصلاً عليها. وبناء على معلومات أنطونيوس التي قدمها لقيصر عما كان يجري من فوضى في روما، قرر قيصر اهتبال اللحظة التي تطابقت مع ما كان يخطط له فزحف من بلاد الغال باتجاه إيطالية، وذلك في كانون الثاني عام 49 ق.م. وكتب شيشرون عن ذلك قائلاً: " كانت هيلين السبب المباشر في حروب طروادة وأنطونيوس في الحرب الأهلية الحالية". إلا أن هذا الاتهام لم يكن صحيحاً لأن قيصر لم يكن لين العريكة أو يتأثر برد فعل سريع، بل كان رجل دولة من الطراز الرفيع، دقيق التخطيط والتنفيذ. إذ تقدم نحو روما وهزم بومبيوس في معركة فارسالوس، فالتجأ الأخير إلى مصر وقتل هناك. وكان أنطونيوس يقود الجناح الأيسر لقوات قيصر بينما كان قيصر على الجناح الأيمن. وبعد أن أصبح قيصر دكتاتوراً عين أنطونيوس قائداً عاماً لسلاح الفرسان في الجيش، حيث كان هذا المنصب يعد تالياً إن كان الدكتاتور في المدينة، وأولاً إن كان خارجها.

مثل مصرع يوليوس قيصر في 15 آذار سنة 44 ق.م ضربة قاصمة لآمال وطموحات كليوبترا بأن تصبح ملكة العالم القديم في روما عاصمة الدنيا إلى جانب ملكها يوليوس قيصر. إلا أن حظوظ هذه المرأة المميزة لم تنته عند ذلك الحد بل بدأت تستقيم

باقدارها مع القائد الروماني الشهير ماركوس أنطونيوس فبعثت في طموحاتها الأمل والحلم من جديد.

فبعد انتهاء الحرب الأهلية التي نشبت بين الائتلاف الثلاثي الثاني وبين قتلة قيصر بقيادة بروتوس وكاسيوس بانتصار تحالف أوكتافيوس وأنطونيوس في معركة فيلبي (وهي مدينة مقدونية قديمة كانت تقع على الساحل الشمالي الشرقي لبحر إيجة) في 42 ق.م، اقتسم المنتصرون البلاد بينهم، حيث صارت الولايات الغربية لأوكتافيوس والولايات الشرقية لماركوس أنطونيوس، والتي من ضمنها مصر. وكانت مصر وقتها تعد دولة مستقلة من الناحية الرسمية بالرغم من دورانها الفعلي في فلك روما. فأراد أنطونيوس أن يرسم سياسة جديدة لمصر. وبعد اندحار قوات بروتوس وكاسيوس في معركة فيلبي الفاصلة استدعى أنطونيوس، الذي عهد إليه تنظيم شؤون الشرق، كليوبترا وملوك وحكام الشرق الذين حامت الشبهات حول مواقفهم بعد مقتل قيصر للمثول أمامه في إفسوس Ephsus التي وصل إليها بعد انتهاء الحرب الأهلية. وعندما وصل ديليوس مبعوث أنطونيوس إلى كليوبترا لاحظ رقتها وحدة ذكائها وعقلها اللماح فأدرك أنَ أنطونيوس لن يقدم على إيذاء هذه المرأة أبداً، بل على العكس سيكون لها تأثير عظيم عليه. فغير من لهجة خطابه للملكة وأغراها بلقاء قائده. رأت كليوبترا في هذه الدعوة أملاً جديداً لإحياء ما كانت تخطط لحدوثه مع قيصر. إلا أنها لم تلب طلب أنطونيوس في الحال وتركته ينتظر إلى حين، فأرسل لها رفيق مجونه يستحثها للقائه، فشرعت تخطط من أجل الاستيلاء على لب سيد روما الجديد كما سلبت لب سيده السابق. فمضت إليه بسلاحين ماضيين؛ جمالها وأنوثتها الفاتنة وذكاؤها الشديد، حيث كانت تعرف نقاط ضعف الرجل. فاستقلت مركباً صنعت مقدمته من الذهب، وقلاعه من القماش الأرجواني، ومجاديفه من الفضة، فوصلت على ظهره وسط العطور العبقة والموسيقى الشجية بين غوان يمثلن إلهات الحب وعرائس البحار، حيث دعت أنطونيوس للقائها بدلاً من الذهاب إليه؟ أخذ لب أنطونيوس ما رأى فوقع في أسر غرامها حيث سيكون مصير روما رهناً بمشيئة كليوبترا. واستطاعت بسهولة نفي الشكوك التي أثيرت حول موقفها من الحرب الأهلية وأنها بريئة مما نسب إليها بالانحياز إلى معسكر بروتوس وكاسيوس. وبعد أن قضت كليوبترا مدة مع أنطونيوس أبحرت عائدة إلى الاسكندرية.

يصف بلوتارخوس كليوبترا في أول لقاء لها بأنطونيوس في تاريخه " سير النظراء، أنطونيوس"، ص197، بالتالي: "كان جمالها غير قابل للمقارنة بآخر كما رُويَ لنا، إذ لم يكن جمالها فقط المؤثر بمن يراها بل جاذبية حديثها الذي لا يمكن مقاومته، وكان حضورها وأسلوب حديثها المقنع والشخصية التي كانت منصهرة في سلوكها مع الآخرين؛ كله يوحي بالإثارة والاحترام. طلاوة في نغمات الصوت واللسان. وكانت تجيب على جميع الأسئلة وتجري الحديث بأي لغة من لغات منطقة المشرق يقتضيها الموضوع". وإلى جانب لغتها اليونانية التي كانت تتكلمها الأرستقراطية اليونانية، اشتهرت بأنها ربما كانت الحاكم الوحيد من السلالة البطلمية الذي يتعلم اللغة المصرية القديمة، إضافة إلى أنها

تبنت المعتقدات المصرية والألهة المصرية القديمة حينها، والتي كانت راعيتها الآلهة إزيس، فتقمصت واندمجت بدور آلهة الحكمة المصرية. كما كانت مهتمة بطلب العلم منذ صغرها، فتعلمت عدة لغات، كما كانت أيضاً مغرمة بالفلسفة والرياضيات والشعر.

في شتاء 40/41 لحق أنطونيوس بكليوبترا إلى الاسكندرية فدخلها كمواطن روماني عادي صديق في ضيافة ملكة بطلمية، فعاشا أوقاتاً جميلة، وترسخت علاقتهما من خلال تعدد وإطالة فترات اللقاء بينهما سواء في مصر أو خارجها بناء على مقتضيات أماكن تواجد أنطونيوس في منطقة المشرق. في هذا الوقت كانت فولفيا زوجة أنطونيوس تناضل في روما للحفاظ على ثروة زوجها ضد أطماع أوكتافيوس، وكان الجيش الفارسي يستعد لغزو سورية وآسية الصغرى. فوصلته أخبار هرب زوجته وأخيه لوكيوس من ايطالية بعدما اشتد خلافهم مع أوكتافيوس. ووصلته رسائل زوجته بعد مغادرته مصر في ربيع 40 ق.م عند وصوله الساحل الفينيقي قاصداً مقر قيادته في أنطاكية وأثينة لحشد القوات استعداداً لصد الغزو الفارسي، فاستدار مبحراً بمائتي سفينة نحو ايطالية، في الوقت الذي توفيت فيه فولفيا بعد مرضها وهي تبحر للقائه. في هذا الوقت ايضاً أرسل البرثيون الفرس إلى كليوبترا للتعاون معهم لكنها رفضت العرض.

عندما وصل أنطونيوس ايطالية استقبله أوكتافيوس استقبالاً حسناً، وأثمرت مساعي الصلح بينهما عن عقد معاهدة برنديزي لحكم البلاد مناصفة، حيث أصبحا سيدا الدولة الرومانية؛ إذ عُهد الشرق حتى شواطئ آلبانية لأنطونيوس، والغرب لأوكتافيوس، بينما احتفظ لبيدوس بشمال أفريقية. وتأكيداً لتمتين عرى الاتفاق تزوج أنطونيوس من أوكتافيا أخت أوكتافيوس، رغم عدم نفي علاقته بكليوبترا، بل اكتفى بنفي زواجه منها. وقد تم أخذ موافقة مجلس الشيوخ على الزواج مخالفة للقانون الروماني الذي يقول بانقضاء عشرة أشهر على وفاة الزوج قبل زواج الزوجة من جديد. وقد عد هذا الزواج زواجاً سياسياً لضمان مدة المعاهدة ولإبعاد ماركوس أنطونيوس عن كليوبترا. وخلال وجوده في ايطالية عقد القادة أوكتافيوس وأنطونيوس وسيكستوس بومبيوس اتفاقاً في عرض البحر يقضي بمنح ابن بومبيوس جزيرتي صقلية وسردينية.

بعد مدة من ولادة أوكتافيا لابنتها أنطونيا من أنطونيوس في صيف 39 ق.م بارحوا إيطالية إلى أثينة التي اتخذها أنطونيوس مقراً له لإدارة الشرق. فبقي في أثينة مع زوجته لمدة سنة ونصف يعيش حياة هانئة، أرسل خلالها قادته على راس جيشه فطردوا البرثيين من سورية.

وهكذا بدا كأن كليوبترا قد أصبحت خارج المشهد في الوقت الذي أنجبت فيه توأميها من أنطونيوس نهاية عام 40 ق.م، وسمتهما: اسكندر هليوس (الشمس) وكليوبترا سيلني (القمر)، وأعلنت على الملأ أنهما ابنا ماركوس أنطونيوس.

أرسل أنطونيوس إلى كليوبترا خريف 37 ق.م، بعدما سفر زوجته أوكتافيا إلى روما متعللاً بحملها واقتراب وضعها وبأنه سيكون منشغلاً بوضع الترتيبات النهاية لحملته

المقبلة على بارثية الفارسية، وهو في طريقه من أثينة إلى سورية، أن توافيه في أنطاكية. وكان قد انقضى ثلاثة أعوام منذ آخر لقاء بيهما. فوافته إلى أنطاكية بعد وصوله، فقام بإجراءات حفل الزواج منها واعترف بابنيه هليوس وسيلنى، فأصبحت كليوبترا في نظر الجميع شرقي البحر الأدرياتيكي زوجة أنطونيوس الشرعية، لكنّ الرومان رفضوا الاعتراف بهذا الزواج لعدم تطليق أوكتافيا، ولأن القانون الروماني لا يسمح بالزواج من غير الرومانية.

قدّم أنطونيوس سورية المجوفة بما فيها دمشق وبعلبك ومعظم شواطئ فلسطين وفينيقية باستثناء صيدا وصور لاحتفاظهما باستقلالهما، وقبرص وكليكية وكريت، جميعها كهدية زواج لكليوبترا بحيث أصبحت الأراضي التي تحت حكم كليوبترا كما كانت الامبراطورية البطلمية في بداياتها الأولى، ولم يمنع عنها إلا المملكة التي كان يحكمها هيرودوس الأدومي بدعوى حاجته إلى اليهود في معركته المقبلة مع بارثية. وقد تعهدت كليوبترا أن تقدم له جميع أنواع الدعم من أموال ومؤن ومساعدات وأن تبني له السفن التي يحتاجها لغزو الامبراطورية البرثية التي كان يخطط لها. وقد روى بلوتارخوس في "سيرالنظراء، أنطونيوس، ص219"، ما كان يردده أنطونيوس في سياق الكرم الروماني: "إن عظمة الامبراطورية الرومانية ليس بما يأخذه الرومان، بل بما يمنحونه، وإن العائلات النبيلة تكبر وتتوسع من خلال إنجاب الكثير من الملوك".

أنجبت كليوبترا من أنطونيوس مولودها الثالث سنة 36 ق.م بعد عودتها إلى الاسكندرية وسمته بطليموس فيلادلفوس تخليداً لذكرى استعادة الامبراطورية التي كانت قائمة في عهد هذا الملك. حتى إذا جاء عام 35 ق.م شن أنطونيوس حملة فاشلة على البرثيين الفرس، فاضطر إلى انسحاب كلفه خسائر فادحة في العتاد والجنود. فلما علم أنطونيوس أن زوجته أوكتافيا تركت روما تنوي اللحاق به في سورية ومعها أموال وإمدادات ومعونات جمعتها للجنود المهزومين، وكانت قد أنجبت له ابنتها الثانية قبل مبارحتها روما، وكانت كليوبترا معه عند ورود هذه الأخبار، فحسبت أن حضور أوكتافيا سيشكل تهديداً لتأثيرها على أنطونيوس وعلى سمعتها، فاستخدمت تأثيرها على أنطونيوس لمنع حضور أوكتافيا. فكتب لها من مكان إقامته في سورية أن تعود أدراجها إلى روما فوراً وأن ترسل له ما تحمله إلى سورية، مما أدى إلى غضب أخيها أوكتافيوس. وقد رأت أوكتافيا في رغبة زوجها نوعاً من الاحتقار لها، إلا أنها لم تستجب لرغبة أخيها بترك بيت أنطونيوس. في نفس الوقت وعدت كليوبترا أنطونيوس بتقديم مساعدات مالية ولوجستية كبيرة لإعادة بناء جيشه المهزوم.

وفي سنة 34 ق.م أخضع أنطونيوس أرمينية وجعلها ولاية رومانية، وخطب ابنة ملك ميدية لابنه من كليوبترا اسكندر هليوس وقرر منحه أرمينية. ثم احتفل بانتصاره على أرمينية في الاسكندرية بدلاً من روما كما جرت العادة، حيث اعتبر الرومان ذلك إشارة لنيته بنقل العاصمة من روما إلى الاسكندرية. وقد قدر بعض المؤرخين أن ذلك لم يرق لكليوبترا التي كانت تتوق إلى حكم الدولة الرومانية من عاصمتها روما، وكانت تردد عند

إصدراها الأحكام والمراسيم بأنها ستصدرها يوماً ما من الكابيتول في روما. ومن يتابع سيرة كليوبترا يجد نفسه أمام امرأة حكيمة يسيطر عليها العقل على الجسد والعواطف، وأنها إنما كانت تستخدم الجسد والعواطف لخدمة أغراضها السياسية العامة. فقد كانت تعلم أن مثل أنطونيوس لم يكن يستطيع الزواج المعترف به في روما إلا من رومانية، وأنه إذا فعل ذلك فلن يستطيع الاحتفاظ بمركزه أو العودة إلى روما، وهو ما لم تكن تقبله منه في هذا الوقت.

بعد أن ترك أنطونيوس كليوبترا في سورية وهو في طريقه لإخضاع المملكة الأرمينية، زارت كليوبترا بعض المدن السورية في طريق عودتها إلى الاسكندرية وعلى رأسها دمشق، ثم عرجت على مملكة الهيروديين فاستقبلها الملك هيرودس استقبالاً حسناً. وقد وصف المؤرخ اليهودي يوسفوس بن كريون، وهو من أعاظم كهنة اليهود (37-103)م، محاولة كليوبترا إغراء هيرودس جنسياً، فرفض ايحاءاتها واحتقرها وأراد قتلها، إلا أن مستشاريه نصحوه بعدم التعرض لها بسوء مخافة انتقام أنطونيوس؟ ويعتقد أن هذه الرواية ضعيفة ولا يعتد بها إذ لا حاجة لكليوبترا لإغراء هيرودوس وهي من هي لإمبراطور الشرق أنطونيوس! والاعتقاد السائد أنّ كراهية اليهود لها كان بسبب طموحاتها في ضم المملكة الهيرودية لها لتعود كما كانت عند بداية الامبراطورية البطلمية.

عندما عاد أنطونيوس بعد انتصاره على البرثيين باستعادة ميدية وأرمينية في خريف 34 ق.م أعدت له كليوبترا موكباً هائلاً في اجتماع حاشد في استاد الاسكندرية دعي إليه القادة والجنود وشعب الاسكندرية، حيث أقيم على منصته الرئيسية عرشان مرتفعان جلس عليهما أنطونيوس وكليوبترا، وعلى مستو أدنى أمام المنصة جلس على عروش أخرى قيصرون، اسكندر هليوس، بطليموس فيلادلفوس، فكليوبترا سيلني. خاطب أنطونيوس الحضور (عرف هذا الخطاب باسم وصية الاسكندرية) بأنّ كليوبترا كانت زوجة ليوليوس قيصر وقيصر هو ابن قيصر الشرعي، ثم أعلن كليوبترا ملكة الملوك وقيصر ملك الملوك على أن يحكما معاً مصر وقبرص وتمتد سيادتهما على ممالك أبناء كليوبترا الآخرين، وأعلن تقسيم الولايات الشرقية التي يحكمها على أبنائه من كليوبترا. ويذكر أن أنطونيوس لم يوص لابنه أنتليوس من زوجته فولفيا بشيء، والذي كان في العاشرة من عمره، وكان وريثه الشرعي الوحيد حسب القوانين الرومانية. ونُظر في الاسكندرية إلى زواجهما بعد هذا الاحتفال على أنه زواج إلهي؛ زواج ايزيس بأوزيريس، وأفروديت بدايونيساس.

شعرت النخبة السياسية الرومانية بالقلق والحيرة لاحتفالات نصر أنطونيوس في مدينة الاسكندرية بدلاً من روما كما هي العادة، وتساءلت لما ذلك؟ ولما يظهر أنطونيوس كإله إغريقي وليس روماني؟ وقد نظر بعض المؤرخين إلى وصية الاسكندرية كبداية النهاية لأنطونيوس، ونقطة التحول التي بدأت تميل لمصلحة أوكتافيوس في الصراع الدائر بينهما على حكم الجمهورية الرومانية التي ستصبح الامبراطورية الرومانية قريباً.

عاد أوكتافيوس، من حربه الثانية الناجحة في البلقان، إلى روما سنة 34 ق.م، وسمع بأخبار وصية الاسكندرية، فالتزم الصمت لمدة، إلا أنه بدأ بانتقاد أنطونيوس علانية في بداية 33 ق.م. فأرسل له أنطونيوس رسالتين؛ الأولى رسمية ومقتضبة، والثانية طويلة وصريحة، أهم ما فيها أنه لم يبدد ممتلكات الدولة الرومانية ثمناً للجسد الذي قدمته كليوبترا.

انشغل أوكتافيوس بحربه الثالثة في شبه جزيرة البلقان، فانتصر فيها انتصاراً كاملاً. فبدأ بتجديد حربه الكلامية ضد أنطونيوس وسياساته، وأخذ أنصاره يقارنون بين نجاحاته وإخفاقات أنطونيوس ويذكرون الرومان بسوء صحبة أنطونيوس وكسله وإفراطه في الشراب ودعته إلى كل مالذ وطاب بدل الاهتمام بالشأن العام لمهام وظائفه، وبأنه أهدى أملاك روما لمن ضاجعها، ودون أن يكلف نفسه مسألة المشورة أو حتى إعلام مجلس الشيوخ، كما أنه استخدم الجنود الرومان لخدمة أطماع عشيقته البطلمية. وبالطبع لم يسكت أنصار أنطونيوس، فبدأت حرب تشهير مسعورة بين الطرفين انحدرت فيها أمور الدولة الرومانية العظيمة إلى هذا الدرك!

في خريف 33 ق.م أرسل أوكتافيوس إلى أنطونيوس رداً جافاً ومقتضباً على إتهاماته، في الوقت الذي خرج فيه أنطونيوس لصد هجوم البرثيين الوشيك على أراضيه. وبدلاً من أن يتصرف أنطونيوس بحكمة ويضع الأمر بين يدي مجلس الشيوخ لكسبهم إلى جانبه، ذهب بعد ذلك إلى آسية الصغرى وقضى مع كليوبترا شتاء 33 و 32 ق.م في مدينة إفسوس حيث أشرفا على حشد الجيوش والأساطيل. وأثناء ذلك أهدى أنطونيوس إلى كليوبترا مكتبة برجام الشهيرة وفيها مائتي ألف كتاب ومجلد تعويضاً عن الكتب التي ذهبت طعاماً للنيران أثناء حرب الاسكندرية بين قيصر والجيش المصري سنة 48 ق.م. ثم كتب لمجلس الشيوخ الروماني خطاباً يعلمه بانتصاراته الحربية الأخيرة وعن الفوائد السياسية لروما من وصية الاسكندرية، ثم عرض على المجلس أن يتنازل هو وأوكتافيوس عن حقوقهما في الحكومة الائتلافية ويتركا الأمر للمجلس، لكن المجلس لم يحرك ساكناً. وفي نهاية 33 ق.م عندما انتهت فترة اتفاقية تارنتوم (جنوب ايطالية) لتقاسم البلاد، والتي عقدت سنة 37 ق.م لمدة خمس سنوات، تظاهر أوكتافيوس وأنطونيوس بالتنازل عن سلطاتهما، لكنهما استمرا يحكمان من مواقعهما، بل إنّ الصراع أخذ يشتد مما انعكس بالتنازع بين أعضاء المجلس. وقد جاءت محاسن الصدف التي لم يستطع أنطونيوس اقتناصها كالعادة، ذلك أن المجلس انتخب قنصلين[1] رومانيين جديدين في أوائل عام 32 ق.م- بعد انقضاء فترة الشريكين- كانا من مؤيدي أنطونيوس، وهما:

[1]- حل محل الملك في رئاسة الدولة في النظام الجمهوري حاكمان ينتخبهما مجلس الشعب سنوياً هما القنصلان. وكان لكلٍ منهما مطلق السلطة يباشرها كيفما شاء، وإن كان للقنصل الآخر الحق في الاعتراض على ما يتخذه من قرارات، حيث يترتب على هذا الاعتراض تعطيل القرار الذي اتخذه أحدهما منفرداً. وكانت هذه السلطة تنقص عن سلطة الملك بالرئاسة الدينية فقط.

أينوبارباس وسوسيان. فطالب سوسيان القائد البحري الشهير المجلس بسحب الثقة من أوكتافيوس، إلا أن أوكتافيوس ألقى خطاباً قوياً أمام المجلس، وحرسه من حوله، وجه فيه هجوماً شديداً وسافراً ضد خصمه انطونيوس، بحيث لم يستطع أحد من مناصري أنطونيوس، وفي غيابه، الصمود أمام استبداد أوكتافيوس، فبدؤوا بترك المدينة، حيث ذهب أكثر من مائتين منهم إلى معسكر أنطونيوس في إفسوس.

كان لإعلان أنطونيوس طلاقه من أوكتافيا أخت شريكه أوكتافيوس في الائتلاف الثلاثي الثاني في تموز سنة 32 ق.م، إضافة لإعلان زواجه سابقاً من كليوبترا واعترافه بشرعية أبنائه منها وتقسيم ولايات الشرق بينهم، بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، والتي كان ينتظرها أوكتافيوس لانهاء الصراع على الاستقلال بحكم روما منفرداً. وقد قيل أنَ كليوبترا من حرض أنطونيوس على الطلاق، لأنها اعتقدت بانتصاره وأن حسم الأمور لمصلحته بات قريباً، وأنَ زواجهما سيصبح رسمياً بعد أن يؤول العرش الروماني لأنطونيوس.

بدا لكليوبترا أنها نجحت في خططها بكسب زعيم روما المقبل لقضيتها، فها هو يتبنى قضية بنوة ابنها من قيصر، وقد رسمت الخطط وأحكمت تنفيذها لتجريد روما في النهاية من امبراطوريتها ونقل عاصمة العالم إلى الاسكندرية وهي على راس هذا العالم. بيد أن أنطونيوس خسر الغالبية من الرومان بسبب هذا الطلاق، فأخذ الكثير من أنصاره يتركونه إلى أوكتافيوس، وكان من ضمنهم السناتور الروماني المتنفذ بلانكوس الذي سارع إلى روما والقى خطاباً حافلاً بالمجلس كال فيه اتهامات كثيرة، منها الحقيقي وبعضها كاذب، لزعيمه السابق أنطونيوس. وادعى بلانكوس وتيطوس أنَ أنطونيوس أودع وصيته في معبد الكاهنات العذارى في روما- على عادة العرف الروماني- فذهب أوكتافيوس وأخذ الوصية بالقوة مخالفاً العرف الروماني، وأطلع المجلس على فحوى وصية أنطونيوس التي أكد فيها أن بطليموس قيصر بن يوليوس قيصر وكليوبترا هو الابن الشرعي الوحيد لقيصر الأب وبالتالي فهو وريثه الشرعي في حكم روما، وأن أبناء انطونيوس الثلاثة من كليوبترا هم ورثته الشرعيون، وطلب بدفنه بعد موته في الاسكندرية وليس في الفوروم الروماني، حتى وإن مات في روما.

أثارت هذه الوصية جدلاً واسعاً بحيث أججت نار الحقد والكراهية في نفوس الرومان، وذكرتهم بخوفهم القديم من نقل عاصمتهم روما إلى الاسكندرية، ومن ارتباط أنطونيوس بالشيطانة البطلمية وتأثير سحرها عليه.

كان ما قام به أنطونيوس يمثل تهديداً مباشراً وغير مسبوق بخطورته على مستقبل الدولة الرومانية الواسعة على أراضيها وأقاليمها وممالكها التي عما قريب ستصبح الامبراطورية الرومانية. لذلك، بدأ أوكتافيوس الحاكم في روما وفي الغرب الروماني بحشد النخبة السياسية الرومانية والشعب الروماني خلف قيادته، وشن في البداية حملة منظمة للتشهير بأنطونيوس وكليوبترا اتهمهما بأنهما يخططان إلى غزو روما وإعلان الملكية وتتويج أنطونيوس ملكاً وكليوبترا ملكة عليها. كما فعلا بتحويل الولايات الشرقية

إلى مملكة هو ملكها وكليوبترا ملكتها وأولادهما يرثون من بعدهما، وأنهما ينويان نقل العاصمة من روما إلى الاسكندرية. وقد اجتهد أوكتافيوس بإظهار ما فعله أنطونيوس وما يخطط له كخيانة عظمى لروما وللدولة وللشعب الروماني، فنجح في تأليب الراي العام الروماني على أنطونيوس وكليوبترا معاً. كما نجح ايضاً في جعل الرومان يرون أن أنطونيوس أصبح أسير امرأة ليست رومانية يخطط لجعلها ملكة عليهم، فاجتهدوا بتوجيه أشكال شتى من الموبقات والمثالب لأنطونيوس، مما سارع في الاصطفاف والاستعداد لمشاركة الولايات الرومانية في الوقوف إلى جانب أوكتافيوس وحرمان أنطونيوس من جميع سلطاته وحقه في تولي منصب أحد القنصلين. فتم إعلان الحرب على كليوبترا وليس على أنطونيوس، وذلك بعد نجاح أوكتافيوس بحشد مجلس الشيوخ وجماهيرالشعب بأنه المدافع عن مصالح الدولة الرومانية في الوقت الذي يقوم أنطونيوس بتمزيقها.

طالب بعض أنصار أنطونيوس إبعاد كليوبترا عن إفسوس، لكنّ قائد أركان أنطونيوس كانيديوس كراسوس ذكر الحاضرين بتضحياتها الكثيرة وخبراتها الواسعة وانها لا تقل بشئ عن بقية الملوك والقادة الموجودين، بحيث أيد أنطونيوس ذلك.

ترك أنطونيوس وكليوبترا إفسوس إلى جزيرة ساموس اليونانية ربيع 32 ق.م، وأقاما فيها احتفالات واسعة، ثم ذهبا بعد ذلك إلى أثينة فبقيا فيها حتى نهاية الصيف. وقد أخذ جيش أنطونيوس يتجمع على أطراف بحر إيجة الشرقية فوق شبه الجزيرة اليونانية، فتكون من 75 ألفاً من الجنود تنظمهم 30 فرقة، ويساعدهم 25 ألفاً من الرماة و12 الفاً من الفرسان، ويوآزرهم في البحر زهاء 500 سفينة حربية نصفها لكليوبترا، و 300 سفينة تجارية. وكانت غالبية هذا الجمع من اليونان وآسية الصغرى وسورية ومصر، إذ حرم انقطاع أنطونيوس عن ايطالية من تجنيد الرومان في هذا الحشد. وقد تضمنت رواية بلوتارخوس وغيره أن عدة أنطونيوس الحربية كانت وفيرة وتفوق عدة خصمه أوكتافيوس الذي عانى من صعوبات كثيرة في تجميع السفن وحشد الأموال اللازمة، وأن جيشه لم يزد على ثلثي جيش خصمه، ولم يتجاوز عدد سفنه أكثر من 400.

أشار بلوتارخوس إلى أن تأخر المواجهة أساء كثيراً إلى أنطونيوس، إذ كان عليه أن يغزو ايطالية لمحاربة خصمه والنيل منه بدلاً من انتظار مهاجمته له على الساحل اليوناني في أكتيوم. واستشهد بلوتارخوس بما قاله الشاعر اللاتيني هوراس: ".. كان الايطاليون في ثورة بسبب الضرائب التي فرضها أوكتافيوس لتمويل الحرب، وكانوا يتوقون إلى هجوم أنصار أنطونيوس، ويحسبون له ألف حساب". وذهب بعض المؤرخين إلى أن تقاعس أنطونيوس وتأخره عن شن الهجوم المتوقع يعود إلى كليوبترا، لكن آخرين رؤوا أنه لم يكن يستطيع نقل أعداد جنوده إلى ايطالية عبر موانئها المزدحمة ليشق طريقه إلى روما. مهما يكن، فقد أخطأ أنطونيوس باختيار موقع المعركة حسب بعض المؤرخين؟

نجح أوكتافيوس قبل نهاية عام 32 ق.م في عزل أنطونيوس من منصبه ومسئولياته واعتبره جندياً رومانياً سابقاً خرج على طاعة روما وذهب يخدم ملكة أجنبية معادية لمصالح الشعب الروماني. ثم طالب أنصاره بيمين الولاء له، مما دفع أنطونيوس بالمطالبة بنفس اليمين من أنصاره. لكنَ الأسابيع التالية شهدت هروب أعداد كثيرة من أنصار أنطونيوس في ايطالية إلى أوكتافيوس، وهروب أنصاره من اليونان للإنضمام إلى جيش أوكتافيوس في ايطالية. مع ذلك، لم يعلن أوكتافيوس الحرب على أنطونيوس، بل على كليوبترا التي اصبحت عدوة روما الشرقية اللدودة التي أغوت أحد قادتها وأفسدته بالبذخ والخمر والجنس!

تضمنت رواية المؤرخ بلوتارخوس في تاريخه " Parallel Lives/ سير النظراء"، وفي غيرها، تفاصيل دقيقة لسير المعارك البرية بين الطرفين على شواطئ البحر الأدرياتيكي. ففي بداية عام 31 ق.م اخترق الجزء الأكبر من أسطول أوكتافيوس بقيادة أجريبا البحر الأيوني واحتل قاعدة أنطونيوس في ميثون، ثم أخذ أجريبا يهاجم من ميثون مراكز أنطونيوس البرية والبحرية المتناثرة حوله. فبعث استيلاء أجريبا على ميثون اليأس في نفوس أنصار أنطونيوس، وأتبع أوكتافيوس ذلك بنقل الجزء الأكبر من جيشه إلى شاطئ البحر الأيوني في محاولة التفاف حول قوات أنطونيوس من الشمال، وبذلك سيطر أجريبا على نقطتين هامتين هما ميثون وكوركيرا، ثم تقدم منهما باتجاه الجنوب على البر والبحر حتى أصبح على مرمى البصر من أكتيوم.

فرض تقدم قوات أوكتافيوس على أنطونيوس وكليوبترا نقل معسكرهما إلى أكتيوم، فأصبح واضحاً أن قوات ماركوس البرية والبحرية أصبحت محاصرة بين قوات أوكتافيوس البرية إلى شمالها، وسفنه في البحر وخليج أمبريسيا إلى جنوبها. فأخذ انصار أنطونيوس يتركونه.

في أوائل آب أرسل أنطونيوس بعض قواته لفك الحصار المضروب عليه من الشرق، كما حاول قائد آخر الخروج بجزء من الأسطول من خليج أمبريسيا إلى عرض البحر، غير أنه لم ينجح في ذلك فاضطرت سفنه للعودة إلى داخل الخليج. كما أرسل أنطونيوس بعضاً من كتائب الفرسان لفك الحصار البري، إلا أن قائد هذه الكتائب الملك أميناس انضم بمن معه إلى معسكر أوكتافيوس، كما أعلن حاكما كريت وقبرص تركهما لأنطونيوس وانضمامهما لأوكتافيوس.

طلب القائد كانديوس كراسوس من أنطونيوس سحب جميع قواته البرية إلى مقدونية واستدراج أوكتافيوس لخوض المعركة الفاصلة على الأرض، حيث أكد له تفوقه لكسب المعركة البرية التي ستقرر أمر الدولة حتى ولو خسر جميع سفن أسطوله، إلا أنَ أنطونيوس لم يأخذ برأي قائده هذا في الحال. وسيضطر أنطونيوس إلى الأخذ بهذا الرأي لاحقاً، ولكن بعد فوات الأوان، حيث ستكون خطة أنطونيوس النهائية بعد سير المعارك واتضاح نتائجها إلى سحب جيشه إلى مقدونية، والخروج بالسفن إلى الاسكندرية.

حسمت معركة أكتيوم البحرية الصراع بين الرجلين لصالح أوكتافيوس. حيث دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين عند أكتيوم البحرية على الشواطئ اليونانية الغربية في أيلول سنة 31 ق.م. وقد حشدت كليوبترا أسطولها وهي على رأسه إلى جانب أنطونيوس في هذه المعركة. وبدا تفوق قوات أوكتافيوس يظهر سريعاً بعد التحام السفن ببعضها بعد خروج سفن أنطونيوس من الخليج، فأسرعت كليوبترا من الخلف مندفعة بسفنها الستين الباقية والناشرة أشرعتها للفرار باتجاه مصر، فلحق بها أنطونيوس بعد أن بدل سفينة بأخرى. استسلمت بعدها بقية سفن أنطونيوس في عرض البحر أو في الخليج بعد أن غرق منها 40 سفينة ولم يقتل في المعركة أكثر من 500 جندي غالبيتهم من رجال أنطونيوس.

بعد ثلاثة أيام وهو في طريق انسحابه البحري إلى مصر أرسل أنطونيوس إلى قائده كانديوس كراسوس أن يكمل انسحابه سريعاً إلى آسية عن طريق مقدونية، ولم يكن يعلم أن كراسوس قد قبل شروط أوكتافيوس التفاوضية للاستسلام.

اختلف المؤرخون والباحثون حول موقف كليوبترا من هذه المعركة؛ فمن قائل أنها خانت أنطونيوس بانسحابها غير المحسوب من المعركة؟ ومن قائل آخر أنّ انسحابها كان خطة اتُّفِقَ عليها مع أنطونيوس؟

ويرى بلوتارخوس في روايته أن أوكتافيوس كان متفوقاً في البحر بينما كان أنطونيوس متفوقاً في البر. لكن أنطونيوس على عكس رغبات بعض ضباطه، انصاع لرأي كليوبترا بأن قرر خوض المعركة الفاصلة في البحر. كما يرى بلوتارخوس أن كليوبترا غدرت بأنطونيوس عمداً وعن تصميم، حيث حرضته على خوض المعركة في البحر، وبدلاً من القتال إلى جانبه لكسبها أعدت نفسها للهرب طلباً للسلامة. إلا أن بعض الباحثين يرون أن كيلوبترا وأنطونيوس كانا يشكان في كسب المعركة قبل وقوعها، وأن المعركة البحرية التي قررا خوضها كانت خطة للانسحاب بحراً إلى مصر؟

وتدعو جملة هذه التبريرات إلى طرح السؤال التالي: ما هي الأسباب الحقيقية التي كانت وراء قرار كليوبترا وأنطونيوس بالذهاب لمواجهة جيش بقيادة أوكتافيوس في معركة أكتيوم البحرية؟ ما الذي أعمى بصيرتهما؟ ألم يدركا أنهما كانا ذاهبين إلى مصيرهما النهائي، خاصة وأنهما كان يدركان أن أوكتافيوس استطاع بنجاح كامل تجييش روما وشعبها وجيشها ضدهما، وأن استعداداته العسكرية كانت شبه كاملة لسحقهما؟ أم أنّ الأحقاد والطموحات والكبرياء والغرور والإزدراء الذي صنعته قضية عشقهما من أظلم الرؤية لكليهما؟ ربما تجيب قصة حبهما ضد متطلبات الواجب عن هذه الأسئلة؟ فمتى لم تكن قصة الحب والغرام إلا أحد الأسباب الرئيسية وراء خسارة الصراعات التاريخية! هذا إن سلمنا بأن علاقتهما لم يشبها الكثير من المبالغات المسرفة.

صور المؤرخون، وخاصة الغربيون منهم، أنّ معركة أكتيوم كانت معركة تاريخية كبرى قررت سياسة الغرب على الشرق لقرون طويلة قادمة، مع أن المعركة لم تكن كبرى بمقاييس المعارك، ونتائجها كانت مقررة سلفاً، فروما كانت قادرة في النهاية على أن تكر بعد أن تفر لو

نجح أنطونيوس وكليوبترا في مسعاهما! وانتصار أوكتافيوس النهائي سيكون حتمياً حتى لو جرت المعركة على الأرض الايطالية أو المصرية بدلاً من أكتيوم!

عاد أنطونيوس إلى مصر في حالة يرثى لها من الاحباط على عكس ما روي عن كليوبترا التي كان عقلها يعمل بسرعة ويدبر الخطط لقهر أوكتافيوس، إلى الحد الذي فكرت فيه بالابحار لاحتلال إسبانية، أو تكوين دولة على الشواطئ الهندية، وذلك بمحاولة نقل أسطولها البحري براً من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر؟ وقد توقف أنطونيوس لأيام عدة في السلوم خوفاً من ملاحقة أوكتافيوس له، ثم لحق بكليوبترا إلى الاسكندرية، وكان حزيناً ومنطوياً حيث لازم أبراج الميناء ولم يذهب إلى القصر. ويروي المؤرخ ديو كاسيوس أن الاضطرابات استقبلت كليوبترا عند عودتها إلى الاسكندرية، لكنها واجهتها بشدة وحزم وتضاهرت بأن النصر كان حليفها ووضعت إكليله فوق راسها وأمرت بتنظيم أناشيد النصر بمصاحبة قرع الطبول ونفخ الأبواق.

كليوبترا وأوكتافيوس وانتحارها مع أنطونيوس

1

سار أوكتافيوس قاصداً مصر عن طريق البر لينهي ما بدأه في أكتيوم. ويقال أن كليوبترا أرسلت له وهو على السواحل السورية ثلاث مرات ترجو الاتفاق معه، وأهدته في المرة الأولى شعاريلاطها (التمساح)، وأبدت استعدادها للتنازل عن عرشها لأبنائها. وفي المرة الثانية أرسلت له انتليوس بن أنطونيوس الشرعي من زوجته المتوفية فولفيا، والذي كان خطيب ابنة أوكتافيوس، فأعلمه بنية والده اعتزال الحياة العامة. وفي المرة الثالثة أرسلت له مربي أولادها مع قدر كبير من المال رجاء موافقته تولي أحد أبنائها حكم مصر، فأخذ أوكتافيوس المال والهدايا ولم يعلق بكلمة واحدة كما في المرتين السابقتين.

وصل غالاس قائد أوكتافيوس السلوم عن طريق البحر قبل وصول القوات البرية القادمة عن طريق سورية، فتصدى له أنطونيوس بأربعين سفينة خسرها إلى جانب السلوم فعاد مهموماً ومحبطاً إلى الاسكندرية، في الوقت الذي كان أوكتافيوس يتقدم من حدود مصر الشرقية عبر الدلتا ومعه عدو كليوبترا اللدود هيرودوس الأدومي.

أخفت كليوبترا كنوزها في مقام مدفنها الشامخ الجميل الذي بنته إلى جانب معبد ايزيس. وقد جاء في رواية بلوتأرخوس عما قامت به كليوبترا بعد أن أصبح أوكتافيوس على أبواب عاصمتها: "... كانت كليوبترا قد أقامت لنفسها عدداً من التماثيل والتوابيت الجميلة إلى جانب معبد ايزيس، حيث وضعت فيه أثمن ما تملكه من ذهب وفضة وجواهر ولآلئ وزمرد وعاج وسن الفيل وخشب الأبانوس والكمون، ووضعت بجانبها أخشاباً كثيرة ومشاغل خشبية". فقلق أوكتافيوس عندما علم بذلك، فإرسل لها وهو يقترب من الاسكندرية رسلاً يطمئنوها إلى نيته بمعاملتها معاملة حسنة، مخافته أن تحرق هذه الثروة العظيمة في ثورة غضب أو نوبة يأس.

في أوائل صيف 30 ق.م وصلت طلائع جيش أوكتافيوس إلى ضواحي الاسكندرية فشن عليها أنطونيوس هجوماً ناجحاً بددها. ويروي بلوتارخوس في وصف ذلك: "..عاد أنطونيوس إلى المدينة وقد استشعر الفخار، فأخذ يسير في شوارعها في خيلاء فدخل القصر على كليوبترا فعانقها وهو بكامل عدته الحربية، وقدم لها أحد فرسانه الذين ابلوا بلاء حسناً في القتال، فأعطته كليوبترا هدية عظيمة، لكن هذا الفارس ترك إلى معسكر أوكتافيوس في نفس المساء". أخذ أنصار أنطونيوس بتركه وحيداً عند محاولة حشدهم للقتال في اليوم التالي. وقف أنطونيوسن صباح اليوم التالي وأخذ يراقب بهدوء قواته من المشاة أمام المدينة، ويراقب سفنه الحربية وهي تقوم بالهجوم على أسطول اوكتافيوس حيث أمل أن تحقق قواته إنجازاً مهماً. غير أنّ أطقم سفنه رفعوا مجاديفهم عند اقتراب سفن أوكتافيوس منهم بإشارة تعني انضمامهم إليه.. فاجتمعت سفن الأسطولين في واحد ثم اتجهت نحو المدينة. بعد ذلك رأى أنطونيوس قوات خيالته ينحازون إلى قوات أوكتافيوس فانتابته حالة من الهياج العارم فعاد إلى المدينة وهو يصرخ بخيانة كليوبترا له بعد كل ما عمله من أجلها. أحست كليوبترا بالخوف والخطر من أنطونيوس بعدما بلغتها حالته الهستيرية، فأسرعت إلى مقامها وأغلقت الأبواب وأرسلت إليه ليعلموه بموتها.

عند دخول جيش اوكتافيوس المدينة كانت كليوبترا في مقامها وقد أغلقت أبوابه ونوافذه وتحصنت بداخله مع كنوزها، وكان برفقتها مصففة شعرها ايروس، ووصيفتها شارميون، وأحد خصي القصر المقربين، وكانت قد أرسلت لأنطونيوس من يبلغه بانتحارها. فدخل غرفته وخلع درعه، وأخذ يردد قائلاً: "لست حزيناً لأن أحرم منك، فأنا قادم للانضمام إليك، ولكني حزين أن امبراطوراً مثلي أغرم بأن يكون أدنى منَ شجاعة امرأة"، وطلب من تابعه آروس أن يقتله بالسيف، لكن التابع الأمين فضل الانتحار على قتل سيده، فما كان من أنطونيوس إلا أن قام ببقر بطنه، لكنه قبل أن يسلم الروح جاءته رسالة كليوبترا بأنها مازالت على قيد الحياة، فقام خادمين بنقله إلى خارج المقام الذي كانت داخله، فأنزلت مع وصيفتيها حبالاً رفعن أنطونيوس بها عبر النافذة إلى داخل المقام في الطابق العلوي. ويحدثنا بلوتارخوس قائلاً: ".. وبعدما نجحت كليوبترا والوصيفتان ببالغ الصعوبة رفع أنطونيوس إلى الداخل عبر النافذة، طلب قدحاً من النبيذ، ثم رجا كليوبترا بعدم لومه على سوء طالعه الذي أودى به في النهاية، وأن تعتبره سعيداً لأنه حقق انتصارات تحدث بها العالم، وأن تتذكر أنه قد حصل على المجد والشهرة اللتين لم يحققهما أحد، ولهذا فليس من العار أن يموت كروماني قهره روماني آخر". عانى أنطونيوس سكرات الموت في أحضان كليوبترا، فشقت ثيابها وندبته وبكته بكاءً مراً، فمات في أحضانها كما كان يشتهي!

أرسلت كليوبترا خطاب رجاء إلى أوكتافيوس في 12 آب لكي يوافق، بعد دخوله المدينة دون مقاومة تذكر، على دفنها إلى جانب أنطونيوس. وطبيعي أن يشعر أوكتافيوس بالقلق من فحوى الخطاب، فأصدر أوامره إلى بروكليس بالإسراع إلى كليوبترا لإغرائها بالبقاء حية بوعد أن يعاملها القائد المنتصر معاملة لائقة، غير أنها رفضت تسليم نفسها، وهي

محصنة داخل مدفنها، إلا إذا وافق أوكتافيوس على وعد بمنح عرش مصر لأحد ابنائها. وفي أثناء إلهاء بروكليس كليوبترا بالحديث تسلق أحد الضباط مع جنديين النافذة المفتوحة، ثم هبطا إلى الحجرة التي كانت تتحدث منها كليوبترا مع بروكليس، فقبضوا عليها وأخذوها أسيرة إلى حيث أوكتافيوس. وقد روي أنها حاولت قتل نفسها عندما أحست بالجنود يدخلون عليها، إلا أن الضابط كان أسرع بمنعها وسحب الخنجر من يدها وهي تهم بطعن نفسها.

مرضت كليوبترا بعد القبض عليها، فأمر أوكتافيوس بنقلها إلى القصر الملكي. ولم تلبث بعد مقابلة ودية خاصة مع أوكتافيوس أن تأكدت أنه سيقودها ذليلة إلى روما لعرضها في موكب النصر الذي سيقيمه هناك درجاً على عادة القادة الرومان المنتصرين.

لجأت كليوبترا إلى سلوك طريق الانتحار، فجعلته بصورة تتناسب مع دورها الملكي في التاريخ كملكة مصرية. وللتحضير لانتحارها، اجتهدت بتجربة جميع أنواع السموم على السجناء المحكومين بالإعدام بمراقبة كيفية موت الضحية، حيث لاحظت أن السم القوي ذي المفعول السريع أظهر آلاماً وتقلصات عنيفة، بينما السم خفيف المفعول بطئ ويأخذ وقتاً حتى تموت الضحية. كما قامت بتجربة أنواع من الحيوانات السامة على حيوانات أخرى غير سامة. حتى أنها مارست هذه التجارب يومياً تقريباً. فوجدت بنتيجة هذه التجارب أن عضة أفعى الناشر (asp)، وهي أفعى صغيرة، والوحيدة التي تجعل عضتها الضحية تغرق في سبات من النوم دون أي تقلصات أو شعور بالألم، ما عدا تعرق لطيف على الوجه، في حين تبدأ القدرات العقلية للضحية بالشعور بالراحة والاسترخاء اللطيف كمن يذهب في النوم من شعور بالنعاس، فيحس براحة ولطف شديدين.

ارتدت كليوبترا ثيابها الملكية ووضعت التاج المصري الشهير[1] وفي مقدمته برنفع رأس الأفعى الذي كان المصريون القدماء يعدونه خادم إله الشمس، وجعلت الأفعى تلدغها لدغتها القاتلة فماتت على أثرها ميتة هادئة دونما شعور بآلام السم. وفي 30 آب من 30 ق.م وجدوها مستلقية على كنبة ذهبية تحتضر وهي بكامل أناقتها الامبراطورية، وعند قدميها مصففة شعرها ميتة، بينما وصيفتها شارميون تحتضر وهي تحاول تركيز وضع التاج فوق رأس سيدتها.

وقد روي أنها تمتمت قائلة: "ويليق بملكة تنحدر من صلب كل هؤلاء الملوك".

يذكر سترابو[2] روايتين منقولتين عن كيفية موتها. الأولى: عضة الأفعى، والثانية: في

---

[1] – جاء في كتاب آيدوس بل "مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي"، ص 87، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، التالي: " كان اختيار كليوبترا للثعبان كي يخلصها من الأمر تصرف له مغزاه: كان هذا الثعبان هو الكوبرا المصرية، الثعبان المقدس في مصرالسفلى؛ وكفرعونة وسيدة للأرضين، لبست كليوبترا التاج المزدوج؛ تاج العقاب لمصر العليا، وتاج الكوبرا لمصر السفلى. وكانت الكوبرا خادمة لإله الشمس، ولدغتها لا تمنح الخلود فحسب، وإنما الألوهية أيضاً. سلكت كليوبترا إلى الموت طريق الملوك، ولحقت بزمرة الآلهة. ولم يبق لأوكتافيوس من بعد إلا أن يضم مصر إلى ممتلكات الشعب الروماني".

[2] – ألقى سترابو المؤرخ المعاصر للأحداث " Srabo, Geography, XVII 10" بظلال من الشك على انتحار كليوبترا بالسم، أو بأنها قتلت!

استخدامها لدهان سام. وقد لاحظت رواية بلوتارخوس عدم وجود جروح أو خدوش أو كدمات على ظاهر جسدها، ماعدا خدوش بسيطة على ذراعها. ويقول جالينوس بعد قرنين، أنها خدشت جلدها ووضعت السم فيه. كما ذكر بلوتارخوس أنها كانت تحمل سم الأفعى داخل تجويف مشط شعرها. ويعود بلوتارخوس ليروي أن الحية أدخلت إليها وسط سلة تين أو داخل دورق أو في وسط باقة من الزهور... ففي الموت، لا فرق كيف!

يرى الكثير من المؤرخين والباحثين أن أوكتافيوس بما عرف عنه من دهاء وحنكة سياسية وبصيرة نافذة أراد الإيحاء لكليوبترا بطريق غير مباشر أنه سيعرضها في موكب نصره في روما ليدفعها لقتل نفسها بيدها، حيث نُقلت إليها نية أوكتافيوس بنقلها إلى روما مع أولادها بعد ثلاثة أيام، وهو يعلم بأنه بتسريب هذا الخبر يدفعها لقتل نفسها. كما قيل أيضاً أن أوكتافيوس أمر حارسها أن يغمض عينيه إذا ما رآها تحاول قتل نفسها.

وهكذا وصلت سليلة البطالمة الإغريق، التي كانت من دونهم جميعاً تعتبر ملكة مصر لأنها عملت على تحقيق حلمها الشخصي بأن تكون سيدة العالم، إلى نهايتها. وما علينا هنا إلا أن نستذكر قول المؤرخ اليوناني- اللاتيني ديو كاسيوس: "أسرت كليوبترا أعظم شخصيتين رومانيتين بزمانهما، وبسبب الثالث قضت على نفسها".

بدخول أوكتافيوس وجيوشه المنتصرة مدينة الاسكندرية، وانتحار أنطونيوس وكليوبترا، دخلت مصر رسمياً تحت حكم روما، فصدر مرسوم بضمها وجعلها ولاية رومانية. وقد منع اوكتافيوس جنوده من نهب واستباحة المدينة، وألقى في مواطنيها خطاباً باليونانية أعلن فيه العفو عن جميعهم. ولكي يتخلص أوكتافيوس من آخر شخصية يمكن أن تسبب له المشاكل مستقبلاً أمر بإعدام قيصر (قيصرون) ابن كليوبترا من يوليوس قيصر والده بالتبني! أما أولاد أنطونيوس من كليوبترا فبعثهم إلى أخته أوكتافيا (بناء على طلبها حسب رواية بلوتارخوس) لكي تقوم على تربيتهم كأبنائها.

أصبحت مصر ولاية رومانية، ونظراً لتاريخها العريق وخطورة موقعها ودقته وغناها حينذاك واعتماد روما على انتاجها من الحبوب، حيث وضعت لها أحكام خاصة ليكون للقيصر الروماني سلطة استثنائية عليها حيث اعتبرها من أملاكه الخاصة[1] حتى أنه منع أعضاء مجلس الشيوخ بروما من التدخل بشؤونها وحرم عليهم ولاية شئ من أعمالها، ومنع الرحلة إليها إلا بإذن خاص منه.

2

كره الرومان كليوبترا كرهاً شديداً، فنددوا بشخصيتها وسلوكياتها وبلاطها، وحاكوا الأساطير حول غوايتها لأحد أبطالهم، واتهموها بنيتها المبيتة للقضاء على دولتهم ومجدها العظيم وينقل زعامة العالم القديم من عاصمتهم روما إلى الاسكندرية. لكن

[1]- "المختصر في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني"، تحقيق وتعليق د. علي عبد المنعم شعيب، ص 89، دار ابن خلدون- بيروت.

تنديدهم بها توقف بعد موتها، بل أخذ شعراؤهم يشيدون بعظمتها، فنظم شاعر روما الكبير هوراس قصيدة عظيمة بحقها. وبقي تمثالها الذهبي الذي أقامه يوليوس قيصر على حاله في معبد فينوس في روما.

وكما كره المؤرخون الرومان كليوبترا في حياتها كراهية عمياء، كرهوا تعلق قيصر وانطونيوس بها، إذ اشتط بعضهم باتهامها بالعهر والفسوق. وإن خفت حدة كراهيتهم لها بعد موتها، فإن كراهية المؤرخين اليهود لها كانت شديدة استمرت حتى بعد وفاتها، لظنهم أنها طمعت في حكمهم وضم يهودا إلى مملكتها.

حاول المؤرخ والفيلسوف الإغريقي بلوتارخوس (46-120)م، الذي عرف بأشهر عمل تاريخي له هو "سير النظراء Parallel Lives" التي تعني بسرد تاريخ المشاهير من الإغريق والرومان، إنصاف أنطونيوس وكليوبترا، حيث لم تعزه المهارة الأدبية في روايته، لكن ما أعوزه كان الدقة في الرواية، إذ أخذ عليه جنوحه إلى خياله الواسع في بعض الأحيان. وقد عاش معظم حياته في معبد أبولو في كيرونياكنسيس، وقيل أنه زار الاسكندرية زيارة قصيرة. واعتمد في سرده على الروايات التي نقلها عن جده لامبرياس الذي سمعها هو الآخر بدوره من طبيب اسكندري عاصر كليوبترا هو فيلوتاس.

من القسوة اتهام كليوبترا بالشذوذ والشهوانية والشبق الجنسي أو العهر والفسوق، إذ أنها لم تعرف، كما تؤكد روايات المؤرخين، غير رجلين في حياتها وهبت قلبها لهما، هما: يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، وكليهما كانا يفوقانها خبرة وتجربة في هذه الأمور، وكليهما عرف عدداً كبيراً من النساء، وقد قيل أن أنطونيوس كان يشيد بقوته ورغبته الجنسية تشبهاً بالإله الإغريقي الروماني هرقل، وأنه كان يحلو له الحديث المكشوف والنكات الجنسية. فإذا قلنا أنها وهبت قلبها لهاذين الرجلين مقابل تحقيق طموحاتها في مجد تراه مشروعاً، فماذا يكون الحب في المفهوم الإنساني إن لم يبن على عوامل عدة؟ من ضمنها تحقيق المصالح. في حين يتهمها البعض أنها استغلت جسدها لتحقيق أغراضها من دون اتباع قلبها، وأن هذا سلوك العاهرات. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: كم من النساء- وكم من الرجال أيضاً- في كل زمان ومكان يتبعن قلوبهن، وليس أغراضهن في اختيار من يشاركهن حياتهن؟

حكمت كليوبترا على نفسها ونفذت حكمها بيدها وليس بيد غيرها، كملكة عزيزة، كي لا تمر تحت أقواس النصر الرومانية في روما ذليلة خانعة، بحيث لن تكون سليلتها زنوبيا قادرة على فعل الشئ نفسه بعد ثلاثمائة سنة تقريباً.

ماتت كليوبترا بالسم او بغيره، ولسان حالها ربما ردد في لحظاتها الأخيرة: حل ظلام ظهيرتك أيتها الشمعة الضئيلة، ألا انطفئي فما الحياة إلا ظلٌ يمشي! لكن ظل كليوبترا مازال يمشي على غلال من حرير بكل ألوان الطيف! ففي الواقع والتاريخ قد يكتسب المهزوم، في بعض الحالات، رفعة وشرفاً عظيمين في الموت!

بهذه النهاية المأساوية أغلق عصر كليوبترا بشخصيتها وحياتها وسيرة حكمها المثيرة، حيث كانت خاتمة عصر في تاريخ مصر مثلت فيه الأسر الإغريقية الأجنبية دور الملوك الفراعنة لفترة قاربت الثلاث مائة عام هو عصر الأسرة البطلمية.

3

كان نشاط كليوبترا محدوداً في السياسة الداخلية، إلا أن نشاطها في مجالات السياسة الخارجية عده المؤرخون والباحثون بأنه من أغرب مغامرات التاريخ الذي استخدم فيه سلاح الأنوثة بنجاح لتحقيق أغراض سياسية بحتة كادت تنجح بتغيير مسار تاريخ العالم القديم.

كانت مصر في العصور الأخيرة من حكم البطالمة في غاية الضعف والخمول والانحطاط في جميع أمورها، إلى أن جاءت كليوبترا بحكمها وسيرتها كما يجئ البرق ليشق الظلام بالضوء ثم ينطفئ ليعم الظلام من جديد.

فقد تحولت مصر من دولة مستقلة يحكمها البطالمة إلى ولاية رومانية. لكن كليوبترا بقيت أسطورة من أساطير التاريخ الإنساني المثير لخيال الشعراء والفنانين والكتاب والعامة ترددها الألسن في مختلف العصور والأزمان. وأُلفت عنها عشرات المسرحيات وأكثر من مائة وخمسين أوبرا وعدد من الباليهات، تتناول شخصيتها وسيرتها.

تعد الملكة كليوبترا الشخصية الأكثر شهرة بين حكام مصر البطالمة، بل هي الأكثر شهرة بين ملكات مصر جميعا. وقد انبعثت سيرة هذه الشخصية من خلال روايات مستقاة من مؤرخين غربيين قدماء ومحدثين، ولم تأت من جانب مؤرخين مصريين أو من وثائق منقوشة أو مكتوبة. لذلك تراوحت سيرتها الشخصية بين الجذب والشد، بين الخلاعة والمجون ومسؤلية الدولة، بين الغواية والهدف السياسي من أجل مملكتها، بين الإرضاء والتحقيق. وقد نشط الكثير من الكتاب والمؤرخين في تأجيج موضوع الجدل السياسي في إطار من الحب اللاهب بين البطل الروماني والعاشقة المصرية. ففي اجتماعهما ينتصر الحب على السياسة في شخص قيصر، بينما يودي موت أنطونيوس بالعاشقة، ويجعلها تختار ميتة رومانية درامية لفشلها في التأثير على أوكتافيوس. إذاً، لم تكن سيرة كليوبترا وهماً أنثوياً ينسجه الخيال أو زيفاً يبعث على الاستهزاء والهزل، ومع ذلك دارت حول علاقتها بروما وقيصر وأنطونيوس تفسيرات وتأويلات كثيرة ووجهات نظر متنافرة كانت أكثرها ترسم صورة لسيدة على غاية من الفتنة والجمال والشبق تبحث فقط عن إرضاء رغباتها الحسية كامرأة مع القادة الرومان الكبار. لكن تدقيق الروايات التي كتبها المؤرخون القدماء أمثال: بلوتارخوس وسويتونيوس وديو كاسيوس وسترابو وبلينيوس الكبير، رغم ما اعتراها من تصوير نمطي غربي عن الشبق والإغواء الشرقي، بغض النظر عن الهدف، يتضح أنها استطاعت عن معرفة ويقين توظيف جمالها وذكائها وحيويتها وصلابة أهدافها في علاقتيها مع قيصر وأنطونيوس من أجل مصلحة مملكتها، وليس ذلك فقط، وإنما محاولاتها الواعية إقناع القائدين الرومانيين بتتويجها ملكة على روما إلى جانب كل منهما على حده. وخاصةً أنها كانت تدرك أن حالة الضعف

التي كانت عليها مصر لايمكن إصلاحها في فترة وجيزة، وإنما من خلال فن الممكن الذي رأته في التحالف العاطفي والسياسي مع قيصر، وأنطونيوس، حتى أن محاولتها إغراء القائد الروماني أوكتافيوس بما أغرت به سابقيه لم يكن من أجل المجون والمتعة الجسدية وإنما من أجل مملكتها ومن أجل مصر. وللأسف، فصورة كليوبترا وسيرتها في التاريخ الحديث رسمتها بالدرجة الأولى الأعمال الفنية والأدبية الغربية بالشكل النمطي المعروف: امرأة لعوب على درجة عالية من المكر والغواية والمجون، والجد مع الهزل، والاستخفاف في مقام الاتزان. وهذا قد يكون حكماً متسرعاً!

بدت صورة كليوبترا بشكل دائم بما ملكته من جمال وفتنة وقدرات مشهودة في التأثير على الجنس الذكوري من القادة الفاتحين من مشاهير الرومان لتسخيرهم لرغباتها السياسية إلى حد تمكنت فيه من تغيير تاريخ العالم في زمنها، حتى أن بعض الدارسين يقولون لو كان أنف كليوبترا أقصر قليلاً لكان تغير وجه العالم إلى صورة غير التي بدلته به كليوبترا.

مازالت أسطورة كليوبترا تمثل صوراً ساحرة في عيون الأجيال، إذ لم ينته تمثيل شخصيتها وجمالها واستثنائيتها في كافة وسائل الفنون والآداب والإعلام المحكية والمكتوبة والمرئية حتى الآن.

وربما يكون بعض ما نعرفه عن كليوبترا مبالغاً فيه أو تم تقديمه بطريقة محرفة من قبل بعض المصادر. فديو كاسيوس كان أحد المصادر القديمة التي قدمت روايتها عن كليوبترا بالتلخيص التالي: " لقد أسرت أعظم شخصيتين رومانيتين بزمانهما، وبسبب الثالث قضت على نفسها".

وأخيراً: أين يرى القارئ: الصالح والطالح والقبيح في سيرة شخصية مميزة؟ عاشت في ثوب امرأة اسمها كليوبترا!

4

لم يتملك الرومان في كل تاريخهم الخوف الشديد إلا من شخصيتين أحدهما رجل والآخر امرأة: هانيبال (هانيبعل) القرطاجي وكليوبترا ملكة مصر البطلمية. وقد ثمن التاريخ الروماني انتصار أوكتافيوس على كليوبترا، كما ثمن من قبله انتصار سكيبيو على هانيبعل في معركة زاما سنة 202 ق.م. واعتبر التاريخ الروماني أن أوكتافيوس رجل مقدس لدخوله الاسكندرية وتخليصه روما من أشد المخاطر والمحن التي واجهتها، فقرر مجلس الشيوخ الروماني اعتبار يوم دخول الاسكندرية عيداً رومانياً وطنياً وبداية للتقويم المحلي، فخلع على قيصر لقب أوغسطس، وبذلك سمي الشهر بأغسطس. ولم يلبث أن أصبح إلهاً تقام له المعابد. لكن أوكتافيوس قيصر حقق ما أباه الرومان على والده بالتبني يوليوس قيصر، بأن وضع نهاية للجمهورية الرومانية وأسس عهد الامبراطورية. وقد تميز بالصرامة والقدرة على العمل المتواصل إذ نجح بإعادة الوحدة العسكرية والسياسية والاجتماعية للعالم الروماني. فقد لخص المؤرخ تاكيتوس دوره بالعبارة التالية: التحمت الجيوش والطبقات والولايات جميعها بعضها ببعض.

كانت آخر عبارة نطق بها الامبراطور والأغسطس وأب الأمة والقيصر أوكتافيوس قبل موته: " والآن وقد أتقنت دوري فصفقوا بأيديكم واخرجوا من المسرح وأنتم تصفقون"، ثم

عانق زوجته، وقال: " تذكري عشرتنا الطويلة ياليفيا، الوداع". فمات موتاً طبيعياً عن عمر يناهز الستة والسبعين عاماً.

يطلق على عصر أوكتافيوس العصر الذهبي الروماني حيث وصلت فيه الامبراطورية إلى أكبر اتساع لها، فانتشر السلام والأمن في معظم ربوعها، فأطلق عليه "السلام الأوغسطسي" الذي استمر لمائة عام بعد موته. وتمكن من انقاص حجم الجيش، إلا أنه أصبح ملكية شخصية للامبراطور يستخدمه كيفما يشاء، فمنح أفراده أرضاً من ممتلكاته الشخصية. وقد تحلى أوغسطس بالزخارف والحلي التي كان يرتديها الملوك الشرقيون، إلا أن سنوات حكمه الأخيرة اتسمت بالبساطة في العيش إلى حد التقشف، والاعتدال والتواضع الحقيقي الذي لم يَشبهُ زهوا فازدهرت البلاد وانتشرت الآداب والفنون والكتب.

الفصل الخامس

جوليا دومنا الحمصية

Julia Domna Of Homs

الاحتلال الروماني للبلاد السورية وآثاره

افتتحت المرحلة السلوقية، التي حكمت جزءاً من آسية الصغرى الجنوبية شمالاً إلى أقصى جنوب سورية حتى الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وعلى مدى247عاماً (312 -64) ق.م، المجال لدول ودويلات المنطقة أن تمارس فترات من الاستقلال والإدارة والتطور. واستمرت هذه الدول بالمساهمة في البناء الامبراطوري الروماني بعد فتح سورية والمشرق بقيادة القائد العسكري الروماني المشهور بومبيوس (بومبي) الكبير سنة64 ق.م.

لم يكن دهاء روما السياسي أقل من حنكتها الحربية عند احتلالها كامل البلاد السورية (استفسر كتاب "روما والعرب"[1] في الوكالات السياسية التي منحتها روما لوكلائها العرب خلال القرنين الأولين من تاريخ احتلالها المنطقة)، حيث لم تجد من الحكمة أن تسرع في قلب الأوضاع التي كانت عليها مجمل المنطقة أواخر الدولة السلوقية، خاصة، أنّ السكان كانوا قد وصلوا إلى مرحلة تكاد تكون عامة لرفض الاستمرار السلوقي الذي وضع المنطقة ومصالح البلاد تحت رحمة التحالفات والصراعات الدموية الدائمة والمستمرة بين أفراد هذه السلالة، بحيث لم تترك للمنطقة فرصة استقرار سياسي واقتصادي لتطور شعوبها. كما أنَ حكم السلالة السلوقية لم يكن لديه خطة استراتيجية عامة لتحقيقها على مدى فترة حكمهم؛ وهو بناء دولة- أمة، حيث كان الانتماء العرقي العام لشعوب هذه المنطقة من العالم سيسهل الأمر على حكام الدولة السلوقية لبناء مثل هذا الكيان الوطني العظيم لو تم، الذي كان يمكن أن يتطور إلى دولة- أمة (امبراطورية). وليس هذا بمستحيل، إذ كيف تسنى للرومان بناء دولتهم، وتحويلها تدريجياً إلى أعظم امبراطوريات التاريخ البشري، بالرغم من أنَ الرومان لم ينحدروا أساساً من عرق أو جنس واحد، وإنما ائتلفوا تدريجياً من أجناس وأعراق وشعوب وثقافات مختلفة. والدليل على ذلك أن الكثير من الأباطرة الذين حكموا روما لم يكونوا بالمعنى العرقي رومان أصلاً. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الأعراق والأجناس، لكنَ التحليل التاريخي يمكن أن يقدم لنا معايير قياسية للأخذ بها.

---

[1] - "روما والعرب"، تأليف. عرفان شهيد، دار دومبارتون أوكس، واشنطن العاصمة، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان، دمشق، 2008.

لذلك لم يجد الفاتح الجديد أسباباً عملية لخدمة أغراضه السياسية والاقتصادية والأمنية العامة لتغيير القائم، وخاصة، أنه لم يتعرض لمقاومة أو ممانعة تذكر على امتداد الفترة الرومانية الأولى وحتى أواخر النصف الثالث من القرن الميلادي؛ قرن الأزمة التي عصفت بالامبراطورية الرومانية في معظم ولاياتها، وسمي قرن الأزمة الامبراطورية. لهذا حافظ الرومان على سياسة الوكلاء التي كلف بها ملوك وأمراء ومشايخ المنطقة المحليين. فظهرت تحت سيادة ورعاية روما وبموافقتها عدة كيانات إدارية وسياسية في سورية بما يشبه الاستقلال الداخلي، فتألفت حكومات وطنية لإدارتها؛ كالرُها/ إديسا في أقصى الشمال الشرقي من سورية تحت سيادة الأسروينين، ويهودا في الجنوب، وسورية المجوفة في الداخل السوري (منطقة الوسط). ولكثرة ما نشب من خلافات وصراعات بين الأهلين وحكوماتهم الوكيلة لسلطات الأباطرة الرومان في روما، خاصة في فترة هيرودوس الأدومي الكبير، قررت روما حسم الصراع مع استقلال يهودا، بأن أبعدت زعيم المعارضة أرخيلاس عام 11م، فأصبحت بعده يهودا إقليماً رومانياً ساسه أربعة عشر من الحكام المعينين رومانياً، حتى قيام الثورة اليهودية على الرومان طلباً للاستقلال، انتهت بهدم أسوار القدس سنة 70م بقيادة واسبسيانوس Vasbesianus وابنه طيطوس. بينما دخلت سورية الشمالية هذه المرحلة بحيث حكمها عدد من الوكلاء يربو عددهم الأربعين وكيلاً حتى نهاية العهد القيصري الأول سنة 14 م.

بعدما توطدت أقدام الامبراطورية الرومانية وأحست من نفسها القدرة الكاملة على تعميم سيطرتها على جميع أقاليمها وولاياتها، وجدت أنه أصبح لزاماً عليها أن تجعل من سورية الكبرى Syria Salutaris إقليماً رومانياً واحداً، حيث بدأ الرومان تدريجياً تطبيق سياساتهم الجديدة بالضم والإلحاق الكامل بروما اعتباراً من بداية القرن الميلادي الأول حينما قرر أوغسطس وضع أربعة فيالق عسكرية تحت إمرة الوالي في سورية. وهكذا توالت سياسة الضم والإلحاق التي انتهت بضم المملكة النبطية ودمشق وتدمر عام106م، واختتمتها بضم ولاية اوسروينة وعاصمتها الرُها (إديسا) في عام 200 م. وهكذا سرى التطبيع والقوانين والأنظمة الرومانية على سائر المناطق السورية.

وكما امتزج السوريون تدريجياً بالوافد الإغريقي الجديد بعد الفتح اليوناني، كذلك فعلوا مع الفاتح الروماني. فبدأ التطبيع الروماني يعطي نتائجه بعد مئات السنين من الاتصالات الوثيقة والهجرات المستمرة إلى روما ومن ثم العودة إلى بلادهم الأصلية، فظهرت مشاركة العرب السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية في بناء الدولة الرومانية، وخاصة بعد إصدار مرسوم كراكلا Constitutio Antoniniana سنة212 م، والذي منح حق المواطنة لجميع رعايا الامبراطورية الرومانية الأحرار. ومع حفاظ العرب، شعوب المنطقة، على تقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم، فقد شاركوا مشاركة فعالة في صناعة التاريخ الروماني، فخدموا في الفيالق الرومانية، خاصة فرق الفرسان الخيالة الذين كانت شهرتهم مشهودة في مكونات الفيالق الرومانية. وظهر الكثير من أبناء المنطقة

الذين أسهموا مساهمة فاعلة وعظيمة في الثقافة والأدب والفكر والفلسفة والخطابة وجميع أنواع الفنون الأدبية الأخرى. كما ارتقوا سياسياً وعسكرياً إلى أرفع المناصب والمراكز العليا في الامبراطورية الرومانية، حيث ارتقى العديد منهم إلى مرتبة لابسي الأرواب الأرجوانية؛ سدة العرش الامبراطوري الروماني، كما ارتقى لاحقاً العديد منهم إلى المركزالبابوي الأول بعد سيادة الإيمان المسيحي رسمياً على الدولة الرومانية. وتطبع الكثير منهم بالعادات الرومانية، وتكنوا بأسمائهم، لكنهم استمروا بالمحافظة على كل ما اتصفت به محليتهم. والملاحظ أن التطبيع الروماني على شعوب المنطقة كان يظهر أقوى كلما اقترينا من الشواطئ بينما كانت قوة المحافظة على شخصيتهم وصفاتهم وعاداتهم وثقافاتهم الأصلية تظهر أكثر كلما ابتعدنا عن السواحل.

وتشهد الأسماء اللاتينية التي تطبع بها السوريون على قبولهم الطوعي لجانب من العادات والتقاليد الرومانية، إذ كانوا قد درجوا على ذلك مع اليونان. وإن دل هذا فإنما يدل على تحضير متعمد لرؤية مرسومة للتطور في عالم جديد يتقبل شيئاً فشيئاً أشكال وصورالحياة الجديدة. وقد أدى ذلك إلى الاحتكاك المباشر مع كل أشكال الحضارة التي جلبها الفاتحون معهم، حيث قاد هذا إلى موجة مستمرة من التماهي والمباراة بينها وبين أصحاب العقول النيرة من أبناء المنطقة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر بعضاً من المساهمات العسكرية العربية في خدمة الجيش الروماني؛ كالفرقة الأوغسطسية الثالثة التي تألفت من الجنود السوريين، وكانت تعسكر في نوميدية (تونس والجزائر)، كما أن واسبسيان نقل فرقته السورية معه إلى روما عند اعتلائه عرش الامبراطورية سنة 69 م. وقد روى المؤرخ تاكيتوس أنّ الفرقة الغالية التي ناصرت واسبسيان كان أفرادها يحيون الشمس عند شروقها، وتلك كانت من طقوس عبادة إله الشمس الحمصي: بعل. كما أن غالبية أفراد الفرقة التراجانية الثالثة التي أقامت في الأسكندرية كانوا عرباً سوريين، كما تركت سرية الرماة الحمصيين الألف التي انتدبت لتعسكر في بانونية (المجر حالياً) آثاراً مكتوبة بالسريانية واليونانية تدل عليهم. وكان معظم أفراد الجيش الذي جرده سيفيروس على ألمانية من عرب المشرق. وإذا أردنا التفصيل في هذا المجال، فخير معين لنا في ذلك هو كتاب"روما والعرب"، لمؤلفه عرفان شهيد وترجمة قاسم سويدان، في مراجعة الفصل الخامس من الكتاب بعنوان لائحة المقامات Notitia Dignitatum التي تسرد بالتفصيل مشاركة الوحدات العسكرية العربية في الجيش الروماني في المشرق: على التخوم المصرية وفي فينيقية وسورية والفراتية وفلسطين واوسروينة وما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وولاية العربية.

مثلت حمص[1]❖ منذ القديم مركزاً مهما من مراكز الإسهام الحضاري والمدني والديني في منطقة المشرق العربي. فقد ذكرت المصادر والحوليات التاريخية المختلفة ما قدمته حمص من مساهمات في التاريخ، ابتداءً من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد

---

[1]❖ – لم يكن اسم حمص كمدينة معروفاً حتى القرن الأول الميلادي، وكانوا يذكرونها باسم إمسين Emsene (حماصنة) .. ولا نجد ذكراً لاسم حمص في العهد الآرامي كحماة وحلب ودمشق.. إلخ – المحقق.

حتى الآن، مروراً بكل الأزمنة التي مرت عليها، ابتداءً من العمالقة والعموريين، الحثيين، الفينيقيين والآراميين، الآشوريين والكلدانيين والفرس، السلوقيين، عائلة سمسي- غيراموس الحمصية، الأسرة السفيرانية، الأسرة التدمرية، النصرانية، والإسلام.

اكتسبت حمص أهمية خاصة، في منطقة المشرق، لأسباب عديدة، أهمها أنها كانت مركز عبادة إله الشمس التي كانت منتشرة في المشرق، والتي تاصلت من استمرار الطقوس السامية والسومرية والبابلية والآشورية القديمة، ثم انتقلت إلى روما لتصبح عبادة روما الوثنية في مطالع القرون الميلادية الأولى. فقد مثلت عبادة الحجر الأسود الموجود في هيكل إله الشمس- الحمصي في حمص ملاذاً مقدساً للمتعبدين، حيث دلت الآثار والمؤرخون على ما للحجر الأسود المحفوظ في الهيكل من أهمية وقدسية، في الوقت الذي لم تكن عبادة الحجارة السوداء أمراً غريباً، فقد ورد في المخطوطات المسمارية ذكر لسبعة أحجار سوداء، كانت تعبد في هيكل أرك في اليونان. وقد عثر على مصكوكات سورية وسلوقية واوسروينية عليها صورة الحجر.

تولت سدانة معبد إله الشمس- الحمصي تسلسل من الأسر الشريفة للقيام بخدمة المعبد، بحيث انتهت كهانتها في نهايات القرن الأول وبدايات الثاني إلى عائلة من أشراف أهل البلاد الأصليين. فاشتهر منهم الكاهن الوثني الجليل باسيانوس Bassianus، والذي طبقت شهرته الآفاق لعلمه وأخلاقه العالية وآدابه السامية، وسياساته الحكيمة. فمثل كاهن المعبد ما كان ينظر إليه على أنه إنما كان يتقمص فيه دور الإله، إضافة إلى دور الملك، حيث كان خادماً ومعلماً تعلوه سمات من الوقار الكهنوتي، ما جعلته جميعها موضع احترام وإجماع، مهدت لذريته تسنم أعلى المراكز في الامبراطورية الرومانية، إلى حد أطلق عليه المؤرخون وصف"حكم الأسرة السيفيرانية الحمصية" التي تبوأت مركز العرش الامبراطوري الروماني لمدة تربو على الاثنين وأربعين عاماً (193-235) م، أسهمت فيها بإنجازات مختلفة على صعيد الإدارة والعسكرية والفلسفة والقانون والآداب والفنون والمعتقدات الدينية سواء كانت وثنية أم مسيحية.

ورغم كثرة المصادر الأدبية، فإنه لا يوجد الكثير الذي ينصف تاريخ المنطقة. إذ أن أهم مصادرهذه الفترة، باتساع روايتها، هي"التاريخ الأوغسطي"، والذي يشار إليه أحياناً بتاريخ سير الأباطرة الرومان، أو سير الأباطرة المقدسين Augusta Historia. وبالرغم من أن تاريخ هذه السير كان من عمل ستة مؤلفين كتبوه في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع، إلا أنه ينظر إليه الآن على أنه ربما كان من تأليف كاتب واحد، وليس ستة مؤلفين، كتبها في نفس الفترة وأكملها آخر في نهاية القرن الثالث؟ وقد عاصر المؤرخ المشهور ديو كاسيوس هذه الفترة التاريخية، خصوصاً، فترة حكم الأسرة السيفيرانية، حيث غطى تفاصيلها إلى حد ما. ولسنا ندري في حقيقة الأمر إلى أي درجة كان ديو محايداً في تغطيته لتاريخ وسيرة هذه الأسرة التي امتدت لفترة اثنين وأربعين عاماً متواصلة- ما عدا فترة مكرينانوس التي استمرت لأشهر معدودة. فالمؤلفون الذين كتبوا عن تاريخ هذه الفترة نقلوا بالدرجة الأولى عن "التاريخ الأوغسطي"، "وتاريخ روما الموسع History of Rome" لديو كاسيوس.

الأسرة السيفيرية (السيفيرانية / الساويرية)
على عرش روما

ابتدأ حكم الأسرة السيفيرانية بالامبراطور سفيروس (لوكيوس سبتميوس سيفيروس بيرتيناكس (Lucius Septimius Severus Pertinax الذي ولد في مدينة لبدة Leptis Magna على الساحل الليبي في 11 نيسان سنة 146م، والتي كانت مستعمرة فينيقية قديمة يسكنها مهاجرون أتوا من صيدا وصور اللبنانيتين. وقد بقيت المدينة مرتبطة بشكل واسع بالمؤسسات الفينيقية وبكل ما هو فينيقي، وذلك بعد سقوط قرطاجة. فكانت اللغة الفينيقية لغته الأصلية التي تربى عليها وبقي يستعملها. تعلم سبتميوس وتثقف في البلاغة والقانون وأكمل دراسته في روما وتولى عدة مناصب حكومية خلال عهدي الامبراطورين ماركوس أوريليوس وابنه كومودوس الذي شاركه الحكم (161-180) م. وانتسب إلى الجيش، فصار قائداً عسكرياً كفؤاً أخلص له الجند لاهتمامه الشديد بأحوالهم ومصالحهم. لكنه كان شديد الصرامة. فقد جاء في"تاريخ روما" لديو كاسيوس المقطع التالي: " كان سبتميوس سيفيروس حاكماً صارماً حيث شغل منصب القنصلية مرتين، أصبح بعدها والياً على أفريقية ثم حاكماً على دلماشية وبانونية وذلك قبل انسحابه إلى البثنية ليبدأ بكتابة تاريخه الامبراطوري". وقد رُويَ أن جده لوكيوس سيفيروس كان شخصية مهمة في بلدته لبدة أهدى إليه الشاعر ستاس إحدى قصائده على أثر اعتبار لبدة مستعمرة رومانية في عام 110م. وقد شغل الجد منصب قاض في المدينة، ثم انتقل لاحقاً إلى روما ليصبح قاضياً فيها وأحد أعضاء مجلس التشريع العشري. وقد أقام سيفيروس تمثالاً لوالده عام 201 م في مسرح لبدة مدللاً على ولائه لأسلافه. وكان أخوه بوبليوس سبتميوس جيتا مسؤولاً عن مالية كريت وبرقة، وبعد ذلك حاكماً على داكية سنة 195، ثم تقاسم منصب القنصلية مع ابن بلدته بلوتيانوس عام 203 م.

اعتلى عرش روما كلوديوس أوريليوس، الذي اشتهر بلقب كومودوس، خلفاً لأبيه (180-192) م. فكلف سيفيروس بالتوجه بجنوده إلى حمص سنة 179م لإخماد تمرد هناك أقلق السلطات الامبراطورية. فلما وصل سيفيروس بجنده طوق المنطقة التي اعتصم بها الثوار، وحال دون وصول المؤن والإمدادات، حتى قضى عليهم. فترك ما أنجزه تأثيراً عالياً في روما.

أثناء وجوده في حمص، وقع نظر سبتميوس سيفيروس على جوليا ابنة الكاهن الحمصي باسيانوس، وكانت في حينها في حدود الثالثة عشر عاماً من عمرها، وكانت أختها ميسا بحدود الخامسة عشر أو أكثر قليلاً. وبعد سبع سنوات ماتت زوجة سيفيروس الأولى، فعاد إلى حمص وطلب يد جوليا دومنا، حيث سحره جمالها الخلاب

ومال ميلاً عظيماً إليها. فبدأ يعد للاقتران بها بعد أن عرف من تكون، وبعد أن تأكد من حسن خلقها إلى جانب جمالها. حيث كانت قد وصلت إلى مرحلة عالية من الثقافة والعلوم الفلكية والطبيعية. وكانت دومنا تصغر سيفيروس بعشرين عاماً تقريباً. ويقال أن رواية إحدى العرافات كانت ضمن الأسباب التي شجعته على الاقتران بها، والتي تقول: إنّ لهذه الفتاة حظ وحسن طالع عظيمين، وسيقترن بها يوماً ما رجل العالم الذي سيعتلي عرش الامبراطورية الرومانية. وربما كانت قراءة العرافة مجرد إطراء لدومنا مقابل المقابل، أو مقابل ما كانت عليه العائلة من جاه وثراء، أو ربما كان سيفيروس يؤمن بالخرافات وقد سمع بمثل هذه النبوءة من خلال الأحاديث المتداولة. وقد قدمت سير"التاريخ الأوغسطي"روايتها على الشكل التالي: " فقد سيفيروس زوجته في ذلك الوقت، والآن، يرغب بالزواج من جديد. فقام باستطلاع المنجمين ليخبروه عن بروج نساء في سن الزواج، فعلم من قراءاتهم أنه يوجد في سورية فتاة تنبؤوا في برجها أنها ستزف إلى ملك العالم. فبحث عنها لتصبح زوجته. وقد تم هذا الزواج بواسطة بعض الأصدقاء. بذلك أصبح أباً بعد مدة قصيرة"[1]. المهم، تم الوفاق على الزواج، وبذلك أصبحت جوليا دومنا Julia Domna زوجة لسيفيروس الذي كان في عمر الأربعين، بينما كانت جوليا في العشرين أو الواحد والعشرين من عمرها. وقد تم زواجهما في عام 186م. فرافقته في مهمته الجديدة إلى مقاطعة غالية الايونية، على الرغم من حظر القانون الروماني بعدم مرافقة زوجة الحاكم له وبقائها في روما لكي تكون رهينة مانعة لأي محاولة تمرد أو عصيان. فرزقا بكراكلا الذي ولد سنة 188م في ليون، فسموه باسم جده الحمصي سبتميوس باسيانوس، بما يعني بقاء الرباط مع سورية. وقد سمى كراكلا نفسه لاحقاً ماركوس أوريليوس سيفيروس أنطونينس، ولم يطلق عليه لقب كراكلا[2] إلا مؤخراً إذ غلب عليه خلال خدمته العسكرية. بينما ولد جيتا (الإبن الثاني) في صقلية سنة 189م، عندما كان سيفيروس حاكماً عليها، وسمي باسم عمه بوليوس سبتميوس جيتا.

كان على الزوجة أن تترك حمص وترافق زوجها في سلسلة من المهمات العسكرية التي كان يكلف بها، حيث كان يرى أن نجاحه في تحقيق هذه المهمات سيكون جوازمروره إلى سدة العرش الروماني. فرافقته أولاً إلى مدينة ليون Lugdanum في بلاد الغال على الطرف الغربي من الامبراطورية.

اغتيل كومودوس بالسم في نهاية عام 192م. وكان نبأ الاغتيال مصدر راحة للعائلة، لأن كومودوس كان قد وضع العيون لمراقبة سيفيروس، وداوم بالتالي على ندبه إلى مهام بعيدة عن روما نظراً لخوفه من طموحاته. فأقيم مكانه القائد الانضباطي بيرتيناكس Pertinax الذي كان والياً على سورية، والذي كان على وفاق وصداقة مع سيفيروس، لذلك رحب سيفيروس بالقادم الجديد إلى العرش الأمبراطوري الروماني.

---

[1] – انظر "التاريخ الأوغسطي" (Loeb Library, H.A, Severus, 3, 9, Tran. By D. Magie)

[2] – كراكلا كلمة لاتينية تعني المعطف طويل الأكمام والمتصل بغطاء للرأس.

في مهمته الجديدة وهو يعسكر على الدانوب، أُبلغت جوليا دومنا أن الحرس الامبراطوري قد قضى على بيرتيناكس في روما . وكان ذلك في آذار من العام التالي لتوليه. وأن القتلة قاموا بوضع عرش الامبراطورية على طاولة المزاد العلني المفتوح لمن يدفع أكثر. حيث استقر المزاد على رجل روماني واسع الثراء يدعى ديديوس يوليانوس. وفي الحال نودي به امبراطوراً بعد أن نقد للجند ما قيمته حوالي400 ألف ليرة انكليزية بتلك الأيام. فانتابت الفيالق الرومانية المنتشرة في جميع أصقاع الامبراطورية وقياداتها ثورة من الغضب والمهانة لما لحق بسمعة العرش الروماني، فنادى كل جيش بقائده امبراطوراً .

حانت لحظة تحقيق الحلم لامبراطور قادم على غاية عالية من النباهة والذكاء. إذ كان سيفيروس قائداً يعسكر بقواته، كما ذكرنا، على الدانوب، فأعلنته قواته امبراطوراً في الثالث عشر من نيسان سنة 193م. في نفس الوقت أعلنه مجلس الشيوخ عدواً للشعب. فأسرع بقواته المؤلفة من ثلاثة فيالق ودخل روما بموكب عظيم. وقد كان له من العمر حينها ثمان وأربعون عاماً . وخلال زحفه الخاطف إلى روما كان يقضي على كل مخالف له بكل قسوة. لذلك استبق مجلس الشيوخ، الذي كان قد أعلنه خائناً للشعب، إرسال موفدين لمقابلة سيفيروس طلباً للعفو والرحمة. أما الحرس البريتوري الذي كان يتمتع بسلطة سياسية طاغية على روما، والذي مثل في العهود المتأخرة سيفاً مسلطاً على رقبة الامبراطورية حيث كانت كتائبه من يقوم غالباً بتغيير الأباطرة بين حين وآخر. لذلك أصدر سيفيروس أمره لهم بالالتحاق به دون إبطاء. وهناك أمرهم أن يخلعوا بزاتهم العسكرية الأنيقة ويلبسوابدلاً منها ثياباً مدنية، عندها أحاط بهم جنود سيفيروس وأجبروهم على تسليم خناجرهم المرصعة التي كانوا يحملونها شعاراً للفيلق الذي ينتسبون إليه. ثم طردوا من الخدمة وهددوا بالموت إن عثر على أحدهم.

دشن سيفيروس عهده بإذلال مجلس الشيوخ، وبالتخلص من العدو الأكبر المتربص دائماً بالأباطرة: الحرس الامبراطوري الذي كان يعتبر نفسه الحامي للمؤسسات الرومانية، والذي كان تجنيدهم يتم بناء على عنصرهم الإيطالي والمقاطعات التي اتحدت مع روما منذ زمن بعيد . ويبدو أنَ سيفيروس كان قد أعد لحسم الموقف مع الحرس منذ أمد ليس بالقصير. وأحل محلهم الإليريون (إليرية: مونينيغرو وشمال ألبانية الآن) الأشداء الذين وثق بهم سيفيروس. وكان دخوله إلى روما في موكب عظيم تم تنظيمه وترتيبه بعناية ودراية احتفاءً بالسيد الجديد . وقد نظم موكب دخول الامبراطور إلى روما بمهارة فائقة بحيث يظهر سلوك الامبراطور الجديد ممزوجاً بالتواضع والبساطة بالعظمة والتسامح والعدالة . وعلى أبواب روما ترجل سيفيروس عن صهوة جواده كإشارة احترام لشعب روما . وكان أول مرسوم أصدره المجلس الروماني هو حكم الإعدام على ديديوس يوليانوس والانتقام من قتلة بيرتيناكس الذي حزن عليه الجميع. ولتعزيز سلطته قام بوضع حد لكل القادة الكبار الذين ادعوا العرش، فانتصر على خصمه بيسكينيوس نيجر Pescennius Niger في سورية الشمالية وآسية الصغرى في عام 194م، وبعده على صديقه القديم كلوديوس ألبينوس Clodius Albinus في الغرب بالقرب من ليون على

نهر الرون، وذلك سنة 196 بعد أن أعلن نفسه امبراطوراً. وكان ذلك خلال عودة سيفيروس من آسية هو وجنوده مكللين بالتصرعلى الفرس. حيث اتبع المكر والدهاء الفينيقي للتغلب على البينوس إذ أرسل له رسالة ملؤها المحبة والصداقة، وبنفس الوقت أقنع الجيش بخطاب بليغ عن الموقف الذي وقفه ألبينوس بعد أن أشركه سيفيروس في حكم الامبراطورية، فكان مما خاطب به جموع الجند: " لقد أشركته في امبراطورية أنتم من جعلتموني مالكها الوحيد، وهي قسمة لا أظن حتى الأخوة يوافقون عليها". وهكذا، أصبح سيفيروس امبراطور روما القوي دون منازع، بل أحد القياصرة الرومان العظام في سيرالتاريخ الروماني، فظهر بمظهر الامبراطور المهيب، على غير ما كان عليه أيام الشباب. وكان دائم البحث للإحاطة بكل علم إن أمكنه ذلك.

حاول سيفيروس في بداية حكمه امتصاص ضغينة مجلس الشيوخ بعدم تعيين خليفة له كما هي العادة، وذلك لادخال الطمأنينة إلى قلوب وعقول أولئك الذين كانوا يتحسبون من إقامة أسرة مالكة على العرش الروماني. فبدا مستقبل المنصب الروماني الأول غائماً. فهو مازال في عنفوانه وكراكلا لم يزل صغيراً. كما أنه، على الجانب الآخر، خاطب مجلس الشيوخ الذين كانوا قد اصطفوا إلى جانب ألبينوس، بكتاب أظهر فيه قبضته الفولاذية في قفازه الحريري. وهكذا أعلن باسيانوس (كراكلا) قيصراً وأميراً للشباب سنة 196م. وفي سنة 197 قاد سيفيروس فيالقه بنفسه فحقق النصر على البينوس وحمل راسه إلى مجلس الشيوخ، ووجهت تهمة الخيانة العظمى إلى أكثر من ستين شيخاً نفذ حكم الإعدام بنصفهم. ونتيجة لكل ذلك أصبح سبتميوس سيفروس حاكم الامبراطورية الرومانية الأوحد، إلى أن أدخل عليه لاحقاً مشاركة ولديه كراكلا وجيتا ليصبح حكماً ثلاثياً.

لم يكن أحد يعلم كيف كانت الأمور تناقش بين سيفيروس وزوجته وكيف كان تأثيرها على قرارته، إلا أنه من المؤكد أن خططهما وتصميمهما كانا يدوران حول استمرار الحكم في الأسرة، وذلك رغم إدراك الأب لقصور في كفاءة الوريث لصيانة الوصول إلى ما يخططان إليه والاستمرار فيه؟

استغل البرثيون الفوضى الحاصلة في روما وأخذوا بمهاجمة الأطراف الشرقية والمحاذية لهم من الامبراطورية الرومانية، وخصوصاً بين النهرين (ميزوبوتاميا). حيث كان سيفيروس مسؤولاً عن هذه الجبهة في الماضي.

بعد أن وطد القيصر الجديد أموره داخل البيت الروماني قام في عام 197م بتجهيز حملته لمواجهة الاعتداءات البرثية والانتقام من البرثيين الذين كانوا قد تحالفوا مع نيجر، واصطحب معه زوجته وولديه، فعقد معاهدة مع أرمينية من أجل حماية مؤخرة جيوشه، واجتاز الفرات مع جيشه، الذي كان من ضمن تشكيلاته كتائب الفرسان والهجانة التدمريين، مندفعاً إلى بابل وطيسفون (المدائن) عاصمة الدولة الفارسية فنهبها جنوده وعاثوا فيها خراباً واقتادوا منها الأسرى. وبذلك أعيدت ميزوبوتاميا مرة أخرى إلى روما . وكان هذا الانتصار بمثابة تحقيق وعد مقدس بالنسبة للفيالق الرومانية. وقد

أطلق لقب الأوغسطس والتريبون على كراكلا، ولقب القيصر على جيتا. ونتيجة لمرافقة جوليا دومنا لزوجها في هذه الحملة حصلت على أول لقب كان من أرفع ألقاب الشرف الروماني: " أم المخيمات العسكرية والجنود على جبهات القتال Mother of the Camps"، وشُرِّفت بالنقوش والصور على القطع النقدية خلال هذه الفترة. وبعودته إلى روما زين انتصاره بإضفاء ألقاب جديدة على نفسه، منها: العربي، البرثي الأعظم، وبايوس نسبة إلى الامبراطور أنطونينوس بايوس (التقي:138-161)م، الذي أعطى اسمه لفترة حكم الأنطونيين الذين أطلق على عصرهم "عصر السلام الروماني".

بعد أن قضى سيفيروس فترة في إدارة وتنظيم سورية وبلاد المشرق قرر الذهاب إلى مصر التي أخذت جانب بيسكينوس نيجر خلال الصراع على السلطة الامبراطورية. فأبحر في نهاية عام 199م نحو مصر، حيث قوبل دخوله إلى الاسكندرية بطريقة احتفالية وسط الهتاف والتهليل، بحيث بدا عليه الإعداد والتخطيط المسبقين. فقام بجولة تفقدية على البلاد المصرية وشارك في الاحتفالات الدينية المصرية، واتخذ قرارات إدارية واجتماعية وقضائية. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على عناية ورؤية خاصة لمستقبل مصر الذي فتنت اليونان وما زالت تثير خيال الرومان بسحرها وأساطيرها وملوكها وملكاتها ومسارح الفتنة والجمال والحب التي أثارتها كليوبترا بقصصها مع يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس، إضافة إلى ما كانت تمثله مصر من مستودع عظيم لغلال روما. وكانت زيارة سيفيروس إلى مصر تبدو في ظاهرها استجماماً للزوج الامبراطوري من عناء غبار المعارك وصليل السيوف، إلا أنها كانت إلى جانب ذلك نوعاً من التأمل في محاولة لرفع الغطاء لمعرفة حقائق ما لا يعرف. فقد كان سيفيروس كما وصفه المؤرخ المعاصر ديو كاسيوس: ".. كان سيفيروس يبحث بشكل دائم لمعرفة كل شيء، خصوصاً تلك التي أخفيت بإحكام". وقد اكتشف اسم سيفيروس مكتوباً بالهيروغليفية بين أسماء الملوك المصريين الخالدين[1]. وفي نهاية 201 م أبحر إلى أنطاكية المدينة التي لجأ إليها خصمه نيجر، ما دعى الأنطاكيين لإظهار ندمهم وتوبتهم على ذلك، وبالتالي اعترافهم بلاوديكا (اللاذقية الآن) عاصمة لمنطقة المشرق بدلاً من مدينتهم بعدما منحها سيفيروس الحقوق الايطالية وأطلق عليها لقب سبتيما. ومنح الحقوق الايطالية لبعلبك والسامرة وصور. عاد سيفيروس وعائلته إلى روما سنة 202 م بعد جولته المشرقية، فتميزت عودته باحتفالات وأعياد عظيمة تصادفت مع الذكرى العاشرة لاعتلائه العرش، سك على اثرها نقداً ذهبياً يظهر على أحد وجهيه صورة دومنا وولديها. كما تم زفاف زواج بلوتيلا ابنة بلوتيانوس الواسع الثراء إلى كراكلا. وتميزت حفلة الزواج بمهرجان باذخ إلى أبعد الحدود، مما جعل بعض المؤرخين ينتقد هذا الإسراف.

---

[1] – ربما تمكنوا حينها من فك شفرة اللغة الهيروغليفية حتى يأمر بكتابة اسمه بين اسماء الخالدين بتلك اللغة؟ وذلك قبل اكتشاف شامبليون بزمن طويل، والذي كان قد سبقه، بثمانية قرون، ابن وحشية في كتابه" شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام". إذ أن الأدب المصري القديم دون بالخطوط الهيروغليفية التصويرية منذ العصور الفرعونية المبكرة، واستمر بذلك حتى نهاية القرن السادس الميلادي.

استقر أمر السلطة الامبراطورية بشكل كامل لسيفيروس بعد أن حقق انتصاراته في معارك رئيسية ضد خصومه الطامحين، إضافة إلى نجاحاته العسكرية على التخوم الشرقية للامبراطورية. بذلك أشرقت شمس العائلة السيفيرانية – السورية على روما سيدة العالم. وختم مجلس الشيوخ الروماني موافقته المتحفظة الصامتة على سلطان هذا الجندي الذي لم تعرف الهزيمة طريقها إليه. فقد كان سيفيروس يتمتع بعقلية باردة على غاية من التخطيط والتنظيم والتنفيذ، حيث درس مبكراً أخطاء من سبقوه من الأباطرة دراسة تحليلية، فوضع الخطط لتجنب الوقوع في مطباتها، وانتهج سياسة اجتماعية ناجحة لتقديم الطعام للفقراء والمحتاجين، كما اهتم بالعطايا السنوية للألاف من رجال الحاميات. لذلك كانت المنح التي يقدمها تأتي لخدمة ضرورات الحكم والسياسة، كما كانت إغراءات الحملات العسكرية تشكل وعداً بغنائم النهب والسلب لرغائب الجند والحاميات، إلى جانب ما كان يتبعه من تقديم الأعطيات الكبيرة لقادة الجيوش والكتائب شراءاً لمواقفهم.

جوليا دومنا ودائرتها الأدبية

خلال حكمه، كان سبتميوس سيفيروس متأثراً إلى حد كبير بقائد حرسه الامبراطوري الإفريقي كايوس فلوفيوس بلوتيانوس الذي كان يتمتع بسلطات واسعة بناءً على معرفة الامبراطور. كما أن بلوتيانوس زوجَ ابنته إلى كراكلا، ولكنه لم يكن يخفي امتعاضه من نفوذ دومنا. لذلك، ولسوء حظ العائلة، بدأ صديق ورفيق سيفيروس من أيام الصبا والولدنة، وقائد حرسه الامبراطوري بلوتيانوس بزرع الشكوك حول مسلك دومنا الأخلاقي. وربما فبركت هذه الاتهامات بسبب من نفوذها القوي على البلاط وعلى زوجها، أو ربما كان– كما أكد كراكلا لاحقاً– يدخل في باب التآمر للاستيلاء على العرش الروماني. وربما ما كان يثيره بلوتيانوس صحيحاً إلى حد ما في البداية، تجاهل سيفيروس هذه الاتهامات، لكنّ الزوجة لم تستطع الاستمرار في استثمار فوز زوجها بالعرش بسبب ادعاءات بلوتيانوس، حتى بعد أن قتل بلوتيانوس بعد انكشاف نياتة التآمرية. وقد أشيع أنها كانت وراء مقتله وتشويه سمعة ابنته بلوتيلا زوجة كراكلا. ورغم ادعاءات بلوتيانوس التي أدت إلى اهتزاز ثقة سيفيروس بها، بقيت جوليا تعيش في القصر الملكي مع أفراد أسرتها، وحضرت الألعاب الاحتفالية الرومانية القرنية الشهيرة التي أقيمت سنة 204، فتألقت فيها الأسرة الامبراطورية السيفيرانية، وبدا حضور جوليا دومنا الامبراطوري مبهراً وفاتناً للمتفرجين. وترأست كأوغسطا المناسبات الاحتفالية النسائية التي كانت تضم في عضويتها نساء أهم العائلات الرومانية النبيلة، إضافة إلى أختها ميسا التي حازت على لقب السيدة الأولى في طبقات الفارسات الرومانيات.

وقد علق على ذلك المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ديو كاسيوس بما يلي: "كان بلوتيانوس ذا تأثير عظيم على سيفيروس في كل شيء، حتى أنه كان في كثير من الأحيان يتصرف مع

الأوغسطا جوليا دومنا بطريقة شائنة؛ إذ لم يكن يخفي مشاعره العدائية ضدها إلى الحد الذي كان يسيء معاملتها بمعرفة زوجها. كان بلوتيانوس يشرف على التحقق من سلوكها، إضافة إلى جمعه معلومات ضدها باتهامها أنها كانت تقوم بالضغط على نساء العائلات الرومانية النبيلة. أمام ذلك بدأت بالاهتمام بالفلسفة وقضاء أوقاتها مع الصوفيين"[1]. فظهرت نشاطاتها في هذا المجال بشكل عزز من صورة الاحترام للعرش الامبراطوري، خاصة في فترات الفراغ التي كانت تأتي بين الحروب. وقد روي أن رعايتها للدائرة الأدبية كان له جانب سياسي. ويظهر أنّ التيارين المتناقضين والمتصارعين خلال السنوات الأولى من فترة حكم سيفيروس سيؤديان حتماً إلى انفجار يؤدي إلى اختفاء أحدهما لا محالة؛ الأول يمثله بلوتيانوس المستشار الطموح الحائز على ثقة الامبراطور، والثاني سوري تمثله الامبراطورة جوليا دومنا الأكثر طموحاً ودهاءاً وتخطيطاً ومعرفة بالتاريخ وتحليلاً نفسياً وبصيرة نافذة لا تخطئ ولا تروم، تجعلها قادرة على كيفية رؤية الرجال ووزنهم بدقة بحيث يكون توقعها بالنجاح بالغ الدقة والكمال.

أتاحت تنقلات جوليا مع زوجها التعرف على الكثير من الناس مختلفي العادات والتقاليد والثقافات والعقائد والتجارب، إضافة إلى ما بذله أبوها كاهن الشمس ليقدم لها ولأختها جوليا ميسا كل ما في وسعه من ثقافة رفيعة خلال تربيته وتهذيبه لهما في صباهما تحت رعايته في حمص، مما مكنها من صهر جميع ما اكتسبته بذكاء وحكمة في توسيع وإغناء دائرتها الأدبية والثقافية والإدارية، بحيث مكنها كل ذلك من معرفة طرائق تفكير الأباطرة الرومان وكيفية صنع مكونات الخطط لتنفيذ ما تتطلبه من حشد كل ما يمكن وراء عرش زوجها، وفيما بعد خلف ابنها كراكلا، فقد كانت تخطط لاستمرار توارث العرش الروماني وبقائه في العائلة.

ونظراً لتقلص دور جوليا دومنا في الشؤون المؤثرة في سياسات البلاط الامبراطوري، إن كان بسبب مكائد بلوتيانوس أو بغيرها، فقد بدأت بتأسيس سمعتها كسيدة مثقفة وراعية للآداب والفلسفة والفنون. فأخذت تهتم برعاية الفلاسفة والكتاب المشهورين بتشجيعهم على الانضمام لدائرتها الأدبية. وربما كان ذلك نتيجة استيعابها الواعي والمبكر للنفاذ إلى قلب وعقل الامبراطورية الرومانية. لذلك كثفت جهودها لتوسيع دائرتها الثقافية (شهد اهتمامها هذا مثيله أول مرة خلال حكم أوغسطس: 27 ق.م-14م)، فاستقطبت في دائرتها الأدبية والثقافية المتعددة الأفكار والاهتمامات العديد من مشاهير تلك الفترة، أمثال:

1- الصوفي الوثني فيلوستراتوس Philostratus الذي ألف "سيرة أبولونيوس الطّياني" بناءً على تكليف منها كدعاية ضد المسيحية لخدمة أغراض الدولة، لأن سيفيروس وجوليا كانا يحاربان المسيحية وأتباعها، وكانا شديدا الحماس للوثنية. وكان تأثيره كبيراً إلى حد أنه كان يمارس نوعاً من الفتنة الحقيقية على عقل جوليا وفي بلاطها الأدبي،

---

[1] - ديو كاسيوس: " تاريخ روما": Dio cassius, History of Rome, LXXVI. 15

كونه كان صديقاً مقرباً منها. وقد قارن الوثنيون هذا النبي المتجول بالسيد المسيح لمعرفته الواسعة وحكمته العالية التي اكتسبها من الفلاسفة الهنود خلال ترحاله إلى الهند.

2- مواطناها الحمصيان: ألبيان وبابنيان (Ulpian and Papinian)، اللذان أحاطت بهما زوجها. فقد كانا رفيقي دراسة في مدرسة بيروت الفقهية. فكانت لألبيان مكانة مميزة في عهد سيفيروس الأول وكراكلا. إلا أنَ الاغابالوس (الاغابال) أبعده عن روما وذلك بسبب محاولاته المستمرة بالتعاون مع ميسا لإصلاح تصرفاته الشائنة، إلى أن أعاده القيصر اسكندر سيفيروس وولاه زعامة الحرس الامبراطوري وجعله مستشاراً خاصاً له. وقد ترك ألبيان عدة أسفار فقهية في التشريع تقارب العشرة. بحيث استمد الامبراطور يوستنيانوس (جوستنيان) (527-565) الكثير من تشريعات ألبيان الحمصي. بينما كان بابنيان من أنسباء جوليا دومنا، وكان رفيق تلمذة مع سيبتميوس سيفيروس الذي استوزره فيما بعد وجعله قائداً لحرسه البريتوري ومستشاراً خاصاً له، وذلك لضمان ولاء الحرس وتعزيز التشريعات القانونية. وقد وثق به القيصر إلى حد أن عهد إليه الاعتناء بعائلته والمحافظة على وحدتها بعد موته. لكنّ كراكلا لم يراع وصية والده، وأمر الفقيه القانوني بابنيان أن يصدر فتوى يبرر بها قتله لأخيه جيتا، إلا أنّ بابنيان رفض الانصياع لأمر الامبراطور رغم إدراكه بأن هذا الرفض سيكلفه حياته، وقد أجاب بما صار بعد ذلك قولاً مأثوراً: "إن فعل جريمة القتل أخف وطأة من تبرير ارتكابها". وقد دفع حياته مقابل رأيه، حيث أصدر كراكلا أمراً بالتخلص منه. والفقيهان القانونيان كانا من الأعضاء المؤثرين في دائرة دومنا الأدبية. ويعتقد أن من كان وراء إصدار مرسوم كراكلا، الذي منح حق المواطنة لكل مواطني الامبراطورية الأحرار هم دومنا ودائرتها الأدبية، وخاصة ألبيان وبابنيان، وليس ذلك الجندي الخشن كراكلا. ويذكر معظم المؤرخين أن القانون الروماني الكلاسيكي- الذي كان بالأساس من وضع هذين الفقيهين القانونيين ألبيان وبابنيان- كان ذا تأثير عظيم على القوانين الأوربية والأمريكية اللاتينية في العصور التالية.

3- إيليان Aclian: مؤلف وجامع للقصص والحكايات الغريبة والخيالية عن الحيوانات، والذي ساهمت قصصه فيما بعد في تطورالحكاية الشعبية الأوربية.

4- المؤرخ اليوناني الشهير ديو كاسيوس Dio Cassius: كان مؤرخاً أميناً ولد سنة 155م في مدينة نيقية، شمال غرب آسية الوسطى. وشغل عدة وظائف سياسية وإدارية في فترات بيرتيناكس وسيفيروس ومكريانوس. ونال درجة القنصل. ألف تاريخ روما، الذي بدأ فيه منذ تأسيس روما (753ق.م) وانتهى فيه إلى زمن اسكندر سيفيروس. وأمضى في جمع مواد تاريخه حوالي عشر سنوات. واعتمد على جميع المؤرخين الذين سبقوه، وعلى السجلات والوثائق الرسمية التي كانت بين يديه خلال توليه مناصب إدارية، إلى جانب خبرته في ممارسة العمل العام. اكتسب تاريخه أهمية خاصة لأنه استمد معلوماته

من عدة مصادر معاصرة. وقد كتب باعتدال ملحوظ وبموضوعية يشهد له بها. وانتصر ليوليوس قيصر ضد بومبيوس في تاريخه. ولسوء الحظ، فقدت الأجزاء التي أرخ فيها لحكم الأباطرة منذ واسبسيانوس (69-79). وجاء تاريخه في ثمانين جزءاً، لم يبق منها سوى عشرين جزءاً كاملاً، وستة أجزاء ناقصة، ونتف متفرقة من البقية. ومما وقع في تاريخه موضع استغراب المؤرخين المحدثين، وصفه لليهود بالقسوة، وأنهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم ويشربون دماءهم ويتمنطقون بأمعائهم ويلتفون بجلودهم، وكانوا يقومون بشطر الكثيرين من رؤوسهم إلى أقدامهم.. ألخ؟

بلوتيانوس الحليف والعدو

لم تنس جوليا دومنا بأنها طعنت في كبريائها من ادعاءات بلوتيانوس، فأنى لشخصيتها العنيدة أن تخضع وتستسلم داخل الدائرة التي رسمها مستشار زوجها. فوقفت تبين لزوجها الأخطار المحدقة لما قد يحدث من ضياع ما بنياه نتيجة لهذه الإدعاءات، وخاصة بعد أن بدأ يظهر طموح بلوتيانوس إلى العلن، فطال الامبراطور نفسه بدعوى أن تأثير دومنا عليه كان لا حدود له، وأن إشاعة مظاهر تبجيل دومنا إلى حد التأليه كان يلاقي آذاناً صاغية لدى الرومان الذين لايعترفون بنظام الأمومية الشرقية، وسيطرة الأنثى كانت منفرة لنفوسهم.

كان تخطيط بلوتيانوس بالإنضمام للعائلة يتصف بالبراعة والحنكة، إذ بدأ مربياً لكراكلا وجيتا، ثم رئيساً للحرس الشخصي للامبراطور، ثم عضواً في مجلس الشيوخ، وقنصلاً لمرتين. ومع ذلك لم يدم زواج كراكلا وبلوتيلا أكثر من ثلاث سنوات (202-205)، إذ كانت أمزجتهما على طرفي نقيض، حيث كان الشقاق بينهما لهيباً دائم الاشتعال، حتى أنَ كراكلا رفض العيش معها في مسكن واحد، وكان يمارس إهاناته الدائمة عليها، إلى الحد الذي لم يكن يخفي اشمئزازه منها ومن والدها. وربما كان عقل جوليا البارد يغذي سلوك كراكلا المهين لبلوتيلا ووالدها. وهكذا بدأ كراكلا يقتنع بما تخطط له أمه. وأخيراً استطاعت جوليا من خلال صب سخطها على بلوتيانوس أن تجعل سيفيروس يرى الخطر بعيون مفتوحة حتى نطق بأنَ بلوتيانوس عدو للشعب. لكنَ مهارة بلوتيانوس لم تخنه حيث تمكن من إقناع سيده الذي سامحه واعترف أنه غير قادر على الإساءة إليه. لكن جوليا لم تستسلم، فبدأت بإثارة النمائم ضد بلوتيانوس الذي مجه الناس لتباهيه بالثراء الفاحش. فكان رد فعله على ذلك توجيه تهمة الخيانة الزوجية للامبراطورة، حيث لم يجد الامبراطور بداً من أخذ القضية إلى المحكمة الامبراطورية. ورغم إحضار العديد من الشهود الذين رتب لهم بلوتيانوس ليشهدوا إلى جانب ادعاءاته في المحكمة، فقد كانت نتيجة الحكم بطلان الدعوة لعدم ثبوت الأدلة. ومع تبرئة الزوجة من التهمة، إلا أنَ نتيجة المحاكمة قد أدت إلى انسحاب دومنا من المشهد مؤقتاً.

ظهرت جوليا دومنا من جديد إلى جانب زوجها بعد أن تم الصفح عنها. وتمكن سبتميوس جيتا شقيق سيفيروس وهو على فراش الموت من إقناع الامبراطور أنّ بلوتيانوس يدبر أمراً بالإنقلاب على الامبراطور. ولم يكن كراكلا وأمه غائبين عن ذلك. فاتفق كراكلا مع قائد المائة (السنتوريون) بأن دفعه لمقابلة الامبراطور، وأبلغه أنّ حاكم المعسكر يتآمر على حياته وولديه، وقدم رسالة يأمر بلوتيانوس فيها بتنفيذ خطة الاغتيال. أرسل الامبراطور باستدعاء بلوتيانوس. وعند حضور بلوتيانوس وجه إليه سيفيروس السؤال التالي دون أن يظهر عليه أي انفعال أو غضب: "من الذي أوحى إليك بخطة قتلي؟". وقبل أن يجيب بلوتيانوس انقض عليه كراكلا ونزع سيفه وأهانه، وسأله: "لما أتيت مدرعاً إن لم تكن لديك نوايا شريرة؟". وبسرعة خاطفة، يبدو أنها كانت معدة سلفاً، أصدر كراكلا أمره إلى جندي من حملة الفؤوس بذبح الحاكم وذلك قبل أن يتمكن سيفيروس من التدخل، ولم يعبر عن اعتراضه بأية إشارة ممانعة. ألقيت جثة القتيل إلى الشارع معروضة أمام الجمهور حتى أمر الامبراطور بدفنها بشكل لائق بعد ذلك. وقد تمت عملية القتل هذه في العشرين من حزيران عام 205م. وهكذا، تخلصت جوليا دومنا من كابوسها المرعب بأن أرسلت شبحه المخيف إلى العالم السفلي.

اعتقد الغالبية من المؤرخين القدماء أن أسس استمرار الارتباط بين الزوجين يقوم الآن على الإرادة المشتركة لتحقيق القوة والسلطان وصيانة استمرارهما في الأسرة. وقد عبّرَ بناء القبة السماوية (السيبيزونيوم) بأروقتها وأعمدتها الرائعة وفي انسجامها كسمفونية ساحرة الأنغام عن تماسكهما في سبيل هدف واحد، حيث لم تكن جوليا بعيدة عن قيام هذا الصرح العظيم. وتم تشييد التماثيل والنصب والمعابد في روما وفي مختلف الولايات لأفراد العائلة بحيث بدا يظهر نوع من تأليه الامبراطور وزوجته جوليا دومنا.



Head of Julia Domna
Munich ،Staatliche Antikensammlungen

صورة تمثال لرأس جوليا دومنا
التمثال معروض في المتحف الوطني في ميونخ

موت سيفيروس واعتلاء كراكلا

اصطحب سيفيروس زوجته وولديه برجلة إلى أفريقية في نهاية العام 203م ومعظم العام الذي يليه، وأعاد الزيارة إلى أفريقيا سنة 207 م، بحيث تمت مراسيم الاستقبال بما يليق، وحفرت ذكرى إحدى الزيارتين على الحجر في لامبيز تعبيراً عن الإخلاص والوفاء. وفي زيارته لمدينته لبدة أقام أبنية فخمة منها : البازيليك والفوروم وقاعة الثلاثين عموداً ومتحف الجوريانة والحمامات، وقوس النصر بواجهاته الأربعة الذي خلده مع ولديه القيصرين وزوجته الملقبة بالأوغسطا وأم القياصرة وأم المعسكرات ودومينا أي السيدة البالغة الجلال.

رغم أنّ سيفيروس لم يكن حمصي المولد إلا أنه كان حمصي الهوى، مع أن أصله كان فينيقياً من أحفاد الكنعانيين[1]. حيث قام برد الاعتبار لقبر هانيبعل وبناء تمثال له من المرمر كإهداء إلى أكبر رجل حرب في التاريخ القديم، وهذا ربما يعني أنه كان يعتبر نفسه تجسيداً لهذا القرطاجي العظيم الذي كان اسمه يبعث القشعريرة في أوصال الجمهورية الرومانية. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الرجل بسعيه الدؤوب للسلطة كان قليل الاهتمام بالروح الوطنية الرومانية[2]. وكان لزوجته أثر كبير في الدولة، حيث أقامت منتدى خاصاً على شكل معهد علم وأدب وفن وسياسة، وكانت هي نفسها تشرف على إدارة المنتدى الذي كان يؤمه أشراف الرومان وأعيان البلاد السورية، كما مر قبل قليل، وهذا ما سجله لها معظم المؤرخين القدماء الذين أكد معظمهم أنها لطفت كثيراً من أخلاق سيفيروس الصارمة، مما ساعد على إطالة مدته على العرش وإعطاء صورة مبجلة عن العرش الروماني في فترة بدأت فيها الأزمة الامبراطورية تطل برأسها. وبعد أن وطد سيفيروس سلطاته في الغرب وقضى على الفتن جميعها، غزا الشرق، فنجح في ضم ولاية بين النهرين (ميزوبوتاميا) إلى الامبراطورية.

رافقت جوليا دومنا زوجها الامبراطور ومستشاره القانوني بابنيان، الذي كان صديقه الشخصي ورئيس حرسه، في حملته العسكرية الأخيرة على شمال بريطانية سنة 208 م لقمع الاضطرابات التي اندلعت هناك، وأخذ معه ولديه كراكلا وجيتا بحجة إبعادهما عن الفساد في روما. وربما كانت مرافقة جوليا له في حملته هذه وبقاؤها معه حتى مات خير دليل على أن الإشاعات التي أطلقها بلوتيانوس كانت مغرضة ولم تستند إلى حقائق. وكانت صحة سيفيروس على غير ما يرام حيث كان يعاني من مضاعفات مرض النقرس. فمات في يورك أوائل سنة 211 م بشكل غير متوقع. وظهرت رؤيته

---

[1] – درج المؤرخون القدماء على تسمية سبتميوس سيفيروس بالأفريقي، وقليلاً ما أشير إليه أنه من أصل فينيقي. وقد أخذ بذلك معظم المؤرخين المحدثين. إلا أن لعرفان شهيد رأي آخر، انظر كتابه "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، الصفحة الأولى من الفصل الثالث، والصفحة الثالثة من الفصل الثامن (ص 195).

[2] – انظر المصدر السابق نفسه، ص 91، الملاحظة الهامشية رقم 3.

السياسية المستقبلية بين ولديه، ووريثي عرشه، بأن كانت آخر كلماته لهما، وهو على فراش الموت، كما روى ديو كاسيوس: "حافظا على السلام بينكما، واحكما سوياً كأخوين، اهتما بحالة الجند العامة، وانسيا الآخرين". وهذا يعني أنّ الأب كان يدرك سوء العلاقة بين الأخوين. فقد كان منح لقب أوغسطس إلى الأخوين بجعلهما متساويين في السلطة والحكم عملاً بعيداً عن الفطنة السياسية التي اتصف بها سيفيروس وجوليا كسياسيين بعيدي النظر، كونهما كانا يدركان مدى التناقض والعداء الشديدين الذين لا يمكن إصلاحهما بين الأخوين لكنها الرغبة الأبوية والأمومية العاطفية الأبدية التي من الصعب عليها الاعتراف بما ستؤول إليه الأمور في هذه الحالة.

لم يعد كراكلا يستطيع تحمل سلطة والده العجوز والعليل، إذ رُوي أنه دبر محاولة فاشلة للتخلص منه. وقد ترددت الحكايات عن محاولة اغتيال كراكلا لوالده خلال الحملة على كاليدونية، حيث سمعت صرخات استنكار من فرسان الحرس جعلت سيفيروس وهو على صهوة جواده يتقدم الجنود يلتفت نحو الخلف ليرى كراكلا شاهراً سيفه بيده، حيث توقف كراكلا وأعاد السيف إلى غمده. لم ينبس سيفيروس بشيء وتابع إلى المعسكر رابط الجأش. وهناك استدعى كراكلا وكشف له عن صدره قائلاً: " إضرب، وإن كنت لا تجرؤ فمر بابنيان بأن يضرب، ألست الامبراطور؟". لا أحد ممن شهد اللحظات الأخيرة من حياة سبتميوس يستطيع أن يجزم بأنّ موته كان طبيعياً. لكن ربما سيق الاتهام ضمناً بتسميم كراكلا للامبراطور ضمن سياق عصر اتسم بتضخيم الروايات عن نهايات غالبية الأباطرة الرومان بالسم أو بالسيف، سيان!

فرض النظام العسكري الذي أنشأه سيفيروس سياسات صارمة فيها شيء من الليونة عندما تقتضي الحاجة ذلك، إذ حافظ على تفوقه أمام جميع المتنافسين. وكان حضور الهيبة التي صنعها تجعل تأييد الفيالق الرومانية حاضرة أيضاً. لذلك، كان شعار سبتميوس سيفيروس للحفاظ على فيالقه متماسكه: "اهتم بالجنود، وانسى ما تبقى"، وكان هذا الشعار جزءاً من وصيته. فقد حافظ على تقديم الأعطيات للجند وقادتهم واهتم بكل ما كانوا يحتاجون إليه. واعتمد بشكل رئيسي على المشاة والفرسان المجندين الأشداء من مقاطعات آسية الرومانية ومن المشرق ودلماشية وإسبانية، ومن القبائل الجرمانية والفرانك والقوط والآلان والهون. بحيث قاد كل ذلك إلى سياسة الإندماج والمواطنة خاصة بعد إصدار مرسوم كراكلا الشهير في 212 م، فكان من نتيجة ذلك أن بدأ الاندماج القومي الروماني يفقد بريقه تدريجياً، ما أدى إلى وصول الكثير من الأباطرة من أصول ليست رومانية إلى عرش روما. من هنا نرى تحامل غالبية المؤرخين الذين سجلوا تاريخ الامبراطورية، اعتباراً من نهاية القرن الثاني وما بعد، على هؤلاء الأباطرة كونهم لم يكونوا من أصول ايطالية.

كانت إدارة سيفيروس عالية في مستوى أدائها، فحقق السلم العسكري والاجتماعي للدولة. ومات سنة 211 م بعد أن بلغ من العمر 65 عاماً سلخ فيها من الحكم 18 عاماً أمضاها في حرب وحشية متصلة وسريعة قضى فيها على كل منافسيه وغزا بارثية

الفارسية واستولى على طشقونة وضم بلاد ما بين النهرين وانتصر على الاسكتلنديين في شمال بريطانية في عدة مواقع، ولما جاءه الموت قال: " لقد نلت كل شئ، ولكن ما نلته كان لا قيمة له!".

بعد موته، تشارك الشقيقان كراكلا وجيتا الملك معاً لمدة عام تقريباً. وقد كان الغرض من منحهما لقب قيصر تفادياً لتغلب أحدهما على الآخر. غير أنّ المُلك صفته كالعادة: لئيمٌ غادر، غلٌ حاقد، لا يرعى ذمة ولا إخوة أو بنوة أو صداقة أو تحالف، أو حتى مصلحة مشتركة، أو مصلحة بلاد! إذ سرعان ما طغت نيران الحقد والغضب والضغينة على الشقيقين في نوبات متكررة، حاولت الأم إصلاح الأمر بينهما. فرتبت لانعقاد مؤتمر مصالحة واتفاق بينهما برعاية مستشارين كبار من أعضاء مجلس الشيوخ للإبقاء على وحدة الدولة. حيث أصرت الأم بعدم الموافقة على تقسيم الامبراطورية بينهما، وكان جوابها لهما: "إذا كنتما تستمتعان باقتسام الامبراطورية كلها بينكما، فهذا لا يكفي! إذ يجب عليكما أن تقتسما أمكما بينكما أيضاً. يالشقائي! ماذا علي أن افعل؟ أأقسم نفسي بينكما أنتما الإثنين؟ اقتلاني أيها القاسيان الجاحدان، قطعا جسدي، وليضع كل منكما قطعة منه في امبراطوريته بحيث تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لأكون ضمن هذه القسمة المشؤومة التي تبغيانها.."[1]. انتهت إلى حين فكرة الاقتسام، لكن الآتي سيكون أعظم. إذ لو أنّ دومنا تنبأت بالآتي المريع لكانت ربما وافقت على اقتسام الدولة بين الأخوين. ففي العام 212 استطاع كراكلا أن يقنع والدته أنه مستعد للمصالحة، ورجاها أن يتم الاجتماع في بيت العائلة وتحت رعايتها دون حضور أحد سواهم الثلاثة.

اختلفت بعض المصادر القديمة في أنّ كراكلا قد قرر الاحتفاظ بمتعة طعن أخيه حتى الموت، أو أنه كلف قتلة آخرين لطعنه؟ لكنّ جميع المصادر تتفق على أن جيتا مات بطعنات السيف وهو في حضن والدته حيث أغرقها بدمائه، فأغرقت روح دومنا إلى الأبد مع روح ابنها. ففي نوبة من الغضب العاتي أقدم كراكلا على قتل شقيقه جيتا وهو في حضن أمه. وقد لقب المؤرخون الرومان كراكلا بالمتوحش. ويقدم لنا ديو كاسيوس المؤرخ الذي عاصر الأحداث الرواية على النحو التالي: "خطط أنطونينس كراكلا لقتل أخيه جيتا في مناسبة احتفالات أحد الأعياد الرومانية، لكنه لم يستطع تنفيذ خطته لأن نياته الشريرة لقتل أخيه كانت معروفة. لذلك، فقد استمرت الخلافات والمؤامرات والمكائد بينهما. ولفصلهما عن بعضهما البعض وضعت الأم عدداً من الجنود والرياضيين الأشداء لحراسة جيتا بشكل دائم ليلاً ونهاراً، داخل القصر وخارجه. لكن كراكلا استطاع إقناع

[1] – أثيرت افتراءات من بعض الكتاب أن كراكلا لم يكن ابناً لجوليا دومنا، بل هو ابن سيفيروس من زوجته الأولى، وأنه تزوج (دومنا) امرأة أبيه بعد موت الأب، حسب رواية سبارتيان المثيرة للإشمئزاز. إذ لا يوجد أي أثر لسند تاريخي يثبت ذلك. كما أن المؤرخ ديو كاسيوس الذي عاصر تاريخ الفترة وقبلها لم يقل أي شيء عن ذلك أبداً. إضافة أن مثل هذه الإفتراءات لم تكن لتمر مرور الكرام على شقيقة دومنا جوليا ميسا أو على بناتها جوليا سوميا وجوليا ماميا، أو حتى على الروايات الشفهية، والإشاعات الرومانية، بما فيها ادعاءات بلوتيانوس. ولو كان ذلك حقيقياً لكان ديو كاسيوس ذكره في تاريخه الذي استمر في كتابته لما بعد 235 م.

والدته دومنا بترأس اجتماع عائلي يتم في مخدعها، دون حضور آخرين، بينه وبين جيتا لأنه يريد التوصل إلى اتفاق نهائي معه. ولثقة جيتا بأمه وافق على الاجتماع. وحال وصولهما مخدع أمهما فوجئ جيتا وأمه بدخول سريع لفصيل من الجند كان قد أعده كراكلا، فقاموا بطعن جيتا الذي اندفع إلى حضن والدته وطوق عنقها بذراعيه، وهو يستنجد بها قائلاً: من يدفع عني .. من ينجدني.. أنا مقتول"[1]. وقد ضمّنَ ديو أنَّ كراكلا درج على تدبير المكائد لجيتا حتى قبل سفر العائلة إلى بريطانية، حتى أنه حاول مرة الاعتداء الجسدي على والده الامبراطور أو ربما قتله، وكان بين الفينة والأخرى يهدد بقتل أخيه وآخرين معه.

لقد ظهر طاعون السلطان الروماني على أشده في حياة هذه العائلة. أخيراً، انتهى كراكلا- حسب الروايات إن كانت صادقة- لأن يكون قاتلاً لأبيه وأخيه! كان ذلك عقاباً مؤجلاً سيلاقيه القاتل بطعنات السكاكين الطويلة تقطع أوصال جسده! وقد وصف المؤرخون القدماء شخصية كراكلا بالمتوحشة.

عاش كراكلا بقية عمره في تبكيت ضمير مستمر على طعن أخيه جيتا حتى الموت وهو في حضن والدته. قاده تسنم المنصب الأول في الامبراطورية إلى الغطرسة والعجب بنفسه، فأصبح سريع الانفعال تنتابه نوبات من الغضب الشديد. كما بدا يظهر عليه فقدان الاهتمام بشؤون الدولة، بحيث كانت مهمات دومنا القيام بسد الفراغ الذي كان يتركه كراكلا.

لم ينته الأمر، بالنسبة للأم عند هذا الحد، إذ لم يُسمح لها أن تنعي ولدها المذبوح. فقد روى ديو كاسيوس الذي كان قريباً من كل ما حدث: " أجبرت الأم على إظهار الفرح والابتهاج كما لوكانت المناسبة مناسبة فرح حقيقي. وأعطيت الأوامر لمراقبة كلامها وإيماءاتها وتغير ملامحها بشكل دقيق كي تستمر في إظهار الابتهاج ولا تعطي أي انطباع بالحزن". على كل حال، كانت شخصية دومنا الفريدة، وليس غيرها، قادرةً على أن تمسك بدموعها وأثوابها ما زالت مبللة بالدماء الغالية. وربما أصاخت السمع لأوامر ابنها القاتل من أجله لا من أجلها ! غرق بيت الأسرة السورية الحاكمة على العرش الامبراطوري الروماني بالدماء، كما كان قد تنبأ وسيط الوحي بهذه النهاية المأساوية، حسبما ورد في رواية المؤرخ ديو كاسيوس: " سينتهي بيتهم غارقاً بشكل كامل بالدماء"[2].

صحيح أنَ جوليا دومنا ارتقت إلى أعلى مراتب الشرف الامبراطوري الروماني خلال فترة حكم كراكلا- الذي أصبح سيد روما المطلق بدون منازع- فكانت تحكم العرش الروماني بالنيابة عنه خلال غيباته الطويلة، لكن هذا لا يعني أنها كانت عديمة الإحساس أو أنها كانت قادرة على تقبل رشوتها بمثل هذا السلطان العظيم! ولسنا ندري إن كان وصف تورتون Turton صحيحاً، والذي كانت مجمل رواياته أميل إلى الخيال منها إلى الواقعية، حيث وضع صورة دومنا بشكل جيد ومرة واحدة، معلقاً: " كانت جوليا دومنا

---

[1] – ديو كاسيوس: "تاريخ روما"، (History of Rome ،78.2, war, Dio Cassius)

[2] – المصدر السابق نفسه (HR ،79, Dio)

امرأة عظيمة تتمتع بقدرة عقلية هائلة ترفض أن تجعل من مشاعرها الشخصية سبباً لإفساد قراراتها السياسية". حيث وقفت بكل حزم ممكن ضد تقسيم الامبراطورية، وكرست نفسها لتقديم أفضل الخدمات وأنسبها للدولة وللمجتمع الامبراطوري الروماني. ومن ذلك، استطاعت جوليا دومنا إخفاء مشاعرها المريرة وآلامها، فاستمرت بمساعدة ابنها القيصر كراكلا بالإشراف على الإدارة الامبراطورية، فكان اسمها يقرن إلى جانب اسم الامبراطور في المراسلات إلى مجلس الشيوخ وعلى المستندات والوثائق الرسمية. وكانت تقوم بالنيابة عنه في كل شيء بكل فطنة وحسن إدراك للأمور وذلك خلال غيابه خارج روما على رأس الجيوش. وهكذا وجد كراكلا في أمه المستشار والحامي الأول الذي لن يخون. ومرة لامته أمه على تبذيره وإسرافه المفرط على الجيوش والأبنية الفاخرة.. إلخ، معترفة له بدرجة الإرهاق التي أُوصلت إليه ميزانية الدولة، فأجابها ويده على مقبض السيف: "لا تهتمي لذلك ياأماه، فطالما نملك هذا لن نحتاج إلى شيء آخر". بدون شك؛ هذه ليست إجابة رجل دولة!

وليس ثمة ما يحملنا على الافتراض أنّ سيفيروس الأب الذي تربى في ظلٍ من ثقافة الحقوق والبلاغة في صدر شبابه، وجوليا دومنا الأم بثقافتها الرفيعة، يمكن أنْ يضطربا في تهذيب وتربية ولدين كانا يخططان لهما أن يرثا عرش الامبراطورية في مستقبل الأيام. لقد كلفوا نخبة من المعلمين من أمثال أنتيباتر الهيرابوليسي (من منبج)، وهو مؤلف كتاب "تاريخ سبتميوس سيفيروس" المفقود، للقيام بتثقيف الأخوين. كما أنّ مرافقة كراكلا وجيتا لوالديهما في أسفارهما وحروبهما، لا شك، أنها فتحت، أو وجب أن تفتح، أمامهما آفاق واسعة من المعرفة والخبرة والحنكة في التاريخ والإدارة إلى جانب فنون القتال والعلوم العسكرية، خصوصاً في السنوات الأولى للحكم ولفترة طويلة نسبياً، حين أظهرت العائلة السيفيرية تماسكاً مشهوداً.

كما مر، حاول كراكلا أن يبرأ نفسه من جريمة قتل أخيه، فجرت محاولات تأليهه ربما كنوع من التعويض عما اقترفت يداه، وذلك بعد أن كان قد أمر بحذف اسم جيتا وصوره من جميع الأماكن الحكومية العامة، وكان يردد جملة شيشرون الخطيب والشاعر اللاتيني المشهور: " ليكن إلهاً بين الأموات أفضل من كونه إنساناً بين الأحياء".

لقي كراكلا نفس الجزاء الذي لاقاه جيتا، بسكاكين حرسه الامبراطوري الطويلة التي مزقته شر ممزق، والذي قاده رئيس حرسه مكريانوس النكوميدي وذلك في عام 217، فمات وماتت جوليا بعده حزناً على كل ما جرى. وقد صور المؤرخون مسلك الرجل بالمشين، إلا أنّ اجماعهم هذا لم يغبطه حقه فيما أتاه من حسنات، خصوصاً في الفترة الأولى من حكمه:

أ- إصدار مرسوم كراكلا بمنح حق المواطنة لجميع رعايا الامبراطورية الأحرار، والذي أدى إلى آثار اقتصادية وسياسية وعسكرية إيجابية هامة على الامبراطورية. ولو أن كثيراً من المؤرخين عزوا إصدار المرسوم إلى والدته، حيث قال بعضهم: لم يكن هذا

الجندي العنيف على مستوى إنجاز مهم كهذا! لكنّ آخرين يقولون أنّ كراكلا كان في سنته الأولى على وفاق مع ما تطلبته مهمات الدولة من تشريعات ومراسيم!

2- أتم، حسب رواية معاصره المؤرخ ديو كاسيوس، إنشاء الرواق والساحة أمام هيكل المشتري في بعلبك.

3- أقدم على إصلاح في نظام الجيش يتناسب مع شروط الحرب في المشرق، حيث كان وراء تشكيلات الفرقة المقدونية المؤلفة من ستة عشر ألفاً، والذين تدربوا على مشية الإوزة. وقد تم استخدام هذا النظام لاحقاً.

وأخيراً، جاء وعد كراكلا، فقتل في عام 217 م، وذلك بعد أن دخل بجيشه طيسفون العاصمة البرثية وعرضها للسلب والنهب. فارتحل بعدها إلى مدينة حران أعالي بين النهرين ومعه كوكبة من الفرسان. وفي الطريق انتحى جانباً وترجل عن صهوة جواده لقضاء حاجته، فجرى إليه مارسيال أحد قواد المائة، الذي كان كراكلا قد قتل أخاه وأهانه إهانة بالغة، وطعنه بخنجر بين كتفيه من الخلف وهو يقضي حاجته في الخلاء، فوقع ميتاً على الفور. بذلك نجحت خطة ماكريانوس بالقضاء على الامبراطور. لكن سرعان ما ارتمى ماكريانوس فوق جثة المغدور وهو ينتحب، وقام بإحراق الجثة بكل احترام ووقار وأرسل رمادها إلى جوليا دومنا التي كانت في أنطاكية. وهكذا استطاع ماكريانوس إلى حين تبرأة نفسه من المؤامرة.

هتف مجلس الشيوخ لمكريانوس، هذا المجلس الذي شتم مكريانوس بأقذع الأوصاف في الماضي القريب. وكان من الحكمة لمكريانوس أن يعامل دومنا باحترام إذ لم يكن من المناسب إظهار خصومته للعائلة في هذا الوقت، فترك لها حرسها الامبراطوري.

ادركت جوليا دومنا أنّ حظها الأخير ينكشف أمامها كما الشمس الساطعة، فأحست بأنها أضاعت كل شيء؛ الزوج والولدين، العائلة، وفوق ذلك العرش. شاركت دومنا زوجها وولديها ببناء وصناعة كل هذا المجد الضائع الآن. وهي ترى الاضطراب والعنف القادم الآن، وربما الموت على يد القيصر الجديد مكريانوس Macrianus. فأُرسلت إلى أنطاكية لتعيش في عزلة مع أختها ميسا، بعد أن أبلغ الجواسيس سيدهم الجديد بنية دومنا الإنقلابية. وكانت حينذاك في الخمسين من عمرها. وقد ادعت بعض المصادر القديمة أنّ فقدانها ممارسة السلطة والتأثير وفقدان كراكلا ليس كابن، بل رأت في موته وفقدان السلطة تحطيماً لآمالها الكبيرة في استمرار السلام والاستقرار والأمن في الامبراطورية، وتأمين الإرث الامبراطوري للبقاء في العائلة. وإن دل هذا فإنما يدل على رؤيتها الشخصية لبناء الدولة الامبراطورية العظيمة، والتي أثرت عليها تأثيراً عظيماً لأكثر من عشرين عاماً.

انتقلت جوليا دومنا للعيش قرب أنطاكية بعد مقتل كراكلا. وروى ديو كاسيوس عن هذه الفترة، قائلاً: "استقرت جوليا بالقرب من أنطاكية. وخططت للقيام بمحاولة انقلاب على مكريانوس من أجل أن تصبح هي نفسها امبراطورة على العرش، لكن شعورها بالمرض منعها من تنفيذ المحاولة. إذ أنّ السرطان الصدري الذي أصابها، وآساها على النهاية العنيفة لولديها، وإضاعة سلطان الحكم، ربما جعلتها جميع هذه الأسباب تقرر

صرف النظر عن متابعة خططها وذلك بوضع حد لحياتها بتجويع نفسها حتى الموت بدلاً من السقوط لما أصبحت تراه قادماً".

أصبحت هذه المرأة العظيمة ضحية مرارتها وفشل مشروعها الشخصي والعائلي. فابتليت بمرض السرطان الصدري، وأصرت على رفض تناول الطعام حتى قضت سنة 217. وليس من المعروف إن كان امتناعها عن الطعام بسبب المرض فقط، أم لرغبة داخلية عارمة في الرحيل، أم للسببين معاً؟

وصف ديو قائلاً: " لا يمكن لأحد أن يرى، في ضوء ما كانت عليه جوليا دومنا، إنّ أي ممن أحرزوا سلطة عظيمة إلا أن يكون سعيداً، شرط أن تكون هذه السعادة حقيقية وكاملة وليست زائفة". هكذا كان قدر دومنا. تم نقل جثمانها إلى روما ووضع في مدفن غايوس ولوكيوس، ثم نقلت عظامها وعظام أختها ميسا وعظام جيتا إلى فناء مدفن الأنطونيين[1].

لخص معاصرها ديو كاسيوس حياتها بالوصف التالي: ".. ارتقت هذه المرأة من بين الجموع إلى أعلى المراتب، وعاشت حكم زوجها غير سعيدة بسبب الإشاعات التي أطلقها بلوتيانوس ضدها، وهي التي احتضنت ولدها الأصغر وهو يذبح في أحضانها، وهي التي كانت تحمل امتعاضاً دائماً من ولدها الأكبر خلال حياته، والذي بالنهاية استحق نفس الجزاء العنيف لاغتيال أخيه، هذه المرأة سقطت من أعلى عليائها فماتت"[2].

اعتلاء إلاغابالوس (إلاغابال؛ من الجبل) عرش روما

اعتلى مكريانوس العرش الروماني لأربعة عشر شهراً فقط، فأبعد جوليا ميسا أخت جوليا دومنا وابنتيها سوميا وماميا عن روما، فرجعن إلى حمص موطنهن الأصلي. ولم يكن ماكريانوس على قوة كافية لتوطيد نفسه وابنه ديادوميتان كوريث على العرش طالما بقي سوريات لم يسلمن بهزيمتهن بعد.

فقد تربت هؤلاء النسوة في بيت السلطان والمُلك، لذلك كنّ جميعهنّ يتمتعنَ بقسط عظيم من الذكاء والحصافة والخبرة والطموح والغاية والتصميم إلى جانب امتلاكهن لثروة عظيمة لم يبخلن بها من أجل طموحهنّ، بل بذلن الغالي والنفيس في سبيل المجد والسؤدد والانتقام.

ترملت سوميا وماميا كل عن ولد واحد؛ فكان أفينوس باسيانوس بن سوميا، وأسكندر بن ماميا. في حمص، قبضت الخالة ميسا– التي كانت قد تمكنت خلال حياتها من المحافظة على ثروة المعبد في حمص كونها كانت وأختها الصغرى جوليا دومنا ابنتي كاهن المعبد باسيانوس، واستمرارهما في رعاية السدانة عليه – على مفاتيح هيكل إله – الشمس بحمص، وأقامت باسيانوس، الذي كان قد بلغ من العمر حينها أربعة عشر عاماً، كاهناً للهيكل ووارثاً لجده باسيانوس. أدركت الامبراطورات السيفيرانيات وهنّ في حمص

---

[1] – ديو كاسيوس: "تاريخ روما الموسع"، (Dio, HR , LXXIX. 24 .)

[2] – ديو كاسيوس في المصدر السابق.

أن المال الوفير يغطي كل عيب ويحمل كل نجاح، ويجعل البعيد قريباً والمستحيل ممكناً إن أحسن الإعداد. فكان تخطيط ميسا إيثار التاج على الثروة، إذ قام فريق باسيانوس بالتسلل إلى معسكر الفيلق الثالث (غاليكا) بالقرب من حمص بعد أن تركهم الجنود المكلفين بالحراسة يمرون دونما اعتراض، فقامت ميسا تخطب بالجند الذين التفوا حولها وأُخذوا بفصاحة هذه المرأة الجريئة. كان التأثير على الجند عارماً، خاصة بعد أن بدأ توزيع أكياس الذهب عليهم، وتم أخذ قسم الولاء منهم. وعند الصباح نادى الجند بباسيانوس ملكاً عليهم. وكان ذلك في 16 أيار 218 م. والذي لقب نفسه مرقس أوريليوس أنطونيوس إلاغابالوس.

حاول أولبيوس غوليانوس أحد نواب مكريانوس وقائد الحامية الرومانية المرابطة بجوار حمص أن يحبط الانقلاب، غير أنه لم يفلح إلى ذلك سبيلاً، بل على العكس انضم جنود الحامية إلى معسكر باسيانوس عندما رأوا أكياس الذهب مرفوعة بأيدي جنود المعسكر. وقد التقى جيشا إلاغابالوس ومكريانوس على تخوم سورية الشمالية. وعندما دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين بدا النصر قريباً لمكريانوس، عندها قفزت ميسا من عربتها وبسرعة المقاتلين الاشاوس تقدمت الصفوف مهيبة بالهاربين من معسكرها بالثبات، حيث بدأت تتغير نتائج المعركة، فانهزم مكريانوس وقتل. بذلك أصبح كاهن إله الشمس الحمصي امبراطوراً على روما في حزيران 218 م. كانت ميسا تدرك مقدماً أنّ إلاغابالوس لن يكون على مستوى مسؤلية المنصب، إلا أنها كانت تدرك أنه أقل عناداً من كراكلا، وهي لذلك ستكون مدبرة أعماله اليومية بحيث لن يثنيها ضعف أو ملل.

لم يطل الأمد لإلاغابالوس Elagabalus، وقد كان في الخامسة عشر من عمره، إذ لم يحسن التصرف بإدارة شؤون العرش الروماني. ورغم محاولات جدته ميسا بجعله يتصرف كامبراطور روماني إلا أنّ جميع محاولاتها باءت بالفشل. أدركت ميسا بمعرفتها لخفايا المطبخ السياسي الروماني أن إلاغابالوس لن يعمر طويلاً على العرش نتيجة لتصرفاته الغريبة والشائنة، فأشارت عليه هي وخالته ماميا أن يسمي اسكندر قيصراً، وأن يتبناه ليعاونه في تسيير أمور الدولة. وبعد مدة حاول إلاغابالوس التخلص من ابن خالته الذي اتفقت الأراء على رجاحة عقله، إلا أنه لم يفلح في ذلك. ونتيجة لتصرفات الامبراطورغير المسؤولة، تهافت الجند إلى القصر الملكي، فانقسموا إلى فريقين متحازبين انتصر فريق اسكندر، وقتل إلاغابالوس، وذلك في آذار من 222. أعلن الجيش بعدها اسكندر امبراطوراً باسم مرقس أوريليوس اسكندر سيفيروس.

وقد أخذ المؤرخون المحدثون بوجهة نظر تتراوح بين مؤامرة اغتيال إلاغابالوس على يد الحرس البريتوري كان مفاجئة عنيفة لجدته ميسا، وقد حاولت منعها، إلى أنها من كان وراء المؤامرة للتخلص منه ومن أمه سوميا التي هي أختها .وربما تأتي حقيقة اغتيال إلاغابالوس بين وجهتي النظر هاتين. وربما تكون ميسا قد أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ إلاغابالوس غير قابل للاستمرار والحياة على العرش، لكنها كانت مهتمة لإبعاد أختها سوميا عن هذه النهاية الدرامية. وقد أدلى المؤرخ المعاصر ديوكاسيوس بدلوه بوضع اللوم

على أختها ماميا بأنها كانت وراء التحريض الذي تم في مخيم الحرس الامبراطوري، بالادعاء أنها كانت عدائية بشكل صريح لأختها سوميا. وبدلاً من أن تهرب سوميا، حاولت حماية ابنها بجسمها من طعنات الحرس البريتوري، فماتت معه. وتم سحل جثتيهما في الشوارع.

تسنم اسكندر سيفيروس سدة العرش في روما

ولد اسكندر سيفيروس في عرقا بلبنان سنة 205 م من أبوين فاضلين هما: كاسيوس ماركيانوس من عرقا وماميا باسيانوس بنت ميسا أخت جوليا دومنا التي كانت معروفة بطهارتها ونقائها. قامت ماميا بالإشراف على تهذيب ولدها وتثقيفه ثقافة عالية، فأعدته لمهام ملكية عليا، كما لو كانت تقرأ المستقبل. كانت ماميا تشبه إلى حد ما خالتها دومنا، حيث كانت ميالة إلى الفلسفة والاهتمام بشؤون الدولة أكثر بكثير مما كانت عليه شقيقتها سوميا. وكان في نية ماميا أن تجعل من اسكندر سيفيروس ملكاً فيلسوفاً كما أراد أفلاطون للملك أن يكون (الملك الفيلسوف). فدُرب اسكندر كي يظهر بشخصية مبجلة أمام أركان الدولة والمجتمع. ومقابل رشا مالية كبيرة قدمت من جدته وأمه[1] أقر مجلس الشيوخ بالموافقة على اسكندر امبراطوراً.

ونظراً لأنَ القانون الروماني حينها كان يمنع دخول النساء إلى مجلس الشيوخ، شكلت الجدة والأم فريقاً استشارياً خاصاً من بعض مجلس الشيوخ، حيث تكون مجلس الوصاية هذا من ستة عشر شيخاً دون أي تفويض رسمي له من مجلس الشيوخ، والذي كان يقدم استشاراته ليس فقط خلال أعمال انعقاد مجلس الشيوخ وإنما خلال عطلاته أيضاً أو عند عدم إمكانية دعوته للانعقاد. وذلك من أجل القبض بشكل كامل على مجريات الأمور في الدولة. ولم يظهر على هاتين السيدتين انزعاجهما من ذلك، بل على العكس أظهرتا حماساً لتشجيع مجلس الشيوخ للتعاطي والمشاركة في أعمال الدولة. حيث كانت سلطة مجلس الشيوخ الحقيقية غائبة بشكل شبه كامل إلا ما كان يخدم الأباطرة أنفسهم. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على احترام لائق لمجلس الشيوخ بعد فترة طويلة من الممارسات المتعسفة ضد المجلس من قبل الأباطرة السابقين. فكان ذلك الاحترام جديداً لحكم جديد. مع كل هذا احتفظت ميسا وماميا باليد العليا على الحكومة والإدارة والسياسات العامة والجيش، إضافة إلى أنهما حافظتا على إبعاد الامبراطور بكل صرامة عن الدنس الذي عاش فيه إلاغابالوس. والمفارقة، كما روى لامبريد الذي ألف كتاب "حياة اسكندر سيفيروس" كسيرة قديس حقيقي، امتدح اسكندر لأنه رفض بتواضع ولباقة مثيرة للإعجاب إلحاح مجلس الشيوخ لإضافة اسم أنطونين إلى اسمه. وأشار لامبريد إلى رفض القيصر لأي شكل من أشكال التملق أو الغرور: " إذا رأى

---

[1] – اختلف المؤرخون في هذه الرواية، فمنهم من روى أن موافقة مجلس الشيوخ الروماني كانت حقيقية، وقليل منهم صدقوا على هذه الرواية.

من يحني راسه أمامه أو يحاول تملقه، كان يطرده من مجلسه إذا كانت صفة هذا الجليس تسمح له بذلك، ويضحكة ذات معنى احتجاجي إن كانت صفة الجليس لا تسمح بطرده".

كان اسكندر سيفيروس ذكياً لين العريكة على شيء من الحزم مع طلاقة في الوجه والمحيا، وهذا ما مكن جدته ميسا التي كانت لها اليد الطولى، وأمه ماميا من التخطيط بهدوء وروية لإدارة شؤون البلاد، كونهما أميرات سابقات تمتعن بخبرة المطبخ الامبراطوري السديدة. فحالما تسنم اسكندر العرش بدأ بوضع الخطط لإصلاح ما أفسده أسلافه من الفساد والخلل، فانتخب، بمشورة جدته وأمه، ستة عشر خبيراً من أعضاء مجلس الندوة صهرتهم خبرة الدهر وشهد لهم بالفضل في حكمتهم وحصافتهم، فألف منهم ديوان مشورته. ولم يقرب من ديوانه أصحاب المسرة واللاعبين، بحيث وضعت ترتيبات صارمة على باب القصركي لا يسمح بدخول أي شخص مشبوه بالانحلال الأخلاقي. وقد نصحته جدته وأمه أن يستقدم أولبيان الفقيه الحمصي الذي كان قد نفاه إلاغابالوس، ويعينه رئيساً للحرس الامبراطوري، ومستشاراً، فكان خير عون له في إدارة شؤون الدولة وحماية العرش. كما أقام ما يشبه المجلس البلدي للعاصمة روما مؤلف من أربعة عشر عضواً، مهمته معاونة والي روما في معالجة قضايا المواطنين في أحياء المدينة الأربعة عشر، ومنعه من الاستبداد برأيه. كما أنشأ ندوة نسائية ترأستها جدته ميسا ثم أمه ماميا بعد موت الأولى، ومنحها سلطات واسعة للارتقاء بالمرأة وتهذيبها وحثها على المشاركة بالهيئة الاجتماعية. حارب سيفيروس الثاني الخلاعة والتبذير والمرابين والمتملقين. واعتنى شخصياً بأمر جنوده، مما أسهم بحبهم له. وعلى العموم، فقد كال له المديح كتاب مسيحيون ووثنيون على السواء.

ماتت ميسا وهي في حوالي الستين من عمرها أو أكثر قليلاً، وذلك بعد تولي اسكندر بأربع سنوات تقريباً (226 م)، فأقيمت لها جنازة امبراطورية، وتم تكريمها في مصاف الخالدين. وربما كانت من بين السوريات اللاتي حكمن في روما الأكثر صبراً وأناة ومهارة وصلابة. كان موتها خسارة عظيمة للعائلة، فقد كانت هذه السيدة العظيمة تتمتع بصفات عظيمة من الرؤية والروية والتخطيط والهدوء والديناميكية في الحركة والعمل. ويعتقد بعض المؤرخين القدماء، الذين يعرفون سيرتها، من أنها لو كانت ما تزال على قيد الحياة عندما عصفت الأزمة باسكندر سيفيروس سنة 235 لكانت بكل تأكيد تجنبت حدوثها.

لم يبق من أفرادالعائلة الآن إلا اسكندر وأمه ماميا التي كانت من أكثر نساء العائلة ثراءً ومقدرة، لكنها لم تكن تملك الإرادة الحديدية والصرامة التي كانت تملكها أمها ميسا في الإعداد واتخاذ القرار والتنفيذ. إذ لم يكن حضورها يحظى بنفس القدر من الاحترام والتقدير والأهمية التي كانت تحظى به أمها.

تركت الآن ماميا، وهي مفعمة بالأمجاد، وحيدة مع ابنها بعد موت أمها ميسا. فهي الآن الأوغسطا، وأم العالم لكل النوع الإنساني، وأم الجنود، وأم المعسكرات، وسميت إحدى كتائب فرسان الحرس الامبراطوري باسمها. لذلك شعر الجميع بأن أوقات السلم الحلوة والجميلة قد عادت إلى ربوع روما. ولم يكن يتم أي شيء دون موافقة مجلس

الشيوخ وتوجيهاته الرسمية، بحيث شعر المجلس بالاحترام والتقدير بعد طول تعسف واستهزاء بما كان يمثل. كما عامل اسكندر الحرس الامبراطوري بكل احترام وتهذيب، وأمن متطلبات الفيالق والجند بشكل دائم. وبالإجمال اتفقت جميع قوى الدولة ومؤسساتها في جميع أنحاء الامبراطورية على الرضا والموافقة.

ورغم أنّ ماميا تزوجت للمرة الثانية بعد ترملها من مواطنها السوري ماركيانوس، فقد بقيت محافظة على مكانتها الامبراطورية، وقلبها وعقلها يعودان إلى ابنها الامبراطور من زواجها الأول.

أظهرت ماميا وابنها الامبراطور فهماً وتعاطفاً مع المسيحية، بحيث كان اسكندر يمضي بعضاً من وقته بحالة من الورع الغامض متأملاً صحبة الفلاسفة والأنبياء والأديان، يبحث عن القوة المطلقة للخلق والخالق. وكان يردد حكمة فلسفية لها أريج عطر إنساني يرتقي إلى تعاليم السماء: ".. لا تصنع للأخرين مالا تريد أن يصنعه الأخرون لك". بذلك وجد المسيحيون أنفسهم على النقيض مما عانوه سابقاً من عسف واضطهاد شديدين. وقد استمعت أمه ماميا إلى اللاهوتي الشهير أوريجين[1] بعدما استدعته إليها وهي في أنطاكية سنة 232 م، فاعتقد الناس أنها اهتدت إلى الديانة الجديدة. وقد جرى تناقض وجدل بين الكثير من المؤرخين في مسألة إيمانها بالمسيحية؛ فمن قائل أنها اهتدت فعلاً، ومن قائل آخر بعكس ذلك، وكل فريق يجادل بما يقدم من الأدلة والبراهين. والذين يدعون بعدم اعتناق الامبراطور وأمه للمسيحية يدللون بأن سياسة التسامح الامبراطوري التي اتبعت حينها تجاه المسيحيين لا تعني بالضرورة[2] أنهما أمنا بالمسيحية. بينما نرى على الجانب الآخر إضفاء مديح لا ينقطع من الكتاب والمؤلفين المسيحيين الذين دافعوا بالقول أن الاضطهاد ضد المسيحيين لم ينقطع فحسب، بل صار ينظر إليهم باحترام وتقدير، إذ يسوقون زيارة البابا يوليوس أفريكانوس في سفارته من القدس إلى روما، وقد كلف ببناء مكتبة كبرى فيها، وأهدى الامبراطور موسوعة " المزركشات "، وهي مجموعة مؤلفة من أربع وعشرين كتاباً.

في 231 م جهز الساسانيون الفرس، الذين كانوا قد وصلوا إلى سدة الحكم في بلاد فارس بعد انتصارهم على البرثيين سنة 226 م، حملة لاستعادة بلاد الرافدين وبعضاً من آسية، فرد اسكندر بتجهيز حملة للدفاع عن حدود الامبراطورية الشرقية، ورافقته أمه في حملته، فاسترد المناطق التي كان قد احتلها الفرس.

---

[1] – ولد أوريجين (أوريجينوس) بالأسكندرية (185– 254)، وهو معلم ولاهوتي مسيحي. وكان عمله الأكثر شهرة هو "هكسيا Hexia"، وهي إضافة إلى العهد القديم من ستة أو سبعة نسخ متوازية. وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية بشكل جوهري لاهوتيته المؤسسة على الأفلاطونية الحديثة (الجديدة)، بالرغم من إسهامه الكبير في إغناء التراث المسيحي القديم. هرب أوريجين من الاسكندرية إلى قيصرية فلسطين على أثر المذابح التي ارتكبها كراكلا. ثم عاد إلى الاسكندرية سنة 230 بناء على طلب الكنسية.

[2] – رفض الامبراطور منح أصحاب حانات قطعة أرض عامة في المدينة كان يرغب بها المسيحيون، متعللاً بأن قال: " إن مكان إقامة للصلوات خير من إقامة مكان للرذيلة".

في العام 235 م ثارت القبائل الجرمانية التي لم تكن تهدأ ثوراتها حتى تشتعل من جديد، وقطعوا الطرق المؤدية إلى بلاد الغال (فرنسة الحالية)، فتوجه بجيشه مع أمه لقمع التمرد، فخيم على الراين. ونجح الهجوم الروماني المعاكس على الألمان، إلا أنّ هذا الهجوم لم يستمر باندفاعه وراء القبائل الألمانية لتحطيم قواتها، كما أراد له قادة قواته. بل على العكس اتجه اسكندر إلى التفاوض مع قيادات المتمردين وتقديم تسهيلات وأعطيات مالية وأراضٍ لإغرائهم بوضع السلاح وعقد معاهدة سلام معهم[1]. مما دفع أحد قادته الكبار، مكسيموس التراقي، الذي كان يتحين الفرص للانقلاب على القيصر وتنصيب نفسه مكانه، إلى إثارة الجنود ضده بحجة أنّ الأولى بهذا المال وهذه الأعطيات هم الجند الرومان وليس الأعداء، فتأثر الجند بادعاءاته وتنادوا به ملكاً عليهم بدلاً من اسكندر. وقد لقيت ادعاءات مكسيموس صدى بالغاً لدى الجند لامتعاضهم سابقاً من تخفيض الموازنة المالية السنوية للحرس الامبراطوري الذي كان يرأسه الفقيه القانوني ألبيان، والذي كان بنفس الوقت المستشار الأول للقيصر. كما أنّ شائعات سابقة كانت قيد التداول بضعف الامبراطور وأنّ أمه من يدير شؤون الدولة. لذلك كله بدأت مشاعر عدم الرضا عند القوات تظهر لتلتقي حول القائد التراقي مكسيموس. ويروي ديو كاسيوس أن الفوضى نشأت في أعقاب حفلة شراب (ربما كانت معدة)، مما جعل التحريض يأخذ مساراً مباشراً، حيث لاحق الجند الثائرون ألبيان الذي احتمى بخيمة الامبراطور، على خلفية تقتيره الشديد عليهم. ولما اقتربوا من الخيمة أشارت ماميا على ابنها الامبراطور أن يأمر الحرس الأمبراطوري بإلقاء القبض عليهم أو منعهم من الدخول، غير أنه لم يستجب لنصيحة والدته لاعتقاده بقدرته على إقناعهم بوجهة نظره، فقاموا بقتله وأمه في الحال. وكان ذلك في آذار من عام 235 م، حينما كان عمر اسكندر سيفيروس (سيفيروس الثاني) 30عاماً. وقد شهد له معاصروه بأنه كان أفضل من تسنم عرش روما من عهد أوريليوس حتى دقلتيانوس (180–284).

وبذلك انتهت فترة الأسرة السورية التي حكمت روما لاثنين وأربعين عاماً (193–235)، بالرغم من الحروب والثورات والمؤامرات التي تعرضت لها. وهذا ربما يعود بالدرجة الأولى إلى الجهد الاستثنائي الذي كشفت عنه عبقرية سبتميوس سيفيروس السياسية وموهبته العسكرية، إذ جعل من تزاوج السببين أداة من أدوات تثبيت النظام في الدولة. إلا أنه يجب الإشارة إلى أن انتهاء حكم الأسرة السفيرانية السورية قد بدأ تسارعاً عملياً بظهور الأزمة الامبراطورية، أزمة القرن الثالث الروماني، وظهور حكم الأباطرة الثلاثين الطغاة حتى مجيء الامبراطور ديوقلتيانوس الذي أعاد للامبراطورية ألقها من

[1] – يدعي بعض المؤرخين أن العروض التي قدمها اسكندر للمتمردين رفضت بطريقة مهينة، مما جعل الجيش يحس بالإهانة. من هنا بدأ التمرد الذي قاده التراقي (تراقية أو Thrace بلاد تقع الآن بين تركية وبلغارية واليونان) مكسيموس ثراكس باقتحام خيمة القيصر وقتله.

جديد، ولكن إلى حين. وقد سجل معظم المؤرخين أنّ نهايات النصف الأول من القرن الثالث الميلادي هي بداية الإنحدار والسقوط الروماني[1].

غربت شمس الأسرة السيفيرية السورية بعد أن أشرقت على العرش الروماني وعلى الامبراطورية الرومانية لمدة اثنين وأربعين عاماً استطاعت فيها المحافظة على وحدة الدولة وتأمين استقرارها والمساهمة في وضع أسس تشريعاتها وقوانينها.

في العرض والتحليل

تمتعت الأميرات السوريات سليلات بيت كاهن إله الشمس الحمصي (الإله بعل)، بيقظة دائمة وتصميم واستبسال عنيدين لحكم الامبراطورية الرومانية، وعلى الخصوص، اعتباراً من تاريخ ظهور فقدان كراكلا الرغبة في إدارة شؤون الدولة سنة 213 م، وذلك بعد مقتل أخيه جيتا، وحتى مقتل اسكندر سيفيروس سنة 235 م. إذ يمكن اعتبار فترة هذه السنوات فترة استراحة غير عادية، إلى حد ما، في التاريخ الروماني، كما يمكن القول أن هذه الفترة لم تكن غير سعيدة في حياة الامبراطورية الرومانية. كما يمكن الادعاء أن الأسرة السيفيرية السورية غير مسئولة عن إحياء وانبعاث القيادة الإيرانية الجديدة بتأسيس الأسرة الساسانية سنة 226 م على أنقاض الأسرة البرثية الإيرانية، وأنها ليست مسئولة عن الحراك والهجرة الجماعية الشعبية من أواسط آسية متجهة نحو الغرب، حيث بدأت القبائل الألمانية اندفاعها إلى مناطق الدانوب والراين.

لقد أظهرت سير التاريخ أن الرجال المميزين في المؤهلات والخبرة والتجارب السياسية والعسكرية هزموا بوجود المشكلات المتراكمة والمتداخلة. ومن وجهة نظر مخالفة، قد يقول قائل ممن يؤمنون بنظرية التعليل التاريخي في التحدي والرد: في مثل هذا التشابك يظهر الأبطال وتصعد الأمم!

وأخيراً نقر بأن الجوليات الحمصيات السوريات قد تركن ميراثاً عظيماً على أورية، خاصة في مجال الفقه القانوني التشريعي الذي أسس وأغنى القانون الروماني الكلاسيكي في العصر الذهبي للفقيهين السوريين أبنيان وألبيان.

الامبراطورة السورية جوليا دومنا على عرش روما، السورية الحمصية، ابنة كاهن إله الشمس الحمصي (بعل) باسيانوس، زوجة الامبراطور سبتميوس سيفيروس، والدة القيصرين كراكلا وجيتا، أخت ميسا جدة الامبراطورين إلاغابالوس وإسكندر سيفيروس، وخالة سوميا وماميا، الأوغسطا (العظيمة)، التي رسمت مصادر سير "التاريخ الأوغسطي"- والتي عدها كثير من المؤرخين مصدراً لا يعتد برواياته كثيراً- شائعات عن اندفاعها، قسوتها، مناوراتها،

[1]- للزيادة، يمكن العودة إلى المؤلف الكبير للمؤرخ الإنكليزي إدوارد غيبون: "انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية / The Decline and the Fall of the Roman Empire" بمجلداته الإثني عشر، والتي تم تأليفها في نهايات القرن التاسع عشر.

مكائدها، الزعم بعدم وفائها، جشعها.. إلخ. والتي ربما كانت جميعها أو بعضها إشاعات[1] من أحاديث مجالس النميمة في ذلك الوقت، أو قد تكون على قدر من الصحة المبالغ بها. لكن، بالمقابل عرفت جوليا دومنا بجمالها وذكائها وحبها للمعرفة، وبغرائزها السياسية المفعمة بالقيادة والبقاء والاستمرار. وعلى غير عادة امبراطورات روما، تحملت عبء الحياة العائلية القاسية من عام 193 إلى 217، والتي كانت فيها عضد زوجها القيصر، وفيما بعد ولدها كراكلا، حيث أدارت من خلف الستار شؤون الامبراطورية الواسعة في الأوقات العصيبة التي كان يطول فيها غياب كراكلا في جبهات القتال. وأثبتت جوليا دومنا، مع أختها ميسا التي جبلت من نفس المادة النفيسة، أنها كانت قادرة على الوقوف بثبات في زحمة ألغام السياسات الامبراطورية وطموحات القادة الكبار ومطامع الحروب، بتمتعها بالقدرات الفولاذية المطلوبة لمعايشة التجارب الامبراطورية. ومع النجاحات والكبوات التي مرت بها، لن نرى في مستقبل الأيام القريب من يضاهيها في ذلك إلا زنوبيا ملكة تدمر الباسلة التي انطلقت من سماء الصحراء السورية كما ينطلق الشهاب في ظلام الليل البهيم. فجوليا دومنا، كما إليسا مؤسسة قرطاج، كما سميراميس ملكة آشور وبابل، كما نيتوكريس، وكما كليوبترا؛ ملكات جئن من ماضي المشرق البعيد كما تجيء الأساطير، فتفوقن على الرجال، ونجحن في الحصول على تقدير واحترام ومحبة شعوبهن بذكائهن وجمالهن وإيمانهن وبسالتهن وتضحياتهن.

إن مثلت جوليا دومنا دور الأم الغضوب، فإن الجدة والخالة الشرسة جوليا ميسا لم تكن تلين عند تنفيذ الخطط إلا ما تقتضيه هذه الخطط، بحيث كانت تبدو قادرة دائماً على الإقناع بكرمها خصوصاً على الجند، وبقدرة ذهنها المتوقد والمتحفزلوضع الإجابات السريعة لكل طارئ. فقد تمتعت جوليا ميسا بشخصية الزعيم الذي خرج من نفس الرحم الذي خرجت منه جوليا دومنا، حيث اكتسبت مكرها السياسي ومعرفتها العميقة بمكائد الطبقة الرومانية العليا خلال إقامتها الطويلة بقرب البلاط الروماني الذي كان لها مهارة الاندماج فيه منتظرة اللحظة المناسبة للصعود. فتأتى لها معرفة وخبرة أكثر بالنفسية الرومانية فيما تحب ومما تنفر. فكانت فرص نجاح خططها أعلى من تلك التي لمكريانوس، ذلك الجندي قليل التهذيب، والذي كانت مؤهلاته لا تتناسب مع جسمه العملاق.

وإذا كانت جوليا دومنا الإرادة المنتقمة والمتسامحة أحياناً، وميسا القسوة المندفعة بحساب إلى حد التضحية بمن لم يكن جديراً بالسلطان، ولا سُميا الشريكة المتواطئة من أجل ابنها إلاغابالوس، فإن ماميا كانت تمثل الزهد والتقشف، لكنهن كلهن، وبسبب من الصفة الوراثية المكتسبة من ديانة بلدهن، والسيطرة النسائية لأسلافهن ولهن قد علمتهن سياسة التفوق والسيطرة. لذلك كان تبوأ هؤلاء النسوة الشرقيات للسلطة الامبراطورية الرومانية قد أحرز نجاحاً مدهشاً لا يقارن بما أحرزته بقية الامبراطورات الرومانيات.

---

[1] – إذا كان ديو كاسيوس (المؤرخ المعاصر) وآخرون قد قدموا جوليا دومنا على أنها فتاة مبتذلة من عامة الشعب، فإن علينا ألا نرى في ذلك إلا تعبيراً سيئ النية صدر عن شهود أغضبهم نفوذها وارتفاع مكانتها.

لقد عززت عبادة إله- الشمس الحمصية (الشرقية) جذورها القوية في البلاد اللاتينية في فترة الأسرة السيفيرية. وكان عليها أن تنهض من جديد بشكل حاسم بعد خمسين عاماً مرتدية حلة رسمية لا لبس فيها في عهد الامبراطور أورليانوس، حينما أظهر نصره على التدمريين بالأضاحي التي قدمها لإله الشمس عرفاناً منه بالجميل على منحه هذا النصر.

كان سيفيروس فينيقياً من بلدة لبدة على الساحل الليبي، فأصله فينيقي، بينما كان ولداه كراكلا وجيتا نصف عربيين. أما الجوليات دومنا وميسا وسوميا وماميا فكانوا عرباً من حمص.. فميسا كانت زوجة لمواطنها يوليوس أفينوس الذي كان والياً في آسية، ثم ندبه كراكلا إلى قبرص. وإلاغابالوس كان عربياً بالكامل لأن والده ووالدته كانا عربيين، حيث كان أبوه سورياً من أفاميا واسمه سيكستوس فاريوس ماركيلوس، وقد عينه سبتميوس سيفيروس مندوباً على جيش أفريقية. بينما تزوجت ماميا من أحد مواطنيها الذي كان الوالي كاسيوس ماركيلوس من عرقا في لبنان.

كان حب دومنا لعائلتها، ولأسباب سياسية وبقدر ما عاطفية، والمصلحة التي تربطها بشدة إلى زوج أصبحت تمارس عليه سلطة واضحة، وولديها اللذين كانا عذابها وهوانها، وشعوراً ملكياً كان يخيب دائماً حيث ما تلبث أن تنقذه ببطولة مشهودة، كل تلك الأسباب تبدو كافية لإبعاد تهمة الفجور التي ألحقها بها بلوتيانوس، حيث لم يورد المؤرخون أي دليل مادي على ما يثير الشك في مسلكها الأخلاقي. ولو كان هناك دليل لما كان التزم المؤرخون الصمت بعد انتهاء حكم الأسرة، وخاصة ديو كاسيوس.

كانت دومنا شديدة الحماس للوثنية[1]، وبالتالي فقد كانت واضحة في عدائها للمسيحية. لكن بعض المؤلفين المتحمسين للمسيحية أشاروا إلى أنها كانت نصيرة تؤيد المسيحية في الخفاء، وعللوا ذلك بأن طبيعتها الرسمية كانت تمنعها من الإعلان عن ذلك، لأن مثل هذا سيفسر على أنه إنكار للامبراطورية ذاتها، حيث كانت المسيحية حينها في نظر الرسميين الرومان وفي نظر الكنيسة الوثنية الرومانية ليست أكثر من بدعة وهرطقة مخربة آتية من الشرق. والشاهد أنه لا يوجد ما يدعم هذا الادعاء، كما تبين دراسة سيرتها، بعدم وجود أي دليل على تعاطف سري مع الديانة الجديدة ؟

---

[1] - انظر شهيد عرفان في"روما والعرب"، الفصل الثالث: العامل العربي في التاريخ الروماني خلال القرن الثالث الميلادي، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان- دمشق.

الفصل السادس
زنوبيا ملكة تدمر
Zenobia of Palmyra

تدمر الموقع والتاريخ

1

تدمر: القديمة الحديثة، التاريخ المجيد والحاضر المتواضع، الأسطورة والحقيقة، المدينة المحاربة وسكون القناعة الحالي، مركز التحدي العظيم لسطوة روما الامبراطورية العظمى والمركز المنسي إلا في كتب التأريخ، عاصمة الامبراطورية التدمرية ومركز المنطقة الإداري الحالي، مركز وملتقى تجارة الشرق القديم والبلدة الهادئة الوادعة على أطراف بادية الشام، مركز إبداع عمراني وفني قديم وتواضع حاضر فقير، مدينة الأوابد التاريخية العظيمة والأطلال المبعثرة الباقية، مدينة أذينة وزنوبيا التاريخ ومسكن أحفادهما الريفي البسيط. تقع على بعد230 كم إلى الشمال الشرقي من دمشق عاصمة سورية، و155 كم إلى الشرق من مدينة حمص وسط البلاد. تتوسط تدمر طريق الفرات إلى سواحل بلاد الشام. وهي مركز ناحية تدمر وقراها، وناحية السخنة، التابعة لمحافظة حمص. وهي على ارتفاع 400 م عن سطح البحر، حيث منحدرات سلسلة من هضاب الحوار الممتدة من أطراف الفرات الغربي حتى مشارف الشام الشرقية.

يختلط الحلم بالواقع، السراب بالحقيقة، وأنت تقطع الطريق إلى تدمر، وأمام ناظريك واحة ترسمها روائع الأطلال وسط بيئة يسودها الخلاء والسكون، حيث تتساءل: هل أنت أمام حلم أم مجرد سراب قريب يبتعد وسط البادية؟

تشغل الأطلال المبعثرة أسفل القلعة العربية المعروفة بقلعة فخر الدين مساحة تقدر ببضعة كيلومترات مربعه، يحيط بها حزام من أشجار النخيل من ناحية الجنوب، ويظهر إلى الشرق منها دور ومساكن تدمر الحاضرة.

بنيت تدمر حول واحة وسط الصحراء، فكانت تزرع بأشجار النخيل التي أخذت اسمها اليوناني منه (بالميرا). أصبحت تدمر مدينة رئيسية في القرن الأول قبل الميلاد تزدحم بالقوافل التجارية، فكانت نقطة تقاطع الطرق بين روما وفارس، بين عموم الشرق والغرب، فائتلفت وامتزجت عاداتها من العادات المختلفة بعناصرها الثقافية اليونانية والرومانية والفارسية والمصرية والبدوية الصحراوية. حيث تطورت إلى مدينة صاخبة مليئة بالحيوية والحركة والنشاط انشغلت بشكل طبيعي بالتجارة والعلاقات الدبلوماسية الأجنبية. وحافظت على استقلالها عن الحكم الأجنبي بالرغم من موقعها بين قوتين عظيمتين متنافستين على الدوام (روما وفارس).

ظهر اسم تدمر مراراً في النقوش الآشورية منذ مطلع القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وعرفت المدينة باسم تدمر، وهي كلمة آرامية تعني "الأعجوبة" أو "الجميلة" أو" الأعجوبة الجميلة"، وارتقت هذه التسمية إلى العهد الكنعاني في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ومع ما جاء ذكره في النصوص الآشورية عن تدمر في مطلع الألفية الثانية ونهايتها، تدعي التوراة أن النبي سليمان بن داوود[1] أمر الجن ببنائها وتشييد قصورها بالعمد والرخام. وقد ذكر جواد علي[2] ما ملخصه: (أنّ تمار أو تامار هي في الأصل اسم موضع يقع اليوم إلى الجنوب من البحر الميت، وأنّ خطأً وقع فيه كتبة أسفار أخبار الأيام في التوراة في معرفة موضع تامار، فظنوا أنه تدمر التي كانت مدينة عامرة شهيرة، فكتبوه تدمر بدلاً من تامار، فصارت تدمر- خطأً- في جملة المدن التي بناها سليمان. ويجوز أن تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في أيام كتبة "أسفار أخبار الأيام" هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال سليمان، لأنها بمباني سليمان أليق وأنسب من موضع صغير هو تامار، فأضافوا هذه المدينة الشهيرة إليه، لتدل على شهرته وعلى مدى بلوغ ملكه في أيامه. وقد ذهب المؤرخ اليهودي "يوسفوس فلافيوس"هذا المذهب أيضاً، فنسب بناء تدمر إلى سليمان، حيث أخذ رأيه هذا من التوراة). وقد نسب النابغة الذبياني في أبيات له أسطورة بناء جن سليمان لتدمر، لكن، لا يصلح شعر النابغة أو غيره من الشعراء أن يكون حجة في مثل هذا المقام، لأنه على الغالب أخذ فكرته من أهل الكتاب أو من تناقل الروايات الشفاهية. ويعتقد أهل تدمر أنّ بناء مدينتهم كان قبل سليمان بزمن طويل.

احتفظت تدمر باسمها منذ العصور الغابرة، إذ نجده في النصوص المسمارية المسطرة في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. كما ورد ذكرها في الأرشيف الملكي لمدينة ماري على الفرات الأوسط. وتقول بعض الروايات أن كلمة "تدمر" في الأساس هي " تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع بن يزيد بن عميلق بن لاذ بن سام بن نوح". وذكر معجم البلدان، ج2، ص 17، قصة تفيد في العثور على قبر "تدمر بنت حسان"، حيث ربط ياقوت الحموي بين فتح مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين لأحد القبور، ومقتله وتفرق جيشه وزوال ملكه عنه، على لسان اسماعيل بن محمد بن خالد بن عبد الله القسري، قال: كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية حين هدم حائط تدمر، وكانوا خالفوه عليه، فقتلهم وفرق الخيل عليهم تدوسهم وهم قتلى، فطارت لحومهم وعظامهم في سنابك الخيل، وهدم حائط المدينة، فأفضى به الهدم إلى جرف عظيم، فكشفوا عنه

---

[1] – اخبار الأيام الثاني 8/ 4 من العهد القديم. وأيضاً في كتاب د. أحمد سوسة "العرب واليهود في التاريخ"، ص 208، الذي يقول: (...لم تصل حدود مملكة سليمان (ع) بشهادة التوراة نفسها، في يوم من الأيام إلى دمشق، فكيف تجاوزتها إلى تدمر النائية عن حدود مملكة سليمان؟ لذلك فأسطورة بناء الملك سليمان أو جنه لتدمر لا تستند إلى وقائع تاريخية، وإنما أسطورية بقصد تمجيد التاريخ اليهودي. ويرى أكثر الباحثين أن المقصود بتدمر هنا إنما "تامار" البلدة الكنعانية القديمة التي تعود إلى زمن إبراهيم الخليل (ع)، والتي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من البحر الميت كما وصفت موقعها التوراة، وليست مدينة تدمر الشهيرة).

[2] – جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، الفصل 35، تحت عنوان "مملكة تدمر".

صخرة فإذا بيت مجصص كأن اليد رفعت عنه تلك الساعة، وإذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة، ولها سبع غدائر مشدودة بخلخالها، وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب مكتوب فيها: "باسمك اللهم! أنا تدمر بنت حسان، أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا". فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان، ولم يأخذ مما كان عليه من الحلي شيئاً. قال: فوالله ما مكثنا على ذلك إلا أياماً حتى أقبل عبد الله بن علي فقتل مروان وفرق جيشه واستباحه وأزال الملك عنه وعن أهل بيته. وهذه قصة ربما تكون من وضع الإخباريين والرواة. إذ لا يمكن أن يؤخذ هذا على محمل حقيقي إلا من باب تسمية تدمر بنت حسان على اسم المدينة فقط، وليس العكس. وقد مر بتدمر أوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر أوس الذي في البصرة، وهو يقصد يزيد في الشام، فنظر إلى تمثالي فتاتين مصنوعين من الرخام، فاستحسنهما، فأنشد فيهما شعراً، هذا بعض منه:

فتاتيّ أهل تدمر خبراني !	ألمّا تسأما طول القيام ؟
قيامكما على غير الحشايا	على جبلٍ أصمَّ من الرخام

كما ذكرهما محمد بن الحاجب وأبو الحسن العجلي في شعرهما.

أطلق على تدمر اسم "بالميرا Palmyra"- أي مدينة النخيل- خلال العهدين: الروماني والبيزنطي، وأشار إليها بلينيوس الكبير (القديم) في " التاريخ الطبيعي 88,XXI,V"، فذكر أنها مدينة شهيرة تقع بين امبراطوريتين عظيمتين: روما وفارس. وأطلق عليها اسم "فينيكوبولس Phenicopolis"، أي أنها مدينة فينيقية، وسميت أم الولايات"ميتروكولونيا". وسماها الامبراطور الروماني هادريانوس (أدريانوس:هادريان) لما زارها في مطلع القرن الثاني الميلادي على اسمه "بالميرا أدريانا".

استقى المؤرخون والمؤلفون معارفهم عن تاريخ تدمر بشكل أساسي من كتب المؤلفين اليونان والرومان والسريان، ومن سجلات المجامع الكنسية وأخبار التلمود. وأكثر ما عرف عن المدينة جاء مما كتب بعد الميلاد.

2

تأتي أهمية تدمر وشهرتها وصيت عظمتها في الشرق والغرب من تاريخها القديم حينما كانت من أغنى مدن العالم القديم. وقد أصبحت في الوقت الحاضر مرجعاً مهماً لدراسة تاريخ سورية القديم في إحدى عصوره المجيدة، إذ بينت الحفريات الأثرية الحديثة مساهمة تدمر الحضارية في تاريخ سورية الكبرى.

بدأت شهرة تدمر التجارية بالنمو التدريجي في سماء المشرق حتى أصبحت مركزاً تجارياً مهماً في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، بحيث أهلها موقعها لأن تصبح نقطة التقاء بين الشرق والغرب، ومحطة تجارية وسط الصحراء ونقطة اتصال برية وبحرية رئيسية على طريق الحرير بين ساحل البحر الأبيض وما بين النهرين من بلاد أشور وبابل، وطريق عبور لقوافل التجارة، ذهاباً وإياباً، من الصين والهند وفارس شرقاً ومصر غرباً وجنوباً، إضافة إلى أنها كانت مركزاً للتوقف والراحة والتزود، فكانت أول ما

يصادفهم بعد اجتياز الصحراء. فاعتاد أهلها تقديم المساعدات الكافية مقابل فوائد معلومة، وهكذا أخذت تدمر تكبر وتتطور وتزدهر كما كانت البتراء قبلها، وكما نشأ كثيرمن المدن التي كانت مراكز للتجارة. لذلك، فقد نافست الاسكندرية في تجارة البحر الأحمر، وشمال أفريقية وبلاد الرومان غرباً وشمالاً، ناقلة العطور والبخور والحجارة الكريمة من الهند والحرير من الصين ومنتجات ولاية العربية من الزجاج والأقمشة الأرجوانية الفينيقية والأخشاب من سواحل بلاد الشام والحديد من طوروس والنبيذ من أنطاكية، وازدهرت تجارة الذهب والفضة، فصارت مركز تجميع للبضائع حيث يتم توزيعها إلى أركان الآفاق الأربعة. كما اشتهرت بصناعة الأصبغة والدباغة والجلود والنسيج، وصناعة الأواني الزجاجية والمعادن والأسلحة والحلي والعطور، ونتاج الزيوت والخمور والتين والجوز والأجبان. فكنت ترى التجار من الصين والهند وفارس وما بين النهرين وسواحل بلاد الشام وأفريقية وأوربة يؤمونها بشكل دائم. إلى جانب كل هذا، ساهمت تدمر بنصيب من إنعاش الحضارات في مصر والهند والصين وفارس وروما. كما تبين اهتمام تدمر بالزراعة من خلال آثار القنوات والسدود المكتشفة. وتدل بيوت تدمرالحجرية وشوارعها الفسيحة المزدانة بالأقواس والأعمدة الحجرية، تعلوها التيجان المنحوتة بأشكالها الفنية الرائعة، على طرفيها، وبآثار قصورها الفخمة، على غناها وثرائها المادي والفني والحضاري.

ارتقت تدمر باستمرار خلال القرن الأول قبل الميلاد والقرون الثلاثة الأولى بعده إلى أن صارت في أوج مجدها وازدهارها الحضاري والتجاري وقوتها العسكرية في القرن الميلادي الثالث، بحيث بلغ ثراؤها مستوىً فاحشاً بعد أن أصبحت مملكة مستقلة تحكم نفسها بأبنائها. وقد وصفها هلموت أوليغ في كتابه "طريق الحرير"، 1990، بأنها: "كانت نقطة التقاء جميع الشعوب. فحافظت على غناها وازدهارها التجاري لمئات السنين، وكانت من أغنى وأجمل المدن في العالم القديم على طريق الحرير، إذ تبرهن على ذلك آثارها العظيمة التي ما زالت قائمة حتى اليوم. إنها بحق مدينة الآلهة". استمرت تدمر في كل مراحل تطورها، وخاصة في القرن الثالث، بالمحافظة على استقلالها وحريتها وتجارتها مؤمنة طريق التجارة العالمية، مستفيدة من الصراع القائم بين روما وفارس.

اقتضت أعمال التجارة الواسعة التي كانت تديرها تدمر من خلال موقعها تكوين علاقات سياسية واقتصادية وحتى ثقافية مع الفرس والرومان، ومع القبائل العربية في البادية التي لم يكن من الممكن مرور القوافل في أراضيها بسلام ما لم يتم الاتفاق مع سادتها على دفع إتاوات سنوية مرضية لحمايتها.

وتدريجياً، بدأ سادة المدينة بجمع فلول المسرحين من الجيش الروماني، ومن الذين تركوا الخدمة العسكرية لأسباب متعددة، ومن الشباب الطموح والمغامر، فألفوا جيشاً حسن التدريب والطاعة والنظام، فصار قوة مقاتلة تفوقت على جميع الأعراب، فتمكنوا من الهيمنة على أبناء البادية وتجنيد الكثيرين منهم مستفيدين من حيوية هؤلاء الأعراب

ومن رشاقة حركتهم ومناوراتهم البارعة، وتواضع طلباتهم. فنضموا الحاميات في كل المراكز الضرورية لتأمين حماية طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب.

امتازت مدينة تدمر بموقعها الإستراتيجي الهام بين امبراطوريتين عظيمتين جبارتين متنافستين ومتنافرتين ومتعاديتين، هما: الرومانية في الغرب والفارسية الساسانية في الشرق. بذلك، شكلت تدمر منطقة دفاعية عازلة لكل منهما ضد الآخر. وغدت محط أنظارهما، فحاول كل منهما خطب ودها وجذبها إلى جانبه لتصبح تابعة أو حليفة له لمعاونته في صراعه وحروبه شبه الدائمة ضد الآخرين. وقد ساعد موقعها المنعزل في وسط الصحراء وإدراكها الدائم لأن تكون مستقلة وذات سيادة من عدم تمكن أي من الامبراطوريتين من الإملاء أو الاستيلاء عليها، فكان جيش تدمر يحمي بلاده بنفسه، ويساهم أيضاً في معارك الرومان ضد أعدائهم عندما تقتضي أحوال التحالف ذلك.

وقد سجلت كتب الحوليات والسجلات العسكرية الرومانية والنقوش التدمرية التي عثر عليها وصفاً ذائعاً عن براعة التدمريين في إدارة معارك الصحراء، وعن براعة رماة السهام، وبخاصة رماة السهام الفرسان منهم، والذين نالوا بشجاعتهم وإقدامهم إعجاب القادة الرومان، وصار لهم مراكز رفيعة في الجيش الروماني، وأصبحت لهم فرق خاصة عرفت بـ"فرق فرسان الرمي التدمريين"، وكانت من أشهر الفرق وأحسنها بلاء في الجيش الروماني. فقد كون الرومان فرقاً من الجنود التدمريين الذين التحقوا بالجيش الروماني، حيث استفادوا منهم في قتال الصحراء والبوادي التي كانوا بارعين فيهما، كما استخدموهم في قتال الفرس ومن كان في خدمتهم من الأعراب. وقد تم تجنيدهم في الجيش الروماني، بعد سقوط تدمر، في حروب شمال أفريقية، كما عثر على كتابات أثبتت أنهم كانوا ضمن الفرق الرومانية التي كانت تعسكر في بريطانية.

امتزجت القبائل التدمرية الآرامية بالقبائل العربية التي درجت على الهجرة المستمرة من خزان الهجرات العظيم في الجزيرة العربية. وكان بيت الحكام على الدوام من أصول آرامية- عربية[1]. والراجح أنَ غالبية التدمريين وأسرهم الحاكمة هم أصلاً من البادية من بقايا العمالقة، مارسوا مهنة التجارة كأبناء عمومتهم الأنباط، فغلبوا على أهل المدن

---

[1] - ذكر خالد الأسعد مدير آثار ومتاحف تدمر السابق والبروفسور أوفه ويدبرغ- معهد اللغات السامية في جامعة أورهوس في الدنمارك، في كتابهما "زنوبيا ملكة تدمر والشرق"، ص58، بوجود شجرة نسب مؤرخة بالمائة الأولى قبل الميلاد تقدم تصوراً عن أسرة تدمرية عاشت خلال هذه الفترة، وهناك كتابة ثانية على لوح حجري مؤرخة بعام 44 ق.م قدمها كهنة معبد "بل" إلى الإله باسم شيخهم "جذيمة بن نبو زبد". والشجرة واللوح محفوظان في القاعة الأولى في متحف تدمر.

وقد حدث خلاف بين الباحثين في أصل الأنباط وتدمر، فمنهم من قال أنهم عرب، وآخرون قالوا أنهم آراميون، إذ بني الاختلاف على أن كتاباتهم الرسمية كانت بالآرامية، فهم إذاً آراميون، لكن لغتهم اليومية كانت العربية، فهم إذاً عرب. وقد دعاهم مؤرخو اليونان المعاصرون بالعرب، ودلت أسماؤهم عليهم. وقد روى ابن مسعود وابن خلدون عن الجد الأعلى للأسرة المالكة في تدمر؛ السميدع، ما ملخصه أن أول الحروب التي تعالى أوارها بين السميدع ويوشع بن نون كان في أيلة (العقبة)، وقد نظمها سعيد الجرهمي في شعر، جاء فيه:

ألم ترى أن العملقي بن هوبر   بأيلة أمس لحمه قد تمزعا
تداعت إليه من يهود جحافل   ثلاثون ألفاً حاسرين ودرعا...

حتى صاروا ملوكاً. وقد امتزج العرب الناطقون بالآرامية بالسكان الساميين هناك. فنشأ عن الخط الآرامي القديم شكل جديد، حيث اكتشفت كتابات ونقوش كثيرة بالخط التدمري الجديد أو القلم التدمري، وهي المتأثرة باللغة العربية لفظاً، إذ بدأت اللغة العربية الدارجة تحل تدريجياً محل الآرامية، غير أنّ الآرامية بقيت لغة الخطاب الرسمي والدبلوماسي في تدمر كما كانت عند الأنباط. وقد تأثرت لغة التدمريين باليونانية مع الفتح اليوناني حتى أصبحت اليونانية اللغة الدارجة نطقاً وكتابة[1]، كما أصبحت لغة الآداب والفلسفة. وكذلك كانت لغات عديدة متداولة في تدمر، كالفارسية واللاتينية، بسبب التجارة العالمية وطرق المواصلات والتقاء حضارات متعددة على أرضها. وقد سادت اللهجة التدمرية الآرامية حتى بداية العصر البيزنطي. كما انتشرت اللغة السريانية حينها.

ويحدثنا تاريخ الرومان عن استقلال تدمر الذاتي في القرن الثاني الميلادي، فيشير إلى انه كان لها مجلس شيوخ من مواطنيها وله رئيس وأمين ويختص بسن القوانين، كما كانت سلطتها التنفيذية بيد شيخين من شيوخها يعاونهما مجلس من عشرة أعضاء، كما كانت سلطتها القضائية توضع بمسئولية وكلاء وموظفين معينين. وهكذا، إلى أن برزت في حياة تدمر السياسية أسرة عربية في القرن الثالث حكمت فيها، واشتهر من رجالها أذينة بن وهب اللات بن نصر الذي اغتاله الرومان أواسط القرن الثالث لسعيه الدائم للاستقلال، فخلفه ابنه أذينة- على اسم والده - فانتصر للرومان في حربهم مع الفرس وأبلى فيها بلاء حسناً، واسترجع المناطق التي احتلها الفرس، إذ استعاد منطقة الجزيرة ونصيبين وحاصر عاصمتهم المدائن مرتين حتى أصبح سيد المشرق الروماني ولقب بملك الملوك وحامي كل المشرق ومستعيده Rex Regum, Imerator and corrector totius Orientis، ففرض سلطته على سورية وسائر جنوب بلاد آسية الصغرى وتسمى حاكماً عاماً عليها في العام 264 م[2]. وكانت زوجته زنوبيا تنوب عنه في إدارة شؤون الدولة بكل جدارة واقتدار كلما خرج لحرب أو غاب عن تدمر، حيث تميزت بالشجاعة والهيبة والدهاء. وعندما أصبحت ملكة تدمر صارت تجالس قواد جيشها وكبار رجالها وتباحثهم في شؤون الدولة وتقابل الوفود الأجنبية، وكانت تمتطي صهوة جوادها وهي بلباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الحربية الرومانية المرصعة بالجواهر.

وعندما احتل الاسكندر سورية الكبرى إثر حملته على الشرق سنة 332 ق.م، أصبحت سورية بما فيها تدمر تدريجياً يونانية الثقافة، فبدأت بعد موت الاسكندر[3]

[1]– نقشت بنود التعرفة الجمركية بالتدمرية واليونانية على حجر ضخم، أبعاده 5×2 م، من 400 مادة، أصدرها مجلسا الشيوخ والشعب في تدمر عام 137 م. ويعرض الآن في متحف الأرميتاج - بطرسبورغ- روسية.

[2] – عرفان شهيد: " روما والعرب"، ص 96، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان - دمشق.

[3] – أسس حكم العائلة السلوقية سلوقس نيكاتور Seleucus Nicator، الذي كان من ضباط جيش الاسكندر الكبار، وذلك بعد موت الاسكندر، حيث استقل بحكم معظم آسية الصغرى؛ سورية، فارس، وباكترية. وكانت بكترية بلاداً قديمة في وسط آسية تشكل الجزء الشمالي من أفغانستان الحديثة. وقد كانت مركزاً لمملكة حكمها تحالف إغريقي- هندي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. واستمر حكم العائلة السلوقية من عام 312 ق.م حتى الاحتلال الروماني للمشرق

تزدهر باضطراد، وخاصة خلال الحكم السلوقي لسورية. وبقيت تدمر تمارس استقلالها إزاء الفرس والرومان إلى ما بعد الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م، إلى أن تم فتحها ونهبها على يد القائد الروماني المشهور ماركوس أنطونيوس Marcus Anonius (صاحب كليوبترا) سنة 41 ق.م، وتم إلحاقها بروما سنة 19 ق.م. غير أنها حظيت بنظام إداري مستقل، فكان يحكمها ويدير شؤونها مجلسا الشيوخ والشعب. وقد مثل ذلك مزيجاً من النظام المشترك (الحضري- البدوي). إلا أنّ روما أنهت استقلال تدمر الإداري والحكم الذاتي الذي تمتعت به وألحقتها مباشرة بالعاصمة روما سنة 79م. غير أن الإخضاع الروماني لم يصبح كاملاً إلا سنة 106م بعد إسقاط امبراطورية الأنباط على يد الامبراطور ترايانوس (تراجانوس Trajanus)، وتم نقل عاصمتها من البتراء إلى بصرى الشام التي أصبحت عاصمة[1] "ولاية العربية".

استفادت تدمر من توقف نشاط البتراء فسيطرت على معظم الطرق التجارية، خاصة بعد زيارة الامبراطور الروماني هادريان/أدريانوس (117-138) سنة 120، وأنعم عليها بصفة المدينة الحرة، فقامت بسن قوانينها وضرائبها بنفسها. وعرفاناً منها بهذا الجميل أطلقت على نفسها اسم "بالميرا ادريانا"، فازدهرت عمرانها ازدهاراً عظيماً، ووسعت معابدها وجُملت، وأنشأت سوقها العامة "الأغورا" وشارعها الرئيسي المشهور بأعمدته وتيجانها الحجرية. وتمركزت فيها حامية رومانية، وعين لها مندوب روماني سام يمثل الامبراطور، ويقوم بجباية الضرائب. وفي فترة حكم الأسرة الامبراطورية السيفيرانية السورية[2] التي حكمت روما ازداد ازدهار تدمر بشكل متسارع لأنها اعتبرت مستعمرة رومانية، وأتبعت لولاية فينيقية، وتم إعفاؤها من الضرائب. كما جعلها الكسندر سيفيروس قاعدة للجيوش الرومانية في المنطقة، مما أضاف إلى ازدهارها أهمية ومكانة جديدة في لعب دورتجاري وعسكري رائد في فلك الامبراطورية الرومانية وفي معترك الصراع السياسي والعسكري الروماني- الساساني.

ساهمت شبكة الطرق البرية والبحرية الواسعة والممتدة من الصين إلى الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية ومصر واليمن في الشرق والجنوب إلى روما وإسبانية حتى ساحل المحيط الأطلسي الأوربي عبر البحر الأبيض، فورث التدمريون نشاطهم التجاري فوق هذه الشبكة من أسلافهم الفينيقيين والآراميين. وبذلك أصبحت تدمر خلال فترة حكم أسرة أذينة وزنوبيا (235-273) قوة يحسب الفرس والرومان حسابها بما ملكته

عام 63/64 ق.م. وكانت أنطاكية عاصمة السلوقيين. كما استقل الجنرال بطليموس Ptolemus المقدوني- الذي كان من أخلص ضباط الاسكندر الكبار- بمصر بعد موت سيده، فأسس حكم العائلة البطلمية بإعلان نفسه ملكاً على مصر، إلى أن انتهى حكم العائلة بانتحار كليوبترا عند احتلال الرومان لمصر عام 30 ق.م. للمزيد، ارجع إلى التمهيد التاريخي، والفصل الرابع، من هذا الكتاب.

[1] - جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج 3، ص 48- 49، ص (62- 63). وفي" موسوعة تاريخ العالم: History of the World, Vol., VI, P. X, Ency., I, P. 765."

[2] - انظر الفصل الخامس"جوليا دومنا" في كتابنا هذا.

من علاقات تجارية إقليمية وعالمية وتطور عمراني هائل. فأصبح أذينة ملكاً على تدمر، فمنحه الرومان لقب حاكم كل الشرق ومصلحه ومستعيده، لانتصاره على الفرس، حيث لقب نفسه بملك الملوك والامبراطور والأوغست (المعظم). وبعد موته تبوأت زوجته زنوبيا العرش كوصية على ابنها القاصر وهب اللات، فوسعت مملكتها على كامل المشرق وشمال الجزيرة العربية ومصر والأناضول وأرمينية في آسية الصغرى. فأصبحت تدمر امبراطورية عظيمة تحكمها زنوبيا (الأوغسطا) كامبراطورة للشرق كله، حيث تركت نقوشها وكتاباتها وآثار أوابدها تأثيرات مشهودة على الدانوب وروما وأفريقية. فأصبحت زنوبيا بحق أسطورة عالمية تلهب خيال الفنانين والكتاب والشعراء والباحثين والمؤرخين.

وقد روى السمعاني عن تاريخ تدمر القديم (المكتبة الشرقية): أن يهوذا بن يعقوب الملقب لباوس (لبى) ذهب إلى تدمر لتبشير سكانها بالمسيحية، حيث بدأت بعده النصرانية بالانتشار. وذكر أنّ تدمر أصبحت أسقفية خلال فترة حكم السلالة الأنطونية، الذي استمر لمائة عام (96-193)م [1]. وقد عاش المسيحيون خلال هذه الفترة في شبه هدنة عدا ما تعرضوا له من اضطهاد شديد خلال حكم الامبراطورين دوميتانوس وتريانوس (دوميتان وتراجان)، حيث لم يشعروا بالاطمئنان إلا في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي خلال عهد الأباطرة السيفيرانيين (السوريين)، وفيليب العربي الحوراني. وبعد موت فيليب مباشرة، شن الامبراطور الجديد دكيوس سنة 250، وأرليانوس (270-275)م، حملات عنف رهيبة على المسيحيين، واستمر الامبراطور ديوقلتيانوس وخلفه في تسعير الحملة إلى أن جاء قسطنطين فاصدر مرسوم ميلانو سنة 313، الذي أتاح للمسيحيين حرية العبادة والدعوة.

ورغم ديانة تدمر الوثنية قبل وخلال عهدي أذينة وزوجته الملكة زنوبيا، فقد ساند العديد من المسيحيين السوريين زنوبيا في حروبها ضد روما، فحظيت المسيحية بمكانة مرموقة وفريدة في بلاطها، إذ كانت المناظرات بين دعاة النصرانية والوثنية تنعقد في مجلس الملكة زنوبيا وبحضور مستشارها الأول الفيلسوف لونجينوس وبمشاركتهما. لذلك، تزايدت أعداد المسيحيين في تدمر، حيث عينت الملكة بولس السميساطي التدمري المولد، الذي تحالف معها ضد روما فيما بعد، أسقفاً على تدمر. ثم ساندته مع زوجها فأوصلته إلى السدة الكنسية الأنطاكية حيث صار أسقفها (261-268). وإن دل هذا، فإنما يدل على تسامح زنوبيا ومن قبلها أذينة على احترام الأديان، واحترام الحريات الفردية في اختيار المعتقد الذي يرغب به الفرد دون خوف أو اضطهاد. فتمكن أتباع

[1] – ذكر د. محمد محفل في كتابه " دمشق: الأسطورة والتاريخ.."، من إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008، ص 193: (.. إن السلالة الأنطونية، هي السلالة الرومانية الثالثة. وقد أُطلق عليها اسم"سلالة السلام الروماني Pax Romana ". وسماه آخرون"القرن الذهبي للامبراطورية". ولا ندري حقاً إن كانت التسميتان ملائمتين لواقع الحال، ذلك أن الأباطرة الستة: نروا، ترايانوس، هاردیانوس، أنطونيوس التقي Antoninus Pius، مرقص أورليوس، كومودوس Commodus، الذين حكموا خلال قرن تقريباً، لم تربط أغلبهم صلات قرابة ورحم..).

المسيحية من بناء الكنائس والأديرة والصوامع والمعابد والبيع، ومن التبشير وممارسة شعائر دينهم بلا عوائق. ونتيجة لهذا التسامح انتشرت المسيحية في تدمر، حتى سادتها قبل نهاية القرن الثالث، وذلك رغم حملات الاضطهاد التي كانت تشن على المسيحية في بلاد الرومان. وقد أقيم مريانوس التدمري مطراناً على القدس. ثم ساس أبرشية تدمر (بالميرا) أسقفها بعد إعلان مرسوم ميلانو[1]. وتبعت أسقفية تدمر في العصر البيزنطي ميتروبوليتية دمشق التي كانت حاضرة فينيقية الثانية[2]، وحضر أسقفها ماران مجمع نيقية المسكوني الأول سنة 325 م[3]. وشاركت تدمر بعد ذلك مشاركة فاعلة في تاريخ الكنيسة. وعندما أصبح الحارث بن جبلة الغساني المسيحي سيداً على كل القبائل العربية المنتشرة في المناطق الواقعة بين حران شمالا والبتراء جنوباً جعل من تدمر أحد مراكز الغساسنة المهمة، وبجوارها وحولها العديد من القبائل العربية.

دخل خالد بن الوليد تدمر محرراً عام 636 م، حيث فتحها صلحاً، وذلك أنه لما مر بطريقه من العراق إلى الشام، تحصن أهل تدمر منه، فأحاط بهم من كل وجه، فلم يقدر عليهم، فلما أعجزه ذلك وأعجله الرحيل، قال: يا أهل تدمر، والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم ولأظهرنا الله عليكم، ولئن أنتم لم تصالحوا لأدخلن مدينتكم حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم؛ فلما ارتحل عنهم بعثوا إليه وصالحوه على ما أدوه له ورضي به[4].

انتهت إمارة الغساسنة وملكها جبلة السادس (ابن الأيهم) بالتحرير العربي الإسلامي لسائر بلاد الشام (636-637). فعمد المحررون إلى تقسيم بلاد الشام إلى أجناد جديدة، فدخلت تدمر في جند حمص. وجدير بالذكر أن زلزالاً عنيفاً ضرب تدمر أوائل القرن العاشر فهدم العديد من مبانيها التاريخية الباقية وهلك الكثير من سكانها تحت الأنقاض[5].

استأثرت تدمر بتراثها وبمبانيها العظيمة وما بقي منها باهتمام الرحالة والبحاثة والزائرين. وكان أول من نبه هؤلاء في الغرب إلى أوابدها الرحالة الأندلسي بنيامين

---

[1] – أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير (305-337) م "مرسوم ميلانو" سنة 313 م، والذي يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة في جميع أنحاء الأمبراطورية الرومانية.

[2] – فينيقية الثانية هي فينيقية الشرقية، التي كانت تقع إلى الشرق من سلسلة جبال لبنان الشرقية، بينما فينيقية الغربية كانت إلى الغرب بمحاذاة الساحل اللبناني.

[3] – نيقين Nicene، نسبة إلى مدينة نيقية (نيقيا Nicaea) في آسية الصغرى، ونسبة إلى المجمع المسكوني الأول الذي انعقد فيها تحت رعاية الامبراطور قسطنطين الكبير عام 325 م. وقد انعقد مرتين؛ الأولى بإشراف البابا سيلفستر الأول لمناقشة الهرطقة الآريوسية (معتقدات آريوس Arius -الذي عاش بين (250؟- 336) م- وهو أسقف الاسكندرية من أصل ليبي، تعلم في أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة في الاسكندرية. وقام بتدريس تعاليم مدرسته التي تعلمها في أنطاكية: بأن المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية، بل من أفضل المخلوقات الموجودة، وأن الإله وجود دائم لا يمكن إدراكه، وأن الابن لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإن الإله الأب لا يقبل الانقسام لنفسه..).

[4] – معجم البلدان، ج2، ص 19.

[5] – النجوم الزاهرة 5 / 35.

الطليطلي في رحلته وكتاباته في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، فتتابعت رحلات البحاثة والرحالة الأوربيين إليها مع بداية عصر النهضة الأوربية. وتكثفت أنشطة بعثات التنقيب الأثرية من فرنسية وألمانية وإنكليزية ودانماركية وسويسرية وبولونية وروسية ويابانية، إلى جانب ما قامت وتقوم به المديرية العامة السورية للمتاحف والآثار من أعمال كشف وترميم. وبالإجمال، فقد كشف النقاب عن إبداعات الفن التدمري وعن أطلال المباني الأثرية، فرممت بعض المباني، ونسخت الكتابات الحجرية وفكت رموزها، فصارت قبلة الأنظار من الباحثين والسياح والزائرين من شتى أنحاء العالم.

تعد تدمر من المدن السورية التي كانت منيعة التحصين. إذ اتبع في إنشائها تخطيط المدن الإغريقي- الروماني من توفر المرافق العامة، بما فيها الأغورا (السوق والساحة العامة)، المعهودة في المدن الهلينية والرومانية. لكن معظم ما بني فيها كانت مادته من الصخور والحجارة، حيث جسد فنانوها روحهم الفنية ونمطهم المعماري الحضاري التدمري. فبدا الفن والهندسة، بإجماع الباحثين والمنقبين والعلماء، فناً محلياً تدمرياً سورياً بالرغم من بعض التأثيرات الغريغو رومانية (الإغريقية- الرومانية).وكان فنانوها على إطلاع بفنون الهند والصين ومصر. ومن هنا جاء الانسجام واضحاً في فن العمارة التدمرية.

الفن التدمري

يعتبر النتاج الفني التدمري الرفيع الذي تدل بقايا آثاره عليه بأنه، بالأساس، نتاج محلي شرقي خصب تأثر بالأساليب الهلينية الرومانية، فلم يخرج كثيراً عن التقليد الفني السوري المعروف في تلك الأزمنة. وإذا كانت الظروف السياسية والاقتصادية والتجارية قد نقلت إلى تدمر مؤثرات غربية واضحة، إلا أن هذه المؤثرات انصهرت في بوتقة طابع الفن المشرقي، فتأثرت فنون تدمر في بداياتها بالفنون والثقافة الفراتية القادمة من الشرق عندما كانت العلاقات القوية تربط بينها وبين بلاد بين النهرين وحضارتها. لكن تأثر التدمريين كان واضحاً بالأساليب اليونانية في التخطيط العمراني والمدني، بينما بقيت الآثار الفنية كالزخارف والمنحوتات محافظة على أسلوبها المشرقي الأصيل.

تتنوع الفنون التدمرية على طيف واسع من الانجازات الفنية الرفيعة — مدنية كانت أو دينية- والتي كانت تتويجاً لخصوبة ونضوج فكري وإيمان روحي وديني زاوج بين المادة الفكرية والروحية والبيئية تأثرت بغنى إنساني عام من المحلي ومن الشرق والغرب، بحيث تمكن الفنان التدمري من مغازلة الصخور الصلدة المحيطة بالمنطقة لصياغة أجمل الروائع وأرقى الفنون في مجالات العمارة والنحت والزخرفة المدنية والدينية. إذ قد تحدد هذه الإنجازات المعيار لما يمكن أن تقوم عليه دراستها للتعرف على الوجه الحضاري للمدينة ومن حكمها في تلك الفترة. ويمكن تصنيف الفنون التدمرية إلى:

فنون النحت: ويتفرع عنها المنحوتات المدنية، الدينية، والمنحوتات الجنائزية.

فنون العمارة: ويتفرع عنها فنون العمارة المدنية، فنون العمارة الدينية، وفنون العمارة الجنائزية (المدافن).

ويمكن إجمال أوابد المدينة ومرافقها المدنية العامة وفنونها المتنوعة ومبانيها التاريخية والدينية الوثنية والمسيحية بما يلي:

أولاً: المرافق المدنية العامة

1- السور: يلف المدينة سور دفاعي كبير بطول ستة كيلومترات تقريباً، ويشبه بمخططه شكل السلحفاة. وقد بني من الأحجار الضخمة المنحوتة، وهو مدعم بأبراج مربعة الشكل. وقد تم تجديده في عهد يوستنيانوس (جوستنيان) في القرن السادس على أنقاض سور تدمر الذي هدمه أورليانوس سنة 273 م، وشمل بعضاً من دور تدمر التي كانت خارج الأسوار، ويحيط هذا السور بمعسكر ديوقلتيانوس من جهات ثلاث. ويعتقد أنّ السور الأصلي الذي هدمه أورليانوس قد بدأ التدمريون في بنائه في بداية القرن الأول الميلادي لحماية المدينة من الطامعين. وقد عزز السور بأبراج مربعة الشكل، إذ يبعد كل منها عن الآخر بسبعة وثلاثين متراً. وينسب تدعيمه إلى ديوقلتيانوس في نهاية القرن الثالث عندما أدخل تحسيناته على خطوط الدفاع الشرقية للامبراطورية. بينما أضاف إليه العرب الغساسنة في عهد يوستنيانوس أبراجاً مستديرة ومفرغة بين كل ثلاثة أبراج مربعة. كما يوجد سور آخر من اللبن دعي"سوق الجمارك".

2- الشوارع: أهمها الشارع الرئيسي (الطويل المستقيم) الذي بني في القرن الثاني وأدخلت عليه تعديلات في القرن الثالث. وهو بطول يزيد على 1250 متراً، حيث يمتد بين قوس النصر (البوابة الفخمة) وهيكل الموتى، وتتفرع عنه شوارع عرضانية فرعية. ويقوم على طرفيه صفان من الأعمدة ينبسط على جانبيهما رواقان كانا مسقوفين ومبلطين؛عرض كل منهما سبعة أمتار تقريباً. وعلى طول جانبيه كانت تتوزع المحال التجارية. وتنطلق عظمة الشارع بقوس النصر المؤلف من بوابة ذات ثلاثة مداخل معقودة فوق الأقواس (مدخل كبير كبوابة، ومدخلان جانبيان صغيران). ويزخر القوس بأنواع من الزخارف والمنحوتات، وتزين أقواس المداخل نقوش هندسية ونباتية، ويعلوه جبهة مثلثة جميلة. وعلى جانبي الشارع تنتصب أعمدة شاهقة يلتصق بجذع الكثير منها قواعد بارزة كانت مخصصة لحمل تماثيل كبار شخصيات تدمر. حيث لا يزال عمودا أذينة وزنوبيا قائمين، وأمامهما أعمدة أخرى على إحداها نقش باسم والد زنوبيا يوليوس أورليوس زنوبيوس أو زباي كحاكم على تدمر، والذي استقبل امبراطور روما السوري اسكندر سيفيروس عند زيارته لتدمر سنة 232 م. كما توجد كتابة باليونانية والآرامية منقوشة على عمود الملكة زنوبيا الموجود إلى الشرق من المصلبة في الشارع الطويل، والتي تقول: "هذا التمثال هو لسبتيميا زنوبيا (بت زباي بالنص التدمري) الملكة المعظمة التقية الورعة. ورفع القائدان العظيمان سبتميوس زبدا القائد الأعلى للجيش وسبتميوس زباي

قائد موقع تدمر هذا التمثال لسيدتهما في آب من عام 582"[1]، بينما كانت تنتظم على طريق الشارع المستقيم المباني والمنشئات الضخمة مثل المسرح والأغورا ومجلس الشيوخ وسبيل الماء ومعسكر ديوقلتيانوس، والمعبد القيصري المخدد الذي كانت تجري فيه عبادة القيصر، وأمامه حوض الحوريات عرائس الماء.

3- الأبواب الأربعة (التترابيل): المكونة من تقاطع الشارعين الرئيسيين في المدينة في الشمال الغربي من الشارع المستقيم، ويشكل صرح ومعلم مركز المدينة. وهو مصمم من مصطبة ضخمة تقوم في زواياه الأربعة قواعد عالية تحمل كل منها أربعة أعمدة سامقة من حجر الغرانيت الصلب، يعلوها سقف له طيق وإفريز، ووسط المصطبة كان يقوم على قاعدة تمثال ضخم بأربعة وجوه ليُرى من كل الاتجاهات، وهوعلى درجة عالية من الأبهة والفخاًمة. وتتألف المصلبة من أربعة قواعد أو مصطبات مربعة الشكل يحمل كل منها أربعة أعمدة غرانيتية عملاقة تعلوها تيجان كورنثية وسقوف وأفاريز مزخرفة.

4- المسرح: يعتقد أنّ بناء المسرح اكتمل خلال ولاية الامبراطور كراكلا. ويتميز بناؤه بالمزج بين الأساليب الشرقية والإغريقية-الرومانية. ويحتل مركز المدينة فيتوسط السوق العامة. ويفضي الشارع المستقيم إلى رواق المسرح الشمالي. ومن طرفه الشرقي يوجد رواق آخر يشكل ربع دائرة. وتبلغ أطوال خشبة العرض 48×10م، وقطر الأوركسترا المستديرة بين الخشبة والمسرح 20 متراً، ولها أربعة أدراج وخمسة أبواب مزخرفة، ولجدار الخشبة واجهة بديعة قوامها المحاريب والأعمدة (خمس وثلاثون عموداً) ذات تيجان كورنثية وأفاريز وكرانيش في تصميم دقيق غاية في الروعة والجمال. وللمسرح جبهة محمولة على أعمدة تحمل جبهة مثلثة الشكل عليها قرص الشمس الذي يتفرع منه أغصان مزهرة ترمز للنور والضياء والحكمة، بينما تنتصب أمام منصته الأوركسترا، التي تشكل أكبر من نصف دائرة بقليل، وتحيط بها درجات جلوس المشاهدين. والباقي من المدرج ثلاثة عشر صفاً، وهومقسم إلى أحد عشر قسماً بدرجات لا تسمح إلا بالصعود أو الهبوط.

5- الأغورا (السوق العامة أو الميدان الرئيسي وسط المدينة): يعتقد أن بناءه قد تم في القرن الثاني. ويقع إلى جنوب غرب المسرح. وهو معد للاحتفالات العامة، حيث يشكل باحة مربعة الشكل أبعادها84×71متراً، ويقوم على جهاته الأربع رواق تحمله أعمدة، وله إحدى عشرة بوابة. وكل رواق مخصص لفئة من الشخصيات التدمرية؛ فالرواق الشمالي لطبقة الموظفين، والغربي لرجال الجيش، والجنوبي لرؤساء القوافل، والشرقي لأعضاء مجلس الشيوخ. وقد بلغ عدد التماثيل فوق حوامل الأعمدة مائتي تمثال. وخصص باب الرواق الشرقي لتماثيل أسرة سبتميوس سيفيروس وأباطرة سوريين رومانيين آخرين[2]. وكانت لوحة التعرفة الجمركية توضع إلى جانب الأغورا.

---

[1] - 582 بالتقويم السلوقي تقابل تاريخ نيسان 271 م. غير أن كلمة سلوقي لم ترد في النقش - المحقق.

[2] - "زنوبيا ملكة تدمر والشرق" لخالد الأسعد وأوفه ويدبرغ، ص 112، إذ أشارا إلى أن هذه الأعمدة تحمل تماثيل نصفية للأباطرة السوريين سيفيروس وابنه كراكلا والاغابالوس وفيليب العربي وجوليا دومنا وأختها.

6- صالة الولائم الدينية: يقع المبنى في الزاوية الغربية من الأغورا، وتقام فيه الحفلات والولائم الدينية.

7- مبنى مجلس الشيوخ: بناء مستطيل الشكل، له مدخل وباحة تحاط بأروقة مرفوعة على أعمدة، وصدر البناء على شكل حنية (انحناءات رشيقة)، وله مدرج لجلوس الأعضاء. يقع بقرب الأغورا وسط باحة محفوفة بالأروقة.

8- دار الأموات: وتقع في نهاية الشارع المستقيم، وهي مقبرة على هيئة دار، تتقدمها عتبة ذات رواق معمد وجبهة مثلثة بقي منها أعمدة وجزء من واجهتها.

9- باب دمشق: يقع في نهاية باحة بيضاوية الشكل لها بوابة بثلاثة مداخل أطلق عليها اسم بوابة دمشق.

10- معسكر ديوقلتيانوس (دقلديانوس): يتفرع شارع عن الشارع المستقيم في اتجاه الجنوب الغربي، محاط بالأروقة المحمولة على أعمدة. وكان يقوم في هذا الشارع الفرعي معسكر يشبه تصميمه المعماري تصميم قصر ديوقلتيانوس الباقية آثاره في سبوليتو في يوغسلافية الآن. وقد أنشئ هذا المعسكر خلال فترة العهد الرباعي[1] في نهاية القرن الثالث. وهو يشبه القصر المحصن، ويحيط به سور المدينة من جهاته الأربع. ويمكن الدخول إليه من باب الحراس الذي يليه نصب شبيه بالترابيل، ثم تأتي باحة تحتوي على"معبد الأعلام" الذي يؤدي فيه الجند الشعائر الدينية. كما كان يوجد معبد آخر كان مكرساً لعبادة اللات.

11- الفوروم: ساحة عامة واسعة تستخدم للنقاش والمناظرة.أبعادها 62x44 م.

12- الدور التدمرية: شمل سور يوستنيانوس (جوستنيان) بعضاً من دور تدمر خارج السور، والتي نشأت خلال فترة الازدهار في القرن الثالث خلال عصري أذينة وزنوبيا. وتقع تلك الدور إلى الشرق من معبد"بل"، وبداخلها كشف النقاب عن عدد من الغرف المفروشة بالفسيفساء.

13- وثيقة التعرفة الجمركية: يعود تاريخ هذه الوثيقة الهامة التي عثر عليها قرب الأغورا إلى عام 137م. وهي كناية عن حجر ضخم عرضه خمسة أمتار، محفور عليه مرسوم أصدره مجلس شيوخ تدمر يحدد قيمة الضرائب والمكوس، كما يحدد مقدار الرسوم لمن يريد الانتفاع من مياه نبع أفقا ونبع السراي. ويتألف النقش من أربعمائة سطر. وتعد هذه الوثيقة من أوضح الدلائل على الدور الهام الذي كانت تلعبه تدمر في حركة التجارة الدولية في ذلك الزمن، وذلك بعد أن ضم ترايانوس (تراجان) دولة الأنباط

---

[1] -العهد الرباعي هو الائتلاف الرباعي الحاكم برئاسة الامبراطور ديوقلتيانوس وعضوية كبار ضباط الجيش. حيث قام ديوقلتيانوس بتقسيم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية كبرى، على رأس كل قسم منها حاكم إداري عام يتمتع إما بلقب أوغسطس أو قيصر، ويعتبر الواحد منهم شريكاً للامبراطور في حكم الامبراطورية. وقد تمكن هذا الحكم الرباعي أن يخوض الحرب ضد الفرس، كما استعاد النظام والهدوء في جميع أنحاء الامبراطورية، وأدخلت خلاله إصلاحات إدارية على أنظمة الدولة.

وعاصمتها البتراء إلى الامبراطورية الرومانية في 106م، وأنشأ بدلاً عنها ولاية العربية وعاصمتها بصرى، فتولت تدمر بشكل كامل شؤون التجارة التي كان يديرها الأنباط.

14- القلعة: مشيدة على التل المشرف على تدمر من ناحية الشمال الغربي. وقيل أنها بنيت في عهد الأمير فخر الدين المعني (1583-1635م). ويعتقد أنه لم يقم إلا بإدخال تعديلات عليها وترميمها، بينما يعود بناؤها إلى الفترة الأيوبية بين القرنين الثاني والثالث عشر.

15- نبع أفقا الكبريتي (مخرج الماء والشروق)؛ ومعناه بالتدمرية: البداية أو الفجر. ويقع في جنوب غربي المدينة. فتدمر هي هبة نبع أفقا. ويعد النبع سبب نشوء المدينة وشريان حياتها. وهو الذي جعل منها واحة خضراء ومحطة استراحة للقوافل بين الشرق والغرب مما جعلها تحتل الموقع الأهم على مركز تقاطع طرق التجارة الدولية القديمة. وكانت مياه النبع تتدفق بين الصخور بحرارة ثابتة (33ْ مْ) على مدار العام، عبر كهف يمتد لمسافة نصف كيلومتر في جوف جبل المنطار. لكن مياه النبع جفت في العام 1994.

16- المدافن: اهتم التدمريون اهتماماً عظيماً بفن العمارة الجنائزي، وذلك ببناء صروح قبورموتاهم كأنها القصور، لاعتقادهم أن القبر هو المستقر الأبدي وهو دار المقام والنعيم، فأطلقوا عليه بيت الأبدية الذي تأوي إليه الأرواح بعد استقرار الأجسام فيه بسلام واطمئنان بعد أن تكون هذه الأرواح قد تركت أجسادها عند الموت. ويوضح لنا هذا مقدار إيمان التدمريين العميق بخلود النفس والبعث في الحياة الثانية الأبدية بعد الموت. لذلك، فقد بالغوا في العناية الفائقة بمدافنهم وقبورهم إلى درجة التقدير والقداسة.

تنتشر المدافن خارج المدينة والأسوار في الشمال والشمال الغربي والجنوب الغربي والجنوب الشرقي للمدينة. ويظهر من دراسة هذه المقابر أن التدمريين قد اهتموا بالمدافن رغبة منهم في دفن موتاهم في مقابر لائقة تتصف بالأبهة والفخامة. ومن تلك المقابر ما هو عائلي (المدفن البيت)، ومنها ما هو جماعي، أو فردي. واتخذت أشكالاً مختلفة؛ فمنها ما هو على هيئة سرداب (مدافن الكهوف)، ومنها المدافن الأرضية، ومنها ما هو على هيئة برج (المدفن البرج) متعدد الطوابق وبالغ الارتفاع، والذي بقي عدد منها قائماً في أفضل حال حتى الآن.

ومن أهم هذه المدافن: آثار دار الموتى وقبر مارونا من القرن الثالث. وكلاهما لأفراد أقارب. وهناك أيضاً مدفن الإخوة الذين تظهر أسماؤهم منحوتة بالخط التدمري على سقف باب حجري، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة ويرتقي إلى عام 144م، ويحتوي على رسوم ملونة على الجدران في نهاية الممرات الثلاثة. وتصميم هذا المدفن السرداب جاء على شكل حرف T. وفي الممرات الثلاثة توجد ستة حفر مستطيلة غائرة في قلب الصخر تظهر بعد كل متر تقريباً. وقد خصصت هذه الحفر لاحتواء جثمان الأموات، وبلغ عدد تلك الحفر أو المعازب 390 معزبة. وهناك توابيت حجرية منحوتة. ووجد في عدد من مدافن تدمر منحوتة كبيرة تمثل الميت راحلاً إلى عالم الأموات

مستلقياً على سرير ومستنداً على وسادات وهو يتناول وليمة الأموات مع الأحياء من أسرته.

وتقع أهم المدافن البرجية في الجانب الغربي من تدمر، أي في وادي القبور. وهذه المدافن مربعة الشكل ومؤلفة من عدة طوابق، إذ يحتوي كل طابق على العديد من المعازب، وهناك درجٌ من طابق لآخر. وزينت هذه المدافن بالألوان والزخارف والصور المنحوتة. ويعود أقدمها إلى القرن الأول الميلادي. ومن أشهرها مدفن جابليك المؤرخ في 83 م، والواقع على سفح تلة أم القيس.

من خلال إيمان التدمريين الديني العميق بالخلود والأبدية بعد الموت، وذلك بعودة الروح إلى الجسد، اهتموا بالمحافظة على الجسد بأفضل صورة ممكنة انتظاراً لعودة روحه إليه، وذلك من خلال عملية التحنيط لهذا الجسد. حيث دلت حملات التنقيب الأثري في المدافن التدمرية على وجود موميات شبه كاملة، وبعضها ناقصة. وبعض المكتشف منها نقل إلى فرنسة خلال فترة الانتداب على سورية، وبعضها موجود في بعض المتاحف الأوربية، وبعضها الآخر يعرض حالياً في متحف تدمر الوطني. إلا أن ممارسة التدمريين لفن التحنيط لم يرق إلى ذلك الذي كان عند المصريين، لا من حيث المستوى ولا الانتشار.

17- القصر: اكتشفت البعثة اليابانية في عام 1990 جناحاً من قصر بلغت فيه مظاهر الفن التدمري أرقى درجاته.

18- الأعمدة التذكارية: وهي أعمدة موزعة في أماكن مختلفة من تدمر، أقيمت بمرسوم صدر من مجلس الشيوخ والشعب لتكريم الشخصيات التي ساهمت في خدمة وازدهار المدينة وحمايتها.

ثانياً: المباني الدينية الوثنية

كُرست معابد تدمر لعبادة بل ويعلشمين ونبو بالدرجة الأولى. ويتجلى في أديان تدمر نماذج من الأفكار الدينية أتت من أماكن مختلفة ليس من السهل تحديد مصدرها وهويتها. وقد يصل أعداد الآلهة في تدمر إلى الستين: فالآلهة بعل وبعلشمين واللات انتقلت من شبه الجزيرة العربية، وبعضها جاء من آلهة اليونان، والإلهة أتارغيتس، والإله نبو، والمعبد الامبراطوري الذي يؤله القيصر الحاكم، ومعبد اللات، ومعبد أرصو.

1- معبد بل: أهم وأكبر معبد في تدمر، بني فوق تلة، ويعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. وتدل بعض النقوش على أن هذا المعبد بني فوق معبد سابق، حيث بني أيضاً فوق معبد أقدم يعود إلى الفترة العمورية في بدايات الألف الثانية قبل الميلاد. و "بل" هو إله تدمر الأكبر، وهو رأس الأرباب، وهو الإله البابلي مردوخ، وهو يعادل الإله زيوس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان. فقد كان بل يمثل رأس مجمع الأرباب التدمريين. وكان يعبد في معبد بل الثالوث التدمري (بل- يرحبول- عجلبول).

ويزين الجدران الخارجية للمعبد عضادات كورنثية[1] ملتصقة بالجدار. ويخترق الجدران الأربعة بانتظام نوافذ مستطيلة الشكل ومثلثة الجبهات. وللمعبد مدخل رئيسي في السور الغربي يتقدمه درج عريض يصعد إلى رواق خارجي له ثمانية أعمدة، ويفضي إلى بوابة جميلة لها ثلاثة مداخل كانت تغلق بأبواب من البرونز المذهب، وعلى طرفيها برجين مزخرفين. بحيث يدخل الشعب منها إلى ساحة مربعة الشكل مفروشة بالبلاط ومغلقة بسور، وأبعادها 205×210م. وعلى جنبات الساحة أروقة ظليلة يحملها صفان من الأعمدة الكورنثية نصبت على حواملها تماثيل أعيان المدينة. ويوجد إلى يسار المدخل نفق مفتوح يصعد إلى مستوى باحة المعبد وينتهي عند مذبح التقادم والأضاحي، وتقوم إلى الجنوب من المذبح بقايا دار مخصصة للولائم وفيها حوض ماء للتطهر والاغتسال. وتقودنا بوابة جميلة إلى مبنى الهيكل أو قدس الأقداس المستطيل الشكل (ناووس أوسيلا)، والذي يحيط به رواق تحمله أعمدة مخددة كانت تتوجها تيجان كورنثية من البرونز المذهب. وفي ضلعي الشمال والجنوب من الحرم توجد محاريب كانت تنتصب في داخلها تماثيل الأرباب؛ فمحاريب الشمال مخصصة لتماثيل الآلهة (بل ويرحبول وعجلبول)، بينما محراب آخر في الجنوب مخصص لتمثال الإله بل لوحده. ويعج سقف كل محراب بالزخارف والزينة التي تثير الإعجاب.

2- معبد بعلشمين: كان بعلشمين يمثل سيد السموات والعالم والخلود، والرأس الثاني لمجمع الأرباب التدمريين. واختلطت مهماته وصفاته بمهمات وصفات الرب، ووصف بأنه رب الخصب والعواصف والمطر، وبأنه الطيب والكبير والمثيب والرحمن. أقيم المعبد سنة 130م فوق معبد أقدم. ويحتوي المعبد كل مستلزمات العبادات الوثنية من عتبة وأروقة وباحة ومذبح، وتتألف ردهته من ستة أعمدة كورنثية؛ على أربعة منها قواعد بارزة لوضع تماثيل لشخصيات تدمرية مشهورة. وما تزال لوحة كتابية مؤرخة بالعام 115م أمام المذبح.

3- معبد الإله نبو[2] (المعبد الكورنثي): يعود تاريخ المعبد إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، ويقع قرب مدخل قوس النصر (الشارع المستقيم). فقد كان الإله نبو معبوداً في بابل، وهو ابن الإله مردوخ، وبالتالي فهو الابن البكر للإله بل واسمه في البابلية (نبيوم) التي تعني النبي أو الرسول، حيث كان يمثل رسول الحكمة وأمين سر الأرباب الذي يسجل المقادير في اللوح المحفوظ، وهو سيد القلم ودعامة العالم، وكانت شعبيته كبيرة في

---

[1] – تعود التسمية إلى أسلوب وطريقة مدينة كورنثوث الإغريقية القديمة في فن العمارة وتصميم وبناء الأعمدة الحجرية والرخامية التي يتبع في تصميمها المزج بين التصميم الكلاسيكي الثابت والبسيط، حيث يعلوها تاج مربع كثيف المنظر يرتاح فوق قالب حجري مربع الشكل، وبين شكل الدُرج أو على شكل لفافة ورق البردي المفتوحة في وسطها والملفوفة من طرفيها، وبين أشكال من الزخارف الفنية الرقيقة والدقيقة في ترتيب كلاسيكي جذاب تتداخل معه أشكال متعددة من أوراق الأزهاروالنباتات المنحوتة. والمزج بين الأساليب الثلاثة في العمل يجعل من تصميم الأعمدة الكورنثية المنصوبة وتيجانها منظراً بديعاً في اتساق وانسجام جمالي وذوق فني رفيع مثير للإعجاب والتأمل.

[2] – انظر نبو (نابو) الإله البابلي – الآشوري في سيرة سميراميس (الفصل الثاني من هذا الكتاب).

بلاد الرافدين وفي سورية. فقد كان في نظر الإغريق والرومان نظيراً للإله أبولو. وبالدخول إليه يقودنا قوس ضخم ببوابة لها برجان إلى باحة كبرى مطوقة بالأروقة الظليلة. ويوجد مذبح مربع يتقدم قدس الأقداس، وفي كل زاوية من زواياه ثلاثة أعمدة. ويقوم الهيكل (قدس الأقداس) بشكل شبه منحرف فوق مصطبة مدرجة، وتطوف به أروقة ظليلة تحملها تيجان كورنثية الطراز. وفي المعبد كتابتان تشيران إلى عبادة هذا الإله. وتقع الحمامات التي شيدت في عهد المملكة التدمرية بأعمدتها الضخمة إلى الشمال من معبد نبو.

4- معبد اللات: هو معبد الربة العربية، الآلهة الأم عند العرب، الذي كشفت عنه البعثة[1] البولونية برئاسة ميشال غافليوفسكي سنة 1975. ويعود تاريخ مباشرة بنائه إلى منتصف القرن الأول ق.م، وأعيد توسيعه بعد نصف قرن تقريباً. وتم اكتشاف منحوتة التمثال المرمري للربة اللات، والذي يحاكي الصورة الرائعة للربة اليونانية أثينة التي نحتها الفنان فيدياس في القرن الخامس ق.م، وتمثال أسد اللات الذي يظهر قائماً على يديه فاغراً فاه وهو يمسك بين يديه بحيوان المها يقف اليوم في مدخل متحف تدمر الوطني، وعلى ساعده الأيسر الكتابة الآرامية تقول: " تُباركُ اللات كل من لا يسفك الدماء في المعبد"، فكل من دخل المعبد هو بسلام آمن. وهو نص عربي قديم لتحريم الحرب والقتال لأربعة أشهر معينة في السنة. وقد شدد القرآن على تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعةٌ حرمٌ ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة واعلمواأن الله مع المتقين) [2].

5- معبد أرصو: معبد الإله أرصو (الرب رضا عند العرب)، وكان يطلق عليه الرحمن الرحيم؟ فهو إله القوافل وحاميها في تدمر. ووجد إلى الغرب من الأغورا، ودلت عليه كتابة منقوشة على مذبح ومكرسة للإله أرصو. وتمثله بعض التماثيل وهو يمتطي جملاً كإله للقوافل. وقد كشفته بعثة سورية من السادة خالد الأسعد وعلي الطه في عام 1980.

لم يتم العثور على معبد أتارغيتس (آلهة الخصب عشتاروت) إلى الآن. ولم يتم العثور على مكان الغابة المقدسة التي تتحدث عنها بعض المصادرالقديمة. بينما عثر في مدخل نبع أفقا على مجموعة هامة من المذابح الحجرية النذرية التي تكرس لإله الشمس وحامي النبع، الإله يرحبول.

ثالثاً: الآثار المسيحية

عثر على مخطط وبقايا لكنيستين في قلب السور البيزنطي بين معبد بعلشمين والمعبد الضريحي في طرف السور، حيث توجد منطقة سكنية منظمة مدنياً.

---

[1] – خالد الأسعد وويدبرغ هانسن: "زنوبيا ملكة تدمر والشرق"، الصفحات (113- 119).

[2] – التوبة، الآية 36.

1- الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية): وتقع على بعد 130 متراً إلى الشرق من معبد بعلشمين وفندق زنوبيا الحالي. والمعبد كنيسة بازليكية ذات أسواق ثلاث: السوق الأوسط منها أكبر من الجانبين. والكنيسة مستطيلة وكبيرة، فيها حنيّة ومن جانبيها الدياكونيكون والبروثيسيس. وعثر فيها على ناووس يحتوي بقايا من عظام شهداء، وناووس آخر لأحد القديسين. ولم يبق منها أي أثر اليوم.

2- الكنيسة الصغرى: أصغر من الكبرى، وهي على بعد مائة متر تقريباً إلى الغرب منها. وكانت ذات نمط بازليكي، أي فيها ثلاثة أسواق: الأوسط منها يمتاز باتساعه من الجانبين. وشكلها مستطيل، فيها حنية وإلى جانبها داران، هما: الديكونيكون والبرثيسيس[1]. لم يبق منها أي أثر اليوم.

تحولت بعض المعابد الوثنية إلى كنائس بعدما سادت المسيحية جميع ربوع الامبراطورية البيزنطية. وقد منح يوستنيانوس (527-575)م مقوم الشرق الثقة لتجديد تدمر وكنائسها، فحول معبدي بل وبعلشمين الوثنيين إلى كنيستين. وفي القرن الثاني عشر حولت الكنيسة إلى مزار ومصلى ومسجد للمسلمين.

أصول وبدايات زنوبيا

نتيجة للغموض الذي يلقي بظلاله على بدايات زنوبيا رفض المؤرخون المحدثون الاستجابة لملء الفراغ بالتفاصيل الضائعة عن حياة الأعراب الذين عاصروا مملكة تدمر منذ بدء نشوئها بصعود نجم أذينة كحاكم وقائد لتدمر في نهاية الربع الأول وبداية الثاني من القرن الثالث. إلا أن واحدة من القصص الشعبية تحدثت عن والد زنوبيا كزعيم صحراوي تنعمَ بأكثرمن زوجة، ورزق بعدد من الأبناء الذكور وابنة وحيدة هي زنوبيا. وعلى عادة العرب قبل الإسلام بعدم الشعور بالرضا لقدوم البنات، والقيام بوأدهن في أحيان كثيرة، حاول والدها أن يتخلص منها وهي مازالت صغيرة. لكن شاء القدر أن يتم إخفاؤها عنه في بيت عاشت فيه مع أغلبية من الصبيان وأقلية من البنات حتى بلغت مبلغ الشباب، فاكتسبت مبكراً مواهبها ومهاراتها في الصيد والقنص ومشاركة الصبيان في التدريب على امتلاك قدرات ومهارات الاحتمال الجسدي العالية، مع محافظتها الدائمة على أن تكون نداً وخصماً عنيداً لأقرانها من الأولاد والصبيان، وصونها لنفسها من التسليم لأحد منهم، وكأنها كانت تستوحي قدرها المستقبلي المثير. وهذا لم يكن إلا القليل المعروف عن فترة طفولتها وصدر شبابها المبكر للإضاءة على قوة وقدرة هذه المرأة التي عادلت بقدراتها القدرات الذكورية بل وبزتها.

[1] - الديكونيكون هو المكان الذي تحفظ فيه الأواني والأوعية التي تستخدم في الكنيسة. والبروثيسيس: المكان الذي تتم فيه الإعدادات التمهيدية للقربان المقدس.

لا يعرف على وجه التحديد تاريخ ولادة زنوبيا بدقة. ولكن يعتقد أنّ ولادتها كانت في السنوات الأخيرة من الثلث الأول من القرن الثالث. وقد سميت باسمها العربي: زينب أو الزباء بنت عمرو بن الظرف بن حسان بن أذينة السميدع، وفي مصادر أخرى: زينب، وبت زباي[1]، أي بنت زباي بن سليم أو يوليوس أورليوس زنوبيوس[2]. وتم العثور على لوحة مكتوبة باللغتين التدمرية واليونانية تؤرخ مناسبة زيارة الامبراطور الروماني اسكندر سيفيروس لتدمر في 231–232م، وجدت على عمود يقع في آخر الرواق الشمالي مقابل عمود زنوبيا الواقع في الشارع الطويل، إذ تشير الكتابة إلى يوليوس أورليوس زنوبيوس، أو زباي والد زنوبيا، حاكم تدمر عند زيارة الامبراطور.

نسب جواد علي في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص103 وما تلاها، أحاديث وقصص عن الزباء[3] عزاها للإخباريين العرب (الطبري، ابن الأثير، ابن خلدون.. ..)، واسمها عندهم: نائلة، وعلى زعم آخر الزباء، وفي ثالث ليلى بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العميلقي: من العماليق. وكانت تشتو في قصر أختها (زبيبة) الحصين على شاطئ الفرات الغربي. وكان لها جنود من بقايا العماليق والعاربة الأولى، ويزيد وسليح ومن كان معهم من قضاعة. كما زعم بعض هؤلاء الإخباريون أن الزباء من بني قطورة من أهل مكة.. وأوردوا أحاديث وروايات عن اقتتال شديد بين والد الزباء ومالك بن فهم حروب هلك عمرو في بعضها، وكان مالك على ما يصفه الإخباريون رجلاً قديراً يغير على ملوك الطوائف حتى غلب على كثير منهم، وهو في نظرهم أول من ملك من عرب الضاحية. وكان منزله مما يلي الأنبار. وقد ملك بعده أخوه عمرو بن فهم، فلما هلك تولى من بعده جذيمة الأبرش أو الوضاح، الشهير في تاريخ الحيرة، الذي بدوره استمر في العداء لوالد الزباء فقتله، فأجمعت الزباء للأخذ بثار أبيها، فعمدت إلى الحيلة والمكر بالتصالح مع جذيمة، فاستدرجته إلى عاصمتها وقتلته. فطلب قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس بن ربي بن نمارة بن لخم، وكان أريباً حازماً أثيراً عند جذيمة بن الأبرش، الإذن من خليفة جذيمة على الحيرة لقتال الزباء، فأحجم أمير الحيرة الجديد عن ذلك. فلما رأى قصير ذلك قرر أن يأخذ هو بالثأر، فذهب إلى الزباء مدعياً أنه مضطهد ممقوت من قومه بحجة مساهمته في مقتل جذيمة، فاطمأنت

---

[1]– جاء في كتاب د. محمد محفل "دمشق.. الأسطورة والتاريخ"، ص 207: (.. إن اسمها التدمري، كما جاء في الكتابات التدمرية المنقوشة على الحجر – النقش رقم 3947 الوارد في جامع النقوش السامية– هو بت زباي.. ونعلم أن اسم زنوبيا قد اختلط لدى الإخباريين العرب مع اسم الزباء صاحبة رواية جذيمة الأبرش وقصير بن سَعد.. أما اسم زنوبيا فهو من أصل يوناني مركب من كلمتين: زن Zen وهو اسم الإله زيوس في اليونانية، وبيا Bia بمعنى القدرة والجبروت..).

[2]– Queen Zenobia`s Last Look Upon Palmyra, by Herbert Schalz, p.11

تطبع التدمريون، كغيرهم من سكان البلادالمحتلة، بأسماء يونانية ورومانية خلال الفتحين اليوناني والروماني.

[3] – انظر ايضاً رواية أبو سعيد الحميري في كتابه " الحور العين"، تحقيق كمال مصطفى، دار آزال– بيروت، ص (354– 358)، عن قصة جذيمة والزباء. وقد وردت قصتهما أيضاً في كتاب الأمثال للمفضل الضبي، الذي حققه إحسان عباس. ولا تستند روايات الإخباريين إلى أسس تاريخية إن قصدوا بذلك زنوبيا ملكة تدمر.

له الزباء ووثقت به وأعطته تجارة لتصريفها عند قومه، فعاد بأرباح كثيرة لها، فزادت ثقتها به فتكررت رحلاته التجارية لصالحها، حتى إذا ما وثق من اطمئنانها عاد إليها برجال أشداء من بني قومه ومعهم عمرو بن عدي أمير الحيرة، وضعهم في جوالق كبيرة، فلما توسطوا المدينة أنزلت الجوالق وخرج الرجال منها، فوضعوا سيوفهم في رقاب أهل المدينة. فلما رأت الزباء ذلك أرادت الهرب، غير أن عمرو اعترض طريقها، فلما رأته الزباء مصت خاتمها، وكان فيه سم، قائلة: بيدي لا بيدك ياعمرو.. إلى آخر القصة المروية عند جوادعلى كما يرويها عن الإخباريين العرب. وهذا مناقض ومخالف للحقائق التاريخية المعروفة عن زنوبيا، كما أن الرواية تبدو ساذجة إلى حد ما .. اللهم، إلا إذا كانت مثل هذه الروايات عن شخصية أخرى؟ لكن، يمكن القول أنّ الأسطورة هنا تختلط بالواقع التاريخي عند بعض الإخباريين العرب، إذ يتكرر اسم الزباء على أنها زنوبيا التاريخية!

دانت سورية الكبرى، من ضمن بلاد شرقية أخرى، للفتح اليوناني الذي قاده الأسكندر المقدوني سنة 332 ق.م. وبعد موته اقتسم أركان جيشه الإرث الذي خلفه قائدهم، فاستقل سلوقس نيكاتور بسورية وفارس وغالبية آسية الصغرى وباكترية (أفغانستان الحالية)، وأقام الدولة السلوقية التي دامت من 312 ق.م حتى تاريخ الفتح الروماني بقياده القائد العسكري والسياسي الروماني بومبيوس[1] Pompeius سنة 64 ق.م. وكانت لغة وثقافة الدولة السلوقية هي اللغة والثقافة اليونانية، حيث سادتا مع الزمن ربوع الدولة السلوقية، بما فيها تدمر. وبعد الفتح الروماني بدأت اللغة والثقافة اللاتينية تسود في جميع أنحاء وولايات الامبراطورية. فأثرت الثقافتان اليونانية والرومانية، ضمن من أثرت عليهم، على تدمر ومجتمعها تأثيراً عميقاً، فتكنت الطبقات العليا خاصة، بأسماء وألقاب يونانية ولاتينية. فسميت زنوبيا بالاسم اليوناني Septimia Zenobia/ سبتيما زنوبيا، وأخسينوبيا Xenobia، ثم أضيف إلى اسمها، سبتيميوس أوذيناتوس، بعد زواجها من أذينة. وعرفت بالاسم اللاتيني: Julia Aurelia Zenobia/لوليا أو جوليا أورليا زنوبيا. كما كان يطلق على والدها اسم زباي بن سليم أو لولياس Zabaii ben Selim or Lulias، يوليوس أورليوس زنوبيوس. وقد ذكر أن والدها كان رئيساً أو شيخاً على تدمر في 229 م[2]. ويظهر من اسم والدها النبيل أورليوس أن أسلاف عائلتها قد منحوا المواطنة الرومانية إما خلال فترة الامبراطور أنطونينوس بايوس

---

[1] – بومبيوس (106– 48) ق.م. اسمه اللاتيني غنايوس بومبيوس ماغنوس Gnaeus Pompeius Magnus، جنرال وسياسي روماني عرف باسم بومبيوس الكبير (بومبي)، شارك بإقامة التحالف الثلاثي الأول سنة 60 ق.م (First Triumvirate)، وذلك بعد عودته منتصراً من الشرق. وقد تم هذا الاتفاق بين يوليوس قيصر صاحب الشخصية الديناميكية العنيدة التي كانت تزداد عزماً وتصميماً أمام التحديات، والعقل المدبر والطاقة التي لا تنفذ، وبين بومبيوس صاحب المجد العسكري العريض والفتوحات في أفريقية والبحر الأبيض والمشرق، ومعهم كراسوس السياسي الروماني ذو الثراء العريق. حيث كان تحالفهم هذا موجهاً ضد مجلس الشيوخ الروماني الذي كان يخشى على سلطاته من طموحات قيصر وبومبيوس.

[2] – انظر خالد الأسعد وأوفه ويدبرغ في كتابهم " زنوبيا ملكة تدمر والشرق"، ص (157– 158).

(131-161)، أو خلال فترة حكم الامبراطور ماركوس أورليوس أو ابنه كومودوس (161 -180) م.

أظهرت المخطوطات التي وجدت في تدمر أنّ اسم والد زنوبيا أنطيوخس Antiochus كان اسماً يونانياً، بينما ورد اسمه في سفر (التاريخ الأوغسطي /AH, Aurel.312) الذي يؤرخ لسير بعض الأباطرة الرومان، بأنّه أشيلوس/ أخيلوس، وأنّ من تمشيخ على سورية بعده سمي أنطيوخس[1]. ولم يعرف بالتحديد أسلاف زنوبيا القريبين منها زمنياً، إلا أنّ أسلاف والدها من ناحية أجداده الذكور تعود إلى ستة أجيال منهم: Sempsigeramus سيمبسي–غيراموس[2] مؤسس العائلة المالكة في حمص.

وبالإجمال، فللمؤرخين آراء كثيرة عن أصل ونسب[3] زنوبيا، فمنهم من ذهب على أنها مصرية أو من أم مصرية وأب عربي، ومنهم من قال أنها من العماليق (آيشهورن)، ومن قال أنها من أصل آدوم من نسل هيرودس (المؤرخ اليهودي كريتس)، ومنهم من ذهب إلى أنها من أب عربي ولكنها من دم مصري من ناحية الأم (رايت وأبردلك). ويدعي "التاريخ الأوغسطي– تاريخ الطغاة الثلاثين: 27- 30": أنّ زنوبيا ملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي تنحدر من سلالة إليسا وسميراميس وكليوبترا. لكن أكثرهم ذهب مذهب أصلها العربي. وتجتهد بعض الروايات بالقول أن والدة زنوبيا كانت مصرية ربما تنتمي بأصولها القديمة للعائلة البطلمية التي كانت تحكم مصر، وكان آخر ملوكها الملكة المصرية المشهورة كليوبترا[4] (السابعة). من هنا قد يأتي إلمام زنوبيا باللغة المصرية القديمة، وميلها الشديد نحو الثقافة المصرية، وافتخارها بالانتساب إلى الملكة كليوبترا. فقد أصدرت زنوبيا أمراً ملكياً[5] أو مرسوماً امبراطورياً سنة 269 م، بعد احتلالها لمصر، تخاطب فيه مواطني الأسكندرية وتصف المدينة (الاسكندرية) بأنها "مدينة أسلافي"، حيث ظهر هذا الإعلان منسجماً مع ما يهيئ لوهب اللات بن زنوبيا. لكن ادعاء زنوبيا لم ينحصر فقط بنسبها إلى كليوبترا والعائلة الحمصية المالكة، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث ادعت بالعودة بهذا النسب إلى الأميرة الفينيقية إليسا (ديدو) مؤسسة وملكة قرطاج في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. كما رأت زنوبيا نفسها في المجلدات التاريخية العشرة عن تاريخ

---

(1) - Zos.1.60.2

(2) - عرفان شهيد: "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، الصفحتان 50- 51 (.. في حمص والرستن في وادي العاصي حكمت مجموعة من العرب تحت سلطة سيمبسي غيراموس الذي تحالف مع جاره عزيز إلى الشمال متدخلاً في شؤون الأسرتين السلوقيتين الأخيرتين، حيث كان هذا من ضمن التعاون النادر بين الأسر العربية الحاكمة في المنطقة في هذا العصر..)

(3) - ربما كان انتساب زنوبيا إلى سلالات ملكية متعددة يعد نوعاً من سياسة صنع الصداقات، وهدفاً من أهداف الدعاية السياسية والثقافية والافتخار. إلا أن جميع المصادر التاريخية لم تذكر ما ذهب إليه زوسيموس من ادعائها بالنسب إلى السلوقيين ومحاولتها تأسيس مملكة هلنستية خارج حدود زمانها: من مصر حتى آسية الصغرى. ويبدو أن نسبها إلى ديدو وسميراميس رؤي كقصة متحررة من القيود التقليدية تمثلت بالبلاغة اللاتينية المتكررة في التاريخ الروماني بمحاولة النسب لكل ماهو عظيم.

(4) - انظر الفصل الرابع، كليوبترا، من هذا الكتاب.

(5) - التاريخ الأوغسطي.

الاسكندرية، والتي كتبها مؤرخ البتراء كالينيكوس وأهداها إلى كليوبترا. وربما أتى انحدار زنوبيا بأصولها من خلال السلالات الثلاثة الحاكمة البارزة التي مر ذكرها من طرف الأميرة دروسيلا الموريتانية حيث كانت دروسيلا ابنة ملك موريتانية البطليمي وأمها ملكة موريتانيا جوليا يورانيا. ومن المحتمل أن جوليا يورانيا جاءت من العائلة الملكية الحمصية. كما كانت جدة دروسيلا لوالدتها الملكة كليوبترا الثانية سيلين Cleopatra II Selene ملكة على موريتانية، التي كانت ابنة الملكة البطلمية المصرية كليوبترا السابعة من والدها القائد العسكري الروماني الشهير ماركوس أنطونيوس. كما كان جدها لوالدها جوبا الثاني ملكاً على موريتانية، والذي كان ينسب إلى شقيقة أو أخت القائد العسكري القرطاجي الشهير هانيبال[1]، إذ أنَّ عائلة هانيبال (آل برقا) تنحدر من طرف الأخ الأصغر للملكة القرطاجية إليسا (ديدو). وهؤلاء جميعاً، ما عدا طرف كليوبترا المصرية، ينحدرون من أصول فينيقية كنعانية.

وصفت زنوبيا[2] بجمالها الآخاذ وذكائها الحاد وملاحظاتها النافذة، وامتازت ببشرة شديدة الاسمرار كان يشع منها بريق وضاء ساحر، وكانت أسنانها ناصعة البياض مصفوفة كأنها حبات اللآلئ، وعيونها شديدة السواد والبياض تشع لمعاناً وذكاء، وكان وجهها بمنتهى التناسق والجمال والجاذبية مفعماً بالحيوية والبهاء. وقد كانت العادة أن تلف جسمها الرشيق المكروب بأثواب من الحرير القرمزي الألوان والمرصع بالجواهر والحلي. وكان صوتها نقياً معشق النغمات، وفيه الكثير من السحر والترنيم، لكنه قوي وصارم عندما يقتضي الحال ذلك. كما وصفت بالعفة والنقاء. وكانت قدراتها على الاحتمال النفسي والجسدي تبز قدرات الرجال؛ صارمة كدكتاتور، كريمة كامبراطور. وكانت تستمتع برياضة الصيد والقنص بمطاردة الأسود والنمور والحيوانات البرية الأخرى في الصحراء بحماسة تضاهي حماسة وجلد وقوة احتمال لم يقدر على تجاوزها إلا الرجال الأشداء. فقد كانت معتادة على تحمل المشاق وهي على صهوة جوادها في الهيئة العسكرية. وكثيراً ما كانت تتقدم الحشود سيراً على الأقدام، ومع كل هذه الأوصاف كانت تتصف بالحكمة والاتزان والحصافة والحلم. وإجمالاً، وصفت زنوبيا بأنها مقدامة كديانا وجميلة كفينوس[3].

أجمعت معظم الروايات والحوليات والمصادرالتاريخية والكنسية القديمة على أنَّ ثقافة زنوبيا العالية لم تكن محل شك، إذ كانت تتحدث اليونانية والآرامية والمصرية القديمة وبعض اللاتينية، إلى جانب العربية لغتها الأم. كما اهتمت اهتماماً كبيراً بالتاريخ

---

[1] – Lucan، Pharsalia 8. 287

[2] – أشار المؤرخ البريطاني إدوارد غيبون في الصفحة 408 من الجزء الأول من كتابه في اللغة الانكليزية: The Decline and the Fall of the Roman Empire" / انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية" إلى وصف بوليو لزنوبيا في" التاريخ الأوغسطي" (Pollio, AH, p.192,198).

[3] – ديانا Diana: أسطورة رومانية قديمة تقول أن ديانا كانت إلهة الصيد والقنص والعفة والأدب. وهي تماثل آرتميس Artemis عند اليونان. وتقول أسطورة فينوس بأنها كانت إلهة الحب والجمال عند الرومان، حيث تساويها أفروديت عند اليونان.

والفلسفة وبأعمال هوميروس وأفلاطون وكتاب يونانيين آخرين. واستقدمت إليها من أثينة لونجينوس الفيلسوف الحمصي الأصل فجعلته معلمها ومستشارها الأول، كما استقدمت أيضاً بولس السميساطي من أنطاكية.

كانت زنوبيا بديعة الجمال رائعة القسمات أنيقة الهندام، إلا أنّ جمالها لم يقدها إلى الانسياق وراء رغبات حسية، كما كان حال سابقتها كليوبترا، بل التزمت جانب العفة والطهارة والسمو، فصانت شخصها من الانحدار والسقوط. إلا أنها امتلكت قلباً لا ترعبه الأهوال، وعقلاً طموحاً إلى المعالي والسؤدد، بعيداً عن صغائر الأشياء والأمور. حيث جعل هذا التميز والحضور الشخصي والأدبي والفلسفي والإداري منها الشخصية المركزية التي التف حولها الجميع.

العالم الروماني قبل مملكة تدمر[1]

اشتد الصراع والحروب بين الطامحين الرومان للانفراد بحكم روما من ناحية، وبين هؤلاء والمطالبين بالعدالة الاجتماعية لتنفيذ الاصلاحات السياسية والاقتصادية. فتم اغتيال ممثلي الشعب الأخوين كراكوس؛ بحيث أدى اغتيال طبريوس سنة 133ق.م إلى نشوب اضطرابات طبقية، وأعقبه بسنوات اغتيال شقيقه غايوس في 121ق.م. شن سولا وماريوس حرباً مشتركة ضد جوغورثا النوميدي بين سنوات (111-105) ق.م. ونشبت الحرب الاجتماعية بين روما وحلفائها بين سنوات (91-89) ق.م، وأعلنت روما الحرب ضد الملك مثريداس الخامس شمال آسية الصغرى بين (89-65) ق.م. وحسم بعدها الخلاف بين ماريوس وسولا سنة 82 ق.م، فاحتل سولا العاصمة روما وأُعلن دكتاتوراً، فأعاد الدستور وقام ببعض الاصلاحات. وجاء انتصار بومبيوس في إسبانية سنة 72 ق.م، والقضاء على ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس سنة 71 ق.م، بعودة حزب الشعب إلى السلطة، فيصبح بومبيوس وكراسوس قنصلين. وهكذا تجري الحوادث سراعاً فيتم تشكيل الائتلاف الثلاثي الأول (60-59) ق.م، والذي ضم بومبيوس ويوليوس قيصر وكراسوس، فاخضع قيصر غاليا، وقتل كراسوس على الجبهة الفارسية سنة 53 ق.م. ويعبر يوليوس قيصر بقواته نهر الروبيكون نحو روما فتنشب الحرب بينه وبين بومبيوس في معركة فارسالوس (49- 48) ق.م، والتي توجت بانتصار قيصر وفرار بومبيوس إلى مصر حيث قتل هناك. وهكذا يصبح قيصر دكتاتوراً وحيداً على روما في سنة 48ق.م، فيتم اغتياله وسط مجلس الشيوخ سنة 44 ق.م، فيتشكل إثر ذلك الائتلاف الثلاثي الثاني سنة 43 ق.م من غايوس أوكتافيوس وماركوس أنطونيوس وليبيديوس للانتقام من قتلة قيصر، فتنتصر قوات الائتلاف الثلاثي على قوات المتآمرين بقيادة

[1] - انظر لائحة الأباطرة الرومان في هذه الفترة التاريخية، ص 26.

بروتوس وكاسيوس في معركة فيلبي سنة 42 ق.م، ليتم بعدها تقاسم حكم البلاد بين أوكتافيوس وأنطونيوس، فيشتد الخلاف فيما بعد بينهما إلى أن حسمه أوكتافيوس بالانتصار على تحالف كليوبترا وأنطونيوس في معركة أكتيوم البحرية (30 ق.م)، فيصعد أوكتافيوس بعدها إلى الأرجوان ويسبغ عليه مجلس الشيوخ لقب الأوغسطس، والامبراطور الأعظم، والكاهن الأعظم، وأبو الأمة.

أعاد أوكتافيوس الاعتبار لمجلس الشيوخ، وأصدر قانون يوليان (جوليان) الذي ينظم شؤون الحياة الاجتماعية للمواطنين وذلك بتعزيزالأخلاق العامة ومحاربة الزنا وتنظيم شؤؤن الزواج. والأهم إرساؤه نظام الحكم الامبراطوري الجديد على أنقاض الحكم الجمهوري القديم، فأصبح أول امبراطور روماني يتبوأ عرش الامبراطورية الرومانية (27 ق.م- 14م).

تأسست الأسرة الامبراطورية الحاكمة الأولى (اليوليو- كلاودية) في روما، والتي بدأها يوليوس قيصر، والذي سقط مضرجاً بدمائه وسط مجلس الشيوخ. لكن عصر الامبراطورية الأول بدأ، عملياً، بأوكتافيوس (27 ق.م-14م) الذي تلاه، ابن زوجته ليويا من زوجها الأول: طبريوس Tibrius، على العرش حتى عام 37 م عند مقتله على يد قائد حرسه الامبراطوري"ماكرو"[1]. وقد كان طبريوس حاكماً كفؤاً إلا أنه لم يكن محبوباً. فخلفه كاليغولا الذي اتهم بالاختلال العقلي، إذ كان عقله يتفتق عن فنون رهيبة في التعذيب والاستبداد والتصرفات الغريبة والغرائز الجنسية، فكرهته الرعية كرهاً شديداً، وكان هو نفسه يشير إلى ذلك بقوله: " فليكرهوني، شريطة أن يخافوني". واغتاله، بعد أربع سنوات، أحد أفراد الحرس الامبراطوري. فخلفه كلاوديوس Claudius الذي استمر من عام41 إلى 54، فاحتل بريطانية، وأظهر حكمة سياسية رغم تردده وضعفه أمام زوجاته، ومات مسموماً على يد آخرهن "أغريبا". فتلاه نيرو/ نيرون Nero (54- 58) م، حيث اشتد الصراع بينه وبين مجلس الشيوخ معقل ملاك الأراضي والعقارات. وقد اتهم بالطغيان والجنون معاً، فأشعل النار في روما وأخذ يتفرج عليها. انتحر أو نُحر لا فرق. وكان الخامس والأخير في السلالة الامبراطورية الأولى: السلالة اليوليو- كلاودية (27 ق.م- 68 م). وقد جسدت هذه السلالة الأرستقراطية وطبقة النبلاء الرومان.

جاءت الفترة الانتقالية بعد انتحار نيرون (68- 69) م، بتولي السلطة ثلاثة أباطرة: القائد العسكري جالبا الذي حكم لمدة سبعة أشهر قبل اغتياله من بعض أنصاره. تلاه أوتون الذي انتحر بعد خمسة وتسعين يوماً من جلوسه على العرش، فخلفه ويتيللوس الذي حكم لأشهر قليلة، وقضى على يد الغوغاء.

جاء واسبسيانوس Vespasianus في نفس العام الذي سقط فيه أباطرة الفترة الانتقالية فاتحاً الطريق أمام السلالة الفلاوية (السلالة الثانية)، التي مثلت الروح

[1] – المؤرخان: سوتونيوس (69- 125) م، وتاكيتوس (55- 120) م.

البرجوازية الإيطالية-الرومانية وطبقة الفرسان. واستمر حكمه حتى سنة 79م. وكان قد كلفه نيرون بقمع حركات التمرد ضد السلطة الرومانية، فأخمد حركة التمرد اليهودية في فلسطين، وبدأ بالسيطرة على الولايات الشرقية حالما علم بموت نيرون ونشوب الفتن والحرب الأهلية، فأمر بقطع الإمدادات عن روما حتى يتسنى له التغلب على منافسيه، فأعلنته الفرق الرومانية العسكرية في مصر امبراطوراً. قام بإصلاحات مالية وعسكرية وبدأ بإنشاء المباني العامة الضخمة التي كان من أهمها الكلوسيوم. وخلفه ابنه تيطوس (79-81). وخلف دوميتيانوس بعد أخيه تيطوس حتى 96م، فبنى الأسوار الدفاعية على الجانب الألماني من الدانوب. واشتهر بحزمه وبمركزيته الصارمة، إلا أنّ فترته انتهت بالإرهاب، فاتهم بالاستبداد، وكانت زوجته من ضمن المتآمرين على اغتياله.

جاءت السلالة الثالثة (السلالة الأنطونية) [1]، التي حكمت من 96 حتى 192م. وسميت هذه الفترة تاريخياً "القرن الذهبي للامبراطورة الرومانية"، وسميت أيضاً "سلالة السلام الروماني Pax Romana"، والتي بدأها الامبراطور ماركوس كوكايوس نيروا Marcus Cocceius Nerva، والذي كان شيخاً مسناً في مجلس الشيوخ الروماني، فأعاد الحكم الدستوري والليبرالي في أعقاب حكم سلفه دوميتيانوس الذي اتصف حكمه بالأوتوقراطية والاستبداد. فحكم نيرفا بالتوافق مع مجلس الشيوخ، وأوصى قبل موته لتراجان/تريانوس، الذي تولى سنة 98 م، واشتهر بإنجازاته العامة، وقضى على التمرد في داكية، وألحقها بالامبراطورية، كما احتل مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء، وأطلق عليها اسم "ولاية العربية Provincia Arabia" وجعل عاصمتها بصرى. وفي عام 117م، وقبل موته، أخذ ترايانوس موافقة مجلس الشيوخ على تعيين مندوبه الامبراطوري على سورية هادريانوس Hadrianus خلفاً له على العرش. وكان هادريانوس من أصول أيبيرية كترايانوس. فطاف بأنحاء الولايات وعزز جميع حدود الامبراطورية، وأقام "سور هادريان" وسط بريطانية لصد هجمات الاسكوتلنديين، وزار تدمر. ويقول بعض المؤرخين العرب أنّ ترايانوس وهاردريانوس كانا من أصول عربية من ناحية أميهما [2]، لكنّ ذلك يحتاج إلى أدلة تاريخية موثقة. خلف هادريانوس، بعد موته في عام 138م، أنطونيوس التقي الذي استمر امبراطوراً إلى161م، وكان من أصول رومانية، وحظيت فترة حكمه بالهدوء على معظم حدود الامبراطورية. اعتبر التقي امبراطوراً وحاكماً مدنياً بامتياز، فكان حكيماً وحليماً وتقياً، ومن هنا جاءت تسميته بالتقي، ومن اسمه أيضاً جاءت تسمية السلالة "الأنطونينية" التي حكمت الامبراطورية الرومانية لمدة مائة عام تقريباً. وقضى مرقس أنطونينوس Marcus Aurelius Antoninus Augustus فترة حكمه الممتدة من 161 إلى 180م في حروب طاحنة ضد هجمات قبائل البرابرة الألمان، وضد البرثيين على الحدود

---

(1) – نسبة إلى حكم الأباطرة الرومان Antoninus Pius أنطونين/ أنطونينوس التقي وماركوس أورليوس.

(2) – ربما ترجع أصولهما من ناحية الأم- إن صح ذلك – إلى الوجود القرطاجي في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الميلاد؟ انظر الفصل الثالث: إليسا ملكة قرطاج – غزو إسبانية وحروب هانيبعل.

الشرقية. وشاركه ابنه كومودوس الحكم من177 إلى 180م. وكان التقي شديد التأثر بالفلسفة الرواقية، ومتأملاً في مذاهبها. خلفه بعد موته ابنه كومودوس من عام 180 إلى 192م، والذي كان على النقيض من والده، سريع الغضب، ومجالداً في حلبات المصارعة، ومعروفاً بشذوذه الجنسي. وقتل على يد الحرس الامبراطوري. فخلفه بريتانكس لأشهر، والذي قتل بدوره على يد الجند، ليخلفه بعد ذلك ديديوس يوليانوس الذي قضى عليه مؤسس السلالة السورية سبتميوس سيفيروس.

استهل حكم الأسرة السورية – من الأباطرة الرومان – بالقائد سبتميوس سيفيروس (ساويروس)، وذلك بعد اغتيال ديديوس يوليانوس سنة 193م. واستمر حكم هذه الأسرة من عام 193 إلى 235. ولد مؤسس حكم الأسرة سنة 146م في ليبتس ماغنا (لبدة الليبية حالياً) على الساحل الليبي. وتزوج من جوليا دومنا ابنة كاهن إله الشمس الحمصي إلاغابالوس. ومنح مدينة تدمر مرتبة المستعمرة الرومانية، وأدخل العديد من الإصلاحات على الإدارة الامبراطورية وعلى الجيش الروماني، وقاد حملة عسكرية على بريطانية سنة 208 لإخماد التمرد في شمال البلاد، ومات في مقاطعة يورك في سنة 211م، ليخلفه ابنه كراكلا امبراطوراً حتى مقتله سنة 217. وأصدر كراكلا سنة 212 م مرسوم المواطنة (مرسوم كراكلا) Constitutio Antoniniana، الذي منح حق المواطنة الرومانية لجميع الرعايا الأحرار في الامبراطورية. وبمساعدة جدته جوليا ميسا، بعد أن قضي على قائد الحرس، أصبح إلاغابالوس باسيانوس امبراطوراً (218-222)، واتخذ اسمه من إله الشمس الفينيقي- الحمصي "إله الجبل"، لأنه كان يقوم بدور كاهن هذا الإله. وقتله الحرس الامبراطوري مع والدته، فخلفه ابن خالته جوليا ماميا اسكندر سيفيروس سنة 222 م، فأعاد إلى مجلس الشيوخ مشاركته في الموافقة على جميع القرارات والمراسيم. وكان اسكندر سيفيروس متسامحاً مع المسيحيين والدعوة المسيحية. قتله الجند سنة 235 م. وبذلك انتهى حكم الأباطرة السوريين الذي حكموا روما لمدة 42 عاماً.

بدأ تسارع الأزمات، فانتشرت الفوضى والقلاقل في كثير من أنحاء الولايات الرومانية، وبدأت تجمعات قبائل البرابرة القوط والجرمان بشن هجماتها العنيفة في الغرب ضد سلطة روما المركزية، وهي تواجه الخطر الفارسي على حدودها الشرقية، فظهر الوهن على مركزية النظام الامبراطوري في روما. وبدأ تاريخياً ما سمي "الأزمة الامبراطورية الرومانية": أزمة القرن الثالث. وقد تناول هذه الفترة وما بعدها بالدراسة والتمحيص والتحليل العديد من علماء التاريخ[1] الغربيين الذين عدوها من أسباب الانحدار الروماني.

---

[1] - Edwardr Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire / انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية، الذي صدرت مجلداته الإثني عشر بين الأعوام (1767- 1788)، وتمت مراجعتها سنة 1845.

بانتهاء حكم الأسرة السورية بمقتل آخر اباطرتها، صعد مكسمينوس الأول[1] إلى العرش سنة 235، وكان من أصول بربرية قوطية، فبقي عليه إلى 238م حيث جاء بعده الغورديان الثلاثة[2] الذين حملوا الاسم نفسه: فأعلن غورديانوس الأول، الملقب بالأفريقي Africanus، امبراطوراً سنة 238 م، فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم، لكنهما قتلا بعد وقت قصير في معركة نوميدية في الجزائر، فخلفهما غورديانوس الثالث ابن الأول، والذي عينَ فيليب العربي قائداً لحرسه الامبراطوري. وقتل سنة 244م على الجبهة الفارسية من قبل جنوده الذين تمردوا عليه مطالبين برجل يقوم على قيادتهم، وليس يافعاً غراً. إذ أنه كان صغير السن وضعيف الشخصية وقليل الخبرة. فانتشرت الفوضى في صفوف الجيش إلى أن حسم الجند الأمر بإعلان فيليب العربي[2] امبراطوراً على روما، وهو مازال على جبهة القتال الشرقية، فاعترف به مجلس الشيوخ، فعقد صلحاً مع شابور الأول ملك الساسانيين الفرس، وعاد إلى روما بطريق البحر مروراً بأنطاكية. وقد اتهم بعض المؤرخين الغربيين فيليب بالتآمر على قتل غورديانوس (غورديان)، إلا أنه لا توجد دلائل مادية على دعم هذا الاتهام.

تولى فيليب العربي (الحوراني) على العرش الروماني من سنة 244 إلى 249م، فأعاد الاعتبار لمجلس الشيوخ. وأشرف على الاحتفال الأسطوري الوثني بمرور ألف عام على تأسيس روما. وشهد عهده تسامحاً وليناً مع المسيحية والمسيحيين إلى حد أن اعتبره بعض المؤرخين أول امبراطور روماني مسيحي[3]. وقام فيليب بإصلاحات عامة: اجتماعية واقتصادية وأمنية. وقتل مع ابنه فيليب الثاني[4] في معركة "فيرونا" خريف 249، وهو يقاتل دكيوس، الذي أعلنه الجند امبراطوراً، حيث شن حملة اضطهاد منهجية عنيفة ضد المسيحية والمسيحيين في أنحاء الامبراطورية في فترة حكمه التي استمرت حتى 251م، اعتقاداً منه أنَ الديانة الجديدة كانت من أهم أسباب الانحدار الروماني.

تعتبر فترة الأزمة الامبراطورية التي مرت بها روما بعد الاسكندر سيفيروس وحتى ديوقلتيانوس أزمة عنيفة من الفوضى والحرب الأهلية، والغارات التي شنها البرابرة

---

(1) – د. محمد محفل: "دمشق: الأسطورة والتاريخ..."، ص 205.

(2) – ولد فيليب العربي Philip the Arab (ماركوس يوليوس فيليبوس) في حوران عام 200 م لأب كان أحد شيوخ العرب الأنباط. خدم فيليبوس العربي في الجيش الروماني وتدرج فيه إلى أن عين قائداً للحرس الامبراطوري في العام 243 م.

(3)– دار سجال شديد بين الكثير من المؤرخين الغربيين، قديماً وحديثاً، حول مسيحية الامبراطور فيليب العربي؛ فمن قائل أنه لم يؤمن بالمسيحية، بل بقي على وثنيته، ودليلهم في ذلك إشرافه على الاحتفال الأسطوري الروماني بمناسبة العيد الألفي لتأسيس مدينة روما، إلى قائل أنه الامبراطور الأول الذي تسامح مع المسيحية والمسيحيين كونه نشأ في الشرق مهبط الديانة، وأن المسيحية ليست غريبة عليه، إلى رأي ثالث يقول بأنه آمن بالمسيحية، وكان الامبراطور المسيحي الأول، وليس قسطنطين الكبير الذي يعده الغرب الامبراطور المسيحي الأول والمؤسس الرسمي للديانة المسيحية الغربية. ويمكن الرجوع إلى عرفان شهيد في دراسته لمسيحية فيليب بتفصيل مدرسي وثائقي في فصله السادس من كتاب "روما والعرب"، دار دومبارتن أوكس الأمريكية، ترجمة قاسم محمد سويدان، دار كيوان بدمشق.

(4) – تؤكد المصادر أن فيليب قتل في معركة "فيرونا". وتقول بعض المصادر أن ابنه فيليب الثاني قتل وهو يقاتل معه في المعركة، في حين يؤكد بعضها الآخر أنه قتل في روما من قبل الحرس الامبراطوري.

المتمردون الألمان والغاليين، وحركات التمرد طلباً للاستقلال، والحملات الفارسية المتعددة على ولايات الامبراطورية الشرقية، والاغتيالات والحكام العسكريين الفرديين الطغاة، الذي ما إن يستقر الواحد منهم حتى ينتهي بالاغتيال، وخاصة، بعد الفترة التي تلت الاحتفال الألفي لتأسيس روما في عام 248 م وحتى موت غالينوس سنة 268 م.

أضافت تدمر، بطموحها واستقلاليتها وتوسيع رقعة مملكتها من دجلة شرقاً حتى مصر غرباً وأنطاكية شمالا، شرخاً كبيراً آخر إضافة إلى الشروخ المتعددة التي ذكرنا. وكادت هذه الأزمات المستمرة تقريباً أن تطيح بالصرح الروماني العظيم في تلك الفترة. وقد تعاقب على حكم فترة الأزمة الامبراطورية هذه سلسلة من الأباطرة الرومان، هم: فيليب العربي، دكيوس، غالوس، أميليانوس، فاليريانوس، غالينوس، كلاوديوس، اورليانوس، تاكيتوس، بروبوس، كاروس وولديه، ديوقلتيانوس والمتحالفين معه: ماكسيميان، غاليريوس، وقسطنطين. وعدت الفترة التي بدأها ديوقلتيانوس فترة استعادة جديدة لروح الامبراطورية.

العالم الفارسي ومملكة تدمر[1]

حكمت السلالة الأخمينية فارس بداية من 553 ق.م وحتى 332 ق.م، تاريخ سقوط الامبراطورية الفارسية على يد الأسكندر المقدوني عند احتلاله لمعظم أجزاء الشرق القديم، والذي استمر بحكم إيران لعشرات السنين. وقد بدأ حكم الأخمينيين بالمؤسس سايروس الأول، وانتهى بداريوس الثالث Darius III، الذي انهزم أمام الأسكندر الأكبر.

انبعث الحكم الفارسي مجدداً بقيادة البرثيين، وذلك بعد الاحتلال الإغريقي بزمن طويل نسبياً، إذ أسسوا حكمهم بدايةً من 250 ق.م إلى 226 م، وحكموا امبراطورية امتدت حدودها من الفرات حتى الأندوس (نهر السند) المنحدر من هضبة التبت ماراً بكشمير والباكستان إلى بحر العرب.

وجاء الساسانيون إلى الحكم في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الميلادي (226م)، إذ اندلعت ثورة قادها الكاهن الزرادشتي الفارسي ساسان سنة 220 م، ونجح في بسط نفوذه على أجزاء كثيرة من المملكة البرثية. وقد تمكن أردشير الأول من هزيمة خصمه أرطبان الخامس آخر ملوك السلالة البرثية سنة 226 م. وأستمر الساسانيون في الحكم حتى الفتح العربي الإسلامي لكامل بلاد فارس سنة 651.

ويعد "ساسان" الجد الأول لأردشير. وتم تنصيب أردشير الأول سنة 226 م في العاصمة طيسفون (المدائن)، فسمى نفسه ملك الملوك (شاهنشاه). وتعد الفترة الأولى التي بدأ الساسانيون يشقون طريقهم نحو الحكم غير معروفة التفاصيل، لآن المعلومات

---

[1] – انظر لاتحتي الأباطرة الرومان والفرس في التمهيد التاريخي، الصفحة 25 وما بعدها ...

المتوفرة مشتتة ومتناقضة المصادر عندما وجه أردشير قادة جيوشه نحو أرمينية وأعالي بلاد الرافدين بوقت واحد، فاحتل بين النهرين (ميزوبوتاميا) سنة 230. ورداً على ذلك الهجوم توجه الإمبراطور الروماني اسكندر سيفيروس سنة 231 نحو آسية الصغرى، واتخذ من أنطاكية قاعدة لنشاطه العسكري ضد الفرس، وحاول حل النزاع بين الطرفين بالطرق الدبلوماسية إلا أنَ أردشير رفض العرض. لذلك وضع الرومان فيالقهم العسكرية المهاجمة على ثلاثة جبهات؛ إلى أرمينية، وإلى الفرات وبابل، والثالثة لمهاجمة المناطق الفارسية مباشرة، فنجح باجبار الفرس على التراجع إلى ما وراء الفرات الذي صار الحد الذي يفصل بين الطرفين.

وعاد سيفيروس إلى روما سنة 233 م ليحتفل بانتصاره على الفرس باسترداده للمناطق الشرقية التي كان احتلها أردشير الأول. وخلف شابور الأول والده أردشير في 241/240 م. حيث أعلنت أرمينية وحران التمرد والعصيان بعد موت أردشير. غير أنه تم سحق تمرد أرمينية بسرعة وسهولة. ولكنّ الآرمن لم يسعوا لتحرير بلادهم إلا بعد سنوات عديدة. بينما احتملت حران الحصار الذي ضربه الفرس لمناعة أسوارها ولأن الفرس لم يكونوا على دراية عسكرية كافية لإدارة حروب المدن ذات الأسوار المنيعة. وحسب سياق الأسطورة[1]: " تمكن شابور من فتح المدينة بمساعدة ابنة ملكها (النضيرة)، التي كانت تخطط للزواج منه، إذ حصلت على وعده بالزواج منها إن هي ساعدته على اختراق أسوار المدينة المحاصرة. وهذا ما تم فعلاً، حيث استسلمت المدينة".

---

[1] – نقل أبو سعيد الحميري في" الحور العين"، تحقيق كمال مصطفى، ص 351، عن اليربوعي رواية سقوط حران على يد شابور ذي الأكتاف، حيث كان ملكها الضيزن بن معاوية، فقال: ثم كان أهل الحضر (يقصد حران حيث سماها حاضرة الموصل عند التأليف في القرن السادس) من بعد (الساطرون ابن اسطيرون ملك السريانيين) تنوخ؛ وهم: بنو مالك بن فهم بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وسليح بن عمرو بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، ويزيد، وحيدان بنو عمرو بن الحاف بن قضاعة. فغزاهم سابور ذو الأكتاف بن هرمز الملك الفارسي، وملكهم يومئذٍ الضيزن؛ فحاصرهم سابور، فلم يقدر عليهم لامتناع حصنهم، حتى أشرفت النضيرة بنت الضيزن يوماً من الحصن فرأت سابور فعشقته؛ فأرسلت إليه إن إئت ضمنت لي أن تتزوجني وتقدمني على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن، فأجابها سابور إلى ذلك، فأرسلت له إئت على الثرثار، وهو نهر الحضر، فألق التبن في الماء، ثم اتبع ذلك التبن، فأدخل الرجال في الموضع الذي يغيب فيه التبن، فإنك تصل إلى الحصن، ففعل سابور ذلك؛ وعمدت النضيرة فأسكرت أباها، وأرسلت إلى سابور أن ادخل الليلة، فأدخل سابور الرجال من ذلك السرب، فظفر بالحصن، وقتل أهله، ودعا بالنضيرة فبات معرساً بها، فجعلت تتململ على الفراش ساهرة؛ فقال لها سابور: مالي أراك مسهدة؟ فقالت: جنبي يتجافى عن فراشك هذا!! فقال: ولما؟ فوالله ما نامت الملوك على أوطأ منه ولا ألين، وإن حشوه لزغب النعام!!. فلما أصبح نظر فإذا ورقة آس بين عُكنتين من عُكنها، فتناولها، فسال موضعها دماً؛ فقال لها: بمَ كان أبواك يغذوانك؟ فقالت: بالزبد والمخ والشهد، وصفو الخمر!! فقال سابور: إذا لم تصلحي لأبويك، وكانت هذه حالك عندهما، فأنت أجدر ألا تصلحي لي، وما ينبغي لي أن آمنك، ولا أثق بك؛ فأمر بها فشدت ذوائبها بين فرسين ثم خلى عنهما فقطعاها، وقد ذكرت ذلك الشعراء: أبو داؤد الأيادي، الأعشى، وعدي بن زيد، وغيرهم. حيث قال أبو داؤد:

ألم يحزنك والأنباء تُنمى   بما لاقت سُراة بني العبيدِ
ومقتل ضيزنٍ وبني أبيه   وأخلاس القبائل من يزيدِ
أتـاهم بالخيول مجللات   وبالأبطال سابور الجنودِ
فهدّم من بروج الحضْر صخـــــراً كأن ثقالهُ زُبَر الحديدِ

صمم شابور على أن يكمل مشروع والده الجريء بتوسيع دائرة ملكه، وذلك بشن الحرب ضد الولايات الرومانية الشرقية بقصد احتلالها وضمها إلى ملكه[1]، حيث اعتقد أنّ الفوضى والارتباك الذين سادا الامبراطورية الرومانية يقدمان له فرصة ذهبية للفوز، خاصة أنّ الامبراطور الروماني اسكندر سيفيروس قتل على يد ماكسيموس ثراكس[2] الذي حكم روما بطريقة همجية. حيث انتفض الرومان ضده بعد ثلاث سنوات من المعاناة الشديدة، واغتالوه. فأُعلن بعده امبراطوران لفترة قصيرة، تبعها انتخاب مجلس الشيوخ لاثنين آخرين هما: غورديان الأول وولده غورديان الثاني، ثم تبعهما إعلان غورديان الثالث امبراطوراً بعد أن قتلا في معركة "نوميدية". فرأى شابور حينها أنّ غورديان الثالث لن يكون قادراً على مواجهته لصغر سنه (15عاماً) ولعدم خبرته. لذلك أسرع شابور بالعمل على تنفيذ خططه قبل فوات الأوان، فاجتاز دجلة بقواته وهاجم المستعمرة الرومانية نصيبين Nisibis (جنوب شرق تركية)، ففتحها رغم قوة ومتانة دفاعاتها. واستمر في زحفه إلى حران وإديسا، وفاجأ عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية أنطاكية بدخوله إليها.

أظهر الرومان تصميماً وإعداداً جيدين لم يكن متوقعاً منهم في تلك الفترة، حيث قاد غورديان الثالث الحملة ضد شابور بجيش ضخم بإشراف قائد الحرس الامبراطوري تيمسيثيوس الذي تزوج غورديان من ابنته حديثاً، فاستعاد غورديان أنطاكية وعبر الفرات نحو الشرق واستعاد حران Hatra وهزم شابور عند رأس العين Resaina سنة 243، ثم استعاد نصيبين، وتقدم بقواته خلف سلسلة التراجعات الفارسية، فعسكرت قواته على ضفاف دجلة وأقامت حاميات عسكرية في عدد من مدن ما بين النهرين، فأصبحت طيسفون (المدائن) العاصمة الغربية للساسانيين تحت تهديد القوات الرومانية. فرأى غورديان حينها أنّ قائد جيشه يستطيع إحراز انتصارات أخرى، فكتب إلى مجلس الشيوخ بروما للموافقة على استمرار الزحف لما وراء دجلة. لكنّ المرض أو ربما الاغتيال عجل بنهايته، ولم يستطع الرومان تحقيق انتصار يذكر بعد موته.

مات غورديان الثالث بسبب المرض أو الاغتيال- المصادر التاريخية- خلال العمليات الفارسية المعاكسة ضد الفيالق الرومانية. حيث ثار الجند الرومان بعد انسحابهم فقتلوا غورديان، وأعلنوا فيليب العربي قائد الحرس امبراطوراً. فعقد فيليب معاهدة صلح مع شابور بأن تركت أرمينية للفرس، وأعيد بين النهرين لروما. وترك فيليب الشرق مسرعاً إلى روما ماراً بطريقه في أنطاكية.

---

[1] – استطاع الساسانيون توسيع ملكهم نحو الشرق بشكل كبير، حيث ضمت إمبراطوريتهم: فارس، أذربيجان، أفغانستان، العراق، أرمينية، جنوب القوقاز بما فيه وسط جنوب آسية، أجزاء من تركية وسورية، بعضٌ من سواحل شبه الجزيرة العربية، وبعض من أجزاء باكستان الشمالية الغربية. وقد شهدت فترة الحكم الساساني إنجازات حضارية هامة أثرت بشكل مهم على الحضارات الرومانية والهندية والصينية والأفريقية، ولعبت دوراً مهماً في تشكيل الفنون الأوربية والآسيوية في العصر الوسيط.

[2] – أصله من تراقية / ثراكس Thrace، وهي بلاد قديمة تقع إلى الغرب من البحر الأسود والشمال من إيجه. وهي تتوزع الآن بين تركية واليونان وبلغارية.

افتعل شابور- الذي عايش ستة أباطرة رومان ضعاف خلال فترته: قتل أربعة منهم بطريقة عنيفة، واستمرت غارات القبائل البربرية الغربية حول الدانوب مهددين بوضع نهاية للامبراطورية- الحرب مع روما بعد سنوات قليلة من توقيع المعاهدة، فقام بحملة لاحتلال ما يستطيع من المناطق الرومانية الشرقية، فهزم الرومان في[1] Barbalissos سنة 252، وأخذ أنطاكية. وكانت الحرب بين الفرس والرومان خلال هذه الفترة تزداد اشتعالاً وخفوتاً واشتعالاً، فتتقدم القوات الساسانية ثم تتراجع أمام الاندفاع الروماني، وهكذا دواليك. واستمرت الحرب بينهما من عام 229 إلى 232 خلال عهد أردشير، بينما شهدت ولاية شابور سلسلتين من الحروب: الأولى بين 241 و 244 م، والثانية بين 242 و261 م.

قام شابور سنة 258 بحملة جديدة، فهاجم الولايات الرومانية الشرقية، ودخل ميزوبوتاميا، واحتل حران ونصيبين واديسا (الرُها)، وعبر الفرات، وفاجأ أنطاكية مرة أخرى باحتلالها، وأخذ أسقفها إلى بلاده، وأسر عشرات الآلاف من الجنود الرومان. فأسرع الامبراطور الروماني واليريانوس Valerianus على رأس جيشه لاستعادة الولايات الشرقية وحمايتها، فتمكن في البداية من تحقيق بعض النجاح، وذلك باستعادة أنطاكية وجعلها مركز عملياته. لكن رياحه تغيرت بعد أن أسند مهمة العمليات الأساسية لقائد حرسه ماكريانوس، الذي كان يثق بولائه ومؤهلاته. لكن ماكريانوس كان قد عقد العزم على أن يكون الامبراطور القادم، لذلك عمد إلى وضع العراقيل والصعوبات في طريق نجاح واليريانوس المسن، فحُشر الجيش الروماني بوضع لا يستطيع الانسحاب بالرغم من محاولاته المستميتة لاختراق خطوط العدو، فأصبح استسلامه مسألة وقت، فبدأت المجاعة والأمراض تحصد الجند. فوجد واليريانوس نفسه مجبراً على عرض معاهدة سلام على شابور مقابل كمية هائلة من الذهب، لكن شابور الذي كان واثقاً من نصره، رفض العرض وانتظر ليتم إنهاك عدوه تماماً. ثم دعاه لعقد مؤتمر لبحث الاتفاق، وقام بأسره عند حضوره. فاستسلمت الفيالق الرومانية، وتشتت شمل الباقي[2]، واستبيح الكثير من المدن.

سار ماكريانوس، بعد أن ادعى العرش، ببقية الحشود الرومانية ضد غالينوس الذي كان قد تركه والده فاليريان في الغرب لإدارة الحكم. ولجعل الأمور صعبة على الإدارة الامبراطورية الرومانية، قام شابور[3] بتنصيب مريادس أحد رعايا أنطاكية بجعله قيصراً في الشرق يدعي ملك الامبراطورية.

---

[1] - باربالیسوس هي الاسم القديم لبلدة مسكنة إحدى ضواحي مدينة حمص السورية - المحقق.

[2]- أظهرت مخطوطات ونقوش شابور Inscription of Shapur أسره لسبعين ألفاً.

[3]- احتفل شابور بانتصاراته بنقشها على جدار صخري هائل (نقش رستم Nagsh-Rustam). ويوجد في مدينه بيشابور Bishapur رسوم تخلد هذه الانتصارات، إضافة إلى النقوش التذكارية باللغتين الفارسية واليونانية في مدينة برسيبوليس Persepolis، وهي مدينة إيرانية قديمة تقع إلى الشمال الشرقي من شيراز، وقد وجد في خرائبها الكثير من الآثار والكتابات المسمارية القديمة التي تتحدث عن العيلاميين والأكديين.

ترك احتلال الرُها الطريق مفتوحاً أمام شابور لاحتلال كامل آسية الرومانية، إذ لم يترك هذه الفرصة تفوته، فعبر الفرات واحتل أنطاكية من جديد، فهرب قسم من السكان، ورحبت الغالبية التي لم تغادر بالفاتحين. واستمرت الجحافل الساسانية بالاندفاع نحو أناضولية، فاستولت على كابادوكية وممرات طوروس، والمدن الواقعة على طريق تقدم القوات، والتي لم تكن تحتفظ بدفاعات رومانية قوية، فاحتل قيصرية التي كانت من أهم هذه المدن رغم مقاومتها بقيادة حاكمها الروماني ديموستين. فأصبحت آسية الصغرى الآن مفتحة الأبواب أمام شابور. ويبدأ من الصعب فهم لماذا لم يحاول شابور الاندفاع إلى الأمام. وقد اضطر في النهاية إلى الانسحاب والتراجع بعد هزيمته أمام التحالف الروماني- التدمري. وكانت نتيجة المعركة، التي أبلى فيها أذينة وجيشه بلاءً عظيماً، أن تمكن من أسر حريم شابور، واستعاد الأراضي التي كان شابور قد احتلها . فأسبغ الرومان على أذينة "لقب ملك وحامي الشرق ومستعيده". وهكذا، حافظت الحروب على سعارها بين الطرفين على طول الجبهات المشتركة بينهما، بين كرٍ وفر، ما أن تخبو حتى تستعر من جديد، إلى أن انتهت بالفتح العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع، ليبدأ فصل جديد في رسم السياسات العالمية، بعدما أصبح العرب المسلمون فيه سادة العالم الجديد .

ويمكن تلخيص حملات شابور الكبير (الأول) ضد الرومان بثلاث:

1- الحملة الأولى: لاحتلال بلاد الرافدين، قتل فيها الإمبراطور غورديان الثالث سنة 244 م، وحل فيها فيليب العربي محله، فعقد صلحاً مؤقتاً مع شابور.

2- الحملة الثانية: بدأها شابور سنة 252، واستمرت حتى العام التالي، واستولى فيها على أنطاكية والعديد من المدن السورية على مجرى نهر العاصي. وتحدثنا حوليات ملالاس عن نهاية هذه الحملة: "حشد وقاد كاهن إله الشمس الحمصي سمسي- غيراموس[1] جموع الفلاحين والسكان إلى جانب جيش أذينة فتصدوا لشابور الذي كان قاب قوسين أو أدنى من هزيمة الرومان، وهزموه شر هزيمة، واستولى أذينة على غنائمه وأسر حريمه، فانهزم شابور مسرعاً بعبور الفرات". ويعتقد أن تحالف أذينة مع الرومان ضد شابور قد جاء نتيجة رد الفعل المكابر والعنيف من شابور على وفد أذينة لعقد تحالف أو صداقة معه.

3- الحملة الثالثة: تمكن فيها شابور من أسر الامبراطور الروماني فاليريانوس (فاليريان) سنة 260 م، وتمكنَ فيها أذينة من ضرب حصار على طيسفون (المدائن) مرتين؛ الأول سنة 262، والثاني بين عامي 266- 267 م.

---

[1] - كان سمسي غيراموس كاهن معبد إله الشمس وملك حمص (إمسين) (أورانيوس سيفيروس أنطونينوس، وبالآرامية شمسي غيرام الذي يعني إله الشمس؟).

نشوء مملكة تدمر بين الجبارين

عندما كان الرومان والفرس، في القرن الثالث الميلادي، يعيشان مواجهات عسكرية متواصلة تقريباً؛ تنقضي بين كرٍ وفرٍ وتقدم وتراجع، ضم واسترجاع، على جبهات القتال، ما أن تهدأ حتى تبدأ من جديد، حقق الفرس اليد الطولى فب المراحل الأولى من القتال، في الوقت الذي كانت فيه روما تقع في فوضى الحروب الأهلية، وكان أباطرتها يسقطون بالسكاكين الطويلة بسبب صراعهم على العرش، كانت تدمر قد بدأت تثبت وجودها وذاتها من خلال معرفتها ما كانت تريد.

في هذه الأثناء تزوج أذينة من ابنة عمه زنوبيا، الجميلة والذكية، فوجد خلف جمالها وجمال عينيها إرادة من حديد، حيث أثبتت سريعاً قدرتهاعلى الانتقال من وظيفة الزوجة الملكية إلى المشاركة الحقيقية في صناعة سياسات الدولة الجديدة، ومن ثم الوصاية على ابنها بعد وفاة زوجها، لتصبح صاحبة السلطة الملكية المطلقة في عموم سورية ومصر ومعظم آسية الصغرى.

تميزت زنوبيا[1] بقدرات احتمال جسدية عظيمة مع جمال ساحر آخاذ، وثقافة عالية، وعفة وطهارة، وطموح لا يحد. بحيث وصفها "التاريخ الأوغسطي/تاريخ سير الأباطرة الرومان" بما يلي: " كانت امرأة عفيفة إلى درجة أنها كانت تعاشر زوجها طلباً للإنجاب وليس للمسرة! وكانت تظهر أمام جنودها بزي الأباطرة الرومان والخوذة على راسها وهي ترتدي الثياب الأرجوانية الموشاة بالجواهر وهي تربط خصرها بعقد من الأحجار الكريمة على شكل هندسي حلزوني، بينما تبدو ذراعاها عاريتان. وكانت بشرتها حنطية مضروبة بسمرة شديدة الجاذبية، وعينيها واسعتان يشع منهما بريق وضياء. وتمتعت بذكاء إلهي خارق وبفطنة مدهشة. وتظهر أسنانها بيضاء بحيث يظنها الرائي لؤلؤاً وليست أسناناً. وكان صوتها واضحاً يحمل نبرة الرجال، فكانت صارمة في موضع الحزم، وإنسانية في موضع اللين. وكانت سيدة فطنة ومطاعة. وقد كانت تستخدم عند ركوبها عربة حربية من عجلتين وأحياناً من أربعة. لكنها على الغالب كانت تمتطي جواداً، أو تسير مع جيشها ورجالها على الأقدام لمسافات طويلة، كما أنها كانت تهوى رياضة الصيد والقنص، وكانت تشارك ضيوفها المائدة..". إلا أنّ تاريخ هذه الفترة، الذي كتبه المؤرخون اليونان والرومان، لم يشفع لكل ما أنجزته، حيث وضعوها في موضع الشك والاتهام بالخيانة في مقتل زوجها. ويعد نقص التفاصيل في السنوات التاريخية

---

[1] – ذكر أحمد حسين في "موسوعة تاريخ مصر"، ج1، ص 296، التالي: " يصف المؤرخون أن زنوبيا كانت سمراء هيفاء ذات أسنان لؤلؤية وعيون نجلاء، وكان صوتها قوياً وموسيقياً في الوقت نفسه، وكانت تجيد التكلم باليونانية والسريانية والمصرية، وتفهم اللاتينية، وكانت محبة للدراسات الأدبية والفلسفية، وتحب الرياضات العنيفة حيث كانت تصحب زوجها في حفلات صيد الاسود والنمور وغيرها من الحيوانات البرية الضارية. ويعزو الكثيرون نجاح زوجها في معاركه الحربية إلى خططها ومشورتها. وإلى جوار كل هذا كانت تتمتع بعفاف نادر على كل من كان في مركزها".

الخمسة من حياتها، بعد موت زوجها (267-273)، السبب الرئيسي في غموض شخصيتها، وعدم إلقاء ضوء كامل لمعرفة التفاصيل الحقيقية لسيرة هذه الشخصية التاريخية[1].

أرخت مخطوطات"التاريخ الأوغسطي Historia Augusta/ سير الأباطرة الرومان، وهي في اللاتينية: Scriptores Historiae Augustae[2]، بحيث تبدأ من117 إلى 284 م (من تولي هارديانوس إلى ديوقلتيانوس). وكتبها عدد من المؤلفين. ويزعم جامعها أنها وضعت في عصر ديوقلتيانوس وقسطنطين، ومن المحتمل أنها كتبت أو جمعت بعد ذلك. وهي، في جزء منها، قيمة لاعتمادها على مصادر جيدة حتى عصر كراكلا، أو حتى 238 م. أما بعد ذلك، فتفتقد، حتى فترة ديوقلتيانوس، للمصداقية. إذ من الواضح أنّ السير المتأخرة (238-284) م لم يكن لديها مصادر معاصرة لتواريخ حدوثها ليستمد منها المؤرخون مادتهم التاريخية. وقد أطلق واضعوها لخيالهم العنان لملء النقص والفراغ في معلوماتهم. لذا من المفيد التعامل معها بحذر محسوب[3]. وقيل أنَ مؤرخين ستة أرخوها، بينهم: تريبليوس بوليو Trebellius Polio، وفلافيوس فوبيسكوس Flavius Vopiscus المعاصران لزنوبيا. وقد أدى التعارض بين روايتهما إلى صعوبة عزل زنوبيا عن الأسطورة التي أحاطت بها.

كما أسلفنا، استفادت تدمر من السياسات المرنة التي اتبعها الأباطرة الرومان تجاهها، بدءاً من هادريانوس وحتى فيليب العربي (117-249)، وذلك بتوطيد دعائم حركتها الاقتصادية والسياسية شبه المستقلة والمتحالفة مع روما. بالمقابل وظف الرومان المقاتلين التدمريين لبراعتهم بحروب الصحراء، فكونوا منهم وحدات وكتائب عسكرية لحماية وتأمين طرق القوافل التجارية، وتأمين حدود الامبراطورية الشرقية ضد الأطماع الفارسية. من ذلك كان التدمريون قادرين على إنشاء مدينتهم- الدولة بخطى تدريجية وئيدة ومستمرة، فنجحوا في إنشاء تدمر كمركز تقاطع تجاري رئيسي للعالم القديم بين شرقه وغربه إلى مشيخة يحكمها ويدير شؤونها أسرة عربية عريقة وفق السياسات الرومانية وإرادة قياصرتها، مع منحها هامشاً استقلالياً كان يتسع ويضيق تبعاً للظروف السياسية، إلى أن وصلت إلى مستوى عال من النضوج السياسي والاقتصادي والإداري والعسكري والفني، بحيث بدأت ترى في نفسها نداً مساوياً للفرس والرومان. وهذا ربما كان من أهم أسباب مقتل تدمر وتخريبها، إذ لم تكن مؤهلاتها كدولة تؤهلها للعب دور

---

[1] – يعد الطبري في" تاريخ الأمم والملوك" المصدر الأدبي العربي الرئيسي عن زنوبيا، فنقل روايته عنها من ابن الكلبي. ونقلت عنه معظم الروايات العربية المتأخرة. ومن المصادر الكلاسيكية الرئيسية التي كتبت عن زنوبيا: . ((HA., Try., Tri,.& V., Aur..& Vita Zenobiae.& Zos, NH

[2]- الترجمة الحرفية: محررو (كتاب) التاريخ الأوغسطي – المحقق.

[3] – أورد كثير، بل معظم المؤرخين المحدثين، حذرهم الشديد من الاعتماد على مخطوط سير الأباطرة هذا. انظر د. محفل في"تاريخ الرومان"، ص 17، وانظر شهيد في "روما والعرب"، ص 76 من الترجمة العربية. انظر أيضاً مصطفى العبادي في المصادر التاريخية من كتابه " الامبراطورية الرومانية".

مستمر يمكن المحافظة عليه بين الجبارين في ذلك الوقت. وقد قيل: طموح تدمر الهائل كان سبب مقتلها!

انتهى حكم البرثيين في نهاية الربع الأول من القرن الثالث (224- 226) م بانتصار أردشير بن بابك بن ساسان على الملك أرطبان الخامس آخر الملوك البرثيين، فبدأ حكم السلالة الساسانية. وكان من نتائج هذا التغيير وظهور الدولة الجديدة أن بدأت سلسلة من الحروب الجديدة بين الروم والفرس.

أحسنت قيادة تدمر توظيف النزاع الفارسي الروماني لخدمة مخططاتها، وذلك بالتحالف مع روما، فنالت مركزاً عالياً بكسب ود الأباطرة الرومان ومدهم لها بالقوة والمعونات وعطفهم عليها ومنح زعمائها الألقاب والأوسمة والمال أحياناً، إلى ما يشبه الاستقلال في إدارة شؤون البلاد. وكان زعيم الأسرة المعروفة التي حكمت تدمر أذينة[1] السميدعي العماليقي، والذين تولى رجالها الزعامة على تدمر منذ بداياتها الأولى، حيث ذكرت الكتابات التدمرية أسماء بعض من زعماء هذه الأسرة، منهم: نَصُور /Naswar Nasores، وهو الجد الأول لأذينة. إذ يُشير الاسم إلى الاسم العربي نصر، ناصر، نصور، أو نصرو، وهو أقدم من وصل إلينا من أسماء الأسرة التي حكمت تدمر، والذي ربما كان من سادات القبائل التي استقرت بالمكان، أو ربما يكون له صلة بنصر الذي ينسب أهل الأخبار ملوك الحيرة إليه، فيقولون: إنهم من آل نصر[٢].

حكم حيران على رأس مجلس مدينة تدمر حيث تمكن من تثبيت حكم أسرته والهيمنة على شؤون المدينة وتوسيع تجارتها وتحالفاتها مع الرومان، فاكتسب بذلك منزلة عند التدمريين والرومان. وقد رافق حيران الإمبرطور الروماني سبتميوس سيفيروس (193-211) م في حروبه ضد الفرس، وتلقب بسيفيروس حيران (الأول) على عادة المطبعين مع الغالبين.

وعثر على كتابة يرجع تاريخها إلى حوالي 235 م، ورد فيها اسم أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصور. فحيران هذا هو سبتميوس حيران، وأذينة هو أحد أبنائه، الذي تلقب أيضاً باسم سبتميوس أذينة. وقد نال حيران عضوية مجلس الشيوخ الروماني، ولقب نفسه بلقب ملك Rex، وذلك حوالي عام 250 م. ونجح بجمع الناس حوله، بيد أن القيصر أوعز لقتله والتخلص منه تحسباً من خطورة طموحاته على مصالح روما. والحقيقة أنه لا توجد أدلة قاطعة على التسلسل الهرمي لحكام تدمر، لذلك نجد تناقضات كثيرة تعترض هذا التسلسل، إذ يرى أوبرديك أن روفينوس الذي كلفه القيصر بقتل أذينة، هو من قتل سبتميوس حيران الابن الأكبر لأذينة الأول. فيكون حيران (الثاني) هو ابن أذينة الثاني. وتولى أذينة الثاني الحكم بعد مقتل أبيه حيران، فيكون عندئذ

[1] – أذينة في العربية تصغير للاسم أذن، والتصغير عادة معروفة عند العرب بقصد التحبب غالباً، وكانوا يضربون المثل بالأذن الجميلة.

[2] – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، الصفحتان (90- 91).

سبتميوس حيران الثاني هو هيرودس بن أذينة الثاني[1]، واللذان قتلا في حمص (إمسين) سنة 267 م.

كان أذينة فارساً شجاعاً وجسوراً ألف حياة البداوة، مغرماً بصيد الحيوانات المفترسة، تولى قبل انتقال الحكم إليه قيادة الجيش التدمري وحماية القوافل، وترأس على قبائل البادية التي مكنته جميعها من رفع مكانة تدمر في أعين مواطنيه التدمريين والرومان والفرس. وقد حمل لقب قنصل خلال فترة حكم الامبراطور الروماني فاليريانوس (258م). ولم ينس أذينة مقتل أبيه، فحاول الانتقام من روفينوس قاتل أبيه إن مكنه فاليريانوس من ذلك، لكنَ القيصر لم يأخذ بشكوى أذينة، مما حمل اذينة على الاتصال بالملك الساساني شابور وذلك بعد سقوط القيصر أسيراً في أيدي الفرس في معركة الرُها سنة 260 م.

أرسل أذينة رسلاً إلى شابور محملين بالهدايا وعرضاً بمصالحة الفرس والتحالف[2] معهم ضد الرومان. بيد أنّ شابور الذي أسكرته انتصاراته على الروم أظهر احتقاراً شديداً لمبعوثي أذينة وأمرهم بأن يبلغوا أذينة بأن يأتيه طائعاً ويداه مغلولتان إلى ظهره لكي يصفح عن جرأته في مخاطبته كند له، وإن لم يفعل فسينزل الموت والدمار به وبأسرته ومدينته، ثم قام بتمزيق الرسائل وألقى بالهدايا تحت قدميه.

وعلى إثر ذلك قرر أذينة الأخذ بالثأر من هذا المتغطرس، فجمع القبائل بظاهر تدمر، وضم إليها فرسان تدمر بقيادة زابداس قائد جيشه، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية من بقايا جيش فالريانوس المهزوم، وسار على رأسهم قاصداً المدائن عاصمة الساسانيين. في هذه الأثناء كان شابور منشغلاً بغزو الأنحاء الشرقية للامبراطورية الرومانية، حيث اعترضه القائد الروماني كاليستوس، فاضطر الجيش الفارسي إلى الانسحاب وهو محمل بغنائم كثيرة، وبدأ يحس بثقل ووطأة الإعاقة التي تسببها له غنائمه وأسراه الرومان، فصارت حركته بطيئة وثقيلة نحو الفرات. بدل أذينة – الذي جمع قواته أساساً من محيطه في سورية– خططه فاتجه مسرعاً لملاقاة شابور، قاطعاً عليه طريق العودة إلى المدائن قبل أن يتمكن من عبور الفرات. فناورت قوات فرسان أذينة حول تجمعات الفرس غرب الفرات فشردوها وأخذوا بالاستيلاء على غنائمها، وأسروا

---

[1] – جاء في كتاب خالد الأسعد والبروفسور أوفه ويدبرغ هانسن " زنوبيا ملكة تدمر والشرق"، ص 148: لم تكن حدود معرفتنا بنسب عائلة أذينة حتى عام 1958 تتعدى أذينة الكبير وأذينة الصغير، أو أذينة الأول وأذينة الثاني، حيث يكون أذينة الصغير أو الثاني زوج زنوبيا هو الكبير، وقد تغير هذا كلياً بعد أن اكتشفت البعثة، المشكلة من خالد الأسعد مدير متحاف آثار تدمر السابق، وميشيل غابليوفسكي مدير البعثة البولونية بتدمر، كتابة نادرة منقوشة على فقرة عمود في الرواق الجنوبي غربي المصلبة مؤرخة بسنة 252 م (أثناء مشروع ترميم أعمدة الشارع وإعادة بنائها)، وهي مكتوبة باللغتين التدمرية واليونانية، ومكرسة إلى "سبتميوس اذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصور المعظم والأشهر Exarch بين التدمريين"، (الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 36–37).

[2]– لم يكن عرض أذينة للتحالف مع شابور ضد الرومان السبب الوحيد، وإنما لأسباب تجارية أيضاً لأن فتح شابور لخرسان قد عرقل طريق المواصلات بين تدمر والهند، وذلك من أجل حل المشاكل المتعلقة بالمصالح التجارية لتدمر، إضافة إلى وعي تدمري بكامل الإمكانيات العسكرية والدور السياسي للمدينة خاصة المنطقة الشرقية من الامبراطورية.

حريم الملك الفارسي[1]، ولم يشعر شابور بالأمان إلا بعد عبوره الفرات إلى الضفة الأخرى.

كتب أمير تدمر أذينة إلى الامبراطور الروماني الجديد غالينوس (وريث وابن واليريانوس أسير شابور) يخبره بهزيمته لشابور وجيشه، وبإخلاصه لروما. فسر القيصر سروراً عظيماً وأنعم عليه بصفة القائد العام لجميع جيوش المشرق Imperator and Corrector totius Orientis، وحامي كل المشرق ومستعيده، ولقب بملك الملوك Rex Regium، تشبهاً بملوك الفرس. وشجعه القيصر على مواصلة الحرب لإنقاذ والده الأسير فاليريانوس[2]. وهذا يعني موافقة روما على نوع من استقلال تدمر وقدرتها على التحكم بالدفاع بشكل فعال عن الجبهة الشرقية للامبراطورية، وعلى سورية بشكل خاص. فكان كل ما فعله أذينة يؤدي لتقوية مركز تدمر لدى روما.

لم تنته المشاعر العدائية لأذينة ضد شابور، حتى بعد عبور الأخير بقواته إلى شرق الفرات. ونتيجة لحالة الفوضى والارتباك الروماني والهروب الفارسي، صمم أمير تدمر استغلال هذه الفرصة الذهبية المناسبة لتأسيس مملكته التي حلم بها: سورية وفلسطين من ناحية، وميزوبوتاميا من ناحية أخرى.. ولايات بدت قريبة من إطباق قبضته عليها. لكنّ ميزوبوتاميا بقيت تحت سيطرة الفرس كجائزة لهم بانتصارهم على فاليريانوس ولا يمكن استعادتها إلا بالحرب. لذلك، بقي أذينة يتحين الفرص لتنفيذ مخططاته للاستيلاء على شرق الفرات، إلى أن بدأت بوادر الاضطراب تظهر على الأطراف الشرقية للامبراطورية الفارسية.

في العام 263 م، وجد أذينة أن الوقت أصبح رائباً، فعبر بقواته إلى ما بين النهرين (ميزوبوتاميا)، فأخذ حران Hatra ونصيبين، وهزم شابور وشتت قواته ولاحقهم حتى أسوار المدائن، عاصمة الفرس الغربية، حتى أنه غامر بضرب حصار حول المدينة، فنصب المنجنيقات وآلات الحصار لفتحها، وكاد شابور أن يلتمس من أذينة الأمان لولا وصول النجدات من الولايات الفارسية البعيدة، إضافة إلى حدوث سبب رئيسي أجبر القائد التدمري على التفكير في الانسحاب، وهو خروج مكريانوس Macrianus- القائد العسكري الذي كان السبب في وقوع فاليريان في الأسر الفارسي- على القيصر الروماني غالينوس وتنصيب نفسه امبراطوراً على آسية الصغرى ومصر وفلسطين وسورية. لذلك عجل بالانسحاب عائداً إلى تدمر لاتخاذ الخطط اللازمة إزاء الوضع الجديد. حيث لم يتم اعتراض انسحابه وهو محمل بالغنائم والأسرى الذين كان بينهم عدد من حكام المناطق الفارسية (Straps). واستمر بالاحتفاظ بأجزاء من أراضي بين النهري، والتي شكلت جزءاً مهماً من مملكة تدمر حتى أسر أورليانوس لزنوبيا (273 م).

[1] – نسبت رواية " التاريخ الأوغسطي: حياة غالينوس XXI" النصر الذي حققه أذينة على القوات الساسانية وتهديده للعاصمة الفارسية، إلى القائد الروماني Ballista، الذي وصفته بأنه جمع الفيالق العسكرية الرومانية الشرقية – التي كان شردها الملك الفارسي- وهزم شابور وأسر نساءه!

[2] – راجع العنوان "العالم الفارسي ومملكة تدمر" في الصفحات السابقة.

أعقبت نجاحات أذينة سنة 263 فترة من الهدوء، إذ بدا أنّ طموحات أذينة اكتفت ببسط سلطانها على البلاد الواقعة من دجلة شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غرباً. فمنح الامبراطور الروماني غالينوس Gallienus أذينة لقب المبجل Augustus والقيصر وملك الملوك وقائد قوات الشرق، وكل ألقاب الشرف الرومانية التي نقشها أذينة على القطع النقدية المتداولة في مملكته. وقد اتخذه غالينوس شريكاً له في الامبراطورية بعد ما حققه من انتصارات بجهوده الذاتية بهزيمة الجيش الفارسي بإغارته على سورية، وتعقبه حتى دجلة، وأرخ أنه عبر النهر وحاصر المدائن، كما شارك في دحر مكريانوس وبعده بالستا اللذين أعلنا نفسيهما امبراطورين.

في زحف أذينة إلى حمص لمنازلة مكريانوس الذي ادعى العرش الروماني، جاءته الأخبار بمقتل مكريانوس وتنصيب ابنه كياتوس، بحيث أعلن السوريون ولاءهم لأذينة وخروجهم معه لمحاصرة حمص، حصن كياتوس. وبعد أن اشتد الحصار وطال، قتل القائد الروماني كاليستوس سيده كياتوس ورمى برأسه من فوق الأسوار تحت قدمي أذينة، ثم فتح له الأسوار. إلا أنّ كاليستوس أعلن نفسه ملكاً بعد فترة، فاضطر أذينة للقضاءعليه، ليصبح المشرق كله تحت إمرته.

سار أذينة، بعد أن عين ابنه البكر سبتميوس هيرودس من زوجته الأولى نائباً عنه لإدارة شؤون البلاد، إلى طيسفون (المدائن) أوائل عام 266، فحاصرها زمناً، أظهر فيه شابور استعداده لعقد صلح بشرط عدم فك أسر واليريانوس الذي اشترطه أذينة. لكن الصلح لم يتم، مما اضطر أذينة لفك الحصار، مرة أخرى لأسباب خارجة عن إرادته، إذ وصلته أخبار انتصارات قبائل القوط وزحفهم نحو الشرق قاصدين الاستيلاء على آسية الصغرى وبلاد الشام. فاتجه مبكراً، بعد فك حصاره عن المدائن، لملاقاة القوط بالاشتراك مع القوات الرومانية، مما جعل القوط ينكفئون عائدين نحو الغرب. وبينما كان أذينة في حمص أعد وليمة للاحتفال بعيد ميلاده، فأقدم معن وعصابته على قتل عمه أذينة مع ابنه هيرودس بحجة اغتصاب عمه لملكه الذي كان يجب أن يؤول إليه بعد مقتل والده سبتميوس حيران على يد الرومان، وأعلن نفسه ملكاً على مملكة تدمر. ولم يطل المقام لمعن، إذ سرعان ما أقدمت سيوف أهل حمص على قتله قبل أن يجف دم عمه القتيل.

وأيما كانت الجهة وراء اغتيال أذينة، فمن المؤكد أنه كان من تدبير مؤامرة سياسية لا بد من وجود محرضين خلفها، سواء كانت رومانية، أو شخصية، أو وطنية تدمرية، أو ربما اجتمعت كلها لتنفيذ المؤامرة.

وضعت أكثر من رواية لتفسير مؤامرة اغتيال أذينة في حمص؛ فمن قائل أن أذينة كان ممالئاً وشديد الحماس للرومان، فكان للحزب الوطني التدمري الذي كان يكره الرومان ضلع في مؤامرة الاغتيال، ومن قائل أنَ الرومان تحسبوا من نجاحات أذينة وخطورة ظهوره كقوة فتية جديدة، فقرروا وضع حد لطموحاته التي كانوا يخشونها، وخاصة أنه نجح في جعل أهل المشرق يصطفون خلفه، ومنهم من رأى أن زوجته زنوبيا كانت وراء

الاغتيال لأنها صاحبة المصلحة الأولى هي وابنها وهب اللات لقطع الطريق على ولاية هيرودس بن أذينة من زوجته الأولى. روايات متناقضة وتقرير ضائع عمن كان خلف القاتل الحقيقي؟ لكنّ رواية إدوارد غيبون ترجح أن الاغتيال تم بسبب من تقييد واحتجاز أوذينة لمعن. وقد رُوي أن شائعات سرت تتحدث عن حوار جرى بين روفينوس القائد الروماني في حمص والقيصر غالينوس تظهر أن روما كانت وراء مقتل أذينة، وذلك بتحريض الأمير معن لقتل عمه طمعاً في تنصيبه ملكاً على تدمر.

أظهر أذينة مقدرة فائقة[1] بكل ما تقلد من مسئوليات، فكون جيشاً قوياً من المشاة والفرسان والخيالة جعله بارعاً في إدارة معارك الصحراء، والأهم أنه استطاع بكفاءة نادرة وبسرعة قياسية أن يجعل من الواحة الصحراوية البسيطة كياناً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وليداً يحاكي قوة الجبارين في زمنه. مما جعلها مملكة يحسب حساب مستقبلها بعيون خائفة وعقول متآمرة من جانبي الفرس والرومان. والذي يبدو أن سيرة أذينة لم توثق تفاصيلها في المصادر التاريخية، فجاءت مقتضبة إلى حد ما، وخاصة تاريخ سيرته في سنوات حكمه الأخيرة.

زنوبيا ملكة تدمر

تزوجت زنوبيا من أذينة فيما بين 258/257م كزوجة ثانية. وقد عثر على مخطوطة في تدمر تسجل تمجيداً بأذينة وزوجته: " القنصل المشهور، سيدنا أو ملكنا.. وزوجته زنوبيا..". وقد رزقا بولدهما الأول بعد مدة من زواجهما، فسمياه وهب اللات (هبة الألهة أو هبة الله). فانتقل المُلك إلى القاصر وهب اللات[2] بعد مقتل والده سنة 267. لذلك تولت أمه الوصاية عليه وعلى العرش، فبدأت بتأهيله وتأديبه بأدب الملوك، وسعت لتهذيب الدولة وتوسيعها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن تخضع لها، لذلك كان لا بد من حدوث الصدام بين الدور السياسي الجديد والطموح لتدمر زنوبيا وبين الرومان.

منذ بداية وصايتها على ابنها وعلى العرش ضمت زنوبيا إلى مجلسها في الحكم العديد من أفضل الكفاءات من مشاهير رجال الفكر في زمانها، فمثل الفيلسوف السوري الأصل كاسيوس ديونيسيوس لونجينوس Longinus (210/213؟-273)، والذي كان

---

[1] – لم يشر الإخباريون العرب والمسلمون– على رأي جواد علي– إلى حروب أذينة ضد الفرس على أهميتها، وبلوغه العاصمة الفارسية أكثر من مرة. وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب! إذ كيف يهملون مثل هذه الأحداث الخطيرة؟ فهل كانت المصادر الإخبارية التي جاء معظمها من مصادر فارسية، أوعراقية تميل إليهم؟

[2] – يروي جواد علي في"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص 103: أن أذينة خلف ثلاثة أبناء من زوجته زنوبيا، هم: وهب اللات، حيران، وتيم اللات، إضافة إلى ابنتين؟ ويعتقد أن وهب اللات وتيم اللات (تيمولاس) هما شخص واحد، حيث تشير المكتشفات الأثرية لاسم وهب اللات فقط، بينما لم يشر بمثل ذلك لاسم تيم اللات الذي ورد اسمه في (تاريخ سير الأباطرة الرومان / التاريخ الأوغسطي).

فيلسوفاً على مذهب الأفلاطونية القديمة، علماً أن المدرسة الأفلاطونية الحديثة[1] كانت سائدة في عصره، حيث بقي أميناً لمبادئ الفلسفة الأفلاطونية القديمة. وكانت شهرته مبنية في الأساس على امتيازه بفن الخطابة والنقد والفلسفة. كما ظهر في بلاطها العديد من الشخصيات المميزة، من أمثال: كالينيكوس دوتوريوس Callinicus Dutorius من عرب الأنباط، وهو الذي ألف تاريخ الأسكندرية في عشرة أجزاء مهداة للملكة زنوبيا، وكان من أشهر فلاسفة الرواقية، ونيكوماخوس Nicmachus من الكتاب المؤرخين والفلاسفة المتضلعين، الذي كتب باللغة الإغريقية، والكاتب المؤرخ كليكراتس الصوري، وكذلك اللغوي والفيلسوف لوبوكوس البيروتي، والمؤرخ الدمشقي بوزانياس، والأسقف المسيحي بولس السميساطي الذي كان له منزلة عالية عند الملكة[2]. إذ يظهر هذا درجة التسامح الديني واضحاً في البلاط التدمري[3]، رغم وثنية الدولة الرسمية. وقد زعم القديس أثناسيوس والمؤرخ فوتيوس أن الملكة كانت تدين باليهودية، وذكر فيلاستريوس أنَ الذي هودَ الملكة هو السميساطي[4]. وربما كان السبب الرئيسي لقول البعض أنَ زنوبيا تأثرت باليهودية هو تأثير السميساطي عليها، والذي اتهمته الكنيسة الأرثوذكسية بالهرطقة والنزوع إلى اليهودية، إذ كانت الجالية اليهودية في تدمر تمارس نشاطها التجاري بحرية.

---

(1) - الأفلاطونية الحديثة مدرسة فلسفية تجمع بين أفكار أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس والرواقية في المذهب الشرقي للتصوف. وهي مبادئ فلسفية دينية طورها تلاميذ الفيلسوف المؤسس بلوتينوس Plotinus في القرن الثالث الميلادي (ينحدر بلوتينوس/ أفلوطين، على الغالب، من أصول رومانية، وقد قام بجمع كتاباته تلميذه فرفوريوس، وكان الاثنان من تلامذة المعلم لونجينوس الذي كان على مذهب الأفلاطونية القديمة). سادت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة في أوربة الوثنية حتى بداية القرن السادس الميلادي، وكان تأثيرها كبيراً على كتاب الفترة المسيحية المبكرة، وعلى كتاب ومفكري المراحل المتأخرة من العصور الوسطى، وعلى عصر النهضة، وعلى الفلسفة الإسلامية. وترى المدرسة أن النفس الإنسانية تعلو فوق النزعة المادية للإنسان، وذلك من خلال ممارسة الفضيلة والتأمل في ذات الخلق والخالق حتى تتعلم النفس العودة إلى المبدأ والاتحاد بالنور العظيم للخالق.

(2) - كان هؤلاء المفكرون الفلاسفة أول ضحايا الامبراطور الروماني أورليانوس في محاكمته التي عقدها في إمسين (حمص)، حيث حكم عليهم بالموت.

(3) - يدل العدد الكبير من المعابد الدينية المختلفة في تدمر وفي دورا أوربوس (الصالحية على الفرات) على تسامح ديني لا نظير له في ذلك العصر، بينما كان الرومان يضطهدون ويعذبون كل من تثبت عليه تهمة الانتماء إلى غير عقيدة الامبراطور الوثنية، وخاصة أتباع الديانة المسيحية.

(4) - من مدينة سميساط الواقعة في أعالي الفرات إلى الشمال من حمص والشرق من حلب. عين أسقفاً على أنطاكية سنة 260، وتعرض للمضايقة بسبب آرائه الابتداعية المخالفة للنصوص الدينية المسيحية. حيث كان مجمع الأساقفة الكنسي الذي انعقد سنة 264 م قد أوجب تنحيته عن منصبه كأسقف، لاتهامه بترويج الأفكار الابتداعية المتعلقة بتعاليم الثالوث المقدس، وكان بول يرى أن الرب هو القوة الوحيدة، وأن وحدة المشيئة الإلهية تفوق كل شيء، ويرى أن السيد المسيح إنما هو إنسان قبل كل شيء ونبي مسير من قبل الروح القدس. وصفه المؤرخ الكنسي أوسبيوس بأقذع الأوصاف. وقد أخذ الأنطاكيون موقفاً من زنوبيا لمناصرتها بقاء الأسقف وعدم السماح بتنحيته. وقد أعلن بولس توبته وندمه في أعقاب قرار مجمع الأساقفة المسكوني الذي انعقد سنة (268 / 269) م، وانتهى به المطاف في بلاط زنوبيا. انظر:

A History of Antioch in Syria from Seleucid to Arab Conquest, Princeton, 1861, by G. Downy. See also Millar, Paul Samosata.

وحسب الرأي الكنسي العام، كانت أفكار بولس لاهوتية متهرطقة معادية لمفهوم التثليث، حيث كان متأثراً بشدة بعقل ومنطق هلنستي فيما يخص طبيعة السيد المسيح البشرية التي قامت عليها كلمة الله (اللوغوس Logos)، كما كان مؤيداً للختان. فمثلت أفكاره اللاهوتية توافقاً لأجواء تدمر الدينية المكونة من البيئات اليهودية والمسيحية، ومن الأفكار الهلينية السورية التي كان يمثلها الفيلسوف لونجينوس، ومن المانوية، ومن المسيحية التي كان يمثلها المركز المسيحي لإديسا (الرُها). حيث شهد بلاط زنوبيا حواراً حراً بين جميع هذه الأفكار. وربما كان تأثير السميساطي في بلاط الملكة قد أدى إلى ما يمكن أن يوصف بالمحاولة الأولى للتقارب بين الدولة والكنيسة.

وتعيين بولس السميساطي أسقفاً على أنطاكية بعد موت أسقفها يعني أن أنطاكية كانت بطريقة ما تحت تأثير الحكم المباشر لتدمر.

لم تتدخل الملكة لصالح السميساطي عندما حكم مجمع أنطاكية سنة 269 م بعزله عن الأسقفية. ويروي تيودوريت أنَ الأسقف السميساطي أخذ آراءه في الثالوث من آراء الملكة المتأثرة باليهودية؟ ويرى بعض المؤرخين أن خبر تهود زنوبيا خبر مختلق، إضافة إلى أنَ الأدبيات الدينية اليهودية تبين بوضوح شديد تمنياتها بأن تنخسف الأرض بتدمر ومن فيها، إذ سجل على لسان الحبر اليهودي يوحانان رئيس آكاديمية طبرية والمعاصر لأذينة وزنوبيا قوله: " مخلدٌ وسعيد من يدرك نهاية أيام تدمر". ويعود بغض اليهود إلى آراء الملكة الفلسفية وآراء الفلاسفة الذين أحاطوا بها، إذ نفذت هذه الفلسفة نفاذاً كبيراً بين يهود تدمر والفرات، كما أنَ حروب أذينة وما تلاها من حروب بين فارس وروما ألحقت ضرر أكبيراً بالجاليات اليهودية التي كان معظمها يديرون تجارتهم بين الدولتين إذ أثار كل ذلك عندهم حقد الأحبار والمتدينين والمتنفذين والتجار على تدمر والتدمريين. لكنَ الأهم، هو أنَ هذا الحشد من المفكرين والفلاسفة والعلماء واحتضانهم في دائرتها الأدبية يدلل بشكل واضح وجلي على ميول الملكة الفلسفية والأدبية والثقافية العالية، وعلى مستوى التسامح الديني الذي كانت عليه. وعلى الغالب، فقد كانت زنوبيا بشكل عام متسامحة مع التيارات الدينية والثقافية الوافدة مع القوافل كاليهودية والمسيحية والمانوية، إضافة إلى الديانات الوثنية التي كانت سائدة وراسخة في ربوع تدمر والمناطق المجاورة.

رغم وصفه بالفيلسوف الإغريقي، إلا أنَ لونجينوس كان على الغالب، سوري الأصل من حمص، غير أنَ مولده غير معروف على وجه الدقة، فالبعض يعتقد أنه ولد في حمص، وآخر يقول: إنه ولد في تدمر، ومنهم من يعتقد أنه ولد في أثينة من أمه السورية، فكان خاله لأمه فرونتو الحمصي Fronto of Emesa يُدرسٌ فن الخطابة في أثينة. ومن الممكن جداً أنَ خاله اهتم بتعليمه وتهذيبه اهتماماً عظيماً، وأورثه وصيته بعد موته. تعلم لونجينوس في الاسكندرية ما استطاع على يد آمونيوس ساكاس Ammonius Saccas وأوريجين الوثني Oregin the pagan تلميذ ساكاس، وعلى فلاسفة آخرين التقى بهم خلال تنقلاته العديدة. واستقر لفترة طويلة (ثلاثين سنة) في أثينة، وأبدى حماساً في

تدريس تلامذته هناك - ومن أشهرهم تلميذه فورفوريوس الصوري- فحاضر في مواضيع النقد والفلسفة والخطابة وفقه اللغة. لذلك كانت معارفه واسعة وعميقة، فأطلق عليه عدة أوصاف، منها: الجامعة المتحركة، المتحف المتجول، والمكتبة الحية. وكان أكثر ما اشتهر به: النقد الأدبي والفني، حتى صار تقديره السليم يضرب به كمثال على الكمال.

ألف لونجينوس العديد من الأعمال في الفلسفة والنقد ضاع معظمها، وكانت محل تقدير عالٍ وكبير، وأهمها: "بحثه في السمو Treatise on Sublime"، وعمله "المحادثات الفلسفية Philosophical Discourses"، و "شذرات على النهايات الجوهرية On the Chief Ends" التي حفظت في كتاب فرفوريوس الذي يتحدث عن حياة بلوتينوس حيث كان لونجينوس معلماً لكليهما.

أظهرت زنوبيا مقدرة فائقة في إدارة شؤون الدولة، فاتبعت سياسة التقرب من الأعراب والتودد إليهم، كما تقربت إلى العناصر العربية المقيمة في المدن والحواضر، وراعت مصالحهم الاقتصادية جميعاً وجعلتهم يشاركون في أعداد الجيش التدمري. والذي يبدو من سيرالحوادث أنّ الملكة زنوبيا لم تقتنع بالمركز الممتاز والثراء العريض اللذين كانت تتمتع بهما تدمر، بل أرادت إقامة مملكة عربية مشرقية تعتمد أساساً على العنصر البشري المحلي المشرقي، خاصة أنها كانت تدرك أن الأعراب الأشداء يمكن أن يكونوا قوة يعتد بها إن نظمت هذه القوة ووظفت توظيفاً جيداً، فبدأت بالعمل على تكوين هذه القوة. فأصبحت قادرة على توسيع مملكتها باحتلال كامل سورية الطبيعية وشمال الجزيرة العربية[1]، ثم جهزت حملة كبيرة وسارت على رأسها نحو الشمال فاحتلت البيثينية[2]* في آسية الصغرى، بعد مقاومة شديدة. فتوجس منها الرومان خيفة. وبتحريض مجلس الشيوخ الروماني عزم الامبراطور غوتيكوس القضاء عليها قبل استفحال أمرها، فألغى قرار اعتراف غالينوس بوهب اللات على تدمر، وأعد حملة عسكرية إلى الشرق بقيادة هرقليانوس، تظاهرت بالتمويه بأنها متجهة إلى الشرق لمحاربة شابور الكبير، إلا أن الملكة زنوبيا علمت بأمر الحملة الحقيقي، فاستعدت لها بالخروج، فانتصرت عليها انتصاراً باهراً، فولت القوات الرومانية الهرب تاركة وراءها قائدها القتيل، وذلك سنة 268 م.

وقع قتال خلال عامي 269-270 بين القوات التدمرية وبين قبائل تنوخ القوية التي كانت تقيم في جنوب غرب وشرق تدمر وتمتد مرابعها إلى غرب الفرات وفي المناطق الشمالية من ولاية العربية حتى مدينة الحيرة. وقد كان جد تنوخ الأول: مالك بن فهم بن

---

[1]- أشارت حوليات ملالاس إلى ذلك بالقول: ".. أخضعت زنوبيا كامل الجزيرة العربية، التي كانت بعض أطرافها خاضعة لسلطة الرومان، حيث تغلبت على القائد الروماني تراوس وجميع قواته التي كانت تحت إمرته في عهد الامبراطور كلوديوس".

[2]*- البيثينية Bithynia منطقة جبلية في آسية الصغرى على البحرالأسود وبحر مرمرة قاعدتها بروسا. أما البثنية Batanaea فبلاد مجاورة لحوران والجولان ما وراء الأردن كانت قاعدتها أذرعات (درعا) - المحقق.

تيم اللات من قضاعة من حميَر. ومن أشهر ملوكهم في الحيرة كان جذيمة الأبرش الذي ظهر اسمه في وثيقة يونانيةً في موقع أم الجمال الواقعة إلى الجنوب من بصرى الشام داخل الأردن الآن. وقد مرت زنوبيا وجيشها من هنا وهم في طريقهم إلى مصر. حيث وجدت صفة التكريم على العديد من أميال الطريق بين عمان وبصرى وهي تصف انتصار وهب اللات وزنوبيا على المنطقة والقبائل المعارضة والتنوخيين، فتصف وهب اللات بـ "العربي الكبير Arabicus Maximus". وربما كانت هذه الأميال تعني أيضاً من ضمن ما تعنيه دليلاً للمُلكية وليس فقط تعريفاً بالطريق. وقد ناصرت تنوخ أورليانوس في حملته على تدمر بعد ذلك بثلاث سنوات[1].

خضعت سورية الكبرى لسيطرة تدمر قبل شروع زنوبيا بحملتها لفتح مصر عبر العربية (العرابيا) وفلسطين. وبذلك نجحت بالسيطرة على العربية وتأمين الطريق الممتد على طريق ترايانا الجديد (طريق تراجان الجديد). ففرض التوسع التدمري إلى مصر سيطرة أمنية على القوافل التجارية المارة عبر شمال العربية من تهديدات التنوخيين.

وضعت الملكة زنوبيا الخطط للاستيلاء على مصر، حيث بدأت بالتمهيد لدى المصريين بالدعوة إلى مصريتها وأنها من نسل الملكة كليوبترا، بحيث لم يغب عن بالها مستوى التقارب الذي خلقه تشابك العلاقات التجارية والمصالح المشتركة الطويلة بين الأسكندرية وتدمر، واللتان تشاركتا معاً في التجارة المشرقية. لذلك، أخذت زنوبيا تترقب الفرص لتنفيذ مخططها.

تعرضت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث (الأزمة الامبراطورية) إلى أزمات شبه مستمرة في الصراع على السلطة وفي كثرة الانقسامات السياسية، إذ كان تدخل الجيش يحسم الصراع لفترة لصالح أحدهم، ثم ما يلبث أن ينقلب من جديد لصالح آخر، وهكذا. مما كان يغري هذه الولايات، وخاصة، البعيدة عن المركز في روما بمحاولة الاستقلال. ولم تكن تدمر ومصر وأجزاء من آسية الصغرى بعيدة عن هذا المراد. إذ شهدت مصر انتفاضات وثورات متعددة خلال فترة هذا القرن للتخلص من الرومان والاستقلال عن روما وتكوين الدولة المصرية التي يطمحون إليها، لكن الفيالق الرومانية كانت تحسم الصراع بالنهاية لصالح روما. وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية أوجها في الفترة بين 249-269 حينما وصل الصراع بين أدعياء العرش إلى أشده، فانقسم ولاء الجيش مما زاد في إضعاف سلطة المركز في روما، فاستغل كثير من الولايات، بما فيها مصر، الفرصة للإنفصال وإعلان الاستقلال.

بعد اغتيال القيصر غاليتوس Gallienus سنة 268 م واعتلاء كلوديوس غوتيكوس العرش وجدت زنوبيا أنَّ الفرصة أصبحت مواتية للسير نحو مصر، فجهزت جيشاً ضخماً قوامه سبعين ألف مقاتل[2] بقيادة زبدا (زبداس) أرسلته لاحتلال مصر بناء على

---

[1] – عرفان شهيد: "روما والعرب"، الصفحة 76، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق.

[2] – Asconians 2- 1.44، Zosimus 1، Historia Nova/ التاريخ الجديد لزوسيموس.

اتفاق مسبق مع بعض زعماء مصر المحليين الذين كان من أبرزهم تيماجينس Timagenes وفيرموس، حيث استغل الوطنيون المصريون المعارضون لحكم الرومان انشغال الحاكم الروماني على مصر (بروبوس (Probus الذي كان قد خرج إلى عرض البحر، بناء على أوامر القيصر، لمطاردة المتمردين القوط ومنعهم من الهرب عبر المضائق البحرية في شمال المتوسط، فكتبوا إلى الملكة يشجعونها على تحرير مصر وتولي الحكم فيها، ووعدوا بتقديم الدعم المادي وبكل ما يستطيعون إن استجابت لهم. استطاع زبدا أن ينتصر على الجيش الروماني الذي ترك في مصر بعد خروج بروبوس لملاقاة القوط. وبعد استقرار الوضع قرر زبدا العودة إلى تدمر بعد أن ترك حامية تدمرية صغيرة مؤلفة من حوالي خمسة آلاف جندي تحت إمرة تيماجينس كنائب للملكة زنوبيا على مصر.

عاد بروبوس مسرعاً إلى مصر، فجمع جيشاً من المصريين الموالين لروما، إضافة إلى القوة الرومانية التي كانت معه، وزحف على الأسكندرية وأعمل السيف في الحامية التدمرية وحلفائها من المصريين. فلما سمعت زنوبيا بذلك، أمرت زبدا بالعودة إلى مصر لاستعادتها وطرد الرومان منها، فجرت معارك بين الطرفين بالقرب من مشارف بابيلون Babylon (الفسطاط) وعلى حصنها توجت بانتصارزبدا وتيماجينس، وذلك بعد أن كاد النصر ينعقد للقائد الروماني لولا حركة الالتفاف التي قام بها تيماجينس نتيجة لكفاءته ومعرفته بالأرض، حيث أحرزا النصر على القوات الرومانية.

وبذلك تم استعادة مصر لتشكل الجزء الرئيسي من مملكة تدمر. وقد جرت الأحداث الأخيرة صيف 270 م في آخر أيام كلوديوس الثاني الذي خلفه شقيقه كونتيلوس الذي اغتيل بعد تنصيبه قيصراً بشهر واحد، ليجيء أورليانوس.

كانت الخسارة التي ألحقتها زنوبيا بالجيش الروماني بالغة الأثر في نفوس الرومان. وقد مثل إلحاق مصر بالمملكة التدمرية ضربة قاسية للامبراطورية الرومانية، لأن مصر كانت تمثل درة التاج الروماني ومصدر غذائها الأول. لكن، ونتيجة للأزمة التي تعيشها الامبراطورية في مواجهة الثورات المتعددة في الشرق والغرب وعلى الأطراف الشرقية مع الفرس، ارتأ الرومان التعايش مع الوضع الجديد إلى حين، فتم عقد اتفاقية بين الطرفين، في أواخر حكم كلوديوس، وافقت فيها روما على بقاء جيش تدمر وسيطرته العسكرية على مصر، والسماح لتدمر بمد وكالتها على أرمينية، وذلك مقابل اعتراف تدمر بسيادة روما على مصر وأرمينية. ودام هذا الاتفاق خلال الفترة الأولى من تولي أورليانوس على العرش الروماني (270م). وتم سك وجهي قطع النقد المعدنية بصورة مزدوجة لوجه القيصر أورليانوس، موصوفاً بأغسطس، مع وجه وهب اللات بوصفه القائد الأعلى للجيش Dux Romanorum، إضافة إلى لقب نائب الامبراطور الذي ورثه عن والده، حيث تشير الصورتان على وجهي القطع النقدية إلى حكم مصر المزدوج بين الرومان والتدمريين.

لم يدم هذا الاتفاق طويلاً بين الطرفين، نتيجة للضغط والتحريض المستمرين من جانب مجلس الشيوخ والجيش وسادة الدولة وأشرافها، لاعتقادهم بأنّ الإهانة التي

لحقت بهم من تدمر وملكتها لا يمكن نسيانها، وأنّ احتلال تدمر لمصر وأطماعها في بقية سورية الكبرى وأجزاء من آسية الصغرى يعد تصدعاً خطيراً في جسم الامبراطورية. لذلك، بدأ الامبراطور أورليانوس بتجهيز حملته إلى الشرق لاستعادة سلطان روما على مصر وتدمر وبقية مناطق آسية الصغرى وسورية حتى حدود ولاية العربية الجنوبية لوضع حد لطموحات زنوبيا وإنهاء مملكتها، وذلك بعد أن يفرغ من إنهاء تمرد الغاليين وبعض القبائل الجرمانية في الغرب. فقام بسك نقوده الخاصة ووضع عليها صورته يحيط بها العبارة التالية: مسترد الشرق ومستعيده.

لما علمت زنوبيا بنية أورليانوس بالقدوم إلى الشرق على رأس حملة عسكرية كبيرة للقضاء عليها وإعادة كل البلاد والأراضي التي استولت عليها، أخذت بالاستعداد، وألغت الاتفاق الذي عقدته مع روما خلال فترة حكم الامبراطور كلوديوس، وألغت صورة أورليانوس عن النقود تأكيداً على فك الارتباط مع روما، وضربت صورة وهب اللات وحده على العملة النقدية[1]، وعلى الوجه الآخر صورتها، وأطلقت على نفسها لقب الأوغسطا: لقب القيصر الروماني، وأعلنت استقلالها بشكل نهائي عن روما، فشكل ذلك تحدياً صريحاً وواضحاً لقيصر روما ولوحدة الامبراطورية.

استبقت زنوبيا ما بلغها من نية أورليانوس بغزوها بعد أن ينهي قمع التمرد في الغرب، فأرسلت مبعوثيها للاتفاق مع وكتوريا/ فكتوريا Victoria زعيمة الغاليين في الغرب لتوحيد الخطط والجهود لمهاجمة الامبراطورية الرومانية في عقر دارها روما واقتسامها بينهما. لذلك، وبعد أن سحبت معظم جيشها الذي كان يعسكر في مصر معتمدة على الاتفاق مع المصريين ليقوموا بالدفاع عن مصر إذا هاجمها الرومان، أرسلت قواتها نحو الغرب من آسية الصغرى في جزئها الشمالي الغربي المشرف على البحر الأسود وبحر مرمرة، لملاقاة زحف جيش أورلياتوس، واستمرت بالتقدم دون مواجهة حقيقية حتى بلغت Chalcedon/ خلقيدون على البوسفور بإزاء القسطنطينية. حتى أنّ الملكة أمرت بصنع عربة ملكية فاخرة للدخول فيها إلى روما بموكب نصر كانت تخطط له. وربما كان تقدم زنوبيا باتجاه البوسفور قد أملته الضرورات الدفاعية بعيد احتلال مصر لمواجهة رد الفعل الروماني المتوقع، وذلك بتحصين وإحكام طرق الدخول إلى سورية. وجاء تقدم زنوبيا باتجاه البوسفور (بداية 271م) في الفترة التي كان أورليانوس منشغلاً في حملته على البلقان ضد القوط. وفي نهاية 271 وبداية 272 تقدم أورليانوس بعد أن وضع حداً لتمرد القوط، فوصل إلى بيزانسيوس عبر البحر وتقدم حتى أنقرة وطايانا في كبادوكية الجنوبية الغربية مقترباً من المدن التي كان قد احتلها التدمريون.

انتهز أورليانوس فرصة انسحاب القوات التدمرية من مصر، فأرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة بروكوبيوس إلى مصر، فوقعت معارك بين قوات زبدا القائد التدمري- الذي

---

(1) – تعد المسكوكات التي ضربتها زنوبيا باسمها وباسم ابنها وهب اللات، والألقاب الامبراطورية التي اتخذتها لنفسها ولابنها، بمثابة استقلال سياسي واقتصادي عن الامبراطورية.

عاد مسرعاً إلى مصر لمساعدة نائب الملكة المصري فيرموس Firmus بعد عودة قوات بروبوس[1] - والقوات الرومانية كاد النصر أن يكون حليف زيدا والمصريين لولا استمالة جماعة من المصريين إلى جانب القائد الروماني، فاندحر زيدا ومن معه تاركين مصر للرومان، وذلك في صيف271م. فكانت هذه أول نكبة حقيقية تنزل بزنوبيا. ولا شك أنها وقعت وقعاً عظيماً عليها، بحيث فتحت الطريق أمام الفيالق الرومانية لتهديدها عسكرياً من الجنوب عن طريق مصر ومن الشمال لمهاجمة قواتها المتوقفة عند خلقيدون، مما حتم عليها وضع خطط جديدة للانتقال من الهجوم إلى الدفاع. والاعتقاد التاريخي السائد أنه لو كان باستطاعة زنوبيا حسم المعارك ضد روما عسكرياً، وذلك باستمرار الاندفاع نحو الغرب، لما تأخرت في ذلك. لذلك، وأمام الانكسار في مصر وخسارتها وعدم قدرة قواتهاعلى التقدم نحو الغرب واندفاع القوات الرومانية الضخمة عن طريق البوسفور، قررت التراجع بعد عبور الفيالق الرومانية للبوسفور للاشتباك مع قواتها في البيثينية أواخر 271 وأوائل 272، ومتابعة اندفاعها إلى غلاطية وكابادوكيا وأنقرة. وقد تطرق زوسيموس في "التاريخ الجديد" إلى ذلك قائلاً: ".. بعد أن وضع أورليانوس حداً للفوضى في الغرب، تهيأ بجيشه لغزو تدمر التي سيطرت على مصر وكل منطقة المشرق، فوصلت إلى أنقرة في غلاطية والبيثينية وخلقيدون شمال غربي آسية. لكن، ما أن سمع سكان البيثينية بزحف أورليانوس نحو الشرق حتى بدؤوا يتحركون ضد سلطة تدمر".

تقدم أورليانوس بقواته نحو الشرق، ولم يواجه مقاومة حتى وصل إلى مدينة طايانا Tyana التي أغلقت أبوابها بطريق تقدمه بناء على أوامر زنوبيا. صرخ القائد الروماني وهو على أبواب المدينة- كما روى فوبيسكوس: " لن أترك حياً ولو كان كلباً". لكنه، وفي اليوم التالي، قرر المحافظة على المدينة بعد دخولها، مما أدى لامتعاض الجند. فجاء رده عليهم: أن اقتلوا جميع كلاب المدينة، وذلك بعد تذكيرهم له بوعده في اليوم السابق. وحسب رواية فوبيسكوس في التاريخ الأوغسطي، قام الإله أبولونيوس Apollonius، ابن زيوس، بزيارته الغامضة والمشهورة لخيمة الامبراطور وهو على أبواب طايانا زائراً على شكل طيف في الليلة التي وصل فيها القيصر المدينة، طالباً منه الحفاظ على المدينة؟ في هذه الأثناء كانت زنوبيا تعبر بجيشها المدينة نحو أنطاكية معتقدة أنها ستختار أرض المعركة لمواجهة الفيالق الرومانية ودحرها هناك.

وصلت زنوبيا بجيشها إلى أنطاكية قبل وقت من وصول أورليانوس، وأخذت بإقناع سكان المدينة بأنها وقائد جيشها زيدا[2] سيتمكنان من حماية المدينة من الرومان. اقتربت

---

[1] - نادت فرق الجيش الروماني في مصر ببروبوس والي مصر إمبراطوراً، وذلك بعد أن اغتال الجنود الامبراطور فلوريانوس في أيلول 276 م، فايدتها فرق الجيش التابعة لها في سورية، وتبعتها فرق الجيش في الدانوب وايطالية، فذهب بروبوس إلى روما حيث نادى به مجلس الشيوخ إمبراطوراً (انظر ص 25).

[2] - ذكر د. عرفان شهيد في كتابه "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق، الصفحة 239: (.. وإضافة إلى تفوق القيادة الرومانية على القائد التدمري المتوسط الكفاءة العسكرية زابداس (زيدا)، يمكن تعليل الهزيمة العربية بحقيقة أن قوة التدمريين العرب كانت تعتمد بالكامل على مدينة واحدة فقط، إضافة إلى أن الفرق الرومانية المحاربة كانت مفتوحة على عمقها الامبراطوري بكل ما يعنيه ذلك من معنى).

فرق الرومان من الجهة الشرقية للمدينة واستعدت معسكرة خارج أنطاكية على نهر العاصي. وكان من تجهيزات الجنود التدمريين، وبخاصة فرسان الخيالة، أن يتسربلوا بالحديد والدروع، والذي كان يسبب بطءاً بالحركة وشعوراً بالتعب والإرهاق بعد وقت من سير المعارك والمناورات التي تجري على أرض المعركة. كان القيصر يعلم كفاءة فرسان تدمر، لذلك وضع خطته[1] على غير عادته في خوض المعارك الإستراتيجية، وذلك بتشكيل خيالته ضمن مجموعات صغيرة متفرقة، وبعيداً عن المشاة، وأمرهم بعدم الاشتباك المباشر مع جنود تدمر، وأن يناوروا بالتراجع لإيهام التدمريين بالهزيمة أمام اندفاعهم، وذلك لتشتيتهم باتجاهات مختلفة بعيداً عن مراكز قواعدهم. فوضع فيالق مشاته على طول النهر، ثم حرك خيالته بدلاً من الاشتباك مع العدو، بحيث تظاهرت بالانسحاب أمام خيالة زنوبيا. مما دفع زبدا وخيالته لملاحقة المنسحبين لمسافة بعيدة (بالقرب من بلدة إمّا Immae)، حيث سببت الملاحقة وحرارة شهر آب تعباً وإرهاقاً شديدين للخيالة التدمريين وهم تحت ثقل دروعهم. حتى إذا تم ذلك، انكسرت سلسلة القيادة في جيش زنوبيا، فالتفت خيالة أورليانوس- حسب الخطة التي أعدها للقتال، وهي تحمل أسلحة ودروعاً خفيفة بغية سرعة الحركة والمناورة ضد جنود وخيالة ورماة زنوبيا المثقلين بالأسلحة والدروع- بالقيام بهجوم معاكس وصاعق من قوات فرسانها التي كانت تنتظر في الأطراف، وهي قوات خفيفة الحركة بالمقارنة مع فرسان تدمر المثقلين بالأسلحة والمعدات، فانقلبت الكتائب الرومانية بسرعة خاطفة على كتائب الفرسان التدمرية عماد جيش زنوبيا، وأتبع ذلك بشن المشاة الرومان هجوماً سريعاً على تجمعات المشاة التدمريين، فأعملت بهم القتل، فتمكنوا من الإطباق عليهم، مما أدى إلى فرار البقية من جيش تدمر. وبذلك كانت هزيمة منكرة لزنوبيا وجيشها.

انسحبت زنوبيا وقواتها إلى داخل مدينة أنطاكية، وادعوا بانتصارهم وأسرهم للقائد الروماني أمام السكان المحليين، وعرضهم شبيه أورليانوس في شوارع المدينة، لخوفهم من انتفاضة السكان ضدهم. وربما كان ذلك لتغطية انسحابهم من المدينة ليلاً قبل أن تصحو فتجد نفسها معرضة لدخول الرومان دون حماية.

بالتشاور مع أركان جيشها ومستشاريها، قررت الملكة زنوبيا ترك أنطاكية والانسحاب منها بسرعة، لرؤيتها عدم الجدوى من الاستمرار في المواجهة، وذلك لأسباب متعددة، منها وجود جالية رومانية كبيرة في المدينة كانت ترى في حكم الرومان لها فضلاً على حكم التدمريين، إضافة إلى أن الأنطاكيين النصارى كانوا ضد زنوبيا ضمناً لأنها وقفت موقفاً موالياً لبولس السميساطي، الذي كان عزله مجمع أنطاكية من وظيفته، بأن جعلته الرئيس الديني والدنيوي على أنطاكية، كما أن يهود المدينة كانوا أيضاً على خلاف مع الملكة لأسبابهم. فانسحبت زنوبيا مع جيشها من المدينة متجهة إلى حمص. فدخل أورليانوس المدينة في اليوم التالي ومنحها الأمان.

---

(1) - HA.. V, Aur, 25, 1 and Zos. 1, 50, 3

مرة أخرى ظهر طيف وسيط الوحي أبولونيوس في حضرة أورليانوس طالباً منه الحفاظ على المدينة، كما في الليلة السابقة لفتح طايانا.

وضعت الانتصارات الرومانية في آسية الصغرى زنوبيا ورجال حكمها في وضع لا يحسدون عليه، إذ بدأت المدن والبلاد التي كانت إلى جانبها تأخذ جانب الرومان لإدراكهم عزم الرومان على القضاء على حكم تدمر وإخضاعها لحكم روما، خاصة أنهم يسمعون عن جيش أورليانوس الهائل القادم لهذا الغرض، وأن إرادة الآلهة قد قضت بذلك، إلى نهاية ما بثته دعاية الرومان وأعداء تدمر للتأثير على معنويات زنوبيا وجيشها.

تعقب أورليانوس زنوبيا وقواتها متجهاً إلى حمص، فاستولى على عدد من المدن وهو في طريقه إلى حمص. وكان جيش تدمر يستعد لمواجهة الرومان في منطقة خالية فسيحة تقع إلى الشمال من مدينة حمص. وقد كان هذا الاختيار مستغرباً، في حين كان بمقدور زنوبيا الاعتصام وراء أسوار مدينة حمص وقلعتها. ولوفعلت ذلك، فلربما تغير مسير المعركة؟ اشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس كسب فيها التدمريون الجولة الأولى، لكنّ قيادة زنوبيا لم تتعلم من أخطائها في معركة أنطاكية بعدم الاستمرار بملاحقة الفرسان الرومان بعيداً عن مراكزهم، والبقاء قريبين من مشاتهم. مما جعل القيادة الرومانية بخبراتها القتالية المتراكمة (الطرق القتالية المتعددة والمفاجئة؛ تشكيلات فيالق المقدمة، قوات التحالف، والوحدات الاحتياطية..) عبر العصور أن تستغل هذا الضعف، فقررت مهاجمة تجمعات المشاة التدمريين عند ابتعاد فرسانهم عن تجمعاتهم وهم يطاردون خيالة الرومان التي– حسب الخطة الموضوعة– أوهمت الخيالة التدمريين بالهرب، فبدؤوا بمطاردة الخيالة الرومان بكل ما أوتوا من قوة وسرعة، وكأنهم غير مرتبطين بخطة قتالية معدة، فأصابهم التعب وهم مثقلون بدروعهم وأسلحتهم الثقيلة، فانكسرت سلسلة القيادة مرة أخرى كما حدث في أنطاكية. وهكذا قامت فيالق الرومان بالإطباق على مشاة زنوبيا، فمزقوها شر ممزق، فحلت الهزيمة بجيش تدمر، مما اضطرها للانسحاب بسرعة وترك حمص، متجهة إلى ملاذها الأخير داخل أسوار تدمر. وقد جاء في رواية زوسيموس تعليقاً على هذه المعركة: ".. إنّ الكثير من فرسان تدمر وقعوا في أسر المشاة الفلسطينيين الذين شكلوا فكي كماشة، فكانوا بأسلحتهم الخفيفة أقدر وأسرع في الحركة والمناورة".

نجت زنوبيا وبقية جيشها من معركة حمص متجهين إلى تدمر التي تبعد 160كم. وبدؤوا يتحصنون داخل أسوار المدينة العالية المنيعة والمعدة بشكل دفاعي جيد لمقاومة الحصار.

حصار تدمر

دخل أورليانوس بجنوده مدينة حمص، وكان أول شئ قام به الذهاب إلى معبد إله الشمس الحمصي، حيث قدم له الشكروالامتنان لانتصاره على زنوبيا وعلى التدمريين[1].

وقرر وهو على رأس الجيش الزحف بسرعة إلى تدمر قبل أن تتمكن الملكة زنوبيا من استكمال تحصين المدينة والاتصال بالقبائل العربية المحيطة بالمنطقة وتحشيدها، أو حتى الاتصال بالفرس لعقد التحالف معهم للتصدي للزحف الروماني. وصل حشد أورليانوس إلى أطراف تدمر- رغم الصعوبات التي لاقاها لأنه كان يحث السير مسرعاً، وقد اعترضه الكثير من الأعراب- وألقي الحصار على المدينة الحصينة، بحيث أحاطت الفرق الرومانية معسكرة في جميع أطراف مدينة تدمر، وبدأت بالاستعداد للهجوم بعد راحة مقررة من عناء زحفها السريع من حمص إلى تدمر. وفي الوقت الذي كانت زنوبيا تقوم بتفقد مستويات الدفاع على الأسوار، كان المدافعون قد فرغوا من إعداد الآلات الحربية والمنجنيقات والقذائف والرماة فوق الأسوار وعلى الأبراج، وهم يهزؤون بالقوات الرومانية التي تحاصر الأسوار كما لو أنَ استيلاءها على المدينة أمر مستحيل (Zos, 1,53, 2-3).

بدأ الجيش الروماني باقتحام الأسوار، فرد المدافعون بمواجهة القوات المهاجمة بشدة وضراوة بإلقاء الحجارة والقذائف وكتل النيران المشتعلة عليهم. وهكذا، استمر الحصار على المدينة دون أنَ يستطيع القيصر الروماني اختراق الأسوار رغم تكرار محاولات الاقتحام، حيث ظهر أن القيصر لم يكن على دراية تامة بدفاعات المدينة من داخل الأسوار وعليها . حتى وصلت الأخبار إلى روما، التي أخذت تسخر من عجز القيصر عن فتح المدينة والتغلب على امرأة، مما أدى إلى ضيق أورليانوس الشديد من ذلك، فأقسم على فتح المدينة وهزيمة زنوبيا مهما كلفه ذلك. مع ذلك كتب مخاطباً مجلس الشيوخ الروماني لرد التهمة عن نفسه: " قد يسخر مني البعض لمحاربتي امرأة، اعلموا أن زنوبيا تقاتل أفضل من أشجع الفرسان" .

تكبد الرومان الكثير من الخسائر من قبل الرماة دون مقابل في الجانب التدمري واندفعت قواتهم بالهجوم من كل الجبهات وبوقت واحد، وهي تحت دروعها اتقاء رماة الأسوار والقذائف، وتكررت محاولاتهم مرات عديدة، خلال أيام، إلا أنها ردت جميعها على أعقابها متكبدة خسائر كبيرة. اتضح للامبراطور أنَ اقتحام الأسوار غير مجد، فبدأ بتغيير خطط الهجوم أكثر من مرة؛ فحفر خندقاً دائرياً خلف عساكره لحمايتهم من مفاجئات حلفاء تدمر من القبائل العربية على أطراف تدمر البعيدة، وبإقامة جدار باستعمال أشجار النخيل المحيطة مقابل الأسوار وأمام قواته من ناحية المدينة، وبناء ممر

[1] - المشرق، السنة الأولى، الجزء 22، ص 1036، لعام 1898م.

معلق يمده فوق الجدار لتسهيل هجومه، وبناء أبراج متحركة، فكان المقاتلون التدمريون يقومون ليلاً ونهاراً بتخريب ما بناه الرومان. لكن الرومان، بعد أن قطعوا معظم الأشجار المحيطة، نجحوا في بناء أبراجهم الهائلة والمختلفة الأحجام وإعدادها وتجهيزها مع آلات المنجنيق لبدء الهجوم الضاري، وذلك بعد أن تم استكمال جميع الاستعدادات، إلا أنّ النتيجة لم تتغير إلى ما خطط له أورليانوس، بل على العكس شعر التدمريون بقدرتهم ونجاحهم بكفاءة برد جميع محاولات الهجمات المتكررة. ورأى كل من الفريقين المتحاربين أنّ استمرار الحصار سينهك الخصم ويقوده لطلب الاستسلام أو الانسحاب، مع ذلك استمرا في عض الأصابع، في الوقت الذي لم ينقطع فيه تدفق الإمدادات العسكرية والتموينية إلى القوات الرومانية من حاميتهم المعسكرة في أنطاكية.

طال الحصار دون أمل بفتح المدينة. فبدأت مظاهر التعب والإرهاق تظهر تباعاً على جيش أورليانوس، والشعور بالغضب من الفشل في اختراق الحصار، ومن رؤية رفاقهم من الجنود يسقطون الواحد بعد الآخر بفعل بالمقذوفات النارية والحجرية وبرماح وسهام رماة تدمر المنطلقة من فوق الأسوار، حيث كان الرماة فوق الأسوار يمارسون براعتهم في قنص الجنود الرومان وهم تحت أقدامهم. بدأت مظاهر الهرج والمرج والتذمر بين صفوف الرومان احتجاجاً على هذا الوضع وهم يرون رفاقهم يسقطون أمامهم. أدرك الامبراطور أن استمرار الحصار سيؤدي في النهاية إلى تناقص شديد في المؤن داخل الأسوار، لإحكامه الحصار خارج الأسوار لمنع أي مؤن إلى داخل المدينة. وبدأت التقارير تصل إليه عن ازدياد النقص في الغذاء والماء والمؤن داخل المدينة، مما جعله يمدد الحصار فترة أخرى.

وضع أورليانوس الخطط للقيام بالهجوم وفتح المدينة مهما كلفه ذلك، إذ أنه كان يرى أنّ سمعته وتاريخه كقائد عسكري وامبراطور لروما سيدة العالم في الميزان أمام مجلس الشيوخ الروماني وأمام مواطنيه وأمام التاريخ، خاصة أنّ امرأة هي من يقف في طريق تحقيق أهدافه. لكنه قبل أن يقوم بالهجوم قرر أن يعطي الملكة زنوبيا فرصة للاستسلام، ولتوفير خسائره نتيجة للهجوم المزمع تنفيذه، بأن كتب رسالة[1] باليونانية إلى الملكة يطلب منها الاستسلام مقابل الإبقاء على حياتها وأفراد عائلتها، وجاءت كما يلي: " من أورليانوس، امبراطور العالم الروماني ومستعيد الشرق، إلى زنوبيا وكل الآخرين المرتبطين بالتحالف معها في الحرب. يجب عليك أن تختاري بإرادتك الحرة ما أمليه في كتابي هذا، إذ آمرك بالاستسلام، متعهداً بالإبقاء على حياتك أنت وأولادك، إذ ستقيمون في المكان الذي أقرره، وسأقوم بذلك كأعظم ما يبتغيه أنبل عضو في مجلس الشيوخ. كما يجب عليك أن تسلمي مجوهراتك وذهبك وفضتك وحريرك وخيولك وإبلك، كله، إلى خزينة الدولة الرومانية. وعلينا المحافظة على حقوق الناس في تدمر".

[1] – رواية فوبيسكوس في مخطوطات "التاريخ الأوغسطي":

XXV-XXXIV ،H.A ،Vopiscus: Aurelianus' Conquest of Palmyra

رغم معرفتها أنها في النهاية لن تستطيع هزيمة أورليانوس، لكنها لن توافق على الاستسلام. وكان رأي بعض مستشاريها الموافقة على ما طلبه أورليانوس بالتخلي عن الأقاليم التي احتلتها (مصر وأرمينية وآسية الصغرى) والإبقاء على مدينة تدمر والمناطق المجاورة وسورية، لكنّ لونجينوس مستشار الملكة الأول لم يوافق على ذلك، وذلك لإدراكه من مجريات التاريخ وخاصة تاريخ الشخصية الرومانية وتاريخ أورليانوس، بأنه لن يكتفي بذلك بعد تنفيذ شروطه. فكان السؤال المطروح للنقاش في مجلس الملكة هو: إما الاستسلام أو الاستمرار بالمقاومة (المصدر السابق). قامت زنوبيا بالرد، بعد التشاور مع مستشاريها وأركانها، بالرسالة[1] التالية التي كتبها نيكوماخوس باللغة الآرامية كما أملتها عليه الملكة، وتم ترجمتها إلى اليونانية لإرسالها إلى أورليانوس: "... من زنوبيا ملكة الشرق، إلى أورليانوس العظيم Aurelianus Augustus: لم يتجاسر أحد من قبل بالكتابة لي: أن أئتمر بما تطلبه الآن. تريدني أن استسلم لك. أنسيت أن الغلبة تكون بالشجاعة والبسالة لا بتسويد الصفحات. ألا تعلم أن كليوبترا آثرت الموت على حياة الذل بالاستسلام والأسر. فها أنا منتظرة حشود حلفائنا من الفرس والأرمن والعرب آتية من كل صوب، فإنك عندئذ، وبكل تأكيد ستترك غطرستك هذه التي تأمرني الآن بالاستسلام[2].

تكررت هجمات الفيالق الرومانية بمختلف أنواع تجهيزاتها واستعداداتها دون تحقيق نتائج مرجوة. بيد أن نقص المواد التموينية الشديد بدأ يقلق الملكة ومعاونيها، إلى حد أصبح الاستمرار على تلك الحالة غير ممكن لأن المتبقي من المواد الغذائية بات لا يكفي إلا أياماً معدودة، وإلا فالناس داخل المدينة قد تبدأ بالتعرض للجوع. وأن انتظار قدوم قوات التحالف من الأعراب والأرمن الذين يعسكرون بعيداً عن أطراف المدينة قد طال. وقد بعث أورليانوس رسولاً إلى قادة التحالف من الأعراب والأرمن للتفاوض معهم وإقناعهم بالتحالف معه بدلاً من تحالفهم مع ملكة مهزومة لا محالة، فتمكن من إنجاز الاتفاق لمصلحته.

استمر الحصار حول المدينة[3]، في الوقت الذي كانت زنوبيا تعمل على كيفية تأمين المساعدة من جانب الفرس الذين كانوا أعداء مشتركين لتدمر وروما. وخرجت زنوبيا من المدينة عن طريق ممر سري، وتم ترتيب الاستعدادات عند نهاية الممر السري وراء خطوط الرومان مع إبل السباق والمرشد الصحراوي، وفصيلة من الفرسان المعروفين بإقدامهم وبأسهم، حيث كان قد تم الاتفاق على التقاء أفراد الفريق وهم متفرقون عند نهاية الممر السري. كما تم وضع فريق آخر مزود بالقوارب اللازمة على ضفة نهر الفرات الغربية لحمل أفراد الفريق والإبل معهم لاجتياز النهر إلى الجانب الشرقي منه. عبرت الملكة

---

[1] – أصبحت صياغة هذه الرسالة التاريخية موضوع خلاف شديد بين المؤرخين والدارسين؛ بين من يرى أن من كان وراء هذه الصياغة هو لونجينوس، مستشار الملكة الأول، وبين رأي آخرين أنه حاول أن يثني الملكة عن كتابة رد بمثل هذا التحدي؟

[2] – فوبيسكوس: "التاريخ الأوغسطي"، 26، 27.

[3] – ذكر بعض المؤرخين أن حصار أورليانوس لتدمر استمر لأربعة أشهر تقريباً؟

وبعض من فريقها الممر السري ليلاً، واجتمعوا عند نهايته الأخرى، فشدوا الرحال السريع نحو شاطئ الفرات الغربي لاجتيازه إلى الضفة الشرقية على ظهر المراكب التي كانت تختبئ وراء الأشجار الكثيفة في المكان المتفق عليه.

ظهرت فرقة الجنود الرومان الخاصة المكونة من مائة جندي مع قائدهم (Centurion) [1] فجأة عندما كان فريق الملكة يصعد إلى المراكب، فأطبقوا على زنوبيا ومن معها، ثم اقتادوا الجميع عائدين إلى معسكر أورليانوس حيث مثلوهم أمام الامبراطور في خيمته. ومن غير الواضح حتى هذا التاريخ كيف علم القيصر بخطة زنوبيا. فبينما كانت تهم بعبور الفرات، على قارب، أسرها الجنود الرومان الذين ربما كانوا ينتظرونها هناك، أو ربما كان توقعاً واستباقاً من القيصر. وافق مجلس المدينة المحاصرة بعد مشاورات كثيفة على شروط أورليانوس دون قيد أو شرط ما عدا المحافظة على حياة زنوبيا وابنها، وتقديم وعد شفهي بالمحافظة على المدينة والأسوار والسكان، وذلك بعد أن علموا بأسر ملكتهم[2]، ففتحوا البوابات وأعلنوا الاستسلام وذلك في بداية عام273.

لم يرسل الفرس الساسانيون نجداتهم ومددهم من أجل نصرة ملكة تدمر- بل من أجل هزيمة الرومان أعدائهم التاريخيين لو فعلوا- لأنهم كانوا منشغلين بأمورهم الداخلية بعد موت شابور الأول سنة271، حيث تولى بعده هرمز الذي كان ملكاً ضعيفاً، وعزل بعد سنة من حكمه، فبدأت الفتن الداخلية تطل برأسها. ولذلك لم يكونوا في الوضع الذي يسمح لهم بفتح مواجهة جديدة مع الرومان. أما قبائل الأعراب التي كانت تعول عليهم زنوبيا فقد انقلبوا على تحالفهم معها وانضموا إلى أورليانوس الذي أقنعهم بهزيمة زنوبيا الحتمية وأغراهم بوعوده إن وقفوا إلى جانبه، وإلا سيلحق بهم الغضب الامبراطوري[3].

---

(1) – قائد الفصيل أو الفرقة من مائة جندي في الجيش الروماني. ولكيفية إلقاء القبض على زنوبيا، انظر: HA, V, Aur, 26, 1-4

(2) – أوحى المؤرخ اليوناني الأصل زوسيموس في" التاريخ الجديد": أن الخيانة في معسكر زنوبيا كانت وراء أسر الملكة على ضفاف الفرات. علماً أن زوسيموس كان متأخراً على"التاريخ الأوغسطي" الذي أخذ منه معظم المؤرخين اللاحقين. فقد كُتب "التاريخ الأوغسطي" في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، بينما كتب "التاريخ الجديد" في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع. ويروي عرفان شهيد في كتابه "روما والعرب"، ص 193، الحاشية رقم 2، ترجمة قاسم سويدان، بأن مصادر زوسيموس في "التاريخ الجديد" عن فيليب العربي كانت في معظمها من ديكسيبوس Dexippus، ومعظم مصادره عن زنوبيا وماوية من يونابيوس Eunapius. كما ذكر شهيد في كتابه المشار إليه في الصفحة 197، قائلاً: (كانت تدمر زنوبيا هي ما استفاض زوسيموس في الحديث عنه، بحيث وضع لها رواية بولغ في طولها حتى أخذت اثني عشر قسماً من الكتاب الأول من "التاريخ الجديد": 1، 44، 50، 61).

(3) – ذكر شهيد في كتابه" روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان، ص 76، الحاشية رقم 1، قائلاً: (من الصعب القول من كانت هاتين الوحدتين من الفرسان السرقينيين. لكن المثير حقاً هو الاعتقاد أنهما كانتا الوحدتين اللتين حاربتا معه ضد التدمريين (مع أورليانوس) واللتان لم تكونا إلا من عرب التوخيين الذين كانوا على عداء متأصل مع التدمريين).

وكتب جواد علي في"المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص121: (وأما القبائل فأمرها معروف، إنها مع القوي ما دام قوياً، فإذا ظهرت عليه علائم الضعف، صارت مع غيره. تحرش قسم منها بجيوش الرومان المحاصرة للمدينة وهاجمتها، غير أنها منيت بخسائر فادحة، فتركت التحرش بالمحاصرين. ورأى قسم منها الاتفاق مع القيصر،

ويقال، حسب رواية "التاريخ الأوغسطي"، أنّ أورليانوس منع جنوده الغاضبين من استباحة المدينة. وقبل مغادرته ترك فيها حامية رومانية من ستمائة رجل وأمّر عليهم ساندريون Sandarion، ثم غادر تدمر باتجاه الغرب.

وحسب رواية زوسيموس في كتابه "التاريخ الجديد"، ورواية فوبيسكوس عن أورليانوس في "التاريخ الأوغسطي"، أجريت محاكمة زنوبيا ومساعديها في حمص، فأبقى أورليانوس على حياتها لعرضها في موكب النصر العظيم الذي كان يخطط لإقامته في روما. وأجريت محاكمة لونجينوس ونيكوماخوس والبقية، لأنّ زنوبيا ألقت باللائمة عليهما أنهما كانا وراء صياغة الرسالة إلى الامبراطور، وأنهما من كانا وراء تمرد تدمر ضد القيصر[1]. ذهب البعض بعيداً بأنها وضعت اللوم كله على لونجينوس، إلا أن آخرين رأوا أنها أكدت بالأدلة خلال المحاكمة على عدم مسئولية أي من مستشاريها[2]. وقيل إن القيصر وضع اللوم على المستشارين عن عمد ومعرفة للإبقاء على حياة زنوبيا. وقيل أيضاً إن القيصر لم يرغب برؤية لونجينوس خلال المحاكمة خشية أن يحمله منظره الوقورعن الإحجام عن قتله؟ ويروى أن زنوبيا طلبت من القيصر العفو عن لونجينوس، فأبى، فطلبت أن تعدم بدلاً منه، لكنه رفض ذلك أيضا؟ وقيل أن القيصر كان يمني نفسه بموافقة زنوبيا على الزواج منه؟ أو أنه أراد الإبقاء عليها لعرضها في عيد النصر في روما، كما أسلفنا؟

استقبل لونجينوس الموت بشجاعة كفيلسوف، فلم ينبس بشكوى أو استعطاف، ولم يبد أي نوع من الخوف أو الرهبة، وهون الأمر على أصدقائه الحاضرين تنفيذ إعدامه بثبات سقراط الهادئ وهو يتبع جلاديه، فمات كرجل شجاع لم يشعر برهبة الموت. ولم يدرك القيصر الروماني أنه بإعدامه لونجينوس إنما يعدم أهم وأنفس ثروات تدمر والعالم، كما لم يدرك أيضاً أنه حررَ روح لونجينوس الفيلسوف من المهانة. وهنا يصدق قول المؤرخ وايت هيد معلقاً على مقتل الرومان لأرخميدس في القرن الثالث قبل الميلاد على مقتل لونجينوس أيضاً، حيث قال: " لقد كان الرومان من سلالة عظيمة، إلا أنهم ابتلوا بالعقم إذ انصرفوا عن التأمل واهتموا بشؤون الحياة".

وصلت الأخبار إلى أورليانوس وهو في مدينة تراقية بطريقه إلى روما، تعلمه بتمرد تدمر وقتل قائد وأفراد الحامية التي تركها هناك، وإقامة أنطيوخس بن حيران أخ أذينة ملكاً عليها. فقرر العودة مسرعاً إلى تدمر، حيث فاجأها بسرعة عودته، فأسلم المدينة لجنوده يعيثون فيها هدماً ودماراً وتخريباً في كل ما كانوا يصادفونه من البشر والحجر،

فما الذي يجنيه سادات القبائل من ملكة محاصرة لم يبق من ملكها غير مدينة في بادية وثروة سيستولي عليها الرومان. لذلك اصطفوا مع الرومان).

[1] – فوبيسكوس، "التاريخ الأوغسطي: حياة أورليانوس Historia Augusta, Vita Aurelianus".

[2] – جاء في "روما والعرب"، عرفان شهيد، ترجمة قاسم سويدان، ص 198، دار كيوان بدمشق: جاء لوم زنوبيا لنفسها من خلال العرض الشعري المبطن (1– 56 من تاريخ زوسيموس الجديدHistoria Nova) باتهام أصدقائها بمن فيهم لونجينوس الذي كان المحرض على الثورة التي قادتها إلى الوقوع في خطأ التقدير، وبما يعني تضمين الخيانة: أنها كانت تثني على أصدقائها في أوقات اليسر وتغدر بهم في أوقات العسر.

فهدموا روائع المدينة، ودكوا الأسوار وهدموا الأبراج وقوضوا الأبنية وجعلوها خرائب تدمر التي ما تزال تشهد على جهل من سمح لهم بذلك.

توجه القيصر إلى مصر، التي كانت قد أعلنت العصيان على سلطان روما طلباً للاستقلال، فاحتل الأسكندرية وقبض على فيرموس قائد التمرد، وحكم عليه بالصلب.

أورليانوس قاهر زنوبيا

ولد أورلينوس[1] Lucius Domitius Aurelianu سنة 214 م لعائلة فقيرة. وكان والده أجيراً يعمل في أرض لعضو من مجلس الشيوخ يدعى السيناتور أورليانوس، فتكنت عائلته بالاسم. وقتل في عام 275. ترقى أورليانوس من جندي عادي فصعد التسلسل العسكري خلال خدمته في الجيش الإمبراطوري، وحصل على درجة الامتياز العسكري على جبهة الدانوب، حتى وصل إلى أعلى الرتب العسكرية. وفي عام 268 قاد أوريولوس Aureolus تمرداً ضد الإمبراطور غالينيوس، في الوقت الذي كان أورليانوس يقود فرقة من الخيالة في شمال ايطالية، حيث كان يشارك في حصار ميلانو تحت قيادة الامبراطور، وهناك على أطراف مدينة ميلانو شارك بمؤامرة اغتيال الامبراطور. فقد كان صاحب فكرة إطلاق إشارة التحذير ليلاً لدفع الامبراطور للخروج من خيمته حيث تم اغتياله. كان أورليانوس منافساً قوياً لملء العرش الامبراطوري الذي فرغ للتو بمقتل الإمبراطور، فتم اختيار كلوديوس غوتيكوس امبراطوراً. ولأن أورليانوس كان معروفاً بالتزامه بتطبيق النظام والتسلسل العسكري الصارمين قام كلوديوس الثاني بتعيينه بمنصب سيد الخيالة في الجيش الروماني، فاعتبر حينها أقوى شخصية عسكرية في الجيش الروماني. وعند موت كلوديوس الثاني غوتيكوس سنة 270، أصبح التاج، بعد خلاف مثير للجدل، من نصيب كونتيلوس Quintillus شقيق الامبراطور السابق. وبناءً على الأوامر، تحرك أورليانوس على رأس حملة عسكرية للقضاء على تمرد القوط الذين كانوا يحاصرون Anchialus Nicopolis. وبعد انتهاء الحملة (آب 270) وعودته إلى قاعدته في سيميوم Simium أعلن أحقيته بالعرش الامبراطوري، حيث لم يجرؤ حينها أحد على معارضة ادعاء أقوى رجل عسكري في الامبراطورية. وبسرعة تم اصطفاف القادة وراء القائد الدانوبي الصارم– الذي أطلق الجند عليه لقب: القابض على السيف – تاركين وراءهم الامبراطور لوحده في Aquileia، فأقدم على الانتحار.

سار أورليانوس بقواته للقضاء على عبور قبائل الجوت ممر Brenner في شمال ايطالية، حيث فاجأهم بسرعة وصوله، فانهزموا شر هزيمة قبل أن يتمكنوا من عبور الدانوب، فوقع معهم معاهدة بشروطه. عاد بعدها إلى روما، فصادق مجلس الشيوخ على تعيينه امبراطوراً، وبقي كذلك إلى أنْ تم اغتياله من قبل كبار ضباط جيشه سنة 275 م.

---

[1] – Historia Augusta، XXV-XXXIV، Vopiscus: Aurelianus' Conquest of Palmyra.

لم يضع القيصر الجديد الكثير من الوقت في روما، إذ سار مباشرة إلى الشمال لهزيمة تحالف البرابرة الفاندال والسرماتيين الذين عبروا الدانوب، فهزمهم سنة 271، ثم سمح للفاندال بالعودة إلى موطنهم بعد أخذه 2000 فارس من خيالتهم لينضموا إلى الجيش الروماني. ومع استمرار البرابرة: الجوت، الماركوماني، والبرابرة المنحدرين من مناطق الألب، بتمردهم وصعوبة القضاء عليهم، بادر مجلس الشيوخ في روما إلى الإعلان عن الإطاحة به. ولارتكاب البرابرة خطأهم القاتل بتقسيم قواتهم إلى فرق صغيرة للتوسع باحتلال الأرض، قدموا لأورليانوس دون أن يعرفوا فرصته الذهبية لتمزيق قواتهم المتفرقة الواحدة بعد الأخرى. واضطر بعدها للعودة مسرعاً إلى روما، فسحق تمرد المشاغبين دون رحمة، وقام بقتل المناوئين والمحرضين من أعضاء مجلس الشيوخ ومصادرة أملاكهم، فمات الآلاف. بعد ذلك قام ببناء سور حول روما، وسماه سور أورليانوس. ولم تواته الفرصة منذ اعتلائه العرش، حيث قضى معظم وقته في قتال البرابرة والمتمردين الذين سرعان ما انتهى من أمرهم. غير أن التهديد الحقيقي استمر من جانب الامبراطورية الغالية في الغرب، ومن جانب زنوبيا في الشرق، فقرر سحقهما. ورأى أن يبدأ بتدمر باعتبارها تشكل التهديد الأخطر، التي توسعت بسرعة باحتلالها مصر التي كانت تشكل مصدر الغلال والمؤن لروما، وكامل سورية، وميزوبوتاميا، ومناطق شاسعة من آسية الصغرى. لذلك جهز حملته واتجه نحو الشرق في ربيع 272 م، فتغلب على عصابات النهب والسلب من القوط خارج تراقية (غربي البحر الأسود) وعبر الدانوب. ثم أكمل زحفه ضمن آسية الصغرى دون تحد يذكر، إلى أن وصل إلى مدينة طايانا، فدخلها بعد مقاومتها. ولم يسمح لقواته بنهب المدينة ليقدم مثالاً لأي مدينة أو منطقة يفتحها إن عادت أو تعاونت في العودة إلى الامبراطورية، فكان سلوكه حكيماً وملهماً. وبذلك استرجع العديد من المدن الإغريقية، وكامل ولاية مصر بدون قتال يذكر.

وصف المؤرخ الروماني فوبيسكوس (أحد المؤلفين الستة لسير للتاريخ الأوغسطي) أورليانوس بـ: " الرجل الوسيم، الأقرب للطول، المفتول العضلات، الذي يمتلك رشاقة وكياسة رجل شجاع، المغرم بالشراب والطعام..". كان أورليانوس على خلاف الأباطرة الرومان الذين سبقوه مباشرة موهوباً ومفعماً بالنشاط والحيوية، إذ كان قائداً مدرباً محترفاً رد حملات البرابرة التي هددت الجزيرة الإيطالية على أعقابهم، وبنى أسوار روما، وقتل جميع أعضاء مجلس الشيوخ المناوئين له. وفي الوقت الذي أتمت فيه زنوبيا بناء امبراطوريتها، أحيا أورليانوس قوة روما السابقة في حوض المتوسط، فأطلق عليه لقب "منظم الدنيا".

عاد أورليانوس إلى روما بعد انتصاره على زنوبيا وتدمر، فدخل بواباتها الامبراطورية دخول الفاتحين، وأقام عرض نصره بمرور الأسرى والغنائم، ومنهم زنوبيا، أمام جمهورروما. فمنحه مجلس الشيوخ الروماني أرفع درجات الشرف والامتياز. وقد أشار فوبيسكوس إلى ذلك في "التاريخ الأوغسطي، حياة أورليانوس" بوصف مسهب للمشهد: ".. بأنه كان من أروع المشاهد: عربات تجرها الخيول، حيوانات برية، أسود

ونمور، قطط متوحشة، فيلة، أسرى، مجالدون.. جميعهم ساروا في شوارع روما، وكل فريق منهم يرفع لائحة ظاهرة في المقدمة تعرف الأسرى والغنائم من ستة عشر بلداً مفتوحاً ليشاهده أهل روما.

وكانت إحدى اللوائح المرفوعة تعرف بعربة أذينة، وآخرى بعربة زنوبيا الفارغة، بيد أن زنوبيا سارت في العرض على قدميها دونما لائحة تعريف، لأن جماهير الزحام التي تشاهد العرض توقعت دون عناء من تكون".

وصف فوبيسكوس زنوبيا وهي تسير في العرض بالتالي: ".. زُينت زنوبيا بالمجوهرات بشكل هائل، وقد بدا عليها التعب من أثر هذا الكم الكبيرمن الحلي والزخارف، فكانت هذه المرأة الشجاعة تتوقف بين الحين والآخر تنوء بحملها مقيدة بالأصفاد، وقدماها مكبلتان بالخلاخيل الذهبية، وذراعاها وساعديها محملان بالأساور الذهبية، حتى أنهم وضعوا قلائد ذهبية حول عنقها. وهذا ما خطط له أورليانوس الذي رأى في انتصاراته إهانة كبيرة لزنوبيا، إلا أنّ ما فعله لم يستطع أن يهزم روحها، فقد رفضت أن تصبح امبراطورة القيصر الذي كان قد عرض عليها الزواج لإعجابه بجمالها وعقلها وشجاعتها، إذ رفضت العرض متعللة بأنها "لا يمكن أن تتزوج من عدو شعبها". وقد هددها بعرضها ذليلة في شوارع روما بمناسبة عيد نصره إن رفضت. فلو صحت هذه الرواية يكون اتهام المؤرخين لزنوبيا بأنها من كانت وراء مقتل زوجها، وأنها ألقت باللائمة على مستشاريها، وخاصة لونجينوس، خلال المحاكمة التي أجراها أورليانوس في حمص، وحكم فيها بإعدام لونجينوس وآخرين، باطلة. ويعتقد أنّ الرواية لفقت عمداً للإساءة لأخلاق زنوبيا وتاريخها. إذ من الصعب على شخصية كانت على درجة عالية من الفلسفة والثقافة والفن ونبل المقاصد، وفوقها جميعاً إيمانها بمشروع لإقامة امبراطورية مشرقية مستقلة عن تأثير وسلطان روما وفارس إن لم تكن عربية! وللأب سابستيان روزنتفال رأي في روايتي زوسيموس وفوبيسكوس، بحيث أبعد الخيانة والاتهام عن ملكة كانت على جانب عظيم من سمو الأخلاق والعفة والثقافة. ولشهيد، أستاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون، وصاحب مؤلفات عديدة تبحث في هذا التاريخ، رأي تحليلي يتفق مع رأي روزنتفال، ذكره في كتابه "روما والعرب"، ترجمة مؤلف هذا الكتاب.

أرسل أورليانوس رسالة إلى مجلس الشيوخ، خلال عرض النصر الذي أقامه، ليبرر فيها سمعته بعرض عمل غير رجولي بالانتصار على امرأة، قال فيها: "كانت زنوبيا زعيمة عظيمة استلهمت الشجاعة والإقدام وهي تحرز انتصاراتها العظيمة؛ قائدة خططت بحكمة، وقبضت بشكل حازم وثابت على إدارة جيشها، وعرفت أين تستخدم النظام والضبط والربط، وأين تكون كريمة وأين تكون صارمة".

أطلق عليه الكثير من معاصريه: القبضة الحديدية Manu ad Ferrum، وأطلق عليه مجلس الشيوخ مستعيد العالم Restitutor Orbis، وأطلق على نفسه، بعد هزيمة تدمر، لقب التدمري الكبير Palmyerenicus maximus.

خاتمة

أدت هزيمة تدمر إلى أن أصبح القيصر حراً بالتعامل مع امبراطورية الغال المتمردة، إذ تمكن في 274 من هزيمتهم بقيادة زعيمهم تتريكوس في معركة Campi Catalaunii. وبذلك استطاع أن يدير أمور الامبراطورية من خلال انتصاراته العسكرية في جميع مناطق التمرد والانفصال، فوحد جميع أراضي الامبراطورية من الشمال إلى الجنوب والشرق. وقام بإصلاحات اقتصادية ووضع مقاييس وإجراءات لمحاربة الاختلاس والابتزاز والاغتصاب والفساد في جميع الولايات والمناطق الإدارية. وضبط توزيع أسعار المواد الغذائية، وتم إصلاح الأراضي الزراعية، فاستعادت روما بعضاً من ألقها القديم. إلا أنه يسجل على الرجل حملات اضطهاد شديدة شنها على أتباع المسيحية.

في نهاية عام 274 وبداية 275 اتجه أورليانوس على رأس حملة عسكرية لاستعادة ميزوبوتاميا (بين النهرين) من الفرس. وفي الطريق، ليس بعيداً عن أسوار بيزنطة، عسكر لبعض الراحة في مكان يقال له Caenophrurium، وهي مدينة تراقية تقع بين بيزنطة وبيرنثوس Perinthus، حيث اكتشف فساد مستشاره الخاص منيستيوس Menestheus، فتوعده بإنزال عقوبة الإعدام. ولخوف المستشار من العقاب أبلغ عدداً من ضباط الحرس الامبراطوري أنّ الامبراطور ينوي التخلص منهم، بأن أطلعهم على وثيقة من صناعته تضم أسماءهم، زورها بتوقيع أورليانوس. ونجحت خطته بدفع هؤلاء الضباط بقيادة قائد الحرس الامبراطوري موكابور Mucapor التراقي باغتيال القيصر في خيمته بطعنه حتى الموت. ودفن في نفس المكان. وقد استمر حكمه لمدة خمس سنوات كانت انجازاتها عظيمة، مع أنه شن حملة اضطهاد ضد أتباع المسيحية، وبعد موته، عظمه مجلس الشيوخ الروماني.

لم يعرف كم عاش وهب اللات[1] بعد أسره مع أمه. وقد انتشرت الشائعات أن أورليانوس عفا عن زنوبيا ووضعها في فيلا في تيبور[2] إحدى ضواحي روما، فتكيفت مع حياتها الجديدة بالزواج من أحد أعضاء مجلس الشيوخ وعاشت كعقيلة رومانية في فيلتها في جو من الرخاء، فأصبحت فيلسوفة مشهورة ونجمة من نجوم المجتمع[3]، قُدمت لها فيلا تيبور من الامبراطورية التي ناصبتها العداء والتمرد. وأنجبت من زوجها عدداً من البنات تزوجن من رجال عائلات رومانية نبيلة. وتقول رواية أنها انتحرت تجنباً لمهانة عرضها في روما، وذلك بالإمتناع عن المأكل والمشرب وهي في طريق أسرها حتى ماتت. إلا أن رواية الانتحار غير محتملة، فقد عاش أحفادها في القرنين الرابع والخامس، وتأكد

---

(1) – تناولت روايات عديدة أقدار وهب اللات مثلما تناولت أقدار أمه، فمن قائل أنه غرق مع بعض إخوته في البوسفور خلال عبور قوات أورليانوس، ومنهم من قال أنه عاش في روما، ومنهم من قال أن بنات زنوبيا من زواجها الروماني زوجوا من بعض أعيان رومان... ألخ.

(2) – Edward Gibbon. ،The Decline and the Fall of the Roman Empire

(3) – Herbert Scholz ،Queen Zenobia`s last Look Upon Palmyra

وجودهم في روما بشواهد مخطوطة وجدت في روما، تكنى زوجها الروماني بالاسم على شرف أذينة زوجها الأول، فتقول:

(Babilla Tyri Nepotilla Odenathiania Lucius Septimia Palaviaia) [1]

والتي تعني: تكنى زوجها الروماني بالاسم على شرف أذينة زوجها الأول: التدمري سيبتميوس أوذيناتوس. ويرى بعض المؤرخين (من بينهم شهيد في "روما والعرب") أنَّ القديس زنوبيوس الفلورنسي Zenobius of Florence ما هو إلا أحد أحفادها من زوجها الروماني، والذي كان أسقفاً مسيحياً في القرن الخامس.

كان قدر تدمر- التي كان يبلغ تعداد سكانها حينذاك بين 150 إلى 200 ألف نسمة تقريباً- قد تقررمع قدر ملكتها زنوبيا، حيث أعادها الامبراطور الروماني إلى خرائب في الصحراء، إلى مبانيها وعرائشها القديمة. مع ذلك بقيت تدمر مختلفة حتى يومنا هذا، وذلك ببقاء آثار أوابدها الرائعة، كما بقيت أسطورة ملكتها زنوبيا حية في عيون وقلوب العالم كواحدة من أكثر الملكات فتنة وسحراً وجمالاً وثقافة وجسارة وإدارة ملكية، ومن أكثر قصص التاريخ إثارة وإشراقاً وروعة وتميزاً.

لا يقلل سقوط زنوبيا النهائي من شهرتها وما حققته من الطموح والحكم والقوة وما تطلبته مسؤوليات هذه القوة. فخلال مسيرة التاريخ البشري يظهر الكثيرون ممن فشل في النهاية، بمن فيهم القائد القرطاجي هانيبعل ونابليون بونابرت... لكنهم ظلوا عظماء في سجل التاريخ العام!

يبقى تاريخ زنوبيا حتى اليوم مناسبة احتفالية متجددة في بلاد الشام والشرق، وتبقى روايتها حية ومثيرة، ولكن بعيدة عن الاكتمال لحياة شخصية ديناميكية وطموحة، حصلت على شهرة عظيمة وواسعة في العالمين القديم والحديث. غير أن تاريخ حياتها وسيرتها ينقصه الكثير من التفاصيل الموثقة. فمعظم الروايات التي تتحدث عنها أخذت من مصادر سيئة السمعة، وربما عنصرية، وغير موثوق بها كـ " التاريخ الأوغسطي"، التي تركت روايات قليلة ولكن فيها إسراف ومبالغة، كذلك الحال في "التاريخ الجديد H.N." لزوسيموس الذي كان من أهم من أرخ لهذه الفترة (عن زنوبيا وحملات أورليانوس)، حيث أسس معظم رواياته على "التاريخ الأوغسطي" الذي أتمه ستة مؤلفين لاتين، اثنين منهم، هما: تريبليوس بوليو وفلافيوس فوبيسكوس Trebellius Polio and Flavius Vopiscus، اللذان كتبا عن زنوبيا وأورليانوس، بحيث بدا الاختلاف واضحاً بين هذه الروايات إلى حد تتداخل فيه سيرتها الحقيقة بين الأسطورة والواقع. فقد قدم زوسيموس صورة سلبية عن شخصية زنوبيا من خلال رواية مطنبة في الطول (كتب تاريخه الحديث في بدايات القرن الرابع)، بحيث اتهمها بإلقاء اللوم على لونجينوس في الثورة، وربط نظريته عن أسباب الانحدار الروماني في القرن الثالث إلى البربرية- التي تمثل زنوبيا إحدى مكوناتها - والمسيحية.

---

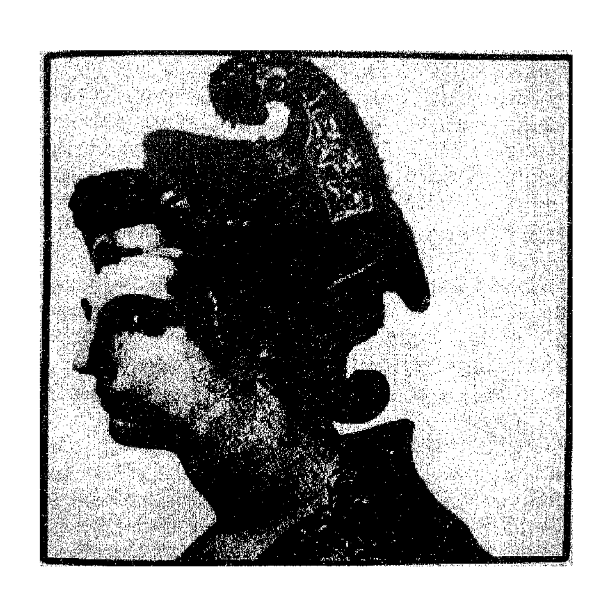
[1] - المصدر السابق. انظر أيضاً شهيد، ص 172، حاشية رقم 5، الترجمة العربية "روما والعرب".

طلعت تدمر سريعاً، لكنها هبطت هبوطاً دراميا وسريعاً. فقد كانت بوقت واحد عاصمة ومدينة التجارة والقوافل والصروح المعمارية والقوة العسكرية المنظمة. فتحت حكم أذينة أنقذت المشرق كله لصالح روما، وتحت زنوبيا أصبحت امبراطورية، ثم ألحقت بروما. جاء أورليانوس فمسحها من فوق وجه الأرض، وبذلك فكك المؤسسة العربية العسكرية وأنهاها. عملية سبقها سقوط ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) إلى شابور الثاني، وإديسا (الرُها) إلى غورديان الثالث قبل ثلاثة عقود من ذلك. وقد نتج عن انهاء المملكة التدمرية النتائج التالية:

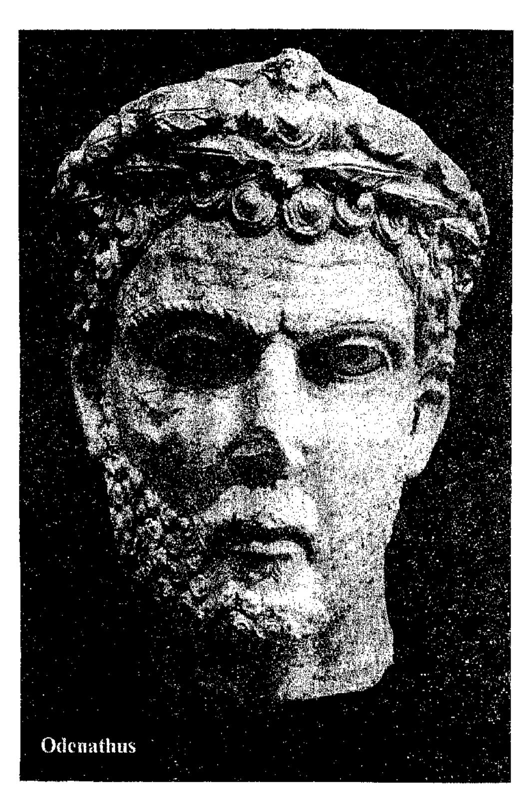
1- نشوء فراغ سياسي وعسكري جعل المواجهة بين الساسانيين والرومان وجهاً لوجه. وبذلك أصبحت المشكلة المشرقية مشلكة لروما بعد أن كانت مشكلة للفرس، وذلك بعد أن كان العرب بكياناتهم السياسية الوكيلة لروما يشكلون عاملاً مهماً في التايخ الروماني، أصبحوا الآن عنصراً مهماً من عناصر البرنامج البيزنطي.

2- اقتصادياً، تحول المركز من تدمر وميزوبوتاميا إلى غرب ولاية العربية، حيث أنشأ ديوقلتيانوس الطريق الذي سماه باسمه "طريق ديوقلتيانا" المحمي بالقلاع والتحصينات العسكرية على طول مساره، حيث كان من ضمن التحسينات العسكرية التي قام بتنفيذها في المشرق.

3- مثل الانتقال من البتراء إلى تدمر في بداية الاحتلال الروماني للمشرق، وكما يظهر من وصف الحكاية البيزنطية خلال القرون الثلاثة التالية لسقوط تدمر بدءاً من تحسينات ديوقلتيانوس، ومروراً بالتحالف البيزنطي- العربي المتتابع (التحالف التنوخي، تحالف صالح، والتحالف الغساني) الذي اعتمد أساساً على الشكل العام للتنظيمات السياسية في العربية الشمالية قبل الإسلام، والتي اعتمدت بالدرجة الأولى على العرب المقيمين وليس على الأعراب المتنقلين أو شبه المتنقلين الذين شكلوا الغالبية العظمى من أعداد القبائل في تاريخ شبه الجزيرة العربية، إذ ارتبط تاريخ العرب جميعاً بشكل مباشر بإنشاء الطرق التجارية المارة في ولاية العربية وإحلال وتغيير هذه الطرق تبعاً للظروف السياسية والعسكرية. وعلى العكس من كل هذا، فقد تشكلت القوة الرئيسية من مقاتلي القبائل العربية المتنقلة شوكة الرمح الرئيسية في ديناميكية الحركة العسكرية الإسلامية في القرن السابع.



زنوبيا ملكة تدمر
(على أحد وجهي قطعة نقدية وعلى الوجه الآخر صورة وهب اللات)



صورة تمثال لرأس أذينة ملك تدمر والشرق وزوج زنوبيا

الفصل السابع

الملكة ماوية ملكة العرب التنوخيين (ملكة الأزد)
Queen Mavia

الإمبراطورية الرومانية - البيزنطية في القرن الرابع

1

بدأت الأزمة الامبراطورية تتشكل خلال القرن الثالث الميلادي بانعدام النظام وسيطرة النخبة العسكرية، فأصبح عزل الأباطرة وتنصيب آخرين حدثاً مألوفاً. وصارت الفرق العسكرية تتحكم في اختيار قادتها، وذلك بعد أن كان الجيش خادماً مخلصاً لتنفيذ السياسات الامبراطورية. مما جعل الأباطرة ومجلس الشيوخ ألعوبة بأيدي رجال الجيش، ومع هذا ظهر في هذا القرن قادة أكفاء على الرغم من نزعتهم الاستبدادية؛ فتُنظر إلى فترة حكم سبتميوس سيفيروس على أنه كان مرحلة تحول في التاريخ الإمبراطوري والنظم الرومانية، حيث استطاع من خلال أدائه مهام منصبه تأجيل حلول الأزمة الامبراطورية.

ظهر القائد ديوقلتيانوس (دقلديانوس) في وسط الفوضى والاضطرابات التي بدأت تعصف بالدولة؛ من استبداد يعتمد على الجيش إلى ضغط القبائل الجرمانية على جبهتي الراين والدانوب، إلى ظهور نزعات انفصالية مثلما حدث في ظهور قوة امبراطورية جديدة ومنافسة في تدمر، إضافة إلى الخطر الفارسي في آسية الصغرى، وسوء الحالة الاقتصادية واستشراء الفساد. وقد جاء الجندي ديوقلتيانوس من أصل دلماشي متواضع، فاعتلى العرش (284–305)، وقام بأهم عملية ترميم في البناء المتداعي بأن وضع أولاً حداً لحركات الانفصال في الغرب والشرق. ثم وجه جهوده الاصلاحية بهدف تقوية[1] نفوذ الامبراطور، وتجديد نظام الجيش، وإنشاء قوة عسكرية مجهزة للمهمات القتالية السريعة والحاسمة وفق رغبة الامبراطور، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومي، كما قام بإعادة تقسيم الامبراطورية إلى أربعة أقاليم أو أقسام إدارية كبرى، جعل على رأس كل واحدة منها حاكماً إدارياً عاماً سمي أوغسطساً أو قيصراً يشاركه في حكمها، بينما احتفظ لنفسه بالسلطة العليا والإشراف العام على جميع شؤون الإمبراطورية. فاختار ماكسميانوس أولاً ليشاركه الحكم، ثم مضى بعدها خطوة أبعد لاقتسام الحكم فاختار غاليريوس ومنحه لقب قيصر وزوجه ابنته وعهد إليه بحكم ولاية الدانوب، وكان الرابع في مجلس الحكم الرباعي قسطنطيوس كلوروس والد قسطنطين، فطلب منه ديوقلتيانوس تطليق زوجته هيلانة التي كانت تدين بالمسيحية حينها للزواج من ابنة زوجة

---

[1] – أطلق على هذه الفترة عصر الهيمنة الامبراطورية على الدولة، والتي استمرت من 284 حتى 364 م.

ماكسميانوس لتدعيم الروابط بينهما. وبذلك أصبح قسطنطين المرشح الأول لوراثة منصب والده. وتعهد دبوقلتيانوس وماكسميانوس باعتزال الحكم بعد عشرين سنة ليخلفهما خليفتيهما. وقد أراد ديوقلتيانوس بهذا الترتيب أن يسد الطريق على حروب المطالبين بوراثة العرش بحيث يكون الحكم موزعاً في أربعة مراكز على رأس كل مركز منها قيصراً أو أغسطساً، لتكون على استعداد دائم لمواجهة أخطار أي تمرد أو ثورة. وكان كل قانون يصدره أي حاكم من هؤلاء الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ويطبق في سائر أرجاء الامبراطورية دون حاجة لمصادقة مجلس الشيوخ. وقسمت ولايات الامبراطورية الرومانية تقسيماً جديداً فأصبحت ستة وتسعين ولاية إدارية. وأطلق على هذا العصر تسمية (الحكم الرباعي) الذي ضم: ماكسميانوس، قسطنطيوس كلوروس والد قسطنطين الكبير، غاليريوس، وعلى رأسهم ديوقلتيانوس (دقلديانوس).

بعد أن استبد المرض بديوقلتياتوس وشعر أنه أدى واجبه تنحى عن العرش وهو في الستين من عمره (305م). كما تنحى بنفس الوقت ماكسميانوس وفاءً لتعهده مع ديوقلتيانوس بالتنحي بعد عشرين عاماً من الحكم. وباستقالتهما لم يبق إلا غاليريوس وقسطنطيوس اللذان بدأ التنافس بينهما يأخذ طابع الصراع الذي أدى في النهاية لنشوب حرب أهلية استمرت سبعة عشر عاماً، برزت خلالها شخصية قسطنطين الكبير الذي أعلنته الفرق العسكرية التي كانت تحت إمرة والده الذي مات، امبراطوراً، فتغلب على جميع خصومه ومنافسيه، ونجح في النهاية، بين 323-324م، بتوحيد الامبراطورية، وأخذ على عاتقه إتمام الاصلاحات التي بدأها ديوقلتيانوس.

غيرت الأحداث الكبرى والتطورات التي زامنتها في القرن الرابع وجه التاريخ السابق في الامبراطورية الرومانية، وإن استمرت معالم هذا التاريخ إلى ما بعد هذا القرن. فقد شهد هذا القرن الأحداث الرئيسية التالية:

1- اعتراف الإدارة الامبراطورية بالديانة المسيحية، حيث أصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو سنة 313م، والذي سمح لأتباع الديانة المسيحية بالدعوة وممارسة شعائر ديانتهم.

2- نقل قسطنطين العاصمة روما إلى بيزنطة سنة 330م، وسماها القسطنطينية.

3- تزايد خطر القبائل الجرمانية على كيان الامبراطورية، خاصة بعد معركة هادريانابولس (أدريانوبل) (أدرنة الحالية) الشهيرة سنة 378م، وحصار القسطنطينية بنفس العام.

4- ثورة العرب التنوخيون الأولى والثانية (375- 378، 383) بقيادة ماوية.

5- إعلان الديانة المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية سنة 392 م.

6- أدى كل هذا إلى تقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى سنة 476 م إلى قسمين رئيسيين: غربي وشرقي؛ إذ صار الشرقي يسمى رسمياً الامبراطورية البيزنطية، والغربي الامبراطورية الرومانية الغربية. وبقي العالم الغربي بدون امبراطور حتى تتويج شارلمان

سنة 800م. وقد أدى هذا تدريجياً إلى تطور الممالك الجرمانية الناشئة (ممالك: أودوكار في ايطالية، الوندال في شمال أفريقية، القوط الغربيون من اللوار حتى مضيق جبل طارق، البعنديين في واديي الرون والساؤون، دولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى، السويفي في البرتغال وغاليسية..) من ناحية، وتطور المؤسسة البابوية من ناحية أخرى.

قدر للقسم الشرقي (الامبراطورية البيزنطية) البقاء والاستمرار، إذ لم يتعرض لقوة وعنف الغزوات الجرمانية الخطيرة التي تعرض لها القسم الغربي إلا في نهاية القرن الرابع، كما أنّ السياسة التي اتبعها أباطرة بيزنطة شجعت وسهلت الأمر للقبائل الجرمانية بالتدفق نحو الغرب من أجل الاستقرار والاستيطان هناك لإدراك القبائل مناعة القسطنطينية الاستراتيجية.

وظهر، منذ إعلان قسطنطين القسطنطينية عاصمة للامبراطورية البيزنطية سنة 330م، استخدام تعبيري بيزنطة أو روما أو الامبراطورية البيزنطية أو الرومانية بتداخل وتواتر كبير بحيث كان يعني أحدهما الآخر في أحيان كثيرة. ولذلك، ظهر نوع من الارتباك بين مرامي هذه الاستخدامات.

ويمكن تلخيص تاريخ القرن الرابع باعتباره تاريخ بداية تشكل التحالف العربي البيزنطي الأول، فمرت العلاقات العربية البيزنطية في فترات الأباطرة الرومان- البيزنطيين الستة (306-395)م: قسطنطين الأول، قسطنطيوس، يوليانوس (جوليان)، يوبيانوس (جوفيان)، والنس (فالينز)، ثيودوسيوس الكبير.

1- قسطنطين الكبير (306-337) م: كانت طموحات قسطنطين عظيمة في الشرق، حيث أحدث الانتقال من روما على التيبر إلى بيزنطة على البوسفور، وتبنى الديانة الشرقية: المسيحية، وعزم على شن الحرب ضد العدو الوثني الساساني الفارسي في الجبهة الشرقية. وقد كان العرب يشكلون جزءاً من هذا المشرق وشمال شبه الجزيرة العربية، حيث شكلوا مع بيزنطة تحالفاتهم الرئيسية الثلاثة على مدى القرون الأربعة التالية.

افتتحت العلاقات العربية- البيزنطية من خلال عرب التحالف[1] بقيادة ملكهم امرئ القيس الذي مات سنة 328م في إقليم ولاية العربية، فدفن في النمارا جنوب سورية، وسُجلت مآثره على شاهدة قبره في "وثيقة النمارا"، التي تحدثت عن فتوحاته في شبه الجزيرة العربية حتى نجران، مع ذلك لم يكن مستقلاً عن سلطة بيزنطة. فكان ملكاً على شعبه لكنه كان وكيلاً وحليفاً للرومان يحصل على المساعدات والهبات السنوية مقابل ما يقدمه من خدمات للامبراطورية. واستمر أبناؤه الذين وضعوا على رؤوس القبائل، فقادوا فرسان الخيالة العرب في خدمة روما بعد وفاته، وتحت قيادة سلاح الفرسان الروماني

---

[1] - يرمز مصطلح التحالف تبعاً لبيغانيول في كتابه "الامبراطورية المسيحية" إلى المجموعات الحديثة التي أدخلها النظام الامبراطوري (الروماني- البيزنطي) لخدمة المصالح الامبراطورية في القرن الرابع، وهم من البرابرة المستقرين ضمن الحدود الامبراطورية، والذين يقاتلون تحت قيادات زعمائهم في حروب الرومان.

في المشرق، وكانت وظيفتهم الأساسية حماية أطراف الإمبراطورية الجنوبية من غارات عرب الجزيرة وتأمين طرق المواصلات والحفاظ على الأمن في مناطقهم.

تقلب قسطنطين، حسب متطلبات سياساته، بين الأريوسية والأرثوذكسية، فأخذ جانب قرارات مجمع نيقية عام 325م، فنفى الأساقفة الأريوسيين، ثم انقلب إلى جانب المذهب الأريوسي في نهاية حياته، فنفى أسقف الأسكندرية الأرثوذكسي أثناسيوس سنة 336م، وسمح بإعادة الأساقفة الأريوسيين المنفيين إلى ممارسة صلاحياتهم الكنسية على مذهبهم الأريوسي، واتبع سياسة حسنة في علاقاته مع العرب من خلال ملكهم امرئ القيس في إقليم العربية، ونجح أيضاً في علاقات تحالفاته على أنهار الراين والدانوب والفرات مع الفرنجة والقوط والأرمن.

2- قسطنطيوس (337-361): استمر في اتباع سياسات والده قسطنطين في دعم المذهب الأريوسي، وفي الحرب على الجبهة الفارسية، وفي العناية بسير سياساته في المشرق.

قام المتحالفون العرب بالثورة سنة 337م، سنة تولي قسطنطيوس العرش، وذلك بعد أن وضعت نهاية المعاهدة التي كان أبرمها والده قسطنطين معهم، والتي لم تجدد. لذلك أعلنوا العصيان والثورة على الامبراطور قسطنطيوس. بيد أن قسطنطيوس نجح في تهدئة الثورة بعد أن أعاد اساقفة مجمع نيقية الذين كان والده قد عزلهم ونفاهم (الأساقفة الأرثوذوكس).

3- يوليانوس (جوليان) المرتد (361-363): أدى خيلاء وسلوك يوليانوس المتعالي إلى تحييد عرب التحالف، مما أدى إلى نوع من الاحتكاك والاختلاف في وجهات النظر بين الطرفين. فانضم العرب في البداية إلى حملة الفارسية على الفرات عند الرقة بالمشاركة بفرقة احتياطية من سلاح الفرسان في الجيش الروماني، وكانوا متحمسين للإنضمام ليوليانوس لتصفية حساباتهم مع شابور، فشاركوا في حملته على المدائن لاحتلالها. غير أنَّ الفرس تمكنوا من رد الهجوم، فانكفأ يوليانوس منسحباً إلى الخلف. وقامت فرقة الفرسان الخيالة الاحتياطية العربية خلال الهجوم الفارسي المعاكس بغطاء انسحاب الفرق الرومانية. ورافقت يوليانوس قوات احتياطية أخرى مؤلفة من القوط والأرمن إضافة إلى العرب، لكن التركيز كان على القوات الاحتياطية العربية.

بدأت علامات عدم الرضا تظهر بين العرب ضد يوليانوس بعد انسحابه بعيداً عن أسوارالمدائن إثررفضه دفع رواتب الفرسان العرب المشاركين وأعطياتهم المقررة، كما وجه لهم إهانة برفضه لمشاركتهم من حيث المبدأ، واحتقاره الذي لم يكن يخفيه، خاصة أنه رأى أن لاحاجة إليهم بعد انسحابه. ولو أنه اتخذ موقفاً إيجابياً منهم وقدر إمكاناتهم في مثل هذه الحرب الصحراوية لكانت النتائج المأساوية التي حدثت على الجانب الروماني قد تغيرت.

لم يحسب للعرب مشاركتهم في حملة يوليانوس على المدائن، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك باتهامهم بأنهم كانوا وراء مقتله. إذ قالت رواية المؤرخ ليبانيوس بأن أحد المقاتلين العرب الذين كانوا إلى جانب يوليانوس، وبتحريض من مجموعة مسيحية، هو من أطلق الرمح (السهم البرثي Parthian Arrow) الذي أصاب مقتلا من يوليانوس. وإذا سلمنا بصحة هذه الرواية، يمكن القول عندها إنّ من قام بذلك إما أن يكون من مجموعة عربية كانت تتحين الفرص للإنتقام منه لرفضه إعطائهم رواتبهم ومكافئاتهم ولرؤيته الفوقية عليهم، أو أنه كان من العرب المتعصبين لمسيحيتهم ضد وثنية يوليانوس، أو أن السببين معاً كانا وراء ذلك. وقد أيدت روايات المؤرخ المدني أميانوس الذي كان مرافقاً ليوليانوس في حملته اتهام العرب بأنهم كانوا وراء مقتله.

4- يوفيانوس (جوفيان) (363-363): كان قائد جيش يوليانوس في الحملة الفارسية، أعلنه الجند الرومان المنسحبون امبراطوراً بعد مقتل يوليانوس. فعقد صلحاً مع الفرس على حساب روما. وأقنع المتحالفين العرب بالعودة إلى التحالف من جديد، إذ كان على مذهب العرب الأرثوذكسي.مات مختنقاً بالدخان.

5- والنس (فالينز) (364-378): أعاد عرب التحالف تحالفهم مع الامبراطور الجديد المسيحي يوفيانوس. لكن لم يطل المقام ليوفيانوس حتى يرسي دعائم هذا التحالف من جديد. حيث اعتلى العرش الروماني والنس الأريوسي كأغسطس مسؤول عن الشرق إلى جانب أخيه الامبراطور والنتيانوس (فالنتيانوس). فبدأ باتباع سياسات ليست على وفاق مع العرب نتيجة لسياساته المذهبية. وحدثت اضطرابات في السنوات الأولى من حكم والنس في منطقة خلقيس وأفاميا وما حولهما أثارها السكان على أسس مذهبية أرثوذكسية وأسباب أخرى. لكن سرعان ما وضعت القوات الرومانية سنة 369 حداً لهذه الاضطرابات. لذلك كانت فترة السنوات العشر (365-375) فترة من الترقب والعلاقات الصعبة بين الطرفين، خاصة بعدما تأكد للمسيحيين العرب الأرثوذكس انحياز والنس للأريوسية. وهي الفترة التي بدأ تجمع العاصفة فيها بين والنس بعد تسنمه سدة العرش بعد وفاة شقيقه سنة 375 والملكة ماوية خليفة زوجها (الحواري) بعد موته بنفس السنة، حيث أعلنت الثورة التي امتدت إلى عموم المشرق تقريباً، فهزمت بقواتها من عرب التحالف التنوخي حاكمي فينيقية اللبنانية وفلسطين، ووصلت بنشاطاتها العسكرية إلى شرقي النيل، ثم تسببت في هزيمة قائد الجيوش الرومانية في المشرق في معركة ثابتة في نهاية عام 378، مما دفع والنس إلى طلب الصلح وعقد معاهدة سلام بعد استجابته لمطالبها.

6- ثيودوسيوس (387-395): ورث ثيودوسيوس من والنس عرب التحالف المسيحيين الأرثوذكس وهم على ولائهم للامبراطورية بعد توقيعهم لمعاهدة الصلح مع والنس. لكن لسوء حظ العرب شهد حكم ثيودوسيوس النزول بالعلاقات العربية البيزنطية إلى أدنى مستوى على خلاف المتوقع بنشوء علاقات توافق بين الطرفين كونهما

على مذهب مسيحي واحد؛ الأرثوذكسية. مما أدى في نهاية القرن الرابع إلى سقوط أول تحالف عربي تنوخي مع بيزنطة. فقد انتهت المعاهدة التي عقدها العرب مع والنس بموته في نهاية عام 378 م. فبدأ عرب التحالف يشعرون بميل ثيودوسيوس إلى القوط على حساب مصالحهم، وذلك بإعطاء القوط مناصب عليا في الدولة والجيش، متجاهلاً العرب الذين أحسوا بأنهم يستحقون حتى أكثر مما تم منحه للقوط لأنهم من دافع عن الامبراطورية في أوقات محنتها مع القوط. ورأى ثيودوسيوس باتباعه هذه السياسة أنه لا يستطيع إلا أن يستوعب ويسترضي القوط لدرء خطرهم، في حين أنَ العرب لم يعودوا يشكلون خطراً مستقبلياً، إضافة إلى أنَ ثيودوسيوس لم يكن يتمتع بمعرفة جيدة عن العرب، وكان يراهمْ بصورة سلبية، خاصة في مرآة ثورتهم خلال فترة والنس، واتهامهم بأنهم كانوا وراء مقتل يوليانوس.

نتيجة لاستمرار تجاهل ثيودوسيوس لمتطلبات حلفاء بيزنطة العرب قاموا بالثورة الثانية سنة 383 م، إلا أنَ ثورتهم هذه أخمدت بسرعة وبنفس السنة. وقد أعيد فشل الثورة إلى عدة أسباب، أهمها: الوضع الهادئ على الجبهات بين الفرس والرومان، وكذلك الوضع الهادئ بين بيزنطة والقوط، إضافة إلى أن قوة العرب نتيجة خسائرهم الكبيرة في معركتي هادريانابولس (أدريانوبل) والقسطنطينية قد تناقصت كثيراً. ولذلك تم دحرهم بسهولة على يد القائد الوثني الجرماني ريخومر. فوجدوا أنفسهم بدون نصير في الإدارة الامبراطورية، خاصة أن صديقهم وصهرهم وكتور (فكتور) كان قد استقال في السنة السابقة، ربما لأسباب تتعلق بالخلاف مع ثيودوسيوس بخصوص سياساته مع العرب.

كانت سياسات ثيودوسيوس الجديدة تنبع من مصلحة بيزنطة، لأنَ المصالح هي من يحكم سير الأحداث وليست العواطف والصداقات، بحيث اتبع ثيودوسيوس سياسات قسطنطين باحتواء البرابرة في جسم الدولة، والقضاء على أي إمكانية لنشوء خطر يهدد الدولة مستقبلاً من قبل هؤلاء البرابرة، حيث كانت تجربة بيزنطة مع ماوية والقوط ماثلة بالذهن الامبراطوري، بالرغم من انتماء الطرفين العربي والبيزنطي في ذلك الحين إلى المذهب الأرثوذكسي.

كانت نتيجة الثورة الثانية سقوط التحالف التنوخي بقيادة الملكة ماوية. لكن تحالف تنوخ لم ينته في المشرق حتى بعد صعود عرب صالح خلال القرن الخامس، بل استمروا بلعب دورهم ضمن تحالف صالح في القرن الخامس وتحالف غسان في القرنين السادس والسابع.

شهدت إدارة ثيودوسيوس إدخال العديد من التحسينات على الإدارة العسكرية الامبراطورية، وذلك بإعادة تنظيم المشرق، ربما بسبب الثورة التنوخية الأولى والثانية، حيث قام بفصل ولاية مصر عن المشرق، وجعل فلسطين الثانية وفينيقية اللبنانية ولايتين جديدتين، واللتين كان قد تم مهاجمتهما من قبل ماوية خلال ثورتيها الأولى والثانية.

2

شكلت العلاقات العربية- الرومانية، والعربية- البيزنطية خلال سبعمئة عام من الاحتلال، بداية من 64 ق.م بقيادة القائد الروماني بومبيوس، أشكالاً متعددة من النصر الروماني على العرب. وكان العدو الفارسي دائم الحضور في النصر الروماني كعدو شرس وطموح، في حين مثل العرب فيه حليفاً دائم الحضور في التخطيط الروماني مع ما اعترضه من محاولات للثورة والتمرد طلباً للحرية والاستقلال. وأخيراً جاءت معركة اليرموك في 20 آب سنة 636 م كمقدمة بارزة في تاريخ الصراعات البشرية لانهاء الوجود الروماني في المشرق ومنطقة المتوسط ومصر وشمال أفريقية والقسم الشرقي من آسية الصغرى، وذلك على خلاف ما كان يعتقد الأباطرة والمخططون الرومان والبيزنطيون من أن الخطر الأساسي على امبراطوريتهم في المشرق[1] لا يأتي إلا من جانب الفرس. إذ لم يتصوروا ابداً أن تتشكل جيوش تخرج من سراب جوف الصحراء العربية في خاصرة آسية الجنوبية الغربية لتهديد العالم الروماني الواسع ودحره إلى الشمال والغرب بسرعة غير متوقعة. وما سجله التاريخ للعرب المسلمين هو امتلاكهم لروح الإيمان والقوة والجسارة على مهاجمة الامبراطوريتين العظيمتين في النصف الأول من القرن السابع وبوقت واحد تقريباً، فجاءت انتصاراتهم في معركتي القادسية واليرموك كمن يخطف الخطفة فيفوز بها كلها وفي مرة واحدة. وروي[2]"أن هرقل خرج إلى الرُها بعد أن يئس من أمر الشام، ووقف على مرتفع والتفت نحو الشام قائلاً: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك بعدها رومي إلا خائفاً".

عندما اندفع العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع نحو الشمال لم يكن لديهم إرث حضاري شامل بالمعنى العام قياساً بالإرث الحضاري الإغريقي- اللاتيني، أو الفارسي. إلا أنهم امتلكوا، كما أثبتت وقائع التاريخ اللاحقة، قوة هائلة وروح وثابة وسرعة في استيعاب وتشرب حضارات الآخرين، إذ تعهدوا الحضارة الهلينية- اللاتينية بالحفظ والعناية والاهتمام، ثم أضافوا من الحضارات الشرقية: ما بين النهرين، والفارسية والهندية والصينية والمصرية، فغدت الحضارة العربية الإسلامية مجمعاً هائلاً انصهرت فيه جميع هذه الحضارات فأنتجت حضارة جديدة تضئ على العالم. وغدت اللغة العربية، لغة الكتاب المقدس (القرآن الكريم)، الوسيلة الأساسية للترجمة والربط في جميع نشاطات الحياة، مما جعل التميز في طابعها العربي العلامة الرئيسية الأولى التي قامت على دعامتين أساسيتين هما: الدين واللغة، فكانت سرعة انتشار اللغة العربية لغزاً محيراً للدارسين، وأي لغز محير في هذا إن كان الإيمان العقائدي الديني هو المحرك الأساسي وراء كل هذا الانتشار.

---

[1] – تعني منطقة المشرق Oriens بالمصطلحات العربية الإسلامية، والمصطلحات اليونانية واللاتينية: بلاد الشام، بين النهرين، الجزيرة العربية، ومصر. وقد شهدت هذه المنطقة معارك فاصلة انتصر فيها المسلمون العرب على الجيوش الفارسية، وعلى الجيوش البيزنطية والمتحالفين معها في النصف الأول من القرن السابع.

[2] – القلقشندي: صبح الأعشى، ج 5، ص 397.

بدأ الإشراق العربي الإسلامي يسطع على العالم بعد بزوغ فجر الدعوة الإسلامية واتساع أطراف امبراطوريتها حتى غدت هذه الحضارة شامخة البناء. مقابل ذلك كانت الحضارة والأدوار الغربية في تراجع وانكفاء مستمرين، حيث دخل عالم الغرب فيما يشبه حالة من السبات الدائم خلال هذه الفترة الطويلة لما اصطلح على تسميته تاريخياً بعصر الظلمات أو القرون الوسطى[1]. ولكن، مع بداية القرن الثاني عشر بدأت أوربا تستفيق من سباتها، فأخذت تنهل من المعين الزاهر والفياض للحضارة السائدة. حيث بدأ الغرب بترجمة الآثار العربية الإسلامية في العلوم والفلسفة والرياضيات والطبيعة والهندسة والطب والفلك والجغرافية وجميع ألوان النشاط الفكري والعلمي إلى اللغات الأوربية حتى أصبح نفوذ وتأثير العرب الحضاري على أوربة في القرنين الثاني والثالث عشر وما تلاهما يفوق بكثير نفوذ وتأثير الامبراطورية البيزنطية.

لا يعني ما تقدم، أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم إرث حضاري يصفهم بصفته، إذ إن إرثهم الحضاري لم يزدهر في جميع مراحله وحلقات تطوره تحت سلطة إدارية سياسية واحدة تعطيه هويته الفريدة بحيث يمكن وصفه في أدبيات الإرث الإنساني العام بالإرث الحضاري العربي، وذلك لأن الحضارات المتعاقبة التي مرت على المنطقة وصفت بحضارات دولها التي تشكلت في حينها. وكانت هوية العرب العامة ما تزال في بدايات تشكلها الأولى. وقد سبق هذا التشكل حضارات بين النهرين المتعددة والمتعاقبة التي كانت تراكم بعضها وحضارات بلاد الشام والساحل الفينيقي وحضارة وادي النيل وجنوب الجزيرة العربية التي كانت بدورها متداخلة مع ما أنتجته حضارات ما بين النهرين ومصر. وتقتضي حقائق التاريخ القول أن معين الحضارة الهلينية جاء أساساً من هذا الشرق، إذ قد تعد الحضارة الهلينية حضارة مشرقية في أساسها.

الهجرات العربية القديمة

لو أردنا وبسرعة تلخيص رواية أصل العرب لوجب أن نلتمس ذلك عند النسابة العرب الذين قالوا: إنّ سكان الجزيرة العربية الأصليين كانوا من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وإرم وجرهم وغيرهم، التي بادت جميعها، ولذلك سميت بالعرب البائدة. ثم

[1] – عرفه د. سعيد عبد الفتاح عاشور العصور الوسطى في كتابه "أوربة العصور الوسطى، التاريخ السياسي" بالتالي: (.. وكثير من المؤرخين أبناء المدرسة القديمة يتخذون من عام 476 م حداً فاصلاً بين نهاية العصور القديمة والوسطى سنة سقوط القسطنطينية عام 1453م، وانتهت فيها حرب المائة سنة بين انجلترة وفرنسة، حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والحديثة. إلا أنه لا يمكن اعتبار سنة بعينها حداً فاصلاً لتحديد نهاية عصر وبداية عصر جديد). غير ان بعض المؤرخين، من أمثال بيرين الذي أصر على اتخاذ حركة الفتوح العربية الإسلامية (Pirenne: Mohammed/ and Charlemagne, Lon. 1924 محمد وشارلمان)، في القرن السابع، وليس سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب في أواخر القرن الخامس، حداً فاصلاً بين العصور القديمة والوسطى. فالتاريخ عادة لا يتجزأ بخطوط تقسيم حادة من هذا النوع.

جاءت العرب الباقية من جديهم قحطان وعدنان، اللذان انحدر منهما العرب العاربة والعرب المستعربة. وقد غلب على قحطان اسم عرب الجنوب بحكم موطنهم الجغرافي في اليمن، بينما عرف العدنانيون بعرب الشمال لأنهم سكنوا الحجاز. لكن يبدو أنّ عدم وضوح هذه النظرية لم يقنع الكثير من المهتمين بكتابة التاريخ، فقالوا بوجود جد ثالث للعديد من قبائل العرب كتنوخ وتغلب وجهينة التي هي قضاعة، حيث لا ينسبونه إلى شمال أو جنوب، وبذلك صار أجداد العرب الباقية ثلاثة: قحطان وعدنان وقضاعة. ورواية النسابة العرب هذه قد تؤيدها مسيرة الأحداث التاريخية التي رافقت انتشار القبائل العربية قبل وبعد الإسلام.

وبالانتقال من رواية النسابة العرب على مختلف آرائهم إلى المتروكات الآثرية والكتابات الأدبية للمصريين القدماء والآشوريين واليمنيين والإغريق واللاتين لوجدنا أن مختلف التسميات والألفاظ التي اطلقت على سكان الجزيرة العربية تفيد أنّ كلمة عرب[1] وجزيرة العرب تعني الجزيرة العربية الحالية وبلاد الشام والهلال الخصيب الذي يضم الساحل السوري وما بين النهرين وجنوب تركية الحالي وسيناء وشرقي النيل من مصر إلى البحر الأحمر.

لكن رواية التوراة في سفر التكوين تقدم لنا رؤية أخرى، إذ يبدأ الكون عندها من نوح وأبنائه الثلاثة الذين انحدر منهم الجنس البشري بعد قصة الطوفان، إذ عمر ابنه سام وأحفاده منطقة المشرق، فانقسم أبناؤه وأحفاده إلى قبائل عديدة عرفت بالقبائل السامية، ليس العرب إلا بعضاً منها. وقد بقيت هذه النظرية مقبولة حتى بداية القرن العشرين. غير أن العلماء لم يتوقفوا عند ذلك، فوصلوا من خلال بحوثهم ودراساتهم المتعددة إلى القول: إنه لا يوجد أصلاً ما سمي بالجنس أو العرق السامي وإنما وجدت لغات سامية شقيقة مشتركة الخصائص أصلها واحد، وتتميز عن غيرها من اللغات الأخرى.

اثبتت وسائل العلوم والبحث المتعددة أنّ صحاري شبه الجزيرة العربية وصحاري شمال أفريقية كانت كثيفة السكان خلال ما سمي بالعصر المطير. وكانت أرضها خصبة غنية بكل أنواع النباتات والحيوانات والمجاري المائية والشروط الزراعية المناسبة لكل شروط الحياة والاستقرار. جاءت بعدها دورة مناخية طويلة توقف هطول الأمطار وأجدبت الأرض وتغير حالها من خصب وغنى ووفرة إلى شح وجدب وفقر، الذي دفع السكان إلى التماس تحقيق شروط حياة أفضل في المناطق الغنية المجاورة حيث الأمطار والأنهار والأراضي الصالحة لتأمين أسباب الحياة. وقد مثلت الهجرة السكانية من جزيرة العرب في معظم الحقب التاريخية ظاهرة طرد بشري إلى المناطق الأكثر خصباً وغناً.

---

[1] – ذكر جواد علي في" المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، ص 21؛ المستند إلى الموسوعة الإنجيلية، ج 1، ص 271 و273: أن أول من ذكر العرب من اليونان هو أشيلوس (525– 456) ق.م، ثم تلاه هيرودوت شيخ المؤرخين (484– 425) ق.م. كما أن مخاطبة القرآن الكريم للعرب في مواضع متعددة من الآيات (12 آية) تدلل بشكل واضح وصريح على أن العرب كان لهم حس وإدراك لذلك المعنى قبل الإسلام.

مثل قلب الجزيرة العربية، خلال فترات التاريخ المتعاقبة، خزاناً دافقاً ونبعاً فياضاً يغذي أطراف الجزيرة العربية الشمالية والغربية بالموجات البشرية ذات الأصل الواحد[1]. والأقوام التي أنشأت دولاً وحضارات على سواحل بلاد الشام وداخلها وفي وادي الرافدين ووادي النيل كان موطنها الأول جزيرة العرب، حيث هجرته لأسباب وعوامل طبيعية وبشرية متعددة، فاستوطنت هذه المناطق الجديدة الأكثر خصباً وغنىً، فأكسبتها واكتسبت منها، إلا أنها حافظت على اصالة أرومتها. وما السومريون، الآكديون، العموريون، البابليون، الأشوريون، والكلدانيون، الكنعانيون، والفينيقيون، الآراميون، والأنباط، الأسروينيون، التدمريون، التنوخيون، اللخميون، الغساسنة، والمناذرة، إلا أنهم جميعاً مجموعات بشرية هاجر أجدادها من الجزيرة العربية واستوطنوا مناطقهم الجديدة، كانوا ينتمون إلى عرق واحد كان يطلق عليه اسم الجنس أو العرق السامي، بينما اسمهم الحقيقي- خاصة بعد الشكوك في نظرية العرق السامي- هو العرب. وتستشهد على سبيل المثال بما كتبه روم لاندو في كتابه: "الإسلام والعرب"، في

-[1]يمكن تلخيص مسرى الهجرات العربية التي خرجت من موطنها الأول في قلب الجزيرة العربية ب:

1-1- الهجرات الأولى حوالي 3500 ق.م، حيث اتجهت نحو الشمال، فاجتاز قسم منها شبه جزيرة سيناء ثم إلى وادي النيل، وإلى شمال أفريقية. كما هاجرت موجات عن طريق باب المندب غرباً وشمالاً بمحاذاة نهر النيل. واتجه قسم آخر إلى بلاد الرافدين، فأسس فرع منها الدولة الأكدية، حيث وحد ملكها سرجون الكبير، في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، المنطقة المعروفة الآن بالعراق. وأقام الفرع الآخر في شمال دجلة ثم هبط نحو الجنوب فيما بعد وأسس الدولة الآشورية التي قضت على دولة بابل وتوسعت حدودها حتى ساحل المتوسط، وقضى ملكها سرجون الثاني على دولة اسرائيل واحتل عاصمتها السامرة في سنة 722 ق.م، وأخذ اليهود أسرى إلى بابل (الأسر اليهودي الأول). ومن أعظم ما خلفته حضارتها مكتبة آشور بانيبال (باني بعل) التي وجدت في نينوى وتحوي آلاف الرقم الأدبية والعلمية والقانونية والإدارية والدينية.. ألخ.

1-2- موجة الهجرات اللاحقة خرجت بين (2900- 2200) ق.م، وبعد تنقلها استقر فرع منها على الساحل السوري الشمالي، بينما أسس الفرع الثاني في جنوب الساحل السوري دولة الكنعانيين، كما دعي الفرع الثالث الذي أقام في سورية الشمالية وحوض الفرات بالعموريين، إذ قام فرع منهم بالنزول إلى جنوب ما بين النهرين وأسس دولة بابل الأولى حوالي 2450 ق.م، وكان من أشهر ملوكها حمورابي (1730- 1685) ق.م، والذي كان أول مشرع قانوني في التاريخ البشري.

1-3- خرجت موجة أخرى من قلب الجزيرة العربية في بدايات الألف الأولى قبل الميلاد إلى منطقة الأهوار جنوب العراق، حيث توسعت نحو الشمال فاسست الدولة البابلية الثانية التي عرفت باسم الدولة الكلدانية في القرن السابع قبل الميلاد، واشتهرت هذه الدولة بفنون البناء وعلوم الفلك، حيث تم بناء برج بابل الشهير.وقد ضمت إليها بلاد الشام، وقضى ملكها نبوخذ نصر نهائياً على دولة اسرائيل، ونقل أسراهم إلى بابل (الأسر اليهودي الثاني) سنة 586 م.

1-4- هجرة استقرت في وسط سورية وشمالها وفي أعالي بين النهرين حوالي 1500 ق.م. ولعبت مجموعات هذه الهجرات أدواراً كبرى في تاريخ سورية السياسي والثقافي والديني والتجاري، وكانت لغتها الارامية لغة الدبلوماسية والكتابة، حيث تطورت عنها لاحقاً السريانية.

1-5- في نهايات القرن السادس وبدايات القرن الخامس قبل الميلاد قدم الأنباط والتدمريون من قلب الجزيرة العربية، فأقام الأنباط في الأردن وشمالي شبه جزيرة سيناء، حيث اسسوا دولة الأنباط العربية التي كانت عاصمتها البتراء، وأسس التدمريون بعد ذلك مملكة تدمر. كما أن الهجرات التي خرجت من اليمن بعد انهيار سد مأرب استقرت بعض مجموعاتها في الحجاز ونجد، وبعضها الأخر على مشارف الشام وجنوب العراق حيث اسسوا دولتي الغساسنة والمناذرة.

1-6- الهجرة التي ترافقت مع انتشار الدين الإسلامي، وخاصة إلى بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية والأندلس (شبه الجزيرة الأيبيرية)، وإلى آسية.

الصفحات (17-20)، من الترجمة العربية ما ملخصه: "جعل المؤرخون من شبه الجزيرة العربية موطناً للساميين، حيث يوجد لدينا من وقائع الوثائق براهين على انطلاق العديد من هذه الهجرات من قلب جزيرة العرب ابتداءاً من 3500 ق.م، حيث اندغمت في شعب مصر الحامي. وغمرت مجموعات أخرى حضارة بلاد الرافدين السومرية لتعطينا بابليي عصر لاحق. وحملت موجات أخرى حوالي 2500 ق.م العموريين إلى سورية، فانبعث منهم فينيقيو التاريخ الإغريقي. وفي الفترة من 1500 إلى 1200 ق.م حملت موجة ثالثة الآراميين إلى أواسط سورية، وامتزجت شعوب الصحراء بوصفهم كنعانيين وآراميين في فينيقية وفلسطين وسورية بشعوب تلك الديار الأصلية".

وبالإجمال، بدأت الهجرات مبكرة من شبه الجزيرة العربية نحو الوفرة في الشمال باحثة، تدفعها روح الإنسان الدائمة في البحث عن شروط الكفاية والأمان، دافعة في حركتها المستمرة نحو التشكل أثماناً باهضة مقابل الاستقرار والثبات. والتي كان يعترض طريق هجراتها واستقرارها بشكل دائم الإدارت السياسية والعسكرية في جنوب بلاد الشام وشمالها وفيما بين النهرين من العراق القديم. لكن تدفق هذه الهجرات لم يتوقف إذ استطاع خلال قرون عديدة من تأسيس حضوره التدريجي إلى أن صار في النهاية قادراً على تأسيس دولته وحضارته المميزة بالاسم المعروف: الدولة العربية الإسلامية.

أقام العرب الأنباط والأسروينيون والتدمريون مؤسسات ملكهم قبل قدوم التنوخيين واللخميين الذين اجتازوا وسكنوا الأطراف الشرقية للامبراطورية الرومانية والأطراف الغربية للامبراطورية الساسانية حتى القرنين الثالث والرابع، إذ لم يكن عرب التحالف من اللخميين والتنوخيين بالأساس من سكان سورية الأصليين، وإنما هاجروا إليها من بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا).

التنوخيون: أصولهم، هجراتهم، ومناطق استقرارهم

ورد ذكر تنوخ في الكتابات السبئية والحميرية، وفي الكتابات الإحسائية، كما ورد في كتب بطليموس الجغرافي والفلكي المصري (الأسكندراني) اليوناني الشهير، والذي عاش في القرن الثاني الميلادي. وتنوخ هي نفس قبيلة الملكة ماوية التي ثارت ضد روما، ونفس القبيلة التي حاربت الملكة زنوبيا متحالفة مع الإمبراطور الروماني أورليانوس في نهاية القرن الثالث. وقد تشكلت قبيلة تنوخ من اتحاد قبلي واسع شمل أكبر القبائل العربية، وضمت في عضوية اتحادها: الأزد وقضاعة[1] بشكل أساسي، وقبيص، وإياد، وتميم،

[1] - انظر شهيد عرفان، ص410 من كتابه بالإنكليزية " Byzantium and the Arabs in the Fourth Century بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ملخصاً رواية المسعودي في"مروج الذهب"، ج2، فصل ملوك الشام، ص 231، بالقول: " إن التنوخيين هم من قبائل قضاعة العريضة الذين كانوا أول من سكن بلاد الشام، وأصبحوا مسيحيين، وتحالفوا مع الرومان، وصار ملوكهم تابعين للرومان". وهذا يعني أن ملوكهم المسيحيين بدأوا في القرن الرابع. ويعني أيضاً أن هوية قضاعة حضيت باحترام التسمية " تنوخ". فجموع قضاعة هم التنوخيون جعلهم الرومان ملوك سورية.

والعماليق. فاتفق زعماء هذه القبائل على تمليك مالك بن فهم الدوسي الأزدي على المنطقة الممتدة بين نجد غرباً والخليج العربي شرقاً وحدود عمان جنوباً والبصرة في الشمال. وقديماً سميت هذه المنطقة الجغرافية الشاسعة بالبحرين.

ورد وصف التنوخيين[1]: (.. التنوخيون في الأصل قبائل عربية هاجرت من اليمن إلى البحرين، وهناك تحالفت على مقام ديني مع بعضها بعضاً، وأطلق عليهم فيما بعد: التنوخيون. أما محمد كرد علي في خطط الشام فيقول: نزل التنوخيون قبل الإسلام بقرون، وسموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، وتَنَخت، والتَنُخ (المقام)، وكانوا قبائل تتاخم منازلها مملكة تدمر، فلما غزا ملك الفرس الروم وأدرع فيهم السبي، وخرب العمائر، وأنفذ ملك الروم إلى التنُوخ يستنجدهم على ملك الفرس فأنجدوه.. ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم، فأجابهم إلى ما أردوا، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم، فأعجب بهم ملك الروم، ففرق فيهم الدنانير، والثياب وقربهم وأدناهم وأقطعهم سورية وما جاورها من الأصقاع.. ويرى كرد علي أن الحلف على التنوخ جرى في الشام ولم يجر في البحرين استناداً إلى ابن النديم، بينما يرى الطبري أن التنخ جرى في البحرين أولاً. ويمكن أن يكون أي حلف جرى فيما بعد أطلق عليه التنوخ، ولا يستبعد أن يكون قد جرى ذلك في الشام بوقت متأخر.. وقيل أيضاً إنَ تنوخ هي أخلاط من قبائل عربية جاهلية بدأت كحلف لقبائل عدة هاجرت من اليمن بعد انهيار سد العرم في مأرب، وذلك بعد أن أجدبوا باليمن. ونجح هذا الحلف بالسيطرة على مناطق متعددة أثناء زحفه شمالاً، حيث تمكن من إخضاع شرق الجزيرة العربية ومناطق أخرى في شمالها من سورية والعراق حتى جنوب ايران الحالي. ويلخص جواد علي[2] معظم الآراء التي تحدثت عن الموضوع، بالقول: إنَ تنوخ: "هم قبائل سكنوا بيوت الشعر والمطال والوبر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها في اصطلاح أهل الأخبار. ويظهر من وصفهم لتنوخ أنهم قصدوا بهم من كان يشتغل بالزراعة ومن كان يعيش عيشة أهل البادية من سكان منطقة ما بين الحيرة والأنبار. ولم يقصدوا قبيلة معينة).

ويروي جواد علي (نهاية الرواية، انظر حاشية رقم 1، ص 342) نقلاً عن ابن الأثير وابن الكلبي في تفسير أصل كلمة تنوخ ماخلاصته: (.. أنه لما مات بختنصر، انضم الذين اسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار، وبقيت الحيرة خراباً، فغبروا بذلك زمناً طويلاً لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم. وبالأنبار أهلها ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بني اسماعيل وبني معد بن عدنان. فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم، فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم، فتشتتوا. وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين، وبها جماعة من الأزد كانوا نزلوها في دهر عمران بن عمرو من بقايا بني

---

(1) – عارف عبد الغني "تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، ص 18، دار كنان – دمشق.

(2) – جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، الصفحات (166-169).

عامر، وهو: (ماء السماء بن حارثة)، وهو: (الغطريف بن ثعلبة بن امرئ القيس بن أسد بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة)، و (مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة) في جماعة من قومهم، و (الحيقار بن الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان في (قنص) كلها. ولحق بهم (غطفان بن عمرو بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقدم بن قصي بن دعمي بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان)، و (زهر بن الحارث بن الشلل بن زهير بن إياد)، و (صنح بن الحارث بن قصى بن دعمي بن إياد). فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب، فتحالفوا على التنوخ، وهو المقام، وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يداً واحدة على الناس، وضمهم اسم تنوخ.

وتنخ على تنوخ بطون من (نمارة بن لخم)، ودعا (مالك بن زهير) (جذيمة بن الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي) إلى التنوخ معه، وزوجه أخته (لميس) ابنة (زهير). فتنخ (جذيمة بن مالك) وجماعة ممن كان بها من قومهم من الأزد، فصار (مالك) و (عمرو) ابنا (فهم) والأزد حلفاء دون سائر تنوخ. وكلمة تنوخ كلها واحدة. أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم، فكان على حد قول (ابن الكلبي) في أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر وفرق البلدان بينهم عند قتله (دارا) ملك فارس إلى أن ظهر (أردشير بن بابك) ملك فارس على ملوك الطوائف، وقهرهم، ودان له الناس.

وفي عهد ملوك الطوائف، تطلعت أنفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا فيه، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فأجمعوا على السير إلى العراق. وكان أول من طلع منها (الحيقار بن الحيق) في جماعة من قومه وأخلاط من الناس، فوجدوا الأرمانيين (بني إرم)، وهم الذين بارض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل، يقاتلون الأردوانيين، وهم ملوك الطوائف، فاستفادوا من ذلك وانتشروا في السواد. وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة. ثم طلع (مالك) و (عمرو) ابنا (فهم بن تيم الله)، و (مالك بن زهيربن فهم بن تيم الله)، و (غطفان بن عمرين الطمثان)، و (زهير بن الحارث)، و (صنح بن صنح) فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وحلفائهم على الأنبارعلى ملك الأرمانيين، فطلع (نمارة بن قيس بن نمارة) و (النجدة)، وهم قبيلة من العماليق، يدعون إلى (كندة) و (ملكان بن كندة) و (مالك بن كندة) و (مالك وعمرو ابني فهم) ومن حالفهم، وتنخ معهم على (نفر) على ملك الأردوانيين، فأنزلهم الحير (الحيرة). فلم تزل طالعة الأنبار وطالعة (نفر) على ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمها تبع، وهو (أسعد أبو كرب بن ملك يكرب) في جيوشه فاستولى عليها، ونزل الحيرة فيمن معه.

وروى (ابن الكلبي) أنّ كثيراً من تنوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطف الفرات وغربيه إلى ناحية الأنبار وما والاها. نزلوا في المظال والأخبية لا يسكنون بيوت المدر، ولا يزاوجون أهلها. وكانوا يسمون (عرب الضاحية). فكان أول من ملك منهم في زمن الطوائف (مالك بن فهم)، وكان منزله مما يلي الأنبار، ثم مات مالك بن فهم، فملك من

بعده أخوه (عمرو بن فهم). ثم هلك عمرو بن فهم، فملك من بعده (جذيمة الأبرش بن مالك بن مالك بن فهم ابن غانم بن دوس الأزدي).

وقد أخذ الطبري ما ذكره عن (تنوخ) من روايات ترجع إلى (ابن الكلبي وابن اسحاق). وتختلف روايات (ابن اسحاق) التي أخذها الطبري عن شيخه (ابن حميد) عن (سلمة) عن (ابن اسحاق) بعض الاختلاف عن روايات (ابن الكلبي).

ولدينا رواية تذكر أن (بني زهير بن عمرو بن فهم)، ومنهم (مالك بن فهم) الذي تنخت عليه تنوخ، هو ومالك بن فهم بن غنم الأزدي، تنخوا بعين هجر، وتحالفوا هناك، فاجتمعت إليهم قبائل من العرب، فنزلوا الحيرة، فوثب (سليمة بن مالك بن فهم) على ابيه (رواية حمزة الأصفهاني) وهو لا يعرفه، فرماه فقتله، فقال أبوه لما علم أن سليمة راميه:

جزاني لا جزاه الله خيراً   سليمة، إنه شراً جزاني

أعلمه الرماية كل يـــوم   فلما اشتد ساعده رماني

فتفرقت بنو مالك، وكانوا عشرة، ولحقوا بعُمان، وملكَ جذيمة بن مالك عشرين ومئة سنة (وفي رواية أخرى عشرين سنة). وذلك في أيام ملوك الطوائف. وهو أول من اتخذ داراً.

وما تنوخ في نظري إلا القبيلة التي ذكرها بطليموس في جملة القبائل التي كانت في أيامه. وهي وإن كانت في جغرافيته في مواضع بعيدة عن الحيرة غير أن ذلك لا يمنع من انتقال بطون منها إلى الحيرة وبادية الشام وإقامتها فيها، وهو حادث مألوف وليس بغريب، أو أنها كانت في هذه المواضع في أيام بطليموس كما كانت بطون منها تقيم في المواضع التي ذكرها أو أنه أخطأ في تعيين مواضعها الصحيحة فظن أنها حيث وضعها من الأماكن، وهو أمر ليس وقوعه من الكتاب في الزمن الحاضر بغريب، فكيف بالنسبة إلى تلك الأيام.

فتنوخ إذن على الوصف المتقدم، هم أعراب الحيرة لا حضرها وأهل مدرها، عاشوا في أطرافها وحولها، في بيوت الشعر والمطال، على نقيض (العباديين). وقد تبين من بعض الموارد أن بطوناً من تنوخ نزلت أرضين تابعة للروم)[1].

ويلخص جواد علي معظم الأراء التي تحدثت حول الموضوع[2]، فيقول: "قبائل تنوخ هم قبائل تجمعت مع عدد من البطون وتحالفت في البحرين، وانتقلت إلى أماكن قريبة من الحيرة، وإلى بادية الشام، وأقامت فيها، ونستطيع أن نقول: إنّ تنوخ هم أعراب الحيرة، سكنت في البداية بيوت الشعر والوبر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار، وكان منهم من

---

[1] - سقنا رواية جواد علي عن التنوخيين، الموجودة بين (   ) لأهميتها، وقد جاءت في الصفحات (166- 169) من "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3. وقد استند جواد علي في ذلك إلى مصادر متعددة يمكن الرجوع إليها لمن أراد. وبطليموس كان من يوناني الاسكندرية وعاش حتى 161 م، وله كتابان في الجغرافية والفلك. وكتابه في الجغرافيا جاء في ثمانية أجزاء.

[2] - عارف عبد الغني: " تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، ص 19.

اشتغل بالزراعة، وأكثرهم يعيش عيشة البادية، وهم ليسوا من قبيلة واحدة. وفي موقع "أم الجمال" في الأردن على الحدود بين الأردن وسورية، ورد اسم جذيمة ملك تنوخ على نقش حجري[1]، وهذا يعني أن تنوخ انصهرت فيها العديد من القبائل العربية لتأخذ اسماً جديداً، وتتخلى عن أسمائها السابقة".

وتنوخ هو المقام الذي تعاقدت فيه جموع القبائل العربية التي اتفقت على التناخي والتآزر والتناصر والتحالف ليصيروا يداً واحدة على الناس، فضمهم اسم تنوخ الذين وافقوا فيه على التحالف. ومن هذا الاتفاق بدأ يتنخ على تنوخ بطون كثيرة من قبائل العرب. فقد ورد في "تاج العروس" للزبيدي، ج7، ص 239: "تنوخ: (تنخَ) بالمكان تُنُوخاً، بالضم، وتنأ تُنوأ: (أقام) به، (كَتَنَخَ)، مُشدداً، فهو تانخٌ وتانيءٌ، أي مقيم، (ومنه) سميت (تَنَوخُ)، كصَبُور، ومن شدد فقد أخطأ. (قبيلةٌ) من اليمن، (لأنهم اجتمعوا) وتحالفوا (فأقاموا في مواضعهم). (ووَهمَ) الجوهريُّ فذكره في (ن وخ) بناءً على أنّ التاء ليست بأصلية. ونظراً إلى الإشتقاق والمأخذ، فإنه من الإناخة بمعنى الإقامة فلا يُعَدّ مثل هذا وهماً. (و) تَنَخَ في الأمر: رَسَخَ فيه وثَبَتَ، فهو تانخٌ، مثل نتَخَ، بتقديم النون على التاء، ومنه (تانخه) في (الحرب) إذ (ثبَته). وقال ابن قتيبة في المعارف: تَنُوخُ ونَمِر وكلب، ثلاثتهم إخوةٌ".

وفي هذا المقام، نجد أنّ تاريخ القبائل والممالك العربية وتحالفاتها وحروبها وأوقات حكمها ووجودها قبل الإسلام مع سعته وكثرة تشعبه وما يرويه الأخباريون لا يخلو من خلط واضطراب، وتناقض في بعض الأحيان، يدفع الدارسين إلى الوقوف بحذرشديد قبل القطع برأي صائب معتمد على المصادر.

ويتحدث الإخباريون عن هجرة قبائل تنوخ، وهي من قبائل عرب الجنوب[2] التي تركت اليمن، وأخذت تغير على حدود الدولة الفارسية في فترة الضعف التي مرت بين سقوط البرثيين وقيام الساسانيين. وقد نزلت هذه القبائل أول الأمر في البحرين، وتنوخت هناك واستقرت، ومن ثم أخذت تتطلع إلى العراق وخيراته وتتحين الفرص للانتقال إليه والاستقرار فيه. فواتتها الفرصة في الفترة التي قامت فيها الحرب الأهلية في فارس أواخر عصر الدولة البرثية، فهاجرت إلى منطقة الحيرة والأنبار. ويقسم الإخباريونْ العرب سكان الحيرة إلى طبقات ثلاث هي أصلاً من قبائل متعددة فيها القحطانيون والعدنانيون، وهم: تنوخ، العباد، والأحلاف. والتنوخيون عند هؤلاء الإخباريين قبائل سكنت بيوت الشعر غربي الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقهما،

---

(1) – جاء في نقش أم الجمال: "هذا موضع قهر بن شلي مربي جديمت ملك تنوخ.."، المفصل...، ج3، ص 184.

(2) – يرى بعض المؤرخين أن روايات وتفاصيل هجرة التنوخيين إلى العراق أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية المقبولة، إلى جانب ما يقع من اضطراب وتناقض في الروايات. لكن المؤكد أن هذه القبائل حلت في أطراف الفرات نهاية القرن الثاني وأوائل الثالث الميلادي. ويعتقد بعض من هؤلاء المؤرخين أن التنوخيين لم يكونوا ينتسبون إلى قبيلة واحدة، وأنهم على الأرجح كانوا تجمعاً عريضاً من عدة قبائل من عرب الشمال– بغض النظرعن من أين جاؤا– تنوخت واستقرت في وادي الفرات، فاستفادت من ضعف الدولة البرثية فتمتعت باستقلال شبه ذاتي وعملت على حماية القوافل التجارية المارة في منطقة سكناها، حيث أقامت علاقات مع الجوار.

ويظهر أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة أيضاً إلى جانب معيشتهم كأهل البادية. أما العباد، فكانوا ممن سكن واستقر في الحيرة، ويقال أنهم كانوا من النصارى. وأصل تسميتهم جاءت من كسرى، الذي وجد حين استقباله لوفد لهم أن اسماءهم تبتدئ بكلمة "عبد"، فقال لهم: أنتم عبادٌ كلكم، فسموا عُباداً، بينما يقول آخرون بأنهم سموا عباداً لأنهم كانوا يعبدون الله. ويقول جواد علي[1]: "إنّ هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً، وإنما يعني جماعة من قبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين والوطن. لذلك لم يطلق إلا على النصارى من أهل الحيرة. أما غيرهم من نصارى العرب، فلم يشملهم اسم العباديين. ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الإخباريين في تحديد مدلول الكلمة واقتصارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب. فلما انتشرت النصرانية في الحيرة لازمت هذه التسمية جميع أنصارها، إذ لم تميزهم عن الوثنيين فحسب، وإنما ميزتهم عن بقية النصارى العرب من غير أهل الحيرة". وأما الأحلاف، فهم بقية من سكان الحيرة ومن نزل فيها من العرب ممن لم يكن من تنوخ أو العباد.

تحركت الهجرات العربية العارمة إلى أرض العراق بمجموعتين: الأولى تحت قيادة زعيم قبيلة قبيص الحيقاد بن الحنق التنوخي، الذين أغاروا على بابل وما حولها. ثم جاءت المجموعة الثانية تحت زعامة مالك بن فهم في جمع كبير من العرب، فهاجم الأرمانيين (بني إرم) في بابل وأجلاهم عن أرضهم، ثم اتجه غرباً فهاجم مملكة الأردواتيين في الأنبار حيث استقروا هناك.

ويكاد إجماع الإخباريين العرب ينعقد على أنّ أول حاكم من بني تنوخ كان مالك بن فهم، الذي كان في نظرهم من الأزد، حيث استطاع في العام 86 م إجلاء الفرس البرثيين عن عُمان، فأصبح ملكاً عليها لمدة سبعين سنة تقريباً، بينما كانت مدة حكمه على رأي اليعقوبي[2]عشرين عاماً، وسع ملكه خلالها فضم إليها البحرين وأطرافاً من جنوب العراق. ثم تولى عمرو بن فهم الحكم بعد وفاة شقيقه مالك، ثم تولى من بعده جذيمة[3] بن مالك المعروف بـ "الأبرش". ويعتبر العديد من المؤرخين أنّ جذيمة بن مالك بن فهم الأبرش هو المؤسس الأول لسلالة اللخميين العرب الذين حكموا الحيرة والأنبار وسائر بلاد الجنوب العراقي وصولاً إلى عُمان واليمن، وهي اللبنة الأولى التي أسست لدولة المناذرة فيما بعد، وذلك على الرغم من أن جذيمة الأبرش كان تنوخياً. ذلك أن الطبري

(1) – "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج3، ص 169، وكذلك ج4، الصفحات (14– 16).

(2) – اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج1، ص 208.

(3) – وجدت وثيقة "أم الجمال" ليس بعيداً عن موقع النمارا. وهي وثيقة ثنائية اللغة، كتبت باليونانية والنبطية. وتتحدث عن فهر معلم الملك التنوخي جذيمة بن فهم. إلا أنه لا يمكن الجزم أن تنوخ كانت في هذه المنطقة. وبالوقت نفسه، لا يمكن إغفال ذكر تنوخ بهذه الوثيقة دون أي ارتباط بالمكان. والوثيقة من القرن الثالث قرن أذينة وزنوبيا تدمر. ويرجح عرفان شهيد بأن كلمة ثيانثا Thainatha التي وردت في الوثيقة ربما تعادل أو توازي كلمة تنوخيا! انظر كتابه بالإنكليزية " بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 415.

ذكر أنه كانت تقوم غزوات بين جذيمة وبين بني إياد في عين أباغ[1]. وقد ذكر لجذيمة مرة أنه ينزل في إياد غلام من لخم اسمه عدي بن نصر بن ربيعة، وهو ابن أخت لهم، وأن لهذا الغلام جمال وظرف، فرغب جذيمة أن يضمه إلى مجلسه وأن يجعله في خدمته. فقبل بنو إياد أن يرسلوا عدي إلى جذيمة بعد أن تصالحا وتوقفا عن الغزو والقتال. فولاه جذيمة شرابه، وأنزله منزلة عالية في قصره. ويقال أنّ رقاش ابنة مالك، أخت جذيمة، أبصرت عدياً فأحبته وتزوجته بحيلة احتالتها على أخيها. ومن قصة هذا الزواج المزعوم جاء عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة حيث خلف خاله على الملك؟

ويروي الطبري في وصف جذيمة[2] الأبرش: "... إنه كان من أفضل ملوك العرب رأياً وأشدهم نكاية وأظهرهم حزماً، وأول من استُجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب، وغزا بالجيوش".

تولى عمرو[3] بن عدي بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سعود بن مالك بن عمم بن نُمارة بن لخم بعد خاله التنوخي جذيمة الأبرش فحكم لمدة عشرين عاماً على عرب الحيرة والأنبار. ويعد عمرو بن عدي[4] مؤسس الإمارة اللخمية ومملكة اللخميين فيما بعد، وإليه ينسبون ملوك العراق، وهم ملوك آل نصر. وقد حدثت خلال ذلك حروب عديدة مع الساسانيين الفرس، السلالة الجديدة الحاكمة بعد البرثيين الذين استطاعوا مد نفوذهم إلى ما بين النهرين، ما اضطر تحالف القبائل لقبول التعايش مع المحتل الفارسي.

خلف امرؤ القيس بن عمرو بن عدي على المُلك سنة 288م، فاستمر لأربعين عاماً وسع فيها رقعة الدولة بإخضاع القبائل العربية والملوك المحليين في الحجاز ونجد وتهامة والعراق والشام واليمن لسلطانه. ولقب بملك كل العرب.

وقد ذكر عرفان شهيد أنّ امرئ القيس ينحدر من ملوك الأسرة الأبجرية التي حكمت الدولة الأسروينية في عاصمتها إديسا/الرُها، أورفة حالياً. وتشهد وثيقة بيكولي Paikuli على ذلك. والاسم إديسا[5] يعني المدينة الجديدة في الأكدية – الآشورية المسمارية.

واوسروين أو اوسروينة كانت مملكة عربية قديمة حكمت في الفترة الممتدة بين 132 ق.م و 244 م، وتقع في شمال غرب ميزوبوتاميا (بين النهرين في أعالي الفرات). وساد حكمها منطقة ما بين الفرات ودجلة والخابور وطريق الحدود الحاضرة بين تركية وسورية، فوصلت إلى ميلين في الشمال ونصيبين في الشرق وزيوغما (وهي سلوقية على

---

[1] – جاء في "معجم البلدان"، ياقوت الحموي، ج1، ص 61: "وعين أباغ ليست بعين ماء، وإنما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. وقد ذكرها أبو نواس والنابغة الذبياني وآخرون في أشعارهم".

[2] – الطبري، ج2، ص 613.

[3] – كان المناذرة من ملوك الحيرة من لخم، والغساسنة: ملوك الشام من الأزد. فكلاهما من أصل يمني واحد، وكان بينهما أحقاد وأضغان وحروب.

[4] – جاءت نهاية عمرو علي يد الزباء ابنة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العميلقي ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف بلاد الشام (جواد علي: المفصل..، ج3، الصفحتان (104– 105).

[5] – للزيادة، انظر Segal, Edessa.

الفرات 20 كم شمالي جرابلس) بالقرب من مدينة برجيك في الغرب، وسنجار في الجنوب الشرقي، وحران في الجنوب الغربي. وقد تحكمت مملكة الأسروينيين بالطريق الاستراتيجي بين الشرق والغرب، وبين آسية الصغرى وميزوبوتاميا. وأمن لها موقعها الاستراتيجي مكانة مهمة بين المتحاربين البرثيين الفرس والروم من القرن الثاني قبل الميلاد إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي حين أنهى استقلالها وضمها الامبراطور الروماني غورديان الثالث في عام 244 م إلى الامبراطورية الرومانية. وخلال تلك الفترة بدلت الأسرة الأبجرية الحاكمة تحالفاتها مع الفرس والروم حسب مصالحها.

وهناك عدة روايات لأصل الاسم اوسروينة Osroene والأسروينيين؛ منها:

1- الاسم مشتق من Esro-Ayne (إسروئين)، ويعني: Ten-Chiefs أي القادة العشرة بالسريانية. وتعود هذه الرواية إلى تاريخ سقوط نينوى عاصمة الآشوريين سنة 612 ق.م، حينما اتجه الملك آشور أوباليت (أوباليط) الثاني وعشرة من قادته العسكريين إلى أعالي الفرات وكونوا مملكتهم الجديدة. وأكد المؤرخ الروسي ماتفييف في كتابه "تاريخ الآشوريين" أنّ مملكة اوسروينة تشكلت من هؤلاء القادة العشرة، فأطلقواعليها حينها إسروييو Esroyo، ثم إسروئين Esro-Ayne فيما بعد.

2- كانت الكتيبة الآشورية العاشرة تعسكرفي حداتو (أرسلان طاش) عند سقوط نينوى، وكانت الوحيدة التي بقيت من الجيش الآشوري، فأطلق على منطقة حداتو إسرونويو Esronoyo، أي العاشرة، أو بيت العاشرة Beth-Esroyo.

3- تقول الفرضية الثالثة أن الاسم يعود إلى قبائل سوبارتو Subartu العشرة. حيث أكد المؤرخ التركي غوناتاي[1]: ".. تعود مملكة اوسروينة إلى القبائل الآشورية العشرة، وأنَ السوريين القدماء هم أحفاد الآشوريين السوبارتو[2]".

4- أونداليه Ondaligh؛ كلمة تركية تعني عشرة فروع (on تعني عشرة، و daligh تعني فروع)، أي الفروع العشرة. تأتي هذه الفرضية لتؤكد الفرضيات الثلاث السابقة التي تبين أن الأسروينيين يعودون بأصولهم إلى الآشوريين.

شكل القادة العشرة، بعد موت آشور أوباليت الثاني، "مجلس العشرة"، وحكموا البلاد بما يشبه الحكم الديمقراطي لأول مرة في تاريخ المشرق. وسموا نظامهم البرلماني هذا بـ "مجلس بيت إسروييو. Bet-Esroyo" وقيل أنّ مجلس بيت إسروييو استمر في هذا النظام حتى سقوط الدولة على يد الرومان سنة 244م.

كانت اوسروينه تشكل جزءً شبه مستقل داخل الامبراطورية السلوقية. وخلال عهد الملك السلوقي أنطيوخس السابع سيديت Sidetes (136ق.م) أغارت القبائل العربية من أبناء اورحوي/اوسرو ونجحت باحتلال المنطقة، وأقامت حكماً جديداً نال رضى البرثيين

---

[1] - شمس الدين غوناتاي في كتابه "تاريخ الشرق"، ص 18، إصدار 1994.

[2] - انظر "تاريخ السوريين القدماء"، الذي راجعه غابرييل ايدين، ص 18، إصدار 1994

الفرس. وحكمت السلالة الأبجرية اوسروينة، فحازت على شبه استقلال تام بين 132 ق.م و 244 م، وكانت السريانية لغتها، وإديسا عاصمتها، ولقب ملوكها بالأبجر. وتأثرت اوسروينة باضطراد بالثقافة الآرامية، ومثلت مركزاً منافساً للهلينستية، وبذلك أصبحت إديسا مركز المسيحية الأول في المشرق لتبني ملكها الأبجر الثامن للديانة المسيحية.

وفي عام 64 ق.م عقد ملكها الأبجر اتفاق سلام مع الفاتح الروماني بومبيوس. ثم تحالف مع القائد الروماني كراسوس (كان طرفاً في الاتفاق الثلاثي الأول الذي ضم يوليوس قيصر وبومبيوس وكراسوس سنة 60 ق.م) في الحرب ضد الفرس سنة 53 ق.م، ثم غير تحالفه سراً فأخذ جانب البرثيين الفرس، وذلك بتقديم معلومات مضللة لكراسوس، وانضم إلى الجانب الفارسي خلال معركة حران، مما أدى لمقتل كراسوس وهزيمة جيشه أمام البرثيين.

وفي العام (116م) قبل الأخير من حكم الامبراطور الروماني ترايانوس (تراجان) قام القائد لوكيوس كويتوس باحتلال إديسا خلال الحرب التي جرت بين روما وفارس. وحاولت اوسروينة بعدها إنهاء النير الروماني سنة 216م، لكن ثورتها فشلت، وأرسل ملكها أبجر التاسع منفياً إلى روما. إلا أنَ اوسروينة بقيت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي تحت سلطة روما، إلى أن تم ضمها للامبراطورية بشكل نهائي سنة 244م. انتقل الأسروينيون بعد ذلك إلى الحيرة وأسسوا ملكهم هناك، ثم انتقلوا إلى نمارا في جنوب سورية بعد خلافهم مع كسرى الفرس، ثم عادوا مرة أخرى إلى الحيرة في نهاية القرن الرابع بعد أن تصالحوا مع الملك الساساني. وهكذا كان مستقبل عائلة امرئ القيس قد اجبرها على تغيير مواقعها تبعاً لنتائج السياسات الإمبريالية الفارسية والرومانية بالانتقال[1] من إديسا إلى الحيرة إلى نمارا إلى الحيرة خلال فترة القرنين الثالث والرابع، حتى استقرت في الحيرة كعامل للفرس في القرنين الخامس والسادس وبداية القرن السابع كلخميين مناذرة تختلط دماؤهم وأنسابهم بالأسروينيين وتنوخ، واستمروا يحكمون هناك حتى التحرير العربي الإسلامي.

يعتبر امرؤ القيس بن عمرو واحداً من أقوى ملوك التنوخيين اللخميين المناذرة، بل من أقوى ملوك العرب قبل الإسلام. إذ لم يأت أي ملك عربي مثله بعد سقوط تدمر بخمسين عاماً. فهو الذي هاجم شواطئ فارس بتشكيلاته البحرية الكبيرة وهدد مشارف الامبراطورية الشرقية الشمالية قبل أن يتصالح معها. وانتهز امرؤ القيس فرصة موت هرمز الثاني بن نرسي سنة 309 م، فهاجم السواحل وعبر الخليج إلى الطرف الفارسي واحتل الشريط الساحلي لفترة خمسة عشر عاماً. وأمر قبيلة إياد بالإغارة على فرس العراق[2]. وفي سنة 324 م اغارت قبيلة قضاعة التنوخية على مدن فارس وقتلوا عدداً

---

[1]– انظر عرفان شهيد في كتابه بالإنكليزية " BAFOC /بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 46. والذي اشار فيه عرفان إلى نولدكه، GF, PP. 24, 28-29.

[2]– قال ابن الأثير: "غلبت إياد على سواد العراق وأكثروا فيها الفساد، فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس".

من حاشية شابور الثاني. فجرد شابور حملة عسكرية كبيرة في عام 325 وهاجم الحيرة عاصمة ملك كل العرب واحتلها، ثم نصب أوس بن قلام العميلقي أمير قبائل العماليق ملكاً عليها يأتمر بأمر الفرس، وشن حملة على عرب شبه الجزيرة حتى الحجاز سنة 326 م لإنهاء غاراتهم المستمرة على أراضيه. مما جعل امرؤ القيس يفك تحالفه[1] مع شابور وينسحب إلى جنوب سورية التي كانت تابعة للرومان. ويعتقد عرفان شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 32-36، أن هجرة أو هروب امرئ القيس كانت لأسباب متعددة؛ منها أنه كان غاضباً من حملة شابور على عرب الجنوب الذين كانوا تابعين له، أو أنَ خلافاً نشب بين الملك العربي وشابور خلال الحملة أو بعدها، أو أنَ الملك أحس أن تبديله أصبح وارداً عند شابور لموقفه المعارض ولميله إلى المانوية التي تأثر بها، إلى جانب مسيحيته. وقد كان والده عمرو بن عدي من المتأثرين بالمانوية أيضاً، وكان شابور قد غضب من المعلم ماني فأعدمه. لذلك استبق امرؤ القيس وغادرإلى سورية. وقصد الإمبراطور الروماني قسطنطين لنصرته واسترجاع ملكه. وقد وضع فرقة من جنوده تحت تصرف الرومان. وربما نصبته بيزنطة قسطنطين ملكاً عربياً عاملاً على ولاية العربية. ومن خلال ذلك حقق مع أبنائه لروما تأثيراً جديداً وأمناً في المنطقة التي حكمها بما فيها الحجاز.

ويروي الإخباريون أن امرئ القيس بن عمرو كان أول من تنصر من ملوك الحيرة، وهذا أمر يحتاج إلى أدلة قاطعة[2] غير متوفرة حتى الآن. مات امرؤ القيس على أغلب الرويات سنة 328 م، وخلد ذكره في وثيقة النمارا[3] كشاهد على قبره في الأراضي التابعة للامبراطورية الرومانية، والواقعة بمنتصف المسافة إلى الشرق من دمشق وبصرى (حسب دوسو)، حيث حكم امرؤ القيس مناطق حوران والبثنية والجولان وفينيقية الجنوبية، وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة، والمنطقة التي كانت تمر بها الطرق التي كان

---

[1] - يرى جواد علي (المفصل..، ج 3، ص 191) رأياً آخر في تاريخ فرار أو هجرة امرؤ القيس إلى جنوب سورية، بأنه كان في سنة 293 م. ذلك أن الملك العربي كان من حزب ومؤيدي بهرام الثالث كسرى فارس حينها، فلما وقع الخلاف على ملك فارس بين نهرام ونرسي، وانتصار نرسي (293– 302) م؛ خرج امرؤ القيس من العراق إلى الشام، فاستقبله الروم وأيدوه وأقروه ملكاًعلى عرب بلاد الشام.

[2] - للباحث شهيد رأي آخر في ذلك، حيث يؤكد في كتابه بالإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، وفي مواضع متعددة منه، بتنصر امرئ القيس مبكراً وهو في الحيرة من عمال ملوك الفرس قبل هروبه إلى الروم. وقد استقى شهيد رأيه بالرجوع إلى هشام الكلبي، ضمن آخرين، في"أخبار العرب وأنسابهم" التي استمدها الكلبي من سجلات وقوائم بيع الحيرة وكنائسها. غير أن رقيم النمارا لا يشير إلى تنصر الملك.

[3] - يوجد الرقيم الآن في متحف اللوفر في باريس. ويتكون من خمسة أسطر بالكتابة النبطية المنحوتة على لوحة حجرية من البازلت أبعادها 116 × 33 سم. وهذا نصها المأخوذ من كتاب المستشرق الفرنسي رينيه دوسو "العرب في سوريا قبل الإسلام"، ص 33، أصدرته مترجماً دار الحداثة في بيروت:

– هذا هو قبر امرئ القيس بن عمرو، ملك جميع العرب، ذلك الذي كلل بالتاج

– وأخضع أسد ونزار وملوكهم وشتت شمل مذحج حتى يومنا هذا، ونال

– نجاحاً في حصار نجران ومدينة شمر، وأخضع معداً وولى أولاده

– على القبائل وندبهم لدى الفرس والرومان. لم يصل ملك إلى مجده

– حتى يومنا هذا. ومات عام 223 يوم السابع من كسلول لتنعم ذريته بالسعادة. (الموافق 328 م – المؤلف).

يسلكها المغيرون من شبه الجزيرة العربية إلى فينيقية الجنوبية (الطريق بين دومة الجندل والجوف وبصرى إلى دمشق وصولاً إلى حمص).

ألقت مخطوطة نمارا ضوءاً كاشفاً على اللغة العربية المكتوبة ومخطوطاتها التي تتحدث عن صراعات شبه الجزيرة العربية، وعن التعقيدات المتعددة للحاكم العربي وعلاقاته مع الآخرين. ويتحدث النقش عن امرئ القيس كرجل محارب شجاع وملك لكل العرب، لتوحيده القبائل العربية التي كانت تتنقل على طول الحدود بين الدولة الرومانية الشرقية ودولة فارس الساسانية، ومن دمشق وأنطاكية إلى ضفاف دجلة، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وهزم مذحج وأخضع معد ووزع بنيه أمراء على القبائل العربية، وحدد علاقاته والقبائل التي تحته على نحو وفق فيه بين مصالح حكمه مع الدولتين. ويوحي الشطر الرابع من الوثيقة بأنّ بعض القبائل كانت تدور في فلك الفرس وبعضها الآخر في فلك الروم. وقد وصلت فتوحاته أسوار نجران (مدينة شمر يرعش الذي كان ملكاً على نجران إلى عام 320م) وسيطر على معظم أنحاء الجزيرة[1]. فوصل ملكه إلى نجران، وحكم على العرب في النصف الشرقي من شبه الجزيرة العربية عندما كان ملكاً على الحيرة، وعلى العرب في أطراف ولاية العربية (العربيا) في المشرق وفي الحجاز بعد أن غير ولاءه من الفرس إلى الرومان.

1

ابتدأ اهتمام المؤرخين والرواة العرب بكتابة التاريخ العربي قبل الإسلام من بدايات القرن الهجري الثاني إضافة إلى اهتمامهم بالتاريخ الإسلامي. واهتم عبيد بن شَرْيَة ووهب بن منبه بدراسة تاريخ الجنوب العربي، بينما انصب اهتمام المؤرخ العربي المشهور هشام بن محمد الكلبي بتاريخ عرب الشمال. وجاء بعد ذلك الهمداني الذي كان اهتمامه الأساسي بتاريخ عرب الجنوب قبل الإسلام. فجاء تاريخهما عن هذه الفترة ليقدم صورة متوازنة عن بلاد العرب والقبائل العربية في الجنوب والشمال. واستمر الاعتماد على تاريخي ابن الكلبي والهمداني قبل الإسلام حتى القرنين الماضيين، وخاصة هشام الذي مازال الاعتماد عليه في فهم التاريخ العربي قبل الإسلام قائماً، إذ لم يعتمد هذا التاريخ على الوثائق أو النقوش أو الآثار، بل على الروايات بالدرجة الأولى.

ولد هشام بن محمد الكلبي، الذي يعرف عادة بابن الكلبي- نسبة إلى قبيلة كلب المشهورة في التاريخ العربي قبل الإسلام وفي عصوره الأولى، والتي لعبت أدواراً مهمة في هذا التاريخ- لعائلة متشيعة في الكوفة (737- 820) م. وكان والده محمد بن الكلبي مهتماً بالتاريخ، فجاء اهتمام هشام مبكراً بكتابة التاريخ. كتب هشام عن تاريخ القبائل العربية وأنسابها بفهم ومعرفة، كما كتب المؤرخ اللاتيني تاكيتوس عن تاريخ القبائل الألمانية المختلفة التي أقضت مضجع الامبراطورية الرومانية وساهمت بشكل نهائي في سقوطها في الغرب مثلما ساهم العرب المسلمون في سقوطها وتمزيقها في الشرق في القرن السابع.

[1] – انظر المستشرقة الروسية نينا بيغوليفسكايا في "العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ص 42.

تركِ هشام أعمالاً مهمة عن عرب الشمال الذين شكلوا لأكثر من ثلاثمائة عام بدءاً من القرن الرابع الميلادي، ما سمي بعرب التحالف في خدمة بيزنطة: التنوخيون، بنو صالح، والغساسنة. وتعد"جمهرة النسب"، من أهم كتب هشام، الذي يتحدث عن تاريخ العرب، إذ أرجعهم جميعاً إلى جدهم الأول اسماعيل. وتحدث عن الأمة من خلال نسبها العائد لعائلة أصيلة واحدة.

وتشير معظم المصادر العربية (الطبري، اليعقوبي، ابن قتيبة، المسعودي، ياقوت، ابن خلدون..) التي استقت من هشام الكلبي، إضافة إلى المصادر غير العربية، إلى سلسلة الحكام العرب من فترة القرن الثالث حتى النصف الأول من القرن السابع في سورية ومنطقة الفرات وبين النهرين إلى الممالك العربية التالية: جذيمة، تدمر (أذينة وزنوبيا)، اللخميين في الحيرة (المناذرة)، التنوخيين وبنو صالح والغساسنة في سورية.

اتفقت المصادر العربية وغير العربية على أن أرض تنوخ كانت شمال شرق الجزيرة العربية على أطراف الخليج العربي والعراق، وعبرت فيما بعد إلى غرب الفرات في سورية والمناطق الرومانية. وتتحدث وثيقة "أم الجمال" التي كتبت سنة 250 عن جذيمة كمرشد ورائد من رواد هذا التحالف القبلي العريض. وقد عدت روايات هشام عن التنوخيين ذات مصداقية عالية لأن القبائل الكلبية التي سكنت المناطق السورية كانت على صلات وطيدة وتحالف متين مع تنوخيي سورية. وأشارت المصادر العربية إلى انخراط التنوخيين في القوات البيزنطية في محاربة المسلمين[1]عند تحرير سورية مثل انخراطهم بعد سقوطهم تحت سيطرة بني صالح في التحالف الجديد مع بيزنطة، تماماً مثلما انخرط بني صالح في التحالف الثالث مع بيزنطة الذي ساده الغساسنة، وذلك بعد سقوط بني صالح وصعود غسان نهاية القرن الخامس وحتى الثلث الأول من السابع.

ويضع هشام الكلبي هجرة التنوخيين من الأراضي تحت السيادة الفارسية في عهد أردشير، إلى الرومانية في سورية في الثلث الأول من القرن الثالث في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول، وذلك بعد حدوث صدامات بين عرب ما بين النهرين وبابل وأردشير مؤسس الأسرة الساسانية الذي طمح إلى تركيز سلطات دولته الجديدة بالتخلص من جميع الكيانات المستقلة.

لم تكن تنوخ قبيلة واحدة بل مجموعة كبيرة من عدة قبائل شكلت تحالفاً عريضاً بعد هجرتها من العراق. وقد كانت كذلك حتى قبل هجرتها من شمال- شرق شبه الجزيرة العربية. واستمرت بالاتساع بانضمام قبائل أخرى إلى تحالفها العريض، خاصة بعد استقرارها[2] في سورية وما جاورها. وقد حدد ابن حزم في "الجمهرة"، الصفحة 453: من أن تحالف تنوخ مكون من فهم ونزار والأحلاف، ففهم هي قبائل من أفخاذ أسد بن وبرة التي كانت تستوطن سورية؛ تحالف واسع وعريض ضم امرؤ القيس اللخمي صاحب

---

[1] – انظر البلاذري في" فتوح البلدان"، الصفحات (172– 174)، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.

[2] – سجل ابن خلدون بداية صعود التنوخيون في سورية بعد سقوط تدمر.

وثيقة النمارا[1] على رأي ابن خلدون. وتشير المصادر العربية المتعددة إلى ارتباط اللخميين والتنوخيين بروابط الدم والنسب، لذلك من الممكن استخدام مصطلح تنوخ والتنوخيين بالمعنى الشامل للإشارة إلى المجوعتين الرئيسيتين المتحالفتين مع بيزنطة في تاريخ القرن الرابع. ولأنّ هذه المصادر تحدثت عن ملوك تنوخ الثلاثة: النعمان بن عمرو، عمرو بن النعمان، والحواري بن النعمان، يكون الحواري إذاً شقيق الملك الثاني عمرو. ومن المحتمل أنّ الملك التنوخي الأول النعمان بن عمرو ربما كان هو امرؤ القيس التي تتحدث عنه وثيقة النمارا؟ وربما كان النعمان هو لقب امرؤ القيس، على رأي عرفان شهيد؟

وقد كان الحواري آخر ملوك التنوخيين؛ فالتنوخيون واللخميون مجموعتان عربيتان، حسب المصادرالعربية، كانتا متحالفتين مع بيزنطة في القرن الرابع. والحواري زوج ماوية من أحد الفرعين، والفرعان منسوبان إلى أصل واحد ربما توحدا وارتبطا ببعضهما بعد فرار امرؤ القيس اللخمي من الحيرة، وهجرته إلى المناطق البيزنطية في ولاية العربية.

إلى جانب لخم التي أقامت في ولاية العربية في جنوب سورية، وشكلت مع قبائل تنوخ في شمال سورية التحالف العربي الواسع مع بيزنطة في فترة القرن الرابع، وامتدت سيطرتها من الشواطئ الغربية لنهر دجلة حتى شرقي نهر النيل، انضمت أيضاً القبيلتان العربيتان جذام وعاملة اللتان كانتا تقيمان في الجزء الجنوبي من ولاية العربية، وقبيلة بَلقين في شرق الأردن، وقبيلة بالي/ بَلي في شمال الحجاز، وقبائل كلب القوية المقيمة بين سورية وبين النهرين (ميزوبوتاميا) وفي دومة الجندل، وقبائل صالح في منطقة المشرق.

لذا، لعب عرب التحالف العريض هذا تحت زعامة التنوخيين[2] في القرن الرابع دوراً بارزاً خلال تحالفهم مع بيزنطة في مرحلة مهمة من تاريخ الصراع العالمي بين الروم والفرس. فشكلوا درعاً واقياً قوياً في نظام الدفاع الروماني في المشرق وذلك بعد سقوط مملكة تدمر[3] في نهاية القرن الثالث، والتي كانت تشكل منطقة عازلة بين الفرس والروم من ناحية وبين عرب شبه الجزيرة والرومان من ناحية أخرى، لذلك عملت روما وبيزنطة على ملئ هذا الفراغ بتحالفهما مع هذا الطيف الواسع من القبائل العربية التي لم تكن على مستوى عام من الشعور بالانتماء يرقى إلى العمل الاستراتيجي المرسوم لبناء دولة أو امبراطورية عربية قادرة على حماية منجزات وحدتها البشرية والعقائدية والجغرافية والسياسية والاقتصادية، حيث تأخر تنفيذ هذا المخطط إلى أن جاءت دعوة العرب المسلمين في النصف الأول من القرن السابع لتقوم بتنفيذ هذا الدور الذي طال انتظاره.

---

(1) – كانت النمارا أساساً قاعدة عسكرية رومانية في ولاية العربية. وبالتالي، فإقامة امرؤ القيس كانت داخل أراضي الامبراطورية الرومانية.

(2) – أشار عرفان شهيد في كتابه بالإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 544، إلى أن سيطرة التنوخيين على قبائل هذا التحالف العريض لم تكن بنفس الوضوح التي كانت عليه سيطرة الغساسنة على قبائل عرب التحالف مع بيزنطة في نهاية القرن الخامس، والسادس، وبداية السابع.

(3)– تشير رواية "التاريخ الأوغسطي" في الفصل الذي يتحدث عن أورليانوس إلى أن قبائل تنوخ حاربت إلى جانب الرومان ضد زنوبيا (شهيد، روما والعرب، ص 76، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان– دمشق).

حدثت معارك بين الفرس والروم خلال فترة حكم امرئ القيس، وشابور ذي الأكتاف[1] حينها على حكم فارس. انتهز فيها العرب تحت حكم شابور الفرصة للانتقام منه لكثرة ما قتل من العرب في مطلع حكمه ولغزوه جنوب الجزيرة، فانضموا إلى قسطنطين ضد الفرس. وشارك عرب التحالف يوليانوس في حملته الفارسية سنة 363 م، حين انضمامهم إلية عند الرقة بتشكيلات وحدات الخيالة الاحتياطية التي أدت مهامها القتالية على أكمل وجه خلال سير المعارك. فانهزم شابور على إثر ذلك ودخل الرومان المدائن (طيسفون). وتصادف أثناء ذلك أن قتل يوليانوس بسهم طائش، فتشتت جيشه، وتمكن شابور حينها من تنظيم صفوف جيشه. فاضطر يويانوس خليفة يوليانوس أن يعقد صلحاً مع شابور تنازل بموجبها عن بعض المقاطعات التابعة له في ميزوبوتاميا. وسنرى في سياق العرض اللاحق أنَ إدارات الأباطرة الرومان- البيزنطيين سيضعون اللوم على العرب في مقتل يوليانوس، بل سيتهمونهم بأنهم كانوا وراء مقتله.

وتشير الأحداث التاريخية إلى أنَ مشاركة اللخميين، الذين كانوا يقيمون في الجنوب (ولاية العربية)، في حروب روما كانت أقل من مشاركة التنوخيين في الشمال. فقد كانت مهمات العرب اللخميين الأساسية في تحالفهم مع روما هي المحافظة على سلامة الحدود من غارات الأعراب الآتية من أطراف الجزيرة العربية، والمحافظة على القانون والنظام في ولاية العربية وأطرافها المحاذية لشبه الجزيرة العربية.

2

اعترى علاقة يوليانوس بالعرب عدم الثقة والشك قبل الحملة الفارسية، إذ مرت هذه العلاقة بمراحل متعددة من تجاهل العرب وعدم الاهتمام بالتعاون معهم إلى العداء من جانب يوليانوس، والذي أدار ظهره للوفد العربي الذي كان ضمن الوفود المتحالفة معه، وذلك عند وصوله إلى أنطاكية وهو في طريقه لملاقاة الفرس. ثم غير رأيه بعد ذلك وهو في هيرابولس Hierapolis (منبج) فاستدعى العرب للانضمام إليه إن أرادوا، فانضموا إليه وهو في الرقة على الفرات، فكان انضمامهم إليه كفرقة احتياطية شاركته في الزحف على المدائن. وتطور الخلاف بين الطرفين بعد انسحابه من معركة المدائن. ورُوِي أنهم تركوه، ثم هاجموا جيشه بعد مقتله[2]. وكان موقف يوليانوس، بشكل عام، من العرب موقفاً سلبياً، إذ كان يراهم كبرابرة ومسيحيين وقطاع طرق ومغيرين.

انتهت حملة يوليانوس الفارسية بشكل مأسوي عليه وعلى بيزنطة. فإلى أي مدى أدى موقفه السلبي تجاه العرب إلى هذه النتيجة؟ إذ لم يأخذ في حسبانه قدرة العرب

---

[1] – روى أبو سعيد الحميري في كتابه "الحور العين"، ص 322: ".. فلما أتت له ست عشرة سنة أمرهم أن يختاروا ألف رجل من أهل النجدة والبأس ففعلوا، فأعطاهم الأرزاق، فسار لهم إلى نواحي العرب الذين كانوا يعيثون في أرضهم، فقتل من قدر عليه منهم ونزع أكتافهم، وفي رواية أخرى أنه كان يثقب أكتاف معارضيه، ويعلقهم منها حتى لا يعود أحد لمعارضته. فسمي ذا الأكتاف لذلك، وهو باني الإيوان الأعظم بالمدائن".

[2] – Res Gestae, Ammianus; XXIII.2,1 / أميانوس في "مصنفه التاريخي، 23. 2. 1".

القتالية لو استطاع إقناعهم، حيث اعتقد أنَ دورهم لا يرقى إلى ما يريد، وتصور أنَ اعتماده على الجند الرومان دون مشاركة القوات الاحتياطية لمن كان يسميهم برابرة سيحقق النصر. ولم يدرك حينها أن مستوى كفاءة الفيالق الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع لم تكن كما كانت من قبل، إضافة إلى أن الخيالة العرب، ومن ضمنهم حاملي الرماح الطويلة، الذين كانوا على كفاءة عالية في بيئتهم ومجالهم وخبرتهم في حروب الصحراء والبوادي ومعرفتهم بجغرافية المنطقة وبيئتها. وهذا يعني أن يوليانوس لم يقدر ذلك قبل الدخول في المواجهة مع الفرس. فكانت القوات العربية هي القوات الوحيدة التي حاربت إلى جانب يوليانوس في وسطها وبيئتها، فمسرح العمليات كان مسرحها الدائم الذي تعرفه جيداً وتعرف كيف تتعامل معه وتوظفه في الكر والفر.

وكانت أطراف متعددة (رومانية وأنطاكية، ومن قادة الفرق القتالية الموالية)، قد قدمت النصيحة ليوليانوس لثنيه عن القيام بالحملة الفارسية لقسوة مناطق القتال وعدم معرفة الجند بجغرافيتها وبيئتها، علماً أنَ عرب التحالف البيزنطي (التنوخيين في الشمال واللخميين في الجنوب) قد رحبوا بالمشاركة وكانوا متحمسين لقتال شابور عدوهم القديم للثأر منه لحملته الوحشية التي نفذها ضدهم في العشرينات من القرن. إلا أنَ يوليانوس فشل في استغلال هذه المعطيات لتجنيدهم، بل على العكس تحول عنهم واستعلى عليهم ونفرهم بعدم دفع مستحقات رواتبهم من خلال تجنيدهم كاحتياطين في جيشه. بينما استطاعت ماوية استغلال جميع هذه المقومات التي يتمتع بها عرب التحالف الشماليون في ثورتها ضد والنس. وعلى عكس يوليانوس، كان الإمبراطور الروماني غاليانوس قد نجح بتحالفه مع عرب تدمر وملكها أذينة ضد الفرس في نهاية الخمسينيات من القرن الثالث[1]، حتى أنَ أذينة أصبح طليق اليد في مطاردة الفرس حتى تمكن من حصار المدائن، علماً أنَ المقارنة بين جيش تدمر وقوات عرب الاتحاد غير متوازنة. ولو أدرك يوليانوس أن احترامه للعرب وتحالفه معهم هو في مصلحة بيزنطة لكانت نتائج الحملة أقل مأساوية عليه وعلى بيزنطة[2]!

ورغم مهاجمة عرب الاتحاد الجيش الروماني خلال انسحابه من معركة المدائن بعد مقتل يوليانوس، عمل خليفته يويانوس (جوفيان)، الذي كان مسيحياً أرثوذكسياً على مذهب المسيحيين العرب، إعادة بناء علاقات الثقة مع العرب، فاستقبل الأسقف أثناسيوس صاحب المذهب الأرثوذكسي في إديسا واصطحبه معه إلى أنطاكية، فأحس بالرضا لإعادة عرب التحالف إلى تحالفهم مع الرومان من جديد، وذلك بعد أن عقد معاهدة سلام مع الفرس سنة 363 م، والتي تخلى بموجبها عن حران ونصيبين وقسماً من شرق بلاد الرافدين للفرس. وبعد معاهدة السلام، انتقل كثير من المسيحيين عرب تلك المناطق التي كانت رومانية إلى غرب ميزوبوتاميا التي مازالت رومانية ومسيحية.

---

[1] – انظر مجريات ذلك تحت عنوان " نشوء مملكة تدمر بين الجبارين"، ص 299 من هذا الكتاب.

[2] – عرفان شهيد في كتابه بالإنكليزية " بيزنطة والعرب في القرن الرابع BAFOC, P. 238".

لقد شارك والنس (فالينز) في حكم أخيه الإمبراطور والنتيانوس كأغسطس مسؤول عن الشرق بعد موت يويانوس اختناقاً سنة 364، واستمر حكمه حتى 378 م، بحيث أصبح الإمبراطور بعد موت شقيقه سنة 375م. وقد أخذ والنس بالمذهب الأريوسي المنافس للمذهب الأثناسيوسي (الأرثوذكسي) مذهب عرب الاتحاد. من هنا بدأ تجمع العاصفة التدريجي بين الطرفين.

ملوك وأحلاف العرب التنوخيون

بدأ تأسيس الحضور التنوخي الحقيقي الأول فيما بين النهرين بالملك جذيمة، واتخذوا من الحيرة عاصمة لهم. وجاء حضورهم الثاني في سورية بعد سقوط مملكة تدمر، ولكن من غير الواضح متى بدأ هذا الحضور. وتشير الحوليات أن الرومان جندوا التنوخيين لخدمتهم بعد سقوط تدمر التي كانت عدوتهم المشتركة، ثم جاء حضورهم الثالث في عهد قسطنطين الكبير بحكم امرئ القيس"ملك كل العرب". إذ ابتدأ صعود نظام التحالف العربي بالتشكل اعتباراً من بداية الربع الثاني من القرن الرابع بالانتقال من الحيرة وما بين النهرين إلى سورية، ثم إلى الولاية العربية بامرئ القيس وأبنائه، ثم في التحالف التنوخي الشمالي الذي تلاه صعود بني صالح بتحالفهم مع بيزنطة، ليختتم الغساسنة نظام التحالف العربي هذا في القرن السادس والثلث الأول من السابع.

كانت علاقة امرئ القيس بالرومان علاقة وطيدة[1] تأسست بعد سقوط تدمر، وما خلفه هذا السقوط من فراغ. فنجح التخطيط الروماني الاستراتيجي باستقبال لجوء امرئ القيس إلى ولاية العربية لملء الفراغ الذي خلفه سقوط تدمر، حيث بدأ صعود نظام التحالف العربي في المشرق. إلا أنّ وثيقة النمارا لم تتحدث عن علاقة امرئ القيس بالتنوخيين، بيد أن المصادر الأدبية العربية تحدثت عن التنوخية "رقاش" جدة الملك لأمه. ورقاش هذه كانت شقيقة جذيمة ملك تنوخ في القرن الثاني، وكانت "ماوية" أم جذيمة من قبائل الأزد التي شكلت جزءاً من تحالف تنوخ العام، وكانت "هند" زوجة جذيمة أزدية أيضاً. لذلك، ورغم ان امرئ القيس كان لخمياً إلا أنه ارتبط بقرابه عصب ونسب قويين بتنوخ، وكان والده عمرو بن عدي الذي استقل عن أخواله التنوخيين وأسس فرع اللخميين وحكم الحيرة بعد موت جده (جذيمة) لأمه. وقد وجد امرؤ القيس بعد لجوئه إلى سورية أن من المناسب أن يربط نفسه إلى أخواله المستوطنين في سورية، حتى أنه ربما أحضر معه من تبقى من تنوخ بلاد النهرين بعد هجرتها الأولى إلى سورية في القرن الثالث. لذا، يمكن القول أنّ عرب التحالف بأشكال تحالفاتهم المتعددة من تنوخ إلى صالح إلى غسان كان يشكل في كل مرة تحالفاً مركباً ومؤلفاً من قبائل عديدة؛ كانت تنوخ وصالح وغسان المسيطرون، كلاً في زمنه، على هذا التحالف العريض حيث يصب في النهاية بالارتباط

---

[1] – المصدر السابق: "BAFOC, P 374".

ببيزنطة. وربما اتحدت لخم وتنوخ يداً بيد فشكلا التحالف الواسع بين عرب الشمال وعرب الجنوب، فجاء تحالفهما مع بيزنطة لأسباب سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى.

ويتحدث المسعودي في "مروج الذهب"، ج2، ص 231، فيقول: " كان ملوك التحالف التنوخي في القرن الرابع على التوالي، هم: النعمان بن عمروبن مالك، عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، الحواري بن النعمان بن عمرو بن مالك. وقد سبقهم جذيمة وعمرو بن عدي مؤسس الأسرة اللخمية وابنه امرئ القيس".

1

خرج جحجبان بن عتيق التنوخي اللخمي[1] سنة 330 م في جموع كثيرة من الفرسان من البحرين قاصداً الحيرة، ففتك بالملك أوس بن قلام. وتوالت بعدها غارات الأعراب وهجماتهم على أطراف فارس الساسانية، الذي دفع الملك الفارسي للاتصال بأبناء الملك أمرؤ القيس الذين كانوا يقيمون في جنوب سورية متحالفين مع الرومان، فعادوا إلى الحيرة ونصبوا شقيقهم عمرو بن امرؤ القيس ملكاً عليهم في الحيرة، وذلك في سنة 377م.

ويمكن إجمال ملوك وممالك تنوخ بالتسلسل التالي:

1- تولى مالك بن فهم الأزدي بن غانم بن دوس الملك على اليمن وعُمان والبحرين وجنوب العراق من عام 86 حتى 157م.

2- تولى عمرو بن مالك بن فهم الأزدي.. الملك من 157 حتى 193م.

3- تولى جذيمة بن مالك (الأبرش) بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي الملك من عام 193 حتى 268 م.

4- حكم عمرو بن عدي (اللخمي) ابن أخت جذيمة الأبرش بعد خاله جذيمة في الحيرة من سنة 268 حتى 288 م. وكانت منطقة حكمه في الحيرة.

5- تولى امرؤ القيس بن عمرو بن عدي بعد والده، وحكم من 288 إلى 325/324 م في الحيرة كعامل للفرس، ثم في ولاية العربية التابعة لروما كعامل للرومان حتى وفاته ودفنه في النمارا سنة 328. بينما يرى جواد علي أن هجرة امرئ القيس إلى جنوب سورية كانت في 293م (انظرالحاشية رقم3، ص355).

6- عاد أبناء امرؤ القيس سنة 377 م إلى الحيرة بعد أن تصالحوا مع شابور. وأسسوا حكم السلالة اللخمية (المناذرة) في الحيرة كعمال للفرس منذ ذلك التاريخ حتى الفتح العربي

---

[1] – يبدو، من خلال التداخل القبائلي والبطون والأنساب، أنه من الصعب الفصل بين تنوخ ولخم. وهذا الاضطراب في سياق الروايات المتعددة والمتداخلة لا يضع حدوداً فاصلة بين المجموعتين. ويحدث نفس التداخل عند الحديث عن بني صالح المتحالفين مع الرومان في القرن الخامس، الذين جاءوا بعد التنوخيين في نهاية القرن الرابع، والذين كانوا بدورهم متحالفين أيضاً مع الروم البيزنطيين، ثم تلاهم الغساسنة الذين كانوا حلفاء ووكلاء لبيزنطة في القرن السادس والنصف الأول من السابع.

الإسلامي. وقد دارت صراعات وحروب لصالح الفرس والروم بين اللخميين في الحيرة وعرب التحالف الغساسنة[1] لم تنته إلا بانتصار العرب المسلمين على الفرس والرومان.

7- أكمل الشق التنوخي الحكم في شمال سورية بحيث توج النعمان بن عمرو بن مالك ملكاً، على الغالب، في سنوات الثلاثينات من القرن الرابع، ثم خلفه ابنه عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، ثم جاء بعده النعمان بن عمرو بن مالك الأزدي (الحواري)، ثم تولت الملكة ماوية بعد وفاة زوجها الحواري في 375م، واستمرت ملكة على عرب التحالف التنوخي في سورية حتى هزيمتها النهائية في ثورتها الثانية سنة 383م على يد الإمبراطور ثيودوسيوس.

2

احتل الأسكندر المقدوني سنة 332 ق.م عموم المشرق بما فيه بلاد فارس حتى شمال باكترية (أفغانستان الحالية)، وأنشأ امبراطورية مترامية الأطراف سرعان ما تلقصت وأصابها الانحلال بعد موته سنة 323 ق.م. فاقتسم ضباط جيشه الكبار الامبراطورية بينهم، فاستقل سلوقس نيكاتور وأسس حكم الأسرة السلوقية على معظم مناطق آسية الصغرى وسورية في عاصمتها أنطاكية ابتداء من 312 ق.م حتى الاحتلال الروماني سنة 64 ق.م. من جانب آخر، استقل بطليموس بملك مصر وأسس حكم الأسرة البطلمية التي استمرت حتى الاحتلال الروماني لمصر سنة 30 ق.م.

كان الصراع يدور بين البرثيين الفرس، حينما كانوا يسيطرون على منطقة شرق الفرات، والسلوقيين في الشمال، وبين المصريين والفرس في الجنوب، وبين الفرس وجنوب شبه الجزيرة العربية أقصى الجنوب، وفي أحيان كثيرة[2] بين السلوقيين والبطالمة، وذلك قبل مجيء الاحتلال الروماني للمشرق.

شكلت العلاقات العربية الرومانية والعلاقات العربية البيزنطية، خلال سبعة قرون بدءاً من العلاقات العربية الرومانية والعلاقات العربية البيزنطية، خلال سبعة قرون بدءاً من الاحتلال الروماني للمشرق حتى التحرير العربي الإسلامي في القرن السابع، تحقيق الرومان انتصارات عسكرية وثقافية وأدبية على العرب خلال هذه الفترة الطويلة، رغم محاولات العرب العديدة والمنفردة للاستقلال وبناء امبراطورية تجمع كل هذا الطيف العرقي الواسع في بوتقة واحدة.

وتميزت فترة الاحتلال هذه بفترتين؛ يمكن تسمية الأولى: فترة الاستقرار الروماني التي استمرت من 64 ق.م إلى نهاية فترة حكم ديوقلتيانوس سنة 305 م، وذلك رغم ما اعتراها من اضطرابات داخلية عنيفة كادت تطيح بالبناء الأمبراطوري العظيم، خاصة

---

[1] – كان الغساسنة من حلف تنوخ في حضرموت ووسط الجزيرة العربية في الفترة (325– 528) م.
وردت إشارات في ثنايا المؤلفات اللاتينية واليونانية إلى عرب الروم (آل جفنة) وعرب الشام/عرب الروم (آل جفنة) وعرب الحيرة/ عرب الفرس (آل لخم).. وقد عاصر بعض أصحاب هذه المؤلفات القياصرة الرومان في حملاتهم إلى الشرق فدونوا ما رأوا من الحوادث والمشاهدات.

[2] – شهد الصراع بين أبناء العمومة من السلوقيين والبطالمة خمسة حروب خلال فترة حكمهم لسورية ومصر.

خلال سنوات الأزمة الامبراطورية في القرن الثالث الميلادي التي شهدت صعود مملكة تدمر، وتسمية الثانية بفترة التحول البيزنطية التي شهدت انقسام الامبراطورية إلى: شرقية بيزنطية، وغربية رومانية. واستمرت هذه الفترة لأكثر من ثلاثمائة عام حتى عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل الذي خسر المعركة الفاصلة في اليرموك سنة 636 م.

عرفت الفترة البيزنطية منذ بداياتها ثلاثة مجموعات عربية تحالفت معها، حيث احتفظ هؤلاء العرب بنوع مقبول من الاستقلال مقابل تقديم الولاء والدعم المطلوبين لروما وبيزنطة لاحقاً. وقد عرف هذا التحالف الذي استمر لثلاثمائة عام ونيف بالتحالف العربي- البيزنطي Byzantium - Arab Foederati، على الرغم من انكسار حلقات هذا التحالف أكثر من مرة. وقد شكل هذا التحالف درع الرومان الواقي ضد عرب شبه الجزيرة العربية وضد الجبهة الفارسية، إلى جانب تقديم الدعم العسكري للامبراطورية ضد القوط، وخاصة الشرقيين منهم، وفي جبهات القتال الرومانية والبيزنطية الأخرى. ويمكن تقسيم فترات هذا التحالف إلى حكم وسيادة المجموعات العربية الرئيسية التالية[1]: التنوخيون في القرن الرابع، وبنو صالح في نهاية القرن الرابع، والخامس، والغساسنة في نهاية القرن الخامس، والسادس، والنصف الأول من السابع. وهكذا تطورت العلاقات العربية- البيزنطية، حيث بدأ ميلاد تاريخ العرب الاتحاديين في القرن الرابع، واستمر في التطور إلى أن وصل إلى قمة صعوده ايام الغساسنة في القرن السادس والقسم الأول من السابع.

لا بد، هنا، من الإشارة إلى الأوصاف والمصطلحات والتعابير الثلاثة التالية التي استخدمها المؤرخون القدماء من اليونان واللاتين، والغربيون في العصور التي تلت، لأهميتها عند الحديث عن العلاقات العربية- الرومانية والبيزنطية.

أ- عرب السكيناتي (سكان الخيام) الذين كانت مناطق استقرارهم على أطراف الحدود الشرقية للامبراطورية، حيث كانت الغالبية منهم خارج الحدود.

ب- عرب التحالف مع روما أو بيزنطة فيما بعد، وهم المقيمون الذين تطبعوا رومانياً إلى حد ما، وكانت أعدادهم كبيرة.

ج- الرومان العرب الذين تم ضمهم إلى الامبراطورية وحازوا على حق المواطنة، كعرب الأنباط وتدمر على سبيل المثال.

وتنقسم المصادرالتي تمدنا بالمعلومات إلى قسمين رئيسيين: المصادر اليونانية اللاتينية، والمصادر الأدبية العربية. فالمصادر اليونانية اللاتينية تشكل المصادر الأساسية لتاريخ العلاقات العربية البيزنطية، خصوصاً في القرن الرابع. ويعد المؤرخ المدني اليوناني أميانوس مرقللينيوس، والمؤرخون الكنسيون سقراط وسوزومن وجيروم، أهم أربعة مؤرخين قدموا إضاءات تاريخية جيدة بدءاً من فترة قسطنطين الكبير حتى فترة

---

[1] - يمكن الرجوع إلى دراسة عرفان شهيد في "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان، دمشق، لإلقاء الضوء على التطور التاريخي للمؤسسات العربية عسكرياً وسياسياً وثقافياً.

حكم ثيودوسيوس في نهاية القرن الرابع. بينما تقدم المصادر العربية، وأحياناً الأدبية السريانية، بشقيها الوثائقي القديم (وثيقة نمارا، وثيقة دومة الجندل، وثيقتا خناصر في جنوب حلب) قبل الإسلام، والأدبي الذي جاء معظمه في القرون الأولى من العصر الإسلامي، والذي شكل فيه تاريخ هشام الكلبي وبعده الطبري والبلاذري والمسعودي.. أهم هذه المصادر. وتأتي المصادر اليونانية اللاتينية دقيقة في تواريخها بينما تفتقد إلى الدقة في تحديد أماكن هؤلاء العرب على عكس المصادر العربية.

3

تشكلت صورة العرب، خاصة في تاريخ القرن الرابع، من روايات الكتاب الكنسيين بشكل خاص: كسقراط وسوزومن وجيروم وإبيفانيوس وروفينوس وآخرين، وأميانوس كمؤرخ عسكري مدني، في رسم وتلوين هذه الصورة، فأتت كما لو كانت نتاج عدد من الفنانين تخاصموا على إخراجها. إذ أن منهم من وصف العرب بالغدر والإغارة والسطو والتخلف، ومنهم من اتهمهم بأنهم قوم هرطقة وبدع، وآخرين اتهموهم بالتمرد الدائم على الدولة والقانون.. إلى أخر ما هنالك من أوصاف!

1- ولد المؤرخ اليوناني الوثني اميانوس مرقللينبوس في انطاكية (330-395/ 400؟)، وطلب العلم فيها. ولما اشتد ساعده تجند كمحترف في سلاح المشاة في غاليا (فرنسة)، ثم شارك في هيئة أركان حرب أورسيسينوس Ursicinus في المشرق، فشاهد الحروب، ورافق يوليانوس المرتد في غزوه لبلاد فارس، وكتب عن مقتله. ويعد أميانوس واحداً من آخر المؤرخين الرومان الكبار. وقد كتب تاريخ روما "المصنف التاريخي Res Gestae" باللاتينية متمماً ما وصل إليه المؤرخ تاكيتوس من سنة 96 إلى 378م، فوقع مؤلفه في واحد وثلاثين كتاباً، ضاعت الكتب الثلاثة عشر الأولى، ولم يبق منها إلا من الرقم أربعة عشر حتى الواحد والثلاثين؛ وهي تحتوي على سرد قيم للأحداث بين353-378م. ولهذه الأسفار قيمة تاريخية لأنها مرويات شاهد عيان. وبالرغم من وثنيته، فقد كان معتدلاً فيما كتبه عن المسيحية. ولشهيد رأي آخر فيه لأنه وصف العرب[1] بما يلي: ".. طباعهم فظة وملابسهم رثة تكشف عن أجزاء من أجسامهم، وهم مرتزقة متعطشون للدماء"، حيث أعتبرهم قوة هدم وتدمير في الدولة.

رافق أميانوس الامبراطور يوليانوس في حملته الفارسية وشهد مقتله. وقد عرف العرب في السلم وفي الحرب من خلال إقامته في المشرق، لذلك تعد ملاحظاته مهمة خاصة في القضايا والمسائل العسكرية. ودرج على الإشارة إليهم في مصنفه التاريخي بطريقة غامضة كأنما لا يريد أن يعطيهم هوية أو اسماً محدداً أو صفة دائمة، بحيث يفضي ذلك إلى احتمال الظن، في أحسن الأحوال، إلى عدم الرغبة بالاعتراف بهم كمجموعة بشرية واحدة تجمعهم مقومات وصفات متعددة، فمرة يشير إليهم كسكيناتي

---

[1] – انظر شهيد في كتابه "Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, pp.173".

(عرب الخيام)، وثانية كسرقيين[1]، وأخرى كعرب رحل، وأحياناً كمقيمين.. ألخ. لذلك، يمكن تلمس رؤية أميانوس الدونية لهم من بين السطور. لكنه كتب أيضاً عن عاداتهم وسرعة وحيوية حركتهم الرشيقة والمدمرة في غزواتهم وغاراتهم، كما كتب عن اندماجهم الجغرافي وملابسهم وطريقة امتطائهم السريعة للخيول والإبل، وعدم حبهم للزراعة، وعدم انسجامهم مع القوانين، وعن عاداتهم في الزواج، وعن طعامهم وشرابهم ومسكنهم. لكنه أكد رواية المصادر العربية التي جاءت بعد الإسلام بأن العرب المتحالفين كانوا بالفعل يحكمون من قبل ملوكهم[2].

تجاهل أميانوس رواية ما قدمه عرب التحالف وما قاموا به وما فعلوه؛ من إسهامهم في حملة يوليانوس على الجبهة الفارسية، وامتعاضهم من موقفه، ثم اتفاقهم مع يويانوس (جوفيان)، ومن ثورتهم التي قادتها الملكة ماوية والمعارك التي خاضتها على مدى ثلاث سنوات ضد قوات والنس، ومن مشاركة فرسانهم في تراقية، وفي معركة هادرياناپولس (أدريانوبل) (أدرنة)، وفي دورهم في الدفاع عن القسطنطينية، بينما أسهب في الحديث عنهم بطريقة سلبية خلال حملة يوليانوس الفارسية، بل إنه حملهم مسؤولية مقتله!

كما جاءت رواية أميانوس، المؤرخ الوثني، منحازة إلى يوليانوس المرتد على حساب عرب التحالف الأرثوذكس الثائرين، فكان موقفه اختيارياً ومنحازاً وهو يسجل وقائع "مصنفه التاريخي Res Gestae" بعدم رواية وقائع تاريخية نظر إلى أهلها نظرة ليست محايدة. وربما كان انحيازه هذا مقصوداً ليتجنب رواية ماوية وثورتها في مصنفه التاريخي كمؤرخ معاصر للأحداث!

ولسوء حظ أميانوس ورؤيته غير المحايدة، فقد شهد انهيار العالم الذي رأى نفسه فيه، وذلك بانتصار المسيحية وصعود البربرية، وهو الذي كان يعتبرهما عاملين من عوامل التهديد باضمحلال وانهيار الامبراطورية.

2- ولد سقراط المؤرخ القسطنطيني Socrates (380-440/442) م في مدينة القسطنطينية وأخذ فيها أصول اللغة عن أمونيوس النحوي. ودرس فقه اللغة، ومارس المحاماة لمدة ثم اعتزلها. وكتب تاريخه المشهور متحرياً الصدق والتدقيق مع سهولة العبارة. ووقع تاريخه في سبعة كتب متمماً به على تاريخ أوسيبيوس من تنصر قسطنطين حتى عام 440 م. وعد سقراط مؤرخاً كنسياً.

ويعتقد أنّ سقراط جمع رواياته عن أسقف ماوية العربي موسى، ولوكيوس الأريوسي الاسكندراني، من سجلات امبراطورية مدنية ومن سجلات كنسية أيضاً. ورغم أنّ سوزومن لم يشر إلى سقراط كأحد مصادره إلا أنه يعتقد أنه أخذ عنه ومنه.

---

[1] – للتفصيل، انظر الفصل التاسع من كتاب شهيد "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق، 2008.
1- الرأي الغالب أن معنى سراكنوس هو (الشرقيين) Sarraceni، ومفردها Sarracenus. وهو اسم أطلقه الغرب على العرب قبل الإسلام. ويمكن أيضاً لمن أرد الزيادة عن هذا الموضوع، العودة إلى كتابي "أسلافنا العرب"، إصدار وزارة الثقافة السورية – المحقق.

[2] – Ammianus, RG, XVIII, 2, 13 / أميانوس في"مصنفه التاريخي، 18، 2، 13".

3- ولد المؤرخ الكنسي سوزومن Sozomen (391-450) م في فلسطين وظهرت نجابته منذ صباه، فتضلع في علوم الرياضيات واستيعاب الأسفار المقدسة. قصد القسطنطينية وتعاطى مهنة المحاماة فيها، لكن ميله إلى التاريخ غلب عليه، فألف تاريخه المشهور في تسعة كتب؛ اشتمل الأول والثاني منها على مجمل الأحداث من ميلاد السيد المسيح (ع) إلى خلع ليكينيوس[1]. والكتابان مفقودان. أما باقي كتبه فتؤرخ حتى وفاة الامبراطور هونوريوس سنة 423 م.

أضاء تاريخ سوزومن الكنسي (Historia Ecclesiastica: HE, VI.38) بشكل واسع ومفيد على التاريخ المسيحي للعرب وعلى تاريخ العلاقات العربية البيزنطية في القرن الرابع، بحيث تناول بشكل رئيسي النشاطات العسكرية والسياسية والدينية والثقافية في تاريخ عرب التحالف مع بيزنطة في القرن الرابع، والتي منها :

أ – ثورة ماوية خلال فترة والنس، وتنصيب موسى كاسقف للعرب الشرقيين الذين أخذوا بالمذهب الأرثوذكسي.

ب – تحول قبائل بني صالح إلى المسيحية، فكان زوكوم/زوكوموس/زكرياZokomos هو الشخصية التي أسست لصعود بني صالح نهاية القرن الرابع، والخامس، وذلك بعد سقوط التنوخيين.

ج – تطور العرب الديني كأبناء لإسماعيل بين بداية المسيحية وفجر الإسلام.

د – تاريخ الشعر العربي في النصف الثاني من القرن الرابع. إذ كان سوزومن أول من كتب شهادة عن الشعر العربي القديم وأناشيده.

وكان اهتمام سوزومن بتاريخ العرب ينبع من الاعتبارات التالية:

أ- اهتمامه بالمسيحية والأماكن المقدسة في فلسطين موطنه الأصلي. وقد اندلعت ثورة ماوية على حدود ولاية المشرق ليس بعيداً عن موطنه الأصلي. ودارت بعض معاركها على أرض فلسطين.

ب- كفلسطيني من بيثيليا (بيت إليا) Bethelia وكمؤرخ مسيحي اهتم بتحول أبناء ابراهيم العرب إلى المسيحية بعد تحولهم إلى اليهودية.

ج – تحول العرب بواسطة الرهبان والقساوسة الذين أقاموا بينهم، والذين كان من بينهم عائلة سوزومن الوثنية كنسالك يعيشون في الصحراء قبل أن يتحول جده إلى المسيحية.

4- عد المؤرخ الكنسي القديس جيروم Jerome من مشاهير علماء الرومان (331-420) م. ولد في ستريدون من أعمال دلماشيا (كرواتية الآن). ودرس اليونانية واللاتينية والأدب والفصاحة في روما. زار غالية وبريطانية وسورية. واعتزل في أنطاكية ودرس العبرانية والكلدانية، وزار الأماكن المقدسة سنة 376. ثم عاد إلى الغرب، ثم إلى المشرق

---

[1] – شارك قسطنطين في ولاية المشرق، واختلف معه على خلفية سياساته المسيحية، إذ كان ليكينيوس وثنياً متحمساً ضد المسيحية. قتل مع ابنه بمعرفة قسطنطين سنة 324، مع أن زوجته وأم ولده هي شقيقة قسطنطين.

مرة أخرى في عام 387 م، وختم حياته هناك بأن أقام في صحراء خلقيس[1]، ليس بعيداً عن حلب المنطقة التي سكنها التنوخيون، وكان المكان الثاني الذي أقام فيه هو بيت لحم، بالقرب من الأماكن التي دارت فيها غارات العرب السرقينيين بقيادة ماوية على أطراف الامبراطورية الشرقية. وقد رسم صورة العرب على أنهم عبدة الإلهة العُزّى، برابرة وغزاة مغيرون يخربون الأديرة ويقتلون القساوسة ورجال الدين الجديد، وهم معاول هدم في جسد الامبراطورية.

ترك جيروم مؤلفات كثيرة، أهمها: ترجمة تاريخ أوسيبيوس إلى اللاتينية سنة 387 م، أفادنا كثيراً فيما كتبه عن تاريخ السلوقيين في سورية. وقد بقي تأثيره مدة طويلة في الغرب اللاتيني، بحيث رسخت صورته التي رسمها عن العرب في الذهن الغربي حتى أزمان طويلة قادمة. وكان جيروم رومانياً حتى نخاعه رغم مسيحيته، ولم يكن متعاطفاً مع شعوب المشرق بشكل عام.

4

بدأ التحالف العربي البيزنطي الأول منذ عهد قسطنطين حتى ثيودوسيوس الأول (305-395). حيث تغطي دراسة هذه الفترة كامل تاريخ القرن الرابع. إذ يقتضي المُراد دراسة العلاقات العربية- الرومانية والبيزنطية مع كل إدارة من الإدارات الامبراطورية التي تناوبت على السلطة خلال هذه المدة شديدة الأهمية في تاريخ الامبراطورية المثير.

ينعكس الحضور العربي في المشرق، من ضمن أشياء أخرى، في ثلاث ولايات سميت بولايات العربية؛ الأولى هي ولاية العربية التي أنشأها ترايانوس سنة 106م بعد أن أنهى مملكة الأنباط وضمها إلى الامبراطورية وأنشأ ولاية العربية وجعل عاصمتها بصرى الشام بدلاً من البتراء عاصمة الأنباط، والثانية فيما بين النهرين، والثالثة في مصر شرقي النيل، حيث بقيت الأخيرة تابعة للمشرق الروماني حتى فصلها ثيودوسيوس الأول عن المشرق سنة 381 م. وتعد مسألة الانصهار العربي في المشرق مهمة، كونها تاتي من بين أسباب متعددة، أهمها الصحراء والمناطق الجافة التي كانت دافعهم الدائم للبحث عن توفر سبل العيش المأمول بالهجرة نحو الشمال مخترقين الأطراف الشرقية للامبراطورية. لذلك وجب على المخطط الروماني إيجاد متحالفين عرب للدفاع عن الحدود الشرقية للامبراطورية من غارات عرب الجزيرة المستمرة، وضد الطموحات الفارسية، وللمحافظة على النظام في هذه الأطراف.

اتخذ التحالف العربي مع بيزنطة أشكالاً مختلفة خلال فترة القرن الرابع. فرغم معرفة كل قبيلة من قبائل التحالف بفرادة شخصيتها الخاصة وولائها القبلي، إلا أن الإدارة الامبراطورية استطاعت توظيف الولاء القبلي المرتبط ببعضه بحيث شكل نوعاً من الاندماج العام لغالبية هذه المجموعات العربية. وهنا، يظن أن الرغبة وحدها ليست

---

[1] – يوجد في سورية عدة مدن باسم خلقيس أو خالقيس؛ أهمها خلقيس قنسرين، وخلقيس عنجر، والمقصود هنا: خلقيس قنسرين – المحقق.

كافية لتقديم تفسير قومي مبكر لنجاح اندماجٍ كهذا، إذ يقول المسعودي أنّ الرومان صنعوا من التنوخيين ملوكاً على عرب المشرق.

أثبتت تنوخ أنها كانت أبرز مجموعات التحالف في المشرق في القرن الرابع بلعب دورها في المعارك الدائرة بين الفرس والروم، وذلك من خلال سلطانها على القبائل على طول الفرات وفي غربه. إضافة إلى أنّ تنوخ نفسها كانت اتحاداً من عدة قبائل. كما أثبتت تنوخ دورها بتحالفها مع بيزنطة في المعارك التي دارت بين القوط والروم في تراقية وهادريانابولس والقسطنطينية.

ولكن، لَم يتبين بوضوح كيف كانت العلاقات تربط بين عرب التحالف التنوخيين في الشمال وعرب اللخميين في الجنوب في القرن الرابع، ولم يتبين بوضوح أيضاً كيف كانت بنية وتنظيم الحياة في جوانبها المدنية والاقتصادية والاجتماعية، وإلى حد ما الثقافية والسياسية في هاتين المجموعتين. كما لم يتبين أن أي من المجموعتين حصلت من خلال إقامتهما على أي نوع من أنواع السيادة، بالمعنى السياسي والإداري، على الأرض التي عاشت عليها. كذلك لم يكن واضحاً بشكل قاطع أن هؤلاء المتحالفين العرب في الشمال أو الجنوب قد حازوا على المواطنة الرومانية، غير أنّ بعض قادتهم منحوا حق المواطنة مقابل خدمات استثنائية قدموها للإدارة الامبراطورية. وقد اعتنق التنوخيون المسيحية قبل هجرتهم من ميزوبوتاميا إلى غرب الفرات، بينما اعتنق المسيحية من كان منهم يقيم في سورية، وذلك نتيجة للسياسات الامبراطورية الرسمية. وقد ظهر حضور التحالف العربي في القرن الرابع من خلال ملوكهم: اللخمي امرؤ القيس، الملك الحواري زوج ماوية، والملكة المحارية ماوية.

كانت المعاهدات غير المتكافئة التي عقدت على انفراد بينهم وبين بيزنطة تشترط عليهم الاشتراك في الحرب ضد أعداء الامبراطورية، سواء كانوا من الفرس أو القوط أو عرب شبه الجزيرة، وحماية حدود وأطراف الامبراطورية وطرق مواصلاتها في المشرق، مقابل أجور ومعونات وأعطيات سنوية أو موسمية متفق عليها. وقد تبين من خلال السياق العام للروايات التي كتبت عن ثورة ماوية أنها كانت تحكم على العديد من القبائل العربية في منطقة المشرق في فترة الأزمة التي عاشتها مع الإدارة الامبراطورية. بينما أشارت وثيقة النمارا إلى تفاصيل أكثر عن ملك كل العرب امرئ القيس وأولاده الذين عينهم زعماء على القبائل العربية وهم تحت إمرته. وقد أدت ثورتا عرب ماوية إلى تغير في التكتيك الروماني - البيزنطي للتعامل مع عرب التحالف بحيث أعيد ترتيب التحالف على أسس لا تسمح لهؤلاء المتحالفين العرب بتشكيل سياسي أو عسكري يمكن أن يتطور إلى تهديد للامبراطورية كما حدث في تدمر قبل قرن، وكما حدث في الحشد للحرب التي أعلنتها ماوية.

ومن المؤسف أنه لا يوجد حتى الآن، تحليل متتابع الحلقات لجميع أنواع المصادر التي تعتني بتاريخ العرب الشماليين حتى ظهور الإسلام.

الملك الحواري زوج ماوية

ذكرت المصادر العربية أنَّ اللخميين والتنوخيين المتحالفين مع بيزنطة في القرن الرابع شكلوا تحالفاً بينهم. وقد رُبطَت المجموعتان بروابط كثيرة حسبما ذكره المؤرخون العرب. فتحالفهم تحت اسم واحد ربما تم من خلال تزاوجهم الدائم قبل وبعد فرار امرئ القيس أو هجرته إلى الأراضي التابعة لبيزنطة.

كان الحواري آخر ملوك قبائل التحالف التنوخي في جنوب ووسط سورية وشمالها. وجاء في كتاب نينا بيقوليفسكايا "العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ص 58: " الأقرب إلى الاحتمال هو الافتراض بأنَّ زوج ماوية كان ينتمي إلى فرع جانبي من اللخميين، هذا بينما حملت ماوية اسم عشيرتها الأزد على نحو ما تبين من رواية حمزة الأصفهاني". وقد ارتقت ماوية سدة المُلك بعد موت زوجها سنة 375 م، وذلك لعدم وجود وريث له. فقادت فرسانها في ثورة تمرد أقض مضجع الحكم الروماني في المشرق، بحيث شملت هذه الثورة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط حتى فلسطين الجنوبية.

ويتحدث المسعودي في "مروج الذهب"، ج2، ص 231: "جاء ملوك التحالف التنوخي في القرن الرابع على الترتيب: النعمان بن عمرو بن مالك، عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك، الحواري بن النعمان بن عمرو بن مالك. وقد سبقهم جذيمة وعمرو بن عدي مؤسس الأسرة اللخمية وابنه امرؤ القيس".

كانت منازل التنوخيين في مناطق حلب وحماة وحمص شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً. وقد أشار ياقوت الحموي في "معجم البلدان"، ج5، ص 156، إلى: " أنَّ مدينة معرة النعمان في شمال سورية سميت على اسم أحد ملوك تنوخ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تيم الله وهو تنوخ بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة". وهذا يعني أنَّ صلة النسب والقربى بين تنوخ وبني الساطع في الحيرة (نسبة إلى الدير المسمى دير حنا الذي كان لبني الساطع) كانت واحدة، أي أنَّ بني الساطع من تنوخ. وقد لقب ملك تنوخ الأول في الحيرة جذيمة بالأبرش والوضاء، والذي ربما جعله التنوخيون على الحيرة بعد جذيمة (الساطع)، مثلما فعل التنوخيون فيما بعد باحتمال إطلاقهم عليه نفس الصفة في شمال سورية في القرن الرابع. وبالإشارة إلى مسيحية تنوخ يبدو لقب الساطع ذو دلالة دينية، حيث كان الاسم الذي عرف به الملك التنوخي زوج ماوية هو من خلال لقب "الحواري" بمدلولها الإيماني المسيحي (تشبهاً بحواري السيد المسيح)، مما يعني أنَّ الحواري كان مسيحياً جيداً. فكلمة حواري في القاموس[1] تعني: " القصار، أي الذي يقصر الثياب أو النسيج بالنقع لتبييضه، والحواري هو الحميم والناصح، وقال بعضهم: الحواريون هم صفوة الأنبياء الذين أخلصوا لهم، والحواريُ: البياضُ، وهذا أصل

[1] – الزبيدي: "تاج العروس"، ج11، ص 103.

قوله (ص) في الزبير: "حواريٌّ من أمتي"، وهذا كان بدأه، لأنهم كانوا خلصاء عيسى (ع) وأنصاره؛ وإنما سموا حواريين لأنهم كانوا يغسلون الثياب، أي يحوورونها، وهو التبيض. ومنه قولهم: امرأةٌ حَوارِيَة، أي بيضاء. فلما كان عيسى (ع) نصره هؤلاء الحواريون وكانوا أنصاره دون الناس؛ قيلَ لناصر نبيه حواريٌّ إذا بالغ في نصرته، تشبيهاً بأولئك".

فالحواري إذاً هو الملك الثالث والأخير في تحالف تنوخ، وهو ابن الملك الأول النعمان. وقد كان أهم الملوك الثلاثة. وربما كان هذا الملك يقوم بتبييض الثياب كنوع من الورع والتقوى والتواضع كمسيحي، فقد كان التنوخيون متحمسين مخلصين للعقيدة المسيحية، وربما كانت أسماؤهم تلخص إيمانهم. ويشير شهيد في الصفحة 380 من كتابه بالإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، إلى أنّ الملك التنوخي "الحواري" هو زوج الملكة ماوية، كما يقول شهيد بإمكانية كون الملك الأول في لائحة الملوك التنوخيين الثلاثة هو نفسه أمرؤ القيس صاحب وثيقة النمارا؟

ويشير سوزومن إلى موت ملك السرقيين سنة 375م، بأنه زوج ماوية الملك وليس الفيلارخ (شيخ قبيلة أو عدة قبائل) دون أن يعطيه اسماً، كما يشير إلى المعاهدة المعقودة بين الملك ويويانوس مباشرة بعد مقتل يوليانوس سنة 363م، وذلك بانضمام الحواري إلى يوليانوس (جوليان) عند الرقة في الحملة على المدائن. ودامت فاعلية المعاهدة خلال معظم عقدي الستينات والسبعينات خلال حكم والِنس، حتى تم نقضها من جانب ماوية بإعلان الثورة بعد موت زوجها.

تتعلق المعاهدة عادة بطرفين متعاهدين، كانت تتم عادة بين ملوك عرب كانوا أصحاب سلطة على قبائل ومجموعات عربية كبيرة وصغيرة عليها شيوخ، من طرف، وبين الإدارة الامبراطورية من طرف ثان. وقد كان ارتباط هؤلاء بالمعاهدة لقاء القيام بواجبات ما تطلبه الإدارة الرومانية مقابلَ مكافأة عينية تغلب على العلاقات بين الأمبراطور وزعماء ومشايخ القبائل (الأعوان)، في حين تغير الأمر في الفترة البيزنطية بحيث أصبح القيام بما تطلبه الإدارة البيزنطية مقابل أعطيات مادية. وكان على المتحالفين العرب، حسب بنود المعاهدة، القتال إلى جانب بيزنطة ضد الفرس كجزء من الجيش الأمبراطوري في المشرق، والمحافظة على النظام وحراسة وحماية الحدود من غارات أعراب شبه الجزيرة العربية. وكان يقتضي تجديد المعاهدة من قبل الملك الجديد بعد موت من وقعها، وهذا يعني أنّ المعاهدة تعتمد في بقائها على من وقعها من الطرفين وليس على مؤسسة الحكم، بحيث يتم تجديدها عادة بموافقة الطرفين، إن كانت العلاقات بينهما مناسبة للتجديد.

كان زوج ماوية ملكاً على قبائل عربية عديدة لعلها كانت تشكل اتحاداً لخمياً تنوخياً قوياً. وبعد موته تولت زوجته ماوية زعامة هذا الاتحاد. إذ يبدو أنها كانت ملكة في حياته، وإلا ما كانت تحصل على هذا اللقب من الامبراطور البيزنطي الذي عقد المعاهدة مع زوجها. وبدلاً من السعي لتجديد المعاهدة بعد موت زوجها قامت بإعلان الحرب على الإمبراطور والِنس (فالينز).

انتهت المعاهدة التي وقعها والنس مع ماوية بعد موته سنة 378. فكان على الحاكم الجديد، ثيودوسيوس الأول، تجديد توقيع المعاهدة. إلا أنه لم يكن متحمساً للسير بالعلاقات العربية– البيزنطية إلا بالشكل الذي يخدم مصلحة بيزنطة.

لم يذكر أي مصدر وجود وريث ذكر للملك زوج ماوية، عدا سوزومن الذي أشار إلى وجود ابنة. وهذا يدعو للأخذ باحتمال واحد من اثنين: لا يوجد له ولد أو أولاد ذكور، وأنّ الزوجة كانت شخصية مميزة عند زوجها وعند عرب التحالف كي تعتلي العرش بعده. أو أنّ الملك ترك وراءه ولداً صغيراً أصبحت أمه ماوية وصية على العرش، كما حدث مع زنوبيا قبل قرن من الزمن، ومع سميراميس قبل أكثر من أحد عشر قرناً.

تزامن موت الملك الحواري (زوج ماوية) مع موت أسقف العرب ثيوتيموس الذي كان قد وقع مع الأساقفة الأرثوذكس المشاركين في مجمع أنطاكية إعلاناً موجهاً إلى الإمبراطورالمسيحي الأرثوذكسي يوبانوس (جوفيان) سنة363م، يقول بوحدة الأب والابن. ولما جاء والنس، الذي كان من أتباع الأريوسية، أقصى عدداً من الأساقفة الأرثوذكس العرب ونفاهم إلى فلسطين الأولى وإلى ولاية العربية ومصر، وعين بدلاً منهم أساقفة أريوسيين من أتباعه.

ويروي سقراط تفصيلات أكثر عن ماوية وابنتها التي تزوجت من وكتور (فكتور) قائد سلاح الفرسان في الجيش الروماني بنهاية السبعينيات بعد توقيع معاهدة السلام بين ماوية ووالنس، كما يذكر أن الملك الحواري حكم مدة عشرين عاماً، لذا كان الحواري"ملك كل العرب" خلال فترة حكم قسطنطيوس ويوليانوس ويوبانوس ووالنتيانوس ووالنس. ووصف سوزومن زوج ماوية بالملك وليس بالفيلارخ، كما ذكر أنّ موسى ريثاو هو نفسه موسى ماوية.

التنوخيون (عرب التحالف) والمسيحية

أخذت المسيحية في القرن الرابع تنتشر بين القبائل العربية في تجمعات المدن والأرياف، وذلك نتيجة لانتشار النساك والرهبان خاصة بين القبائل، ونتيجة لازدياد التواصل التجاري بين المدن والحضر، وإلى السعي وراء الحصول على امتيازات خاصة من بيزنطة التي أصدر امبراطورها قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو سنة 313 م، الذي أجاز حرية الدعوة المسيحية في الدولة، كما رعى انعقاد المجمع المسكوني الأول في نيقية سنة 325 م لحل الخلافات بين أتباع المذهبين: الأريوسي والأرثوذكسي.

لا شك أنّ جذور نظام التحالف الروماني مع عرب التحالف والفيلارخات في القرن الرابع والخامس في الفترة البيزنطية يعود في بداياته إلى الفترة الرومانية في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع عندما تحالف الرومان مع زعماء القبائل أو المناطق العربية. إلا أنّ نظام التحالف هذا تطور في العهد البيزنطي وأصبح أساساً للعلاقات العربية–

البيزنطية. مع ملاحظة الاختلاف بين هذه التحالفات وتحالف تدمر مع الرومان في القرن الثالث، ثم انفكاكه عنها، والذي شهد صعود وسقوط تدمر كقوة ملكية عربية اعتمدت أساساً على المدينة – الدولة.

ويشهد المؤرخون الكنسيون البيزنطيون على أنّ ولاء وحماس عرب التحالف للعقيدة المسيحية والدفاع عن المذهب الأرثوذكسي خلال حكم الإمبراطور والنس لم يكن محل شك أبداً. غير أن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا رواية تحالف العرب التنوخيين والتزامهم بالمسيحية قبل وبعد والنس. وجاءت روايات الإخباريين العرب فيما بعد لتؤكد هوية عرب التحالف التنوخي الذين ارتبطوا بتحالفاتهم مع بيزنطة في القرن الرابع.

استطاع قسطنطين الكبير (الأول)، بعد تنحي ديوقلتيانوس عن عرش روما سنة 305م، وهو في الستين، أن ينجح بالتغلب على خصومه ومنافسيه في الحرب الأهلية التي استمرت لسبعة عشر عاماً، وأن يعيد توحيد الامبراطورية ويأخذ على عاتقه تنفيذ الاصلاحات التي بدأها سلفه ديوقلتيانوس.

وينظر إلى قسطنطين الكبير بأهمية خاصة لما قام به من تغيير وجه التاريخ، وذلك بتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم جديد ستشهد أحداثه تطورات هائلة في السياسة والعقائد والأحلاف، إذ اعترف بالديانة المسيحية رسمياً عند إعلانه مرسوم ميلانو سنة 313م، وذلك بمنح المسيحيين حرية العبادة والدعوة في جميع أنحاء الامبراطورية، إلا أنه لم يصاحب هذا الإعلان الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للدولة، كما نقل العاصمة من روما إلى مدينة بيزنطة الواقعة على ساحل البوسفور، وأطلق عليها اسم القسطنطينية نسبة إلى نفسه، كما أدخل مبدأ الحكم الوراثي، وعمل على تقليص عدد أفراد الفرق العسكرية، وفتح الأبواب أمام انخراط البرابرة وخاصة الجرمان للتجنيد في الجيش النظامي. وكان مُشَرعاً ناجحاً، إلا أنّ كفاءته الإدارية كانت موضع شك، لأنه ضاعف من الضرائب وحول بطريقة إدارته طبقة المزارعين والصناع إلى طبقة مسحوقة لم يسمح لها بتغيير مهنها. لكنّ أهم ما قام به كان إصدار مرسوم ميلانو ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية.

قسمت الامبراطورية بعد موت قسطنطين بين أبنائه الثلاثة، إلى أن تمكن أحدهم وهو قسطنطيوس أن يوحد الإدارة الامبراطورية تحت قيادته، وذلك بعد مقتل أخويه قسطنطين الثاني وقونسطانس. وقد استمر قسطنطيوس حتى سنة 361م. إلا أنّ أزمات الامبراطورية بدأت تتسارع دون أن يتمكن الأباطرة يوليانوس (361-363)، يوبانوس (363-364)، ووالنس (364-378) من وقف الأخطار المحدقة بالدولة. فقتل يوليانوس سنة 363 م أثناء الحرب على الجبهة الفارسية، فاضطر يوبانوس الذي أعلنته الفيالق في جبهة القتال إمبراطوراً إلى شراء السلم من الفرس بالتنازل عن بلاد الرافدين وبعضاً من أرمينية. وأما والنس فقد واجه مشكلة مركبة أخطر مما واجه سابقيه، إذ أنه واجه الفرس وثورة عرب التحالف بقيادة ماوية التي استمرت ثورتها لثلاثة أعوام (375-

378)، وخطر القوط الذين تمكنوا من سحق الجيش الروماني وقتل الامبراطور نفسه في معركة هادريانابولس (أدريانوبل) (أدرنة). وينظر إلى والنس كنقطة تحول في تاريخ الامبراطورية البيزنطية، حيث بدأ ضغط القبائل الجرمانية والهون الآسيوية يشكل خطراً حقيقياً على كيان الدولة. فأخذ دور الكنسية يتصاعد إلى مستوى عظيم من القوة والثروة والتنظيم حتى أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرسمية في فترة ثيودوسيوس (378-395). بذلك أصبح مصير الامبراطورية معلقاً بين قبائل البرابرة، وخاصة الجرمانية منها، ورجال الكنيسة.

أجل إلقاء الضوء على الأسباب المروية لثورة عرب التحالف تحت قيادة ملكتهم ماوية، ينبغي تقديم استعراض سريع لمجريات الخلاف بين المذاهب المسيحية خلال هذه الفترة.

يذكر المؤرخ الكنسي أوسبيوس القيصري[1] Eusebius الرواية التالية التي نسبها إلى قسطنطين نفسه: خلاصتها أنه بينما كان يزحف على روما لهزيمة خصمه ماكسينتيوس Maxentius على جسر ميلويان[2] Milvian سنة 312م، رأى عند المغيب هالة من النور على شكل صليب تتلألأ في كبد السماء، وتحتها عبارة: in hoc signo vince": ستنتصر بهذا الرمز"، ورأى في منامه تلك الليلة صورة السيد المسيح ومعه نفس الصليب الذي رآه مضيئاً عند الغروب، يأمره أن يتخذ الصليب شعاراً له وأن يقوم بالزحف على عدوه فوراً. فجاءت هذه الظاهرة وما تبعها من نصره على خصمه لتكون إحدى الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واستصدار مرسوم ميلانو وعقد مؤتمر نيقية فيما بعد سنة 325م للتوفيق بين المذهبين الكنسيين الأساسيين الأرثوذكسية والأريوسية[3].

عمل قسطنطين على محاولة إرضاء أطراف المسيحية الناشئة المتعارضة: الأثناسيوسية (الأرثوذكسية) والأريوسية دون أن يتخلى عن ديانة الدولة الوثنية أو حتى أن يتخلى عن عبادة الامبراطور، فاختار أن يقيم نجاحه في تسييس الدولة على ثلاثة دعائم رئيسية: العبادة الامبراطورية الوثنية، الأثناسيوسية، والأريوسية. فاحتفظ بلقب

---

[1]– ولد في فلسطين (265– 340) م، ودرس في أنطاكية وأكمل دروسه في الصعيد، ثم أنشأ مدرسة قيصرية على الساحل الفلسطيني. استفاد من المكتبة العظيمة التي جمعها أحد أصدقائه. وصار أسقفاً على قيصرية سنة 315 م. انكب على دراسة التاريخ، وخصوصاً الديني، ولقب بأبي التاريخ الديني مثلما سمي هيرودوت بأبي التاريخ الدنيوي. وقع تاريخه "التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica" في عشرة كتب، بدأ فيها من ميلاد السيد المسيح إلى326م. وله غيرالتاريخ المذكورعدة مؤلفات: الإعداد الإنجيلي Praeparatio Evangelica، والكرونيكون Chronicon الذي يروي فيه حوليات التاريخ منذ خلق العالم، والأخير كتاب أمجاد قسطنطين Laudes Constantine.

[2] – اسم الجسر باللاتينية هو ميلويوس Milvius، ويقع على نهر التبريس (التيبر) على بعد ثلاثة كيلومترات عن روما – المحقق.

[3]– يرى عرفان شهيد استاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون، وصاحب المؤلفات الرئيسية الخمسة في دراسة تاريخ العلاقات العربية– الرومانية– البيزنطية منذ الاحتلال الروماني للمشرق عام 64 ق.م حتى معركة اليرموك في 20 آب 636 م، أن دوافع قسطنطين لتبني المسيحية لم تكن إيمانية وإنما كانت فكرية وسياسية، لإدراكه بانتصار المسيحية في صراعها مع الوثنية الرومانية. انظر الفصل السادس من كتابه "روما والعرب"، الذي يشير إلى إمساك قسطنطين بالعصا من وسطها، فتسامح مع المسيحيين ولم يضطهد الوثنيين. انظر أيضاً ابن الأثير، ج1، ص 396 من "الكامل في التاريخ" تحت عنوان "سبب تنصر قسطنطين"، والذي يرده ابن الأثير إلى أسباب سياسية محضة.

الكاهن الأعظم، وهو لقب وثني، وكان بلاطه يغص بالأساقفة والقساوسة والرهبان من مختلف المذاهب المسيحية جنباً إلى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين، كما نقش شارات المسيحية والوثنية على النقود التي سكها. وكان قتله لزوجته وأحد أبنائه يدل على مخالفة صريحة لتعاليم الدين الجديد . ولذلك يمكن القول أنَ قسطنطين بقي حتى موته وثنياً مع الوثنيين وأريوسياً مع الأريوسيين وأثناسيوسياً مع الأثناسيوسية. وشهد عهده بداية الخلاف بين المذهبين. ثم تحول هذا الخلاف المذهبي إلى أعمال عسكرية عدائية بين عرب التحالف وقسطنطيوس في فترته الأولى.

بدأت خلافات العرب مع قسطنطين في نهاية عهده (336م)، وذلك بعد نفيه أثناسيوس. فحُلت المعاهدة بشكل آلي بين العرب والرومان بعد موته، فتولى ابنه قسطنطيوس الأريوسي المذهب على الجزء الشرقي من الامبراطورية، فثار العرب بقيادة ملكهم عمرو بن النعمان بن عمرو بن مالك شقيق الحواري زوج ماوية. إلا أنَ قسطنطيوس تصالح معهم سنة 338، وبقي هذا الصلح نافذاً طوال الأربعينات، من هنا نرى أنَ الخلاف لم يأت بعد موت الحواري مباشرة، فقد كانت جذوره خامدة تحت الرماد منذ بدايات الخلافات المذهبية، إلى جانب أسباب أخرى، اقتصادية وسياسية قد تكون أقل في الأهمية من السبب المذهبي.

ويمكن هنا أن نستبق ونقول: إنَ ثورة الغساسنة في القرن السادس ضد بيزنطة جاءت أساساً لأسباب مذهبية أيضاً، وذلك بسبب قيام يوستنيانوس بإعدام الأساقفة المنوفيزيين، لمخالفتهم مذهبه. وهنا يبدو تشابه الأسباب كبيراً مع أسباب ثورات عرب التحالف التنوخي في القرن الرابع عندما بني سبب التمرد على اساس مذهبي بالدرجة الأولى. فبعد موت الحواري، قرر الامبراطور والنس، الذي كان يعتقد بآراء مخالفة لمعتقدات المذهب الأرثوذكسي الذي كان يؤمن به المسيحيون العرب في سورية، أن يجعل الدولة تأخذ بالمذهب الأريوسي. ولذلك قرر عدم الاستجابة لمطالب العرب وتجريد الأسقف العربي من منصبه كأسقف أرثوذكسي، مصراً بالوقت نفسه على تنصيب أسقف مكانه يؤمن بالمعتقدات الأريوسية المخالفة لما كان المسيحيون العرب الأرثوذكس يؤمنون به، وهو وجود طبيعة واحدة غير مجزأة للسيد المسيح، بحيث تتحد طبيعته بطبيعة واحدة؛ جزئياً إلهية، وجزئياً إنسانية. بينما المعتقدات الأريوسية Arianism، نسبة إلى لوكيوس آريوس Lucius Arius الأسكندراني (250-336) م، *تقول*: إنَ السيد المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية، ولكن من أفضل المخلوقات الموجودة، وأن الإله وجود دائم لا يمكن إدراكه، وأنَ الابن لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإنَ الإله الأب لايقبل الانقسام لنفسه. وقد كتب الدكتور مصطفى العبادي في كتابه "مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي"، ص 294، قائلا: (أما الدعوة الأريوسية فهي نسبة إلى آريوس Arius الذي كان من أصول ليبية وتعلم في أنطاكية، ودرس تعاليم مدرسته التي تعلمها في أنطاكية، واصبح أحد رجال الكنيسة في

الاسكندرية. ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل، ونظراً لتعلمه في مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت تسود فيها فلسفة أوريجينوس (أوريجين) الدينية التي كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية، فقد بقي محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها في الاسكندرية بصورة متطرفة. وسرعان ما صاغ آراءً مستقلة في العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة، مما أوقعه في صدام عنيف مع اسكندر أسقف الاسكندرية في ذلك الوقت.

وتتلخص عقيدة آريوس بأن ابتدأ بموقف أفلاطون (بأنَ الإله وجود دائم أولاً ولا يمكن إدراكه؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية في أنَ "الإبن" لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، ولذلك يلزم منطقياً أنَ وجوده كان لاحقاً لوجود الإله، وبعبارة أخرى أن "الإبن" له بداية، في حين أنَ الإله "الأب" قديم ودائم. وأخيراً بما أنَ الإله "الأب"لا يقبل الانقسام فلا بد أنَ"الإبن"خلق من العدم). ويستطرد العبادي قائلاً: (صدمت هذه الآراء كثيرين من رجال الكنيسة في الاسكندرية الذين كانوا يعتقدون أنَ الإبن مثل الأب قديم ودائم وأنهما من طبيعة واحدة؛ وقد تحرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطرالأسقف اسكندر إلى عقد مجمع القساوسة في مصر وليبية وأصدروا استنكاراً لعقيدة آريوس واعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة. لكنَ خطر دعوة آريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها في فلسطين وليبية وآسية الصغرى. حيث لم يمكث اسكندر مكتوف الأيدي بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس في الولايات الشرقية يحضهم بكل قوة على مقاومة دعوة آريوس في مناطقهم. في ذلك الوقت حاول الامبراطور قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصلح بين آريوس واسكندر بدون جدوى. فقرر عقد مجمع كنسي عالمي يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة في الشرق والغرب لوضع حد للإنقسامات المذهبية التي انتشرت في ذلك الوقت، وأرسلت الدعوة للاجتماع في مدينة نيقية Nicaea في آسية الصغرى سنة 325 م). لذلك، انعقد المجلس الكنسي للمرة الأولى في مدينة نيقية سنة 325 م برعاية الإمبراطور قسطنطين (305-337)م وتحت إشراف البابا سلفستر الأول، لمعالجة مسألة الهرطقة الأريوسية. وأصدر المجلس في نهاية جلساته المرسوم النيقي الأول[1] Nicene Decree؛ وهو ملخص للعقيدة المسيحية ضد العقيدة الأريوسية.

صار الخوض في المسائل اللاهوتية مفتوحاً أمام الجميع، فانقسم المسيحيون إلى فريقين وثارت البغضاء المذهبية والسياسية بينهما لأكثر من قرنين. ودار جدل عنيف ودام في بعض الأحيان بين الطرفين من أجل تحديد ماهية العلاقة بين المسيح الإبن والإله الرب. فقال المفكر آريوس Arius كاهن الاسكندرية وأسقفها بانَ المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، ولما كان المسيح الابن مخلوق للإله الأب فهو إذاً دونه ولا يمكن أن يعادل الابن الإله الأب في المستوى والقدرة الكلية. وبعبارة أخرى، فالمسيح مخلوق والمخلوق لا يمكن أن يكون إلهاً بالمعنى المطلق للكلمة، وإلا فإنَ المسيحيين يصبحون

---

[1] – انظر ص 376، الحاشية رقم 4 (قرارات المجمع المسكوني الكنسي الأول).

متهمين بعدم التوحيد من خلال عبادة إلهين. واعتبرت الأريوسية أن السيد المسيح لم يكن من نفس المادة الإلهية ولكن من أفضل المخلوقات الموجودة، وإن الإله وجود دائم لا يمكن إدراكه، وإنَ الابن لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى، فوجوده لاحق لوجود الإله، وبالتالي فإنَ الإله الأب لا يقبل الانقسام لنفسه. أما أثناسيوس Athanasius بطريرك الأسكندرية (328-336)، فقال بإنَ فكرة الثالوث المقدس تحتم ان يكون الابن مساوياً للأب تماماً وفي كل شئ بحكم أنهما من مادة واحدة، حتى وإن كانا كائنين متميزين. ويبدو أنَ اتباع مذهب أثناسيوس (الأرثوذكسي) أدركوا أنَ المسيحية تعتمد أساساً في دعوتها على مكانة السيد المسيح، بينما يبدو أنصار الأريوسية من الموحدين مما جعل مذهبهم يتوافق مع منطق المفكرين والمثقفين بتقييمه لمجمل العقائد المسيحية على أساس من المنطق والعقل، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم مع تفكير العامة الذين يحكمون بعواطفهم قبل عقولهم. ولم تلبث الأثناسيوسية أن سادت في بلاد الغرب اللاتيني، بينما سادت الأريوسية في الشرق الهليني. إذ يظهر هنا أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب، فقد كان معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء أريوسيين موحدين، بينما كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التي انتمى إليها رجال الكنيسة من الأثناسيوسيين (الأرثوذكس).

ولأنَ قسطنطين كان بالأساس مهتماً ببناء المُلك والدولة، رأى أن يدعو إلى عقد أول مجمع مسكوني في نيقية، الواقعة في آسية الصغرى، للتوفيق بين المذهبين المتخاصمين والخروج بصيغة موحدة للطرفين. فشارك نحو 300 مندوب من الشرق والغرب، ورأسه قسطنطين رغم أنه لم يكن معمداً. ولكن، وبدلاً من الخروج بصيغة توافق، قرر المجمع المسكوني إدانة آريوس ومذهبه ونفيه إلى إليريا[1] وإحراق كتاباته ومنع تداولها واضطهاد أتباعه ونفيهم. ومع ذلك استمرت الأريوسية نشطة في الأجزاء الشرقية الشمالية من الامبراطورية بحيث انتشرت بين القبائل الجرمانية من خلال نشاط المبشرين.

أيد قسطنطين الأثناسيوسية وهو في روما، ولما كان يفكر بنقل العاصمة إلى بيزنطة (القسطنطينية فيما بعد)، والذي تم سنة 330، استدعى آريوس من منفاه سنة 327م لمعرفته بقوة الأريوسية في الشرق الهليني[2]. وبرعاية قسطنطين تم عقد المجمع المسكوني الثاني في مدينة صور على الساحل السوري سنة 334م، والذي قرر إلغاء قرارات مجمع نيقية السابق وعفا عن آريوس وأتباعه ثم عزل أثناسيوس في العام التالي ونفاه إلى غالية حتى أطلق سراحه يوليانوس المرتد الذي لم يكن أمر أي من المذهبين يهمه. وقد أشاع أتباع آريوس أنه مات مسموماً في القسطنطينية سنة 336م، بينما ادعى خصومه أنَ موته إنما كان تنفيذاً لحكم الله العادل. ومات قسطنطين سنة 337م بعد أن تم تعميده على المذهب الأريوسي وهو على فراش الموت.

---

[1] - إليريا (إليرية) هي المنطقة التي تضم الآن كرواتية ومونتينيغرو وشمال ألبانية.

[2] - يدلل ذلك على أن قسطنطين كان على استعداد تام لتبديل ميوله المذهبية وفق ماتقتضيه مصالحه السياسية.

ثار الخلاف بين أبناء قسطنطين الثلاثة بعد اقتسام سلطة الامبراطورية بينهم، فعمل كل منهم على تقوية سلطانه من خلال تبني وتشجيع المذهب السائد في منطقة حكمه، فاتجه قسطنطيوس إلى تشجيع الأريوسية في الشرق، في حين شجع أخواه قسطنطين الثاني وقونسطانس الأثناسيوسية في الغرب وإليريا ووسط شمال أفريقية.

بعد وفاة قسطنطين الثاني ومقتل قونسطانس تولت المؤسسة البابوية ورجال الدين في الغرب الدفاع عن الأثناسيوسية (الأرثوذكسية)، وذلك بعد أن تم توحيد الامبراطورية تحت قسطنطيوس (350-361) الذي فرض المذهب الأريوسي على الغرب كما هو في الشرق. ولما جاء يوليانوس تخلى عن المسيحية وأعاد اعتبار الوثنية وحاول تحقيق نوع من التوازن بينهما، غير أنّ يوبيانوس (363- 364) أعاد الاعتبار من جديد للمسيحية بعد توليه العرش بعد مقتل يوليانوس، ثم أنّ والنس أقام الدولة على المذهب الأريوسي. ولما تولى ثيودوسيوس (378-395) أعاد الأثناسيوسية (الأرثوذكسية) إلى عموم الامبراطورية.

شهد القرن الرابع تطوراً مضطرداً في فلسفة اللاهوت المسيحي، حيث بدأ المفكرون والمثقفون يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح محاولين تحديد هذه العلاقة، كما بدأوا يستفسرون عن طبيعة الملائكة، وما هو المقصود بأنّ الخبز والنبيذ تحولا رمزياً إلى لحم السيد المسيح ودمه. ولأن المؤسسة الكنسية كانت قد بدأت خطوات بنائها الأولى في عهد قسطنطين، فقد وصلت في العقود الأخيرة من القرن الرابع والأولى من الخامس إلى مرحلة من التأسيس بدأت تأخذ على عاتقها الصمود والدفاع، ومن ثم الهجوم المضاد لمزيد من إحراز الانتصار والسيادة. فعملت من ضمن مسؤولياتها المتعددة على وضع دراسات لاهوتية لاقناع المتشككين. لذلك، أخذت كوكبة من كبار المفكرين الكنسيين بتبرير الآراء والأفكار المسيحية وبرهنتها ووضعها بصورة يقبل بها المشككون. وقد أطلق عليهم لقب آباء الكنيسة الذين كان من أهمهم: أوريجين (185-254)، القديس كليمنص السكندري (القرن الثالث)، وأمبروز (340-397)، وجيروم (331-420)، والقديس أوغسطين[1] (354-430)، والذين عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين مطالب الدولة والكنيسة في عهدها الجديد. غير أنّ السجال المذهبي المسيحي لم يتوقف عند ذلك الحد؛ حيث استمر في القرون اللاحقة، فظهرت مذاهب مسيحية جديدة قادت في أحيان كثيرة إلى التعسف والاضطهاد العنيف بحق المخالفين.

1

كان للمسيحية دور روحي في تعضيد العلاقات بين عرب التحالف وبيزنطة، خاصة بعد الأزمة التدمرية التي أدت إلى عدم وجود ثقة مشتركة لفترة طويلة بين الطرفين. إلا

---

(1)- يعد القديس أوغسطين (أوغسطينوس) من أكثر الشخصيات الكنسية المؤسسة لعلم اللاهوت في الغرب، حيث وفق بين العقل (علوم الفلسفة) والإيمان المسيحي، وذلك من خلال مؤلفاته التي حاول فيها فلسفة الديانة المسيحية بالتوفيق بين النزعتين: الصوفية والفلسفية. ووضع تاريخاً عاماً للحضارة الإنسانية من خلال نظريته المسيحية الشاملة للتاريخ البشري العام، حيث قدم رؤية عامة للكون منذ بداية الخلق حتى يوم القيامة.

أنّ المسيحية كديانة مشتركة حلت هذه المشكلة بأن وحدت الطرفين روحياً، إذ أصبح هذا الاتحاد، بل التوافق الروحي، سبباً رئيسياً في محاربة عبدة النار الفرس وعبدة الأوثان العرب في ولاية العربية. فكانت واجهة العلاقات العربية البيزنطية الأولى من خلال علاقاتها المهمة مع المسيحية والتاريخ الكنسي.

أثر التطبيع الروماني- البيزنطي بمقوماته الرئيسية الثلاث: اليونان، الرومان، والمسيحية، على العرب قبل الإسلام، إلا أنّ أكثر ما أثر فيهم كانت المسيحية. فساعدت بيزنطة في تطور المكون الثقافي والديني في الامبراطورية وخارجها؛ في شبه الجزيرة العربية، بحيث أثرت كثيراً في حياة عرب الاتحاد في القرون الثلاثة: الرابع والخامس والسادس، مما ساعد على توافق، إن لم نقل تطبيع أو إندماج، المتحالفين العرب بشكل كبير في النظام الامبراطوري البيزنطي.

وخلال هذه القرون، وخاصة القرون الميلادية التي سبقتها، دار العرب والعربية سياسياً في فلك ثلاث دول شرقية هي: فارس، روما وبيزنطة، وحمير في الجنوب في فترة مبكرة. فأصبحوا تحت تأثير اليهودية والزرادشتية والمسيحية، وأصبحت العربية ملعباً لهذه الديانات. وكان التنافس الأشد يدور بين اليهودية والمسيحية، فصارت الغلبة للمسيحية، وتطورت مراكز المسيحية في الحيرة ونجران والرُها، وخناصر إلى الجنوب من حلب وأنطاكية. وتبنى عرب التحالف سياسة الترميز التي اتبعها الامبراطور قسطنطين الأول الذي جسد صورة السيد المسيح برسم الصليب على دروع الجنود الرومان، فأقبل العرب على الأخذ بهذا الترميز كنصر للسيد المسيح والمسيحية، فاتخذوه شعاراً في المعارك التي خاضوها.

وهكذا تحول العرب إلى مقاتلين في حملات صليبية ضد عبدة النار في فارس، وضد الوثنيين العرب في شبه الجزيرة العربية، وضد القوط الأريوسيين. وأدى انخراطهم إلى تقرير المذاهب الدينية المسيحية، وعلى خلاف أحياناً مع المسيحية التي تتبناها روما أو بيزنطة، إلى مساهمتهم في تشكيل مسارات التاريخ المسيحي في المشرق، فأمنوا بذلك مكاناً مهماً لهم في تاريخ الكنيسة الشرقية. وبذلك بدأت الكنيسة العربية بالظهور بعدما كانت جذورها السابقة تُمثل ضمن بطريركية أنطاكية، وصار للمرة الأولى يتم المصادقة على الأساقفة من عرب التحالف، فبدأت المبادئ الأساسية للطقوس الكنسية بالظهور، كما بدأ العرب المسيحيون بتقديم الشهداء الكنسيين.

لم يتمثل الحضور المسيحي العربي في القرن الرابع في بطريركية المشرق في أنطاكية فقط، والذي كان يضم المسيحيين العرب الرومان (الحاصلين على حق المواطنة) بل كان يتسع هذا الحضور المسيحي إلى فلسطين الثالثة في فران وريثاو في الشمال الغربي من شبه جزيرة سيناء، وفي النقب وريثاو وإيلوسا في الشمال. كانت ريثاو على الساحل الشرقي لخليج السويس مركزاً لمجموعة من الزهاد برئاسة زاهد ريثاو موسى الذي قضى حياته في الزهد، وامتد تأثيره إلى جميع أرجاء تلك المنطقة. كما امتد تأثير ريثاو ليشمل فران التي تطورت إلى مركز من مراكز المسيحية العربية في جنوب العربية. وكانت

إيلوسا عاصمة فلسطين الثالثة، فتحول كاهنها العربي الوثني عبيد (عبيديانوس) إلى المسيحية على يد سانت هيلاريون، وأصبح فيما بعد كاهن إيلوسا المسيحي، حيث تطورت أسقفية إيلوسا إلى شهرتها في القرن السادس.

وفي مجمل الأحوال يمكن القول: إنّ تاريخ مسيحية المتحالفين العرب لم يكن واضحاً بالشكل الذي وجب أن يكون عليه في القرن الرابع؟ ولكنّ المسيحية قدمت إليهم مستويات جديدة من التجربة الروحية لم يشهدوها من قبل. كما قدمت لهم نوعاً جديداً من الأفراد؛ الرهبان الشهداء في سبيل المبدأ، والقديسين.

وبالإجمال، اتخذ العرب من إيمانهم بالمسيحية موقفاً ملتزماً وعميقاً، فشاركوا من جانبهم بالجدل المذهبي الذي كان قائماً بين المذهبين الرئيسيين: الأريوسية والأثناسيوسية (الأرثوذكسية). ورغم أنهم لم يكونوا علماء في اللاهوت إلا أنهم كانوا مقاتلين أوفياء لقادتهم كما كانوا أوفياء لرجال دينهم الأرثوذكس، وخاصة أثناسيوس الذي كان مناصراً لقرارات مجمع نيقية سنة 325 م، القائلة بوحدة الطبيعتين للسيد المسيح، وكذلك أوفياء لأسقفهم موسى العربي ولملكتهم ماوية.

2

ارتبط العرب في أذهان المؤرخين الكنسيين بالهرطقة (بلاد العرب الدائمة الهرطقة Arabia haeresium ferax) التي ارتبطت بهم كصفة عامة حافظ علي اطلاقها هؤلاء المؤرخون (العربية الأرض التي تولد الهرطقة). وربما كان السبب الرئيس لهذا الإطلاق هو تسمية الرومان لهم بالبرابرة من الشعوب المشرقية الذين أخذوا بالمذهب الأرثوذكسي بينما أخذ الغرب الروماني في القرن الرابع بالأريوسية. ولما تبدلت الصورة في القرنين الخامس والسادس عادت روما وبيزنطة إلى الخلقدونية فبقي اتهامهم لشعوب المشرق بالهرطقة لأنهم كانوا منوفيزيين[1].

اضطر الامبراطور الأريوسي قسطنطيوس في سنة 338م، وبعد سنتين من توليه بعد موت والده قسطنطين لإعادة أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية المنفيين ومنهم أسقف كنيسة عرب التحالف بامفيلوس Pamphilus أو خليفته، وهذا ما حدث لاحقاً مع أسقف ماوية، وما سيحدث مستقبلاً مع عرب التحالف الغساسنة ويوستنيانوس في القرن السادس.

---

[1] – المونوفيزية كلمة يونانية تعني"الطبيعة الواحدة". وقد تطورت في الكنيسة الشرقية، حيث ما زال أتباعها في الكنيسة القبطية المصرية والأثيوبية وأماكن أخرى في الشرق الأوسط يأخذون بتعاليمها التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح التي يكون من الصعب إدراكها بالمفهوم الإنساني، مع أنها أظهرت حياة السيد المسيح (ع) وأفعاله من خلال منظور إنساني ليتمشى فهمها وإدراكها، بينما كانت تظهر طبيعته الواحدة التي لا تتجزأ حين ممارسة معجزاته. وقد شجبت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في مجمعها الخلقدوني، الذي انعقد في البيثينية سنة 451 م، المونوفيزية. حيث أكدت الخلقدونية على طبيعتين للسيد المسيح لكنهما متحدتان في طبيعة واحدة؛ إلهية وناسوتية. إلا أن قرارات المجمع الخلقدوني لم تنه الشقاق القائم، بل على العكس اتسعت هوة الشقاق بين الكنيستين: الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية.

وظهر ثلاثة أساقفة عرب[1] في القرن الرابع، هم على التوالي: بامفيلوس Pamphilus، ثيوتيموس Theotimus، وموسى.

حضر مجمع نيقية الذي انعقد سنة 325م 318 أسقفاً كان من بينهم بامفيلوس الذي مثل عرب طي المسيحيين حسب لائحة الوفود المشاركة. وطي كانت ضمن الجسم العام للتحالف التنوخي. وهذا يعني أنَّ قبيلة طي كانت من ضمن عرب التحالف، وبالتالي يفترض أن يكون للعرب أسقفاً منهم قبل مجئ أسقف ماوية، وإلا فالاحتمال المفترض أنَّ أسقفية العرب كانت نوعاً من اختراع حلفاء قسطنطين الكبير الذي يعود إليه تأسيس التحالف البيزنطي (الروماني) مع العرب. فقد كان أول امبراطور روماني بدأ بسياسة استيعاب البرابرة ضمن حدود الامبراطورية، والذين كان من ضمنهم العرب المسيحيون. ويعتقد أنَّ الإشارة إلى عرب طي جاءت في هذه الفترة لأنَّ قبائل تنوخ كان يطلق عليها الاسم العام"طينوا" قبل هجرتها من منطقة بين النهرين التي كانت تابعة للفرس، والتي وصلت حديثاً إلى غربي الفرات التابعة للرومان حيث مازال اسم طينوا شائعاً. وقد اعتنقت قبائل هذا التحالف العريض المسيحية قبل هجرتها أو هروبها نحو الغرب الذي كان بسبب خلافها مع ساسانيي فارس، ومعارضتهم أيضاً لحملة شابور على عرب الجنوب أبناء عمومتهم، وإلى أسباب أخرى.

أشارت سجلات المجمع الكنسي في أنطاكية الذي انعقد سنة 363 م في فترة حكم يوبانوس إلى مشاركة ثيوتيموس كممثل عن التنوخيين الذين كانوا يسيًدون على عرب التحالف البيزنطي حينها. وجاء توقيع ثيوتيموس بين توقيع أسقف بيرويا (حلب) أناتوليوس وتوقيع لوقيانوس أسقف عرقا بلبنان. إلا أن ثيوتيموس يبقى مجهول الأصل العرقي كما بامفيلوس، لكن يبقى أصلهما العربي محتملاً. وقد ثارت شكوك حول تحول الأسقف ثيوتيموس من الأرثوذكسية إلى الأريوسية تحت ضغط الإمبراطور الأريوسي قسطنطيوس.

ويعتقد أنَّ الأسقف ثيوتيموس بقي على صلاته الأرثوذكسية مع العرب بعد موت يوبانوس الأرثوذكسي سنة 364م واعتلاء والنس الأريوسي. ويتضح من سياق الحوادث العامة أنّ والنس ربما بدأ بالضغط على عربِ التحالف وعلى ثيوتيموس لتغيير مذهبهم إلى الأريوسيةَ.

ورواية سوزومن عن موسى كأول أسقف عربي ليست دقيقة، فقد سبقه بامفيلوس وثيوتيموس، إلا إذا كان ما قصده سوزومن من أنَّ موسى كان أول أسقف عربي من أصل عربي. وعلى الغالب، كان إصرار ماوية على تنصيب موسى أسقفاً على العرب لمعرفتها بإصوله العربية.

---

[1] – انظر الصفحات (330– 339) من كتاب شهيد "بيزنطة والعرب في القرن الرابع" بنسخته الإنكليزية.

ماوية ملكة العرب والثورة

بعد احتلال الرومان لسورية الكبرى سنة 64 ق.م استمر التجاذب وسلسلة الحروب للسيطرة عليها من قبل الرومان والفرس البرثيين والساسانيين. واستمر الصراع حولها بين الجبارين لسبعمائة عام تلت، حتى تم حسم الأمر بانتصار ساحق للعرب المسلمين في معركتي اليرموك والقادسية في نهاية الثلاثينيات من القرن السابع. وكان من نتائج هذا الصراع الطويل الأمد ظهور قيادات محلية حاولت انتزاع نوع من الاستقلال الذي كان ينزع إلى إنشاء كيان أو دولة أو امبراطورية عربية مستقلة كما في حالة زنوبيا تدمر في نهاية القرن الثالث، أو إلى نوع من إثبات الهوية والذات الشخصية العربية كما في حالة الملكة ماوية التي حاربت البيزنطيين وانتصرت عليهم في نهاية القرن الرابع، أو كما في دولتي: الغساسنة في جنوب سورية كوكلاء للبيزنطيين، واللخميين المناذرة في العراق كوكلاء للفرس.

ورثت الامبراطورية البيزنطية الامبراطورية الرومانية في قسمها الشرقي الذي شمل اليونان وآسية الصغرى والمشرق[1] العربي ومصر. وكانت المناطق الشرقية من هذه المنطقة الواسعة الأكثر إقلاقاً لروما وبيزنطة نتيجة المنافسة الساسانية الشديدة على منطقة المشرق العربي وجنوب شرقي آسية الصغرى.

ورغم تأثر سكان منطقة المشرق العربي بالثقافتين اليونانية واللاتينية، إلا أنهم حافظوا على هويتهم العربية والمشرقية، حيث ظهر ذلك في الحراك الذي شهدته فترات الاحتلال الطويلة. وقد جاءت ثورة الملكة ماوية وحركات التمرد التي سبقتها بسبب تنامي الشعور الذاتي بالهوية الخاصة لهذه المجموعات العربية المقيمة والمتنقلة. بحيث امتد تأثير التحالف التنوخي على طول الساحل السوري وخاصة عبر فينيقية اللبنانية (الجبلية) إلى ولاية العربية وفلسطين الثالثة (الجنوبية) وسيناء وشرقي النيل، وحتى حدود الفرات شرقاً التي اخترقتها تحصينات الإمبراطور الروماني ديوقلتيانوس (284-305) بالطريق الذي أنشأه وسماه (طريق ديوقلتيانا)، والذي امتد من إيلة (العقبة) حتى قرقيسيا (البصيرة: جنوب شرق دير الزور حيث يصب نهر الخابور)) على الفرات، وأنشأ على طوله القلاع والحصون والحاميات لحماية الأطراف الامبراطورية من غارات أعراب شبه الجزيرة العربية.

انحدرت ماوية من جموع قبائل التنوخيين العرب الكبيرة، والذين شكلوا اندماجاً عريضاً وواسعاً فيما يشبه الاتحاد بين مكونات قبائلهم الواسعة التي بدأت هجراتها المستمرة من بداية الميلاد أو قبله بقليل قادمة من شمال ووسط شبه الجزيرة العربية إلى سورية الشرقية ومنطقة بين النهرين وغرب الفرات. وقد اشار البلاذري، في "فتوح البلدان"، ج1، ص 172-173؛ بأنّ تنوخ كانت تسكن بالقرب من خلقيس (قنسرين)

---

[1] - كان المشرق العربي يشمل المنطقة الممتدة من بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وبلاد الشام وديار بكر.

جنوب حلب وفي حلب ومعرة النعمان[1] وخناصر وصوران وزيدة وحماة ووادي النصارى وحمص والرقة واللاذقية[2]. ومن هنا جاءت تسمية جبل تنوخ على الامتداد الواقع بين اللاذقية وحمص[3]. وكانت هذه القبائل قد بدأت بالتوجه نحو الداخل السوري إلى الغرب والشمال بعد تعرضها المستمر لتعسف وظلم السلطات الساسانية بعد صعودها إلى العرش الفارسي في إيران في النصف الأول من القرن الثالث.

بدا ظهور عرب التحالف البيزنطي وقيامهم بالثورة بقيادة الملكة ماوية مفاجئاً ومؤثراً بقوته على بيزنطة وعلى والنس في سنوات حكمه الأخيرة. فقد كانوا حلفاء بيزنطة قبل الثورة، كما كانوا حلفاء يوليانوس حينما قاتلوا الفرس إلى جانبه قبل خلافهم معه، ولذا فقد كان حضورهم في المشهد العسكري الروماني لافتاً في العقود الأخيرة حتى بداية الثمانينات من القرن الرابع.

من خلال ارتباط ماوية بالأرثوذكسية وبمبادئ مجمع نيقين الكنسي، إضافة لارتباطها بالأسقف العربي موسى الذي دار بينه وبين أسقف الاسكندرية لوكيوس جدالٌ حول تعريف الإيمان الحقيقي في المسيحية، كان من الطبيعي أن تكون ماويةَ على اطلاع ومعرفة بما جاء بمجمع نيقية من مبادئ[4]. لذلك أعلنت الحرب على والنس الأريوسي انتصاراً للمبادئ التي قررها مجمع نيقية، كما كان من ضمن الأسبابَ الأخرى أنَ الأباطرة الرومان الأريوسيين قاموا بإسقاط ومعاقبة أساقفة نيقين ونفيهم، بحيث مثلت هذه الإجراءات لعرب التحالف شواهد واضحة على الطريقة غير العادلة التي عامل بها الرومان العرب بأن تجاهلوا دعوة رجال الدين الذين كانوا يمثلونهم إلى مجمع نيقية. وقد تطور الخلاف المذهبي- السياسي بين المتحالفين العرب وبيزنطة ابتداءً من عهد قسطنطين الأول، وبلغ قمته في عهد والنس حيث انفجرت الثورة. إضافة إلى أنَ والنس وثيودوسيوس لم يتبعا سياسات الأباطَرة الأول من بيت قسطنطين بمراعاة العَرب والاهتمام برغباتهم ومصالحهم، إذ انصب اهتمامهما بالدرجة الأولى على الغرب متجاهلين حلفائهم العرب في الشرق، وخصوصاً بعد توقيع معاهدة يوبانوس للسلام مع الفرس سنة 363، وتجاهل ثيودوسيوس لمصالحهم في بداية الثمانينات من القرن الرابع.

---

[1] – أشار عرفان شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، الصفحات (448 – 450)، إلى افتراض وجود ما سماه "ديوان تنوخ الشعري" في القرن الرابع ضمن الديوان الشعري العربي العام، وأشار إلى زيارة الشاعر والفيلسوف التنوخي أبو العلاء المعري في القرن الحادي عشر إلى بغداد للبحث عن هذ الديوان.

[2] –سجل المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابو(63 ق.م–23م) في كتابه الشهير"الجغرافيا/ Geography, XVI.2.10-11 الحضور العربي الواسع والعريض في أفاميا وحولها، وخاصة باريوتاميا على العاصي وخلقيس إلى الشرق من أفاميا في القرن الأول قبل الميلاد.

[3] – انظر شهيد في الصفحة 407 من "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، النسخة الإنكليزية.

[4] – اصدر المجمع المسكوني في نيقية عشرين قراراً كنسياً، أهمها: "الإيمان بالإله الأب، القادر، خالق كل شئ، وبالسيد المسيح ابن الإله الوحيد، المخلوق من نفس المادة الإلهية، إله ابن إله، نور من نور، إله مطلق من إله مطلق، ليس مخلوقاً بل من نفس مادة الإله الأب، والذي صنع كل شئ في السماء وعلى الأرض، نزل بصورته الإنسانية المجسدة (ابن الإنسان) من أجل خلاصنا، وصلب من أجلنا ثم قام في اليوم الثالث ورفع إلى السماء. وهو الذي سيأتي ثانية لحساب الأحياء والأموات. لذلك، فنحن نؤمن بالآب والابن والروح القدس.. ".

اعتمدت ماوية قبل إعلان ثورتها ضد والنس على معرفتها بالوضع العسكري الصعب الذي كان عليه والنس في حربه على الجبهة الفارسية وبالوقت نفسه مواجهته لإيقاف ضغط واندفاع قبائل القوط المستمر، وكذلك على عدم الرضى والامتعاض العربي تجاه سياساته المذهبية في المشرق. كل هذه الأسباب جعلت حسابات ماوية تلتقي مع طموحاتها الكامنة باعتقادها أنها قادرة على إحراز النصر في حربها على والنس، وهي واثقة من اعتمادها على تأييد العرب الأرثوذكس المطلق لها في المشرق.

اعتمدت ماوية في ثورتها ضد والنس على اتخاذ تكتيكين مختلفين:

الأول: في شن غارات خاطفة على المراكز الرومانية والبلدات والمدن المحصنة بحيث كانت تختفي بنفس السرعة التي تظهر بها. وكان ظاهر هذه الغارات النهب والسلب، بينما القصد كان على الغالب إثارة الهدوء للفت إنتباه السكان المحليين لدعم الثورة ضد سياسات والنس الأريوسية، وسياساته المتجاهلة لمطالب المتحالفين العرب. فقيام الحرب يعني أنّ الشرخ بين الفريقين كان قوياً وعميقاً بحيث لا يمكن حله إلا عن طريق القوة.

الثاني: كان في انسحاب ماوية إلى ماوراء الحدود في الصحراء، والاستعداد لحملتها ضد القوات الرومانية. إذ ركزت ضرباتها ضد المناطق الأقل تحصيناً في فينيقية اللبنانية وفي فلسطين الأولى والثالثة نحو الطريق إلى مصر عبر السُلم العربي في شرقي الدلتا والمرتبط بفلسطين من ناحية جنوبها الغربي. وكان الحضور العربي في هاتين المنطقتين قوياً، إذ لجأ إلى فينيقية عدد كبير من عرب تدمر بعد تدميرها على يد الإمبراطور الروماني أورليانوس سنة 273، فضلاً عن ضعف نظام الحماية والتحصينات في هاتين المنطقتين. كما تأكدت الملكة ماوية، التي كانت تشارك زوجها شؤون الحكم ومعرفتها ببيئة المنطقة وميول أهلها، من نجاحها باختراق الحدود الرومانية في الأماكن الصالحة لذلك، وخصوصاً عند اتصال فينيقية اللبنانية بفلسطين الأولى (منطقة الجولان).

أثبتت ماوية ومقاتليها أيضاً مقدرتهم على خوض المعارك الثابته، فهزمت القوات الفينيقية والفلسطينية وعليها قادتها الرومان الذين استنجدوا بيوليوس القائد العام للقوات الرومانية في المشرق (تولى يوليوس المنصب من 371 حتى 378)، والذي قرر مواجهة ماوية دون الاستعانة بقوات فلسطين وفينيقية استخفافاً بها وبمقاتليها، غير أنَ ماوية التي قادت قواتها بنفسها هزمته، ولو لم يبادر قادة القوات الفينيقية والفلسطينية- الذين طلب منهم القائد يوليوس التنحي- لفك الطوق الذي ضربته ماوية على يوليوس وقواته لتمكنت ماوية من قتله أو أسره. وإجمالاً عدت مواجهة ماوية العسكرية مواجهة رئيسية مع قوات المشرق الروماني، إذ أثبتت وجودها على منطقة المشرق بجدارة.

نتيجة لانتصارات ماوية طلب الرومان عقد معاهدة سلام، خاصة أنَ وضعهم العسكري كان صعباً على جبهتي القتال الفارسية والقوطية، مما اضطر والنس للموافقة على شروطها بتنصيب الأسقف العربي موسى أسقفاً على العرب على مذهبهم الأرثوذكسي. خاصة وأنَ اضطهاد والنس لأساقفة نيقين كان قد توقف سنة 377 عند مغادرته إلى القسطنطينية لملاقاة الأندفاع القوطي الذي أصبح يهدد المدينة. لذلك لم

يكن والنس قادراً على الاستمرار بالقتال ضد ماوية وضد تهديد القوط للقسطنطينية نفسها.

في النهاية نُصّبَ موسى أسقفاً على العرب من قبل الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا منفيين في مصر، وعاد إلى عرب التحالف الذين كانوا طالبوا به أسقفاً أرثوذكسياً عليهم. وبذلك تم وضع حد للمواجهة العربية البيزنطية.

تزامن توقيع المعاهدة مع بيزنطة والنس بزواج ابنة ماوية من وكتور[1] قائد الفرسان في الجيش الروماني، الذي كان مركز قيادته في أنطاكية، وكان مسيحياً وأرثوذكسياً في الوقت نفسه. ويعتقد أنّ هذا الزواج السياسي قد تمت الموافقة عليه من والنس نفسه ضد المراسيم الامبراطورية التي كانت تُحَرِّم زواج القادة الكبار من غير الرومانيات. ولم يكن الزواج رغبة ماوية وابنتها فقط وإنما أيضاً رغبة وكتور الذي كان يعد صديقاً للعرب لمعرفته بهم كفرسان في جيش المشرق، ومن تعامله العامّ معهم. وهو من أقنع والنس بعقد المعاهدة بعد الاستجابة لشروط ماوية. ولقد كان موقف وكتور الإيجابي من الأرثوذكسية قد قرب المسافات بينه وبين ماوية للوصول إلى اتفاق الصلح وعقد المعاهدة بما فيه مصلحة الجميع.

عمل وكتور في البلاط البيزنطي مع عدد من الأباطرة لمدة تقارب العشرين عاماً (363-383)م، حيث كان منهم الأريوسي، والمرتد، والأرثوذكسي. وهذا يدل على مستوى الكفاءة العسكرية والإدارية والدبلوماسية التي كان يتمتع بها الرجل، إذ استطاع أن يزاوج بين خدماته للدولة وللكنيسة بنفس الوقت.

خلف ثيودوسيوس والنس بعد مقتله سنة 379/378، واستمر امبراطوراً حتى عام 395م. كانت معظم خدمة ثيودوسيوس في الغرب، إذ لم يكن على دراية كافية بالمشرق أو العرب، ولم يقاتلهم أو يقاتل معهم. مع ذلك تم إقناعه من قبل أعداء العرب في الإدارة الامبراطورية: أنهم كانوا أعداء للدولة، حتى أنّ صديق يوليانوس الفيلسوف الوثني ليبانيوس Libanius أسهم بشكل مؤثر، من خلال كتابه "الخطابات"، في الأجزاء: السابع عشر والثامن عشر والرابع والعشرين، على الامبراطور الجديد بأنّ العرب كانوا وراء مقتل يوليانوس، فضلاً عن ذلك لم يكن للعرب أنصار في الإدارة في بيزنطة أو المشرق، لأنّ وكتور كان قد ترك عمله وغادر أنطاكية مركز قيادة الفرسان وحل مكانه الجرماني الوثني ريخومر، بحيث طغى العنصر الجرماني على المناصب العسكرية والمدنية في البلاط وفي ولايات الشرق. لذلك ظهر لعرب التحالف بزعامة ملكتهم ماوية أنّ بيزنطة كانت تضمر لهم الشر، مما أدى إلى إعلانها الثورة الثانية سنة 383م.

لم يكن ثيودوسيوس منصفاً مع العرب عند تجديد المعاهدة، حيث منح القوط امتيازات لم يمنح العرب مثلها أو أقل منها، علماً أنّ الامبراطوركان أرثوذكسياً على مذهب العرب، في حين كان غالبية القوط مازالوا على وثنيتهم. كما أنّ الامبراطور لم يدع أحداً

[1] - يعتقد بأن وكتور (فكتور) لم يكن روماني الأصول، وإنما من إصول (سلافية) بربرية.

من الأساقفة العرب للمشاركة في المجمع المسكوني الذي انعقد في القسطنطينية سنة381، كما خفض المخصصات المالية والعينية التي كانت تقدم لهم.

لذلك وجد عرب التحالف التنوخي أنفسهم في جو امبراطوري غير موات لهم، خاصة وأنّ العلاقات البيزنطية الفارسية كانت هادئة وسلمية، كما أصبحت جبهة تراقية القوطية هادئة أيضاً. لذلك كان من السهولة توجيه ضربة قاسية أدت إلى إجهاض ثورة ماوية الثانية سنة 383. وكان مسرح ثورة ماوية الثانية نفس مسرح ثورتها الأولى. وكانت قوات الفرسان البيزنطية وقيادتهم المقاتلة قد تعرفت على أساليب الكر والفر لقوات ماوية المحاربة، وعلى أساليب القتال المناسبة لتلك المنطقة، فاتخذت الاستعدادات اللازمة لحسم المعركة لصالحها، كما كان العرب أضعف في ثورتهم الثانية منهم في الأولى لأنهم فقدوا الكثير من فرسانهم وجنودهم في المعارك التي شاركوا فيها في تراقية (أدريانويل) (أدرنة) وهادريانابولس وفي الدفاع عن أسوار القسطنطينية.

انحلت عرى تحالف العرب تحت زعامة التنوخيين بعد هزيمة ماوية، فعاد قسم من هؤلاء إلى الأراضي الفارسية التي كانت قد هاجرت منها نحو الغرب بعد خلافها مع شابور الأول. كما اتجه قسم كبير من اللخميين الذين كانوا ينضوون تحت زعامة هذا التحالف إلى منطقة الحيرة من الأراضي التي كانت تقع تحت الفرس، حيث شاركوا فيما بعد ملوك الحيرة وكلاء الفرس وحلفاءهم.

تحالف بنو صالح مع بيزنطية بعد سقوط التنوخيين نهاية القرن الرابع ومعظم الخامس. فلم تسمح بيزنطة لتحالف عرب صالح بأن يتسع نفوذهم ليكونوا قوة مركزية كبيرة، كما حدث مع التنوخيين، ليسهل التعامل معهم والسيطرة عليهم.

ويبدو أنّ ماوية اعتزلت الحياة العامة بعد خسارة معركتها الأخيرة، فانضمت إلى أحد الأديرة المسيحية النائية وتفرغت للعبادة وخدمة المجتمع. وذلك بعد أن حكمت كملكة على قبائل تحالف تنوخ، بعد موت زوجها الحواري، من سنة 375 إلى 383 م. وماتت سنة 425 م، حيث دفنت على الغالب في بلدة خناصر Anasartha الواقعة إلى الجنوب من حلب في سورية.

1

اسمها ماوية / ماويا Mavia, Mawiyya, Mawia, Mawaiy, Mania، وأطلق عليها أحياناً مانية/مانيا. ملكة عربية محاربة، حكمت على قبائل التحالف من التنوخيين العرب الذين كانوا من أشباه القبائل العربية في طريقة معاشهم واستقرارهم، أي أنّ حياتهم وطرقهم المعاشية كانت بين الإقامة والترحال، حيث كانت تستقر في المنطقة الجنوبية والوسطى والشمالية من سورية الكبرى في القرن الثالث ونهايات القرن الرابع الميلادي.

لم يكن اسم ماوية شائعاً بين العرب قبل الإسلام. مع ذلك تميزت حاملات هذا الاسم بالأهمية قبل ذلك التاريخ. مع ذلك بقي اسم الملكة ماوية غير معروف عند المؤرخين العرب، غير أنهم ذكروا ماوية زوجة حاتم الطائي.

سجل معظم المؤرخين الكنسيين تاريخ ثورة ماوية في السنوات الثلاث الأخيرة من حكم والنس[1] (375-378)م. وبالرغم من وضوح روايات هؤلاء المؤرخين: سقراط وسوزومن وثيودورس، بأنّ ماوية لم تكن ملكة العرب فقط بل ملكة عربية من اصول عربية. إلا أنّ المؤرخ ثيودورس آناغنوسطس[2] ذكر في تاريخه الذي كتبه في نهاية القرن الخامس وبداية السادس أنّ ماوية أسيرة رومانية وقعت بيد ملك العرب الحواري الذي تزوجها بعد أن وقع في حبها، وأرجع زواج ابنتها من وكتور لأصول دموية واحدة بين الاثنين أدت إلى وقوعهما في الحب. وقد أيد هذه الرواية ثيوفانس في "السجل التاريخي". فلو كانت ماوية أسيرة رومانية لكان اسمها رومانياً، ولذكر اسمها الروماني بعد تبديله إلى الاسم العربي، في الوقت الذي كان قد بلغ التطبيع العربي مداه بعد أكثر من أربعة قرون من الاحتلال الروماني، حيث كان العرب يتبنون أسماء يونانية ولاتينية ومسيحية، ولم يكن تبني هذه الأسماء معيباً. إضافة إلى أنّ ماوية أعلنت ثورتها بعد موت زوجها مباشرة تقريباً، فلو كانت أصولها رومانية لترددت فيما فعلته بشن الحرب لسنوات ثلاث على بني جلدتها، ثم أنها أشعلت ثورتها الثانية سنة 383 م بعد معاهدة السلام التي عقدتها مع والنس في العام 378 م، كما كان إصرارها على تنصيب أسقف عربي يدلل على معرفتها بأصولها العربية وفخرها بالانتماء لهذه الأصول، إضافة إلى أنّ القبائل العربية لم تكن تقبل في أدبياتها بتنصيب ملكة ليست عربية عليها، إذ لم يسجل تاريخ العرب حتى تلك الفترة تملك أجنبية عليهم.

اعتمد روفينوس وسقراط وسوزومن على "تاريخ غيلاريوس" القيصري[3] الذي كان المصدر الإغريقي الأصلي الذي تضمن تاريخه رواية كاملة عن ماوية. وتعود دقة روايات

---

[1]– خدم والنس تحت قيادة أخيه الامبراطور والنتينيانوس الأول من عام 364 حتى 375 كمساعد للأوغسطس في المشرق. وأقام في أنطاكية كمساعد لأخيه، وكامبراطور بعد وفاه والنتينيانوس سنة 375، وللإشراف على مواجهة هجمات القوط، وقد امتدت هذه الإقامة معظم سنوات حكمه. لكنه شدد أريوسيته باضطهاد كل من لا يأخذ بها في المشرق الأرثوذكسي. قتل في معركة هادريانابولِس (أدريانوبل: أدرنة) ضد القوط سنة 378 م.

[2] – جاءت، على الغالب، رواية أناغنوسطس عن رومانية ماوية مفبركة مثل تجاهلة المتعمد للأصول العربية للأسقف موسى، إذ يعتقد أن أسباباً مذهبية كانت وراء روايته. وقد أثرت أعماله كثيراً على الغرب اللاتيني والشرق الإغريقي خلال فترة العصور الوسطى، ذلك أن العرب في القرن السادس كانوا يأخذون بالمذهب المونوفيزي الأرثوذكسي مقابل المذهب الخلقيدوني الكاثوليكي الذي كانت بيزنطة وروما تأخذان به، وكانوا يرون المونوفيزيين متهرطقين.

والكثير مما عرف عن ماوية جاء من المصادر والروايات المبكرة في تلك الفترة، والتي استمدت من كتابات روفينوس Rufinus المفقودة الآن، والتي استقاها بدوره من روايات غيلاريوس القيصري (من قيصرية (. وقد حولها بعض الكتاب اللاحقين إلى أصول رومانية مسيحية؟ بالرغم من حقيقة معرفة أصولها العربية. وروى العديد منهم أنها ربما كانت تدين بالوثنية قبل تأثرها بالمسيحية.

[3]– يكتبها بعضهم بحرف (س) ك: قيسرية أو قيسارية، والصحيح بحرف (ص) نسبة إلى قيصر. وأصل القيصرية هي أنها كانت مؤسسة انتاجية للقصر – المحقق.

هؤلاء الثلاثة لأنهم أخذوا عن غيلاريوس الذي عاش حينها في قيصرية الفلسطينية قريباً من الأحداث ونشاطات ماوية العسكرية.

أصبحت ماوية بعد موت زوجها أرملة، لكنها سرعان ما أصبحت مشهورة في اليوميات العسكرية خلال عهد والنس. ويذكر أنه يوجد ضمن قبائل كلب فخذ يسمى "بني ماوية". فقبائل كلب القوية والمشهورة كانت تسكن الأطراف الشرقية للامبراطورية، وهذا يعني أنَ الملك التنوخي رأى أنَ من المصلحة السياسية له ولكلب أن يعقد قرانه على ماوية، إذ كان ذلك يعتبر مسألة ضروية لعقد التحالفات بين القبائل العربية. فقد كانت قبيلة كلب في تاريخ القبائل العربية تسكن في شمال ولاية العربية بين سورية وبين النهرين، وكانت تسيطر على مواقع استراتيجية متعددة من ضمنها "دومة الجندل"، حيث يعتقد بأنهم ربما كانوا أحفاد دوما أحد أبناء اسماعيل الاثني عشر.

يبين نسب ماوية الكلبي حقيقة أنَ التنوخيين سكنوا في شمال المشرق قرب الفرات، لذلك كانت ماوية قادرة على شن الحرب من جبهة تمتد من فينيقية حتى مصر، معتمدةعلى مساندة قبائلها الكلبية التي كانت تخيم في السهوب المنبسطة من بادية السماوة في العراق إلى تدمر حتى تبوك في شمال الحجاز.

ويتضح من روايات المصادر الكنسية الرئيسية، بالأخص: روفينوس وسقراط وسوزومن أنَ ماوية لم تكن وثنية بل مسيحية عند اندلاع الثورة، ويؤكدون أنَ السبب الأساسي للثورة كان مذهبياً بينها وبين الإمبراطور المعاصر والنس لتشديده المتصاعد ضد الأرثوذكس في المشرق. بيد أن المؤرخ الكنسي سقراط أشار إلى أنَ ثورة ماوية ضد الرومان لم تكن فقط لأسباب مذهبية، وإنما أيضاً نتيجة لشعورها بانتماءاتها العربية.

2

أصرت ماوية على تعيين الناسك العربي موسى أسقفاً على عرب التحالف بعد موت الأسقف السابق ثيتيموس العربي[1] Theotimus Arabus في نفس السنة التي مات فيها زوجها الملك (375م). وكان قد شارك مع أساقفة آخرين في أنطاكية بتوقيع بيان وجه إلى يويانوس سنة 363م يقول بأنَ الإله الأب والإبن هما من مادة واحدة (الطبيعة الواحدة). ويبقى السؤال المهم دون إجابة، وهو: لماذا لم يثر الحواري ضد تعيين ثيوتيموس على المذهب الأريوسي؟ ربما كان مرضه وراء ذلك؟ وقد أشار عرفان شهيد أكثر من مرة، في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع" إلى مرض الحواري الذي أودى بحياته في النهاية؟

اندلعت الثورة في جميع أنحاء المشرق، على طول المسافة من فينيقية اللبنانية في الشمال حتى شرقي الدلتا في مصر جنوبياً. ويبدو من مسرح العمليات الواسع أنَ غالبية القبائل في هذا المسرح كانت منضوية تحت جناح الثورة، أو أنَ ماوية على الأقل مارست

(1) – لم تتأكد معرفة الأصول الأثنية للأسقفين بامفيلوس وثيوتيموس.

نوعاً من السلطان على جموع هذه القبائل. والظاهر أنّ ثورة ماوية كانت استثنائية بحيث استطاعت توحيد عرب التحالف تحت قيادتها ضد بيزنطة، لذلك لا يبدو الأمر هنا مثار التساؤل: لماذا مثلت تنوخ عصب التحالف ومركزه وليس غيرها؟

جاءت الهجمات الرئيسية لماوية من شمال ووسط سورية عند إشعال ثورتها في معظم أنحاء ولايات المشرق الامبراطوري. وسجل سوزومن (HE, GCS, 50, p.268) أحداث المعركة الرئيسية، التي دارت رحاها في فينيقية اللبنانية، إلى الشرق من سلسلة لبنان الشرقية، وبالتفصيل ضد الرومان بقيادة القائد الروماني يوليوس الذي تمت هزيمته في المعركة الثابتة فوق أرض الجولان.

انسحبت ماوية إلى داخل الصحراء عند إعلان التمرد وبدأت بهجماتها الكثيفة على أطراف الأقاليم الشرقية والجنوبية للمشرق، وشنت هجماتها على ولاية العربية وفلسطين الأولى وفلسطين الكبرى التي تضم سيناء المحاذية لولاية العربية، كما شنت هجماتها ضد مصر وفينيقية. وكانت هذه المناطق قريبة من عمق الصحراء وبعيدة عن أنطاكية مركز الامبراطورية العسكري في المشرق، وبعيدة أيضاً عن مناطق الاحتكاك مع الفرس، وذلك من أجل أن تذوب قواتها سريعاً في قلب الصحراء إن تعرضت لهجمات مكثفة من قبل الرومان. إضافة إلى أنّ هذه المناطق كانت أقل تحصيناً من المناطق الشمالية الأقرب إلى تمركز القوات الرومانية، كما أنّ عرب المناطق التي دارت فيها المعارك كانوا أقرب إليها عرقياً ويشاركونها مذهبها الديني. وهنا، نخمن بأنّ ماوية ربما رأت زنوبيا تدمر في نفسها.

كانت براعة مقاتلي ماوية ليس في احتلال المدن والمواقع ولكن في الهجوم السريع على أطراف المدن والمؤسسات الرومانية في المشرق. ولأنّ معظم المسيحيين في حينها كانوا يعيشون في الأطراف وليس في المدن، حيث كانت الأبرشيات والكنائس في المدن، فقد قصدت ماوية من مهاجمة المدن أن تجعل من حضورها المذهبي محسوساً عند الأطراف وكذلك المدن، فكانت تكتيكاتها: اضرب واهرب، التي اعتمدت أساساً على قواتها من كتائب الفرسان الخفيفة والسريعة الحركة في الهجوم والانسحاب، في التقدم الخاطف وفي الارتداد السريع[1]، مستفيدة أيضاً من الخبرات والأساليب القتالية التي اكتسبها المقاتلون العرب في القتال إلى جانب الرومان. كما أثبت انها أيضاً قادرة على هزيمة الرومان في ساحات المعارك الثابتة في فينيقية وفلسطين.

كانت نجاحات مقاتلي ماوية ضد جيش المشرق الروماني بقيادة يوليوس على أرض المعركة وهم يقاتلون جيشاً نظامياً يؤكد قدرتهم على خوض المعارك النظامية في مناطق قتال ثابتة، وليس فقط في معارك الكر والفر أو الإغارة والاختفاء. ولا شك في أنّ تراكم تجربة تدمر في أساليب القتال الاستراتيجي والتكتيكي، إن كان صحراوياً أو ثابتاً، قبل مائة عام، سواء في مقاتلة الفرس أو الرومان، قد أضافت الكثير إلى الإرث القتالي لعرب

[1] – ربما كان هذا التكتيك هو الذي منع القوط من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، وهو من ضمن الأسباب التي مهدت للنصر العربي الإسلامي الحاسم والسريع على بيزنطة وفارس في القرن السابع.

تنوخ ماوية. وقد روى الطبري في تاريخه بأنّ قوات التحالف العربي هي من أحرزت نصر يوليانوس عند محاصرته للمدائن، وذلك قبل عقدين تقريباً من وقوفهم دفاعاً عن مدينة القسطنطينية، بينما أرجع أميانوس خسارة القوط إلى حادثة فردية من أحد الجنود العرب، ونسب، وهو المؤرخ العسكري المدني، إنقاذ المدينة إلى قوى طبيعية خارقة، حيث استبق اجتهاد مؤرخ كنسي أرثوذكسي بالقول: إنّ الله هو من أنقذ المدينة المسيحية من القوط الأريوسيين! في الوقت الذي كان يشارك فيه عرب ماوية ضد هؤلاء القوط، بعد توقيع معاهدة السلام، في الدفاع عن المدينة التي كان امبراطورها والنس أريوسياً! ويبدو الاسقاط الذاتي هنا واضحاً ومبتعداً بشكل كبير عن الرؤية الموضوعية التي يجب أن يتصف بها المؤرخ!

كانت انتصارات ماوية أكثر من لافتة، بحيث تعود أسباب نجاحها إلى[1]:

1- تألفت قواتها من الخيالة الموسمية التي كانت تشكل جزءاً من قوات الخيالة في الجيش الروماني التي كانت تعسكر عادة ضد الفرس. فشكل تحولهم ضد الرومان معضلة كبرى للقادة الرومان في المشرق، ودعماً كبيراً للثورة.

2- اعتمدت ماوية- بخلاف زنوبيا التي اعتمدت على مدينة واحدة- على قواتها المتحركة في مساحة هائلة، فكانت كما السراب بالنسبة للرومان؛ فهي هنا ولا هنا، هناك ولا هناك. ولذلك كان اندفاع قواتها وانسحابها يتم بالسرعة الخاطفة التي يتمتع بها فرس الصحراء وفارسها وهو يعتلي ظهرها ويتلبب بطنها، تذوب وتختفي في قلب الصحراء ثم تظهر حين يستدعيها الظهور.

3- قادت ماوية هجماتها بنفسها، بحيث كان أثر ذلك عظيماً على المقاتلين وهم يرون ملكتهم الجميلة وهي تقودهم في الكر والفر حسبما تقتضيه الخطط.

4- الحماس المشترك للملكة وللمقاتلين في مذهبهم الأرثوذكسي، ورفضهم لنفي الأساقفة الأرثوذكس، ورفضهم للأريوسية.

5- أتاح لها انشغال والنس والفرق الرومانية ضد القوط في الغرب، وضد فارس في الشرق حرية الحركة في توجيه عملياتها بأسلوب ناجح. لذلك ظهرت ماوية بامتلاكها لمؤهلات قيادية استثنائية حيث استطاعت حشد قبائل جذام القوية في جنوب ولاية العربية إلى جانبها، والتي كانت تشكل المجموعة القبلية الكبرى من لخميي امرئ القيس. وربما كانت ماوية ترى في نفسها وزوجها قرابة ونسباً من "ملك كل العرب": تحالف تنوخ ولخم، أصلاً واحداً.

وعلى خلاف رأي بعض المؤرخين من أنّ هجمات ماوية لم تتعد هجمات وغارات متعددة، ومكثفة أحياناً، رأى كل من سقراط وسوزومن أنّ ما قامت به ماوية كان حرباً بالمعنى الحقيقي وليس سلسلة من الغارات. فالقوات التي تصدت لها كانت قوات نظامية فلسطينية رومانية وفينيقية رومانية كان على رأس كل منها حاكم معين من بيزنطة.

---

[1] - انظر شهيد، الصفحات (147- 149)، من كتابه باللغة الإنكليزية " بيزنطة والعرب في القرن الرابع".

لذلك اضطر والنس، الذي كان يواجه خطر القوط وخطرالجبهة الفارسية بنفس الوقت، إلى طلب الصلحَ وعقد معاهدة سلام بالاستجابة لشروط ماوية بتنصيب الناسك موسى العربي أسقفاً أرثوذكسياً على عرب التحالف، وإلى تجديد المعاهدة بشروط ماوية.

إذن، قادت ماوية قواتها بنفسها بثورة ضد قوات الحاكم الروماني في المشرق. واستطاعت هزيمة قوات الجيش الروماني في المشرق في كل المعارك التي خاضتها ضدهم، حتى وصلت بقواتها إلى فينيقية وفلسطين وإلى حدود مصر القديمة جنوب الساحل السوري وفلسطين. مما اضطر الرومان إلى طلب عقد صلح معها لادراكهم عدم إمكانية هزيمتها. فوافقت على الصلح والسلام مقابل تنفيذ جميع شروطها.

استنجد الرومان بماوية بعد عقد الصلح للمساعدة في التصدي لهجمات قبائل القوط التي شنوها ضد القسطنطينية ومنطقة البوسفور. فأرسلت كتائب فرسانها لفك الحصارالذي ضرب حول القسطنطينية، وذلك بعد أن نجح القوط في هزيمة الجيش الروماني هزيمة نكراء في معركة هادريانابولس (أدريانوبل) الشهيرة على البوسفور في 28 آب من378م. واتسمت هجمات وحدات الفرسان العرب بتشكيلاتها المثلثية الرأس، وباستعمال خيالتها الرماح الطويلة التي تصل الخصم وهي بعيدة عن متناوله إذ كان التوافق والانسجام عظيماً بين سرعة ومرونة حركة الجياد العربية والفرسان عليها واندفاع الضغط المتواصل للرماح الطويلة حاسماً في إحراز النصر على القوط في ذلك اليوم.

وبشكل عام، أتبع الفرسان العرب في جيش ماوية في تكتيكات قتالهم الاندفاع السريع على شكل رأس حربة تتوسع بسرعة خاطفة خلال الاشتباك، وهم يقتحمون برماحهم الطويلة على ظهور أحصنتهم المطهمة والرشيقة بمهارة عالية تثير إعجاب قادتهم وترهب أعداءهم. وقد استغل قسطنطين الكبير- الذي كان أول من أنشأ فرقة الفرسان[1] المقاتلين في المشرق كقوة هجومية متحركة وسريعة- كفاءة المقاتلين العرب بتجنيدهم تحت إمرة قائد الفرسان في جيش المشرق الروماني، حيث كانوا يشكلون على الدوام، ما عدا فترات الاختلاف، جزءاً مهماً من قوة الفرسان الرومانية. لذلك كان مكانهم ودورهم في جيش المشرق الروماني في القرن الرابع واضحاً وهم تحت إمرة قائد الخيالة الروماني في المشرق. وشهد هذا النظام الذي طوره ديوقلتيانوس وقسطنطين بعد ذلك تطوراً مهماً في نظام وحدات الفرسان الخيالة في حروب بيزنطة. إذ أن الاستعداد الدائم لهذه القوات المحمولة بمرونتها وحركتها السريعة بالتنسيق مع قوات الهجوم الرومانية المركزية يؤمن النجاح والحسم في سير المعارك.

أمام إصرار الإمبراطور البيزنطي والنس على تنصيب أسقف أريوسي على الأسقفية المشرقية، قررت ماوية الانسحاب مع جموعها بعيداً من حلب إلى داخل الصحراء لتأمين قاعدة تؤمن سرعة الحركة في الانقضاض والانسحاب مشكلة درعاً يتناسب مع سراب

---

[1] – اشتهرت وحدات الفرسان في جيش تدمر زنوبيا بأدائها القتالي في النصف الثاني من القرن الثالث. وكان اعتماد الفرسان الخيالة بالدرجة الأولى على استعمال سلاح السهام، الذي كان سائداً أيضاً في سلاح الفرسان الروماني في فترة القرن نفسه.

الصحراء، بحيث تضرب في المكان المناسب وتنسحب في الوقت المناسب تاركة القوات الرومانية تجاهد في ملاحقة السراب. وقد كان رفض ماوية واضحاً لا لبس فيه، حيث عملت على تشكيل تحالف واسع من عرب الصحراء، وحصلت على دعم القبائل العربية في معظم مناطق ولاية العربية وسورية استعداداً لمقاتلة الرومان.

ولا شك أنّ السبب المذهبي الذي ساقه معظم من كتبوا عن هذه الفترة لم يكن هو السبب الوحيد، إذ ربما سبقته أسباب أخرى مباشرة أو غير مباشرة. كما أنه ليس من الواضح حينها إن كانت ماوية آمنت بالمسيحية، أم أنها كانت بين الشك واليقين، بين الوثنية والإيمان الجديد؟ ويروي بعض المؤرخين أنها التقت خلال مقاتلتها للرومان بناسك استطاع التأثير عليها وإقناعها بالتحول من وثنيتها إلى المسيحية الأرثوذكسية. فإن صحت هذه الروايات تكون أسباب الحرب الفعلية التي دفعت عرب الاتحاديين إلى إعلانها ضد روما ليست دينية، وأنّ الأسباب الدينية جاءت لاحقاً بعد اشتداد الصراع. وربما مثل ذلك إدراكاً مبكراً من ماوية بأن أي صراع بين طرفين يجب أن تفلسفه رؤية أيدولوجية!

شنت ماوية هجمات واسعة وسريعة ضد الحكم المركزي الروماني في منطقة المشرق، وذلك ابتداءً من عام 375م ولمدة ثلاث سنوات متتالية. وقد شبه الكثير من المؤرخين هذه الهجمات بالهجمات التي شنتها زنوبيا ضد السيادة الرومانية قبل قرن مضى حين اكتسحت قواتها ولاية العربية وفينيقية اللبنانية وفلسطين، ووصلت إلى حدود مصرالقديمة من الشمال الشرقي ملحقة هزائم متتالية بالجيوش الرومانية. وتركت ماوية وقبائلها المتحالفة أماكن استيطانهم بحلب وما حولها، منسحبين إلى داخل الصحراء لتأمين الحماية واستخدام الصحراء كقاعدة انطلاق لهجماتهم على البلدات والمدن والمراكز والفيالق الرومانية العاملة في المنطقة. فوجد الرومان أنفسهم بدون هدف يواجهونه في المكان، إذ كان الفرسان المغيرون يقومون بهجماتهم الخاطفة والسريعة والمؤثرة ثم يذوبون في الصحراء بنفس السرعة التي ظهروا فيها، مستخدمين تكتيكات حرب العصابات التي لم يكن الرومان على مستوى الدراية والمواجهة والملاحقة لحركتها، حيث كانت الفيالق الرومانية تقبض الريح خلف تلك الهجمات. ونتيجة لنجاح الغارات المتتالية والناجحة التي قامت بها قوات ماوية، وخسارة القوات الرومانية في محاولاتها لمواجهة هذه الغارات، شعرت القيادة الرومانية بالاحباط، خصوصاً بعد أن أثبتت ماوية أنها خصم عنيد في المعارك المفتوحة التي خاضتها ضد الفيالق الرومانية. حيث كان العرب قد اعتادوا القتال إلى جانب الجيوش الرومانية خلال فترة طويلة من الزمن اكتسبوا فيها المعرفة بكيفية التكتيكات العسكرية الرومانية، والمهارة في هزيمة قوات المساندة الرومانية التي أرسلت من فينيقية وفلسطين.

ساند سكان القرى والبلدات والأرياف في عموم المنطقة ماوية والمتحالفين معها، فكانوا شديدي التعاطف معها ومع قضيتها أيضاً. وظهر حينها أنّ كامل منطقة المشرق

الروماني تتجه نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية، وأنَ ماوية وعربها من تحالف التنوخيين ربما يكونون حكامها الجدد.

جهز الرومان حملة عسكرية كبيرة كان على راسها حاكم المشرق الروماني (يوليوس) بنفسه، فالتقى بماوية وقواتها في معركة مفتوحة (دارت على الغالب فوق أرض الجولان)، وليست في حرب عصابات. وكانت نتيجتها أن أثبتت ماوية أنها ليست فقط قائدة سياسية، بل قائدة في ساحات الحرب على مستوى عال من التكتيك باستخدام تقنيات القتال الرومانية، إضافة إلى استخدام قواتها للطرائق الرومانية التقليدية، والتي اعتمدت فيها على قوات الخيالة السريعة الحركة والجاهزية باستخدام الرماح الطويلة في طعناتها المميتة. فلم تكن المرة الأولى التي انهزم فيها الرومان الذين أحسوا فيها بالهزيمة المهينة على يد هذه المرأة. ولم يكن لدى روما الإمكانية للإمداد بالقوات والعتاد في هذه المرة كما كانت الحال ضد زنوبيا قبل مائة عام، ولأنَ اتحاد القبائل العربية بقيادة التنوخيين وملكتهم هم من يقاتل الآن. ومع استمرار تدفق المقاتلين العرب للاشتراك في المعركة لم يكن أمام الامبراطور الروماني إلا أن ينصاع لعقد صلح وسلام مع ماوية ملكة العرب.

رأى البيزنطيون أنَ الحل الأمثل للتعامل مع القوات العربية يكون بتوظيفها كحلفاء لهم، حيث كانت الاستراتيجية للتعامل مع غارات عرب شبه الجزيرة تقع على عاتق القوات المتحركة وليس الثابتة، وبذلك كان في مقدرة عرب التحالف فرض إرادة روما والسلام الروماني على عرب الصحراء لمعرفتهم بتكتيكاتها وطبوغرافيتها. ولذلك نجحوا في ذلك أيما نجاح، كما كانوا قادرين أيضاً على كبح جماح اللخميين حلفاء الفرس في القرنين الخامس والسادس. إلا أن كفاءة الدرع البيزنطي المتين، الذي شكل معظمه عرب الاتحاد/ التحالف، انكسر أمام الهجوم الصاعق للعرب المسلمين في القرن السابع.

حارب التنوخيون (عرب التحالف) ضد جيوش الامبراطورية خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حكم والنس (375-378)، فكانت هذه من أهم الحروب التي قام بها العرب بعد حروب أذينة وزنوبيا. لكن أسباب هذه الحروب كانت، على الغالب عقائدية لأنهم حاربوا كمسيحيين أرثوذوكس ضد الأريوسية، فربحوا حربهم. وكانت هذه مواجهة عسكرية استثنائية للعرب التنوخيين بقيادة الملكة ماوية ضد جيوش والنس الامبراطورية. ففي هذا القرن كان العرب من أوائل المدافعين الحقيقيين عن العقيدة الأرثوذكسية: عقيدة نيقين ضد عقيدة أباطرة القرن الرابع الأريوسيين. ولذلك ظهر الاتحاديون العرب كقبضة قوية في المشرق أخذوا على عاتقهم الدفاع عن المبادئ التي أقرها مجمع نيقين. ولذلك كانت علاقاتهم مع المسيحية الأرثوذكسية مهمة جداً خاصة أنَ صورتهم في المرآة الكنسية البيزنطية تعكس رؤيتهم كمتهرطقين. ومن سخريات أقدار الضعفاء أنَ الذي أسقط عرب التحالف التنوخي كان الامبراطور الأرثوذكسي ثيودوسيوس الأول في الربع الأخير من القرن الرابع.

كان من أسباب تمرد عرب التحالف سيادة المذهب الأريوسي خاصة في عقد الخمسينات من القرن الرابع حينما كانت المعارك تدور محتدمة على الجبهة الفارسية، إضافة إلى تحييدهم وتجاهلهم بعدم دعوتهم للمشاركة في المجمع المسكوني الذي انعقد في أنطاكية سنة 331، حينما تم نفي بطريرك الاسكندرية أثناسيوس. ويعتقد شهيد في كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص 79، أنهم شنوا غاراتهم على الأطراف الشرقية للامبراطورية خلال سنة 353م. ويرى شهيد أيضاً أنه لو لم يتم تحييد عرب التحالف مذهبياً لكان تمكن الامبراطور قسطنطيوس من تحقيق سيادة المذهب الأريوسي بين عرب التحالف، ولربما في الحبشة أيضاً، ولأمكن بذلك تجنب ماحدث لاحقاً.

بدأت خلافات عرب التحالف مع قسطنطين في سنة حكمه الأخيرة (336م)، وذلك بعد نفي أثناسيوس. وقد حلت المعاهدة بينهم وبين بيزنطة بشكل آلي بعد موت قسطنطين. لذلك ثار العرب في بداية عهد قسطنطيوس الذي كان على القسطنطينية، ثم ما لبث أن تصالح معهم سنة 338م، وبقي هذا الصلح نافذاً خلال الأربعينيات، إلا أنه لا توجد مصادر تشير إلى اشتراكهم في الحرب ضد الفرس. وقد أرخ أميانوس في مصنفه أنهم ثاروا سنة 353، مع أنه وصف الحرب على الجبهة الفارسية بشكل مفصل، إلا أنه لم يشر إلى اشتراك العرب فيها. ربما لأنهم كانوا ضد سياسة قسطنطيوس الأريوسية، لذلك شهد حكمه خلافاً مذهبياً مع عرب التحالف المسيحيين. كما روى أميانوس أنَ العرب حول أفاميا انسحبوا من خدمة بيزنطة سنة 369-370م، وأعلنوا التمرد ضد السلطة الامبراطورية لأسباب مذهبية على الأغلب. ويلقي هذان التمردان الضوء على ثورة ماوية بعد ذلك بسنوات، حينما استجاب العرب لثورتها خصوصاً وأنهم كانوا يتشاطرون نفس الرؤية المذهبية.

وصف أميانوس العرب (كان على الأغلب يقصد عرب التحالف) في مصنفه التاريخي (Res Gestae, XIV, 4.1): ".. بأنهم عقبان جشعة وقاتلة تكتسح الامبراطورية.."، كما وصفهم في أماكن متفرقة من مصنفه بأنهم سرقينيون، برابرة، قطاع طرق، وسكان خيام، ولم يشر إليهم باسمهم العام: العرب. وبدون شك كان من وصفهم في ثورة ضد الرومان، وهم تنوخيو التحالف الذين انسحبوا إلى عمق الصحراء وتحالفوا مع عرب شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يقيمون في شمال العربية، إذ كانت أقوى مجموعاتهم من قبائل الكلبية، والتي كانت ماوية بأصولها منهم. وهم الذين شاركوا باستبسال في معركة هادريانابولس وفي معارك الدفاع عن القسطنطينية وفي جبهات القتال المتعددة في الشرق والغرب دفاعاً عن الامبراطورية! وربما كان تشابه الرؤية السلبية عن العرب عند أميانوس ويوليانوس المرتد تعود إلى أسباب عنصرية، خاصة أنَ المؤرخ الوثني أميانوس رأى في يوليانوس بطله الحقيقي لإعادة بريق المجد للامبراطورية من جديد. مع ذلك قتل

يوليانوس على الجبهة الفارسية على مشهد من أميانوس الذي كان يرافقه. وقد ضمن أميانوس الكثير من الإشارات على أن العرب هم المسئولون عن مقتله. لكن، بالمقابل ذكر اميانوس في مصنفه التاريخي (RG, XXIV.1.10) أن يوليانوس كان راضياً عن أداء المقاتلين العرب قبل انسحابه من طيسفون (المدائن)، وهذا يعني ضمناً أنَ علاقاتهم مع يوليانوس كانت جيدة خلال حملته الفارسية، لكن موقفهم بدأ بالتبدل خلال انسحاب يوليانوس من المدائن. وقد دفع ذلك بعض المؤرخين، ومنهم أميانوس نفسه، إلى القول أنَ موقفهم هذا قد أدى إلى مقتل الامبراطور. والسؤال التالي الذي يطرح نفسه هو: لماذا انضم عرب التحالف لمشاركة يوليانوس في حملته الفارسية؟ فقد كان من وجهة نظرهم العقائدية أسوأ من قسطنطيوس الأريوسي الذي ثاروا ضده سنة 353، إذ كان يوليانوس وثنياً مرتداً، لذلك جاء اسمه في مصادر التاريخ بـ "يوليانوس المرتد"، والاحتمال الأقرب لأسباب انضمامهم إليه رغم ارتداده ومناصرته للوثنية هو أنه بدأ عهده بالتسامح الديني وإصدار مرسوم استدعاء الأساقفة الذين عاقبهم قسطنطيوس بالنفي أو السجن، فعاد هؤلاء الأساقفة إلى مجمع نيقية المناصر والمدافع عن الأرثوذكسية التي كانت مذهب عرب التحالف. وربما كان كرههم لشابور نتيجة لحملته على العربية التي هزمهم فيها في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب سنة 326/325، وفرار ملك الحيرة امرؤ القيس، من ضمن الأسباب التي دعتهم للاشتراك مع جيش يوليانوس الذي كان يضم أيضاً القوط والخزر والأرمن. وأنَ هؤلاء هم عرب التحالف من اللخميين أحفاد الملك العربي في جنوب سورية مع أبناء عمومتهم في شمال سورية من أحفاد التنوخيين الذين فروا من تعسف الفرس من ميزوبوتاميا إلى غرب الفرات.

مع ذلك، تحدى عرب التحالف التنوخيين في القرن الرابع السلطة الإمبريالية المركزية للإمبراطور والنس خلال نشوء الأزمة القوطية في السبعينيات من نفس القرن، حيث كان مصدر التحَدي مذهبياً؛ وربما كان هذا الخلاف المذهبي انعكاساً لمشاعر قومية معادية للسلطة الامبراطورية المركزية. لكن الكثير من المؤرخين، وخاصة الكنسيين منهم، يرون أنَ السبب الحقيقي لثورة ماوية هو أنَ العرب اعتقدوها حرباً مقدسة للدفاع عن مذهب الأرثوذكسية ضد والنس الأريوسي، ودليلهم على ذلك أنَ العرب عقدوا اتفاق سلام معه بعد الموافقة على شرطهم الرئيسي بتنصيب موسى أسقفاً على العرب، عادوا بعدها للتحالف مع والنس في الحرب ضد القوط وفي الدفاع عن القسطنطينية.

موسى: الأسقف العربي

سيضيع الكثير من ألق ثورة ماوية إذا لم يتم إلقاء الضوء الكافي على حياة الناسك المسيحي المقدس موسى العربي. بحيث يمكن الإشارة إلى أنَ ثورة العرب بقيادة الملكة

ماوية لم تكن فقط بارزة من خلال عملياتها العسكرية، وإنما يستبين بروزها أيضاً من خلال تاريخها المسيحي بما يتعلق بالتناقض والجدل اللاهوتي الذي كان حاصلاً في عموم الامبراطورية. وهذا يعني، من ضمن ما يعنيه، اشتراك عرب التحالف البيزنطي بفاعلية في مختلف وجوه الحياة الأدبية والثقافية. حيث يشهد ذلك النشاط على وصول الكثير من أسماء العرب الفلاسفة والمفكرين والأدباء إلى أرفع درجات الشهرة في الإنجاز. إلى جانب بدء ظهور آثار من الشعر العربي المنظوم تخليداً لبطولاتهم في المعارك الحربية. ومنها أشعار غنائية ومنظومة في وصف بطولات ماوية في معاركها ضد الرومان، لم يصلنا منها إلا قليل من الشعر المغنى.

كان التداخل سائداً بين العقائدي والمدني في القرن الرابع، حيث كانت المؤسسة الكنسية في طور تشييد بنائها المؤسساتي. وربما يرجع انشغال العرب واشتباكهم المذهبي في الأساس إلى استيعابهم الثقافي في السائد أنذاك.

لم تعرف هوية الناسك موسى في المشرق وأين كان يقطن قبل أن يصبح معروفاً في التاريخ كأسقف ماوية. فقد اتفق سقراط وسوزومن أنه كان يسكن في أطراف الصحراء القريبة من تحالف عرب التنوخيين، ربما في أطراف ولاية العربية أو في جنوب ولاية فينيقية، بينما كان المؤرخ ثيودورس أكثر تحديداً بأن أسكنه بين مصر وفلسطين (شبه جزيرة سيناء). ولم يكن موسى شماساً أو كاهناً وإنما رجلاً تقياً وناسكاً حقيقياً يعيش عزلته في الصحراء، حيث مثل طرازاً فريداً من العرب الذين تحولوا من الشرك إلى المسيحية. وقد ترك بعض من هؤلاء المؤمنين، الذين كان الكثير منهم من غير العرب، المدن والبلدات خارجين إلى عمق الصحراء للتأمل والعبادة، وأشيعت عنهم معجزات كثيرة. وكان من أبرزهم موسى الذي نال سمعة طيبة بين عرب التحالف. وربما كان إصرار ماوية على تنصيبه أسقفاً على العرب لأنه بالدرجة الأولى من أصول عربية، ولأنه لم يكن من أعداد الإدارة الكنسية التي كانت غالباً تتأرجح بين ما كانت تريده الإدارة الامبراطورية وبين المذهبين الأرثوذكسي والأريوسي. وقد ثار شك بتأرجح الأسقف ثيوتيموس خلال فترات الأباطرة قسطنطيوس ويويانوس ووالنس، لأنّ منصب الأسقف كان منصباً إدارياً كنسياً إضافة إلى جانب وظائفه الروحية.

مثل الناسك موسى الأهم بين الثلاثة (بامفيلوس، ثيوتيموس، موسى)، وكان الوحيد بينهم الذي منح لقب القديس، إذ ما يزال يحتفل بعيده في السابع من شباط من كل عام.

كان الحوار الذي جرى بين موسى ولوكيوس في الاسكندرية على خلفية محاولة تنصيب موسى على المذهب الأريوسي، وذلك بعد موت ثيوتيموس، قد تطور إلى مشاحنة وخلاف شديدين بين الاثنين أدى إلى حرارة في الجدل المذهبي الدائر في تلك الفترة. وربما يكون ما جرى قد سلط الضوء على موسى نفسه. فقد اشترط لوكيوس على موسى أنّ يتم تنصيبه أسقفاً على العرب على المذهب الأريوسي مذهب والنس والامبراطورية. فدارت وقائع الحوار تقارن بين المذهبين المتنافسين، واحتج موسى فيها على نفي الأساقفة الأثناسيوسيين (الأرثوذكس) الذين تم عزلهم ونفيهم، واتخذ آخرون منهم

ملاجئ لهم في الصحارى التابعة لعرب التحالف. وأصر موسى على تنصيبه ليس من قبل لوكيوس ولكن من قبل الأساقفة المنفيين. وفي النهاية نصب الناسك موسى أسقفاً أرثوذكسياً على عرب التحالف، ولكن في المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر وهو في طريق عودته من الاسكندرية، حيث كانت تجري عمليات ماوية الحربية ضد قوات ومواقع والنس الامبراطورية. وكانت من أولى مهام الأسقف الجديد أن يتولى إجراء المقاربة والمصالحة بين الطرفين المتحاربين.

تم عقد المعاهدة، كما تم تزويج ابنة ماوية من قائد الفرسان الروماني وكتور، كما تم الاتفاق أن ترسل ماوية فرسانها للاشتراك في معركة هادريانابولس (378م). شاركت هذه القوات بفاعلية كبيرة في الدفاع عن القسطنطينية بعد سقوط هادريانابولس.

لم يعرف موسى إلا من خلال ماوية، إذ كتب شهيد (ص:153-155) من كتابه بالإنكليزية "بيزنطة والعرب في القرن الرابع" أنّ كلاً من روفينوس وسوزومن ذكرا في تاريخهما أنه عاش في الصحراء القريبة من مناطق التنوخيين عرب ماوية، بينما يقول سقراط أنه كان يعيش في الصحراء، ولم يحدد هذه الصحراء، بينما حددت رواية المؤرخ ثيودورس إقامته في المنطقة المحصورة بين مصر وفلسطين، إلا أنّ شهيد يشكك في رواية ثيودورس. لكنّ المؤكد أنّ موسى لم يكن شماساً أو كاهناً، بل ناسكاً يعيش في الصحراء. ومن خلال حياة ارتضاها موسى وأمثاله للعيش في الصحراء القاسية والفقيرة الموارد وغير المضيافة تاركين حياة المدينة الثرية والمريحة، وهذا يعني دون شك أنه كان يمثل نوعاً جديداً من المثال الذي ربما حول الكثير من العرب باتجاه الدعوة الدينية الجديدة، إلى جانب شيوع تمتع هؤلاء بقدرات خارقة. ويعتقد أن غالبية هؤلاء الزهاد كانوا من غير العرب. ويبدو أن شهرة موسى أتت من كونه عربياً عاش بين قومه فى أطراف الصحراء. من هنا جاءت شهرته في الروايات الكنسية عن تاريخ ثورة ماوية. وربما كان السبب الرئيسي في إصرار ماوية على تنصيبه أسقفاً على العرب لأنه عربي المولد.

كان مشهد الحوار الساخن الذي جرى في الأسكندرية بين الناسك الأرثوذكسي موسى والأريوسي لوكيوس، والذي تطور إلى مشاحنة كلامية، يشير إلى درجة الانفعال العاطفي الذي طرأ على الاختلافات المذهبية المسيحية في تلك الفترة. وربما كان هذا من الأسباب التي دعت المؤرخين الكنسيين حينها إلى تسجيل ثورة عرب التحالف والفصل الذي سجلته هذه الثورة في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية في القرن الرابع. وأنّ اهتمام بعض هؤلاء المؤرخين الكنسيين بثورة ماوية أتى من خلال الحوار المثير الذي جرى في الاسكندرية بين موسى ولوكيوس، والذي قد يوضح الكثير من الإطلال على ثورة ماوية وربما يقود إلى القول بأنّ تاريخ عرب التحالف المدني قد تم إغفاله عن عمد، من قبل المؤرخين الكنسيين، في العصر الذي تميزوا فيه، وهو القرنين الرابع والخامس، خصوصاً وأنّ أميانوس كمؤرخ مدني معاصر لم يأت على تاريخ عرب التحالف إلا باستعراض عام.

وحسب رواية سقراط[1]، بدا أنّ لوكيوس أراد أن يوجه موسى بتعاليم المبادىء الأساسية في المسيحية قبل تنصيبه، والتي تعني أنّ موسى في نظر لوكيوس لم يكن إلا زاهداً فقط لا مرتبة له في الكهنوت الكنسي، والتي تعني مما فهمه موسى ضمناً من خلال الحوار أنه ليس على مستوى أن يكون أسقفاً، بينما أراد لوكيوس أن يوجهه بمبادئ المذهب الأريوسي قبل تنصيبه أسقفاً على عرب التحالف. وقد كان جواب موسى رداً على تعاليم لوكيوس أنّ المهم ليس الأقوال بل الأعمال والأفعال، مشيراً إلى نفي الأساقفة (الأثناسيوسيون) الأرثوذكس وتعذيبهم في منافيهم، إذ يفيد بأنّ عرب التحالف لم يكونوا سعداء لما جرى ويجري لهؤلاء الأساقفة. وهذا ما دفع ماوية للقيام بالثورة، خاصة وأنّ البعض من الأساقفة الأرثوذكس التمسوا ملاجئ لهم في مناطق عرب التنوخيين، مما يفيد أن هؤلاء ربما نفخوا في إوار الثورة. وقد ذهب موسى إلى الاسكندرية وليس إلى أنطاكية، حيث مثلت أنطاكية حينها أسقفية المشرق الرئيسية. وهذا قد يوحي أن موسى لم يكن يقيم بعيداً عن مصر (ربما في جنوب فلسطين)، أو أنّ ماوية لم ترغب بتنصيبه في أنطاكية التي كان يقيم فيها حينها الإمبراطور الأريوسي والنس الذي سيشعر بالإهانة لو تم تنصيب موسى على مرأى منه، أو أنّ موت بطريرك أنطاكية يوسيوس Eusoius حينها لن يتيح الفرصة لأداء إجراءات التنصيب. وفي النهاية أدت نتيجة المواجهة بين موسى ولوكيوس إلى تنصيبه أسقفاً على العرب ليس من قبل لوكيوس ولكن من قبل الأساقفة الأرثوذكس الذين كانوا منفيين في مصر.

ويشير تقرير الناسك أمونيوس Ammonius، من كانوبوس المصرية، الذي سجل استشهاد الرهبان في جبل سيناء ومدينة ريثاو Rhaithou التي تقع في منتصف المسافة على الساحل الشرقي لخليج العقبة، والتي حدثت في السبعينات من القرن الرابع خلال فترة والنس، إلى أنّ الناسك موسى هو من فلسطين الثالثة، وقد اتبع حياة النسك والزهد من بداية شبابه واستمر كذلك حتى نهاية عمره الثلاث والسبعين. وقد سكن صومعته في كهف بالقرب من ريثاو، وفرض على نفسه حرماناً شديداً حيث لم يكن يأكل إلا التمور والماء، ولباسه من سعف النخيل، ولم يكن ينام إلا بعد أن يجهد نفسه في إقامة الصلوات الليلية، ويمضي باقي نهاره في التأمل. وكان يصوم أربعين يوماً مستمرة وحيداً في كهفه، ولم يكن يفتح باب صومعته إلا في اليوم الخامس من الاسبوع المقدس. ومن أهم صفاته أنه كان يتمتع بقوى معجزة خارقة في شفاء المرضى. ولم يقتصر تأثيره على النساك والرهبان والمتعبدين وإنما أثر أيضاً من خلال هذه الصفات على ملك العرب أو شيخهم عبيدة (عبيديانوس) في فران من شبه جزيرة سيناء، والذي تحول من الوثنية إلى المسيحية، وبالتالي تحول معه أتباعه من العرب. وهذا يعني أنّ عرب فران وريثاو قد مدوا منطقة تأثيرهم إلى العقبة والبتراء، وربما شاركوا ماوية في ثورتها من مناطقهم.

[1] – انظر الصفحات (153– 156) من كتاب شهيد" بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، النسخة الإنكليزية.

إلا أنّ تقرير أمونيوس لم يشر إلى أنّ موسى هذا هو نفس موسى ماوية. فإذا لم يكن هو موسى ماوية، يكون هناك عندئذ اسمين مختلفين: موسى ماوية في الشمال وموسى في جنوب فلسطين، فإن كان موسى ماوية هو نفسه موسى فلسطين، فعندئذ تكون ماوية قد سمعت بمعجزاته فاستدعته إلى حيث كانت وطالبت به أسقفاً على العرب الأرثوذكس. وقد وصف سوزومن زوج ماوية بالملك وليس بالفيلارخ، كما ذكر أن موسى ريثاو هو نفسه موسى ماوية.

الصلح مع الإمبراطور الروماني والنس (فالينز)

بدأت ماوية ملكة السرقينيين بإحداث اضطرابات عنيفة على القرى والبلدات الواقعة على حدود ولاية العربية والفينيقية وفلسطين ومصر، فقام مقاتلوها بمهاجمة ونهب وتخريب المقاطعات المجاورة. وبعد انهاكها للقوات الرومانية في معارك متعددة صرعت الكثيرين منهم، وأجبرت البقية على الفرار، وافق الرومان على عقد معاهدة صلح وسلام، فوافقت على التزام الرومان بشروطها المعلنة، وأهمها تنصيب الناسك موسى أسقفاً على العرب.

سجل المؤرخون الكنسيون مآثر ماوية، مركزين خاصة على الشروط التي وضعتها للموافقة على عقد معاهدة الصلح مع الرومان، والتي اعتبرت حينها على درجة عالية من الأهمية للمساعي المسيحية الإنجيلية الأولى في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، وذلك حسبما سجله روفينوس Rufinus.

وكتب سقراط القسطنطيني عن هذه الحوادث قائلاً بأنّ الناسك موسى هذا كان سرقينياً بالمولد عاش حياة زهد ورهبنة في الصحراء، فاصبح مشهوراً بشكل كبير بتقواه وإيمانه العميق ومعجزاته. كما روى سقراط أنّ ماوية كانت راغبة برسم موسى أسقفاً رسمياً على عربها، ووعدت أن تضع حداً للحرب إن حقق الرومان هذا الشرط. وكان التزام ماوية بعد توقيع المعاهدة أن وطدت هذا الاتفاق بتزويج ابنتها إلى وكتور رئيس أركان الجيش الروماني وقائد فرسانه حينها. وذكرها سوزومن بتفاصيل أكثر عندما اشار إليها بلقب مانية، واصفاً حكمها وتاريخ شعبها، وقد أطلق عليهم السرقينيون[1] Sarracens، فروى أنهم اسماعيليون انحدروا من اسماعيل بن هاجر وابراهيم (أشار إلى هاجر كمحظية لإبراهيم كما هي عادة الكتابات الكنسية)، لكنهم أخذوا اسمهم من سارة[2]* لكي لا يعدوا كابناء لهاجر، وبالتالي يتجنبون وصفهم بالعبيد. وفي رواية سوزومن، قادت ماوية قواتها بنفسها، فأثبتت أنها محاربة صعبة المراس ومواجهتها كانت

---

[1] – للزيادة، انظر الفصل التاسع من كتاب عرفان شهيد "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق، 2008. حيث تجد دراسة أكاديمية موسعة عن هذا الموضوع.

[2]* – لقد أوضحت هذا الأمر، أي أخذهم اسمهم من سارة زوجة ابراهيم الخليل، في كتابي "أسلافنا العرب"، إصدار وزارة الثقافة السورية، أن هذا ليس صحيحاً – المحقق.

محفوفة بالمخاطر. وقد تطلبت ضرورات المعارك من القوات الرومانية بذل جهود كبيرة لإفلات كامل قوات خيالتها ومشاتها بصعوبة شديدة من قبضة قوات ماوية المقاتلة.

أدت نتائج الحروب إلى عقد الصلح الذي استجاب الرومان فيه لشروط ماوية بأن تم ترسيم الناسك العربي (السرقيني) موسى كأول اسقف عربي، حيث بدأت أول كنيسة عربية بالظهور في منطقة المشرق الروماني، جاذبة إليها الكثير من التنوخيين الذين كانوا يسكنون فيما بين النهرين. وبذلك أيضاً استطاعت ماوية تمتين التحالف التنوخي واستعادة الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها قبل حكم الإمبراطور والنس. ولتعضيد الصلح والتحالف الجديد، زوجت ماوية ابنتها من القائد العسكري الروماني وكتور/ فكتور Victor، والذي كان على مذهب الملكة الأرثوذكسي. وبذلك استطاعت ماوية الحصول على سلام عادل، إلا أن هذا الصلح لم يعمر طويلاً.

ويرى المؤرخ سقراط أنّ نية ماوية بتزويج ابنتها التي كانت في مقتبل العمر من قائد الفرسان الروماني الستيني وكتور، المواطن الروماني من أصول سلافية، لتمتين معاهدة السلام الجديدة بين بيزنطة والعرب لاعتقادها أنّ وكتور سيكون مناصراً لقضاياها ووسيطاً يدافع عن مصالحها في الإدارة البيزنطية العليا كونه كان المحرك الأساسي لأقناع والنس بعقد الصلح معها. علماً أنّ والنتبنيانوس ووالنس كانا قد أصدرا قانوناً بتحريم زواج الروماني من بربرية تحت طائلة من العقوبات الشديدة. لذلك جاء هذا الزواج فريداً لأنّ الموافقة جاءت بإذن خاص من الامبراطور نفسه من أجل عقد المعاهدة، إذ يحتمل أنّ ماوية ربما اشترطت ذلك. وهذا يعني أنه كان زواجاً سياسياً بامتياز لخدمة أغراض الملكة السياسية المستقبلية. والذي يبدو أنّ ماوية وابنتها قد تعرفتا على وكتور (فكتور) من خلال قيادته لفرسان الامبراطورية في المشرق أو من خلال المفاوضات التي قادها نيابة عن والنس، أو من خلال الاثنين معاً. ويرى عرفان شهيد أنّ هذا الزواج تم كنوع من الثقة تضاف إلى توقيع المعاهدة وليس رضوخاً لطلب روماني يحتفظ بالأميرة كرهينة لدوام المعاهدة. كما يرى شهيد أنه لا يمكن استبعاد علاقة عاطفية بين الإبنة ووكتور، كما يمكن أن تكون الأم والبنت قد رأتا في وكتور كفاءة نوعية عالية بوضعه الوظيفي والاجتماعي وكفارس يكافئ وضع الأميرة ابنة الملكة التي كانت تتقن فنون الفروسية. ولا ندري إن كان وكتور (فكتور) حينها أرملاً أو عازباً.

ويعتبر تتويج هذا الزواج نجاحاً سياسياً لجهودها في تحسين العلاقات مع بيزنطة؛ بدءاً من نقض المعاهدة التي وقعها زوجها، إلى إعلان الثورة، إلى الانتصارات العسكرية التي حققتها على الرومان، وإلى الاستجابة لشروطها بتنصيب موسى أسقفاً أرثوذكسياً على العرب، إلى الصلح وعقد المعاهدة من جديد. وهذا ما حدث فعلاً، إذ تم إعادة العلاقات العربية البيزنطية إلى التطبيع حيث وصلت إلى مستوى ممتاز من التعاون، بحيث وافقت ماوية على إرسال قواتها للمشاركة في معركة هادريانابولس (أدريانوبل/ أدرنة) والدفاع عن القسطنطينية عندما ضرب القوط حصارهم العنيف عليها.

تقلد وكتور قيادة قوات الفرسان في الجيش الأمبراطوري الروماني لعشرين عاماً (من 363م حتى تقاعده سنة 383) حيث كان مشهوداً لقيادته طوال هذه المدة، وشكلت كتائب الفرسان العربية جزءاً من قوات الخيالة الامبراطورية في المشرق تحت قيادته. ومثلت هذه الكتائب اهتماماً خاصاً له من خلال اختبار قدراتها القتالية. لذلك اعتقد وكتور بالعمل على مراعاة ما يريده هؤلاء العرب الذين زودوا الجيوش الرومانية في المشرق بما كانت تحتاج إليه من عناصر هذه القوة. من جانب آخر وثق والنس بوكتور ليس كعسكري فقط وإنما أيضاً كسياسي ومفاوض دبلوماسي ناجح مع الفرس والقوط ومع ماوية. ويعتقد أنه فعلاً من أقنع والنس بعقد معاهدة السلام مع ماوية، وأنه من جند فرقة الخيالة العربية للحرب ضد القوط في تراقية. لذلك رأى وكتور، من جانبه ايضاً، بزواجه من ابنة ماوية تعضيداً وتسهيلاً لاستمرار العمل بالمعاهدة، وذلك من أجل مصلحة بيزنطة، إضافة إلى رغبته المحتملة بالزواج من أميرة شابة وجميلة. بذلك توج هذا الزواج إعادة العلاقات الطبيعية بين العرب وبيزنطة وذلك بعد تسوية الخلافات المذهبية والسياسية بينهما.

قاد وكتور قوات فرسان يوليانوس سنة 363م خلال حملتة الفارسية، وهناك تعامل مع عرب التحالف فعرف طباعهم وقدر كفاءاتهم القتالية كفرسان خيالة، وربما كان قد التقى بالحواري والد زوجته المستقبلية، كما شهد ما آلت إليه سوء علاقات العرب مع يوليانوس نتيجة لكبرياء وخيلاء الأخير ونظرته الدونية إلى العرب، وإيقاف مستحقاتهم وجعالاتهم كما روى بعض المؤرخين، مما أدى إلى تغير موقف العرب من الرومان. ويمكن أيضاً أن يكون زواج وكتور الأرثوذكسي المذهب من الأميرة العربية الأرثوذكسية قد جاء لنزع عنصر الشك من قلوب العرب، وأنَ زواجه منها يعني تشريف بيزنطة للمعاهدة. وكان وكتور رغم الخلاف المذهبي بينه وبين والنس يتمتع بثقة الأخير كقائد عسكري ورجل دولة شهد سوء العلاقات مع عرب التحالف في عهدي قسطنطيوس ويوليانوس. لذلك يرجع إليه الفضل في إنهاء الحرب ووضع المعاهدة في عهد والنس وإعادة العلاقات إلى مسارها المعهود. وقد كان من نتائج المعاهدة جبهة هادئة ضد الفرس وتجنيد فرقة من الفرسان العرب في الحرب ضد القوط، إضافة إلى إعادة المجندين العرب إلى الجيش الروماني في المشرق. وقد عد كل ذلك ميزة سجلت لوكتور (فكتور) كخادم أمين للامبراطورية، وكذلك للأرثوذكسية.

كان وكتور نسيب ماوية من أكثر ضباط الجيش الروماني الكبار تميزاً واتزاناً في القرن الرابع، كما أثبت أنه رجل دولة خدم الامبراطورية، وبنفس الوقت خدم الأرثوذكسية، وحاز خلال خدمته الطويلة الرضى عن أدائه المميز؛ فرغم أرثوذكسيته نال رضا الامبراطورين الأريوسيين قسطنطيوس ووالنس، وعلى رضا يوليانوس الوثني. وقد استمرت خدمته مع ستة أباطرة (من قسطنطيوس إلى ثيودوسيوس) وشارك في حروب بيزنطة على الجبهة الفارسية وضد القوط فكان أداؤه متميزاً. كما أنه كلف بالتفاوض مع

القوط مرتين ومع الفرس ثلاث مرات، ومع ماوية حتى تم وضع المعاهدة. وقد حمل العضوية القنصلية سوية مع والنس في عهد والنتينيانوس شقيق والنس سنة 369 م.

ظهر وكتور في مختلف المصادر التاريخية كمسيحي تقي ورع وكأرثوذكسي متحمس، ويذكر له أنه دعم أرثوذكسية كابادوكية، واستمر بتقديم الدعم للكنيسة الأرثوذكسية حتى بداية الثمانينيات من القرن الرابع، واستمر بدعمه حتى بعد أن بدأت مذهبية الدولة تتحول إلى الأرثوذكسية على يد الإمبراطور الجديد ثيودوسيوس.

اندمج وكتور بأصوله البربرية[1]، بشكل كامل في النظام الروماني، فاعتنق المسيحية، ومثل ضابط الاتصال بين السلطة والكنيسة ونجح في إعادة التطبيع إلى العلاقات العربية البيزنطية، وظل يمثل وجهة النظر العربية في البلاط الامبراطوري. لكن سرعان ما تغير الحال بعد تقاعده سنة 383 م، حيث أدى سوء العلاقات من جديد إلى الحد الذي قاد إلى إعلان ماوية لثورتها الثانية سنة 383 م.

مشاركة العرب في حروب بيزنطة ضد البرابرة القوط

أرسلت ماوية كتائب من قواتها، بناء على الطلب الروماني وكجزء من اتفاقية الصلح، إلى تراقية Thracia (وهي بلاد قديمة تقع إلى الغرب من البحر الأسود شمال بحر إيجة، وتتوزع الآن بين تركية وبلغارية واليونان) من أجل تقديم الدعم والمساندة للقوات الرومانية في حربها ضد تمرد قبائل القوط، عندما تمكنت جموع المتمردين القوط من دفع الفيالق الرومانية إلى الخلف نحو القسطنطينية، فنجحوا بهزيمة القوات الرومانية وقتل والنس في معركة هادريانابولس الشهيرة في التاريخ الروماني، فأصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً لولا تحصينات المدينة الهائلة، ووقوف المقاتلين العرب أمامهم ومنعهم من فتح المدينة والاستيلاء عليها. غير أنَّ ما درج على ذكره الكثير من كتبة التاريخ اللاتيني والغربي هو إظهار عمليات قوات ماوية بأنها كانت أقل في مستوى أدائها مما اعتادت علية في الصحراء أماكن تواجدها الطبيعية. وقد عادت القوات العربية بعد انتهاء المعارك إلى بلادها وقد فقدت أعداداً لا بأس بها، مما أدى إلى فشل ثورة ماوية الثانية من ضمن أسباب أخرى.

كان القرن الرابع قرناً صاخباً بالنسبة لتاريخ العلاقات البيزنطية والساسانية لفارسية، وكذلك البيزنطية الألمانية. فاستعاد الملك الساساني شابور الثاني المنطقة، من بلاد ما بين النهرين، التي كان استردها ديوقلتياتوس. واستمر الصراع مستعراً بين الطرفين حتى تم عقد معاهدة يوبيانوس سنة 363 م بعد أن قتل يوليانوس على الجبهة الفارسية. وجاءت قمة العلاقات البيزنطية الألمانية بتتويج انتصار القوط الغربيين في 28 آب 378 م في معركة هادريانابولس الفاصلة.

---

[1] – من: Sarmatia بلاد قديمة شعبها من السلاف، وتقع إلى الشمال من البحر الأسود بين الأورال والدون.

شارك العرب التنوخيون (عرب الاتحاد) في القرن الرابع إلى جانب قسطنطين ويوليانوس في معاركهما ضد الفرس، وشاركوا إلى جانب والنس ضد القوط في تراقية وفي هادريانابولس وفي الدفاع عن القسطنطينية. إذ يمكن القول أنَّ اشتراك عرب التحالف إلى جانب الرومان ضد القوط قد مر بثلاثة مراحل؛ قبل معركة هادريانابولس وخلالها وبعدها. وقد كانت مشاركة العرب في المرحلة الأولى كما وصفها زوسيموس في تاريخه الجديد (HN, IV.21.22) حيث قدم والنس من أنطاكية إلى تراقية لملاقاة القوط، فأرسل كتيبة من الفرسان العرب المشاركين في الحملة لمواجهة القوط وهزيمتهم. وقد شرح زوسيموس سبب انتصار العرب في هذه المعركة حيث كان هجومهم وهم على خيولهم ورماحهم الطويلة التي كانت تؤمن لهم طعن أعدائهم وهم على مسافة آمنة إلى خسارة الكثير من قوات القوط مما أدى لانسحابهم عبر الدانوب أمام اندفاع الخيالة العرب في متابعة مطاردتهم. وربما يعود الفضل في ذلك إلى اجتماع عناصر ثلاثة للمقاتلين العرب، هي: الفَرَس والفارس والسلاح. وتعد هذه الرواية من زوسيموس كمؤرخ شهادة واضحة لا تحتاج إلى تفسير. أما المرحلة الثانية فهي التي شارك العرب فيها وخسروا الكثير من مقاتليهم خلال المعركة. وأما الثالثة، التي جاءت بعد سقوط هادريانابولس بأيام قليلة، حيث يروي أميانوس في (Res Gestae, XXXI.16.5-7/ المصنف التاريخي) أنَّ مساهمة العرب الذين كانوا يشكلون كتيبة من الفرسان الخيالة بتشكيلاتهم القتالية التكتيكية على شكل مثلث رأسي تندفع بسرعة إلى الأمام ثم تتوسع تدريجياً لفتح ثغرة في جبهة العدو لفك الحصار عن القسطنطينية. غير أنه لم يشر إليهم كعرب ماوية وإنما كسرقينيين، بل أشار إلى كتيبة الفرسان بأنها شرقية، وأنَّ فك الحصار وهزيمة القوط لم يكن نتيجة لجهدهم الجماعي، ولكن لما أقدم عليه أحد المقاتلين السرقينيين بشرب دم مقاتل قوطي بعد قتله. ونتيجة لذلك شعر القوط بالرعب وفقدوا ثقتهم بأنفسهم، إضافة إلى يأسهم من إمكانية فتح المدينة المحصنة؟ وقد يرى البعض تضميناً مبطناً لمساهمة العرب في هزيمة القوط في هذه الرواية. وفي حين وصف المؤرخون الكنسيون أنَّ الدفاع الناجح عن القسطنطينية يعود بجزء منه إلى مساهمة الكتيبة العربية ومليشيات المدينة، يأخذ أميانوس بالتحدث عن السرقينيين والشرقيين فقط، بما يوحي إلى طمس هويتهم عن عمد.

تظهر روايتا أميانوس كمؤرخ عسكري ووثني، وزوسيموس كمؤرخ مدني ووثني، وصف الهجمات العربية التي كانت تتخذ شكل الاندفاع المثلثي الرأس حيث يبدأ بالاتساع مع سرعة الهجوم الخاطف بتقدم الخيالة العرب المدرعين برماحهم الطويلة ضد القوط، وليس كمقاتلين بالسيوف والنبال. إلا أنَّ الإثنين أغفلا هوية هؤلاء المقاتلين كمتحالفين عرب ومسيحيين.

توصل الامبراطور الروماني الجديد ثيودوسيوس إلى عقد اتفاق مصالحة مع القوط؛ فقدم لهم العديد من المناصب داخل المؤسسة الرومانية على حساب حلفائه من العرب. فشعر العرب أنهم خدعوا بشكل كبير بعدما أظهروا ولاءهم للرومان. لذلك، استجمعت

ماوية تحالفاتها من جديد وبدأت بثورة جديدة سنة 383م. لكنها أخمدت سريعاً، لأنّ الفيالق الرومانية لم تعد منشغلة بالتصدي للقوات القوطية في الغرب أو القوات الفارسية في الشرق. إلا أنه من غير المعروف إن كانت ماوية قد قادت قواتها بنفسها هذه المرة أم لا؟ حيث لم يذكر خبر ذلك؟ بذلك انتهى التحالف التنوخي الروماني او بالأحرى التنوخي البيزنطي، لأن القسطنطينية بدأت بترتيب أوراقها ومغازلة قبيلة أخرى قوية في المنطقة، وهي قبيلة صالح التي شاركتها في القضاء على التحالف التنوخي.

كان من نتائج معركة هادريانابولس التي وقعت في 28 آب سنة 378 م أن أدت إلى تحطيم الامبراطورية الرومانية في الغَرب في القرن الخامس عندما نجح القوط باجتياح روما سنة 410م، ثم نجحوا تدريجياً في إنشاء ممالكهم فيما بعد وعلى مدى قرون ثلاثة تالية. بينما استمرت التجربة البيزنطية مع العرب خلال القرون التالية قبل انطلاق عرب شبه الجزيرة العربية لإنهاء الوجود البيزنطي- الروماني في المشرق. لذا كانت المشكلة العربية في الشرق متوازية مع الألمانية في الغرب من خلال أدوار هذين الشعبين كمطرقة تقع ضرباتها الموجعة على روما، وفيما بعد على القسطنطينية، في محيط البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشرق، إذ يمكن أن يعد ذلك كتجمع للعاصفة التي ستأتي على روما وبيزنطة لاحقاً. لذلك ارتبط التاريخ البيزنطي بشكل مباشر، وإلى حد ما ودون انقطاع، بضربات المجموعات الرئيسية الثلاث في القرن الرابع والقرون التي تلته: الألمان والعرب والسلاف.

كان العرب بشكل عام، وعرب التحالف بشكل خاص، مقاتلين محترفين، ممتطين، ومغيرين. وربما مثلت لهم الحرب نوعاً من المثابرة أو الصناعة الوطنية في عصر ما قبل الإسلام، والتي اتصفت بصفات البطولة والبسالة والشرف. وقد نجحت روما ومن بعدها بيزنطة باسيتعابهم في خدمة الوظيفة الامبريالية، فجندوا كوحدات فرسان سريعة الحركة ورشيقة في جيش المشرق الأمبراطوري، وعلى الجبهات الغربية أحياناً، وفي الحرس الامبراطوري، كما حدث في عهد والنس بمشاركتهم في محاربة القوط في تراقية. وقد وصلت وحدات عرب الاتحاد في الجَيش البيزنطي إلى قمة تطورها في القرن السادس حينما أثبتوا أنهم كانوا ذوي كفاءة تكتيكية واستراتيجية عالية في المعارك التي كانت تشارك فيها وحدات المقاتلين من الفرسان الخيالة.

من المفيد الإشارة إلى أنّ القوات الاحتياطية العربية كانت السبب الأساسي في هزيمة القوط أمام أسوار القسطنطينية، بعد حصارها مباشرة في أعقاب معركة هادريانابولس سنة 378 م. فقد وصف المؤرخ العسكري أميانوس أنّ أحد الجنود العرب قتل أحد القادة القوط ثم قطع رأسه وقام بلعق دمائه، مما أدى إلى إيقاع الرعب في قلوب القوط المحاربين فولوا الفرار! يأتي الإيقاع الضمني هنا ليقول أنّ الفعل متوحش، وأنّ هزيمة القوط هي نتيجة لتصرف فردي مستبسل على أفضل الوجوه، وبالتالي؛ فالمعنى من الرواية هو نزع مساهمة المقاتلين العرب في هزيمة القوط من سياقه العام.

سقوط عرب التحالف التنوخي

كان التنوخيون في القرن الرابع هم أول مجموعة عربية في التحالف العربي الذي خدم بيزنطة، حيث لم يطل المقام لهم بعد مشاركتهم الفعالة في المعارك الرومانية ضد القوط في تراقية وفي معركة هادريانابولس وفي الدفاع عن القسطنطينية. وقد تغلبت قبائل صالح على عرب التحالف التنوخي، إذ ظهروا عليهم بمؤازرة بيزنطة كقوة مسيطرة جديدة على عرب التحالف في القرن الخامس، وذلك من خلال انضمامهم للقوات البيزنطية ضد ثورة ماوية الثانية سنة 383م. ثم جاء دور الغساسنة بالسيادة على التحالف العربي مع بيزنطة في القرن السادس والثلث الأول من السابع.

لم يعن سقوط التنوخيين (الذين كانوا أقدم مجموعات عرب التحالف البيزنطي في خدمة بيزنطة خلال القرون الثلاثة التي سبقت مجيء الإسلام) في نهاية القرن الرابع، والذين كانوا يسَيدون على عرب التحالف البيزنطي، اختفاءهم تماماً أو انتهاء دورهم كمتحالفين مع بيزنطة في المشرق. إذ استمروا بالتحالف مع بيزنطة في القرن الخامس، ولكن ضمن سيادة بني صالح على عرب التحالف، كما استمروا بالتحالف مع بيزنطة في القرن السادس تحت قيادة الغساسنة. ولم يختف دورهم في المشرق حتى بداية الإسلام الأول الذي شكلوا ضمنه جزءاً مهماً من نظام الأجناد الأموي بالرغم من استمرار بعضهم على مسيحيته حتى أنهم شاركوا جيش الشام في القتال ضد جيش الخليفة في معركة صفين. وقد أسلم معظمهم في زمن الخليفة العباسي المهدي. إلا انَ مواجهتهم الأخيرة مع المهدي سنة 780م مثلت نهاية حضورهم كمجموعة عربية مسيحية شبه مستقلة في المشرق.

شكل التنوخيون من ضمن عرب آخرين قوة عسكرية مسيحية في حضورهم المشرقي في الربع الثاني من القرن السابع، فقاتلوا المسلمين إلى جانب بيزنطة تحت قيادة الملك الغساني جبلة بن الأيهم في دومة الجندل وفي معركة مؤته سنة 629 م، وفي معركة اليرموك والمعارك اللاحقة، وهم: جذام، تنوخ، لخم، وبَلقين، تغلب، إياد، ونمير. لكنَ أبو عبيدة صالحهم في حاضرتي قنسرين وحلب على دفع الجزية لمن بقي على مسيحيته. إلا أنَ الكثير منهم انضم إلى هرقل سنة 639 م عندما جرد حملة[1] فاشلة لاستعادة سورية. ومع هذه الحملة الفاشلة، انتهى تاريخ تنوخ والتنوخيين في أفق التاريخ البيزنطي.

أدى إعادة رسم السياسات في المشرق الروماني من قبل ثيودوسيوس الأول (379-395)، بعد المواجهات الدامية بين ماوية ووالنس، إلى إنحدار وسقوط التنوخيين. ولم

[1] - "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، ج2، ص 496: ".. وفيها سير أبو عبيدة بن الجراح جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي، فسلكوا درب بَغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول من سلك ذلك الدرب، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم لحق به مالك بن الأشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية، فسلموا وعادوا".

يكن هذا السقوط والانحدار نتيجة لرسم هذه السياسات العسكرية والسياسية فقط، وإنما أيضاً نتيجة للإصلاحات الإدارية وانعكاساتها في المشرق، إذ خطط راسمو هذه السياسات للقضاء على القوة التنوخية من خلال سياسات امبراطورية وثأرية لإعتقادهم أنّ تخاذل العرب وانسحابهم أدى لمقتل يوليانوس، حتى أنّ الكثير منهم اعتقدوا أنّ العرب هم فعلاً من كان وراء مقتله، وكذا لما فعلته ماوية خلال ثورتها الأولى بإهانتها لقوات المشرق البيزنطية.

انتهت المعاهدة[1] بين التنوخيين وبيزنطة بعد موت والنس في الوقت الذي صعد فيه ثيودوسيوس الأول إلى الأرجوان، والذي كان جندياً بارعاً اُستدعي من تقاعده في إسبانية بعد موت والنس، وكان يرى أنّ هؤلاء العرب التنوخيين يمكن أن يستمروا في إحداث المشاكل ضد الامبراطورية، لأنهم كانوا فخورين بنجاحاتهم في الحرب ضد القوط وفي الدفاع عن القسطنطينية وفي نجاحاتهم العسكرية ضد والنس. ولذلك بدأت الخلافات بين الإدارة الامبراطورية الجديدة وبينهم خلال المباحثات لوضع شروط المعاهدة الجديدة. وقد نجمل طبيعة هذه الخلافات التي تطورت خلال سنوات 379- 382 على النحو التالي:

1- لم يقبل عرب التحالف التنوخي أن يساوموا على مذهبهم الأرثوذكسي، بل بينوا أنهم مازالوا على استعداد للقتال من أجل ذلك، كما فعلوا في ثورتهم الأولى. فرغم قلة اهتمام ثيودوسيوس بالمسائل الدينية قبل تسلمه المنصب، إلا أنه أصبح من المهتمين المتحمسين للأرثوذكسية بعد صعوده إلى الأرجوان. فدعى ممثلي الأريوسية من القوط وبعض المجموعات التي تقف ضد المسيحية لحضور مجمع القسطنطينية[2] الذي انعقد سنة 381 م، دون دعوة ممثلين عن العرب الذين شعروا بالامتعاض وعدم الرضا، إذ رأوا أنّ من حقهم المشاركة خاصة بعد كل ما قدموه في معارك بيزنطة السابقة.

2- قاتل عرب التحالف من أجل مذهبهم الأرثوذكسي ضد والنس الأريوسي إلى جانب الدولة الامبراطورية ضد القوط الأريوسيين، وربما رأوا أنّ تجاهل الإمبراطور الجديد وتفضيل القوط عليهم بتعيينهم في المناصب العليا للدولة، وتجاهل دورهم ومشاركتهم في شؤون الامبراطورية، بالرغم من مشاركة الإمبراطور نفس مذهبهم الأرثوذكسي، أدى إلى شعورهم بعدم الرضا والتذمر، وربما شعروا أيضاً أنّ الإدارة الامبراطورية الجديدة تضمر الشر لهم.

3- كانت شروط معاهدة السلام مع القوط عام 382 تحابي القوط على حساب العرب، حيث بدا أنّ ثيودوسيوس يرتب لحل المسألة القوطية ليتفرغ لوضع حد لصعود التنوخيين الذي كان يراه ما يزال يشكل خطراً على مستقبل الدولة.

---

(1) – كانت المعاهدة المعقودة بين طرفين تنتهي آلياً بمجرد موت أحد الطرفين الموقعين عليها، ويصار إلى تجديدها إذا رغب الطرفان بذلك.

(2) – انظر الصفحات (205- 206) من عرفان شهيد في"بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، النص الإنكليزي.

4- التحريض المستمر ضد العرب واعتبارهم مسؤولين عن مقتل يوليانوس، والذي وجد أذناً صاغية من ثيودوسيوس.

5- من ضمن الأسباب المباشرة التي أدت إلى الثورة الثانية كانت الطريقة التي تعامل بها القادة العسكريون في المشرق مع العرب، حيث تم تعيين جميع القادة ومرؤوسيهم من غير العرب وخصوصاً في سلاح الفرسان لجيش المشرق. فقد ذكر زوسيموس أنَ تجاهل العرب وتحييدهم عن المراكز العسكرية الأولى والثانية قد عجل في حدوث الثورة الثانية، مثلما كان ذلك من أسباب الثورة الأولى. لذلك كان على العرب أن يتعاملوا مع إدارة بيزنطية ليست متعاطفة معهم، بل تتوجس منهم ومن طموحاتهم.

لم يكن للعرب صديق أو مناصر في المناصب العليا في المشرق إلا وكتور قائد القوات الامبراطورية في المشرق حينها، وكان قد ترك أنطاكية في 378 وتقاعد سنة 382. وعند قيام الثورة الثانية سنة 383 كان القادة الألمان الوثنيون في جيش بيزنطة هم من وقفوا ضد الثورة، وعملوا على وأدها دون تاخير.

وبينما عرف الكثير عن الثورة الأولى لم يعرف إلا القليل عن الثانية (معلومات موجزة)، إذ أشار باكاتوس إلى: أنَ السرقيين ثاروا فسحقوا وعوقبوا لثورتهم.

وفي هذا يمكن عقد المقارنة التالية بين الثورتين: الأولى والثانية:

1- كان العرب قادرين على إحراز النصر على والنس في الأولى لأنَ بيزنطة كانت تواجه مشكلتين بآن واحد: القوط والفرس، في حين كَان قد تم الاتفاق في الثانية مع القوط والألمان سنة 382 م، وكانت الجبهة الفارسية هادئة.

2- وجه عرب التحالف اندفاعهم ضد نفس المناطق والأقاليم في الثورة الأولى، كما اتبعوا نفس الاستراتيجية والتكتيك العسكري مدفوعين بنجاحاتهم السابقة. وكان القادة الرومان مستعدين للتعامل معها لأنهم درسوها مسبقاً.

3- كان عرب التحالف في الثانية أضعف بكثير منهم في الثورة الأولى، إذ كان ما تكبدوه من خسائر في معركة هادريانابولس وفي الدفاع عن القسطنطينية من أسباب هذا الضعف.

4- كانت هزيمتهم ومعاقبتهم في الثانية نتيجة لما جاسوه في المناطق التي كانت مسرحهم في الأولى، إضافة إلى اتهامهم بمقتل يوليانوس (ثأر وانتقام مؤجل). ولأنَ بيزنطة لم تعد بحاجة للتحالف معهم، جاء وقت الانتقام منهم ليشفي غليل الثأر من الأولى التي ما زالت ذكريات المقاتلين الرومان عنها حية في أذهان القيادة البيزنطية.

5- كان قائد الحملة لإخماد ثورة ماوية الثانية هو القائد الألماني الوثني ريخومر Richomer الذي أثبت قدرته وولاءه بمحاربة بني قومه في هادريانابولس. وقد بالغ في رد فعله ضد العرب المسيحيين الأرثوذكس.

6- يعتقد أنَ ماوية قادت الثورة الثانية كما قادت الأولى. وما حدث لها بعد هزيمتها غير معروف على وجه الدقة. وإذا كانت الوثيقة اليونانية التي وجدت في خناصر بالقرب

من حلب تشير إليها، فإن الملكة ماوية إذاً، قد عاشت هزيمتها، وأكملت بقية حياتها كأرملة تقية ربما في دير منعزل خارج خناصر. لكن، كيف تغاضت الإدارة الامبراطورية عن تركها وشأنها، إذا سلمنا بصحة وثيقة خناصر،... يبقى جواب السؤال معلقاً!

كان من نتائج هزيمة التنوخيين حدوث تغييرات في بنية قوى التحالف العربي في منطقة المشرق وفي علاقاتهم مع الامبراطورية، فتراجعت قوة التنوخيين، وتعرضت البيئة القبلية إلى تبدلات جوهرية بعد تجاهلهم وإهمالهم من قبل الرومان. ومن الممكن أنَ قسماً من تحالف التنوخيين قد شد الرحال من جديد نحو الشرق للاستقرار والعيش فيما بين النهرين تحت مظلة اللخميين حلفاء الساسانيين الفرس. وربما كان من رحل إلى ما بين النهرين هم لخميو الجنوب، أحفاد ملك العرب امرئ القيس، من التحالف التنوخي العريض، وبعض من التنوخيين أيضاً.

دعا سقوط التحالف التنوخي إلى صعود محسوب، من جانب القسطنطينية، لبني صالح كمتحالفين جدد مع بيزنطة، حيث لم تسمح بيزنطة بصعودهم إلى مستوى يهدد الامبراطورية. ولما كانت تعديلات ثيودوسيوس التي أدخلها على ولايات المشرق عائدة في أسبابها إلى ثورة ماوية الأولى، وربما أيضاً إلى صعود تدمر قبل أكثر من مائة عام، فقد قام بفصل مصر عن المشرق، وتقسيم فلسطين إلى منطقتين، وفينيقية إلى ولايتين. وتم التنازل للفرس سنة 387 عن أربعة أخماس أرمينية، وذلك لأنَ ثيودوسيوس لم يستطع وقف الاندفاع الفارسي إلى أرمينية لأنَ العرب لم يعودوا يشكلون جزءاً هاماً من قواته على الجبهة الفارسية حينها. وقد حققت هذه الاتفاقية سلاماً مع الفرس لقرابة قرن، أدى بدوره إلى استقرار العلاقات العربية البيزنطية لبقية القرن الرابع وكامل الخامس.

سقط عرب التحالف من بني صالح في أعقاب ظهور تحالف عربي جديد هو تحالف العرب الغساسنة مع بيزنطة من نهاية القرن الخامس وحتى معركة اليرموك (636 م).

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه ويقتضي البحث والدراسة، هو: لماذا بقي سقوط التنوخيين مغلفاً بغموض شديد؟ تاريخياً، عرف عرب التحالف البيزنطي الذي تشكل في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ابتداءً من مكوناته العربية في القرن الرابع بسيطرة التنوخيين على هذا التحالف، ثم جاءت بعدهم قيادة بني صالح على عرب التحالف خلال القرن الخامس، إلى أن حسم عرب الغساسنة السيطرة لصالحهم في القرن السادس وأوائل السابع. وفي كل فترة من هذه الفترات الثلاث كان معظم العرب يسلمون بقيادة المسيطر. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَ عرب التحالف البيزنطي على مدى هذه القرون قد دانوا بالمسيحية وكانوا متحمسين لها. وما ثورة التحالف التنوخي بزعامة الملكة ماوية بين سني (375-378) ضد الامبراطور البيزنطي الأريوسي والنس إلا مظهراً من مظاهر التمسك بالعقيدة المسيحية والمذهب الأرثوذكسي. كما شاركت تنوخ في القتال إلى جانب القوات البيزنطية في معارك التحرير التي خاضها العرب المسلمون في القرن السابع، وخاصة في معركتي قنسرين وحلب، واستمروا بالمحافظة على ديانتهم المسيحية خلال الفترة الأموية، فوظفهم الأمويون في نظام أجناد بلاد الشام وهم على مسيحيتهم.

وبدأ وضعهم بالتحول في الفترة العباسية عندما زار ديارهم الخليفة العباسي المهدي (775-785) سنة 780م. ولم تجمع المصادر[1] السريانية والعربية على رواية موحدة في كيفية بداية تحولهم عن المسيحية إلى الإسلام؛ فمنهم من روى أنَ المهدي أجبرهم على التحول إلى الإسلام بالقوة والعنف، ومنهم من تحدث عن زواج المهدي بإحدى بناتهم الجميلات، وبعد فترة من الزواج تم تحريض الخليفة لإجبارهم بالترغيب أو الترهيب على الإسلام لما وضع أمام حقيقة أن يأتي أولاده وأخوالهم ليسوا على الإسلام. إذ تحتاج هذه الرواية إلى بحث جديد يبنى على مكتشفات مادية لاظهار الحقائق عن تاريخ تنوخ العام بما فيه العقائدي. وفي كل الأحوال، لعبت تنوخ دوراً مهماً في تاريخ المشرق العربي خلال خمسة قرون.

تجدر الإشارة إلى أنه خلال القرون الثلاثة (الرابع والخامس والسادس) لنظام التحالف العربي تبنى عرب التحالف في مجموعاتهم الثلاث المذاهب المسيحية التالية: الأرثوذكسية، النسطورية، والمنوفيزية.

وشهدت فترة نهاية القرن الرابع تأسيس مركز القوة العسكرية العربية في الحيرة في خدمة الامبراطورية الوثنية الفارسية؟ وكانت روما وفارس قد نجحتا في القرن الثالث بإنهاء المؤسسة العسكرية العربية في منطقة الهلال الخصيب؛ فقضى الفرس على حران وميسان، وقضى الرومان على الرُها وتدمر. فخرج من سقوط هذه الدول، التي أسست على المدن، العرب اللخميون في الحيرة وعرب تنوخ في خلقيس بالقرب من حلب. وللأسف، درج هذان الفريقان العربيان، بأصولهما اليمنية الواحدة من لخم وأزد، في عداء حربي استمر ما يقرب من ثلاثة قرون لصالح القوتين العظيمتين: الفرس والروم.

جاءت تعديلات ديوقلتيانوس للخطوط الدفاعية في المشرق الروماني في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع فجعلت من منطقة خلقيس وجوارها منطقة دفاعية رئيسية مقابل الجبهة الفارسية ووكلائها اللخميين وراء الفرات. كما كان طريق ديوقلتيانوس الممتد من الساحل الجنوبي للبحر الأسود حتى ساحل البحر الأحمر الشمالي من جهة الشرق ماراً بين النهرين وسورية، فشكل ممراً لخدمة المصالح الامبراطورية الرومانية الاستراتيجية. وكان الغرض من سياسة التحصينات الدفاعية الجديدة هو الوقوف ضد التحديات الفارسية والعربية في القرن الثالث. وجاءت تحصينات ديوقلتيانوس الدفاعية لتضع حداً للطموحات الفارسية–العربية، والعربية المستقلة التي مثلت تدمر زنوبيا فيها قوة استقرار عظيمة سيطرت على كل سورية الكبرى وآسية الصغرى حتى الدردنيل، إضافة إلى مصر. وبالنهاية أدى سقوط تدمر لهجرات عربية في المنطقة أدت إلى حركات اضطراب كان على روما أن تتعامل معها بنجاح. لذلك قام ديوقلتيانوس بإعادة رسم هذه الحدود على ما رأينا.

[1] – المصدران السريانيان: ميخائيل السوري (1199 م)، وابن العبري (1286 م). والمصادر العربية: البلاذري، اليعقوبي، وهشام الكلبي. انظر هشام الكلبي في " أخبار تنوخ".

سكن قسم من عرب التحالف الروماني- البيزنطي داخل الحدود المشرقية للامبراطورية، والقسم الآخر على أطراف الحدود الخارجية للامبراطورية: شمال، وشمال- شرق سورية بين الخابور ودجلة وسنجار في شمال وغرب بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) التي كانت تشكل مملكة العرب الأسروينيين قبل ضمها سنة 244 إلى الامبراطورية، فلسطين الجنوبية والنقب وسيناء، وجنوب ولاية العربية. ولذا، يمكن القول أنهم سكنوا على أطراف الحدود الامبراطورية الداخلية والخارجية. فكانت القبائل العربية المنضوية تحت عباءة التحالف العربي البيزنطي، والتي تسكن على الأطراف الخارجية تشكل درعاً خارجياً، بينما كانت قبائل التحالف داخل الحدود تشكل درعاً أكثر قوة وتنظيماً، فكانت مهمة الدرعين المحافظة على المشرق الامبراطوري الروماني- البيزنطي، في الوقت الذي كان فيه التأثير الامبراطوري واضحاً إلى حد ما في المناطق التي خارج الحدود الامبراطورية الرسمية.

وكان سقوط حران بيد شابور الأول في القرن الثالث، ثم استعادتها من قبل الرومان (تناوب الطرفان عليها) وسقوط الرُّها وتدمر بيد الرومان مسألة تستحق الدراسة والتحليل. حيث مثل سقوط هذه المراكز العربية الحضرية التي كانت تتحكم وتنظم عرب الفرس والرومان في هذه المنطقة سواء كانوا مقيمين أو متنقلين، درساً مستقبلياً لرؤية أوسع وأشمل قامت على عاتق وهمة وفروسية عرب الجنوب في القرن السابع.

موت ماوية

لم تتحدث المصادر اليونانية بشكل واضح وصريح عن ماوية بعد حصار القوط للقسطنطينية سنة 378م. غير أنّ وثيقتين يونانيتين وجدتا في خناصر؛ أحدهما داخل أسوار المدينة والأخرى خارجها. فقد اكتشف في بلدة خناصر Anasartha- الواقعة على بعد 55 كم جنوب حلب مع زاوية ميل صغيرة نحو الشرق تقريباً غير بعيد عن الفرات، والتي كانت تقع على تقاطع أطراف أقاليم العربية وفينيقية اللبنانية وسورية، وهي المناطق التي كان يقيم فيها عرب التحالف من تنوخ ولخم - وثيقتان يونانيتان[1] على شاهدين قبوريين:

1- النقش الأول مكون من خمسة أسطر من الشعر اليوناني على شاهد قبوري وجد خارج أسوار بلدة خناصر:

Anasartha: Martyrium Extra Muros

خناصر: المقام (المشهد) المقدس خارج أسوار المدينة

---

(1) - Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, VI, Dumbarton Oaks, Washington, DC.

أُرخ النقش بسنة 737 من التأريخ السلوقي الموازي لسنة 425 ميلادي. وأقيم المقام على شرف سيدة عربية باسم ماوية أو قريبة لها، وإضافة إلى ما ذكره النقش من فضائل هذه السيدة، فالوثيقة تحتفل بذكرى تكريس هذا المقام إلى صاحب القداسة القديس توماس (القديس توما). ويتحدث النص الشعري التبجيلي الموجود على النقش عن تاريخ سيدة عظيمة وليس عن حفيدة مجهولة، والتي ربما عاشت في عزلتها حتى بلغت الثمانينيات من عمرها سنة 425م. فرواية سوزومن التي تناولت انتصاراتها على الرومان ما زالت تروى شفاهة حتى القرن الخامس. لذلك، قد يكون النقش تعبيراً عن هذا الاحتفاء حيث حافظت ماوية على حبها لزوجها المتوفى سنة 375، إذ لم تتزوج بعده، وأنَّ ابنتها التي تزوجت من وكتور في النصف الثاني من عام 378م كانت في سن الزواج المبكر. إذ لو كان المقصود- في نص الوثيقة- حفيدتها لكان على النقش أن يحتفي بهذه الحفيدة كسيدة رومانية لأنها ابنة مواطن روماني هو وكتور.

ويعتقد أنَّ ماوية انعزلت في دير مهجور بعيداً عن الناس بعد هزيمتها في ثورتها الثانية. لذلك فإنَّ اسم ماوية ووجود النقش خارج الأسوار وصفات العفة والطهارة الضمنية بين سطور النقش، وفي المصادر الأدبية، كلها توحي أنَّ صاحبة التشريف هي على الغالب الملكة ماوية. كما يشير تكريس المقام إلى القديس توما إلى أنَّ تاريخ المسيحية العربية في هذه الفترة هو على الخصوص تاريخ مسيحية التنوخيين.

طاف التنوخيون أراضي بين النهرين من الحيرة إلى الشمال والغرب وذلك قبل عبورهم إلى الرومان على أطراف وغرب وجنوب الفرات ليصبحوا بعد ذلك حلفاء للرومان. والقديس توما (ليس القديس توما الراهب السوري الذي مات سنة 551م) كان الكاهن الرسولي المعروف في ميزوبوتاميا حيث أقيم له مقام مقدس في الرُها (إديسا) التي كانت عاصمة المسيحية الأولى في المشرق خلال فترة مملكة اوسروينة التي حكمها الأبجريون. وقد تحدث سقراط وسوزومن عن استمرار التنوخيين بتبجيله حتى بعد عبورهم الفرات نحو الغرب، ويبدو أنهم مثل غالبية القبائل العربية المقيمة فيما بين النهرين نظرت إلى الأبجريين في مملكة اوسروينة وعاصمتها الرُها كعاصمة ومركز رئيسي للمسيحيين العرب في تلك المنطقة. والتكريس في النقش يشير إلى استمرار الروابط الروحية التي ربطت بين التنوخيين وميزوبوتاميا واوسروينة وإديسا والأبجريين. ويمكن التأكيد، من قراءة النقس، على المناطق التي عاش بها التنوخيون؛ المناطق المحيطة بحلب وقنسرين وخناصر حتى الفرات شرقاً والعاصي غرباً. ويدل بناء المقام خارج الأسوار على أن العرب كانوا يفضلون الإقامة خارج أسوار المدن والمراكز الرئيسية لتكون موازية لإقامة معسكراتهم المفتوحة إلى الصحراء.

ويشير النقش إلى السنوات الأخيرة من حياة الملكة خصوصاً وأن المصادر الأدبية صمتت فجأة عن الحديث عنها بعد فشل ثورتها الثانية سنة 383. كما يشير النقش إلى أنَّ آخر عمل لها كان بناء هذا المقام المقدس. حيث يمكن القول أنها كانت أول ملكة عربية

تقوم ببناء مثل هذا المقام. وقد تبعها أخريات فيما بعد، حيث أقامت هند زوجة المنذر، الملك اللخمي حليف الفرس في الحيرة، مقاماً لدير مسيحي سمته "دير هند"[1].

وأخيراً، يمكن الاستنتاج أنّ النقش يشير إلى أنّ عرب التحالف التنوخيين لم يكونوا جميعهم قبائل مرتحلة وغير متعلمة ومثقفة، بل كان كثير منهم مقيمين حول المدن والبلدات الكبيرة، بحيث كانت أماكن إقامتهم هذه تؤمن لهم مراقبة وحماية حدود الامبراطورية الرومانية والبيزنطية من غارات وتسلل عرب شبه الجزيرة العربية، كما كانت تؤمن لهم الذوبان بسرعة في جوف الصحراء عندما كانت تقتضي الضرورة ذلك. ويشير النقش أيضاً إلى أنهم كانوا بنائين للكنائس والأديرة بحيث أقاموا استقراراً لتطور الحياة على الأطراف البيزنطية الشرقية، إضافة إلى ذلك، شكلوا قوة مسلحة سريعة الحركة والفعل أثبتت حضوراً جسوراً في النشاطات العسكرية.

2- النقش الثاني مكون من عشرة أسطر من الشعر اليوناني على شاهد قبوري وجد داخل أسوار مدينة خناصر:

Anasartha: Marytrium Intra Muros
خناصر: المقام (المشهد) المقدس داخل أسوار المدينة

تتحدث الأسطر الثلاثة الأولى من النقش عن سلوانوس Silvanus (سلفانوس) باني المقام المقدس على شرف بعض الشهداء المشهورين. بينما يتحدث القسم الثاني عن صفات العفة والطهارة لفتاة شابة باسم Chasidat (الاسم السرياني: حاصيتا Hasidta، أي الحريصة على عفتها، وتعني في الآرامية حرصا أو حريصة أو الحريصة). وتتحدث الأسطر 7- 10 عن ورع وتقى ديني وعظات أخلاقية: المجد لمن يضحي بدمائه، والنجاة ليست بالخطب والبلاغة والترنيم الوعظي والصلوات، وإنما المجد يأتي من خلال التغيير الحقيقي للحياة حسب تعاليم الكتاب المقدس.

وتعد الوثيقة ذات أهمية عظيمة في تاريخ العلاقات العربية البيزنطية. وهي لسوء الحظ غيرمؤرخة، وتظهربعض كلمات النقش المهمة مطموسة أومشوهة.

وتشير الوثيقة إلى شخصيتين، هما: سلفانوس وحاصيتا، لكنّ المؤرخين والدارسين لم يحددوا هاتين الشخصيتين بدقة حتى الآن، حيث كثر الجدل حول من كانتا. والكثير منهم يتحدث عن سلفانوس الضابط الروماني الذي تزوج من فتاة عربية. بينما يرى عرفان شهيد من مقارنة المصادر الأدبية والنقوش: أنهما وكتور وزوجته حريصة ابنة ماوية، واسمه الكامل هو فلافيوس سلوانوس (سلفانوس) وكتور Flavius Silvanus Victor. والنقش مؤلف من عشرة أسطر شعرية باللغة اليونانية؛ كل بيت منها يحتوي على ستة نغمات شعرية. وحسب رأي شهيد، الصفحة 213، من النص الإنكليزي في

[1] – انظر "دير هند الصغرى" و"دير هند الكبرى" في معجم البلدان، ج 2، الصفحتان (541 – 542).

كتابه "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، تم وضع اسم سلفانوس لأنه الوحيد بين الاسمين: الأول فلافيوس، والثالث وكتور الذي يتوافق مع ضرورة الشعر في السطر اليوناني في النقش.

فإذا كان سلوانوس (سلفانوس) هو وكتور (فكتور) وحاصيتا ابنة ماوية هي زوجته، يمكننا عندها أن نقول أنَّ وكتور وجد زوجته ميتة أو أنها كانت في حالة صحية مشرفة على الموت، وذلك عند عودته من القسطنطينية إلى المشرق، فقام ببناء نصب تذكاري، ربما بناءً على وصية منها، لتخليد شهداء العرب[1] من التنوخيين الذين سقطوا في المعارك التي خاضوها تحت قيادة والدها ووالدتها؟ ولكن، ألا يحق لنا أن نتسائل: هل يقوم وكتور المتقاعد وصديق العرب بتنفيذ مثل هكذا وصية لتخليد شهداء العرب، وهو من كانَ في الإدراة البيزنطية العليا؟

كرس المقام داخل الأسوار إلى عدة شهداء، وتركت أسماؤهم مجهولة. وربما قصد بهذا النصب تخليد كل الشهداء الذين ربما كانوا من عرب التحالف الذين استشهدوا في الثورة الأولى والثانية دفاعاً عن الصليب والأرثوذكسية، والذين قد يشكلون لائحة طويلة من الأسماء اقتضى عدم ذكر أسمائهم، وثانياً لتجنب مساءلة السلطات البيزنطية لأنها تعتبرهم متمردين وخارجين على الدولة.

تذييل: يمكن، من خلال سياق الأحداث، الاستدلال بتحليلها، وبربطها بتواريخ حدوثها أن نقدر تاريخ ولادة ماوية في سنة 340 م بزيادة أو نقصان سنتين إلى ثلاثة، وذلك من خلال معطيات زواج ابنتها "حريصا/ حريصة" بوكتور قائد الفرسان في الجيش الامبراطوري سنة 378 م، والتي كانت في مقتبل الشباب، وهذا يعني أنها ربما كانت في العشرين من عمرها بزيادة أو نقصان سنتين أو أكثر، مما يعطي التاريخ التقريبي لزواج ماوية من الملك "الحواري"، وهو العشرين من عمرها تقريباً. أي أنَ تاريخ ميلادها التقريبي يمكن أن يكون سنة 340 م، وأنَ زواجها تم بين 358 و 360 م تقريباً. وتشير الوثيقة الشعرية اليونانية المنحوتة على الشاهد القبوري التي وجدت خارج أسوار بلدة "خناصر"، والتي تحتفي بموت الملكة إلى تاريخ موتها سنة 425 م. فتكون ماوية قد عمرت ثمانين عاماً أو أكثر قليلاً.

---

[1] – انظر الصفحات (235– 238) من كتاب عرفان شهيد بالإنكليزية: "بيزنطة والعرب في القرن الرابع". انظر صورة الوثيقتين (النقشين) باللغة اليونانية على الصفحة التالية.

صورتان للوثيقتين (النقشان) اليونانيتين
الأولى: المقام خارج أسوار المدينة،
والثانية: المقام داخل أسوار المدينة [1].

Two Greek Inscriptions

I. Anasartha: *Martyrium Extra Muros*

One of the two Greek inscriptions that may be relevant to the history of the Tanūkhids was found outside the city limits of Anasartha in Syria, not far from the Euphrates:

[+ Γ]υναικείας φύσεως Μαυία [θαυμάσ-]
[ι]ον (?) ἄ[γ]αλμα, σωφροσύνης τε κ[αὶ εὐσεβ-]
[ε] ίας αὐτῆς καὶ φ(ιλ)ανδρίας κ[λέος (?), ἔκ-]
[τι] σεν ἁγίου μαρτύριον Θωμᾶ τ[οῦτο. χρ-]
[ό]νοις ἰνδικτιῶνος ι´ τοῦ ζλψ´ [ἔτους +]

The inscription is dated A.D. 425 (737 of the Seleucid Era) and the honorand is an Arab lady by the name of Mavia. In addition to the enumeration of her virtues, the inscription commemorates her erection of a *martyrium* dedicated to St. Thomas.

I- Anasartha: Martyrium Extra Muros

خناصر: المقام (المشهد) المقدس خارج أسوار المدينة

[1] ـ الصورتان مأخوذتان من كتاب عرفان شهيد " Byzantium and the Arabs in the Fourth Century / بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، ص: 222، 223

II. Anasartha: *Martyrium Intra Muros*

The second of these two Greek inscriptions was found within the walls of Anasartha:[22]

[Μ]άρτυσιν εὐύμνοισι πολύλλιτον ἄνθετο νηόμ,
[π]ολλὸν ὑπ' αἴθους, σήισι καὶ ἕρκεσιν εὔκτιτον ὧδε
[λα]μπρότατος Σιλβανός, ἀεὶ κρατέων ἐν Ἐρεμβοῖς·
[πά]ντα δ' ὑπ' ἐννεσίησιν ἀποιχομένης θέτο παιδός,
5 [πα]ντοίηισ' ἀρετῆισιν ἀοιδ<ιμ>οτάτης Χασιδαθης
[ἀ]μφὶ φύλαρχοι <οἶ>ον ἐῆς ἥνζευξαν ἄνακτες.
[Ὡς κ]αὶ πένθος ἔπαυσε τὸ πάτριον · οὐδ' ὑπ' ο[ἴωι τε]
[και]ρῶι, ὑφ' αἵματο<ς> ἐντὶ λαχεῖν γέρας, οὔχ[ι σέσωται ?]
[ὅστις] ὅσον ψαλμοῖσιν ἐπ' εὐχωλαῖς τε κο[ρέσθη ?],
10 [ἀλλ' ὅς] θειοτάτηισι γραφαῖς ἔχε μετα [νοῆσαι ?].

II-Anasartha: Martyrium Intra Muros

خناصر: المقام (المشهد) المقدس داخل أسوار المدينة

مقارنة بين ماوية وزنوبيا

اقترب العديد من الدارسين المحدثين من ماوية ضمن دراسة تاريخ الملكات العربيات المحاربات اللواتي سبقنها، واللواتي كان من أشهرهن زنوبيا ملكة تدمر. فقد سجل استاذ التاريخ العربي قبل الإسلام في جامعة جورج تاون الأمريكية عرفان شهيد أنّ هاتين الملكتين وصلتا إلى مضائق البوسفور وحدود بيزنطة. ولاحظ شهيد أن غياب ذكر وصول ماوية إلى البوسفور في تاريخ زوسيموس كان قد تم تجاهله عن عمد، فقد كان زوسيموس على اطلاع كامل بما كتبه ودونه سوزومن وسقراط القسطنطيني. لذلك استنتج شهيد أنّ التجاهل كان مقصوداً من قبل زوسيموس[1]، وذلك لأنّ روايته عن وصول ماوية إلى البوسفور إن وردت ستكون متناقضة وغير متوافقة مع فرضيته عن الأسباب التي أوردها في "التاريخ الجديد Nova Historia"عن انحدار وسقوط الدولة الرومانية[2] التي أرجعها في تاريخه إلى عاملين رئيسيين: المسيحية والبربرية، واللتين تزامنتا مع حكم الامبراطور قسطنطين الكبير (305-337) وإصلاحاته. وقد ناقش شهيد في "روما والعرب"، الفصل الثامن، ص 202 من الترجمة العربية، أنّ الحذف كان مقصوداً في رواية زوسيموس، فقال: ".. من غير المتوقع أنّ زوسيموس أراد كتابة رواية موسعة عن ماوية، حيث تبرهن حالة زنوبيا على أنه لو أراد أن يكتب عنها لكتب ما يجدد هوية السرقينيين بمآثرهم التي وصفها، وذلك بإلباس زنوبيا ثوباً جديداً بجعلها مسيحية وبربرية بآن واحد، وربما يبتعد أكثر بجعلها موالية لروما لما حاربت من أجله، وهذا ما تجنب روايته عن قصد عن مآثر ماوية. ولذلك بينت حالة ماوية للقارئ ما كانت عليه الملكات العربيات من رؤية جديدة منجذبة لامبراطورية برباطها المسيحي. وبذلك أُبطلت فرضية زوسيموس الذي كان يؤسس عليها في التاريخ الروماني لما بعد قسطنطين: أي أنّ الانحدار الروماني بدأ بسبب من التطبيعين البربري والمسيحي. وجاءت المفارقة الجادة بين تاريخ الملكتين العربيتين- انتمت الأولى إلى عالم القرن الثالث الوثني وغير الموالي لروما، بينما انتمت الثانية إلى عالم القرن الرابع، الجديد والموالي لروما- ونسب نجاحها إلى نجاح التجربة القسطنطينية (نسبة لقسطنطين الكبير).ولذلك أبطلت فرضيته بطمسها للحقائق ذات الصلة، كما طمست عن عمد حقائق ثابتة عن فيليب العربي لأسباب كثيرة متشابهة".

---

(1) – Zosimus: مؤرخ يوناني كتب مؤلفه المسمى"تاريخ زوسيموس الجديد" والمكون من خمسة أجزاء، جاء فيه على تاريخ روما والرومان منذ تأسيس روما حتى 410 م. وكان متعصباً للوثنية، فطعن في المسيحية والمسيحيين طعناً شديداً. وأسس تاريخه على فرضية الانحدار الروماني بسبب التحول من الوثنية الرومانية إلى المسيحية، وإفساح المجال أمام البربرية في الامبراطورية.

(2) – انظر كتاب عرفان شهيد "روما والعرب"، الفصل الثامن، ترجمة قاسم سويدان، حيث يدرس المؤلف مواقف زوسيموس المتعددة عن رؤيته التي عزا فيها أسباب السقوط الروماني بشكل أساسي إلى الديانة المسيحية، وعدم الالتزام بالديانة الوثنية الرومانية، إلى جانب أسباب اخرى من ضمنها؛ دخول البرابرة بشكل كثيف للمشاركة في الإدارة الإيطالية الرومانية للامبراطورية.

1- لم يذكر التاريخ والأعمال الحديثة التي تناولت أحداث القرن الرابع حياة الملكة ماوية كما ذكرت أعمال زنوبيا وحروبها ومآثرها في القرن الثالث، إذ يظهر أنَّ المؤرخين حينها لم يتحدثوا عنها بشكل كاف ودقيق، بل ربما تجاهلوها عن عمد أو اهمال.

2- دخلت ماوية المسرح التاريخي، والكنسي على وجه الخصوص، كملكة عربية ثائرة تمردت على الامبراطورية البيزنطية لأسباب دينية وسياسية يمكن اعتبارها مرحلية أو كأهداف تكتيكية وليست استراتيجية. إذ لم يكن واضحاً ماهي النهايات التي خططت ماوية للوصول إليها، إلا أن تكون قادرة على انتزاع اعتراف روماني - بيزنطي بمشاركة عرب التحالف في جزء متواضع من الغنيمة الامبراطورية. بينما طورت ملكة تدمر زنوبيا رؤاها الاستراتيجية للعمل على إنشاء دولة امبراطورية تضم الطيف العريض العام لشعوب المشرق القلقة في سورية الكبرى وشمال شبه الجزيرة العربية وشمال مصر، من أجل أن تقف على قدم المساواة مع روما وفارس.

3- لم يكن عرب التحالف علماء لاهوت، ولكنهم بكل بساطة أيدوا قساوستهم وأساقفتهم، فكان ولاؤهم لهؤلاء كما كان ولاؤهم لشيوخهم ورؤسائهم وملوكهم في الحروب. وهذا يدل على أنَّ قَسمَ الوفاء والولاء القبلي والحربي قد ارتبط أيضاً بالولاء والوفاء الديني، وكما كان هذا الولاء والوفاء عاملاً مهماً من عوامل نجاح ثورة ماوية، فسيكون هذا أيضاً عاملاً مهماً وحاسماً سيرتبط بقوة لا تنفك بينهم وبين الدين الجديد الذي بزغ فجره في مطلع القرن الميلادي السابع. بينما كان قسم الوفاء والولاء القبلي والحربي الذي قدمه التدمريون لملكتهم زنوبيا يعتمد بالأساس على مدينة- دولة تمكنت من بناء مؤسستها الحاكمة على أسس إدارية وعسكرية امبراطورية نجحت في فرض سيطرتها على كامل الشرق القديم تقريباً ولو لفترة بسيطة في تاريخ القرن الثالث.

4- كانت المؤسسة المسيحية الأرثوذكسية لعرب التحالف بقيادة التنوخيين مفتاحهم للتعاون والمشاركة أو الرفض، إذ لم يشاركوا إلى جانب قسطنطينوس الأريوسي، وحاربوا والنس، ولم يشاركوه حربه ضد القوط إلا بعد استجابته لشروطهم في عقد معاهدة السلام. في حين كان تحالف تدمر مع الرومان تحالفاً مرحلياً يمهد لتنفيذ تخطيط طموح لتأسيس امبراطورية خاصة تجمع شعوب المنطقة من أجل أن تقف على قدم المساواة مع الفرس والرومان.

5- كان إصرار ماوية على تنصيب أسقف عربي يعني ضمنياً رغبتها في تأسيس الكنيسة العربية الناشئة، وهذا يعني أيضاً من ضمن ما يعنيه إحساساً وشعوراً بالهوية العرقية للمكلة والعرب، كما مثل لها التزام الناسك موسى بالأرثوذكسية حساً واقعياً بسلاسة التعامل معه أكثر من التعامل مع أسقف أنطاكي إغريقي أريوسي آت من أنطاكية التي جعلها والنس مركز عملياته العسكرية الأساسي في المشرق. لذلك نستطيع القول أنَّ ماوية وعربها شاركوا في حياة الامبراطورية الدينية والعسكرية والثقافية. في حين كانت الوثنية تشكل ديانة التدمريين، ولكن دون تعصب لهذه الديانة. حيث كانت حرية المعتقد

الديني مشهودة في حياة المجتمع التدمري، وفي الوقت نفسه كانت الوثنية الرسمية تتعايش مع اليهودية والمسيحية بجو من السماحة والقبول. كما شهد بلاط زنوبيا مساجلات حرة في المعتقدات الوثنية واليهودية والمسيحية، حتى أنَ بعض المؤرخين أشاروا إلى اعتناق زنوبيا الديانة اليهودية، مع أنَ الأدبيات الدينية اليهودية تتهم زنوبيا بمعاداتها لليهودية، وهذا يعني أنَ الإشارة ليست على قدر من المصداقية لمناقشتها.

6- يمكن القول أنَ ماوية كانت أول من وضع اللبنات الأولى لما يمكن أن يطلق عليه "الكنيسة الوطنية العربية"، بعد أن كانت جميع أسقفيات المشرق العربي وكذلك أسقفيات الشرق غير العربي بآسية الصغرى تابعة لبطريركية أنطاكية، إلى أن تم اكتمال مؤسساتها خلال فترة القرون التالية. فمؤسسوها على الغالب كانوا من عزب التنوخيين وملكتهم ماوية وأسقفهم موسى.

7- لم يستطع الرومان هزيمة ماوية لأنَ حركتها كانت كالسراب، بحيث لم يكن جيش المشرق الامبراطوري قادراً حتى على القبض على ريحها في ثورتها الأولى، غير أنَ أسلاف الجيش الروماني كانوا قادرين على حشد عسكري هائل لملاقاة زنوبيا في معارك ثابتة أدت إلى هزائم متتالية لتدمر.

8- بينت سير الحروب التي أشعلتها ماوية ضد الرومان نفس النتائج التي بينتها دراسة المقاطع الواضحة في وثيقة النمارا بشعور الملك العربي امرئ القيس، ملك كل العرب، بالفخر والاعتزاز بانتمائه العربي وليس بالوطنية الرومانية (مع أنَ الهوية العربية حينها لم تكن على قدر كاف من الوضوح بحيث يمكن إطلاق هذه الصفة عليها). وبينت سير الملكة العربية التدمرية زنوبيا اعتزازها وشعورها بالفخر بمحاربتها للرومان والامبراطور الروماني أورليانوس، حيث يمكن العودة إلى رسالة[1] التحدي التي وجهتها زنوبيا، والتي وردت في "التاريخ الأوغسطي: سير الأباطرة الرومان" رداً على رسالة أورليانوس لها بالإستسلام.

9- بسقوط تدمر، المؤسسة العربية الحضرية العسكرية المقيمة في سهوب بلاد الشام، أصبح الرومان وجهاً لوجه أمام عالم شبه الجزيرة العربية بقبائله العربية المضطربة والقلقة. وكان سقوطها دافعاً للمجموعات العربية بالنكوص إلى البداوة الغالبة في المنطقة. بينما تم استيعاب عرب التحالف في دور جديد في المسار الامبراطوري البيزنطي، وذلك بعد انتهاء دور التحالف التنوخي.

10- كانت المصادر عن عرب التحالف (الاتحاديين) خلال فترة حكم يوليانوس المرتد قليلة ومحصورة بمصدر تاريخي مدني واحد تقريباً هو أميانوس، بينما كانت غزيرة خلال فترة والنس. في حين أنَ المصادر التاريخية عن تدمر وزنوبيا كانت غزيرة إلى الحد الذي جعلت منها أسطورة عالمية خالدة ترتسم صورتها بين الواقعي والخيالي.

[1] - انظر نص الرسالتين (رسالة أورليانوس ورسالة زنوبيا) تباعاً على الصفحتين 316 و317.

11- بعد عقد الصلح، وبناء على طلب الرومان، أرسلت ماوية كتائب خيالتها لمساعدة الجيش الروماني في التصدي لهجمات قبائل القوط وللدفاع عن مدينة القسطنطينية، وذلك بعد انتصار القوط على الرومان في معركة هادريانابولس (Hadrianapolis) (Adrianople) الفاصلة في 28 آب 378م. وعلى العكس من ذلك انحل الجيش التدمري وطواه النسيان.

12- لو لم تكن الملكة ماوية أرثوذكسية (أسباب مذهبية)، لما اهتم المؤرخون الكنسيون بتسجيل مآثرها وكتابة رواية ثورتها في عهد والنس وثيودوسيوس، ولكانت مسيرتها قد طواها النسيان. بينما لم يستطع التاريخ اليوناني- اللاتيني تجاهل سيرة زنوبيا التي كان تأثيرها في تاريخ روما علامة بارزة من علامات التحدي الذي كاد ينجح في إنهاء سيطرة روما على المشرق.

13- كانت تجربة روما المرة مع تدمر قد جعلتها تتخذ خطوات ممانعة وذلك بعدم إعطاء فرصة لعرب التحالف بالصعود إلى المراتب العليا في الدولة وخاصة العسكرية منها حتى لا تكون هناك إمكانية لأن يطور أحدهم طموحات كبرى تتعارض مع السياسات الرومانية. مع ذلك، طور عرب التحالف خلال القرن الرابع طموحاتهم بظهور شخصيتين مهمتين، هما: امرؤ القيس وماوية. كما طور ملوك الغساسنة في القرن السادس طموحاتهم من خلال تحالفهم مع بيزنطة.

وكانت روما قد اعتمدت على العرب الأنباط، ثم على التدمريين من بعدهم للدفاع عن جزء كبير من المشرق بالدرجة الأولى ضد البرثيين والساسانيين الفرس، وضد الغارات الآتية من عرب الجنوب. وقد نشأ فراغ في منطقة المشرق بعد هزيمة تدمر، بينما امتد الدرع العربي الذي شكله عرب التحالف (تنوخ وصالح وغسان) لحماية حدود الامبراطورية من شمال المشرق حتى جنوبه حيث كان عملياً يشكل شعاراً لولايات المشرق.

14- عاصر، الشاعر التنوخي عمرو بن عبد الجن، والد امرئ القيس عمرو بن عدي في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع، وهو يشير في بيتين مما وصلنا من شعره إلى الرهبان والهيكل وعيسى بن مريم، كما تشير رواية سوزومن إلى النظم الشعري الشعبي المغنى[1] في تمجيد ماوية. وربما يعني هذا أنّ الإنجاز الثقافي والأدبي والفني لم يتعد الإطار الشعري مقارنة بالإرث الثقافي والفني العظيمين اللذين تركهما التدمريون، حيث ما نزال نقف باحترام وتذوق جمالي راق أمام هذه الأوابد الشامخة، وشعور بالحسرة على هذه الباقيات دون برامج تخطيط مادي تؤدي في فترة زمنية ليست طويلة إلى إعادة إعمارها بالصورة التي كانت عليها قبل ارتكاب جريمة تسويتها بالأرض في 272/ 373 م.

---

[1] - رواية سوزومن الذي استمع إلى الأشعار المغناة في منتصف القرن الخامس، وسجلها في كتابه " التاريخ الكنسي"، كانت قصائد مديح وإنشاد غنائي عربي منضوم نشيد بانتصارات ملكتهم ماوية على الإمبراطور البيزنطي والنس، وحافظت على انتقالها شفاهة حتى القرن الخامس. لكن للأسف لم يصلنا مما نظم منها شيء.

المصادر العربية

1- د. مصطفى العبادي: " تاريخ اليونان القديم"، مكتبة الأنجلو المصرية.

2- د. محمد كامل عياد: " تاريخ اليونان"، مطابع ألف باء الأديب- دمشق.

3- د. مفيد رائف العابد: "دراسات في تاريخ الإغريق"، جامعة دمشق.

4- الخوري عيسى أسعد: " تاريخ حمص- ج1"، المنشورات الجامعية - طرابلس- لبنان.

5- د. محمد محفل: " تاريخ الرومان"، دار غندور- لبنان.

6-د مصطفى العبادي: "مصر من الأسكندرالأكبر إلى الفتح العربي" مكتبة الأنجلو المصرية.

7- آيدوس بل: استاذ شرف علم البردى بجامعة اكسفورد في كتابه"مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي": دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها، نقله إلى العربية وأضاف إليه د. عبد اللطيف أحمد علي - دار النهضة العربية، بيروت.

8- أندريه ايمار وجانين أبوايه: "تاريخ الحضارة العام- روما وإمبراطوريتها": ترجمه عن الفرنسية يوسف وفريد داغر، منشورات عويدات- بيروت.

9- ياقوت الحموي: "معجم البلدان"، دار صادر- بيروت.

10- د. جواد علي: " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ج1، ج2، ج3- منشورات الشريف الرضي.

11- د. نبيه عاقل: "تاريخ العرب القديم وعصر الرسول"، سلسلة تاريخ العرب والإسلام.

12- القرآن الكريم: سور: الأنبياء، سبأ، النمل، ص، البروج، الفيل.

13- عبد الحميد همو: " بلقيس بين الحقيقة والأسطورة"، دار معد - دمشق.

14- زياد منى: "بلقيس لغز ملكة سبا"، دار قدمسق - دمشق.

15- " العهد القديم من الكتاب المقدس: التوراة"، (Bible Society).

16- أحمد سوسة: "العرب واليهود في التاريخ"، العربي للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق.

17- أحمد ربيع عبد المنعم: " بلقيس بين القرآن والتاريخ"، دار مشارق- القاهرة.

18- ابن الأثير: " الكامل في التاريخ"، دار صادر- بيروت.

19- خير الدين الزركلي: " الأعلام"، دار العلم للملايين- بيروت.

20- صفي الرحمن المباركفوري: " الرحيق المختوم"، دار الفيحاء- دمشق.

21- د. أحمد فخري: " دراسات في تاريخ الشرق القديم: مصر والعراق - سوريا واليمن"، الأنجلو المصرية- القاهرة.

22- مصادر التاريخ العربي الأولية: الطبري، المسعودين اليعقوبي، ابن الأثير، والهمذاني، الأصفهاني، الإكليل، وابن خلدون..

23- " سميراميس ملكة آشور وبابل"، جيوفاني بيتيناتو، ترجمة د. عيد مرعي، دار روافد للثقافة والفنون- دمشق.

24- الموسوعة السويسرية، المجلد الأول، مطابع الأهرام التجارية.

25- "هانيبعل/هانيبال"، ج 2، جورج مصروعة، دار المكتوب- بيروت (1959/1960).

26- كتاب "تراثنا"، الجزأين الأول والثاني، دار التراث - ليبية.

27- كتاب "تاريخ المغرب الكبير، الجزء الأول العصور القديمة"، د. رشيد الناظوري، دار النهضة العربية - بيروت.
28- " قرطاجة أو امبراطورية البحر"، فرانسوا ديكريه، ترجمة عز الدين أحمد عزو، تحقيق د. عبدالله الحلو، دار الأهالي بدمشق (1996/1997).
29- "القانون الروماني"، د. عكاشة محمد عبد العال، كلية الحقوق بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية، الدار الجامعية (1988).
30- " تاج العروس"، الزبيدي، ج7، ج28، إصدار وزارة الإعلام الكويتية.
31- " مجلة العربي الكويتية"، العدد رقم: 619.
32- " الفينيقيون وأمريكا"، فصول العالم، ترجمة وتحقيق د. عبدالله الحلو.
33- " المختصر في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الاحتلال البريطاني"، تحقيق وتعليق د. علي عبد المنعم شعيب.
34- عرفان شهيد : "روما والعرب"، ترجمة قاسم سويدان، دار كيوان بدمشق.
35- خالد الأسعد وفيين أوفه ويدبرغ هانسن: "زنوبيا ملكة تدمر والشرق".
36- محمد محفل: " دمشق: الأسطورة والتاريخ"، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية.
37- أبو سعيد الحميري: " الحور العين"، تحقيق كمال مصطفى، دار أزال- بيروت.
38- أحمد حسين: " موسوعة تاريخ مصر"، ج1، دار نشر..
39- " تاريخ الطبري"، ج2.
40- هشام الكلبي: "جمهرة النسب- أخبار تنوخ"، الذي أخذ ممن سبقه من المؤرخين العرب، أمثال: الطبري، المسعودي، الحموي، اليعقوبي، ابن قتيبة، ابن خلدون..
41- البلاذري: " فتوح البلدان".
42- القلقشندي: " صبح الأعشى".
43- عارف عبد الغني: " تاريخ الحيرة في الجاهلية والإسلام"، دار كنان- دمشق.
44- نينا بيغوليفسكايا : " العرب على حدود بيزنطة وإيران"، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون في الكويت.
45- رينيه دوسو: " العرب في سورية قبل الإسلام"، دار الحداثة- دمشق.
46- روم لاندو: " الإسلام والعرب".
47- ماتفييف: " تاريخ الآشوريين".
48- شمس الدين غوناثاي: " تاريخ الشرق".

المصادر الأجنبية

أهم المصادر عن رواية سميراميس الأسطورية هي رواية ديودوروس الصقلي المأخوذة عن رواية الطبيب الإغريقي كتيسياس:

1-The Library of History of Diodurus Siculus, published in Volume I of the Loeb Classical edition, 1933, book II. Also, the same Book II, translated by Edwin Murphy, 1989.

يحتوي الكتاب الثاني من" المكتبة التاريخية"على ستين فصلاً؛ بحيث تتحدث الفصول من الأول إلى الثالث عن نينوس وأعماله كأول ملك آسيوي. كما يتحدث الفصلان الرابع والخامس عن ولادة وطفولة سميراميس. بينما يروي الفصل السادس زواج الملك نينوس من سميراميس. وفي الفصل السابع رواية صعود سميراميس إلى العرش الآشوري بعد موت الملك. أما الفصول من الثامن حتى الثالث عشر فتتحدث عن بنائها لبابل وحدائقها المعلقة وعن إنجازاتها. وتروي الفصول من الرابع عشر حتى العشرين قصة حملاتها العسكرية على مصر وإثيوبية والهند. بينما تتحدث باقي فصول الكتاب عن كسل وترف وتبذير ملوك آسية اللاحقين، وعن حروب الميديين، وعلوم التنجيم عند الكلدانيين، وعن طبوغرافية الهند وغنى أراضيها، وعن السكيثيين وغيرهم من شعوب تلك الفترة، وعن الجزيرة العربية وأراضيها وأساطيرها، وعن اكتشاف الجزر في جنوب المحيط الهندي.

2-Edward Foryan, Legendary Mysterious Great Queen of Assyria.

3- The Illustrated Dictionary and Concordance of the Bible: The Jerusalem publishing house Ltd.

4- Berosus the Babylonian in his work "Babyloniaca".

وهو عن تاريخ بابل، ويقع في ثلاثة مجلدات، كتبها بيروسوس بين 290- 278 ق.م.

5- Cambridge Ancient History, Part III.

6- H.D. Guterbock, Babylonia and Assyria. ed. Vol. II.

7- Donald.A. Mackenzie, Myths of Babylonia and Assyria.

8- Strabo, Geography) سترابو "الجغرافيا"

9- Virgil, Aeneis, 1.338-368

10- Titus Livy, The Wars with Hannibal.

11- Polybius, The Histories of Rome.

12-Forum Romanorum: Justin 18-3f (contains Justin, 18.3-6, relating the .Early Story of Elissa in full)

13-Translation of Virgil`s Work including the Aeneas by AS. Kline.

14-Ovid`s Imagined Letter from Dido to Aeneas, trans. by Micealf. . Vaughan.

15- Appian, The Punic wars, Chapter 1.

16- Dido, Queen of Carthage, original texts, modernation, and discussion of Chaucer`s Legend of Dido in "The legend of Good Women", trans. by Sarah Jasmon.

17-The Tragedy of Dido, the Queen of Carthage, by Christopher Marlowe.

18- Theodore Ayrault Dodge, Hannibal: A History of the Art of War among the Carthagians and Romans down to the Battle of Pydna,1995.

19- Livy (Titus Livius) , The History of Rome, V III..etc.

20- John Prevas, Hannibal Crosses the Alps.

21- Peter Connally, Hannibal and the Enemies of Rome.

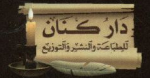
22- Appianus, History of the Syrian Wars.

.23- Bismark Otto Casapari`s Article (Encyclopedia Britannica)
24- A Study done by The Historical Department of the American Military academy.
25- Nathan Davis, Carthage ang the Romans.
26- Silicus Italicus, Punica, I.
27- James Parker, Comparing Strategies of the Punic Wars.
28- Roland Miller, The Roman Historians.
29- Marie Mackregore, The Death of Hannibal and the Story of Rome.
30- Julius Caesar: The pursuit of Power by Ernle Bradford, Hamish Hamilton, London, 1984.
31- Suetonius, Life of Caesar
.32- Plutarchus, Parallel Lives (Caesar and Marcus Antonius)
33- Dio Cassius, History of Rome
34 - Robertino Soarion, Apollonius of Tyana and The Shroud of Turin, Julia Domna, The philosophical Empress, 2005.
35 - Six Authors (Loeb Library) , Historia Augusta (The Scriptors (Historiae) , Severus 3.9, 18.8, and others (Zebobia, Aurelianus etc
التاريخ الأوغسطي (سير الأباطرة الرومان).
36- G.W. Boewrsock, Roman Arabia, Harvard Univesity Press,1983.
37- Barbara Levick, The Syrian Empresses (Series of Women of The Ancient World) , Paperback, 2007.
38- M.G.William, Studies in the Lives of Roman Empresses: Julia Domna, Julia Maesa, Julia Mammaea..
39- A. Birley, Septimius Severus: The African Emperor, New Haven, 1989.
40- G, Turton, The Syrian Princesses: Women who ruled Rome (ad 193-235) , London, Cassell, 1974.
41- Balsdon, Roman Women and Their History, London, 1989.
42- Eduard Gibbon, The Decline and the Fall of the Roman Empire.
43- Herbert Schaltz, Queen Zenobia`s last Look Upon Palmyra
44- Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, ISBN 0-88402-116-5
عرفان شهيد: "بيزنطة والعرب في القرن الرابع"، دومبا رتون أوكس.
45- Irfan Shahid, Rome and the Arabs, Dumbarton Oaks, Washigton DC.
46- Ammianus, Res Gestae, XIV, XXIII, XXIV…etc
أميانوس مرقلنيوس "المصنف التاريخي".
47- Zosimus, Historia Nova — زوسيموس: "التاريخ الجديد"
48- Sozomen, Historia Ecclesiastica — سوزومن: "التاريخ الكنسي"
49- Eusebius, Historia Ecclesiastica — أوسبيوس: "التاريخ الكنسي"
50- Socrates of Constantinople in His History
51- Sant Jerome in his Works
52- Sidney Smith Article, Bulletin of the School of oriental and African Studies.
53- J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt.
54- S. Davis, Relations in Ancient Egypt.
55-S. Freud, Moses and Monotheism.



لعبت ملكات من الشرق دوراً تاريخياً بارزاً في قيادة وتقرير مصائر أوطانهن عبر العصور والأزمان التاريخية القديمة حيث تقدم قراءة سير تاريخهن عبر تقلدهن أعلى مراتب السلطة، رؤية مشرقية امتد زمنها لفترات متقطعة بداية من القرن التاسع قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الرابع الميلادي، تحدت صاحباتها الصعاب والمحن، فحاولن الرد عليها بالنهوض بما حملن من طموحات لبناء دولهن. وقد وقفت كل واحدة منهن على مسافة قريبة من هدفها النهائي، إلا أنهن ما عدا بلقيس، انتهين بمأساة هزائمهن، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أنهن حاولن تحقيق حلمهن في إقامة وبناء دولهن في أزمان تاريخية تنازعتها إمبراطوريات عالمية ضخمة؛ الرومانية واليونانية والفارسية.

كانت بلقيس سيدة نساء عصرها وإحدى الملكات اللواتي عطرن التاريخ وأضفن عليه بهاءً لا يزال يثير الخيال حتى الآن في حين أن زنوبيا ملكة تدمر، وجوليا دومنا الحمصية وأختها جوليا سوميا، كما أليسا مؤسسة وملكة قرطاجة، والسورية سميراميس ملكة بابل وآشور، وكليوبترا ملكة مصر، كما ماوية ملكة التنوخيين؛ كلهن جئن من ماضي الشرق البعيد كما تجيء الأساطير، فتفوقن على الرجال، ونجحن في الحصول على تقدير واحترام ومحبة شعوبهن. وكان لهن مهارة الاندماج للصعود إلى أعلى درجات المسؤولية في الدولة، بحيث لم يتركن تأثيرهن على شعوبهن ومناطقهن فقط، وإنما على المحيط الدولي في أزمانهن.



ISBN 978-9933-480-40-7

